عصر المأمـــون

المجلـد الأول

أحمد فريد رفاعي

٢٠٢٥م

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
م. رزق عبد السميع أحمد

المشرف العام على النشر
إيهاب الملاح

كتب ثقافية

تم التنفيذ بمركز زايد للنشر الإلكترونى
بدار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل –
القاهرة – جمهورية مصر العربية

فريد الرفاعي، أحمد فريد الرفاعي، 000 – 1956.
عصـر المأمون / أحمد فريد رفاعـي – القاهرة: دار المعارف، 2025.
مج1 – ، 23.5 سم.
تدمك 2 9534 02 977 978
1 – العالم العربى، تاريخ – العصر العباسي الأول.
2 – المأمـون العباسـي، عبدالله بن هارون الرشـيد بن محمد المهدي بن ابى جعفر المنصور، ابو العباس، 786 – 833.
أ – العنوان
تصنيف ديوى: 953.04
رقم الإيداع: 3368/ 2025
رقم أمر التشغيل: 105/ 2024/ 1
رقم الكونجرس: 5 - 842105 - 01 - 2

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

كلمة العماد الأصفهاني

إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

العماد الأصفهاني

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسل الله. وبعد، فإني أتقدم بهذا الأثر الضئيل من «عصر المأمون» إلى أمتي، وإلى الناطقين بالضاد من أبناء لغتي، وآمُلُ بفضل إرشاد العلماء والنقاد أن يوفقني الله إلى إكمال النقص، وإصلاح الخطأ، وتلافي التقصير في الطبعات القادمة، معترفًا في صدق وإخلاص بأن طبعتي هذه لا تعدو أن تكون «محاولة» لكتابة التاريخ العربي على النظم العلمية الحديثة، وأنت تعلم أن تاريخنا العربي لا يزال - بلا مبالغة ولا إغراق - تعوزه شتى المصادر، كما يعوزه التنظيم والترتيب والتحقيق والاستقراء.

وإني أسأله تعالى أن يجعلني ممن يُذعن لكلمة الحق فيرعى حرمتها ويهتدي بهديها، غير مفتون بمدح المادح ولا مبتئس بقدح القادح.

كما أسأله أن يرشدني إلى المضيِّ موفقًا مسددًا فيما أخذت به نفسي من البحث عن عصور «معاوية» و«المنصور» و«الرشيد» و«عبد الرحمن الأندلسي»، وآمل بمعونته تعالى، وبإرشاد العلماء والأدباء ومعونة المستشرقين والباحثين، وبما يهب لي الله من صبر وجلد ومواظبة ومثابرة، ومتابعة للدرس والاستقراء، وبما أوفق إليه من مصادر ونصوص، ومراجع ومظانَّ، أن أكون عند الانتهاء من كتابة ما ارتهنت به - لو كان في العمر بقية - قد وفِّقت إلى تنظيم دراسة تلك البحوث تنظيمًا جزئيًّا يتفق ووسائلي ومقدوري، ويتمشى - إلى حد ما - والطريقة التحليلية الحديثة في كتابة

التاريخ، وأن يكون عملي حين ذاك مما يسمح لي أن أقول في ثقة وإيمان: إني قد قمت حقًّا «بمحاولة» ذات أثر نافع تمكن غيري من اتخاذها أساسًا لكتابة تاريخ المدنيات العربية الواسعة المدى، البليغة الأثر في الثقافات الإنسانية عامة، كتابةً تاريخية صحيحة.

وقد وقع «عصر المأمون» في مجلدات ثلاثة؛ خصصت أولها بالتاريخ وما إلى التاريخ، وثانيها وثالثها بالأدب وما إلى الأدب، واعتمدت في تلخيصي للشعراء فيهما على أمهات المظانِّ الأدبية، لا سيما كتاب «الأغاني»، وأعترف في صدق وإخلاص أن مهمتي في المجلدين الأخيرين لم تخرج عن مهمة المُتخيِّر لما في تلك العصور الزاهية من غُرر ودُرر، المُنقِّب عمَّا فيها من طُرف ومِلَح، المُلخِّص لحياة أدبائها وشعرائها، المحتفظ بعبارات المعاصرين وشيوخ المؤلفين عنها.

وقسمت المجلد الأول إلى كتب ثلاثة عالجت فيها البحث عن عصور بني أمية وبني العباس والمأمون، وقد توخيت الإيجاز في فذلكتي التاريخية عن عصري الأمويين والعباسيين؛ لأنهما بمثابة تُكأة وأساس لموضوعنا، كما لاحظت الاستمساك بالحيدة التامة وعدم التطوح مع أولئك المؤرخين والرواة الذين تأثروا بأهوائهم السياسية، ومعتقداتهم المذهبية، والذين نكبت بهم عن محجة الصواب مغالاتُهم في الانتصار لفكرتهم الحزبية.

وقسمت المجلدين الثاني والثالث إلى ملحقات للكتب الثلاثة عن العصور الثلاثة، نشرت فيها ما وسعه المقام من المنثور والمنظوم والنصوص الطويلة والمقالات المستفيضة، وعنيت عناية خاصة إلى جانب ذلك بذكر جملة صالحة من آثار كاتب خاص وشاعر خاص على أنهما نموذجان لتمثيل

عصرهما، واتخذتُ من عبد الحميد الكاتب وعمر بن أبي ربيعة نموذجًا أمويًّا، ومن أبي الربيع محمد بن الليث وبشار بن برد مثالًا عباسيًّا، ومن عمرو بن مسعدة وأبي نواس نموذجًا لتصوير الحياة الكتابية والشعرية في عصر الأمين والمأمون، إلى غير ذلك من النماذج والآثار مما يستدعيه المقام، فجاء المجلدان الثاني والثالث بذلك مكملين للمجلد الأول.

وأعتقد اعتقادًا راسخًا أنه لن يعترض عليَّ معترض لعنايتي بالعصر العباسي من وجهتيه التاريخية والأدبية، فلم يَعْدُ «عصر المأمون» عن كونه شطرًا يُحْفَلُ به من العصر العباسي، كما أعتقد أنه مما لا مندوحة لنا عنه لتفهم العصر العباسي أن نصوِّر لك العصر الذي قبله بما يسعه المقام، وهذا ما عالجناه لك في كتابنا بصورة متواضعة نأمل أن تكون فيها الغُنية والكفاية لما نروم تصويره.

ولقد عدلت عما كنت ذهبت إليه من بيان المصادر والمراجع في نهاية كل صفحة، رغبة في ألا أشغل نظر القارئ بما لا يُجدي عليه، وحرصًا على توحيد مجهوده في استيعاب الموضوع وتفهم شتى مناحيه، مُلْحِقًا في الوقت نفسه نهايةَ المجلد الثالث بيانَ مصادر الكتاب لمن أراد توسعًا؛ فتراجع ثمَّة.

وأحمد الله أن أبرز كتابي هذا في عصر النهضة الاستقلالية المصرية التي ازدانت برعاية مولانا المليك «فؤاد الأول» - حفظه الله - كما ازدانت بناصعة خدم أقطابنا وزعمائنا ذوي الصحف البيضاء، والآثار الخالدات الباقيات، وعلى رأسهم أصحاب الدولة الأجلاء، فقيدُنا المرحوم المبرور «سعد زغلول باشا»، والقطبان الخطيران: «عدلي يكن باشا» و«عبد الخالق ثروت باشا»، فهؤلاء الثلاثة قد وهب الله لهم أصالة الرأي، ونبالة القصد،

وثروة الذهن، وغنى العقل، وحباهم سدادًا في سياسة، وتواضعًا مع رياسة، وحكمة في كياسة، ونبوغًا مع ثقافة، وحزمًا في حصافة، وأمتعهم بثقوب النظر، ورَجاحة الفكر، وأفاض على أشخاصهم لينًا ودماثة، وسماحة ووداعة، حتى أجمع القوم على حبهم إجماعهم على الاعتراف بوافر فضلهم، والإشادة بعطر ذكرهم، وتسابقوا إلى الاستفادة من سديد مواقفهم، وحكيم صنعهم، ونزيه أعمالهم، استفادتهم من أفاويق عرفانهم، وفيض بيانهم، ومقنع برهانهم.

وهؤلاء الثلاثة قد نجحوا في تكوين الأمة من الوجهة السياسية نجاحهم في تكوينها من الوجهة القومية.

فاللهم رحمةً واسعة لزعيمنا الراحل الكريم، وعوضنا اللهم من خسارتنا الفادحة في فقْدِه، أحوج ما كنا إلى عظيم جهوده، وهَبْ اللهم حياة طويلة لقُطبينا محط الآمال ومَعقِد الرجاء.

وأحمده تعالى على أن دخلت البلاد عهدًا جديدًا من حياتها العلمية بزعامة وزير معارفنا الهمام، مرهف العزمات، مسدَّد الوثبات، صاحب المعالي «علي الشمسي باشا»، ومدير جامعتنا المصرية العالم الجليل الأستاذ «أحمد لطفي السيد بك»، وغيرهما من رجالات العلم والأدب في هذا الجيل.

وإنني أنتهز هذه الفرصة لأشيد بها للمرحوم الأستاذ محمد الخضري بك من فضل عظيم، ومعترفًا بها لصديقي الدكتور طه حسين، الأستاذ بالجامعة المصرية، من معونة قيمة في غير موضع من الكتاب، كما أنتهزها لأشكر لسادتي العلماء والأدباء ورجال الصحافة والمجلات حسن استقبالهم

لكتابي، كما أحمد لحضرات النقاد الأجلاء جميل تشجيعهم، وحكيم أخذهم الأمور بهوادة ورفق، معترفًا بصادق رغبتهم في الأخذ بناصر العلم والعلماء، قادرًا أعظم قدر روحهم العالية فيما دبَّجوه فأجادوه، وكتبوه فارتفعوا بعلم النقد عندنا عمَّا وُصم به أخيرًا من التطاحن والرماء، والجلاد والشحناء، والعمل على الهدم لا على البناء، كما أشكر لسادتي الأستاذين الجليلين: محمد عبد الوهاب النجار وعبد الخالق عمر، والكاتبين الأديبين: محمد الهيهاوي ومحمد صادق عنبر، حسن صنيعهم في تهذيب «عصر المأمون»، معترفًا بعظيم جهد ثانيهما اللغوي. أحسن الله جزاءهم.

وإني أخص بالشكر رجال دار الكتب المصرية، وعلى رأسهم حضرات الأساتذة محمد أسعد برادة بك، مدير الدار ذي الخلق الوديع والهمة الشماء، وأحمد زكي العدوي أفندي، رئيس القسم الأدبي بالدار وصاحب الهوامش الحسان، وعبد الرحيم محمد أفندي ومحمد عبد الجواد الأصمعي أفندي المصححين به وصاحبي الأثر الطيب الجليل، ورجال هذا القسم كافة؛ فلهم الفضل الكثير، بهمة رئيسهم الفاضل، في ضبط الكتاب وتصحيح مسوداته، كما أشكر حضرة الفاضل محمد نديم أفندي ملاحظ الطباعة بالدار المشهور بالدقة والإتقان، ويلوح لي أن الله - تعالى - أحسن جزاء المأمون على حدبه وكبير عنايته بدور الحكمة «دور الكتب» العديدة في عصره، بأن وفَّق دار الحكمة في مصر - في هذا العصر - إلى رعاية عصره بهمة وإخلاص وتدقيق وتحقيق.

٢٥ سبتمبر سنة ١٩٢٧م

أحمد فريد رفاعي

الكتاب الأول:
عصر بني أمية

الفصل الأول

تحوُّل المدنية الإسلامية

(١) توطئة

حمل الفتح الإسلامي الذي فتحه الخلفاء الراشدون في سبيل الدعوة الدينية من العناصر المادية والاجتماعية والسياسية ما كانت له نتائجه وآثاره، فبعد أن كانت الأموال في أيام النبي ﷺ نحو أربعين ألفًا بين إبل وخيل، وبعد أن كان عمرُ بن الخطاب دهشًا مرتابًا حينما أبلغه أبو هريرة عند قدومه من البحرين، أنه أتى بخمسمائة ألف درهم، فاستكثرها عمرُ وقال: أتدري ما تقول؟ قال: نعم، مائةُ ألف خمس مرات. فصعد عمر المنبر وقال: «أيها الناس، قد جاءنا مال كثير، فإنْ شئتم كِلْنا لكم كيلًا، وإن شئتم عددنا لكم عدًّا» – بعد أن كان دهشًا من هذه الثروة أصبحنا نرى بعد عهده بقليل جسامة الهبات مما لا تعد هذه الأموال في جانبه شيئًا مذكورًا.

ونحن لا نعرض الآن للقول فيما وصلت إليه الثروة الإسلامية في أيام المأمون، ولا نعرض لفنون المدنيات العديدة التي سادت في عهده، لأننا رسمنا لأنفسنا خُطة مَنْ لا يريد استباق الحوادث وآثارها، ولا التاريخ ونتائجه، وإنَّا نجتزئ الآن بكلامنا عن عصر قريب من عصر النبي ﷺ القريب العهد بتأثُّر الأذهان بالمثل العليا ...

من أبي بكر الذي مات ولم يجدوا عنده من مال الدولة إلا دينارًا واحدًا سقط من غِرارة، والذي أوصى حينما دنا أجله بأن تباع أرض كانت له ويُدفع ثمنها بدلًا مما أخذه من مال المسلمين.

ومن عمر بن الخطاب الذي حرَّم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة؛ لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وما يملكون من عبيد ومَوالٍ، كل ذلك يدفعه لهم من بيت المال، فما بهم إلى اقتناء المال من حاجة، وليس للمال في نفوسهم من إغراء، ولا إلى ضمائرهم من إفساد.

هذه حالُ المسلمين المادية والمعنوية في عهد النبي ﷺ وصاحبيه، نظِّر بينها وبين ما جدَّ بعد ذلك من كثرة في المال وإسراف في الترف، مما كان له أعمق الأثر في تغير أحوال المسلمين الاجتماعية والمعيشية والخُلُقية.

يحدثنا ابن خلدون عن عامل أموي ليس بملك ولا خليفة، يحدثنا عن خالد القسري أمير العراق في أيام هشام، فيقول: إن غلَّته بلغت ثلاثة عشر ألف ألف درهم، ويُثبت لنا ابنُ الأثير دليلًا ليس بأقل مما ذهب إليه ابن خلدون قيمة وخطرًا؛ إذ يقول ما نصه: «إن طارقًا خليفةَ خالد على الكوفة لما ختَن ولده أهدى إليه خالد ألف وصيف ووصيفة سوى الأموال والثياب»، وذكر اليعقوبي أن خالدًا فرق أموالًا عظامًا مبلغُها ستة وثلاثون ألف ألف درهم.

أجل! لقد تحوَّلت الاعتبارات الاجتماعية وفقًا للتغيرات المادية، فبعد أيام الورع وغلبة سلطان الدين والعدل في أعطيات المسلمين، بعد أيام عمر وصحابة عمر التي نعلم الشيء الكثير من وجهة نظر عُمُد الدين الإسلامي فيها إلى المال - وهو عنصر حيوي شديد الأثر في تحول النظم المعيشية والاجتماعية والسياسية أيضًا - وإلى ضرر اختزانه، فقد قال قائل لعمر بن الخطاب: «يا أمير المؤمنين، لو تركت في بيوت الأموال شيئًا يكون

عدة لحادث إذا حدث!» فزجره عمر وقال له: «تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها! وهي فتنة لمن بعدي. إني لا أعد للحادث الذي يحدث سوى طاعة الله ورسوله، وهي عدَّتُنا التي بلغنا بها ما بلغنا».

بعد هذه النظرات التقشفية البريئة، نظرات الورع والزهد، سرعان ما حملت الفتوح معها ومع تلك الثروات الطائلة التي أتت بها ما غيَّر عناصر عدة، فاختُزِن المال، وكانت الفتنة كما تنبأت نظرات عمر الصائبة إلى المال واختزانه، وذهبت في آثارها إلى ما هو أعمق وأخطر، ذهبت إلى الكيان الخلقي للعرب، فبدَّلت من سيرة قادتهم وسيرة شعبهم؛ كانت سيرة قادتهم عدلًا وإنصافًا، وسيرة شعبهم أَنَفةً وانتصافًا، فتبدَّل الحال غير الحال حتى أتيح لمصعب بن الزبير مثلًا - وهو من بيت يناوئ بني أمية وينافسهم في الملك - أن يبذل ألف ألف درهم في زواجه من سُكينة بنت الحسين، ومثلها في زواج عائشة بنت طلحة، في حين كان جند المسلمين يتضوَّرون مسغبة وجوعًا حتى كتب عبد الله بن مصعب إلى عبد الله بن الزبير؛ لمناسبة ما يعانيه الجند وترف شقيقه زعيم الجند:

بلِّغ أمير المؤمنين رسالة ... من ناصح لك لا يريد خداعا
بُضْع الفتاة بألف ألفٍ كامل ... وتبيت ساداتُ الجنود جياعا
لو[1] لأبي حفص أقولُ مقالتي ... وأبث ما سأبثُّكم لارتاعا

صدق الشاعر في قوله؛ إن تلك الحال ليرتاع منها عمرُ حقًّا، وليَفرَقُ من ذكرها أبو بكر، ويلتاع من سماعها عليٌّ، ولكن الحال تغيرت إلى مدًى بعيد، حتى أصبح المال غرضًا تشرئبُّ لحيازته الأعناق، وتنزع نحو تملكه النفوس، إلى أن رأينا فيما بعد أن الحجاج بن يوسف لما حاصر الكعبة

وفيها ابن الزبير، وتردد جنده في ضربها بالمنجنيق؛ جاء بكرسي وجلس عليه وقال: «يا أهل الشام، قاتلوا على أعطيات عبد الملك»؛ ففعلوا.

ذلك هو أثر المال في الأخلاق والأحوال والنفوس طبقًا للتغيرات الاجتماعية.

ولنحاول فيما سنعقده من الفصول الآتية تبيان حال الدولة العربية أيام عثمان، وكيف وصل الأمر إلى معاوية، وكيف خرج المُلكُ من بني أمية حتى وصل إلى بني العباس، ولنحاول بعد هذه التقدمةِ دراسةَ الحياة الأدبية إلى جانب دراستنا السياسية الاجتماعية؛ فإن ذلك ينفعنا كثيرًا فيما نرومه من التكلم ببسطة في القول وتصوير صحيح لعصر المأمون الذهبي، ولا سيما الحياة الأدبية والعلمية فيه، مُلاحظين في ذلك كله جانب القصد والإيجاز، مارِّين سراعًا على جُلِّ الحوادث الكبار في ذاتها، والتي لا تعنينا كثيرًا في موضوعنا - مثل عصر معاوية - مما نرجو أن نوفق في المستقبل القريب فنكتب عنه وعمَّا فيه من أسرار وثورات.

(٢) نظام الحكم في عهد الصحابة

الناس من حيث ميولهم ومعتقداتهم، دينية كانت أو سياسية، لا يكادون يَعدُون طبقة من ثلاث: محافظين، ومعتدلين، ومتطرفين.

ولسنا آخذين بسبيل من التوضيح لأحكام هذه الجماعات أو الأحزاب في حياة عثمان، ولا نظر كل فئة منهم إلى سياسة حكومته، وإنما يكفينا أن نقول: إن هذه الفئات التي تكوِّن دائمًا قوة الرأي العام الذي كان له في حكومات الصحابة صوت يؤبه له وإرادة تحترم، مع مراعاة طبيعة النفسية العربية البدوية الشديدة الإباء والأنفة، هذه الفئات لم يكن شبابها ولا كهولها، زهادها ولا النفعيون فيها، براضِينَ عن حكومة عثمان.

كان نظام الحكم في عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات نظامًا ثُيُوقراطيًّا - إذا صح لنا هذا التعبير، وهو صحيح لا محالة - ذلك لأنهم بإيمانهم وتقواهم وكامل إسلامهم جعلوا الله تعالى مصدر السلطات الدينية والدنيوية، فكل شيء لله؛ المال مال الله، والجند جند الله.

ومن هذه الناحية توافرت الشورى، وتوافرت الكرامة الدينية، وربما كان المحافظون من رجال الدين يتبرمون من هذه الناحية أيضًا بمنهج حكومة عثمان، التي لا نشك أن حزبها أيام عثمان لم يكن بذي خطر، اللهم في ماضيه من حيث الزعامة والسيادة وما إلى ذلك في العصر الجاهلي، ولكنه فاز أخيرًا ولعبت الجماعة العثمانية، ومنهم الأمويون، دورَهم المعروف ذا الأثر الكبير في العقلية العربية والمدنية الإسلامية.

(٣) حكومة عثمان ونظر الجماعات العربية إليها

وبعدُ، فلماذا نقم الشباب والشيوخ من حكومة عثمان؟

أما نحن فلا يطلب منا أن نبدي رأينا في عثمان، فهو صحابي جليل، وله أثره الخالد في جمع القرآن وغير القرآن، وله دينه السمح الذي لا تشوبه شائبة، وما كان الدين ليحتم على الناس جميعًا أن يكون نظرهم إلى الحياة الدنيا نظر التقشف والزهد، ولا يطلب منا أن نُثبت ضعف الحكومة العثمانية، وإنما يُطلب منا أن نسرد الحوادث بإيجاز، ولنا في تسلسل هذه الحوادث ودراستها وتقييد آثارها ما قد يسمح لنا بالتعرض له حين معالجتنا الكلام عن عصرنا فيما بعد.

نعود فنتساءل: لماذا نقم الشباب والشيوخ من حكومة عثمان؟

يقول اليعقوبي: «إن عثمان آثر القرباء، وحمى الحمى، وبنى الدار، واتخذ الضياع والأموال بمال الله والمسلمين، ونفى أبا ذر صاحب رسول الله وعبد الرحمن بن حنبل، وآوى الحكم بن أبي العاص وعبد الله بن سعد ابن أبي سرح طريدي رسول الله ﷺ، وأهدر دم الهرمزان ولم يقتل عبيد الله ابن عمر به، وولَّى الوليد بن عقبة الكوفة فأحدث في الصلاة ما أحدث ولم يمنعه ذلك من إعاذته إياه».

ويذكر اليعقوبي - في مكان آخر - ما كان من إغضاب عثمان لعائشة أم المؤمنين، ومكانةُ عائشة مكانتُها، وأنه نقص ما كان يعطيها عمرُ بن الخطاب، وأنها تربَّصت بعثمان حتى رأته يخطبُ الناس فدلَّت قميص رسول الله ﷺ ونادت: «يا معشر المسلمين، هذا جلباب رسول الله لم يَبْلَ، وقد أبلى عثمان سُنَّته». وليس أدل على شدة حفيظتها عليه من امتناعها أن تقوم بالصلح بينه وبين الخارجين عليه حين اشتد عليه الأمر وصار إليها مروان فقال لها: يا أم المؤمنين، لو قُمت فأصلحت بين هذا الرجل وبين الناس!

قالت: قد فرغتُ من جهازي وأنا أريد الحج.

قال: فيدفع إليك بكل درهم أنفقته درهمين.

قالت: «لعلك ترى أني في شك من صاحبك! أما والله لوَدِدْتُ أنه مُقطَّع في غِرارة من غرائري، وأني أُطيق حمله فأطرحه في البحر».

قلنا: إن نظام الحكم في عهد الصحابة من حيث توزيع السلطات كان نظامًا ثيوقراطيًّا في إرجاعه كل شيء إلى الله تعالى، وأن المال مال الله، والجند جند الله، وأن الحكم لله لا للناس.

ويقول لنا التاريخ: إنه كان بين عثمان وخازن بيت المال في عهده مشادَّة ومنافرة، وإن جُلَّ النُّقَّاد اتخذوا من هذه المشادَّة مطعنًا في سياسته المالية، وثُلمة يتهجمون منها عليه، وكانت هذه المشادة بينه وبين خازن بيت المال في أمر عطائه، حتى قال له عثمان: «إنما أنت خازن لنا؛ إذا أعطيناك فخذ، وإذا سكتنا عنك فاسكت»، فقال: «كذبت والله! ما أنا لك بخازن ولا لأهل بيتك، إنما أنا خازن المسلمين»، وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب، فقال: «أيها الناس، زعم عثمان أني خازن له ولأهل بيته، وإنما كنت خازنًا للمسلمين، وهذه مفاتيحُ بيت مالكم». ورمى بها، فأخذها عثمان ودفعها إلى زيد بن ثابت.

وليس من شكٍّ في أن شباب العرب عامة، وقريش خاصة، لهم آمالهم ولهم مطامعهم وهم في مقتبل عمرهم حين يكون الطموح إلى اعتلاء المراتب الرفيعة مصطدمًا بالوازع الديني، وأنهم تأملوا أن ينال عبد الله بن خالد بن أسيد خمسين ألف درهم، ومروان بن الحكم خمسة عشر ألفًا، مع أن عثمان استردها منهما لما عُوتب ونُوقش، وتأملوا أن يذهب آل عثمان بمناصب الدولة وهم يرون في أنفسهم من الكفايات والمواهب، ومن الحسب والنسب ما لا يقل عمَّا لهؤلاء.

***

وما لنا نذهب بعيدًا في الاستدلال على نظريتنا هذه والنفس الإنسانية هي هي الطموح إلى زينة العاجلة وزخرفها، وقد جاء في الأغاني في معرض كلامه عن أبي قَطِيفة الشاعر:

إن ابن الزبير مضى إلى صفية بنت أبي عبيد، زوجة عبد الله بن عمر،

فذكر لها أن خروجه كان غضبًا لله تعالى ورسوله عليه السلام والمهاجرين والأنصار من أثرة معاوية وابنه وأهله بالفيء، وسألها مسألته أن يُبايعه، فلما قدَّمت لزوجها عشاءه ذكرت له أمر ابن الزبير واجتهاده، وأثنت عليه وقالت: ما يدعو إلا إلى طاعة الله - جل وعز - وأكثرت القول في ذلك، فقال لها: أما رأيت بغلات معاوية اللواتي كان يحج عليهن الشُّهب! فإن ابن الزبير ما يريد غيرهن.

هذا رأي كبير من رجال العصر في خروج ابن الزبير يكشف لك ما كان يخالج نفوس الشباب من طموح إلى السلطان ولذاته، مع أن ابن الزبير كان خارجًا على أهل بيت يرى جُلُّ الناس في ذلك العصر أنهم اغتصبوا الملك من أهله اغتصابًا، ويظهر أن معاوية نفسه كان قد اقتنع بأنه لم يكن على الحق حتى كاد يتجنَّب مناجزة عليٍّ الحرب والعداء حين ذكره عليٌّ بكلام للرسول ﷺ، لولا مقالة ولده له: «كلا! ولكنك رأيت سيوف بني هاشم حدادًا تحملها شدادٌ»، فثارت ثائرته وقال: «ويلك! ومثلي يُعيَّر الجُبن! هلم إليَّ الرمح!» وأخذ الرمح وحمل على أصحاب عليٍّ.

فمعقول أن يغضب هؤلاء الشباب وأمثالهم من حكومة عثمان وهم يرون الغنائم والثروات تكتسح بلادهم - وللمال حكمه وسلطانه - ومعقول أيضًا أن يغضب منها أمثال عمرو بن العاص الذي قال له عثمان - يوم ندبه ليُعذرَه عند الناس فما كان منه إلا أن أضرم جذوة الحقد عليه: «يا ابن النابغة، والله ما زِدتَ أن حرَّضت الناس عليَّ ... يا ابن النابغة، قمل درعك مذ عزلتك عن مصر».

هذا من ناحية النفعيين وفيهم المتطرفون، وهناك المعتدلون، وهؤلاء قد نأوا بجانبهم عن الفتنة، واعتزلوا الناس من شرها وآثارها، وهم لها كارهون، ومنها ناقمون، وهناك المحافظون الأتقياء حقًّا أمثال أبي ذر ورافع بن خديج وغيرهما من صحابة الرسول الذين نعلم من تقواهم وزهدهم، ومن حبهم للآخرة وإعلاء كلمة الدين الشيء الكثير، والذين يقول فيهم الجاحظ في رسالته عن بني أمية:[٢] «إنهم كانوا على التوحيد الصحيح والإخلاص المحض».

ولنوضح قليلًا هذا النوع من المتقشفين حقًّا والمخلصين في عقيدتهم الدينية صدقًا، ولنضرب مثلًا بأبي ذر الغفاري، ولننظر ما يحكيه لنا ابن الأثير في هذا السبيل، فهو معتدل مُستَقْر للحقيقة أكثر من سواه، يقول ابن الأثير: إن أبا ذر كان يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي له أن يكون في ملكه أكثر من قوت يومه وليلته، أو شيء ينفعه في سبيل الله أو يعِدُّه لكريم، وكان يأخذ بظاهر القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فكان يقوم بالشام ويقول: «يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاوٍ من نار تُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم». فما زال حتى وَلِعَ الفقراء بمثل ذلك، وأوجبوه على الأغنياء، وشكا الأغنياء ما يلقونه منهم؛ فأرسل معاوية إليه بألف دينار في جنح الليل فأنفقها، فلما صلَّى معاوية الصبح دعا رسولَه الذي أرسله إليه، فقال: اذهب إلى أبي ذر فقل له: أنقِذْ جسدي من عذاب معاوية؛ فإنه أرسلني إلى غيرك وإني أخطأتُ بك. ففعل ذلك، فقال أبو ذر: يا بنيَّ، قل له: والله ما أصبح عندنا من دنانيرك

دينار، ولكن أخَّرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها. فلما رأي معاوية أن فعله يصدق قوله كتب إلى عثمان: إن أبا ذرٍّ قد ضيَّق عليَّ، وقد كان كذا وكذا - الذي يقوله الفقراء - فكتب إليه عثمان: «إن الفتنة قد أخرجت خَطْمَها[٣] وعينيها ولم يبق إلا أن تَثِبَ، فلا تنكأ القُرْح، وجهِّز أبا ذر إليَّ وأبعث معه دليلاً، وكفكف الناس ونفسك ما استعطت». وبعث إليه معاوية بأبي ذر، فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل جبل سَلْع، قال: بشِّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار. ودخل على عثمان فقال له: ما لأهل الشام يشكون ذرب[٤] لسانك. فأخبره، فقال: يا أبا ذر، عليَّ أن أقضي ما عليَّ، وأن أدعو الرعية إلى الاجتهاد والاقتصاد، وما عليَّ أن أجبرهم على الزهد. ثم انتهت المُحاجَّة إلى أن خرج أبو ذر من المدينة ونزل الرَّبذة[٥] فهذا النوع من التقشُّف المتبرم بحكومة عثمان، وذلك النوع من الشباب الطامح بعينيه إلى ما أصاب سواه منها، وتلك الجماعة المعتزلة التاركة الحبل على الغارب - كل هذه العوامل تجعلنا نقنع بنجاح الفتنة ضد حكومة عثمان وانتهائها بتلك المأساة المروِّعة التي كان فيها ما كان مما يحكيه لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: من قتل عثمان ﷺ، وما انتُهك منه، ومن خبطهم إياه بالسلاح، وبَعْج بطنه بالحِراب، وفَرْي أوداجه بالمشاقِص،[٦] وشدخ هامته بالعمد، مع ضرب نسائه بحضرته، وإقحام الرجال على حرمته، مع اتقاء نائلة بنت الفَرافِصة[٧] عنه بيدها حتى أطَنُّوا[٨] أصبعين من أصابعها.

كانت تلك المأساة المروعة التي تُفتِّت القلوب الجلامد، وتنفجَّر لها العيون الجوامد، فلنقف عند ذكراها وَالِهين آسفين.

هوامش

(١) هذه الأبيات من عروض الكامل وتفاعيله:
متفاعلن متفاعلن متفاعلن
مرتين، وفي قوله: «لو لأبي» زحاف يقال له: الخزل، وهو سكون التاء وسقوط الألف من متفاعلن كما هو ظاهر في «لو لأبي»، فيبقى متفعلن، وهذا البناء غير مقول، فيصرف إلى بناء مقول وهو: مفتعلن. والخزل في الكامل قبيح.

(٢) راجع رسالة الجاحظ في بني أمية في باب المنثور من ملحق الكتاب الثالث في المجلد الثاني.

(٣) الخطم: الأنف.

(٤) ذرب اللسان: حدَّته.

(٥) الربذة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال، قريبة من ذات عرق، وبها قبر أبي ذر الغفاري.

(٦) المشاقص: جمع مشقص، وهو نصل عريض، وقيل: سهم.

(٧) الفرفصة: بفتح الفاء لا غير، وليس في العرب ما يسمى بالفرافصة بالألف واللام غيره، كما أن أبا علي القالي ذكر أن كل ما في العرب فرافصة بضم الفاء إلا فرافصة هذا أبا نائلة امرأة عثمان ﷺ.

(٨) أطنوا: قطعوا.

الفصل الثاني

الجهاد بين الخلافة والملك

(١) توطئة

نحن الآن مقبلون على فترة جهاد عنيف بين الخلافة والملك، فترة لا يصح أن تعتبر الجهاد فيها جهادًا بين عليٍّ ومعاوية، أو بين عليٍّ وغير معاوية من مُنافسيه في الخلافة أو من الخارجين عليه، وإنما يخلُق بنا أن نعتبرها بمثابة جهاد عنيف بين وجهات النظر العربية في الحياة؛ فإن موت عثمان ﷺ لم يُمت الفتنة، بل أذكاها وزادها ضرامًا واشتعالًا.

وإنه لمن الميسور للناقد أن يلتمس العلة في أن الأحزاب العربية حين ذاك لم تجمع على سيدنا علي؛ ذلك بأن الجماعة الراغبة في الوظائف والأموال لم تجد فيه طلبتها وسؤلها، ولم تعثر فيه على أنشودتها ورَجُلها، بل على النقيض قد لقيت منه حاكمًا صلبًا لا تلين قناته، سار فيهم سيرة الحق لا تأخذه في الله لومة لائم، وكانت حركاته وسكناته ﷺ جميعها لله وفي الله، لا يغمط بها حق أحد، وكان لا يأخذ ولا يعطي إلا بالحق والعدل، حتى إن أخاه عقيلًا، وهو ابن أبيه وأمه، طلب من بيت المال شيئًا لم يكن له بحق، فمنعه ﷺ وقال: يا أخي، ليس لك في هذا المال غير ما أعطيتك، ولكن اصبرْ حتى يجيء مالي وأعطيك منه ما تريد، فلم يُرْض عقيلًا هذا الجواب، وفارَقه وقصد معاوية بالشام. وكان لا يعطي ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما، فانظر إلى

رجل حمله ورعه على هذا الصنيع بولديه وبأخيه من أبويه! فلما سار فيهم هذه السيرة ثقل على بعض الناس فعله، وكرهوا مكانه.

هذه خُطة هؤلاء معه، أما خطة الشيوخ؛ فمنهم من آثر العزلة وترك حبل الأمة على غاربها تتطاحن أحزابها بين طلاب الخلافة، ومنهم الخوارج الذين غضبوا على عليٍّ كما غضبوا على معاوية، وندبوا من بينهم عبد الرحمن ابن ملجم ليقتل عليًّا، والبرك بن عامر ليخلصهم من معاوية، وعبد الله ابن مالك الصيداوي ليريحهم من حليف معاوية عمرو بن العاص، هؤلاء الخوارج كانت كلمتهم: «الحكم لله لا للناس»، فنقموا من عليٍّ خضوعه للتحكيم، وما خضع إلا مُكْرهًا مُعْنتًا.

(٢) كلمتنا عن عليٍّ ﷺ

كان علي إمامًا دينيًّا، كان موئلًا للشريعة، ومثالًا للورع والاستمساك بأحكام الكتاب، كان مصدرًا خصيبًا من مصادر الفقه والتشريع، وكان في حكومته وحروبه على السواء مؤثرًا رضا الله، ومُغضبًا شهوات الناس، وقادِعًا أطماعها، وكان عنوانًا كاملًا لأسمى صفات الخلق الإسلامي من حيث النجدة والشجاعة لا الحذق والسياسة؛ كان مصلحًا دينيًّا على أتم ما يكون عليه مصلح ديني، يتفانى في هذا الإصلاح ويؤثر الآخرة على الأولى، فيعمل لإرضاء الله لا إرضاء الناس، وكان كما وصفه عدي بن حاتم لمعاوية: «يقول عدلًا، ويحكم فصلًا، تتفجر الحكمة من جوانبه، والعلم من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويأنس بالليل ووحشته، وكان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يحاسب نفسه إذا خلا، ويقلب كفيه على ما مضى، يعجبه من اللباسِ القصيرُ، ومن المعاشِ الخشنُ، وكان

فينا كأحدنا ... كان يعظم أهل الدين ويتحبب إلى المساكين، لا يخاف القويُّ ظلمه، ولا ييأس الضعيف من عدله؛ فأُقسم لقد رأيته ليلة وقد مثَل في محرابه وأرخى الليل سرباله وغارت نجومه، ودموعه تتحادَر على لحيته وهو يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، فكأني الآن أسمعه وهو يقول: يا دنيا أإليَّ تعرضتِ أم إليَّ أقبلتِ! غُرِّي غيري لا حانَ حينُك، قد طلقتُك ثلاثًا لا رجعة فيها».

هذا هو علي حقًّا، علي الذي بالغ في التدقيق في محاسبة عُمَّاله حتى أغضب أكثرهم، وحتى خسر نصرتهم، وفي جملتهم مصقلةُ بن هبيرة الشيباني، وابنُ عمه عبد الله بن عباس بعد أن كان أكبر نصير له، والذي أغضب الزبير وطلحة وكان في مقدوره أن يضمَّهما إليه، والذي لم يكتسب إلى جانبه عمرو بن العاص، ولم يقبل نصيحة ابن العباس ولا المغيرة بن شعبة في إقرار معاوية وابن عامر وعُمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس، ثم يعزل منهم من يشاء، وقال: «لا أداهن في ديني، ولا أعطي الدنية في أمري»، فقيل له: انزع من شئت واترك معاوية؛ فإن في معاوية جرأة، وهو في أهل الشام يُستمع منه، وله حجة في إثباته بما كان من عمر بن الخطاب إذ قد ولاه الشام. فأبى وقال: لا والله لا أستعمل معاوية يومين، فلم تكن الحيل والخدع من مذهبه، ولم يكن عنده غير مُرِّ الحق؛ والذي يقول لأصحابه بعد أن أثخنوا في أعدائه: «لا تتبعوا موليًّا، ولا تُجهزوا على جريح، ولا تنهبوا مالًا»، فجعلوا يمرون بالذهب والفضة في معسكرهم فلا يعرض له أحد، إلا ما كان من السلاح الذي قاتلوا به والدواب التي حاربوا عليها، فقال بعض أصحابه: يا أمير المؤمنين، كيف حلَّ لنا قتالهم ولم يحل لنا سبيهم وأموالهم؟!

فقال علي رضي الله عنه: «ليس على الموحدين سبيٌ، ولا يُغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه، فدعوا ما لا تعرفون وألزموا ما تُؤمرون».

أجل! هذا هو علي حقًّا، الذي أبت رأفته وأبي دينه أن يمنع أهل الشام من الماء كما منعوه أثناء منازلتهم حتى كاد يهلكُ جندُه عطشًا، والذي منع شيعته وأنصاره من شتم معاوية ضاربًا صَفحًا عن آثار استغلال ذلك في الدعوة السياسية لتأييد خلافته، والحطِّ من ملك منافسه؛ فإنه لما بلغه أن حُجر بن عدي وعمرو بن الحَمِق يُظهران شتم معاوية ولعن أهل الشام أرسل إليهما: أن كُفَّا عما بلغني عنكما، فأتياه فقالا: «يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! قال: كرهت لكم أن تكونوا شتَّامين لعَّانين، ولكن قولوا: اللهم احقِن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذاتَ بينِنا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق مَن جهله، ويرعوى عن الغيِّ من لهج به».

هذا هو علي حقًّا، الشديد في محاسبة نفسه وعماله، أما محاسبة نفسه فظاهرة خلقية واضحة الوضوح كله، وأما محاسبته عماله؛ فإن تاريخه مُفْعم بمئات الأدلة والشواهد مما أفاد منه معاوية أيما فائدة.

وكان من آثار هذه المحاسبة هرب مصقلة بن هبيرة الشيباني من علي وانضمامه إلى معاوية، وكذلك يزيد بن حجبة التيمي الذي كان قد استعمله عليٌّ على الري فكسر من خراجها ثلاثين ألفًا، فكتب إليه عليٌّ يستدعيه فحضر، فسأله عن المال قال: أين ما غللته من المال؟ قال: ما أخذت شيئًا. فخفقه بالدِّرة خفقات وحبسه، ووكل به سعدًا مولاه، فهرب منه يزيد إلى الشام، فسوَّغه معاوية المال، فكان ينال من علي، وبقي بالشام إلى أن اجتمع الأمر لمعاوية، فسار معه إلى العراق، فولَّاه العراق.

فهذه الشواهد وأمثالها فيها أقطع الدلالات على شدة محاسبته لعماله وإغضابه آل بيته تدينًا وورعًا وعملاً للآخرة، لا لبناء ملك في الدار الأولى.

فلنحفظ هذه الصورة جيدًا، ولنذكر أنها لم يُتح لها الفوز والنجاح في ذلك الجهاد السياسي، وأن الكِفَّة الراجحة في سياستنا الدنيوية كانت لُمنازله الذي يجدر بنا أن ندرسه بإيجاز واقتضاب.

(٣) تحول الرأي العام

صور الشاعر العبقري «شكسبير» في روايته «يوليوس قيصر» تأثر الرأي العام ببلاغة زعمائه التي يستغلون بها سذاجة موقفه، ويتملكون بها عقول قومهم التي بها يفكرون، ويسحرون بها عيونهم التي بها يبصرون، فلا يصدرون إلا عن إرادتهم، ولا يفكرون إلا بعقولهم، وقد أبدع أيما إبداع في موقفي «بروتس» قاتل قيصر ومنقذ الرومان، و«أنطونيوس» مؤبنه وراثيه، وأظهر إلى أي مدًى افتتن بهما الجمهور، وإلى أي مدًى تناقض في حبه وبغضه، وإكباره وتألُّبه.

شكر الرومانُ «بروتس» قاتلَ قيصر لأجل الرومان وفي سبيل الرومان، فأسلس له قيادهم وطلبوا منه أن يتبوأ العرش مكانه، وحُمل على الأعناق بعد أن تبوَّأ منهم حبات القلوب، ثم استمعوا إلى «أنطونيوس» يرثي قيصر، وما استمعوا له إلا لأن «بروتس» طلب منهم أن يُنصتوا؛ لأن قيصرًا الطاغية غير قيصر الراحل، فأنصتوا وتكلم «أنطونيوس»، فحرَّك من شئونهم وأنساهم أنفسهم، واستغل في موقفه ما بثياب قيصر من دماء وثقوب، وما بجسمه من طعنات وجروح، حتى اضطرمت الفتنة، وكان نصيبُ «بروتس» ما تعلم بعد حمله على الأعناق!

هكذا فعل معاوية في جهاده وجلاده عليًّا، فقد صدع بما أشار به عليه عمرو بن العاص؛ إذ طلب إليه إظهار قميص الدم الذي قُتل فيه عثمان وأصابع زوجته، وأن يُعلِّق ذلك على المنبر ثم يجمع الناس ويبكي عليه عازيًا قتل عثمان إلى عليٍّ، مطالبًا بدمه مستميلاً بذلك أهل الشام وغيرهم من عامة المسلمين. أخرج معاوية القميص والأصابع وعلَّقه على المنبر، وبكى واستبكى الناس، وذكَّرهم بمُصاب عثمان، فانتدب أهل الشام من كل جانب، وأيدهم الأشراف وذوو النفوذ كشرحبيل بن السمط وسواه، وبذلوا له الطلب بدم عثمان والقتال معه على كل مَن آوى قتَلَته، ثم خلق لعليٍّ مُعضلة سياسة لا يهون على السياسي حلُّها؛ ذلك بأن بعث برسالة إلى جماعة علي، وهذه الرسالة تحتوي على أسس المبادئ العثمانية وتقول: «أما بعد، فإنكم دعوتم إلى الطاعة والجماعة؛ أما الجماعة التي دعوتم إليها فمعنا، وأما الطاعة لصاحبكم فلا نراها؛ إن صاحبكم قتل خليفتنا، وفرَّق جماعتنا، وآوى ثأرَنا[1] وقتَلَتنا، وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نردُّ ذلك عليه؛ أرأيتم قَتَلة صاحبنا؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم؟ فليدفعهم إلينا فلنقتلهم به، ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة».

وكيف يستطيع علي أن يدفع إلى معاوية قتلة عثمان؟! وماذا يكون موقفه أمام ذلك الحزب القوي الناقم على الخليفة المقتول؟! فلذلك كان من المعقول أن يقف رده أمام هذه المشكلة السياسية عند قوله: «أما ما سألت من دفعي إليك قتَلته؛ فإني لا أرى ذلك؛ لعلمي بأنك إنما تطلب ذلك ذريعة إلى ما تأمله، ومرقاةً إلى ما ترجوه، وما الطلب بدمه تريد».

(٤) معاوية

لسنا نتعرض للحكم على دين معاوية ومبلغ تمشيه في تصرفاته السياسية وإقامته لحدود الله مع أحكام الشرع؛ فقد تكلم في ذلك فيه الشافعي والحسن البصري، وإنما نريد أن نُمثِّل معاوية مؤسس الملكية في الإسلام، وواضع أسس السياسة الدنيوية، والذي قال فيه عمر بن الخطاب لجلسائه: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما وعندكم معاوية!».

(٥) سياسة معاوية

كان معاوية ذا مواهب سياسية كبيرة، وكان داهية ذَهِنًا بعيد مدَى العقل، مالكًا قياد أهوائه، كان «ذا مكر وذا رأي وحزم في أمر دنياه، إذا رأى الفرصة لم يُبق ولم يتوقف، وإذا خاف الأمر توارَى عنه، وإذا خوصم في مقال ناضَل عنه وقطع الكلام على مُناظره»، كان يعمل جُهده ليشتري ضمائر القبائل العربية، وكان كثير البذل في العطاء.

وقد ذكر الطبري حادثة نستطيع أن نستنبط منها نظر معاوية إلى المال وإلى مبلغ استعماله إياه ليملك به ضمائر أهل المكانة والنفوذ من معاصريه - ذكر أن أبا مُنازِل قال له حينما أعطاه معاوية سبعين ألفًا بينما أعطى جماعة من الزعماء ممن في مرتبته مائة ألف: فضحتني في بني تميم، أما حسَبي فصحيح! أوَلَستُ ذا سنٍّ؟! أوَلَستُ مُطاعًا في عشيرتي؟! فقال معاوية: بلى، قال: فما بالك خسست بي دون القوم؟! فقال: إني اشتريت من القوم دينهم ووكلتُك إلى دينك ورأيك في عثمان بن عفان - وكان عثمانيًّا - فقال: وأنا فاشترِ مني ديني، فأمر له بتمام جائزة القوم.

كان سياسيًّا بطبيعته، مِعطاء وهُوبًا بسجيته، وقد صدق في صفته أبو الجهم الشاعر إذ قال:

نميل على جوانبه كأنا نميل ولا نمين على أبينا
نُقلِّبه لنخبر حالتيه فنخبر منهما كرمًا ولِينا

وإنا نستطيع أن نفهم فهمًا صحيحًا: أكانت ثورة معاوية لقتل عثمان ثورة مصدرها إخلاصه العميق في العثمانية، وأنه كان يريد بها أن يُجريَ حكم الشرع في قتلة عثمان، أم ثورة مصدرها طموحه إلى الملك ليغتصبه لنفسه؟ نستطيع أن نفهم ذلك من حديث جرى بينه وبين عائشة بنت عثمان؛ فإن التاريخ يحدثنا أن معاوية لما قدم المدينة دخل دار عثمان، فقالت عائشة بنت عثمان: وا أبتاه! وبكت، فقال معاوية: «يا ابنة أخي، إن الناس أعطونا وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم حلمًا تحت غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره، فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندري أعلينا تكون أم لنا، ولأن تكوني بنت عم أمير المؤمنين خير من أن تكوني امرأة من عُرْض المسلمين».

وقد لا نجد تصويرًا أدق لسياسة معاوية وطريقة حكمه من قوله: «لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت؛ قيل: وكيف ذاك؟ قال: كنت إذا مدوها خليتها، وإذا خلوها مددتها».

فهذا القول يبين حلمه وطول باعه في السياسة وهدوء أعصابه إذا جابهته المشكلات، أو نزلت بساحته الكوارث والمعضلات، ويظهر سعة عطنه وحزمه، ولقد قال له يزيد يوم بويع له على عهده فجعل الناس

يمدحونه ويقرظونه: «يا أمير المؤمنين، والله ما ندري: أنخدع الناس أم يخدعوننا؟!»، فقال معاوية: «كل من أردت خديعته فتخادع لك حتى تبلغ منه حاجتك فقد خدعته».

ثم انظر إلى مختلف تصرفات معاوية في حياته السياسية وغيرها؛ فإنك لتقتنع بصدق حكم الشعبي الذي قال فيه: «كان معاوية كالجمل الطبِّ إذا سُكت عنه تقدَّم، وإذا رُدَّ تأخر».

(٦) مميزات معاوية

ولقد امتاز معاوية إلى جانب إلمامه التام بميول كل من له به علاقة من الناس، وصادق تقديره مع ثقوب بصيرته بما فيهم من نواحٍ للضعف يستطيع التسرب إليهم منها، امتاز إلى جانب هذا كله بصفاتٍ ثلاث لها مكانتها السامية في تكوين الدهاة من ساسة الوقت الحاضر، تلك الصفات الثلاث هي:

أولًا: إيقاع أعدائه في مشكلات لا تقوم لهم من بعدها قائمة بأفانين طريفة طالما عمد إليها الكثير من ساسة اليوم، مثال ذلك طريقته في إيقاع بطارقة الروم الذين يكيدون للإسلام، وذلك بمهاداتهم ومكاتبتهم بطريقة مكشوفة؛ لإغراء الملك بهم.

الصفة الثانية من مميزات معاوية الخلقية هي: حلمه، وهناك مئات الأمثال أترعت بها كتبنا الأدبية والتاريخية مُشيدةً بحلمه مُطنبة في فضائل سعة صدره، على أنا نجتزئ هنا بمثل عادي، ذلك أنه لما ألحق زيادًا بأبيه دخل عليه بنو أمية وفيهم عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي، فقال له: يا معاوية، لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرتَ بهم علينا قلة

وذلة؛ فأقبل على أخيه مروان وقال: أخرج عنا هذا الخليع، فقال مروان: والله إنه لخليع ما يطاق، فقال معاوية: والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمتَ أنه يُطاق! ألم يبلغني شعره فيَّ وفي زياد! ثم قال لمروان: أسمعنيه، فقال:

ألا أبلغ معاوية بن صخر   لقد ضاقت بما تأتي اليدان
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ   وترضى أن يقال أبوك زاني

الصفة الثالثة هي: نعومته السياسية، وهي غير الحلم، وقد تعتبر إلى حد ما من نوع المغالطات السياسية، مثال ذلك ما كان بينه وبين الحسن بن علي في شأن نزوله عن الخلافة له، إذ كتب إليه معاوية كتابًا قيمًا جاء فيه: «أما بعد، فأنت أولى بهذا الأمر وأحق به لقرابتك، ولو علمتُ أنك أضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيدُ لبايعتُك، فسَلْ ما شئتَ»، وبعث إليه بصحيفة بيضاء مختومة في أسفلها: أن اكتب فيها ما شئت، فكتب الحسن أموالًا وضياعًا وأمانَه لشيعة علي.

أضف إلى هذه الصفات ما كُتب لمعاوية من توفيق وسداد في اختيار أكبر دهاة الولاة؛ كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة، ممن عملوا معه على توطيد الملك له، والذين ارتسموا - إلى حد غير قليل - خطوات زعيمهم السياسي في شراء الضمائر، وسعة العطن، ورجوح حصاة العقل. وهذا زياد المعروف بشدة الوطأة بلغه عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه يرى رأي الخوارج، فدعاه فولاه جُنديسابور(٢) وما يليها، ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر، وجعل عمالته في كل سنة مائة ألف، فكان أبو الخير يقول: «ما رأيت شيئًا خيرًا من لزوم الطاعة، والتقلُّب بين أظهر الجماعة»، كذلك فعل المغيرة بن شعبة حين حصَبه حجر

ابن عدي وهو على المنبر في خطبة الجمعة، فإنه نزل مسرعًا ودخل قصر الإمارة وبعث إلى حجر بخمسة آلاف درهم ترضَّاه بها، فقيل للمغيره: لم فعلت هذا وفيه عليك وهن وغضاضة؟! فقال: «قد قتلتُه بها!».

إلى جانب هذه العناصر المكوِّنة لتلك الشخصية البارزة التي اعتمدت في تأسيس ملكها على ما اعتمدت عليه من ترضِّي الأحزاب بالمال وعامة الناس بالطعام، واستغلال العصبيات العربية، والتساهل في إقامة الحدود الدينية إذا دعت إلى ذلك طبيعة الأحوال السياسية، فإن معاوية يصف بنفسه سبب نجاحه على علي بقوله: «أُعنتُ على علي بن أبي طالب بأربع خصال: كان رجلًا ظُهرةً عُلنة لا يكتم سرًّا، وكنت كتومًا لسري؛ وكان لا يسعى حتى يُفاجئه الأمر مفاجأة، وكنت أُبادرُ إلى ذلك؛ وكان في أخبث جند وأشدهم خلافًا، وكنت أحبَّ إلى قريش منه، فنِلتُ ما شئتُ؛ فلله من جامع إليَّ ومفرق عنه».

(٧) معاوية والسياسة المكيافلية

وبعد، فإن السياسة الحديثة قد أباحت لرجالاتها في سبيل تحقيق غاياتهم أن ينتهجوا من الوسائل ما يكفل لهم نُجْحهم السياسي، ويجب علينا أن نثبت أن جلهم - ولو أنهم يتظاهرون بنفورهم من مدرسة «ماكياڤلي» التي تضحي بكل شيء تسويغًا للوصول إلى الغاية السياسية - يأخذون في الواقع بتعاليمها ويعملون على برنامجها. هذه السياسة الإيجابية في نجاحها العملي، السلبية في إرضائها المناحي الخلقية هي التي أخرجت لنا «ماترنيخ» و«كافور» و«دزرائلي» و«بسمرك» و«پت»، وهي التي كان من أبطالها «جلادستون» ذو المواقف الغريبة في الإقناع واكتساب ثقة الجمهور ولو تنحَّل من الشواهد واختلق من السابقات ما ليس له من وجود.

كذلك كان معاوية، في جلِّ تصرفاته، يحفل كثيرًا بتحقيق غاياته في تشييد الملك، فهو يُدبِّر أمور الناس لهذه الوجهة، وهو ينتهج من الوسائل السياسية ما يكفل نجاحه في هذه الوجهة. وإنه لخليق بنا وبسوانا ألا نعدو بعيدًا عن هذه الوجهة حين نظرنا إلى معاوية في كتابه إلى مروان بن الحكم بشأن حدِّه شاعرَه الكبير ابن سيحان، وحين حكم لابن الزبير بثمن داره المحترقة، وحين أرضى عقيلًا، واحتملَ من الأحنف بن قيس ما احتمل، وحين تخلَّص من الأشتر النخعي ومن عبد الرحمن بن خالد، وحين فصل في منازعة عمرو ابن عثمان بن عفان وأسامة بن زيد مولى رسول الله ﷺ في حكاية الأرض التي قيل: إن الرسول ﷺ أقطعها أحدهما، وحين كان يبذل المال طبقًا لمناهجه السياسية. وإنا نبيح لأنفسنا حين ننظر إلى قول زين العابدين: «إن عليًّا كان يقاتله معاوية بذهبه»، أن نقول: «إن معاوية كان يقاتل عليًا بذهبه وذهنه».

وإنا لنظن أنا قد صورنا معاوية بما هو أهله، وأوضحنا ما كانت عليه تلك الشخصية الفذة في مسايرة الناس واحتمال الأذى منهم، والتي يقول صاحبها: «ما من شيء عندي ألذ من غيظ أتجرعه»، «وإني لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا».

والآن نستطيع بعد أن كشفنا القناع عن أخلاق معاوية ومميزاته، أن نفهم قيمة قول علي رضي الله عنه في كتابه إلى زياد بن أبيه حينما كان من ولاته يحذره من معاوية - وهو ما نختتم به كلمتنا فيه: «إني وليتك ما وليتك وأنا أراك له أهلًا، وقد كانت من أبي سفيان فلتة من أماني الباطل وكذب النفس، لا توجب لك ميراثًا ولا تحل له نسبًا، وإن معاوية يأتي الإنسان من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، فاحذر ثم احذر، والسلام».

هوامش

(١) ثأره: قاتل حميمه.

(٢) مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه، وأسكنها بني الروم وطائفة من جنده، انظر: معجم ياقوت.

الفصل الثالث

سياسة معاوية وخلفائه

(١) توطئة

إن معاوية الذي مرَن على السياسة بنشأته، وحذَقها بسجيته، وأتقنها لمختلف أدوارها التي تقلب فيها، فطُبع عليها وطُبعت عليه، وأصبح منها وأصبحت منه، لم يكن في مقدوره إلا أن يكون سياسيًّا فذًّا موفقًا، بل مصدر سياسات عبقرية طالما نشدها عصره وزمانه حتى بعث بها وبعثت له، وخُلق منها وخُلقت منه؛ وكانت في نفسها وجوهرها خليقة للإجلال والإكبار، كما كان صاحبها قمينًا بالنجاح جديرًا بالتوفيق؛ لأنه لم يكن في وسعه، بطبيعته واستعداده ومواهبه واستتمامه لأداة الحكم والسلطان، إلا أن يوفق مظفرًا في مختلف خططه التي ارتسمها سديدة ناجحة؛ لأنها قطعة من نفسه، وكل ما كان من نفس معاوية فهو بمثابة أصول السياسة في تشييد الملك بمنجاة من الأعاصير التي تقتلع كل ملك قائم على غير طبيعة السنن الملكية الضرورية لها، ولضمان حياتها ودوام قوة بيوتاتها.

إن معاوية ومن ضُرب على قالبه وغراره علموا الخفيات من أهواء النفوس، فتم لهم تملكها وقيادتها، وانتهجوا بها من المسالك ما أشبع نهمتهم ونهمتها، وحقق بغيتهم وبغيتها، ووحدوا بين تيار مصلحتهم السياسية ومختلف رغباتها ومُصطدم منازعها، وفطنوا بثقوب بصائرهم إلى استخدام كل ما فيه القوة والحياة لملكهم من شتَّى العناصر: في أنفسهم وولاتهم وسائر شعبهم.

أما في نفوسهم فبأخذها، مكرهة أو طائعة، بالتزام ما فيه النجح والتوفيق مع قصد واعتدال، فتختار من الولاة والزعماء والقواد والبطانة من فيهم الغنية والكفاية وحسن البلاء، يبحث عنهم أنّى وُجدوا، مهما كانت عصبياتهم وخفة ظلهم أو كثافة نفوسهم، ويجعلون في مراكزهم بمعزل عن التغيير والتبديل ما داموا من أوتاد الدولة وأركان الملك.

وأما في ولاتهم، فببعدهم عن جور الرعية وإنصافهم الناس جميعًا، فلا يصيبهم من وراء لونهم السياسي أو مذهبهم الديني عسف ولا ظلم.

ولقد سأل الوليد عامله الحجاج، المعروف بعسفه وجبروته، أن يكتب إليه بسيرته، فكتب ما نثبته هنا - وكنا نود أن يكون نبراسًا حقًّا للحجاج وغير الحجاج - قال:

إني أيقظت رأيي، وأنمت هواي، فأدنيتُ السيد المطاع في قومه، ووليت الحرب الحازم في أمره، وقلدتُ الخراج الموفِّر لأمانته، وقسمت لكل خصم من نفسي قسماً يعطيه حظًّا من نظري ولطيف عنايتي، وصرفتُ السيف إلى النَّطِف المسيء، والثواب إلى المحسن البريء، فخاف المريب صولة العقاب، وتمسك المحسن بحظه من الثواب.

وأما في سائر شعبهم، فبأن يستمتعوا بكل ما يُرضي العدل والحق مع طمأنينتهم على مالهم وأنفسهم، وأن تكون أبواب الولاة لشكاتهم مفتوحة، وآذانهم لمطالبهم مصغية، وعيونهم لخيرهم ناظرة. وكم تفيد تلك الصفات مع حزم في الولاة!

وهذا زياد بن أبيه كان مع شدته لا يحتجب عن طالب حاجة وإن أتاه طارقًا بليل، وهو الذي كانت عقوبته القتل للمدلج، وأخذ المقبل بالمدبر

والمقيم بالظاعن. وقد وُفِّق زياد إلى استتباب الأمن في ربوعه حتى قال المدائني: «قدم قادم على معاوية بن أبي سفيان، فقال له معاوية: هل من مُغرِّبة خبَر؟ قال: نعم، نزلت بماء من مياه الأعراب، فبينا أنا عليه أورد أعرابي إبله، فلما شربتْ ضرب على جُنوبها وقال: عليك زيادًا، فقلت له: ما أردتَ بهذا؟ قال: هي سُدًى ما قام لي فيها راعٍ منذ ولي زياد. فسرَّ ذلك معاوية وكتبِ به إلى زياد».

قلنا: إن معاوية ومن ضرب على قالبه وغراره فَطِنوا بثقوب بصائرهم إلى استعمال كل ما فيه القوة والحياة لملكهم من شتى العناصر في أنفسهم وولاتهم وسائر شعبهم، والآن نريد أن ندرس بإيجاز الأسس التي باتباعها تم النجاح في تشييد البيت الأموي، والتي باضطرابها والتنكب عن سنتها وطبيعتها كان ضياعه وفناؤه.

(٢) اصطناع الأحزاب بالمال

قال ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء: «إن أحمد بن يوسف الكاتب قال لأبي يعقوب الخُرَيمي: مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد - يعني كاتب البرامكة - أشعر من مراثيك فيه وأجود! فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بون بعيد».

واستطرد ابن قتيبة فقال: «وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب، فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى، وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين؛ ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع، وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة».

صدق ابن قتيبة فيما ذهب إليه؛ فإن أثر المال في النفس الإنسانية غير قليل، وإن أثره في اصطناع الأحزاب السياسية لما لا يحتاج إلى تدليل؛ وقد جُبلت النفوس على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

ولقد كان معاوية كيِّسًا فذًّا في استعمال المال واكتساب رضا الجمهور، وكذلك كان كل من ائتمَّ بهديه وسنته في البذل والعطاء، وفي التوسعة على مَن آزرهم وعمِل على نصرتهم، ومدِّ ظلهم وتثبيت عرشهم؛ فقد زاد معاوية في العطاء لمن شهد مواقعه، كما فرض الأعطية للشعراء، غاضًّا طرفه عمَّا في ذلك من إغضاب المحافظين من رجال الدين؛ إذ كان همه أن يمتلك الأبواق المداحة، ويسترضيها بهباته ونواله، لتنشر في الآفاق ذكره، وترفع إلى السماكين فضله، حتى قصده الشعراء وانتجعوه، وناصروه وظاهروه، وحتى علم الخاص والعام أنه إن مدحه أثراه، وإن استرفده أغناه، وإن ناصره راشه وأعلى مكانه، فأضحى نُجعة الروَّاد ومقصدهم، وموئل القُصَّاد ومَنهَلَهم، وكانت الزوجة تستحث عزمات زوجها أن يَهرَع إليه ليصيب من نوافله، وليعود إليها بنوائله، كما كانت تُرغِّب بعلها أن يبيع إبله وأن يفترض في العطاء بشعره.

وقد حكى لنا أبو الفرج الأصفهاني شيئًا من ذلك في أخبار جبيهاء[1] الأشجعي في خبر طويل انتهى بأن قال جبيهاء الأشجعي قصيدته التي فيها:

قالت أنيسة: دع بلادك والتمس ... دارًا بطيبة ربة الآطام
تُكتب عيالُك في العطاء وتفترض ... وكذاك يفعل حازمُ الأقوام

وهنالك مسألة مهمة من سياستهم في اصطناع الأحزاب، وإلجام الأفواه بالمال، وفرض العطاء للشعراء الذي ظل معمولًا به إلا في أيام

عمر بن عبد العزيز، ذلك أنهم كانوا يتملكون رقاب المسلمين بإقراض من شاءوا من مال الصدقة، ويكتبون صكًّا عليهم، ونحن نعلم أن الدَّين همٌّ بالليل ومذلةٌ بالنهار.

ويذكر لنا الأغاني في باب أخبار جعفر بن الزبير ما فرضه له سليمان ابن عبد الملك إذ أمر له بألف دينار في دينه، وألف دينار معونة على عياله، وبرقيق من البيض والسودان، وبكثير من طعام الجاري، وأن يُدان من الصدقة بألفي دينار.

على أنه قد يعترض علينا بأن الحادثة التي قدمناها حادثة فردية لا يصح أن تتخذ قاعدة عامة، أو أن يستنبط منها وقوع مثيلاتها وذيوع نظيراتها، بيد أن الأغاني يُجهِز على هذا الاعتراض؛ إذ يثبت ما نصه: «كان السلطان بالمدينة إذا جاء مالَ الصدقة أدانَ مَن أراد من قريش منه، وكتب صكًّا عليه يستعبدهم به ويختلفون إليه ويدارونه، فإذا غضب على أحد منهم استخرج ذلك منه، حتى كان هارونُ الرشيد، فكلمه عبد الله بن مصعب في صكوك بقيت من ذلك على غير واحد من قريش، فأمر بها فأحرقت».

فمثل هذا التصرف في استرضاء الناس واستعبادهم، وفي إقراضهم المال ليكونوا أولياء، وتعجيزهم وإرهاقهم إن جنحوا لمناوأة ولاة الأمور أو منافستهم، له آثاره من خير وشر في المصلحة الحزبية لبيت بني أمية، طبقًا لما يبديه الزعماء من حنكة وحزم وإصابة لمواقع الصواب.

وبعد، فإن هذا السلاح الماضي في يد الأقوياء لهو أشد مضاء في القضاء على الضعفاء إذا أساءوا استعماله؛ لأنه قد يُبذَل لشراء مثل «الذلفاء» وغيرها من القيان، ولأنه قد يبذله الشباب من الخلفاء في ضروب الخلاعة

والاستهتار، فيكون معول هدم ودمار، كما حصل لمحمد الأمين وأمثال محمد الأمين مما سنورده عليك.

وإنا لنرى في أخريات هذا البيت ذي الأثر الكبير في تحول المدنية العربية أن بعض الخلفاء نقص الناس العطاء؛ فعانوا ضيقًا بعد سعة، وشظفًا بعد رفاهية. وشر السياسات أن تصيب صاحب عيش رغيد بإضاقة وحرمان، وأن تنزل به غضاضة التقتير والعسر.

ولننظر ما يقوله اليعقوبي عن خليفة من هذا الطراز: طراز الإضاقة في أرزاق الناس، وعنوان اضمحلال الدولة إذا آذن نجمها بالأفول؛ وآل أمرها إلى الإفلاس.

يقول اليعقوبي عن يزيد بن الوليد بن عبد الملك: إنه سُمِّي يزيد الناقص لأنه نقص الناس من أعطياتهم، واضطربت عليه البلدان، وكان ممن خرج عليه العباس بن الوليد بحمص، وشايعه أهل حمص، وبشر بن الوليد بقنِّسرين، وعمر بن الوليد بالأردن، ويزيد بن سليمان بفلسطين، وساعد العباس أبو محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية وسليمان بن هشام.

يريد اليعقوبي أن يقول من غير شك: إن هؤلاء الأمراء انتهزوا غضب الجند لنقصان الأعطية فثاروا.

ليس هذا فحسب، بل إن سياسة بعض الخلفاء دفعتهم إلى حرمان مدن بحذافيرها من عطائها، كما حصل لأهل مكة والمدينة إذ حُرموا سنة كاملة، في حين نرى معاوية قد زاد عطاء أهل البيت مثل الحسن والحسين وعبد الله بن عباس إلى ١٠٠٠٠٠٠ درهم في السنة؛ فضاعفها مائتي مرة عن حساب ديوان عمر بن الخطاب.

أفلا يجدر بنا بعد ما أسلفناه أن نقتنع بأن المال كان سببًا قويًّا لبناء بيت معاوية، وأن المال نفسه كان – إلى حد غير قليل – سببًا له خطره وقيمته في انهيار هذا البناء!

(٣) العمال

قال زياد: ما غلبني أمير المؤمنين معاوية قط إلا في أمر واحد؛ طلبت إليه رجلًا من عُمالي كسر عليَّ الخراج، فلجأ إليه، فكتبت إليه: «إن هذا فساد عملي وعملك»، فكتب إلي:

إنه لا ينبغي أن نسوس الناس سياسة واحدة: لا نلين جميعًا فيمرح الناس في المعصية، ولا نشتد فنحمل الناس على المهالك، ولكن تكون أنت للشدة والفظاظة والغلظة، وأكون أنا للرأفة والرحمة.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج حين استأذنه في أخذ تلك الصبابة من المال التي تترك لأصحاب الأراضي يتعللون بها، ولتكون لهم ردءًا وظهيرًا إذا نزلت بساحتهم النوائب والجوائح، قال: «لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك، وأبقِ لهم لحومًا يعقدون بها شحومًا».

بمثل هذه السياسة بين العمال والخلفاء، وبمثل اختيار معاوية وغير معاوية؛ كهشام وعبد الملك، لعمال ذوي كفاية ودهاء، وحذق وحسن بلاء؛ كزياد ومَن على شاكلته، أتيح لمعاوية وخلفاء معاوية تبوُّء عرش المملكة العربية قوي الأركان لا تهتصره العواصف والأعاصير، ثابتًا لا تزعزعه ثورات الخوارج ولا حروب المنافسين.

كانت الدولة أيام معاوية، أيام بنائها وتشييدها، أيام تلك المصاعب الكأداء التي اعتورت سبيلهم، وتلك الشدائد التي تُشيب وتُفزع، وتقض المضاجع، وتجتث من النفوس آمالها، ومن العزمات مضاءها، ومن القلوب بأسها - كانت الدولة يومئذ غنية بالكفايات، خصبة بمهرة العمال وحذاق الولاة. ولعلها سُنَّة طبعية أن يكون دور بناء العروش والممالك خصبًا برجاله الكُفاة، كما يكون دور انحلالها قاحلًا عقيمًا في كل شيء، وإن كانت الأمم وهي تتقطع أنفاسها قد لا تخلو ممن لا يألو جهدًا في سبيل إقالتها من عثرتها، وإنهاضها من سقطتها.

ألم يكن إلى جانب معاوية في عصر البناء أصحاب الكفايات النادرة من العمال والولاة أمثال: عمرو بن العاص وزياد بن أبيه والمغيرة بن شعبة الذين يقول فيهم بعض النقاد: «ما رأيت أثقل حلمًا ولا أطول أناة من معاوية، ولا رأيت أغلب للرجال ولا أبذَّ لهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص، ولا أشبه سرًّا بعلانية من زياد، ولو كان المغيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يُخرَج من باب منها إلا بالمكر؛ لخرج من أبوابها كلها».

على أنه يجدر بنا أن نصور حالة الولاة الكُفاة أيام القوة، وما آل إليه أمرهم بعد ذلك حتى أضحوا يتقربون إلى الخلفاء بالهدايا والألطاف والرشا مع عَسْف الرعية والكيد لها، ولنترك لليعقوبي التكلم عن الحالة الأولى، ولابن الأثير بيان الثانية، ثم نردف ذلك ببعض الحقائق التاريخية لكي يتاح لنا بعدئذ أن نطمئن إلى تقدير هذا العنصر - عنصر العمال - وأنه لا يقل عن المال قوة وأثرًا، سواء أكان ذلك في البناء أم في الهدم، أما البناء فبحسن اختيار العمال وكفاياتهم، وأما الهدم فبعسف الولاة وخرقهم، وسوء اختيارهم، وقلة بضاعتهم في تدبير الممالك وسياسة الناس.

قال اليعقوبي في معرض كلامه عن زياد بن أبيه بعد أن وصف ما له من دهاء وحيلة وصولة: «كان زياد يقول: مِلاكُ السلطان أربعُ خلال: العفاف عن المال، والقرب من المحسن، والشدة على المسيء، وصدق اللسان، وكان زياد أول من بسط الأرزاق على عماله ألف درهم، ولنفسه خمسة وعشرين ألف درهم، وكان يقول: ينبغي للوالي أن يكون أعلم بأهل عمله منهم بأنفسهم».

وبعد أن ضرب اليعقوبي الأمثال على معرفة زياد بدخائل رعيته قال مصورًا رأي زياد فيما يتطلبه بعض الشئون العامة من الصفات فيمن يتولاه: كان زياد يقول: «أربعة أعمال لا يليها إلا المسنُّ الذي قد عض على ناجذه: الثغر، والصائفة، والشُّرط، والقضاء، وينبغي أن يكون صاحب الشرط شديد الصولة، قليل الغفلة، وينبغي أن يكون صاحب الحرس مُسنًّا عفيفًا مأمونًا لا يطعن عليه، وينبغي أن يكون في الكاتب خمس خلال: بُعدُ غور، وحسن مداراة، وإحكام للعمل، وألا يؤخر عمل اليوم لغد، والنصيحة لصاحبه، وينبغي للحاجب أن يكون عاقلًا فطنًا قد خدم الملوك قبل أن يتولى حجابتهم».

ثم انظر ما آل إليه الأمر أيام الوليد بن يزيد الذي رغب في اكتساب قلوب الناس بعد نفورها، وإرضائها بعد تبرمها، وإيناسها بعد وحشتها، بأن يزيد في أعطياتهم، ويضاعف أرزاقهم، بيد أن معين المال قد نَضبَ أو كاد، والخزانة قد استنزفتها الملاذُّ وحروب الخوارج وإخماد الفتن، فعمد إلى بيع الولايات.

وإن ابن الأثير ليخبرنا في حوادث سنة خمس وعشرين ومائة، أن الوليد قد ولَّى نصر بن سيار خُراسان كلها وأفرده بها، ثم وفد يوسف بن عمر

على الوليد فاشترى منه نصرًا وعماله، فرد إليه الوليدُ ولايةَ خراسان، وكتب يوسف إلى نصر يأمره بالقدوم ويحملُ معه ما قدر عليه من الهدايا والأموال، وأن يُقدم معه عماله أجمعين. ثم قال: وكتب الوليد إلى نصر يأمره أن يتخذ له برابط وطنابير وأباريق ذهب وفضة، وأن يجمع له كل صُنَّاجة بخراسان، وكل باز وبرذون فارهٍ، ثم يسير بكل ذلك بنفسه في وجوه أهل خراسان.

ثم انظر ما يقوله الأغاني من عامل لعبد الملك بن مروان على خراسان، وهو أمية بن عبد الملك الذي كتب إليه يقول: «إن خراج خراسان لا يفي بمطبخي»، وما أثبته القاضي ابن خلِّكان في تاريخه عن أبي خالد يزيد بن أبي المثنى عمر بن هبيرة والي مروان بن محمد على العراق من أن رزقه كان ستمائة ألف درهم.

هذا إلى ما نزل بأهل الذمة وغيرهم من العسف وزيادة الضرائب، وما كان من تخلية أصحاب الأراضي لها بغير حرث ولا زرع، وما كان من مبالغة العمال في إهداء الخلفاء، ونزوعهم إلى جمع الثروة واختزان المال؛ فإنك بعد كل هذا تطمئن معي إلى الاقتناع بأن العمال الكفاة مصدر قوة في بناء الممالك، وعنصر يُحفلُ به في مادة حياتها، وأنهم عنوان مهابتها وصولتها، وأن الولاة الظلمة الضعاف مصدر ويل وثبور، وأداة هدم وتخريب وانتثار وفناء.

وإنا نسوق هنا كلمة لبعض بني أمية - حين سئل عن سبب زوال ملكهم - لا تخلو من عظة واعتبار، قال: «قلة التيقظ، وشُغلنا بلذاتنا عن التفرُّغ لمهاتنا، ووثقنا بكُفاتنا فآثروا مرافقهم علينا، وظلَم عُمالنا رعيتَنا

ففسدت نياتُهم لنا، وحُمل على أهل خراجنا فقلَّ دخلُنا، وبطل عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم أعداؤنا فأعانوهم علينا، وقصَدنا بُغاتنا فعجزنا عن دفعهم لقلة أنصارنا، وكان أوَّلُ زوال ملكنا استتار الأخبار عنا، فزال ملكنا عنا بنا».

(٤) الوجهة الدينية

إن سنة معاوية في بناء دولته لم تكن - مع ما نعلمه من ترخُّصه في إقامة الحدود في بعض الأحوال لضرورات سياسية - سنة استهانة بالدين، ولا إمعان في ازدرائه أو الخروج عن جلِّ مظاهر الاحتشام الديني الخليقة بمن يسوس أمور الدين والدنيا، هذه سنة معاوية وطريقته في سياسة الملك، أما خلفاؤه فقد تنكب جلُّهم سُنتَه الحكيمة، وأطلقوا لشهواتهم العنان فيما ينبغي أن يكون خلفاء المسلمين وأئمتهم بنجوةٍ منه، وقد كان لذلك آثاره في الدولة من حيث تأثر أخلاقها القومية، وما أصابها من انحلال وضعف، ومن تفكك وفتور. وسنعالج تصوير هذه العوامل بإيجاز واقتضاب في كلمتنا هذه؛ فلا نفرد لكل منها بابًا وإن كنا نعلم أنه يترتب على توضيحنا لهذه الأصول فائدة جُلَّى، بيد أن اتساع نواحي الموضوع وتشعب فروعه ومختلف أبوابه، كل ذلك يلزمنا إلزامًا اتباع ما رسمنا لأنفسنا من القصد والاعتدال.

لسنا بحاجة - على ما نظن - إلى تصوير أخلاق من فيهم الكفاية من خلفاء معاوية من ناحية الدين والخلق العام؛ لأن فيما عالجناه من تحليل أخلاق معاوية الغُنية والكفاية.

نريد الآن أن ندرس تلك الناحية العكسية، ناحية أولئك الخلفاء الذين لم يبالوا بالتقاليد الدينية فازدروا طقوسها، مع ما كان فيهم من ضعف وما بهم من خرق.

إن أمامنا يزيد بن معاوية، ويزيد بن عبد الملك، والوليد بن يزيد، أما ابن معاوية فقد أصاب اليعقوبي سدرة الصواب حين وصفه بأنه حلف نسوة، وصاحب ملاهٍ، ويكفي أن ندرس حياته – مع أن الدولة كانت في إبان قوتها وميعة شبابها – لنقتنع بأنها كانت بمثابة معاون هدم وتخريب، وإن في إلمامنا بما كان من مسلم بن عقبة الذي انتهك المدينة لمقنعًا بما نقول؛ لقد كان جند يزيد بعد واقعة الحرة وغيرها يطلبون إلى الرجل القرشي أن يبايع ليزيد، لا من ناحية اقتناعه الديني طبعًا، ولا بدافع الترغيب والمال، ولا بسياسة الرقة واللطف التي قد يُنال بها أكثر مما ينال بالشدة والعنف؛ بل من ناحية السيف والإرهاب، يجب أن يبايع وأنفه راغم، ويجب أن يبايع مع ما يرى من انتهاكهم المدينة، كانت جند يزيد تقول للقرشي: بايع على أنك عبد قن ليزيد، فإن أَبَى ضُرب عنقه، فكانت مقتلة ذريعة، ثم انظر ما كان من حصارهم مكة التي إذا قال قائلها: «يا أهل الشام، هذا حرم الله الذي كان مأمنًا في الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد، فاتقوا الله يا أهل الشام». صاح الشاميون: «الطاعة الطاعة».

لنترك يزيد جانبًا محيلين القارئ إلى ما في الأغاني وغيره من كتب الأدب والتاريخ، ولنردد الطرف في حياة يزيد بن عبد الملك، فنجد أبا الفرج الأصفهاني يذكر لنا، في غير موضع من حياة سلّامة القس وحبابة وغيرهما، شيئًا لا يستهان به عن إسرافه في تهتكه، فينقل لنا عن المدائني قوله: قدِم يزيد بن عبد الملك المدينة في خلافة سليمان، فتزوج سعدة بنت عبد الله بن

عمرو بن عثمان على عشرين ألف دينار، وربيحة بنت محمد بن علي بن عبيد الله بن جعفر على مثل ذلك، واشترى الغالية بألف دينار.

وفي رواية محمد بن سلام أنه اشتراها بأربعة آلاف دينار، ويقول في موضع آخر: إن رسل يزيد بن عبد الملك قدمت المدينة فاشتروا سلامة المغنية من آل رمانة بعشرين ألف دينار.

ولعلك تميل إلى مقابلة هذه الروايات مع تعدد رواتها بتحفظ المؤرخ العلمي الذي لا يقنعه إلا الوسائل التحليلية المؤيدة لصدق الرواية، على أنك تستطيع ذلك باطلاعك على ما يقوله اليعقوبي مثلًا عن طريقة جباية المال، وعلى ما كتبه يزيد بن عبد الملك إلى عمر بن هبيرة، وهو عامله على العراق، يأمره أن يمسح السواد، فمسحه سنة ١٠٥هـ، ولم يمسح السواد منذ مسحه عثمان بن حنيف في زمن عمر بن الخطاب حتى مسحه عمر ابن هبيرة، فوضع على النخل والشجر، وأضرَّ بأهل الخراج، ووضع على التانئة،[٢] وأعاد السخر والهدايا وما كان يؤخذ في النيروز والمهرجان، ليس هذا فحسب، بل انظر إلى تعلله في فرض الغرامات المالية على كبار رجال الدولة لا لجرم إلا أن نفوسهم حدثتهم أن يتزوجوا بعض آل البيت، فإن عبد الله بن الضحاك بن قيس الفهري، عاملِه على المدينة، كان قد خطب لنفسه فاطمة بنت الحسين بطريقة جافة، فعزله يزيد عن المدينة وولاها عبد الواحد بن عبد الله النصري، وكتب إليه أن يأخذه بأربعين ألف دينار ويعذِّبه، ففعل ذلك، ويقول المؤرخ الذي نقلنا عنه: إن عبد الله بن الضحاك قد رُئي وفي عنقه خرقة صوف يسأل الناس.

ولم يكتف يزيد بن عبد الملك بهذا، بل عزل عمال عمر بن عبد العزيز جميعًا، ونحن نعلم مَن هو عمر، وما عدله وما رقابته عماله، ويكفينا أن نذكر ما كان منه مع يزيد بن المهلب عامله على خراسان، فقد قال له عمر: «إني وجدت لك كتابًا إلى سليمان تذكر فيه أنه اجتمع قبلك ألفُ ألفٍ، فأين هي؟ فأنكرها ثم قال: دعني أجمعها، قال: أين؟ قال: أسعى إلى الناس، قال: تأخذها منهم مرة أخرى!» ثم ولَّى خراسان الجراح بن الحكمي.

وإنه لمن الممتع حقًّا تلك المناقشة الورعة الهادئة التي دارت بين عمر ويزيد، وبين عمر ومخلد بن يزيد، وتلك الصرامة التي لا تعرف في سبيل المحافظة على مال المسلمين لينًا ولا هوادة، وقد أثبتها ابن الأثير في كامله ولا حاجة بنا هنا إلى الاستطراد بذكرها.

***

فمن أمثال ما قدمناه نستطيع أن نقتنع بأن روايات صاحب الأغاني عن إسرافه قريبة من الواقع إن لم تكن صحيحة لا مبالغة فيها ولا غبار عليها، ثم لننظر الآن إلى أي مدًى كان هذا الصنف من الخلفاء تحت تأثير عشيقاتهم من القيان والمغنيات، وما كان لهنَّ من سلطان في أمور الدولة وتولية العمال وعزلهم؛ فإن ذلك يفيدنا في تفهمنا دور الانتقال الذي نحن فيه تفهُّمًا هو – في نظرنا – أشد اعتبارًا من الاعتماد على رأي المؤرخين وسردهم للحوادث بغير عناية ولا استقراء للنفسية العربية، وخاصة في أبهاء الخليفة، وحبذا العناية بها، سواء أكانت في بيت الخليفة أم في بيت العامل أم عند الرعية، فإن لدراستها ومراقبة نحوها نفعًا وكبير جدوى.

ينقل لنا أبو الفرج الأصفهاني عن المدائني أن حَبَابة – وهي عالِيةُ القَينة – «غلبت على يزيد وتبنَّى بها عمر بن هبيرة، فعلت منزلته حتى كان يدخل

على يزيد في أي وقت شاء، وحسَد ناس من بني أمية مسلمةَ بن عبد الملك على ولايته، وقدحوا فيه عند يزيد وقالوا: إن مسلمة إن اقتطع الخراج لم يحسن، يا أمير المؤمنين، أن يعيشه، وأن يستكشف عن شيء لسنِّه وخِفَّته، وقد علمتَ أن أمير المؤمنين لم يدخل أحدًا من أهل بيته في الخراج، فوقَر ذلك في قلب يزيد وعزم على عزله. وعمل ابن هبيرة في ولاية العراق من قبل حَبَابة، فعملت له في ذلك، وكان بين ابن هبيرة والقعقاع بن خالدة عداوة، وكانا يتنازعان ويتحاسدان، فقيل للقعقاع: لقد نزل ابن هبيرة من أمير المؤمنين منزلة؛ إنه لصاحب العراق غدًا! فقال: ومَن يُطيق ابن هبيرة؟ حبابة بالليل وهداياه بالنهار! مع أنه وإن كان بلغ فإنه رجل من بني سكين، فلم تزل حبابة تعمل له في العراق حتى وليها».

مثل هذا الخبر له قيمته التاريخية في تعرف حال الدولة العربية في ذلك الحين، ولو جاز لنا أن نحلل لنظرنا طويلًا في قول القعقاع بن خالد: «ومن يطيق ابن هبيرة؟ حبابة بالليل وهداياه بالنهار، مع أنه وإن كان بلغ فإنه رجل من بني سكين». فإنه لا يفيدنا في تفهم وقوع الخليفة تحت سلطان عشيقته، ولا في قبوله للرشا فحسب، بل يفيدنا فهم تحول العصبيات العربية الأخيرة، ومبلغ نظر العربي إلى سواه.

أما استخفاف الوليد بن يزيد بالدين، وخمرياته التي فاقت خمريات يزيد ابن معاوية، والتي نرى أن لها أثرًا كبيرًا في أبي نواس وحسين بن الضحاك، وبركة الخمر التي احتواها قصره، فإن أمهات كتب الأدب العربي ومظان التاريخ مفعمة من ذلك بما لا نتعرض له في هذه العجالة بأكثر من إحالة القارئ على ما قاله الوليد في القرآن، وما أحصاه بعضهم له من عدد

الأقداح التي شربها في ليلة من ليالي شرابه؛ إذ أثبت صاحب الأغاني أنها سبعون قدحًا، وإن كنا نفترض في مثل هذه الأحوال جنوح الرواة إلى المبالغة والإغراق، ثم لتنظر معنا فيما يقوله ابن الأثير عنه حين ولَّاه هشامٌ الحجَّ، فإنه يخبرنا أنه لما أراد هشام أن يقطع عنه ندماءه ولَّاه الحج سنة ست عشرة ومائة، فحمل معه كلابًا في صناديق، وعمل قبة على قدر الكعبة ليضعها على الكعبة، وحمل معه الخمر وأراد أن تنصب القبة على الكعبة وتشرب فيها الخمر. وقد أيد المؤرخون هذه الحادثة، ويقول اليعقوبي: إن الوليد بعث مهندسًا ليقوم بذلك.

ثم انظر إلى بيعه خالدًا القسري إلى يوسف بن عمر بخمسين ألف ألف، وما رواه المؤرخون من إرساله إلى خالد قائلًا له: «إن يوسف يشتريك بخمسين ألف ألف، فإن كنت تضمنها وإلا دفعتك إليه». فأجابه خالد بأحسن جواب إذ قال له: «ما عهدت العربَ تُباع، والله لو سألتني أن أضمن عودًا ما ضمنته». ومع ذلك فقد دفعه إلى يوسف فعذَّبه وقتله!

ثم لننظر إلى نظر الرأي العام إليه وإلى تصرفاته، وأمامنا من ذلك شعر حمزة بن بيض فيه إذ يقول:

يا وليد الخنا تركت الطريقا ... واضحًا وارتكبت فجًّا عميقا

وتماديت واعتديت وأسرفـ ... ـت وأغويت وانبعثت فسوقا

أبدًا هات ثم هات وهات ... ثم هات حتى تخر صعيقا

أنت سكران ما تفيق فما تر ... تق فتقًا وقد فتقت فتوقا

وإنا نثبت هنا أيضًا ما دار بين الوليد بن يزيد حين حوصر في قصره ويزيد بن عنبسة السكسكي، فقد قال له الوليد: «يا أخا السكاسك، ألم

أزد في أعطياتكم؟! ألم أرفع المؤن عنكم؟! ألم أعط فقراءكم؟! ألم أخدم زمناكم؟!» قال: «إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، وإنما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله».

ولتنظر معي أيضًا إلى عبد الملك بن مروان، وهو من الخلفاء الثلاثة المعدودين أقطابًا لهذه الدولة، وإلى ما كان من جبروته وضعف الوازع الديني عنده حتى استباح لنفسه أن يقول وهو على المنبر: «من قال لي بعد مقامي هذا: اتق الله؛ ضربت عنقه».

وبعد، فإنه ليخيل إلينا أن فيما قدمناه بعض المقنع بما كان من استهانة الخلفاء بالدين، ومن إمعانهم في التهتك والخروج عليه.

ونريد الآن أن ندرس تأثر الخلق العربي بما كان للخلفاء من تنكب عن سنن الدين، وإمعان في التهتك والاستهتار، والناس على دين ملوكهم، والملوك على سنة رعيتهم، أو كما يقول عبد الملك بن مروان: «تطلبون منا أن نسير فيكم بسيرة الشيخين أبي بكر وعمر ولا تسيرون أنتم بسيرة الناس أيام أبي بكر وعمر». على أنا نرغم أنفسنا إرغامًا على أن نكتفي في هذا الفصل الذي كادت تتشعب علينا فروعه ونواحيه، وكدنا نضلُّ في مهامِهِه وبواديه بمَثَلين قد لا يخلوان من النفع، وعمدتنا في ذلك الأغاني، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وإن كان المثل الأخير هو إلى الأدب والعظة أقرب منه إلى التاريخ والتحليل العلمي، بيد أنا آثرنا إيراده لأنه حسن في نفسه، ومصيب محجة الصواب في جملته.

يقول أبو الفرج: إنه لما قدم عثمان بن حيان المرِّي، والي يزيد بن عبد الملك، المدينة قال له قوم من وجوه الناس: إنك وليت على كثرة من

الفساد، فإن كنت تريد أن تُصلح فطهِّرها من الغناء والزنا إلخ. ونفهم من جملة الرواية أنه لم يفز في مهمته بطائل، ولم يوفق إلى ما كان يرجوه للناس من صلاح وتقويم.

أما ما يرويه لنا ابن قتيبة في عيون أخباره، فها هو ذا بنصه وعبارته، وهو ختام هذا الفصل بعد أن كدنا نطيل، قال: «سمر المنصور ذات ليلة فذكر خلفاء بني أمية وسيرهم، وأنهم لم يزالوا على استقامة حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين، فكانت همُّهم من عِظَم شأن الملك وجلالة قدره قصدَ الشهوات، وإيثار اللذات، والدخول في معاصي الله ومساخطه، جهلاً منهم باستدراج الله، وأمنًا لمكره، فسلبهم الله العز، ونقل عنهم النعمة، فقال له صالح بن علي: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن مروان لما دخل أرض النوبة هاربًا فيمن معه سأل ملكُ النوبة عنهم فأُخبر، فركب إلى عبد الله فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه، وأزعجه عن بلده، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ويسأله عن ذلك، فأمر المنصور بإحضاره وسأله عن القصة، فقال: يا أمير المؤمنين، قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي فافترشت بها وأقمت ثلاثًا، فأتاني ملك النوبة وقد خبر أمرَنا، فدخل عليَّ رجل أقنى طُوالٌ حسن الوجه، فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب، فقلت له: ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا؟ قال: لأني ملك، وحق على كل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه! ثم قال لي: لم تشربون الخمر وهي محرمة عليكم؟ قلت: اجترأ على ذلك عبيدُنا وأتباعنا لأن الملك زال عنا؛ قال: فلم تَطَئون الزروع بدوابكم والفساد مُحرمٌ عليكم في كتابكم؟ قلت: يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم، قال: فلم تلبسون

الديباج والحرير وتستعملون الذهب والفضة وذلك محرم عليكم؟ قلت: ذهب الملك منا وقلَّ أنصارنا، فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا، فلبسوا ذلك على الكُره منا، قال: فأطرق مليًّا وجعل يقلب يديه وينكت في الأرض ويقول: عبيدنا وأتباعنا! دخلوا في ديننا! وزال الملك عنا! يردِّده مرارًا، ثم قال: ليس ذلك كما ذكرتَ، بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله عليكم، وركبتم ما عنه نهاكم، وظلمتم فيما ملكتم، فسلبكم الله العزَّ وألبسكم الذل بذنوبكم، ولله فيكم نقمة لم تبلغ غايتها، وأخاف أن يحلَّ بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم، وإنما الضيافة ثلاثة أيام، فتزودوا ما احتجتم إليه وارتحلوا عن بلدي. ففعلت ذلك».

(٥) التعسف المذهبي

نريد أن ننظر الآن نظرة عَجلَى في أمر التعسف المذهبي، ونحن نعلم ما أصاب جماعة عليٍّ أيام معاوية وهو في حكمه وحلمه ومرونته، نعلم ما أصاب حُجْر بن عدي الكندي وجماعته، كما نعلم ما أصابها أيام يزيد من قتل هانئ بن عروة، ومسلم بن عقيل، والحسين بن علي، وزيد بن علي الذي صُلب على شاطئ الفرات وذُرِّي رماده في الماء، ولننظر نظرة خاصة إلى حياة بُسر بن أبي أرطأة وقتله الأطفال والرجال والنساء، ولنترك معاوية هنا يصور لنا مبلغ تأثر نفوس بني هاشم من خطة التعسف المذهبي هذه؛ فإن أبا الفرج الأصفهاني يقول في كتابه: لما كانت الجماعة واستقر الأمر لمعاوية، دخل عليه عبيد الله بن العباس وعنده بسر بن أبي أرطأة، فقال له عبيد الله: أأنت قاتل الصبيين أيها الشيخ؟ قال بسر: نعم، أنا قاتلهما، فقال عبيد الله: أما والله لوددت أن الأرض كانت أنبتتني عندك! فقال بُسر: فقد

أنبتتك الآن عندي، فقال عبيد الله: ألا سيف؟ فقال له بسرٌ: هاك سيفي. فلما أهوى عبيد الله إلى السيف ليتناوله أخذه معاوية ثم قال لبسر: «أخزاك الله شيخًا! قد كبرت وذهب عقلك! وذلك رجل من بني هاشم قد وترته وقتلت ابنيه، تدفع إليه سيفك! إنك لغافل عن قلوب بني هاشم! ولو تمكن منه لبدأ بي قبلك»، قال عبيد الله: «أجل! وكنت أثني به».

ثم انظر كيف انتقم من بسر رجلٌ من اليمن اتصل به حتى وثق به، ثم احتال لقتل ابنيه، فخرج بهما إلى وادي أوطاس[٣] فقتلهما وهرب.

على أنه يجدر بنا أن نصوِّر إلى أي مدًى بلغت نتائج خطط الأمويين السياسية، من حيث بثهم البغضاء في النفوس لعلي وشيعته، وصرف الناس عن ذكرهم، وما كان من لعنهم على المنابر من تأثير خليق بعنايتنا، ومراجعُنا في هذه الناحية عدةُ مصادر، بيد أنا نجتزئ اجتزاء، ونحيل القارئ إلى ما رواه ابن عائشة عن شعور رجل من الشام نحو حفيد علي، وقد نقل ذلك المبرد في الكامل.

ولننظر كذلك إلى مدى الأحزاب الدينية وأضدادها التي كانت نتيجة لازمة لآثار التعسف المذهبي والتحزب الديني، وقد ذكر البيروني في «الآثار الباقية» طرفًا من ذلك، ونجتزئ هنا بشيء مما جاء في «المواهب الفتحية» لأستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله، قال: ما أحسن قول أبي الحسين الجزار خصوصًا في بيتيه الثالث والخامس:

ويعود عاشوراء يذكرني ... رزء الحسين فليت لم يَعُد
أم ليت عينًا فيه قد كُحلَت ... بإثمدٍ لم تَخلُ من رمد
ويدًا به لشماتة خضبت ... مقطوعة من زندها بيدي

يوم سبيلي حين أذكره ألا يدور الصبر في خلدي
أما وقد قُتِل الحسين به فأبو الحسين أحقُّ بالكمد

ولبعض الهاشميين معتذرًا من الكحل يوم عاشوراء:

لم أكتحل في صباح يوم أهريق فيه دم الحسين
إلا لحزني وذاك أني سودت حتى بياض عيني

إلى غير ذلك مما أثبته المؤلف لعمارة اليمني والإمام ابن الجوزي مما لا سبيل إلى الاستطراد فيه ههنا.

ولننظر إلى حادثة رواها المسعودي في «مروج الذهب» قال: «لما طلب عبد الله بن عليٍّ مروانَ ونزل بالشام، وجَّه إلى أبي العباس أشياخًا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة، فحلفوا لأبي العباس السفاح ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة! فقال في ذلك إبراهيم بن المهاجر:

أيها الناس اسمعوا أخبركم عجبًا زاد على كل العجب
عجبًا من عبد شمس إنهم فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه يحرز الميراث إلا من قَرُب

ولنُلمَّ الآن إلمامة عجلى بما كان للتعسف المذهبي من الأثر في نفوس الخوارج، محيلين إلى الكامل للمبرد من أراد توسعًا وتبصرًا، ونكتفي هنا بنقل مثل من الطبري يظهر لنا مقدار استماتتهم في سبيل نصرة مذهبهم مهما نالهم من تقتيل، وأمامنا حوادث سنة خمسين التي يقول فيها الطبري: إن

عبيد الله بن زياد اشتد فيها على الخوارج فقتل منهم صبرًا جماعة كثيرة، وفي الحرب جماعة أخرى، ويقول عنهم في موضع آخر: خرج مرداس أبو بلال، وهو من بني ربيعة بن حنظلة، في أربعين رجلًا إلى الأهواز، فبعث إليهم ابن زياد جيشًا عليهم ابنُ حصن التميمي، فقَتلوا في أصحابه وهزَموه، فقال رجل من بني تيم الله بن ثعلبة:

أألفا مؤمن منكم زعمتم ... ويقتلهم بآسَكَ[٤] أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة يُنصَرونا

هوامش

(١) قال شارح القاموس في مادة «جبة»: جُبَيهاء الأشجعي - كحُمَيراء - شاعر معروف كما في الصحاح، وقال ابن دريد: هو جبهاء الأشجعي بالتكبير.

(٢) التانئة: الجماعة المقيمون في البلاد لا ينفرون مع الغزاة. انظر: اللسان، مادة «تنأ».

(٣) أوطاس: وادٍ في ديار هوازن فيه كانت واقعة حنين، ويومئذ قال النبي ﷺ: «حمى الوطيس». وهو أول من قال ذلك. انظر: معجم ياقوت، في «أوطاس».

(٤) آسك: بلد من نواحي الأهواز قرب أرجان بين أرجان ورامهرمز، بينها وبين أرجان يومان، وهي بلدة ذات نخيل ومياه. انظر: ياقوت في «آسك» وكامل المبرد (ص٥٨٧، طبعة أوروبا).

الفصل الرابع

ولاية العهد

(١) نظام ولاية العهد وابن خلدون

قال ابن خلدون في مقدمته: «إن معاوية عهد إلى يزيد خوفًا من افتراق الكلمة بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الأمر إلى سواهم، فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه». ثم زاد هذا توضيحًا في مكان آخر من مقدمته فقال: «إن الذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون سواه إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم، باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذٍ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يُظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء».

لسنا هنا في موقف الراغب في تحليل أقوال مؤرخنا الكبير، وهل أصاب محجة الصواب في تعليله ما دفع معاوية إلى عقد البيعة ليزيد، ولكنا صدرنا هذا الباب بكلمة ابن خلدون لنصور سر قبول العرب، لأول عهدهم، نظام ولاية العهد عامة، والوراثي خاصة، وما قبولهم إياه إلا لأن شوكة يزيد يومئذ مستمدة من عصابة بني أمية كلها، وجمهور أهل الحل والعقد من قريش، وبذلك تستتبع عصبية مُضر أجمع، وعصبيتهم أعظم من كل شوكة؛ إذ لا تطاق مقاومتهم، ومن هنا أقصى العرب عن يزيد، وأقاموا

على الدعاء بهدايته والراحة منه. ولعل هذا يكشف عن سبب فشل الحسين ابن علي وابن الزبير في مطالبتهما بالخلافة كما بيَّن ذلك ابن خلدون مما لا حاجة بنا للتعرض له الآن.

على أن التاريخ يقنعنا أن نظام ولاية العهد لم تقبله العقلية العربية بسهولة، مع اعتقادنا صحة ما ذهب إليه ابن خلدون من سبب انتصرت به فكرة ولاية العهد، وهو اعتمادها على العصبية، وربما جاز لنا أن نعزو سقوطها من بعض النواحي إلى هذه العصبية أيضًا مما لا نعرض له هنا الآن.

أجل، يخبرنا التاريخ بتلك الأدوار العِدَّة التي مرت بها مسألة البيعة ليزيد، وأن السياسة نهضت بنصيب غير قليل في سبيل تذليل الصعوبات التي قامت بادئ ذي بدء دون أن تجعل البيعة ليزيد سهلة ميسورة تؤتي ثمرها بغير عناء كبير.

يخبرنا التاريخ بما فعله المغيرة بن شعبة وغيرُ المغيرة بن شعبة، وإيفادهم الوفود إلى معاوية، ويخبرنا بمبلغ ما أنفق معاوية من المال وما أبداه من احتمال وحزم، وما بذله ابنه يزيد من شدة وعسف، وكل هذه العوامل تستدعي دراسة دقيقة لا نعرض لها لأنها لا تعنينا في هذه المقدمة كثيرًا.

نريد أن نقول شيئًا واحدًا ميسورًا فهمه؛ ذلك أن نظام ولاية العهد - الذي ربما كان ضروريًّا لا مندوحة عنه في أول عهد الدولة لما بيَّنه لنا ابن خلدون - كان في نفسه سببًا يعتد به من أسباب سقوط الدولة الأموية، أو على أقل تقدير كان لنظام ولاية العهد أخيرًا أثره الكبير في ضعف سلطان بني أمية وذهاب ريحهم.

(٢) خطر نظام ولاية العهد وأثر البطانات

لننظر نظرة عجلى في تاريخ هذا النظام لنقنع بما وصلت إليه بحوثنا، فنرى مثلًا أن مروان بن الحكم جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك ابن مروان، ثم من بعده لابنه عبد العزيز بن مروان، ومهما يكن الباعث لمروان على أن يجعل ولاية العهد لولدين من أولاده، فإن جُلَّ خلفاء بني أمية من بعده اتخذوا صنيعه سنة متبعة. سنرى في كلامنا عن العصر العباسي إلى أي مدًى كان خطر هذا النظام على حياة الدولة، أو على الأقل مبلغ ما فيه من ضعف لها، وإيذان باضمحلالها، واضطراب لحبلها.

لم يكن هذا النظام شرًّا مستطيرًا وعاملًا كبيرًا من عوامل الضعف؛ إلَّا لما يستلزمه من نكث العهد، ثم من انشقاق البيت المالك على نفسه، وترك المجال واسعًا لوشايات تسعى بها بطانات السوء ممن نرجو أن نصوِّر مثَلهم ومثَل صنيعهم السيئ ومثَل خطرهم على الدولة، حين نعرض للكلام عن عصر المأمون وما شجر بين الأخوين من خلاف، أو ما أذكته البطانة بينهما من خلاف – هذه البطانة ترقب دائمًا انشقاق البيت المالك، أو ما هو مُركَّب في الطبيعة البشرية وولاة العهد من ترقُّب لتسلُّم مقاليد الأمور، وتعجل للذة الحكم والسلطان، فتستغله لتقضي مآربها، وتستمتع بأطماعها، وسرعان ما تجد الفرصة سانحة لها، ومواتية لأطماعها إذا صار الأمر إلى ولي العهد الأول الذي حاول ما هو طبعي من خلْع من أُشرك معه في ولاية العهد؛ إما كراهية له، أو إيثارًا لغيره عليه ممن هم أمسُّ منه رحمًا، وأقرب مودة.

نعم، قد يجد ولي العهد كثيرين من الناصحين الذين يستنكرون الخلع، بيد أنه لا يعدم أيضًا كثيرين ممن هواهم مع غير هذا الذي يراد خلعه يُزيِّنون

له ما يحاول، حتى إذا صار الأمر إلى مَن أريد خلعه كافأ كلًّا من الفريقين بما يستحق - وكان أحيانًا يُفتَك بكثير من ذوي البلاء الحسن في تشييد الملك؛ وهذا الفتك على ما فيه من خسارة قوم من ذوي الرأي والتجارب قد كان يبذر في قلوب أنصارهم وعشائرهم بذور الحقد وحب الانتقام - وبذلك صار بنو أمية يفقدون العشائر عشيرة بعد عشيرة، وأخذ ظلُّ سلطانهم على النفوس ينحسر شيئًا فشيئًا، حتى إذا قام لهم منافس عظيم لم يجدوا لديهم من القوة والكفايات والأنصار ما يستطيعون به التغلب عليه.

قد تطلب إليَّ توضيح ما قدمته لك من المقدمات من حوادث التاريخ؛ لأنك تعتبر الوشائج والصلات التي بين ما نحن بصدده وبين عصرنا المأموني قوية من حيث ما وقع فيه الرشيد وغيره من خطأ في نظام ولاية العهد، وقد تطلب مني أن أمر مسرعًا بجسام الحوادث التي لها آثارها ونتائجها، وأن أكون مجملًا لا مفصلًا، وموجزًا لا مُسهبًا.

على أنني سأترك الأدلة التي أفعم به الطبري وابن الأثير كل سنة من سنيها تُحدِّث وحدها بصدق ما ذهبت إليه، وأسمح لنفسي بأن أتساءل مليًّا: ماذا فعل عبد الملك لما وصل الحكم إلى يده؟ لقد حاول ما هو طبعي من عزل أخيه عبد العزيز وتحويل عهده إلى الوليد، ولولا وفاة عبد العزيز لوقعت الأزمة، وشجر الخلاف، وعمد كلٌّ إلى سلاحه وحزبه.

ثم ماذا فعل عبد الملك؟ لقد ولَّى الوليد وسليمان، فحاول الوليد ما هو طبعي من عزل سليمان وتولية ابنه لولا أن عاجله القضاء.

ثم ماذا فعل سليمان؟ لقد ولَّى عهده عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك.

ثم ماذا فعل عمرُ بن عبد العزيز، وماذا فعل يزيد، وماذا فعل هشام؟ إن التاريخ وختام عهد كلٍّ ليؤيدان، بقوة ووضوح ليس بعدهما من مزيد، صحة ما ذهبنا إليه مما يبيح لنا أن نختصر الحوادث والأدلة اختصارًا.

على أنه قد يطلب منا إثبات تلك الحال المؤلمة التي تنتج عن المبايعة لاثنين بولاية العهد، ومبلغ خسارة الدولة من رجالها المعدودين وأقطابها النادرين في هذا السبيل؛ سبيل اصطدام صاحبي ولاية العهد. وسنجمل ذلك إجمالًا يستدعيه مقامنا.

إنه من الميسور أن يقرأ القارئ أن ولاية العهد كتبت لهشام ثم للوليد من بعده مثلًا، وربما فاته أن لكلٍّ حزبًا يناصره، وبطانة تنشر دعوته، وربما تطرفت في منهجها السياسي تطرفًا يؤكد العداوة في القلوب، ويستثير السخائم في النفوس، ولماذا نذهب بعيدًا وأمامنا ما وقع بين هشام والوليد، فإنَّ هشامًا مات قبل أن يكلل بالنجاح مسعاه، فسرعان ما نمَّت أقوال الوليد عن شديد مقته لهشام؛ فقال مثلًا:

هلك الأحوال المشو م وقد أُرسل المطر
وملَكنا من بعد ذا ك فقد أورق الشجر
فاشكر الله إنه زائد كلَّ من شكر

ولم يكتف الوليد بالقول دون الفعل، بل اندفع - فيما يخبرنا المؤرخون - مع تيار بطانته ومشايعيه، وشمر عن ساعد الانتقام ممَّن ناصر عمه هشامًا، مثل محمد وإبراهيم ابني هشام بن إسماعيل؛ حيث عذبهما يوسف بن محمد الثقفي، والي المدينة، ويوسف بن عمر، حاكم العراق، حتى ماتا.

ولم يكتف الوليد بن يزيد بذلك، بل قبض على سليمان بن هشام فضربه مائة سوط ومثَّل به؛ إذ حلق رأسه ولحيته، كما حبس يزيد بن هشام والكثيرين من البيت المالك.

لم يكتف الوليد بن يزيد، بل أحرج خالدًا القسري، وهو من زعماء اليمن ورؤسائها، بأن يبايع لابنه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده، فلما أبى عليه ذلك بعث به إلى والي العراق يوسف بن عمر الثقفي، فنزع ثيابه وعذبه عذابًا مبرحًا، وهو يحتمل ذلك كله بصمت وإباء، ثم حمله إلى الكوفة إلى من أنزلوا به كل لون من ألوان العذاب حتى مات، وما مات إلا بثمن باهظ دفعه الوليد؛ ذلك أنه كتب على نفسه عداوة قضاعة واليمن، وجل جند الشام من قضاعة واليمن، وهم الذين مثلوا دورهم الخطير أخيرًا مع الوليد؛ إذ بايعوا يزيد وثاروا معه، فكانت خاتمة الوليد ما قد علمناه من احتمائه بقصره وتقحُّمهم عليه داره، وفعلهم به ما أصاب عثمان من مأساة؛ إذ حزوا رأسه وهو يتلو القرآن ثم نصبوه على رمح وطيف به في دمشق.

على أنا نفترض المبالغة فيما ينسبه الرواة إلى هذا الخليفة المغلوب على أمره، ولكنا نؤمن مع ذلك إيمانًا صادقًا بالنتائج السيئة لنظام ولاية العهد الثنائي أو الثلاثي.

وإنا نظن أن فيما قدمناه لك غنية وكفاية، وإن أردت منا مزيدًا فانظر ما نال به سليمان قادة الدولة أمثال: محمد بن القاسم بن محمد الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، وموسى بن نصير، وما كان يعدُّ للحجاج وغيره ممن قل أن يجتمع أمثالهم في عصر واحد. وإنا نحيل القارئ إلى ابن الأثير

ليقدر معنا الأسس التي بنينا عليها رأينا فيهم، وليقف بنفسه على كبريات فتوحهم وجسام أعمالهم التي كانت غرة في جبين عصرهم، بل في جبين تاريخ الدولة الأموية.

وبعد، أفليس من العدل أن يستنبط القارئ معنا ما يصيب الدولة من المنازعات والشقاق، ومن الضعف والإفلاس السياسي من جراء ذلك النظام الممقوت، نظام ولاية العهد على هذا النحو في غير قانون ولا سنة، وأن يَعُدَّه معنا سببًا لا يستهان به من أسباب سقوط البيت الأموي.

(٣) العصبية العربية

الذي يهمنا الآن هو أن نوجِّه النظر إلى تأثير نظام ولاية العهد في صورته التي صورناها لك من حيث مساسه بالعصبية العربية التي كانت، كما تعلم، عنيفة محتدمة بين المضرية واليمنية، وأنت تعلم أن الخلفاء من بني أمية كانوا يصهرون إلى قبائل مضر كما كانوا يصهرون إلى قبائل اليمن، فكانت هذه القبائل تَجِدُّ في تأييد الأمير الذي يتصل بها نسبه. وهذه الفكرة نفسها تعيننا على أن نفهم، بنوع خاص، موقف العرب أيام يزيد بن معاوية، كما أنها تعيننا على أن نفهم ما ثار حول هشام والوليد بن يزيد من الخصومات التي قدمنا لك طرفًا منها، ولم يكد ينتهي الأمر إلى مروان بن محمد حتى كانت الخصومة بين المضرية واليمنية قد انتهت إلى أقصاها، بحيث عجز هذان الفريقان من العرب عن أن يكونا وحدة قوية تثبت للطوارئ، فلم يظهر أمر الموالي حتى كان العرب مفترقين متخاذلين، لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعًا، وسنتكلم على العصبية وآثارها ببسطة في القول أكثر مما تكلمنا هنا في موضعها الطبيعي من الكتاب الثاني.

ولما كانت الدولة العباسية قد قامت بالموالي وبأسنتهم، ومحاولتهم الانتقام لأنفسهم وكرامتهم من بني أمية الذين ساموهم سوء العذاب، وساسوهم شر سياسة، فإنا نرجئ كلامنا عن هذا العنصر القوي من أسباب اعتلاء الدولة الأموية سلطان الحكم وأسباب سقوطها إلى موضعه الطبيعي من تنظيم كتابنا، وحين ذاك يحق لنا أن نبين تحول العصبية العربية إلى تلك النواحي الشائكة الوعرة التي قضت على الدولة الأموية، وأقامت دولة بني العباس، والتي أدالت منها هي أيضًا، وحين ذاك أيضًا يحق لنا أن ندرس نظر العربي إلى غير العربي في العصر الأموي وفي غير العصر الأموي، مما كانت له نتائجه الخطيرة في حياة العرب، وفي تحول مدنيات العرب.

فلنتريث إذن، وخير لنا وللتاريخ أن يكون موضع هذا الباب في كلامنا على الدولة العباسية، وخير لنا أيضًا أن ننتقل الآن إلى تصوير الحياة الأدبية من نثر وشعر وخطابة، وإلى تصوير الحياة العلمية بضروبها لذلك العصر الأموي الذي كان بحق نواة طيبة للعصر العباسي، مُتوخِّين في ذلك الإيجاز والإجمال، ولعلنا نوفق إلى حسن الإصابة فيما نريد.

***

الفصل الخامس

الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموي

(١) توطئة

لسنا نريد أن نسهب في بيان الحياة العلمية والأدبية في العصر الأموي؛ لأن ذلك يكاد يخرج بنا عن مقصدنا الأساسي من اقتصار مقدمتنا هذه على توضيح موجز، من غير إسراف ولا تطويل، للعصر السابق لعصرنا المأموني الذي كان نتيجة لازمة لما تقدمه واكتنفه من عوامل متعددة، توضيحًا معتدلًا يجعلنا نطمئن، بعد تفهمنا للآداب العباسية، إلى تبين الفروق والمميزات والآثار التي خلَّفها لتاريخ المدنية الإسلامية، بل لتاريخ المدنية الإنسانية، ذلك العصر الذهبي، وهو عصرُنا المأموني الخالد.

لقد تغيرت حالة اللغة وآدابها في العصر الأموي عما كانت عليه في الدور الجاهلي تغيرًا عظيمًا؛ إذ رقت الأساليب وقلَّ الحوشيُّ والمُتنافر، واتسعت الأغراض وكثرت باتساع مطالب الحياة الجديدة ووفرتها، وهذا يتمشى بوجه عام مع تغيير حياة العرب الاجتماعية والدينية والسياسية، وبعبارة أخرى: تغيرت حياةُ الآداب والعلوم في ذلك العصر طبقًا لما أفادته العرب في فتوحهم ومغازيهم في غنائم وأموال، ووقوفهم على آثار المدنيات لأمم ذات حظ من العلم غير قليل. ولقد كان لكتاب الله المعجز بآياته وسحر بلاغته ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أثره في فتق أذهانهم، وصقل عباراتهم، وتوحيد لهجاتهم، بل كان الكنز الذي يلجئون إلى ما فيه

من أدب جمٍّ، وعظة بالغة، وأساليب رائعة، ويستمدون منه ما ينفعهم في معاشهم وحياتهم الدنيا والآخرة.

وإنه ليجدر بنا أن نتساءل عن مدى ما أصاب الآداب العربية من تغيير في العصر الأموي، وهو تغير خطير يستدعي درسُه عنايةً ودقيقَ ملاحظة وتعرفًا غير قليل لما كانت عليه الآداب في العصر الجاهلي.

***

إن تحول الآداب العربية في ذلك العصر أصاب التراث الجاهلي القديم من لغة وخطابة وشعر وأمثال، وما كان للقوم من علم بشئون الحياة والوجود، كما أنه أحدث علومًا وآدابًا اقتضاها الإسلام، وقد كان لكتاب الله وسنة رسوله وما للأئمة من تأويل في فهمهما، كان لذلك كله أثره في خَلْق علوم شرعية لم يكن للعرب منها حظ من قبلُ، فنشأ في هذا العصر علم التفسير ورواية الحديث وعلوم اللغة؛ كالنحو وما إلى النحو، على أن هذه العلوم الإسلامية المحدثة التي كانت وليدة العصر الأموي خاصة، وعصر صدر الإسلام عامة، لم تكن مولود هذا العصر الوحيد الذي أصبحت فيه البصرة دارًا للعلم والعرفان والمدنية، ومسرحًا للهو والافتتان، والشام مقر الملك والسلطان، بل كان إلى جانبها مولود آخر كان من شأنه وضع التاريخ والجغرافيا وغيرهما، واتخاذ ديوان الخاتم، ونقل الدواوين من لغة إلى أخرى، وقد كان هذا المولود الآخر نتيجة الفتوح الإسلامية، وخاصة تلك الأقطار التي كانت متأثرة بآداب الفرس والرومان واليونان، وبعبارة أدق: تلك العلوم التي أفادتها العرب أو الدولة الإسلامية من اعتناق الفرس وأهل الشام ومصر وغيرهم - من أسرى الروم - للإسلام، وقد

تستدعي هذه النقطة توضيحًا، ونظن أنا إذا ما فسرناها بعض التفسير نتعجل بموضوعنا الذي سنقبل عليه أخيرًا، وخاصة إذا علمنا أن عصر المأمون وما فيه من فلسفة وعلم، ومن أدب وفن كان متأثرًا بحركة النقل والترجمة، وأن تأثره هذا كان إلى مدًى كبير يطبعه بطابع المدنية اليونانية والفارسية، ولكن هذا لا يمنعنا أن نُلمَّ به إلمامًا.

(٢) آثار الآداب والعلوم الفارسية واليونانية في العصر الأموي

كانت آداب الفرس قبيل الإسلام آدابًا يونانية في جملتها؛ لأن التاريخ يُحدِّثنا أن آدابهم الفنية القديمة التي كانت مجموعة طيبة لنتاج العقل الفارسي والهندي والآشوري - هذه الآداب قد نقلها الإسكندر الأكبر إلى بلاده - ثم تقلبت حياة الفرس بين ضعف وقوة وجهل وعلم، إلى أن تسلَّم كسرى صولجان ملكه، ولعب دوره العظيم في تاريخ بلاده، ولعل الأحوال العالمية عهدئذ ساعدته على مهمته في النهوض بالعقلية الفارسية وفي تجديد بعثها، ويقول لنا «چيون»: إن «يوستنيان» قيصر الروم حين اضطهد الفلسفة الأفلاطونية الجديدة أو الوثنية أقفل الهياكل والمدارس، وطارد العلماء المفكرين، فاضطر جماعة من هؤلاء الفلاسفة إلى الرحيل إلى بلاد الفرس؛ حيث وجدوا من كسرى أنوشروان مَن قدَّرهم قدرهم.

ويقول لنا الأستاذ «برون» في كتابه القيم عن تاريخ أدب الفرس حين تعرض لرأي المستشرق (نولدكه Noldeké) في هذا الصدد: «إن شغف كسرى بالبحوث الدينية والمناظرات الفلسفية وما كان يجد في ذلك من لذاذة وإمتاع ليعيد إلينا ذكرى المأمون والإمبراطور الأكبر مما نمسك عنه الآن».

على أنا مع إمساكنا عن التبسط في القول لا يسعنا إلا أن نذكر في هذا المقام أن أنوشروان كان قد أسس مدرسة للطب والفلسفة في جُندَيْسابور كانت لها شهرة مدرسة الإسكندرية، وإنه ليجدر بنا هنا أن ننظر هل استفاد العرب حقًّا من علوم الفرس عند ظهور الإسلام؟ وهل استفادوا من غزوهم مصر وفيها مدرسة الإسكندرية؟ ومن إخضاعهم الشام المتأثرة بآثار العقلية الرومانية؟ وهل وجدت حركة نقل في العصر الأموي؟ لأن في توضيحنا ذلك بعض النفع لنا في دراسة التحول العلمي والأدبي في تاريخ التمدين الإسلامي الذي وصل إلى درجة خليقة بالإجلال والإكبار في عصر المأمون، العصر الذي نضج فيه مختلف الفنون والآداب، فلنحاول توضيح شيء من ذلك مُتوخِّين حد القصد والإيجاز.

(٣) حركة النقل في العصر الأموي

يخبرنا ابن أبي أصيبعة في الباب الذي أفرده لأطباء العرب في إبان الإسلام، أن «الحارث بن كلدة» تعلم الطب بناحية فارس، وتمرن هناك، وعرف الداء والدواء، ويخبرنا أيضًا أن عبد الملك بن أبحر الكناني الذي أسلم على يد عمر بن عبد العزيز حينما كان أميرًا على مصر، كان طبيبًا عالمًا ماهرًا، وأنه كان في أول أمره في الإسكندرية؛ لأنه كان المتولي التدريس بها من بعد العلماء الإسكندريين، وزاد بأن عمر بن عبد العزيز لما أفضت الخلافة إليه نقل التدريس إلى أنطاكية وحران، وتفرق في البلاد، ثم ذكر ابن أثال، طبيب معاوية، وتكلم عن علمه بالأدوية المفردة والمركبة، وذكر أبا الحكم «وتماذوق» طبيب الحجاج، وحسبنا هذا دلالة على ما أفاد العربُ أو ما يمكن أن يفيدوا من علم الطب.

فلننتقل من هذا إلى التكلم عن حركة النقل والترجمة، ويكفينا الآن أن ننظر فيما رواه صاحب الفهرست عن ذلك إذ يقول:

كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان، وكان فاضلاً في نفسه، وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة، فأمر بإحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية، وأمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى العربي. وهذا أول نقل كان في الإسلام من لغة إلى لغة، ثم نقل الديوان - وكان باللغة الفارسية- إلى العربية في أيام الحجاج، والذي نقله صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم. وكان أبو صالح من سَبْي سجستان، وكان يكتب لزادانفروخ ابن بيري كاتب الحجاج يخط بين يديه بالفارسية والعربية، فخف على قلب الحجاج، فقال صالح لزادانفروخ: إنك أنت سببي إلى الأمير، وأراه قد استخفني ولا آمن أن يُقدِّمني عليك وأن تسقط منزلتك، فقال: لا تظن ذلك هو إليَّ أحوج مني إليه لأنه لا يجد من يكفيه حسابه غيري، فقال: والله لو شئت أن أحول الحساب إلى العربية لحوَّلته، قال: فحوِّل منه أسطرًا حتى أرى. ففعل، فقال له: تمارضْ، فتمارضَ، فبعث الحجاج إليه تيادروس طبيبه، فلم يرَ به علة؛ وبلغ زادانفروخ ذلك فأمره أن يظهر، واتفق أن قتل زادانفروخ في فتنة ابن الأشعث وهو خارج من موضع كان فيه إلى منزله، فاستكتب الحجاج صالحًا مكانه، فأعلمه الذي كان جرى بينه وبين صاحبه في نقل الديوان، فعزم الحجاج على ذلك وقلده صالحًا، فقال له مردانشاه بن زادانفروخ: كيف تصنع بدهويه وششويه؟ قال: أكتب عشرًا ونصف عشر، قال: فكيف تصنع بويد؟ قال: أكتب وأيضًا قال: والويد

النيِّف والزيادة تزاد، فقال له: قطع الله أصلك من الدنيا كما قطعت أصل الفارسية! وبذلت له الفرس مائة ألف درهم على أن يُظهر العجز عن نقل الديوان، فأبي إلا نقله فنقله، فكان عبد الحميد بن يحيى يقول: لله در صالح! ما أعظم منته على الكتاب! وكان الحجاج أجَّله أجلًا في نقل الديوان.

فأما الديوان بالشام فكان بالرومية، والذي كان يكتب عليه سرجون ابن منصور لمعاوية بن أبي سفيان، ثم منصور بن سرجون، ونقل الديوانَ في زمن هشام بن عبد الملك نقله أبو ثابت سليمان بن سعد مولى حسين، وكان على كتابة الرسائل أيام عبد الملك. وقد قيل: إن الديوان نقل في أيام عبد الملك، فإنه أمر سرجون ببعض الأمر فتراخى فيه، فأحفظ ذلك عبد الملك فاستشار سليمان؛ فقال له: أنقل الديون وأرتجل منه.

ثم نجده يتكلم في مكان آخر عن اصطفن القديم، وأنه نقل لخالد بن يزيد بن معاوية كتب الصنعة وغيرها، فنحن نجد من هذا وغيره أن اللغة العربية أخذت تجري أشواطًا في حلبة العلوم في هذا العصر.

***

ونريد أن نشرح شرحًا بسيطًا حال الخطابة والكتابة في العصر الأموي مُتوخِّين الاختصار على قدر الطاقة فنقول:

(٤) الخطابة ومميزاتها

لم تزدهر الخطابة في عصر من عصور الآداب العربية، كما ازدهرت في هذا العصر، لاعتماد الناس عليها في السياسة والدين، وقد جعلها الدينَ الإسلامي فرضًا من الفروض في الدعوة إليه، وفي الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر، وقد كانت الوسيلة في قمع الفتن ورد البدع، وكانت لسان القائد في جنده يستنهض بها عزماتهم، والوالي في رعيته يستفز بها حميتهم، والزعيم في شعبه يجمع بها شتاتهم، إذ لم يكن غيرها من وسائل التبليغ ميسورًا؛ لذيوع الأمية وفقدان وسائل النشر.

وقد وَجدَتْ بعد مقتل عثمان ﷺ، بسبب اختلاف المسلمين وتعدد الفرق واختلاف الأحزاب، مجالًا واسعًا للرقي والسبق، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نحلته، وتأييد دعوته.

يميز الخطابة في هذا العصر ما يميز الآداب عامة فيه: من فخامة الألفاظ، ومتانة التركيب، والتباعد عن حُوشيِّ الكلام، ويميزها أيضًا أنها اقتبسَتْ من القرآن كثيرًا، ونهجت نهجه في الإرشاد والإقناع، وأنها تبدأ بحمد الله والصلاة على رسوله، حتى قيل لخطبة زياد المشهورة التي خطبها في العراق «الخطبة البتراء»؛ إذ لم يحمد الله ولم يُصَلِّ على نبيه فيها. وقد كان هذا العصر أحفلَ العصور بالخطباء، فقد كان جل الخلفاء والقواد وولاة الأمصار وزعماء الأحزاب المختلفة خطباء مصاقع، وفيما يحفظه تاريخ الآداب من آثار الخلفاء ولا سيما الإمام علي، ومن خطب الحجاج بن يوسف، وزياد ابن أبيه، وطارق بن زياد، مصداقُ ما نقول.

ولننقل هنا خطبة الحجاج في أهل العراق بعد دير الجماجم؛ فهي خير مثال لنضج الخطابة في العصر الأموي، قال:

يا أهل العراق، إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم، والعصب والمسامع والأطراف والشغاف، ثم مضى إلى الأمخاخ والأصماخ، ثم ارتفع فعشش، ثم باش وفرخ، فحشاكم نفاقًا وشقاقًا، وقد اتخذتموه

دليلًا تتبعونه، وقائدًا تطيعونه، ومؤمرًا تستشيرونه؛ فكيف تنفعكم تجربة أو تعظكم وقعة أو يحجزكم إسلام أو يردكم إيمان؟! ألستم أصحابي بالأهواز حيث رمتم المكر، وسعيتم بالغدر، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواذًا وتهزمون سراعًا؟ ويومُ الزاوية وما يومُ الزاوية؟! بها كان فشلكم وتنازعكم، وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم، إذ ولَّيتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها، النوازع إلى أعطانها، لا يسأل المرء منكم عن أخيه، ولا يلوي الشيخ على بنيه، حتى عضكم السلاح وقصمتكم الرماح. يوم دير الجماجم وما دير الجماجم؟! بها كانت المعارك والملاحم بضرب يزيل الهام عن مقيله، ويذهل الخليل عن خليله.(١)

يأهل العراق، أهل الكفرات والغدرات، والثورة بعد الثورات، إن أبعثكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم، وإن أمنتم أرجفتم، وإن خفتم نافقتم، لا تذكرون خشية ولا تشكرون نعمة، هل استخفكم ناكث، واستغواكم غاوٍ، واستنصركم ظالم، واستعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه ونصرتموه ورضيتموه! هل شغب شاغب أو نعب ناعب أو نعق ناعق أو زفر زافر إلا كنتم أشياعه وأنصاره! ألم تنهكم المواعظُ! ألم تزجركم الوقائع؟!

ثم نظر إلى أهل الشام فقال:

يا أهل الشام، إنما أنا لكم كالظليم الذابِّ عن فراخه، ينفي عنها المدر ويُبعد عنها الحجر، ويُكنُّها من المطر. يأهل الشام، أنتم الجُنَّة والرداء، وأنتم العُدَّة والغطاء.

وقد يكون من المفيد حقًّا أن ترجع إلى «صبح الأعشى» وغيره من المظان الأدبية لتقف بنفسك على خطب القوم الممتعة أسلوبًا، الفخمة لفظًا، الغنية معنًى في ذلك العصر الزاهر.

(٥) الكتابة

الكتابة - سواء أكانت في تدوين العلوم والفنون وضبط الشئون العامة أم في إنشاء الرسائل ومعالجة الكلام المنثور - لا ترقى بل لا تكون إلا في الأمم التي أخذت بقسط من التحضر، فكانت لها حكومة منظمة، ودواوين معدَّدة، وصناعة منوَّعة، وزراعة نامية، وتجارة رائجة؛ لذلك لم يكن لأحد من الشعوب العربية في الجاهلية حظ من الكتابة إلا بمقدار ما له من حظ من الحضارة.

وقد كانت الكتابة معروفة عند التبابعة جنوبًا، والمناذرة والغساسنة في الشمال، حين كان لأولئك وهؤلاء من الحضارة نصيب، أما البدو من سكان أواسط الجزيرة فلم يعرفوا الكتابة إلا حين عرفوا الخط في أواخر العصر الجاهلي، وقد كان حظ الكتابة فيهم حظها في أمة بادية قليلة الشئون؛ لذلك لم ينلها في الرقي ما نال أخويها الشعر والخطابة، فلما جاء الإسلام وصار للعرب حكومة منظمة، وفتح الله عليهم أقطار الأرض، اشتدت حاجتهم إلى الكتابة، فأخذت سبيلها إلى الرقي والكمال، حين صارت حاجة من حاجات الدولة.

بيد أن الكتابة لم تبلغ كمالها الممكن - في التنسيق وإبلاغ الحاجة، وفي اتساع ما تناولته من شئون الدولة والناس - إلا بعد أن نُقلت الدواوين التي كانت بالفارسية في فارس، والرومية في الشام، والقبطية في مصر إلى

العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد، وإلا بعد أن ظهر في العربية كتاب صقلهم الاطلاع على آداب الفرس وغير الفرس، من الأمم التي كانت لها قدم راسخة في الحضارة؛ كابن المقفع وعبد الحميد الكاتب.

على أنا لسنا نرمي بذلك إلى أن لا بلاغة في ذلك العصر بغير اطلاع على بلاغة الأمم الأخرى؛ لأن في بلاغة القرآن وأحاديث الرسول ﷺ وخطب الخلفاء وتراث الجاهليةِ الكنزَ الذي لا ينضب، والمعينَ الذي ينهل من أفاويقه كُتَّاب العصر غير مُنازَع ولا مدافع، وإنا لنعثر في مظان الأدب العربي على أمثلة ناضجة لما نقول؛ فهذا كلام أم الخير[٢] والزرقاء وعكرشة بنت الأطرش، فإنه لما يُتخذ خير مثال للنثر في العصر الأموي.

وسنثبت لك في باب المنثور من الكتاب الأول في المجلد الثاني رسالتين ممتعتين نعتبرهما بحق من خير المنثور العربي؛ إحداهما تلك الرسالة المنسوبة لأبي بكر الصديق، والتي قيل إنه كتبها لعلي بن أبي طالب ﷺ، فهي تمثل عصرها بلاغة وفخامة، والثانية رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، قيل إنه كتبها عن مروان بن محمد لعبد الله بن مروان حينما أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي، فهي فريدة في نوعها رشاقة أسلوب وسمو معنًى.

(٦) حالة الشعر في العصر الأموي وتحوُّله

لكي نلمس بأيدينا صحة قول أولئك الذين يذهبون إلى أن العصر الأموي كان عصر تجديد في الآداب العربية، وأنه كان عصر تجديد قوي ظاهر في اللفظ والمعنى، يلزمنا أن نفهم فهماً أوليًّا سذاجة الشعر الجاهلي وصادق تعبيره عن الحياة الجاهلية.

نعلم أن العصر الجاهلي للعرب كان في مجموعه - ككل العصور الأولية للعقل البشري - ساذجًا فطريًّا في علومه ونظمه وعاداته، ولكنه لم يكن كذلك في آدابه، فإن عرب الجاهلية بدءوا في شعرهم وآدابهم، في ذلك الطور الأول، بما كان عليه غيرهم من الأمم السامية وكثير من الأمم الأخرى في أطوارها الأولى وعصورها الجاهلية، مع ملازمتهم للفطرة، ونفورهم من التكلف، وبعدهم عن الصنعة الكلامية.

إن العرب في جاهليتهم نظموا الشعر في كل حاجاتهم، وأبدعوا فيه بسليقتهم، ومع أنهم كانوا في دور فوضاهم، فقد نضجت لهم أفانين كانت آية في بلاغة اللسان العربي، وكان الأدب الجاهلي فطريًّا مُمَثِّلًا خُلُق العصر، مبينًا استقلال الفكرة البدوية، وكان في ضروبه كافة من وصف ومدح ورثاء وهجاء ناطقًا بما يجيش في نفس قائله حقًّا، كما كان في بلاغة تركيبه وبعده عن الأوضاع المدرسية من تكلف للبيان والبديع آية في بلاغة الفطرة، وشاهدًا في مجموعه على مبلغ أثر بلاغة الفطرة المرسلة عن شعور صاحبها في النفوس والأفهام.

على أنه يجدر بنا أن نقول: إن المعلقات وغيرها من آثار العقل العربي الجاهلي قد لا تتأثر بها نفوس العصر الحاضر؛ لتغير اللغات والأفكار والمعتقدات، ولتشعب المدنيات والأدبيات، ولأن آذاننا وأذواقنا قد تحكم بنبوِّ ألفاظها وخشونتها، فكما أن الأدب الإنكليزي قد لا يستعمل اليوم ألفاظًا كان يستعملها شيوخ العقل الإنكليزي «كباكون» و«شكسبير» و«ملتون» من خيرة نتاج عصر إليزابث الذهبي، وقبلهما «شوسر» وشعراء المغاني، ويعتبرها البعض نابية جافية، وأنها بمثابة ألفاظ مدرسية تاريخية،

كما هي الحال في نظر أدب العصر الإنكليزي أو الفرنسي أو الألماني في تراجمهم عن الكتاب المقدس، وإلى شعرائهم وأدبائهم المتقدمين، كذلك هو الحال في أحكامنا عن نتاج العصر العربي الجاهلي.

***

إن المدنية ما ونَت ساعة ولا يومًا، ولكن عاطفة الإنسان تكاد تكون هي بنفسها في كل العصور؛ يحرك لواعجه الجمال، ويفطر قلبه ريب الزمان، ويبث شكاته إلى أترابه وإخوانه، ويحاول أن يتبوأ حبات الأفئدة بسحر بيانه، فهو يفخر ويشدو، وهو يمدح ويهجو، وهو يخطب وينظر ويضرب الأمثال، وهو صادق في ترجمة مشاعره، وتبيان مقاصده ما كان في دور سذاجته بعيدًا عن ضروب المدنيات التي كثيرًا ما تلازمها تقاليد خاصة، وتصحبها آداب تعورف عليها تقلل صراحته، وتَفُلُّ من حدة شباته، وتجعل له سلطانًا على ميوله وأهوائه، واللسان عُلَنة مصفاحٌ إن تركت له عنانه، كُتمةٌ مُضلِّل إن جعلت العقل والتقليد ميزانه.

من هنا نستطيع أن نفسر سذاجة العربي الجاهلي وجنوحه إلى صوت الطبيعة، على العكس من حال زميله الإسلامي الذي قد صقلته بلاغة القرآن وتعاليمه، وشذبته سنةُ الرسول وصحابته، وأفسح المجال لخياله ما وقف عليه أثناء الفتوح العربية من تراث المدنيات الفارسية في العراق وفارس، والرومانية في الشام ومصر، وناهيك بآثار الفرس والرومان إلى ما خلف له آباؤه العرب من حكمة وبيان.

***

كان شعراء الجاهلية يسددون قولهم نحو كبد الحقيقة فلا يخطئونها، ويقولون الشعر عن شعور حي، ولا يتخطَّون إلى ما وراء مشهودهم ومعقولهم، فجاء شعرهم مثالًا صادقًا لبداوتهم وحضارتهم، حتى لو اندثرت جميع أخبارهم وآثارهم ولم يبقَ إلا شيء من شعرهم لتيسر للباحث أن يستخرج منه وصفًا كاملًا لجميع أحوالهم، كما استخرج الباحثون كثيرًا من غوامض جاهلية اليونان من شعر «هوميرس».

وإليك مثالًا قول المهلهل بعد وقعة السلان؛ إذ حضرها مع أخيه كليب وفرَّ ابن عنق الحية من وجهها:

لو كان ناهٍ لابن حيَّة زاجرًا ... لنهاه ذا عن وقعة السُّلان
يوم لنا كانت رياسة أهله ... دون القبائل من بني عدنان
غضبت مَعدٌّ غثُّها وسمينها ... فيه ممالأةً على غسان
فأزالهم عنا كليب بطعنة ... في عُمر بابل من بني قحطان
ولقد مضى عنها ابنُ حيَّة مدبرًا ... تحت العجاجة والحتوف دواني
لما رآنا بالكلاب كأننا ... أُسدٌ مَلاوِثةٌ على خفَّانِ
برك التي سحبتْ عليه ذيولها ... تحت العجاج بذلة وهوان
ونجا بمهجته وأسلم قومه ... متسربلين رواعفَ المرَّان
يمشون في حلق الحديد كأنهم ... جُرب الجمال طُلين بالقطران
نعم الفوارس لا فوارس مَذْحج ... يوم الهياج ولا بنو همدان
هزموا العُداة بكل أسمر مارن ... ومهند مثل الغدير يماني

وبعد، فإنا بعد ما قدمنا من موجز كلامنا عن تصوير حالة الشعر في الجاهلية توطئة لبحثنا عن حالته في العصر الأموي، لا نرى مندوحة من

الإشارة هنا إلى أنا سنُعنى عناية خاصة بفرعي الغزل والشعر السياسي؛ لأنهما بحالتيهما الأموية يكادان يكونان وليدي العصر ونتاجه.

وليس معنى ذلك أنا ننكر تلك المعاني الجديدة التي دخلت على الوصف والمدح والرثاء والهجاء، ولكنا نلاحظ أن الفرق لا يعدو ملتزمات المدنية، مع رقة اكتسبتها العصور الإسلامية القريبة العهد من نزول القرآن، واشتغال الناس بتلاوته، وإقبالهم على دراسته، حتى انطبعوا على بلاغته وبيانه.

على أنه من المفيد أن نشير إلى شيء جديد أصاب فن المديح في العصر الأموي؛ لأنه خاص بهذا العصر دون سواه.

قال ابن قتيبة في كتابه القيم «الشعر والشعراء»: أتى بعض الرجاز نصر بن سيار، والي خراسان لبني أمية، فمدحه بقصيدة تشبيبُها مائة بيت، ومديحها عشرة أبيات، فقال نصر: «والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيف إلا شغلته عن مديحي بتشبيبك، فإن أردت مديحي فاقتصد في النسيب»، فأتاه فأنشد:

هل تعرف الدار لأم الغمر ... دع ذا وحبِّر مِدحة في نصر

فقال نصر: لا ذاك ولا هذا، ولكن بين الأمرين.

(٧) الغزل

كان غزل الجاهلية من عفو الخاطر وفيض البديهة ناطقًا بصفاء قريحتهم، وكامل حريتهم، وتوقد أذهانهم، وسائر طباعهم، وكان بريئًا من الصنعة والكلفة.

ومع أني ممن يذهبون إلى أن الشاعر الجاهلي كان يعالج الفنون الشعرية كافة غير مقصور على النسيب بالذات، بيد أني ممن يقول: إن المعاني الغزلية

وألفاظها تكاد تكون مُعادةً فيها بعد العصر الجاهلي بتوسُّع تقتضيه المدنية، وطلاوة اكتسبتها الألفاظ من بلاغة القرآن، وعذوبة أنتجتها ثروة الأذهان من أفاويق العرفان.

ولقد صدق زهير إذ يقول:

ما أرانا نقول إلا مُعارًا أو مُعادًا من لفظنا مكرورًا

أجل، لقد كان الغزل الأموي غنيًّا بما هو أكثر من ذكر الأطلال والديار، إذ أنَّا نجد فيه لواعجَ الحبِ ولفحاته، وشكايات الصبِّ وأناته، وزفرات العاشق وعبراته.

ألسنا نلمسُ التوجع والأسى في قول ابن الدمينة الخثعمي:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد؟ لقد زادني مَسراك وجدًا على وَجد

وفي قول الصمَّة بن عبد الله بن طفيل:

حننت إلى ريَّا ونفسُك باعدت مزارك من ريَّا وشعباكما معًا

نريد أن ندرس حالة الغزل في العصر الأموي الذي هو عصر الترف والغنى والثروة، عصر القصور والملاذِّ، عصر الاندماج في غير العرب واتخاذ السراري والسبايا كخادمات ووصفيات وزوجات.

لقد كثر الترف كثرةً حمل معها الاندفاع مع الغزل وما يجرُّه الغزل، وخلق أنواعًا صريحة من المناحي الشعرية في الحب والتشبيب بالنساء رغبةً في الحب من حيث هو، وفي التشبيب من حيث هو، بمعنى أنا كنا في العصر الجاهلي قلما نجد شاعرًا وقف حياته الشعرية على معالجة فن الغزل فحسب، لا يتكلف غيره ولا يُعنى بسواه، فإذ بنا في العصر الأموي نجد من الشعراء من يتخذ من الغزل صناعة وفنًّا.

وظاهرة أخرى نلاحظها في الغزل الأموي تظهر بجلاء مقدار اختلافه عما كان عليه في العصر الجاهلي، تلك أنواعه المتباينة التي يصح لنا أن نقسمها إلى أربعة أبواب: غزل إباحي، ويصح لنا أن نتخذ من عمر بن أبي ربيعة زعيمًا لهذا النوع الذي يجمع إلى وصف المرأة والتشبيب بها معاني العبث بها، والاستمتاع باللذة المادية، مما ينفر منه الأدب الجاهلي ومما حظره عليه الكثيرون من خلفاء الإسلام وأئمته.

ولقد صدق ابن جريج إذ يقول: «ما دخل على العواتق في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة»، ونحيل القارئ إلى حديث الزبير بن بكار عن عمِّه مصعب في صفة هذا الشاعر الكبير، على أن كتاب الأغاني وغيره من أمهات كتب الأدب العربي مترعة بشعره وتشبيبه، مما لا يدع مجالًا للشك في أنه كان تبْع نساء وحِلْس غانيات، وصَّافًا لأحاديثهن، واقفًا على دخائلهنَّ، مُطَّلعًا على هوى نفوسهن، ولا حاجة بنا إلى التطويل هنا فيما هو مشهور متعارف، خصوصًا أنك ستجد طرفًا من شعره في باب المنظوم من الكتاب الأول في المجلد الثاني، فراجعه ثمة.

على أنه مع ذلك يذوب رقة وحنانًا في بعض مقطَّعاته، ولا سيما مع الثريا بنت علي، فإنه يلوح لنا أنه لم يفتح قلبه لأحد سواها.

كتب ابن أبي ربيعة إلى الثريا وهي باليمن يقول:

كتبت إليك من بلدي ... كتاب مُولَّه كَمِد

ولقد كانت مكة والمدينة مسرحًا لهذا النوع في العصر الأموي، وسبب

ذلك ميسور فهمه، معقول تعليله؛ ذلك أن الخلفاء تعمد جلهم الإغداق على أهل الحجاز وأبناء المهاجرين والأنصار بالأموال والهدايا فوق ما ورَّثهم آباؤهم، ليُحولوا بينهم وبين ما يطمح إليه أمثالهم من منافسة في الملك، أو مشاكسة للسلطان، وليشغلوهم عن أمور الدولة بإرخاء العنان لهم في لذاتهم ومناعمهم.

وهناك الغزل العذري البريء، غزل الحب الصادق، والعواطف المتأججة، والنفس المتألمة المُعنَّاة، تلك النفس التي تجد لذتها في الكلف بمن تحب والتعلق به والشعور بالسعادة في الغناء بحبه، حبًّا يملك عليه لبه ويعذب روحه ويفني جسمه كغزل جميل؛ وليس أدل على صدق حبه مما أثبته صاحب الأغاني في الجزء السابع؛ إذ حاول أبوه أن يصرفه عن حبه وحاجَّه في ذلك أجمل محاجَّة، فكان من جميل ما كان مما نجده مفصلاً في موضعه.

وغزل صناعي بين هذا وذاك، همُّه الإجادة في الشعر من حيث هو شعر، لا في الحب من حيث هو حب، ولنا في كُثير عزَّةَ زعيمٌ لهذا النوع الثالث.

وغزل قصصي خلقه الرواة لأنهم رأوا ميل الناس إلى الغزل وإلى حياة القصف وما يتبع حياة القصف، فنظموا قصائد نحلوها لشعراء لا نستطيع أن نحتمل تبعة القول بوجودهم في الحياة، أو القول بأنهم أشخاص خياليون خلقهم الرواة، أو زادوا من عندهم مقطعات نسبوها لهم وأضافوا إلى شعرهم، وزعيما هذا النوع قيس بن الملوح وليلاه، وقيس ابن ذريح ولُبناه.(٣)

(٨) الشعر السياسي

بداية عصر بني أمية معركة سياسية لعب فيها معاوية وأنصاره دورًا ممتعًا طريفًا في سبيل استلاب الخلافة من علي، وتأسيس ملك بني أمية على قواعد وسنن تخالف قليلًا أو كثيرًا ما كانت عليه الحال في عصر الخلفاء الراشدين.

***

الإنسان في سبيل تحقيق أطماعه السياسية هو بعينه في عصر معاوية، وفي عصر يوليوس قيصر وفي عصر بونابرت وفريدريك الأكبر أول عاهل لألمانيا، هو بعينه إنسان اليوم، هو بعينه كرئيس الولايات المتحدة وغيرها يستعمل المال في شراء الضمير الإنساني، ويعمل جهده على إذاعة دعوته، وتبيان فضائله، وتصويب خطته، باتخاذ الحملات الصحفية والخطابية وغيرها من وسائل الدعوة التي وصلت إليها المدنية الحديثة، والتي كانت في عصر معاوية وخلفاء معاوية وفي عصر المأمون وخلفاء المأمون تستخدم ألسنة الشعراء، وهي أسرع انتشارًا، وأعمق أثرًا، وأكثر رواية، وأطول عمرًا مما يُكتب اليوم فلا يرويه من الناس إلا قليل.

إنك لتعلم ما لاستخدام الشعر من أثر في كثير من الحركات السياسية، واستحثاث العزمات، وإنهاض الهمم في الانقلابات الاجتماعية، وما «للمرسليز» من أثر في نفوس الجند الفرنسيين إذا حمي وطيس الحرب واشتد أوارها، وأنت جدُّ عالم بما كان لقصائد «اللورد بيرن» الواحدة تِلوَ الأُخرى، في سبيل استقلال اليونان الحديثة، وفي سبيل اجتذاب عطف

أوروبا وساستها وجماهيرها وملوكها ونوابها وصحفها، ليأخذوا بناصر أمة مهيضة غلبت على أمرها.

أنت جدُّ عالم بأن قصائد «بيرن» هذه فعلت في المعركة السياسية ما لم تفعله جيوش مصر وأساطيلها، وذخيرة الترك وانتصارها، فكان الحكم لـ «بيرن»، وكان الانتصار لشعره.

***

كذلك كان الحال في عصر بني أمية، وكذلك كان أثر الشعر إن لم يكن أبلغ وأوسع نطاقًا. ألم يوعز معاوية، في رواية يزيد ابنه، إلى مسكين الدارمي أن يقول أبياتًا في معنى المبايعة ليزيد ويُنشدها إياه في مجلسه وهو حافل بالوجوه والأشراف؟!

وتقول رواية الأغاني: إن معاوية لما أراد البيعة ليزيد تهيَّب ذلك، وخاف ألا يمالئه عليه الناس لحسن التقية فيهم، وكثرة من يُرشَّح للخلافة، وبلغه في ذلك ذَرْو[٤] كلام كرهه من سعيد بن العاص ومروان بن الحكم وعبد الله بن عامر، فأمر يزيد مسكينًا - وكان يؤثره ويصله ويقوم بحاجاته عند أبيه - أن يقول أبياتًا وينشدها معاوية في مجلسه إذا كان حافلًا وحضره وجوه بني أمية، فلما اتفق ذلك دخل مسكين إليه وهو جالس، وابنه يزيد عن يمينه، وبنو أمية حواليه، وأشراف الناس في مجلسه، فمثل بين يديه وأنشأ يقول:

إن أُدْعَ مسكينًا فإني ابن معشر ... من الناس أحمي عنهم وأذود
إليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلًا وهن هجود
وهاجرة ظلت كأن ظباءها ... إذا ما اتقتها بالقرون سجود

ألا ليت شعري ما يقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد؟
بني خلفاء الله مهلًا فإنما ... يُبوِّئها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر الغربي خلاه ربه ... فإن أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجَدُّ صاعد ... لكل أناس طائر وجدود
فلا زِلتَ أعلى الناس كعبًا ولا تزل ... وفود تُساميها إليك وفود
ولا زال بيت الملك فوقك عاليًا ... تُشيِّد أطناب له وعمود
قدور ابن حرب كالجوابي وتحتها ... أثاف كأمثال الرئال ركود

فقال له معاوية: «ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله»، قال: ولم يتكلم أحد من بني أمية في ذلك إلا بالإقرار والموافقة، وذلك الذي أراده يزيد، ليعلم ما عندهم، ثم وصله يزيد ووصله معاوية فأجزل صلته. ا.هـ.

وأظنك لا تطلب منا حين مطالعتك لهذه القصيدة تحليلها لإقامة الدليل على صدق ما ذهبنا إليه، فيما أسلفناه لك من القول، بأن شعر العصر الأموي عربي جاهلي في منحاه وأسلوبه، وأنه يتميز بروح جديدة، ويختلف بأغراض ومقاصد تكاد تكون جديدة بالنسبة للعصر الجاهلي، وذلك لوضوح التحليل وخوف الإطالة فيما لا يعنينا كثيرًا.

على أنه لزام في عنقنا أن نصور، إلى مدًى أوسع، استخدام الشعر الأموي في الأغراض السياسية؛ لأن لهذا النوع الطريف نتائجه وآثاره في هذا العصر والعصور التي تلته، ولأن لهذه الميزة ميزة اصطباغ الشعر بالغرض السياسي، واندفاع صاحبه في سبيل نصرة دعوته مُعبِّدًا ما قد يعتور طريقه من صِعاب، مُذلِّلًا ما يعترضه من عِقاب، منتهكًا حرمة التقاليد والأشخاص، بل خارجًا إلى حيز لا يرضَى عنه فقهاء الدين كثيرًا، وربما لا يرضَى عنه الشرع حقًّا، نزعم أن لهذه الميزة آثارها ونتائجها، ولسنا

بسبيل تفصيل ذلك الآن، ولكنا بموقف المقيِّد للحوادث فحسب، المثبت لمبدأ وقوعها، ولها مع الزمن وتكرر وقوعها ونشاط ميدانها ما سيتاح لنا تفصيله فيما بعدُ، من اتِّساع نطاق السياسة الشعرية خاصة، ودولة الأدب عامة، وتهديدها حرمة العادة والخلق والدين.

***

مثل آخر ذكره صاحب كتاب الأخبار الطوال، وهو بمثابة معركة مذهبية سياسية بين نصير معاوية ونصير علي، بين كعب بن جُعَيل والنجاشي، وهاك قصيدة كل منهما؛ قال كعب بن جعيل:

أرى الشام تكره ملك العرا ... ق وأهل العراق لهم تاركونا
وكل لصاحبه مبغض ... يرى كل ما كان من ذاك دينا
وقالوا عليٌّ إمام لنا ... فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لنا ... فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
وكل يُسَرُّ بما عنده ... يرى غث ما في يديه سمينا
وما في عليٍّ بمستَعتَب ... منال سوى ضمه المحدثينا
وليس براضٍ ولا ساخط ... ولا في النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساءٍ ولا هو سر ... ولا بدَّ من بعد ذا أن يكونا

فلما قرأه علي عليه السلام قال للنجاشي: أجب، فقال:

دعنَّ معاوِيَ ما لن يكونا ... فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علي بأهل العرا ... ق وأهل الحجاز فما تصنعونا؟
يرون الطعان خلال العجا ... ج وضرب القوانسٌ[٥] في النَّقْع دِينا
هم هزموا الجمع جمع الزبير ... وطلحة والمعشر الناكثينا

فإن يكره القوم ملك العراق فقدمًا رضينا الذي تكرهونا
فقالوا لكعب أخي وائل ومن جعل الغث يومنا سمينا
جعلتم عليًّا وأشياعه نظير ابن هند ألا تستحونا؟

وهاك مثلًا آخر ذكره صاحب الأغاني في ترجمة النعمان بن بشير قال: تشبب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية فقال:

رَمْل هل تذكرين يوم غزال إذ قطعنا مسيرنا بالتمني
إذ تقولين عمرك الله هل شيءٌ وإن جلَّ سوف يُسليك عني؟
أم هل اطمعت يا ابن حسان في ذا ك كما قد أراك أطمعت مني؟

قال: فبلغ ذلك يزيد بن معاوية فغضب ودخل على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، ألا ترى إلى هذا العلج من أهل يثرب يتهكم بأعراضنا، ويشبب بنسائنا؟! فقال: ومن هو؟ قال: عبد الرحمن بن حسان، فأنشده ما قال، فقال: يا يزيد، ليست العقوبة من أحد أقبح منها بذوي المقدرة، ولكن أمهل حتى يقدم وفد الأنصار ثم ذكِّرني به، فلما قدموا ذكَّره به؛ فلما دخلوا قال: يا عبد الرحمن، ألم يبلغني أنك تُشبِّب برملة بنت أمير المؤمنين! قال: بلى، ولو علمتُ أن أحدًا أشرفُ بشعري منها لذكرته، قال: أين أنت عن أختها هند؟ قال: وإن لها لأختًا يقال لها: هند؟ قال: نعم! وإنما أراد معاوية أن يشبب بهما جميعًا فيكذب نفسه، فلم يُرض ذلك يزيد بن معاوية وما كان منه معه، فأرسل إلى كعب بن جُعيل فقال له: اهجُ الأنصار، فقال: أفرَقُ من أمير المؤمنين، ولكن أدلك على الشاعر الكافر الماهر الأخطل، قال فدعاه فقال له: اهجُ الأنصار، فقال: أفرَقُ من أمير المؤمنين، قال: لا تخف شيئًا؛ أنا لك بذلك. فهجاهم فقال:

وإذا نسبتَ ابن القُريعة خِلتَه كالجحش بين حمارة وحمار
لعن الإله من المهور عصابة بالجِزْع بين صُلَيصل وصُدار
قوم إذا هدر العصيرُ رأيتهم حمرًا عيونهمو من المُصْطار
خلُّوا المكارم لستمو من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار
إن الفوارس يعرفون ظهوركم أولاد كل مقبح أكَّار
ذهبت قريش بالمكارم كلها واللؤم تحت عمائم الأنصار

فبلغ ذلك النعمان بن بشير، فدخل على معاوية فحسر عمامته عن رأسه وقال: يا أمير المؤمنين، أترى لؤمًا؟ قال: لا، بل أرى كرمًا وخيرًا، فماذا؟ قال: زعم الأخطلُ أن اللؤم تحت عمائم الأنصار، قال: أوَفعل ذلك؟ قال: نعم، قال: لكَ لسانُه. وكتب فيه أن يُؤتى به، فلما أُتي به سأل الرسول أن يدخله إلى يزيد أولًا، فأدخله عليه، فقال: هذا الذي كنت أخاف، قال: لا تخف شيئًا، ودخل على معاوية فقال: علام أُرسل إلى هذا الذي يمدحنا ويرمي من وراء حجرتنا؟ قال: هجا الأنصار، قال: ومَن زعم ذلك؟ قال: النعمان بن بشير، قال: لا تقبل قوله وهو المدِّعي لنفسه، ولكن تدعوه بالبينة، وإن أثبت شيئًا أخذت له، فدعاه بالبينة فلم يأتِ بها، فخلَّاه، فقال الأخطل:

وإني وإن استعرت أم مالك لراض من السلطان أن يتهدَّدا
ولولا يزيد ابن الملوك وسعيُه تحللتَ جرباذًا من الشر أنكدا

أما رد النعمان على الأخطل فهاكه كما نقله أبو الفرج الأصبهاني عن خالد بن كلثوم:

مُعاوِي إلَّا تُعطنا الحق تعترف لِحَي الأزد مشدودًا عليها العمائم

حتى قوله:

إليهم يصير الأمر بعد شتاته   فمن لك بالأمر الذي هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم   ومنهم له هادٍ إمام وخاتم

وإنا نحيل القارئ إلى الكتاب الأول من المجلد الثاني ليقف على قصيدة النعمان هذه، وليقف كذلك على قصيدته الرائية الأخرى التي أنشدها معاوية لما ضَرَب مروانُ بنُ الحكم عبدَ الرحمن بنَ حسان الحدَّ ولم يَضرِب أخاه حين تهاجيا وتقاذفا، وتحريرَ الخبر فيها أنه لما كثر الهجاء بين عبدِ الرحمن بن حسان وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي العاصي وتفاحشا، كتب معاوية إلى سعيد بن العاصي، وهو عامله على المدينة، أن يجلد كل واحد منهما مائة سوط - وكان ابن حسان صديقًا لسعيد وما مدح أحدًا غيره قط - فكره أن يَضرِب أو يُضرَب ابنُ عمه، فأمسك عنهما، ثم ولي مروان، فلما قدِم أخذ ابن حسان فضربه مائة سوط ولم يضرب أخاه، فكتب ابن حسان إلى النعمان بن بشير وهو بالشام - وكان كبيرًا أثيرًا مكينًا عند معاوية - قال:

ليت شعري أغائب أنت بالشـ   ـام خليلي أم راقد نعمان؟
أية ما يكن فقد يرجع الغـ   ـائب يومًا ويوقظ الوسنان
إن عمرًا وعامرًا أبوينا   وحرامًا قِدمًا على العهد كانوا
أفهُمْ مانِعوك أم قلة الكُتـ   ـتاب أم أنت عاتب غضبان؟
أم جفاء أم أعوزتك القراطيـ   ـس أم أمري به عليك هوان؟
يوم أنبئت أن ساقي رُضَّت   وأتتكم بذلك الركبان
ثم قالوا إن ابن عمك في بلـ   ـوى أمور أتى بها الحدثان

فنسيتَ الأرحام والودَّ والصحـ ـبة فيما أتت به الأزمان
إنما الرمح - فاعلمنَّ - قناة أو كبعض العيدان لولا السِّنان

وهي قصيدة طويلة. فدخل النعمان بن بشير على معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، إنك أمرت سعيدًا بأن يضرب ابن حسان وابن الحكم مائة سوط، فلم يفعل، ثم وليت مروان فضرب ابن حسان ولم يضرب أخاه، قال: فتريد ماذا؟ قال: أريد أن تكتب إليه بمثل ما كتبت إلى سعيد، فكتب إليه معاوية يعزم عليه أن يضرب أخاه مائة؛ فضربه خمسين وبعث إلى ابن حسان بحلة وسأله أن يعفو عن خمسين، ففعل وقال لأهل المدينة: إنما ضربني حدَّ الحر وضربه حدَّ العبد خمسين، فشاعت الكلمة حتى بلغت ابن الحكم، فجاء إلى أخيه فأخبره وقال: «لا حاجة لي فيما عفا عنه ابن حسان»، فبعث إليه مروان: «لا حاجة لنا فيما تركت، فهلمَّ فاقتصَّ من صاحبك»، فحضر، فضربه مروان خمسين أخرى. ا.هـ.

***

ويجدر بنا الآن بعد أن أوضحنا ميزة استعمال الشعر في الأغراض السياسية في الدولة الأموية، أن نسمح لأنفسنا بتقييد ملاحظة قد لا تخلو من نفع فيما سنعالجه، وهي أن تلك الأغراض السياسية سمحت للشعراء بما لم تسمح به لسواهم من إعفائهم من إقامة الحدود.

وقد سبق لنا أن أشرنا إلى كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم في صدد حدِّه للشاعر المناصر لسياسة بني أمية، وهو عبد الرحمن بن أرطاة المعروف بأبي سيحان، وكان حده لشربه الخمر. وابن سيحان هذا هو الذي قال في صفته أبو الفرج الأصفهاني:

كان عبد الرحمن شاعرًا مقلًّا إسلاميًّا، ليس من الفحول المشهورين ولكنه كان يقول في الشراب والغزل ومدْح أحلافه من بني أمية، وهو أحد المعاقرين للشراب والمحدودين فيه، وكان مع بني أمية كواحد منهم، إلا أن اختصاصه بآل أبي سفيان وآل عثمان خاصة كان أكثر، وخصوصه بالوليد ابن عثمان ومؤانسته إياه أزيد من خصوصه بسائرهم؛ لأنهما كانا يتناوبان على الشراب.

ونريد الآن أن نفسر هذه الحادثة تفسيرًا معتدلًا لنخرج منها بما عساه يمدنا وينفعنا فيما سنُقدم عليه من مناقشة العصور التي تلت هذا العصر، تلك العصور التي تغذَّت، من غير شك، بأفاويق العصر الأموي الذي تقدمها، فنبتت فيها بذوره حتى كادت تنمو في حديقته الأُنُف الحسَّانة دوحاتٌ خطرة على الاعتبارات الخُلُقية التي تُوُوضع عليها.

وإنكِ إذا رجعت إلى كتاب معاوية، ورجعت إلى كتاب الأغاني نفسه، ومؤلفه أُموي كما تعلم، وجدته قد أقام الحجة في غير موضع على أن هذا الشاعر عاقر الخمر؛ وهاك ما يؤيد ذلك ويعززه:

قال: كان الوليد بن عثمان ذا غلة في الحجاز يخرج إليها في زمان الثمر بنفر من قومه، يجنون له ويعاونونه، فكان إذا حضر خروجهم دفع إليهم نفقات لأهليهم إلى رجعتهم، فخرج بهم مرة كما كان يخرج وفيهم ابن سيحان، فأتى ابنَ سيحان كتابٌ من أهله يسألونه القدوم لحاجة لا بد منها، فاستأذنه فأذن له، فقال له ابن سيحان: زودوني من شرابكم هذا. فزوَّدوه إداوة ملأها له من شرابهم، فكان يشربها في طريقه حتى قدم على أهله، فألقاها في جانب بيته فارغة، فمكث زمانًا لا يذكرها حتى كنسوا البيت فرآها مُلقاة في الكُناسة فقال:

لا تَبعدنَّ إداوة مطروحة كانت حديثًا للشراب العاتق
إن تصبحي لا شيء فيك فربما أُترعت من كأس تلذُّ لذائق
بأبي الوليد وأم نفسي كلما بدت النجوم وذَر قرنُ الشارق
كم عنده من نائل وسماحة وشمائل ميمونة وخلائق
وكرامة للمعتفين إذا اعتفوا في ماله حقًّا وقول صادق
أثوى فأكرمَ في الثواء وقُضِّيت حاجاتُنا من عند أروع باسق
لما أتيناه أتينا ماجد الـ أخلاق سبَّاقًا لقَرْم سابق
قال الوليد يدي لكم رهن بما حاولتمو من صامت أو ناطق
فإني الوليد اليوم حنَّت ناقتي تهوي بمغبر المتون سَمالق
حنَّت إلى برق فقلت لها قري بعض الحنين فإن شجوك شائقي

فهذا اعتراف صريح بمعاقرته للخمر، ثم لنُثبِت هنا قصيدته التي مدح بها معاوية:

إني امرؤ أُنمَى إلى أفضل الورى عديدًا إذا ارفضَّت عصا المتخلِّف
إلى نضد من عبد شمس كأنهم هضاب أجا أركانُها لم تُقصَّف
ميامين يرضون الكفاية إن كفوا ويكفون ما وُلُّوا بغير تكلُّف
غطارفة ساسوا البلاد فأحسنوا سياستها حتى أقرت لمردف
فمن يك منهم موسرا يُغشَ فضله ومن يك منهم معسرًا يتعفَّف
وإن تبسط النعمى لهم بسطوا بها أكُفًّا سباطًا نفعها غير مُقرِف
وإن تُزوَ عنهم لا يضجُّوا وتُلفِهم قليلي التشكي عندها والتكلُّف
إذا انصرفوا للحق يومًا تصرفوا إذا الجاهل الحيران لم يتصرَّف
سمَوا فعَلَوا فوق البرية كلها ببنيان عالٍ من مُنيف ومُشرف

وكان من حظِّها أن كتب معاوية أن يُعطى أربعمائة شاة وثلاثين لقحة ممَّا يوطن السيالة غير ما أعطاه سواه.

ومهما يكن الواقع الذي حدا ابن الحكم إلى حدِّه، فإن السياسة الحزبية ومدائح ابن سيحان في معاوية، واستعمال الأخير الشعراء في مناصرة بيته، كل ذلك دفع بمعاوية إلى كتابة ما كتب لابن الحكم أولًا، ثم للوليد بن عتبة ثانية، حتى اضطره لرفده بخمسمائة دينار مما وصفه صاحب الأغاني؛ فكانت الغلبة للشعر لا للشرع، وللغاية السياسية لا الدينية، فلنُقيِّد هذه الملاحظة فقط بلا توسع ولا إسهاب.

***

وبعد، فلنلخص ما تقدم عن شعراء السياسة، وهم العنصر الهام الذي لعب دورًا بارزًا في الأدب العربي في العصر الأموي، والذي كان له أثره ونتائجه في العصر العباسي، في كلمة ختامية في هذا الموضوع نبين فيها جماعة الشعراء السياسيين وألوانهم السياسية.

كان جل شعراء هذا الدور أمويين؛ فإنا نجد إلى جانب شعراء الدور الأول من أنصار بني أمية شعراء آخرين أخذوا بناصرهم ودافعوا عن كيانهم، مثل أبي العباس الأعمى هجَّاء ابن الزبير، وأبي قطيفة طريد ابن الزبير، وأبي صخر الهذلي المتعصب لآل مروان وهجَّاء ابن الزبير، وعدي ابن الرقاع، والوليد بن أمية بن عائذ الهذلي، وجبيهاء الأشجعي، والحكم ابن عبدل الأسدي، والسلولي، وموسى شهوات وغيرهم.

والشعراء العلويون وفي طليعتهم النعمان بن بشير الأنصاري، والكميت بن يزيد، وأيمن بن خريم، على أن الأخيرين اضطرا إلى

امتداح بني أمية ومسايرتهم، فإنا نجد الكميت قد مدح هشامًا، كما نجد أيمن مدح عبد الملك، ثم نجد شعراء دون ذلك، مثل أنصار آل المهلب ابن أبي صفرة؛ كزياد الأعجم، وثابت قطنة، وحمزة بن بيض، وكعب الأشقري وغيرهم، وأخيرًا نجد حزب آل الزبير، ومن شعرائه عبد الله ابن الزبير الأسدي.

وصفوة القول إن المعركة السياسية بين بني أمية ومنافسيهم في الملك أو الجاه وما يتبعهما من إغداق الأموال والعطايا على أنصار كل فريق، جعلت هوى الشعراء مع من أحسن إليهم، واللُّها تفتح اللَّها.

***

من كل هذا يتبين ما اتسع أمام الآداب العربية من ميدان فسيح في ضروب شتى من ألوان الحياة لم تكن تعرفها من قبل.

وقد آن لنا أن ننتقل إلى الكتاب الثاني من موضوعنا، ونرجو أن نوفق إلى إيضاح ما أوجزناه، وبسط ما أجملناه، مبتهلين إلى الله ألا نضل في شُعبه ومهامهه، وبُهمه ومفاوزه، بمنِّه وكرمه.

هوامش

(١) هاتان الفقرتان مقتبستان من قصيدة لسيدنا عبد الله بن رواحة التي أنشدها بين يدي النبي ﷺ عند دخوله مكة في عمرة القضاء، وأصل البيت:

ضربًا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

ا.هـ. من سيرة ابن هشام.

(٢) انظر باب المنثور من ملحق الكتاب الأول في المجلد الثاني.

(٣) انظر باب المنظوم من ملحق الكتاب الأول في المجلد الثاني.

(٤) ذرو كلام: طرف منه.

(٥) القوانس: جمع قونس، وهو أعلى الرأس، وأعلى بيضة الحديد أو مقدمها.

الكتاب الثاني: عصر بني العباس.

الكتاب الثاني:

العصر العباسي

الفصل الأول

الوجهة السياسية

(١) توطئة

رأينا كيف كانت الحياة السياسية والعلمية والأدبية في العصر الأموي، وكيف ظهرت مواطن الضعف وعوامل الانحطاط، وكيف وقع بنو أمية بين الساخطين من العرب والثائرين من الموالي، وكيف انحرف خلفاء معاوية عن خطته السياسية، وكيف عُرف فريق منهم بالدين وشغل آخرون بالعبث والمجون.

ونريد الآن أن نلمَّ إلمامة قصيرة بدور الانتقال إلى العصر العباسي قبل التكلم عن العصر نفسه؛ لنرى كيف كان اتجاه الأفكار في ذلك الحين.

(٢) دور الانتقال

إن الذي ينظر في كتب التاريخ الإسلامي عامة، ثم يراجع ما كتبه المستشرقون خاصة عن الدولة الفارسية في دور انحطاطها وضياع استقلالها وفناء أهلها في الإسلام، مع رسوخهم في المدنية وسبقهم إلى العلوم الاجتماعية وسياسة الشعوب؛ ليذكر حياة اليونان وعلماء اليونان حين دالت دولتهم وخضعوا للرومان وهم دونهم في العلوم والفنون.

ولسنا هنا بصدد الإفاضة في بيان المناحي التي تغلب فيها الموالي على العرب، فإن لذلك مكانه الطبعي في هذا الكتاب، وقُصارانا الآن أن نحيل

القارئ إلى الجزء الأول من كتاب الأستاذ «إدوارد برون» الذي وضعه عن التاريخ الأدبي للفرس - وهو من مجلدات «مكتبة تاريخ الآداب» - فإن فيه الكفاية لمن يريد تفصيلاً.

أذعن الموالي صاغرين لغلبة العرب عامة والأمويين خاصة، وذاقوا ما ذاقوا من الذلة والمسكنة، وعانوا ما عانوا من ضروب الهوان، فكان من المعقول أن يترقبوا الفرص لينقضُّوا على سادتهم العرب، وأن ينتظروا أول بارقة تلوح في أفق السياسة ليناصروا الناقمين على المملكة الأموية؛ فقد كانت دولة بني أمية مكروهة عند الناس ملعونة مذمومة ثقيلة الوطأة، مستهترة بالمعاصي والقبائح، فكان الناس من أهل الأمصار ينتظرون زوال هذه الدولة صباح مساء.

***

أضف إلى ما تقدم أن الشيعة كانت - إلى جانب قوة الحجة في أنها أحق بالخلافة؛ إذ كان أنصارها يدعون إلى بيعة صهر النبي أو أبناء بنت النبي - تضم إلى رجالاتها شخصيات بارزة في الدين والكفاية والصلاح، فكان خيار الناس يطيعونها تدينًا، وكان غيرهم يطيعها رغبة أو رهبة. وكان العلويون لا يفتُرون عن بثِّ دعاتهم في العراق وفارس وخراسان وغيرها من البلاد النائية عن مركز الخلافة التي انفصمت عروتها وكان من انحلالها ما وصفناه. وكان الفرس يستخدمون زملاءهم المنتشرين في البقاع العربية في الدعوة إلى مبايعة خصوم الأمويين ومناصرتهم، رغبة في التخلص من ظلم بني أمية وعَسْفهم، وطمعًا في أن يكون لهم من تبدُّل الحال حظٌّ من العزة والسلطان.

ولنذكُرْ مع هذا ثورة الممالك الإسلامية عامة على الأمويين، تلك الثورة الهادئة المخيفة التي كان من آثارها أن قُتل بعض ولاتهم في الأمصار، وأن خرج فريق على الخليفة، ولنذكُرْ كذلك انشقاق البيت الأموي نفسه، وتصدع أركانه؛ فإن لذلك أثره الفعال في ثلِّ عرش الأمويين. وقد كانت بداية ذلك الانشقاق خروج يزيد بن الوليد على عمه الوليد بن يزيد وتشهيره إياه أسوأ تشهير، ووصمه بأقبح الوصمات، حتى تمثَّل بعض بني أمية بقول الشاعر:

إنـي أعـيذكمو بالله من فـتـن مثل الـجبـال تسامى ثم تـندفع
إن البرية قد ملت سياستكم فاستمسكوا بعمود الدين وارتدعوا
لا تُلحِمُنَّ ذئاب الناس أنفسكم إن الذئـاب إذا ما ألـحمت رُتُع
لا تبقرُنَّ بأيديكم بطونكمو فـثمَّ لا حـسـرةٌ تُـغـني ولا جـزع

ولما تم ليزيد الأمرَ خرج عليه مروانُ بن محمد - وكان أمير الجزيرة وأرمينية - ومعه جيش جرار يأتمر بأمره، ومعه الغمر بن يزيد للمطالبة بدم أخيه، فغُلب يزيدُ على أمره وانبسطت في البيت المالك يدُ الفُرقة والانشقاق.

(٣) الشيعة العلوية

لم تصل الخلافة إلى معاوية إلا بدهائه وسعة حيلته وبُعد نظره وحُسن تصريفه للأمور، وإلا فقد كان هناك حزب قوي الشكيمة عزيز المكانة يرى علي بن أبي طالب أحق بالخلافة، ولولا دهاء معاوية ما نزل الحسن بن علي ولا أخلى لخصمه الميدان في سنة ٤١ هجرية، وقد كان من نتيجة ذلك أن

سخطت الأحزاب العلوية من تصرفه، فجمعوا الجموع وجندوا الجنود وثاروا على أمير الكوفة الأموي، وهو زياد بن أبيه - وكان يد معاوية التي بها يصول - ولكن زيادًا يعرف كيف تُخمد الفتنة، وتُطفأ الثورة، فبادر إلى استئصال الداء، وقتل منهم خلقًا كثيرًا أشهرهم حُجْر بن عدي وأصحاب حجر بن عدي، بيد أن إراقة الدماء تهيج الحماسة، وتؤجج نار العداوة والبغضاء في قلوب المغلوبين، وكذلك ظلت الفتنة تنذر بالشر المستطير.

رأى الدعاة العلويون أنه لا قبل لهم بمعاوية ولا برجاله، فتربصوا بهم ريب المنون، وعللوا النفس بتقلبات الحوادث وعنت الأيام، راجين أن تعود الخلافة إلى بيت النبي، ولكن شد ما فزعوا يوم أخذ معاويةُ البيعةَ لابنه يزيد المعروف بالميل إلى اللهو والقصف والتلهي بالصيد عن شئون المسلمين، وفيه يقول عبد الله بن همام السلولي:

حُشينا الغيظ حتى لو شربنا ... دماء بني أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم ... تصيدون الأرانب غافلينا

وإنا لنعلم أنه لما مات معاوية سنة ٦٠هـ وتولى بعده ابنُه يزيد، أبَى الحسين أن يُبايع له بالخلافة، بل رأى أكثر أهل التُّقى في مبايعة يزيد خرقًا لحرمة الدين، ثم قُتل الحسين في كربلاء سنة ٦١هـ فألَّفت الشيعة «حزب التوابين» بعد وفاة يزيد وبيعة مروان بن الحكم سنة ٦٤هـ، وأخرجوا والي الكوفة الأموي عبيد الله بن زياد، وولوا عليهم رجلًا منهم.

ثم تألف حزب «شرط الله» بزعامة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي، وانقسمت الشيعة العلوية إلى فرق عدة؛ أهمها الفرقة الإمامية، وهي التي ترى أن أحق الناس بالخلافة هم ولد علي من فاطمة بنت النبي، والأئمة

في نظرهم اثنا عشر إمامًا؛ وهم: علي، والحسن، والحسين، وزين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد التقي، وعلي التقي، وحسن العسكري، ومحمد المهدي.

ومنها الفرقة الكيسانية، وهي التي تقول بتحول الخلافة بعد الحسن والحسين إلى أخيهما محمد بن الحنفية، ومنها الفرقة الزيدية نسبةً إلى زيد بن علي بن الحسين، والفرقة الإسماعيلية نسبةً إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وفِرَقٌ أخرى أصغر من تلك شأنًا، وأقل أثرًا.

***

على أنه كان يوجد بجانب أولئك الولاة المخلصين لبني أمية والمسرفين في مطاردة الحزب العلوي فريق آخر على رأسه خالد القسري، يعمل لمناصرة العلويين سرًّا لا علانية، كما يعمل - في العادة - فريق من موظفي الحكومة لحزب الأقلية المضطهد طمعًا في المناصب، أو نصرًا لعقيدة سياسية، أو إيثارًا للعدل والإنصاف.

على أن الدعوة العلوية كانت فاترة ضعيفة إذا قورنت بالدعوة العباسية التي سنتكلم عليها في الكلمة الآتية، ولعل من أكبر أسباب ضعف[1] الدعوة العلوية مبايعةَ زعماء العباسيين محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية، فقد بايعه أبو العباس السفاح كما بايعه أبو جعفر المنصور وغيرهما من أئمة الحزب العباسي.

وكذلك سارت الدعوة لآل محمد شوطًا بعيدًا، وظاهرَتْها شخصيات بارزة قوية الشوكة وفيرة المال والجاه، أمثال أبي سلمة الخلال الفارسي المعروف.

وسترى كيف تحولت الدعوة العلوية إلى وجهة أخرى، وكيف استُغلَّت لمصلحة العباسيين.

هوامش

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار فيما ذهبنا إليه ويرى «أن العلويين كانوا يتهافتون على الخروج على الخلفاء؛ فكثر القتل فيهم فقتلوا، بخلاف أولاد علي بن عبد الله، فقد كثروا ولم يتناول القتل منهم أحدًا إلى ذلك العهد؛ عهد القيام بالدعوة».

الفصل الثاني

العصبية والموالي في الدولة العباسية

(١) توطئة

لقد مرت بك إشارة بسيطة - حين تكلمنا عن العصر الأموي - إلى حَنَق الموالي الذين نالهم في ذلك العصر من الاحتقار والزراية حظ غير قليل، وبينا لك أن هذه الناحية من المعاملة التي لا تنطبق على المذهب الحديث «حرية، إخاء، مساواة»، كانت عاملًا قويًّا من عوامل الضعف والانحطاط في دولتهم، ووعدناك أن ندرس حال العصبية والموالي في هذا الفصل من الكتاب تمشيًا مع النظام الذي وضعناه له.

والآن نعرض عليك حال الشعوب التي كانت خاضعة لسلطان بني أمية حتى تتبين أحوالها النفسية، والأهواء التي كانت غالبة عليها، فإنه لا يكفي في انتقال الملك من شخص إلى شخص، أو من بيت إلى بيت بث الدعوة وتنظيمها، وحزم القائمين بها، وإخلاص المشيرين وكفاية القواد، بل لا بد مع هذه الأمور أن تصادف الدعوة الجديدة نفوسًا مستعدة لها، راغبة فيها، عاملة على إنمائها، لكي تُزهر وتُؤتي ثمارها.

والحق أن الدعوة العباسية قامت في وقت كانت قد توزعت فيه الحواضر الإسلامية أهواء مختلفة، وتقسمت القبائل العربية عواملُ العصبية، وأخذت الشعوب المغلوبة على أمرها والتي أصبحت خاضعة للنفوذ العربي تستفيق من الدهشة التي استولت عليها من الفورة العربية التي أخضعتها لسلطان العرب المسلمين.

أما الحواضر الإسلامية فكان قد غلب على كل حاضرة هوَى أُسرةٍ أو شخص معين، ولم تكن لتخضع للسلطان العربي الأموي لولا القوة القاهرة؛ ولهذا لم يكد يضطرب أمر بني أمية في الأطراف، ويظهر الخارجون من الدعاة على ولاتهم، حتى أخذت هذه الحواضر تنسلُّ عن طاعة بني أمية واحدة بعد أخرى. وتستطيع أن تلتمس هذه الظاهرة بينة واضحة من تقاعد الولايات عن نُصرة آخر خلفاء بني أمية عندما حزبه الأمر وتعقّبه مطاردوه.

(٢) العصبية

العصبية هي مناصرة من يمت إليك بصلة من صلات الحياة؛ كأن تجمعكما رحم قريبة أو بعيدة، أو عقيدة دينية، أو هوًى سياسي. فيظهر أنها من طبيعة الوجود؛ إذ لا تختص بها قبيلة دون قبيلة، ولا أمة دون أمة، ولا جنس دون جنس، ولا عصر دون عصر، وكما توجد في الأمم البادية، كذلك توجد في الأمم الحاضرة، وما الدعوات القومية والنعرات الجنسية إلا نوع من العصبية بمعنًى أوسع.

والعصبية العربية التي نحن بسبيل القول فيها، والتي كانت من الأسباب التي اضمحل بها سلطان بني أمية، قديمة في القبائل العربية؛ كانت في الجاهلية قبل الإسلام، وكانت تضيق وتتسع بحسب الظروف والمناسبات، فبينما نراها بين العدنانية والقحطانية، وهو أوسع معانيها من الوجهة التاريخية العربية، نراها بين ربيعة ومضر، وهي قبائل عدنانية، ونراها بين بني أمية وبني هاشم، وقد يكون هذا من أضيق ميادينها، وكانت هذه العصبيات تشتد حينًا، وتفتر آخر.

فلما جاء الإسلام، ودخل الناس فيه أفواجًا، وتم له السلطان في جزيرة العرب، ألَّف بين القبائل، وأزال ما في صدورهم من أحقاد، وذلك ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ألف الإسلام بين قلوب العرب، وأزال كل أثر للعصبية القديمة في نفوسهم، ولكنه استبدلها بعصبية واسعة شاملة هي عصبية الإسلام، وجعل المؤمنين جميعًا إخوة.

وبقي أمر العرب كذلك إلى عهد الخلفاء الراشدين، وذلك راجع لا محالة إلى عوامل شديدة الأثر في نفوسهم؛ كهيمنة الروح الدينية عليهم، وكانشغالهم بالفتح وما استتبع الفتح من غنائم، وكحزم الخلفاء وحكمتهم، وشدة الولاة وقسوتهم.

فلما كان العصر الأموي واستقر الناس في الحواضر الإسلامية وشغلوا بعض الشيء عن الفتوح، راجعتهم الشنشنة القديمة، فأخذ بعضهم يفتخر على بعض بما كان لآبائهم من مجد في الجاهلية، وبلاء في الإسلام، وما لقبائلهم من قوة وأيد. وقد أدرك بعض شعرائهم النتائج السيئة لذلك، فقال الحارث بن عبد الله بن الحشرج بن المغيرة بن الورد الجعدي:

أبيتُ أرعى النجوم مرتفقًا	إذا استقلت تجري أوائلها
من فتنة أصبحت مجللة	قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن	بالشام كل شجاه شاغلها
فالناس منها في لون مظلمة	دهماء ملتجة غياطلها

يمسي السفيه الذي يعنفها بالـ ـجهل ســواء فيـهـا وعاقلها
والناس في كـربــة يـكـاد لـهـا تــنــبـــذ أولادهـــا حواملها
يـغـدون مـنـهـا في كل مبهمة عـمـيـاء تـمـنـى لهم غوائلها
لا يـنـظـر الـنـاس في عواقبها إلا التي لا يـبـيـن قـائـلـهـا
كرغـوة البكـر أو كصيحة حبـ ـلى طـرقـت حـولـهـا قوابلها
فـجـاء فـيـنـا أزرى بـوجـهـتـه فـيـهـا خـطـوب حـمـر زلازلها

ولقد زاد في إذكاء العصبية بين القبائل العربية حُمْق بعض الولاة، وعدمُ أخذهم الأمور التي تقع بين أيديهم بالحزم والحكمة، وأيضًا استهانة بعض الخلفاء الأمويين ببعض الأمور وغرورهم بما لهم من سلطان، فكانوا لا يُبالون شعور الناس في تعيين الولاة عليهم، مما كان له أبعد أثر في صرف النفوس عنهم، واستجابتها لكل داع إلى الخروج عليهم، وحسبك أن ترى هشام بن عبد الملك - مع حزمه وبُعد نظره - يعين نصر بن سيار واليًا على خراسان وهو يعلم أن عصبيته بها ضعيفة، فإنه لما استشار فيمن يوليه خراسان بعد أسد بن عبد الله القسري، كان مستشاره يسمى له أشخاصًا بما لهم من محامد ومذامَّ، فلما جاء ذكر نصر بن سيار قال: إن اغتفرت له واحدة فإنه عفيف مجرب عاقل، قال هشام: وما هي؟ فقال المشير: عشيرته بها ضعيفة، فقال هشام: «أوَتريد عشيرة أقوى مني؟ أنا عشيرته!».

على أن كلمة هشام قد تُخفِّف من آثارها السيئة متانة حكومته، ونفاذ صولته، وقوة شوكته، ولكن الخلفاء جميعًا ليسوا كهشام حزمًا واقتدارًا، وليست أيامهم كأيام هشام نجحًا وانتصارًا.

ومهما يكن من شيء فإن تولية نصر بن سيار على خراسان كانت في الواقع شؤمًا على بني أمية.

وقد بلغت العصبية بين مُضَر واليمن في خراسان طورًا عنيفًا، جعل التزاوج بين الفريقين موضع اضطهاد وسُخرية وازدراء.

ولقد قالت أم كثير الضبية لما هدم اليمنيون دور المضرية أثناء الحروب التي كانت بين نصر والكرماني بسبب العصبية:

لا بارك الله في أنثى وعذبها ... تزوجت مُضريًّا آخر الدهر
أبلغ رجال تميم قول مُوجعة ... أحللتموها بدار الذل والفقر
إن أنتم لم تكروا بعد جولتكم ... حتى تُعيدوا رجال الأزد والظهر
إني استحيت لكم من بذل طاعتكم ... هذا المزوني يَجبِيكم على قهر

وقال شاعر آخر:

ألا يا نصر قد برح الخفاء ... وقد طال التمني والرجاء
وأصبحت المزون بأرض مَرْو ... تُقضِّي في الحكومة ما تشاء
يجوز قضاؤها في كل حكم ... على مُضر وإن جار القضاء
وحِمْيرُ في مجالسها قعود ... ترقرق في رقابهم الدماء
فإنْ مُضرٌ بذا رضيتْ وذلَّتْ ... فطال لها المذلة والشقاء
وإن هي أعتبت فيها وإلا ... فحل على عساكرها العفاء

ولقد استغل الدعاة العباسيون العصبية التي فتَّت في عضد الأمويين ومزقتهم أشتاتًا وطرائق قددًا خير استغلال، وهو ما كان له أبلغ أثر في القضاء على سلطان بني أمية؛ ذلك أن نصر بن سيار، وهو عامل خراسان، قد تحامل على اليمن وربيعة وقدَّم المضرية، فوثب به جديعُ بن علي الكرماني الأزدي - وكان رئيس الأزد يومئذٍ ورَجُلهم - وقال له: ندعُك وفعلك. ومالت معه اليمانية وربيعة، فأخذه نصر وحبسه، فأتت اليمن وربيعة حتى

أخرجوه من مجرى كنيف! ثم اجتمعوا، ورام نصر أن يخدعه فيصير إليه، فلم يفعل - وكان في نصر بعض الخُرْق - فلما علم جديع أن اليمن وربيعة قد اجتمع رأيهما معه على نصر وثب فحاربه، وكان له العلوُّ على نصر، فمال أبو مسلم إلى الكرماني فقال: ادعُ إلى آل محمد، وجعل يمايل أصحابه ويدعوهم إلى ذلك حتى أظهروا دعوة بني هاشم بخراسان.

هذا ما كان من أمر العصبية بين العرب واستغلالها في إظهار الدعوة لبني العباس.

على أنه يجدر لك ألا يعزُب عن ذهنك أن العصبية وإن كانت قد خدمت العباسيين أجلَّ الخدم، فكانت معول هدم وعامل فناء في صرح الأموية، كان ضرامها وأجيجها وحروبها وفتنها لم تُخمَد سراعًا، ولم ترجع أمور العباد إلى نِصابها من الموادعة وحسن المصانعة بتيسير حال؛ بل أخذت دورها المحتوم، وكانت حَسَكًا وقتادًا، الفينة بعد الفينة، في بعض الولايات والأمصار، لبني العباس أنفسهم، كما ستقف عليه فيما سنسرده عليك من خلاصة أخبارهم ومجمل تاريخهم.

(٣) الموالي

لما أفضت الخلافة إلى الأمويين كان عدد الموالي آخذًا في الازدياد بسبب ما جلبته الفتوح الإسلامية من الأسرى، وما كان يهديه الولاة إلى الخلفاء من الرقيق؛ فإن الولاة كثيرًا ما كانوا يبعثون إلى الخليفة بمئات أو ألوف من الرقيق الأبيض أو الأسود هديةً أو بدلًا من الخراج أو نحوه.

ومن كان يَحَرُّ من هؤلاء بعتق أو مكاتبة أو تدبير يصير مولًى، ويُنسب إلى أسرة معتقه أو قبيلته، مع ملاحظة عدم أهليته للبناء على قرشية أو عربية.

كثر عدد الموالي جدًّا، فانصرف فريق منهم إلى الصناعة، وآخر إلى الزراعة أو غيرها من شئون الحياة، وانصرف فريق آخر إلى العلوم والفنون والآداب، فكان منهم جلة الفقهاء ورواة الحديث، كما كان منهم الشعراء والكتاب والمغنون، وتولت طائفة منهم المناصب السامية في الدولة كالقضاء والحجابة وما إلى ذلك.

على أنه مع ما كان لكثير من الموالي من قدم راسخة ومنزلة رفيعة في العلم والأدب والفنون كان العرب ينظرون إليهم دائمًا نظرة احتقار وازدراء.

وكان هذا الاحتقار والازدراء يظهر في معاملة العرب للموالي وأحاديثهم عنهم، ولما كان الموالي أهل علم وأدب، وينتمي كثير منهم إلى دول كان لها من السلطان ومظاهر الحضارة حظ عظيم، بل كان للفرس - وجلُّ الموالي منهم - سيادة ظاهرة على العرب قبل الإسلام، لما كان كل هذا عظُم على الموالي أن يحتملوا كل هذا الضيم من العرب، فاندفعوا يذودون عن شرفهم وكرامتهم، ومن هنا نشأت الشعوبية - والشعوبية مذهب مَن يرى تفضيل العجم على العرب أو التسوية بين الفريقين - ثم أخذ الشعراء وغير الشعراء من الفريقين يتبارون في إكبار كلٍّ لفريقه، والحط من الفريق الآخر.

وكان نصيب الموالي في حالة تمدحهم لقومهم من الخلفاء الأمويين مدعاةً إلى زيادة مقتهم لهم، وزيادة السخيمة في قلوبهم عليهم. وإنا نثبت لك هنا مثلاً استشهد به الأستاذ «برون» في كتابه عن أدب الفرس، نقلاً عن الأغاني، قال: إن إسماعيل بن يسار دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته وهو بالرصافة جالس على بركة له في قصره، فاستنشده وهو يرى أنه ينشد مديحًا له؛ فأنشدة قصيدته التي يفتخر فيها بالعجم:

يـا ربـع رامة بالعلياء من ريـم   هل ترجعَنَّ إذا حييتُ تسليمي
ما بال حي غدت بُزْلُ المَطِيِّ بهم   تَـخـدي لغربتهم سيرًا بتقحيم
كأنني يوم ساروا شاربٌ سلَبت   فؤاده قهوة مـن خـمـر دارُوم

حتى انتهى إلى قوله:

إني وجدِّك ما عُودي بذي خوَر   عند الحفاظ ولا حوضي بمهدوم
أصلي كريم ومجدي لا يـقـاس به   ولي لسان كحد السيف مسموم
أحمي به مجد أقـوام ذوي حسب   من كل قَرْم بتاج الملك معموم
جـحـاجـح ســادة بـلـج مَرازبة   جُـرْد عِـتـاق مساميح مطاعيم
من مثل كسرى وسابور الجنود معًا   والهرمزان لـفـخـر أو لـتـعـظـيم
أسد الكتائب يوم الروع إن زحفوا   وهم أذلوا مـلوك الترك والروم
يـمشـون في حلـق المـاذي سـابغـة   مشى الضراغمة الأُسد اللهاميم
هـنـاك إن تسألي تُـنـبَيْ بـأن لـنـا   جرثومةً قهرت عزَّ الجراثيم

قال: فغضب هشام وقال له: يا عاضَّ بظْر أمه، أعليَّ تفخر، وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاج قومك؟! غُطُّوه في الماء. فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج، ثم أمر بإخراجه وهو يشرُّ، ونفاه من وقته، فأُخرج من الرصافة منفيًا إلى الحجاز، قال: وكان مُبتلًى بالعصبية للعجم والفخر بهم، فكان لا يزال محرومًا مطرودًا.

ولما كان شأن الخلفاء الأمويين شأن سائر العرب في التعصب على الموالي حتى كانوا يستعملونهم في الحروب مشاة ولا يعطونهم شيئًا من الغنائم والفيء، نفرت نفوسهم منهم، وأصبح سلطانهم بغيضًا إليهم، وصاروا عونًا لكل من خلع الطاعة، أو طلب الخلافة من العلويين أو الخوارج.

ولقد كان العباسيون يدركون هذا الشعور في الموالي فاستغلوه خير استغلال؛ إذ اتخذوا جلة المبشرين بدعوتهم منهم، واعتمدوا كل الاعتماد عليهم، ورأى الموالي في الدعوة الجديدة شفاء لما في صدورهم من حقد على بني أمية خاصة، وعلى العرب عامة، فأخلصوا للدعوة الجديدة، وبذلوا في تحقيقها كل ما يملكون من نفوس وأموال.

على أن لهذا الموضوع نواحيَ متشعبة يَحُول دون التحدث فيها ما رسمناه لأنفسنا من التزام القصد والإيجاز.

الفصل الثالث

الدعوة العباسية

(١) توطئة

كانت الدعوة العلوية تسير جنبًا إلى جنب مع الدعوة العباسية، فقد كان الفريقان مضطهدين مغلوبين على أمرهما، وكان من المعقول والطبعي أن ظلم بني أمية لهؤلاء وهؤلاء يجمع ما تفرق من أهوائهم، ويفل حدة ما بينهم من عوامل التنافس والخلاف.

وقد كان بنو هاشم أعداء للأمويين قبل الإسلام بسبب التزاحم على السيادة في قريش، ولشد ما كان طلب السيادة والزعامة مدعاةً إلى العداوة والشحناء، وسببًا إلى التناحر والتقاتل بين بني الإنسان.

جدَّ العباسيون في دعوتهم السياسية وهم في الحُمَيمة من أعمال البلقاء بالشام، وزادوا حَمِيَّة وحماسة بتنزل أبي هاشم بن محمد بن الحنفية العلوي، زعيم الحزب الكيساني، لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس، حين دسَّ إليه سليمان بن عبد الملك مَن سمَّه؛ إذ رأى فيه من المهابة والوقار ما يُؤهِّله للخلافة، ويُقرِّبه من قلوب الجماهير.

وقد كان في تنزل أبي هاشم هذا لصاحب الدعوة العباسية توحيدٌ لحزبين قويين؛ هما الحزب العباسي[١] والشيعة الكيسانية، وهذا التوحيد أو التقريب بين الحزبين كانت ثمرته لحزب العباسيين.

(٢) تأليف الجماعات السرية

عمل العباسيون في تأليف الجماعات السرية للدعوة، واختاروا من الدعاة اثني عشر نقيبًا؛ وهم: سليمان بن كثير الخزاعي، ومالك بن الهيثم، وطلحة بن زريق، وعمر بن أعين، وعيسى بن أعين، وقحطبة بن شبيب الطائي، ولاهز بن قريظ التميمي، وموسى بن كعب، والقاسم بن مجاشع، وأبو داود خالد بن إبراهيم الشيباني، وأبو علي الهروي شبل بن طهمان الحنفي، وعمران بن إسماعيل المعيطي.

واختار محمد بن علي سبعين رجلًا يأتمرون بأمر هؤلاء الدعاة، وكتب إليهم كتابًا يوصيهم فيه بما يرجو أن يُوفَّقوا إلى العمل به وهم يوجهون الدعوة، ويُحاورون الأحزاب.

وهذا الكتاب يدل على ما كان عليه هذا الزعيم العباسي من علم بأحوال الناس في عصره، وبَصر بأخلاق الشعوب التي كانت خاضعةً للسلطان الإسلامي، وبما كانت تجيش به النفوس في كل صقع وحاضرة، وبمثل هذا الزعيم الداهية ومن اجتباهم للدعوة العباسية قد كُتب الفوز لهذه الدعوة آخر الأمر، ومما قاله هذا الزعيم في كتابه:

أما الكوفة وسوادها فشيعة علي وولده، وأما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكفِّ تقول: كن عبد الله المقتول ولا تكن عبد الله القاتل، وأما الجزيرة فحرورية مارقة، وأعراب كأعلاج، ومسلمون في أخلاق النصارى، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان، وعداوةً راسخة، وجهلًا متراكمًا، وأما مكة والمدينة فقد غلب عليهما أبو بكر وعمر،

ولكن عليكم بخراسان، فإن هناك العدد الكثير والجلَد الظاهر، وهناك صدور سليمة، وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء، ولم يتوزعها الدغَل، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات ولحى وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات فخمة تخرج من أجواف منكرة ... وبعدُ، فإني أتفاءل إلى المشرق وإلى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.

(٣) الدعوة العباسية وأبو مسلم الخراساني

كان الدعاة العباسيون يتنقلون في مختلف الأمصار، وكانوا في ظاهر الأمر طلاب رزق يزاولون التجارة، وكانوا في الواقع رجال سياسة ودهاء يبثون الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، ويدعون الناس إلى مُناصرتهم بشتى الأساليب.

وظلوا كذلك إلى أن تُوفي محمد بن علي، وعهد بالأمر من بعده إلى ابنه إبراهيم الإمام، فكاتب هذا مشايخ خراسان ودهاقينها، وبعث إليهم الدعاة، وأرسل أبا مسلم لخراسان لبث الدعوة هناك، فكان يدعو إلى آل محمد – يريد أهل البيت – من غير أن يُعيِّن العباسيين ولا العلويين.

وقد كان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة، شديد الإخلاص للعباسيين، مُسرفًا في خدمتهم، كثير الدهاء، واسع الحيلة، خبيرًا بما يقتضي عمله من الحزم والقسوة، فلا تعرف الرحمة قلبه، ولا يتناول الأمور إلا بالحزم والبأس الشديد.

ونستطيع أن نتبين مَرْمَى السياسة العباسية من الكتاب الذي بعث به إبراهيم الإمام إلى أبي مسلم الخراساني فيما يرى أن يعمله لتأييد الدولة الجديدة، قال: «إنك رجل منا أهل بيت، احفظ وصيتي: انظر هذا الحي

في اليمن فالزمهم، واسكُن بين أظهرهم، فإن الله لا يُتمُّ هذا الأمر إلا بهم، واتَّهم ربيعة في أمرهم، وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار، واقتُل من شككت فيه، وإن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، وأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله».

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هذه الوصية، فكان يُسرع إلى قتل كل من يتهمه، ويقضي على كل من يرتاب في أمره حتى بلغت ضحايا هذه الخطة فيما يقول المؤرخون العرب: ستمائة ألف نفس قُتلت صبرًا.

ومهما افترضت المبالغة والغلو في إيرادهم هذا العدد، فإن الواقع أن أبا مسلم قد أسرف أيما إسراف في القتل وسفك الدماء تنفيذًا لوصية الإمام.

حل أبو مسلم خراسان سنة ١٢٨هـ فساسها بحزمه ودهائه وقوته، وأقام بقرية من قرى مرو يقال لها: «سفيذنج»، وقد كثر أنصاره وانثال الناس عليه من كل صوب، فأعلن فيهم لبس السواد، واتخذه شعارًا للعباسيين، ثم غيَّر شكل صلاة العيدين بأن بدأ بها قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة - وكانت بنو أمية تبدأ بالإقامة كصلاة يوم الجمعة - وأمر بأن يُكبَّر ست تكبيرات تباعًا، وكاتَب نصر بن سيار الوالي الأموي، ولما ضاقت «سفيذنج» عليه ولم تتسع لأنصاره رحَل إلى الماخوان،[٢] وكانت عدة رجاله - فيما يقول المؤرخون - سبعة آلاف رجل، ثم احتال في التفرقة بين نصر ورجاله حتى أخذ بناء خصمه ينهار، ويتخلى عنه أنصاره واحدًا بعد واحد، وفي هذا يقول نصرٌ شعرًا بعث به إلى مروان الحمار الخليفة الأموي:

أرى بين الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم تُطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

فـإن الـنـار بالـعودين تُذكَى   وإن الـحـرب أولـهـا كــلام
فقلت من التعجب ليت شعري   أأيــقــاظٌ أمـيــة أم نـيــام؟

فلما ورد هذا الشعر على مروان لم يُجب عليه بما يجب أن يجيب به الملك الحازم الحريص على ملكه المُبقي على عرشه، من مبادرته بإرسال الكتائب والجيوش لكبح الثائرين على الملك، أو إعداده المعدات لإرسالها، وإنما كتب إلى نصر كتابًا يمثل الضعف والاستسلام، ويُنبئ بجنوحه إلى سياسة القول والكلام - في موضع يتطلب تقلد الرمح والحسام - يقول فيه: «إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب، فاحسِم أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك»، فقال نصر لأصحابه: «أما صاحبكم فقد أعلمكم أنه لا نصر عنده».

***

يجب ألا يفوتنا أن نشير هنا إلى ناحية مهمة في خُلُق أبي مسلم تُمثِّل ما يجب على القواد من الحزم والكتمان؛ فقد جاء في «كتاب المحاسن والمساوي» للبيهقي ما نصه: «قيل لأبي مسلم صاحب الدولة: بأي شيء أدركت هذا الأمر؟ فقال: ارتديت بالكتمان، واتَّزرتُ بالحزم، وحالفتُ الصبر، وساعدت المقادير، فأدركت ظني، وحزتُ حدَّ بغيتي، وأنشد:

أدركت بالحزم والكتمان ماعجزت   عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم   والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهمو بالسيف فانتبهوا   مـن نـومـة لـم ينمها قبلهم أحد
ومن رعى غـنمًـا في أرض مَسْبعة   ونـام عـنهـا تـولَّى رعيها الأسد

ا.هـ.

على أن مروان استيقظ أخيرًا من غفوته، وانتبه من غفلته، وأمر بأخذ إبراهيم بن محمد، فلما قُبض عليه في الحميمة بالبلقاء أوصى بالأمر إلى أخيه أبي العباس، وأمر أهله وأنصاره بالمسير إلى الكوفة، وحضهم على السمع والطاعة لأبي العباس.

وقد حُبس إبراهيم في سجن «حرَّان» مع جماعة من خصوم مروان من بني أمية، وظل في سجنه حتى مات، وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته، فمنهم من قال: إنه سُقي سُمًّا، ومنهم من قال: هدم عليه بيت فمات.

على أن المؤرخين وإن اختلفت أقوالهم في كيفية موته قد أجمعوا على أنه قد مات غِيلة وانتقامًا، وقد رثاه بعض الشعراء فقال:

قد كنت أحسبُني جلدًا فضعضعني ... قبر بحران فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلهم ... بين الصفائح والأحجار والطين
فيه الإمام الذي عمَّت مصيبته ... وعيَّلت كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة ... لكن عفا الله عمن قال آمين

ثم انتقل الأنصار إلى الكوفة، وقد ساعدهم أبو سلمة الخلَّال المعروف بـ «وزير آل محمد»، ولكنه عدل عنهم أخيرًا، وقيل: إنه كاتب ثلاثة من أعيان بني عليٍّ يعرض الخلافة على أحدهم؛ وهم: جعفر الصادق بن محمد الباقر، وعبد الله المحض بن حسن، وعمر الأشرف بن زين العابدين، وكانت خاتمة حياته القتل.

ونريد بعد الذي قدمناه أن نُلمَّ بحياة الخلفاء العباسيين الذين سبقوا المأمون، لنرى كيف كانت الحياة السياسية في عهدهم الذي كان بلا شك نواة صالحة لعصر المأمون، وإنا لنرجو إذا وُفِّقنا إلى بيان المناحي التي امتاز

بها هؤلاء أن ينكشف الغطاء عن حقيقة أمرهم ومكانتهم التاريخية، كما نرجو أن نظفر من وراء تفهم أقدارهم وحقيقة عصورهم بتفهم الأصول التي كوَّنت العصر الذي من أجله وضع هذا الكتاب.

هوامش

(١) هذا رأينا، ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار «أنه لم يكن لبني العباس حزب قبل أبي هاشم».

(٢) الماخوان - بضم الخاء المعجمة وآخره نون: قرية كبيرة ذات منارة وجامع من قرى مرو، ومنها خرج أبو مسلم، صاحب الدعوة، إلى الصحراء.

الفصل الرابع

أبو العباس السفاح

كان أبو العباس السفاح أول من تولى الخلافة العباسية ونقل الملك من بني أمية إلى بني العباس، وقد أجمع المؤرخون على أنه كان وافر الكرم، ظاهر المروءة، جليل الوقار، كثير الحياء، حسن الأخلاق، وصولاً لذوي الأرحام.

وكان إلى جانب هذه الأخلاق السمحة الرضية يجمع قلبًا ذكيًّا وأنفًا حميًّا في تعقب الأمويين، وتبديد شملهم في كل بقعة يخشى أن تُسمع لهم فيها كلمة، أو يطاع لهم رأي، أو يؤثَر عنهم صنيع. وكانت هذه الدولة الناشئة تحتاج إلى مثل هذه القسوة من مثل أبي العباس السفاح.

ويجب أن نذكر دائماً في مثل هذه الظروف أن جل الملوك الذين بعثوا لإنشاء دول جديدة، وممالك جديدة، وأسرات ملكية جديدة، مثل أبي العباس السفاح وغيره، هم مكرهون لا محالة على استعمال القسوة، وأخذ الأمور بالحزم والشدة دون إغفالهم الموادعة والملاينة فيما لا يهدد عروش ملكهم، وصروح سلطانهم.

قالوا: إنه كان في بعض أيامه جالسًا في مجلس الخلافة وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد أكرمه وتبسط معه حتى دخل عليه سَديفٌ الشاعر وأنشده:

لا يغرَّنك ما ترى من رجال ... إن تحت الضلوع داء دويًّا

فضع السيف وارفع السوط حتى لا ترى فوق ظهرها أمويًّا

فقال له سليمان: قتلتني يا شيخ! ودخل السفاحُ وأُخذ سليمان فقُتل.

وهذا الذي صنعه السفاح أصبح سنة عباسية في تأييد الملك، وكان قليل من الإغراء كافيًا في محق من تقع عليه العين من خصوم الخلافة، فقد دخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي وعنده من بني أمية نحو تسعين رجلًا على الطعام، فأقبل عليه فقال:

أصبح الملك ثابت الأساس بالبهاليل من بني العباس
طلبوا وترَ هاشم فشفَوها بعد ميل من الزمان وياس
لا تُقيلنَّ عبد شمس عِثارًا واقطعَنْ كلَّ رقلة وغراس
خوفُهم أظهر التودُّد منهم وبهم منكم كحزِّ المواسي
ولقد ساءني وساء قبيلي قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها الله بدار الهوان والإتعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلًا بجانب المهراس
والقتيل الذي بحرَّان أمسى رهنَ رمسٍ في غُربة وتناسي

فأمر بهم عبد الله فضربوا بالعُمُد حتى قتلوا، وبسط النطوعَ عليهم، فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنينَ بعضهم حتى ماتوا جميعًا.

ولم تقف هذه الوحشية عند حدِّ التنكيل بالأحياء؛ بل تعدَّتهم إلى الأموات، فقد ذكر أن عبد الله بن علي أمر بنبش قبور بني أمية بدمشق، فنُبش قبر معاوية بن أبي سفيان فوجدت فيه عظام كأنها الرماد، ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدت فيه جمجمته، وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو، غير هشام بن عبد الملك؛ فقد وجد صحيحًا

لم يَبْل منه إلا أرنبة أنفه، فضربه بالسياط وصلبه وأحرقه وذرَّاه في الريح، ثم تعقب أولاد الخلفاء من بني أمية فلم يفلت منهم إلا من كان في المهد صبيًّا، وأدرك بعض الهاربين إلى الأندلس فقتلهم بنهر أبي فُطْرُس،[1] وكان فيمن قتل محمد بن عبد الملك بن مروان، والغمر بن يزيد بن عبد الملك، وعبد الواحد بن سليمان، وسعيد بن عبد الملك، واستصفى بعد ذلك ما كانوا يملكون من نَشَب ومال، فلما فرغ منهم تغنَّى بهذه الأبيات:

بنـي أمـيـة قـد أفنيت جمعكمو ... فكيف لي منكمو بالأول الماضي

يُطيِّب النفس أن النار تجمعكم ... عُوِّضتمو من لظاها شرَّ مُعتاض

مُنِيتمو - لا أقال الله عثرتكم - ... بليث غاب إلى الأعداء نهَّاض

إن كان غيظي لفوت منكمو فلقد ... مُنيتُ منكم بـمـا ربي به راضي

قلنا: إن السفاح كان إلى جانب هذه القسوة برًّا بذوي رحمه، وصولًا لهم؛ ولنذكر مثالًا لذلك تصرفه مع آل الحسن بن علي الذين بايع بعض العباسيين رجلًا منهم هو محمد بن عبد الله - كما بينا من قبل - فقد روى عبد العزيز بن عبد الله البصري عن عثمان بن سعيد بن سعد المدني: أنه لما وَلي الخلافة أبو العباس السفاح قدِم عليه بنو الحسن بن علي بن أبي طالب؛ فأعطاهم الأموال وقطع لهم القطائع، ثم قال لعبد الله بن الحسن: احتكم عليَّ، قال: «يا أمير المؤمنين، بألف ألف درهم، فإني لم أرها قط». فاستقرضها أبو العباس من ابن مُقْرن الصيرفي وأمر له بها.

قال عبد العزيز: لم يكن يومئذ بيت مال، ثم إن أبا العباس أتى بجوهر مروان فجعل يقلبه وعبد الله بن الحسن عنده، فبكى عبد الله، فقال له:

ما يبكيك يا أبا محمد؟ قال: هذا عند بنات مروان وما رأت بنات عمك مثله قط! قال: فحباه به، ثم أمر ابن مقرن الصيرفي أن يصل إليه ويبتاعه منه، فاشتراه منه بثمانين ألف دينار.

على أن هذا الرفق واللين وهذه السياسة والحكمة لم تُنس أبا العباس السفاح ما يجب عليه من مراقبة الطالبيين، والتسمُّع لما قد يجيش في خواطرهم من الخروج عليه أو الكيد له؛ فإن صلة الرحم من مثل السفاح لا تكون ظاهرة خلقية بقدر ما تكون حيلة سياسية، وكذلك رأيناه يقول لبعض ثقاته وقد خرج من عنده بنو الحسن: «قُم بإنزالهم ولا تألُ في إلطافهم، وأظهر الميلَ إليهم والتحامل علينا وعلى ناحيتنا، وأنهم أحق بالأمر منا كلما خلوتَ بهم، وأحصِ لي ما يقولون وما يكون منهم في مسيرهم ومَقدَمهم».

ومما ذكرناه يرى القارئ معنا أن السفاح قد جمع حقًّا القسوة واللين، وأنه لم يكن في عنفه بأخطر منه في رقته، وإنما كان يلين ليستل سخيمة مدفونة، أو ليستدرج بعض الحاقدين، ويقسو ليُريَ أعداءه أن لا أمل لهم في الكيد لذلك السيف المسلول.

ومهما يكن من شيء، فإن خلافة أبي العباس كانت أقصر من أن تسمح لخصاله وأخلاقه بالظهور والتأثير القوي في سياسة الدولة وسيرة خلفائها. ولو عمَّر السفاح لكان من الممكن أن يرسم لخلفائه خطة تجنبهم بعض ما تورطوا فيه من الاضطراب.

هوامش

(١) نهر أبي فطرس - بضم الفاء وسكون الطاء وضم الراء وسين مهملة: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين به كانت وقعة عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس مع بني أمية، فقتلهم في سنة ١٣٢هـ.

الفصل الخامس

أبو جعفر المنصور

كان المنصور ملكًا سديد الرأي، محكم التدبير، وكان قوي العزيمة، جريء القلب، يمضي إلى غايته مُضيَّ السهم إلى الرميَّة لا يثنيه عنها شيء، سياسي حاذق لا يقبل أن تتدخل في سياسته عاطفة ولا خلق ولا اعتبار آخر إلا فوزه السياسي ليس غير، وهو إلى ذلك داهية، وربما اضطره الدهاء إلى شيء إن لم يكن الإثم الخلقي فهو يشبهه في كثير من الأحيان.

وهو من هذه الناحية أحد أولئك الساسة الذين عرفهم التاريخ من حين إلى حين بالإقدام في غير تردد ولا لين ولا تهيُّب للوسائل، والذين مثَّلهم «مكياڤلي» أحسن تمثيل.

فقد ذكر ابن الأثير أنه أحضر مرة ابن أخيه عيسى بن موسى وأمره بالمسير إلى المدينة لقتال محمد بن عبد الله، فقال: شاوِرْ عمومتك يا أمير المؤمنين، قال المنصور: فأين قول ابن هرمة:

نزور امرأً لا يمخض القوم سره ... ولا ينتجي الأدنين فيما يحاول

إذا ما أتى شيئًا مضى كالذي أتى ... وإن قال: إني فاعلٌ، فهو فاعل

ثم قال: امض أيها الرجل، فوالله ما يراد غيري وغيرك، وما هو إلا أن تشخص أنت أو أشخص أنا. فسار وسيَّر معه الجنود، وقال المنصور لما سار عيسى: «لا أبالي أيهما قتل صاحبه!».

وكان إلى جانب ذلك كما قال الجاحظ: مُقدَّمًا في علم الكلام، ومُكثرًا من كتاب الآثار، ولكلامه كتاب يدور في أيدي العارفين والورَّاقين معروف عندهم.

وفي وصف المنصور يقول يزيد بن هبيرة: «ما رأيت رجلًا قط في حرب ولا سمعت به في سلم أمكر ولا أبدع ولا أشد تيقظًا من المنصور، لقد حصرني في مدينتي تسعة أشهر ومعي فرسان العرب، فجهدنا كل الجهد أن ننال من عسكره شيئًا نكسرُه به فما تهيَّأ، ولقد حصرني وما في رأسي بيضاء، فخرجت إليه وما في رأسي سوداء».

وكان المنصور يعطي في موضع العطاء ويمنع في موضع المنع، ولكن المنع كان أغلب عليه، حتى ضرب المثل بشُحِّه وسمي «أبا الدوانيق»؛ لشدته في محاسبة العمال والصناع على الحبة والدانق.

وقد يكون من المستطرف أن نذكر شيئًا مما رواه الطبري في تمثيل هذه الناحية من أخلاق المنصور، فقد جاء فيه أن واضحًا مولاه قال: «إني لواقف يومًا على رأس أبي جعفر إذ دخل المهدي وعليه قباء أسود جديد، فسلم وجلس، ثم قام منصرفًا وأتبعه أبو جعفر ببصره؛ لحبه له وإعجابه به، فلما توسَّط الرواق عثر بسيفه فتخرق سوادُه، فقام ومضى لوجهه غير مكثرت لذلك ولا حافل به، فقال أبو جعفر: ردُّوا أبا عبد الله. فرددناه، فقال: يا أبا عبد الله، أستقلالًا للمواهب أم بطرًا بالنعمة، أم قلة علم بالمصيبة كأنك جاهل بما لك وما عليك؟».

فانظر إليه كيف لام ابنه وولي عهده وقد كان عنده أثيرًا، ولامه بمحضر من حاشيته في شيء ليس ذا بال عند أوساط الناس، فضلًا عن الخلفاء!

ومهما يُعتذرُ للمنصور بحرصه على الاقتصاد في أموال دولة ناشئة، وأخذ ولي العهد بتجنب الإسراف والإهمال، فقد نرى أن هذه الحادثة وأمثالها - مما سنرويه لك - تظهر ناحية صغيرة من نفسية المنصور، فقد كانت أمامه جلائل الأعمال في الدولة يستطيع أن يُظهر فيها ميله إلى الحرص والاقتصاد دون أن يسف إلى هذه الصغائر.

***

على أننا لا نستطيع أن نمتنع عن ذكر معاوية مؤسس الدولة الأموية والمقارنة بينه وبين المنصور مؤسس الدولة العباسية حقًّا من هذه الناحية؛ فقد كان معاوية - كما رأيت - أكرم الناس، وأشدهم تسخيرًا للأموال العامة والخاصة في الأغراض السياسية، وكان المنصور أشحَّ الناس بالأموال العامة والخاصة، يُؤثر التضحية بالدماء والكفايات في سبيل أغراضه السياسية على التضحية بالأموال.

ولعل من الإنصاف أن نلاحظ الفرق بين العصرين، وبين الدعائم التي اعتمد عليها الرجلان في إقامة ملكهما، فقد كان معاوية في بيئة عربية لم تخلُص بعدُ من البداوة ولا من سماحة الدين، فكان الحلمُ والكرمُ أليقَ به وأنفع، بينما كان المنصور في بيئة من الفرس والموالي تأثُّرها بالحضارة شديد، وحظها من الدين قليل.

ولو بسط معاوية سلطانه بالسيف لفشل، ولكننا نرى أن لو بسط المنصور سلطانه بالمال في شيء من الحزم لوُفِّق وحقن الدماء، ولرسم لخلفائه خطة أقرب إلى اللين والعافية من هذه الخطة العنيفة التي ستراها في سيرة أكثرهم.

وحدث الوضين بن عطاء قال: «استزارني أبو جعفر - وكانت بيني وبينه خَلَالة قبل الخلافة - فصرتُ إلى مدينة السلام، فخلونا يومًا فقال لي: يا أبا عبد الله، ما مالُك؟ فقلت: الخير الذي يعرفه أمير المؤمنين، قال: وما عيالُك؟ قلت: ثلاث بنات والمرأة وخادم لهنَّ، فقال لي: أربعٌ في بيتك؟ قلتُ: نعم، قال: فوالله لردَّد ذلك عليَّ حتى ظننت أنه سيموِّلني، قال: ثم رفع رأسه إلي فقال: أنت أيسرُ العرب؛ أربع مغازل يدرن في بيتك!».

على أن شح المنصور لم يكن يخلو أحيانًا من بعض الظرف والفكاهة؛ فقد ذكر إبراهيم بن عبد الرحمن أن أبا جعفر كان نازلًا على رجل يقال له: أزهر السمان، قبل خلافته، فلما ولي الخلافة زاره الرجل وطلب صلته، فوصله، ثم عاوده فوصله، وجاءه في الثالثة فقال له المنصور: يا أزهر، ما جاء بك؟ قال: دعاء سمعته منك أحببت أن آخذه عنك، قال: لا ترده فإنه غير مستجاب؛ لأني قد دعوت الله أن يريحني من خِلْقَتك فلم يفعل! وصرفه ولم يعطه شيئًا.

وربما كان من العدل التاريخي أن نحتاط أمام هذه الروايات الكثيرة التي أسرف المؤرخون في روايتها إثباتًا لبخل المنصور وشحِّه؛ فقد يكون مصدرها ما ألفوه من إسراف الخلفاء، ولعل المنصور لم يبلغ أكثر من أنه كان شديد الميل إلى الحرص والتدبير، والنُّفرة من الملحفين، وأخذَ أهل بيته بذلك كله.

ولم يفت المنصور أن يعلل ذلك البخل؛ فقد جاء في عيون الأخبار أنه قال في مجلسه لقوَّاده: «صدق الأعرابي حيث يقول: أَجِعْ كلبك يتبعْك»، فقام أبو العباس الطوسي وقال: «يا أمير المؤمنين، أخشى أن يلوِّح له غيرك برغيف فيتبعه ويدعك!».

وقد كان أبرويزُ أحكمَ من المنصور إذ قال لابنه شيرويه وهو في حبسه: «لا توسعن على جندك فيستغنوا عنك، ولا تُضيِّقنَّ عليهم فيضجُّوا منك، أعطهم عطاء قصدًا، وامنعهم منعًا جميلًا، ووسِّع عليهم في الرجاء، ولا تُسرف عليهم في العطاء».

***

وليس أدل على الشخصية السياسية لهذا الخليفة من سيرته مع ثلاثة هم في حقيقة الأمر أكبر زعماء الدولة في عصره، فهذه السيرة تبين لك - في وضوح وجلاء - ما قدمناه من أن المنصور كان «مكياڤلي» السياسة لا يُحجم عن الغدر وقطع الرحم وكفر النعمة إذا رأى منفعته في ذلك.

وهؤلاء الزعماء هم؛ أولًا: أبو مسلم الذي أخلص في نصرة المنصور والسهر على ملكه، فلم يألُ جهدًا في تعقب الخارجين على الملك، لا يفرقُ في ذلك بين أشياع المنصور وأهله من بني العباس، ولا خصومه الذين يكيدون له في السر أو في العلانية، فقتل الشيباني والكرماني وأبا سلمة الخلال، وحارب عمَّ المنصور عبد الله بن علي واستولى على ما في عسكره من الغنائم والأسلحة. وثانيًا: عمه عبد الله بن علي، وهو الذي فعل ما فعل في نصرة الدعوة العباسية وتقتيل خصومها من بني أمية، فضلًا عن حروبه الموفقة في صد جيوش مروان، ومع ذلك فقد سلط عليه المنصورُ أبا مسلم فحاربه وقهره، ولما لم يصل إلى قتله كلَّف ابنَ عمه عيسى بن موسى والي الكوفة أن يقتله، فلما لم يقتله تولَّى المنصورُ قتلَه بنفسه؛ ليأمن ما قد يحدثه من الثورة والاضطراب. وثالثًا: ابن عمه وولي عهده عيسى بن موسى، وقد رأيت كيف أشخصه المنصور لقتال محمد بن عبد الله ملحًّا في ذلك، حتى

إذا أُشخِص قال المنصور: «لا أبالي أيهما قتل صاحبه!» ثم ما زال المنصور يكيد لهذا الأمير حتى خلعه من ولاية العهد، وبايع مكانه لابنه المهدي، ثم مضى في الكيد له. وقد يكون من المفيد أن ننقل ما جاء في المستطرف عن خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد بمعرفة المنصور، وما قاله ابن الأثير عن قتل عمه عبد الله بن علي، فإن فيما قالاه تصويرًا دقيقًا لسياسة المنصور، وتمثيلاً لحرصه على الملك الذي كان لا يبالي في سبيل توطيده أن ينكث بما عقد من عهد، أو ينقض ما أبرم من ميثاق.

جاء في المستطرف: أن عيسى بن موسى لما غدر به المنصور ونقل ولاية العهد منه إلى المهدي ابنه أنشد:

أينسى بنو العباس ذبِّي عنهمو بسيفي ونار الحرب زاد سعيرها
فتحت لهم شرق البلاد وغربها فـذلَّ مُعاديها وعـزَّ نصيرها
أُقـطِّـع أرحـامًـا على عزيزة وأُبـدي مـكيداتٍ لـها وأثيرها
فلما وضعتُ الأمر في مستقره ولاحتْ له شمسٌ تلألأ نورها
دُفعتُ عن الأمر الذي أستَحقُّه وأوسق أوساقًا من الغدر عيرها

وجاء في ابن الأثير أن المنصور أحضر عيسى بن موسى بعد أن خلع نفسَه، وسلَّم إليه عمه عبد الله بن علي وأمره بقتله وقال له: إن الخلافة صائرة إليك بعد المهدي؛ فاضرب عنقه، وإياك أن تضعف فتنقض عليَّ أمري الذي دبرته. ثم مضى إلى مكة وكتب إلى عيسى من الطريق يستعلم منه عمَّا فعل في الأمر الذي أمره، فكتب عيسى: «قد أنفذت ما أمرت به». فلم يشكَّ في أنه قتله - وكان عيسى حين أخذ عبد الله من عند المنصور دعا كاتبه يونس بن فروة وأخبره الخبر، فقال: أراد أن يقتله ثم يقتلك؛

لأنه أمر بقتله سرًّا، ثم يدعيه عليك علانية؛ فلا تقتله، ولا تدفعه إليه سرًّا أبدًا، واكتُم أمره، ففعل ذلك عيسى - فلما قدِم المنصور وضع على أعمامه مَن يُحرِّكهم على الشفاعة في أخيهم عبد الله، ففعلوا وشفعوا، فشفَّعهم وقال لعيسى: إني كنت دفعت إليك عمي وعمك ليكون في منزلك، وقد كلمني عمومتك فيه وقد صفحت عنه فائتِنَا به، قال: يا أمير المؤمنين، ألم تأمرني بقتله فقتلتُه؟ قال: ما أمرتك؟ قال: بل أمرتني، قال: ما أمرتك إلا بحبسه وقد كذبتَ، ثم قال المنصور لعمومته: إن هذا قد أقر بقتل أخيكم، قالوا: فادفعه إلينا نقيدُه به. فسلمه إليهم وخرجوا به إلى الرحبة، واجتمع الناس وشهر الأمر وقام أحدهم ليقتله، فقال عيسى: أفاعلٌ أنت؟ قال: إي والله! قال: رُدُّوني إلى أمير المؤمنين. فردوه إليه، فقال له: إنما أردت بقتله أن تقتلني، هذا عمك حيٌّ سوي، قال: ائتنا به. فأتاه به، قال: يدخل حتى أرى رأيي، ثم انصرفوا فأمر فجُعِل في بيت أساسه ملحٌ، وأُجري الماء في أساسه فسقط عليه فمات.

وهذه الرواية يؤيدها أكثر المؤرخين من العرب. وقد فعل أبو مسلم مع سليمان بن كثير - وكان من أركان هذه الدولة - ما يضيف حلقة إلى سلسلة الاضطهادات التي ارتكبت تأييدًا لهذا الملك، فقد أحضره إليه وقال له: أتحفظ قول الإمام لي: «من اتهمته فاقتله؟» قال: نعم، قال: فإني قد اتهمتُك. فخاف سليمان وقال: أناشدك الله! قال: لا تناشدني؛ فأنت منطوٍ على غش الإمام. وأمر بضرب عنقه.

وقد سئم الناس هذه الحالة وثار بعض أمراء بني العباس أنفسهم احتجاجًا على ما أريق من الدماء، فقد جاء في الأغاني في أخبار عبد الله

ابن عمر العقيلي الشاعر المخضرم، أن محمد بن عبد الله لما سمع للعقيلي قصيدته التي مطلعها:

تـقـول أمـامـةُ لمـا رأت نشوزي عن المضجع الأنفس

والتي ختامها:

فـما أنـس لا أنـس قتلاهم ولا عاش بعدهم من نَسي

بكى واستعبر، فقال له عمه الحسن بن الحسن بن علي: أتبكي عَلى بني أمية وأنت تريد ببني العباس ما تريد؟! فقال: «والله يا عم، لقد كنا نقمنا على بني أمية ما نقمنا، فما بنو العباس إلا أقل خوفًا لله منهم، وإن الحجة على بني العباس لأوجب منها عليهم، ولقد كانت للقوم أخلاق ومكارم ليست لأبي جعفر».

وذكر الأصفهاني أيضًا أن محمدًا وآله وهبوا للشاعر مالاً لمدحته تلك، وهكذا تغيرت نفوس آل البيت من إسراف العباسيين في الفتك والقتل.(1)

***

وماذا كان حظ أبي مسلم؟ وكيف كان جزاؤه على ذلك الإخلاص الدموي؟ كان جزاؤه أن قُتل بيد الخليفة نفسه عملاً بسنته المعروفة: «اقتُل من اتَّهمتَه»، مع أنه كان لا يقطع أمرًا دونه.

وقد ذكر الجاحظ أن المنصور لما همَّ بقتل أبي مسلم سقط بين الاستبداد برأيه والمشاورة فيه، فأرق في ذلك ليلته، فلما أصبح دعا بإسحاق بن مسلم العقيلي، فقال له: حدثني حديث الملك الذي أخبرتني عنه بحرَّان، قال: أخبرني أبي عن الحصين بن المنذر أن ملكًا من ملوك فارس - يقال له: سابور الأكبر - كان له وزير ناصح قد اقتبس أدبًا من آداب الملوك، وشابَ

ذلك بفهم في الدين، فوجَّهه سابور داعية إلى خراسان، وكانوا قومًا عجمًا يُعظِّمون الدين جهالة بالدين، ويُخلُّون بالدين استكانة لقوة الدنيا وذلًّا لجبابرتها، فجمعهم على دعوة من الهوى يكيد به مطالب الدنيا، واعتزَّ بقتل ملوكهم لهم وتخوُّلهم إياهم - وكان يقال: لكل ضعيف صولة، ولكل ذليل دولة - فلما تلاحمت أعضاء الأمور التي لقح استحالتْ حربًا عوانًا شالتْ أسافلها بأعاليها، فانتقل العز إلى أرذلهم، والنباهة إلى أخملهم، فأشربوا له حبًّا مع خفض من الدنيا افتتح بدعوة من الدين، فلما استوسقت له البلاد بلغ سابور أمرهم وما أحال عليه من طاعتهم، ولم يأمن زوال القلوب وغدرات الوزراء، فاحتال في قطع رجائه عن قلوبهم - وكان يقال:

وما قطع الرجاء بمثل يأس تبادهه القلوب على اغترار

فصمم على قتله عند وروده عليه برؤساء أهل خراسان وفرسانهم، فقتله، فبغتهم بحدث فلم يَرُعهم إلا ورأسه بين أيديهم، فوقف بهم بين الغربة ونأي الرجعة وتخطّف الأعداء، وتفرق الجماعة، واليأس من صاحبهم، فرأوا أن يستتموا الدعوة بطاعة سابور، ويتعوضوه من الفرقة، فأذعنوا له بالملك والطاعة، وتبادروه بمواضع النصيحة، فملكهم حتى مات حتف أنفه. فأطرق المنصور مليًّا ثم رفع رأسه وهو يقول:

لذي الحلم قبل اليوم ما تُقرَع العصا وما عُلِّم الإنسان إلا ليعلما

وأمر إسحاق بالخروج ودعا بأبي مسلم، فلما نظر إليه داخلًا قال:

قد اكتنفتك خلّات ثلاث جلبن عليك محذور الحِمام

خلافك وامتنانك ترتميني وقودك للجماهير العظام

ثم وثب إليه ووثب معه بعض حشمه بالسيوف، فلما رآهم وثب فبدره المنصور فضربه ضربة طوحه منها، ثم قال:

اشرب بكأس كنت تسقي بها   أمرَّ في الحلق من العلقم
زعمت أن الدين لا يُقتضى   كذبت فاستوفِ أبا مجرم

ثم أمر فخزَّ رأسه وبُعث به إلى أهل خراسان وهم ببابه، فجالوا حوله ساعة ثم ردهم عن شغبهم انقطاعُهم عن بلادهم وإحاطة الأعداء بهم، فذلّوا وسلَّموا له، فكان إسحاق إذا رأى المنصور قال:

وما ضربوا لك الأمثال إلا   لتحذو إن حذوت على مثال

وكان المنصور إذا رآه قال:

وخلفها سابور للناس يُقتدَى   بأمثالها في المعضلات العظائم

وما أجمل تلك الجملة التي قالها محمد بن عبد الله العلوي حين أمَّنه المنصور على نفسه، فقد قال: أي أمان تعطيني؛ أمان ابن هبيرة، أم أمان عمك عبد الله، أم أمان أبي مسلم؟!

ولقد تنفس المنصور حين قتل أبا مسلم، حتى قال له بعض أقربائه ساعة قتله: عُدَّ هذا اليوم أول يوم من خلافتك.

***

على أنه من الحق أن نقرر أن عدوان المنصور وإسرافه في التنكيل بخصومه له قيمته في الدلالة على عرفانه بحق الملك، وحرصه على نجاة الدولة من أخطار البغي والخروج على النظام، ففي سبيل هذه الغاية أسرف في سفك الدماء، وتقطيع الأرحام، وقتل أمثال بني الحسن والحسين، والديباج الأصفر، والنفس الزكية، وقتل عمه وقائده، وترك خزانة رءوس فيها ترك ميراثًا لابنه المهدي.

ولقد كان مع هذه القسوة ثاقب الرأي، محكم التدبير، وهو الذي يقول لابنه المهدي: «يا أبا عبد الله، ليس العاقل الذي يحتال للأمر الذي وقع فيه حتى يخرج منه، ولكنه الذي يحتال للأمر الذي غشيه حتى لا يقع فيه».

وقد ذكر المؤرخون أنه كان إذا جنى على أحد جنايةً، أو أخذ من أحد مالًا جعله في بيت المال مفردًا، وكتب عليه اسم صاحبه، فلما أدركته الوفاة قال لابنه المهدي: «يا بني، إني قد أفردت كل شيء أخذته من الناس على وجه الجناية والمصادرة، وكتبت عليه أسماء أصحابه؛ فإذا وليت أنت فأعِدْه على أربابه ليدعو لك الناس ويحبوك». وفي عهد المنصور أنشئت «بغداد» موئل العلم ودار السلام.

هوامش

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا الرأي بقوله: «أحسب أن تغير آل البيت على بني العباس إنما كان سببه أنهم نفسوا عليهم ما أتيح لهم من ملك مع اعتقادهم أنهم أحق بذلك منهم».

الفصل السادس

المهدي

عيناي واحـدة تُـرى مسرورة　　بأميـرها جذلَى وأخرى تَذرِف
تبكي وتضحك تارة ويسوؤها　　ما أنـكرت ويـسرُّها مـا تعرِف
فيسوؤهـا موتُ الخليفة مُحرمًا　　ويـسـرُّهـا أن قـام هذا يَخلُف
ما إن رأيتُ كما رأيتُ ولا أرى　　شعرًا أسرحـه وآخـر أنتِفُ
هـذا حباه الله فضل خلافة　　ولذلك جنات النعيم تُزخرَف

بهذه الأبيات الرقيقة كان أبو دلامة أول من تقدم بتعزية المهدي بوفاة والده المنصور، وتهنئته بارتقاء عرش الخلافة سنة ثمان وخمسين ومائة للهجرة.

وقد كان المهدي - فيما أجمع عليه الرواة - شهمًا فطنًا كريمًا، شديد البأس في تعقب الملحدين والزنادقة، لا تأخذُه في إهلاكهم لومة لائم.

وكان كثيرًا ما يجلس لرد المظالم، وقد عرف عنه أنه كان إذا جلس للمظالم قال: «أدخلوا عليَّ القُضاة، فلو لم يكن ردي للمظالم إلا للحياء منهم لكفى».

وروى الطبري في حوادث سنة تسع وستين ومائة، أن مسور بن مساور قال: «ظلمني وكيل للمهدي وغصبني ضيعة لي، فأتيت سلَّامًا صاحب المظالم فتظلمت منه، وأعطيته رقعة مكتوبة، فأوصل الرقعة إلى المهدي وعنده عمه العباس بن محمد وابن علاثة وعافية القاضي، قال: فقال لي

المهدي: ادنُ. فدنوتُ، فقال: ما تقول؟ قلت: ظلمتني، قال: فترضى بأحد هذين؟ قلتُ: نعم، قال: فادنُ مني، فدنوتُ منه حتى التزقتُ بالفراش، قال: تكلم، قلت: أصلَح الله القاضي، إنه ظلمني في ضيعتي هذا، فقال القاضي: ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: ضيعتي وفي يدي، قال: قلتُ: أصلَح الله القاضي، سَلْه صارت الضيعة إليه قبل الخلافة أو بعدها، قال: فسأله ما تقول يا أمير المؤمنين؟ قال: صارت إليَّ بعد الخلافة، قال: فأطلقها له، قال: قد فعلت، فقال العباس بن محمد: والله يا أمير المؤمنين، لهذا المجلس أحبُّ إليَّ من عشرين ألف ألف درهم».

***

أما كرمه فسجية قديمة فيه، وبسببه نال عتب المنصور غير مرة، وقد ذكر الطبري أن المؤمل بن أميل قال: قدمت على المهدي بالري وهو ولي عهد، فأمر لي بعشرين ألف درهم لأبيات امتدحتُه بها، فكتب بذلك صاحب البريد إلى المنصور وهو بمدينة السلام يخبره أن المهدي أمر لشاعر بعشرين ألف درهم، فكتب إليه المنصور يعذله ويقول له: إنما كان ينبغي لك أن تعطي الشاعر بعد أن يُقيم ببابك سنةً أربعة آلاف درهم، قال المؤمل: فكتب إلى كاتب المهدي أن يُوجِّه إليه الشاعر، فطُلب فلم يُقدَر عليه، فكتب إليه: إنه قد توجه إلى مدينة السلام، فوجه المنصور قائدًا من قواده فأجلسه على جسر النهروان، وأمره أن يتصفَّح الناس رجلًا رجلًا ممن يمرُّ به حتى يظفر بالمؤمل، فلما رآه قال له: من أنت؟ قال: أنا المؤمل بن أميل من زُوَّار الأمير المهدي، قال: إياك طلبت، قال المؤمل: فكاد قلبي ينصدع خوفًا من أبي جعفر، فقبض عليَّ ثم أتى بي باب المقصورة وأسلمني إلى

الربيع، فدخل إليه الربيع فقال: هذا الشاعر قد ظفرنا به، فقال: أدخلوه عليَّ، فأُدخلتُ عليه فسلمتُ فردَّ علي السلام، فقلت: ليس هاهنا إلا خير، قال: أنت المؤمل بن أميل؟ فقلت: نعم، أصلح الله أمير المؤمنين، قال: هيه! أتيت غلامًا غرًّا فخدعته، فقلت: نعم، أصلح الله أمير المؤمنين، أتيت غلامًا كريمًا فخدعتُه فانخدع، قال: فكأن ذلك أعجبه فقال: أنشدني ما قلت فيه، فأنشدته:

هو المهدي إلا أن فيه ... مَشابه صورة القمر المنير
تشابه ذا وذا فَهُمَا إذا ما ... أنارا مُشكلانِ على البصير
فهذا في الظلام سراجُ ليل ... وهذا في النهار سراج نور
ولكن فضَّل الرحمن هذا ... على ذا بالمنابر والسرير
وبالملك العزيز فذا أمير ... وما ذا بالأمير ولا الوزير
ونقص الشهر يُحمد ذا وهذا ... منير عند نقصان الشهور
فيا ابن خليفة الله المُصفَّى ... به تعلو مُفاخرةُ الفخور
لئن فتَّ الملوك وقد توافَوا ... إليك من السهولة والوعور
لقد سبق الملوكَ أبوك حتى ... بقوا من بين كاب أو حسير
وجئت وراءه تجري حثيثًا ... وما بك حين تجري من فتور
فقال الناس: ما هذان إلا ... بمنزلة الخليق من الجدير
لئن سبق الكبير فأهل سبق ... له فضل الكبير على الصغير
وإن بلغ الصغير مدى الكبير ... لقد خُلق الصغير من الكبير

فقال: والله لقد أحسنت! ولكن هذا لا يساوي عشرين ألف درهم، ثم قال لي: أين المال؟ قلت: ها هو ذا، قال: يا ربيع، انزل معه فأعطه

أربعة آلاف درهم، وخذ الباقي، قال: فخرج الربيع فحط ثقلي، ووزن لي أربعة آلاف درهم وأخذ الباقي، فلما صارت الخلافة إلى المهدي ولَّي ابن ثوبان المظالم، فكان يجلس للناس بالرصافة، فإذا ملأ كساءه رقاعًا رفعها إلى المهدي، فرفعت إليه يومًا رقعة أُذكِّره قصتي، فلما دخل بها ابن ثوبان جعل المهدي ينظر في الرقاع، حتى إذا نظر في رقعتي ضحك، فقال له ابن ثوبان: أصلح الله الأمير، ما رأيتك ضحكت من شيء من هذه الرقاع إلا من هذه الرقعة! قال: هذه رقعة أعرف سببها، ردُّوا إليه العشرين ألف درهم، فُردَّت إليَّ وانصرفت.

ولنترك هذه السماحة في إجازة الشعراء لنرى كيف كانت أريحية المهدي في الإحسان إلى الجماهير، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ستين ومائة، أن المهدي قسَم في تلك السنة مالاً عظيماً في أهل مكة وفي أهل المدينة كذلك، وأنه نظر فيما قسم في تلك السفرة، فوجد ثلاثين ألف ألف درهم حملت معه، ووصلت من مصر ثلاثمائة ألف دينار، ومن اليمن مائتا ألف دينار، فقسم ذلك كله، وفرق من الثياب مائة ألف ثوب وخمسين ألف ثوب.

***

وكان المهدي إلى جانب جوده وسخائه حييًّا خجولًا وبرًّا رحيماً؛ دخل عليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين، إن المنصور شتمني وقذف أمي، فإما أمرتني أن أحله، وإما عوضتني واستغفرت الله له، قال المهدي: ولم شتمك؟ قال: شتمت عدوه بحضرته فغضب، قال: ومَن عدوُّه الذي غضب لشتمه؟ قال: إبراهيم بن عبد الله بن حسن، قال: إن إبراهيم أمسُّ به رحمًا، وأوجب عليه حقًّا، فإن كان شتمك كما زعمتَ فعن رحمه ذبَّ،

وعن عرضه دفَع، وما أساء من انتصر لابن عمه، قال: إنه كان عدوًّا له، قال: فلم ينتصر للعداوة وإنما انتصر للرحم. فأسكت الرجل، فلما ذهب ليُولِّي قال: لعلك أردتَ أمرًا فلم تجد له ذريعة عندك أبلغ من هذه الدعوى، قال: نعم، قال: فتبسم المهدي وأمَر له بخمسة آلاف درهم.

ولننظر إلى ما يرويه الربيع عنه، قال: رأيت المهدي يصلي في بَهو له في ليلة مقمرة، فما أدرى أهو أحسن أم البهو أم القمر أم ثيابه؟! قال: فقرأ هذه الآية: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴾ قال: فأتم صلاته والتفت إلي فقال: يا ربيع، قلت: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: عليَّ بموسى، وقام إلى صلاته، قال: فقلتُ: مَن موسى؟ أابنُه موسى أم موسى ابن جعفر - وكان محبوسًا عندي - قال: فجعلت أفكر، قال: فقلت: ما هو إلا موسى بن جعفر، قال: فأحضرته، قال: فقطع المهدي صلاته وقال: يا موسى، إني قرأت هذه الآية: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ ﴾ فخفت أن أكون قطعت رحمك، فوثِّق لي أنك لا تخرج عليَّ، قال: فقال: نعم. فوثَّق له وخلَّاه.

ومثل هذا ما حدَّث به علي بن صالح قال: غضب المهدي على بعض القواد - وكان عتب عليه غير مرة - فقال له: إلى متى تذنب إليَّ وأعفو؟! قال: إلى أبدٍ نُسيء ويُبقيك الله فتعفو عنا. فكررها عليه مرات، فاستحى منه ورضي عنه.

ثم لننتقل إلى حوادث سنة ثمان وخمسين ومائة، فنرى النوفلي يحدثنا عن البيعة للمهدي وما كان من أمر الربيع فيها، فيقول: إن الربيع تناول يد الحسن بن زيد فقال: قم يا أبا محمد فبايع، فقام معه الحسن، فانتهى به

الربيع إلى موسى فأجلسه بين يديه، فتناول الحسن يد موسى ثم التفت إلى الناس فقال: يا أيها الناس، إن أمير المؤمنين المنصور كان ضربني واستصفى مالي، فكلَّمه المهدي فرضى عني، وكلَّمه في رد مالي عليَّ فأبى ذلك، فأخلفه المهدي من ماله وأضعفه مكان كل عِلْق علقين، فمن أولى بأن يبايع لأمير المؤمنين بصدر منشرح، ونفس طيبة، وقلب ناصح مني، ثم بايع موسى للمهدي، ثم مسح على يده.

***

وبعد، فالمهدي من الخلفاء العباسيين في الذؤابة، وقد صدق الأستاذ «ميور» إذ يقول: إن المهدي كان في إدارته لشئون رعيته كمن يعمل بوجه عام على رفاهية الأمة وإسعادها، وكان مُعينًا ومعجِّلًا للعصر الذهبي الذي تلا أيامه، وما أُخذ عليه من بعض الهنات لا يمنع المُؤرِّخ المُنصف أن يرى في عصره ترفيهًا للناس مما كانوا يعانون من الشدة أيام المنصور.

كان المهدي موفَّقًا في اختيار وزرائه، وإن كانت السعاية أحلت ببعضهم العذاب وسوء المصير، وكان دقيقًا في نظره للأمور، وقد بدأ خلافته بإطلاق من كان في سجن المنصور، إلا من كان قِبله تِباعة من دم أو قتل، ومن كان معروفًا أنه يسعى في الأرض بالفساد، أو كان لأحد قِبلَه مظلمة، وإنما أطلق من كان جرمهم سياسيًّا.

وكان محبًّا للأدب مشجعًا على التأليف فيه، جادًّا في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق، محبًّا للغزوات والفتوح، وقد قيل: إنه كان لا يشرب النبيذ وإن كان سُمَّاره يشربونه في مجلسه، وكان مُحبًّا للسماع.

ويخبرنا الطبري في حوادث سنة تسع وستين ومائة، أن المهدي مات مسمومًا، وقد لَبست عليه قيانه المُسُوح، فقال أبو العتاهية في ذلك:

رحن في الوشي وأصبحـ ـن عليهن المسوح
كل نطَّاح من الدهـ ـر له يومٌ نَطُوح
لست بالباقي ولو عمـ ـرت ما عمَّر نوح
فعلى نفسك نُحْ إن كنت لا بد تَنُوح

والظاهر مما قدمناه أن المهدي كان يخالف أباه المنصور مخالفة شديدة من بعض النواحي، ويلائمه ملاءمة ما من نواحٍ أُخر؛ كان كريمًا مُهينًا للمال، بينما كان أبوه بخيلًا شحيحًا، ولكنه ورث عن أبيه بعض القسوة والميل إلى سفك الدماء.(١)

ولم تكن السياسة لتعينه على ذلك، فقد ثبَّت له المنصور أركان الملك، فالتمس الدماء في تتبع الزنادقة والفتك بهم، وأسرف في ذلك حتى قتل بعض الأبرياء في قسوة تُمثِّلها قصته مع ابن وزيره أبي عبيد الله.

وفي المهدي ناحية جديدة في خلفاء العباسيين هي الميل إلى الاعتدال السياسي في معاملة الطالبيين؛ فقد كان على شيء من الرفق بهم والعطف عليهم، لا يمنعه من اتقائهم والإشفاق منهم. وهذه السياسة الرقيقة الحازمة تذكرنا بعض التذكير بما سيكون من سياسة المأمون.

ومن أظهر خصال المهدي الشخصية غيرتُه على النساء، تلك التي أغرته ببشار فضربه حتى مات؛ مُتعللًا بزندقته وإن كانت العلة الحقيقية هي استهتار بشار بالغزل.(٢) وقد أورث المهدي غيرته هذه ابنه الهادي كما سترى.

هوامش

(١) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا الرأي بقوله: «قسوة المهدي في سفك الدماء لم تكن عامة، وإنما كان ذلك في الزنادقة خاصة».

(٢) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار أن قتل بشار لم يكن سببه الغيرة على النساء، وإنما كان بتدبير يعقوب بن داود الوزير ودسيسته. وبشار هو الذي يقول:

بني أمية هبوا طال نومكم ... إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا ... خليفة الله بين الناي والعود

وكانت حيلة يعقوب بن داود على الخليفة أن أخبره بأن بشارًا وقع في الخليفة وهجاه، فاستنشده المهدي هجاءه فامتنع، فعزم عليه فأنشده:

خليفة يزني بعماته ... يضرب بالدف وبالصولجان
أبدلنا الله وغيره ... ودس موسى في حِرِّ الخيزران

الفصل السابع

الهـــادي

قال محمد بن علي بن طباطبا في كتاب «الآداب السلطانية»: كان الهادي متيقظًا غيورًا كريمًا، شديد البطش، جريء القلب، مجتمع الحس، ذا إقدام وعزم وحزم.

ونحن نخشى أن يكون في هذا الثناء إسراف كثير، فلم يطل عهد الهادي بالخلافة ليمكن الحكم له أو عليه، وإنما مر بها مرور الطيف.

ومع ذلك فقد أكثر المؤرخون من التحدث عنه بالخير، وليس يستوقفنا من سيرته كلها إلا ثلاثة أمور:

الأول: ما ذكره عنه عبد الله بن عبد الملك قال: كنت أتولَّى الشرطة للمهدي، وكان المهدي يبعث إلى ندماء الهادي ومُغنيه، ويأمرني بضربهم، وكان الهادي يسألني الرفق بهم والترفيه لهم ولا ألتفت إلى ذلك، وأمضي لما أمرني به المهدي، قال: فلما ولي الهادي الخلافة أيقنت بالتلف، فبعث إليَّ يومًا، فدخلت عليه متكفنًا متحنطًا، وإذا هو على كرسي والسيف والنطع بين يديه، فسلمت، فقال: لا سلَّم الله على الآخر! تذكُرُ يوم بعثت إليك في أمر الحراني وما أمَر أمير المؤمنين به من ضرْبه وحبْسه فلم تُجبني؟ وفي فلان وفلان - وجعل يُعدِّد نُدماءه - فلم تلتفت إلى قولي ولا أمري؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، أفتأذن لي في استيفاء الحجة؟ قال: نعم، قلت: ناشدتُك بالله يا أمير المؤمنين، أيسرُّك أنك وليتني ما ولاني أبوك، فأمرتني

بأمر فبعث إليَّ بعض بنيك بأمر يخالف به أمرك، فاتبعت أمره وعصيت أمرك؟ قال: لا، قلت: فكذلك أنا لك، وكذا كنت لأبيك. فاستدناني فقبَّلت يديه، فأمر بخِلَع فصُبَّت عليَّ، وقال: قد وليتك ما كنت تتولاه، فامض راشدًا. فخرجت من عنده فصرت إلى منزلي مفكرًا في أمري وأمره، وقلت: حدَثٌ يشرب والقوم الذين عصيته في أمرهم ندماؤه ووزراؤه وكتابه، فكأني بهم حين يغلب عليهم الشراب قد أزالوا رأيه فيَّ وحملوه من أمري على ما كنت أكره وأتخوَّف، قال: فإني لجالس وبين يدي بنية لي في وقتي ذلك، وكانون بين يدي، ورقاق أشطره بكامخ وأُسخِّنه وأضعه للصبية، وإذا ضجة عظيمة حتى توهمت أن الدنيا قد اقتلعت وتزلزلت بوقع الحوافر وكثرة الضوضاء، فقلت: هاه! كان والله ما ظننت، ووافاني من أمره ما تخوفت، فإذا الباب قد فتح، وإذا الخدم قد دخلوا، وإذا أمير المؤمنين الهادي على حمار في وسطهم، فلما رأيته وثبتُ عن مجلسي مبادرًا، فقبَّلت يده ورجله وحافر حماره، فقال لي: يا عبد الله، إني فكرت في أمرك فقلت: يسبق إلى قلبك أني إذا شربت وحولي أعداؤك أزالوا ما حسن من رأيي فيك، فأقلقك وأوحشك، فصرت إلى منزلك لأُونِسك وأُعلِمك أن السخيمة قد زالت عن قلبي لك، فهات فأطعمني مما كنت تأكل، فأفعل فيه ما كنت تفعل، لتعلم أني قد تحرَّمتُ بطعامك، وأَنِسْت بمنزلك، فيزول خوفك ووحشتك. فأدنيت إليه ذلك الرقاق والسكرجة التي فيها الكامخ فأكل منها، ثم قال: هاتوا الزُّلة التي أزللتها لعبد الله من مجلسي، فأدخلت إليَّ أربعمائة بغلة موقرة دراهم، وقال: هذه زلَّتك فاستعن بها على أمرك، واحفظ لي هذه البغال عندك لعلِّي أحتاج إليها يومًا لبعض أسفاري، ثم

قال: أظلك الله بخير، وانصرف راجعًا. ونحن وإن كنا نفترض في هذه الرواية وأمثالها المبالغة، نرى أنها تدل في جملتها على بصر بالسياسة، وفطنة في العلم بالناس، والانتفاع بكفاياتهم.

الأمر الثاني: وقوفه موقف حزم نعتقد أنه أنقذ القصر العباسي من شر عظيم أفسد على ملوك الفرس قصورهم، كما أفسد على العباسيين أنفسهم أمور الخلافة بعد عصر المأمون؛ ذلك هو تدخل النساء في أمور الدولة.

فقد ذكر الطبري أن الخيزران والدة الهادي كانت في أول خلافته تفتات عليه في أموره، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنهي، فأرسل إليها ألا تخرجي من خفَر الكفاية إلى بذاذة التبذُّل؛ فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض في أمر الملك، وعليك بصلاتك وتسبيحك وتبتُّلك، ولك بعد هذا طاعة مثلك فيما يجب لك. قال: وكانت الخيزران في خلافة موسى كثيرًا ما تُكلِّمه في الحاجات، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله، حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته، وانثال الناس عليها وطمعوا فيها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها، فقال: فكلمته يومًا في أمر لم يجد إلى إجابتها إليه سبيلاً، فاعتلَّ بعلة، فقالت: لا بد من إجابتي، قال: لا أفعل، قالت: فإني قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، قال: فغضب موسى وقال: ويل على ابن الفاعلة! قد علمت أنه صاحبها، والله لا قضيتها له، قالت: إذن والله لا أسألك حاجة أبدًا، قال: إذن والله لا أبالي. وحمي وغضب، فقامت مغضبة، فقال: مكانك تستوعي كلامي، والله - وإلَّا فأنا نفيٌّ من قرابتي من رسول الله ﷺ - لئن بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوَّادي أو أحد من خاصتي أو خدمي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فمن شاء

فليلزم ذلك! ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كل يوم؟ أما لك مغزل يشغلك، أو مصحف يُذكِّرك، أو بيت يصونك؟! إياك ثم إياك ما فتحت بابك لملي أو لذميٍّ. فانصرفت ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا مُرَّة بعدها.

ولم يكتف الهادي بكلامه معها، بل جمع قواده يومًا وقال لهم: أيُّما خير أنا أم أنتم؟ قالوا: بل أنت يا أمير المؤمنين، قال: فأيُّما خير أمي أم أمهاتكم؟ قالوا: بل أمك يا أمير المؤمنين، قال: فأيُّكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه فيقولوا فعلت أم فلان، وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان؟ قالوا: ما أحد منا يحب ذلك، قال: فما بال الرجال يأتون أمي فيتحدثون بحديثها! فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة، فشقَّ ذلك عليها فاعتزلته وحلفت لا تكلمه، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة.

وقد قالوا: إن الهادي حاول سمَّها فلم يُفلِح، على أن الخيزران أفلحت في القضاء عليه حين مرض؛ فقد ذكروا أنها دسَّت إليه من جواريها من قتلته بالجلوس على وجهه.

لننتقل الآن إلى الأمر الثالث، وهو محاولته الغدر بأخيه الرشيد، ولننظر في حوادث سنة سبعين ومائة؛ لنرى كيف أخلص آل برمك للرشيد، فقد همَّ الهادي بتحويل الخلافة عنه لابنه جعفر، ولكن يحيى بن خالد ثبت في المحافظة على ولاية هارون، محتملًا في ذلك كل مكروه، وكان لبطانة الهادي أثر سيئ في تشجيعه على خلع الرشيد ومبايعة جعفر، وكان فيمن بايعه يزيد بن مزيد، وعبد الله بن مالك، وعلي بن عيسى ومن أشبههم من أصحاب الأغراض.

ولم تزد الحوادث يحيى بن خالد إلا حرصًا على حق الرشيد، فصار يُعلله ويُسري عنه، ولولاه لخلع الرشيد نفسه بعد أن تنقصوه في مجلس الجماعة وقالوا: لا نرضى به، وصعُب أمرهم حتى ظهر، وأمر الهادي ألَّا يُسار قدام الرشيد بحربة، فاجتنبه الناس.

أما الأخبار عن كرمه فكثيرة؛ فمن ذلك ما رواه الطبري في حوادث سنة سبعين ومائة، أنه أمر ذات ليلة بثلاثين ألف دينار لعيسى بن دأب أحد جلاسه، وكان - كما وصفه الطبري - لذيذ الفكاهة، طيب المسامرة، كثير النادرة.

ويقول علي بن صالح: إنه كان يومًا على رأس الهادي وهو غلام، وقد كان جفا المظالم عامَّةً ثلاثة أيام، فدخل عليه الحراني فقال له: يا أمير المؤمنين، إن العامة لا تنقاد على ما أنت عليه، لم تنظر في المظالم منذ ثلاثة أيام، فالتفت إلي وقال: يا علي، ائذن للناس عليَّ بالجَفَلَى لا بالنَّقَرى. فخرجت من عنده أطير على وجهي، ثم وقفت فلم أدر ما قال لي، فقلت: أراجع أمير المؤمنين فيقول: أتحجبني ولا تعلم كلامي؟! ثم أدركني ذهني، فبعثت إلى أعرابي كان قد وفد، وسألته عن الجَفَلَي والنَّقَرَي، فقال: الجفلي جفالة، والنَّقري بنقر خواصهم، فأمرتُ بالستور فرُفعتْ، وبالأبواب ففُتحت، فدخل الناس على بكرة أبيهم، فلم يزل ينظر في المظالم إلى الليل، فلما تقوض المجلس مثلتُ بين يديه، فقال: كأنك تريد أن تذكر شيئًا يا علي، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كلمتني بكلام لم أسمعه قبل يومي هذا، وخفت مراجعتك فتقول: أتحجبني وأنت لم تعلم كلامي! فبعثت إلى أعرابي كان عندنا ففسر لي الكلام، فكافئه عني يا أمير المؤمنين، قال: نعم، مائة ألف درهم تُحمل

إليه، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، إنه أعرابي جلف وفي عشرة آلاف درهم ما أغناه وكفاه، فقال: ويلك يا علي؛ أجود وتبخل!

***

وكان الهادي شديد الغيرة، ظاهر الشهامة. وهاك حديثًا لا يخلو من الأدب والفكاهة حدَّث به السندي بن شاهك قال: كنت مع موسى بجرجان فأتاه نعي المهدي والخلافة، فركب البريد إلى بغداد ومعه سعيد ابن سلم، ووجَّهني إلى خراسان، فحدثني سعيد بن سلم قال: سرنا بين أبيات جرجان وبساتينها، قال: فسمع صوتًا من بعض تلك البساتين من رجل يتغنَّى، فقال لصاحب شرطته: عليَّ بالرجل الساعة، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، ما أشبه قصة هذا الخائن بقصة سليمان بن عبد الملك! قال: وكيف؟ قال: قلت له: كان سليمان بن عبد الملك في متنزه له ومعه حرمه، فسمع من بستان آخر صوت رجل يتغنَّى، فدعا صاحب شرطته فقال: عليَّ بصاحب الصوت، فأتى به، فلما مثَل بين يديه قال له: ما حملك على الغناء وأنت إلى جنبي ومعي حرمي، أما علمت أن الرِّمَاك[1] إذا سمعت صوت الفحل حنَّت إليه؟ يا غلام، جُبَّه، فجُبَّ الرجل، فلما كان في العام المقبل رجع سليمان إلى ذلك المتنزه فجلس مجلسه الذي جلس فيه، فذكر الرجل وما صنع به، فقال لصاحب شرطته: عليَّ بالرجل الذي كنا جببناه فأحضره، فلما مثَل بين يديه قال له: إما بعتَ فوفيناك، وإما وهبتَ فكافأناك، قال: فوالله ما دعاه بالخلافة ولكنه قال له: يا سليمان، الله الله، إنك قطعت نسلي فذهبتَ بماء وجهي، وحرمتني لذتي، ثم تقول: إما وهبت فكافأناك، وإما

بعت فوفيناك! لا والله حتى أقف بين يدي الله! قال: فقال موسى: يا غلام، رُدَّ صاحب الشرطة، فرده، فقال: لا تَعرِض للرجل.

***

وأما حبه للنجدة فيحدثنا به عمر بن شبة؛ إذ ذكر أن علي بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وكان يلقب بالجزري، تزوج رقية بنت عمرو العثمانية، وكانت تحت المهدي، فبلغ ذلك موسى الهادي في أول خلافته، فأرسل إليه فجهله وقال: أعياكَ النساء إلا امرأة أمير المؤمنين! فقال: ما حرَّم الله على خلقه إلا نساء جدي ﷺ، فأما غيرُهن فلا ولا كرامة. فشجَّه بمِخْصرة كانت في يده، وأمر بضربه خمسمائة سوطٍ فضُرب، وأراده أن يُطلِّقها فلم يفعل، فحمل من بين يديه في نطع فأُلقي ناحية، وكان في يده خاتم سري، فرآه بعض الخدم وقد غشي عليه من الضرب فأهوى إلى الخاتم، فقبض على يد الخادم فدقَّها، فصاح وأتى موسى فأراه يده، فاستشاط وقال: يفعل هذا بخادمي مع استخفافه بأبي وقوله لي! وبعث إليه: ما حملك على ما فعلت؟ قال: قل له وسَله ومُرْه أن يضع يده على رأسك وليصدُقك. ففعل ذلك موسى فصدقه الخادم، فقال: أحسنَ والله! أنا أشهد أنه ابنُ عمي، لو لم يفعل لانتفيت منه. وأمر بإطلاقه.

***

وقد كان الهادي مثل أبيه محبًّا للآداب مُشجعًا للشعراء، وكان على سنته في بغضِ الزنادقة ومقتهم، مُوفَّقًا في اختيار الوزراء، مصابًا كأبيه ببطانة سوء، همُّها الوقيعة والوشاية وإغراء الخليفة والبيت المالك باجتراح المآثم واقتراف المظالم.

قال الطبري: إن عبد الله بن محمد المنقري حَدَّثَ عن أبيه قال: دخل عيسى بن دأب على موسى بن عيسى عند منصرفه من فخ،[2] فوجده خائفًا يلتمس عذرًا مِن قتْل من قتَل، فقال له: أصلح الله الأمير، أنشدك شعرًا كتب به يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة يعتذر فيه من قتل الحسين بن علي ﷺ، قال: أنشدني، فأنشده:

يا أيها الراكب الغادي لطيته ... على عُذافرةٍ[3] فـي سيـرها قَحَم
أبلغ قريشًا على شحْط المزار بـهـا ... بـيني وبيـن حسين الله والرحم
وموقف بـفنـاء الـبـيت أنـشـده ... عهد الإله وما تُرعَى له الذمم
عـنفتُـمُ قـومـكم فـخـرًا بأمكم ... أم حَـصـانٌ لعمري بـرَّة كرم
هي التي لا يُـداني فضلها أحد ... بنت النبي وخير الناس قد علموا
وفضلها لكم فضل وغيركم ... من قومكم لهم من فضلها قِسَم
إنـي لأعـلم أو ظـنًّـا كـعـالـمـه ... والظنُّ يصدق أحيانًا فينتظم
أن سوف يترككم ما تطلبون بها ... قتلى تهاداكم العقبان والرخَم
يا قومنا لا تشبوا الحرب إذ خمدت ... ومسِّكوا بحبال السِّلم واعتصموا
لا تركبوا البغي إن البغى مَصرعةٌ ... وإن شـارِب كـأس الـبغي يتَّخم
قد جرَّب الحرب مَن قد كان قبلكم ... من القرون وقد بادت بها الأمم
فأنصفوا قومكم لا تهلكوا بذخًا ... فـرُبَّ ذي بذخ زلَّـت به القدم

قال: فسُرِّي عن موسى بن عيسى بعضُ ما كان فيه.

وإذا لم يكن بد من اختصار حياة الهادي في كلمة جامعة فلنقل: إنه ورث عن أبيه المهدي كرمه وغيرته وحبه للأدب، وورث عن جده المنصور حزمه وشيئًا من ميله إلى الغدر.

هوامش

(١) الرماك: جمع رمكة - بفتحتين - وهي الأنثى من البراذين.

(٢) فخ - بفتح أوله وتشديد ثانيه: وادي الزاهر. ويوم فخ كان أبو عبد الله الحسين بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ خرج يدعو إلى نفسه في ذي القعدة سنة ١٦٩هـ، وبايعه جماعة من العلويين بالخلافة في المدينة، وخرج إلى مكة، فلما كان بفخ لقيته جيوش بني العباس وعليهم العباس بن محمد بن عبد الله بن عباس وغيره، فالتقوا يوم التروية سنة ١٦٩هـ، فقتلوا جماعة من عسكره وأهل بيته، ولم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من فخ. وفيه دفن عبد الله بن عمر ونفر من الصحابة الكرام. ا.هـ. ملخصًا من ياقوت، مادة «فخ».

(٣) العذافرة: الناقة الشديدة الأمينة الوثيقة الظهيرة. انظر: لسان العرب، مادة «عذفر».

الفصل الثامن

هارون الرشيد

يا خيزران هناك ثم هناك أمسَى يَسوس العالمين ابناكِ

بهذا يعلن مروان بن أبي حفصة الشاعر النابه تَبَوُّؤ الرشيد عرش الخلافة بعد أخيه الهادي، بعهد من أبيه سنة سبعين ومائة هجرية، وبهذا يهنئ الشاعر الخيزران بتَوقُّل الرشيد لعرش كانت الخيزران مُعذَّبة مُعنَّاة بمن كان يعتليه قبل الرشيد.

وقد يكون من المستصوب أن نترك ليوسف بن القاسم بن صبيح، كاتب الرشيد، يعلن إلينا ما أعلنه بنفسه إلى العالم العربي من خبر اعتلاء الرشيد للخلافة، فإنه بأسلوبه الرشيق وبلاغته السهلة ومكانته من الرشيد أحق بذلك وأجدر، ولا سيما وقد طُيِّرت قطعتُه للخافقين مُنبئةً بموت خليفة وتتويج خليفة.

قال يوسف بن القاسم - بعد حمد الله عز وجل والصلاة على النبي ﷺ: «إن الله بمنِّه ولطفه منَّ عليكم معاشر أهل بيت نبيه، بيتِ الخلافة ومعدنِ الرسالة، وآتاكم أهل الطاعة، من أنصار الدولة وأعوان الدعوة، من نعمه التي لا تحصى بالعدد، ولا تنقضي مدى الأبد، وأياديه التامة؛ إذ جمع ألفتكم، وأعلى أمرَكم، وشدَّ عضدكم، وأوهَن عدوكم، وأظهر كلمة الحق، وكنتم أولى بها وأهلها، فأعزَّكم الله وكان الله قويًّا عزيزًا، فكنتم أنصار دين الله المرتضى، والذابين بسيفه المُنتضى، عن أهل بيت نبيه ﷺ، وبكم استنقذهم

من أيدي الظلمة أئمة الجور، والناقضين عهد الله، والسافكين الدم الحرام، والآكلين الفيء، والمستأثرين به، فاذكروا ما أعطاكم الله من هذه النعمة، واحذروا أن تغيروا فيغير بكم.

وإن الله جل وعز استأثر بخليفته موسى الهادي الإمام فقبضه إليه، وولَّى بعده رشيدًا مرضيًّا أمير المؤمنين بكم رءوفًا رحيمًا، من محسنكم قبولًا، وعلى مسيئكم بالعفو عطوفًا، وهو - أمتعه الله بالنعمة، وحفظ به ما استرعاه إياه من أمر الأمة، وتولَّاه بما تولَّى به أولياءه وأهل طاعته - يعدكم من نفسه الرأفة بكم، والرحمة لكم، وقسْم أعطياتكم فيكم عند استحقاقكم، ويبذل لكم من الجائزة مما أفاء الله على الخلفاء، ممَّا في بيوت الأموال، ما ينوب عن رزق كذا وكذا شهرًا غير مُقاصٍّ لكم بذلك فيما تستقبلون من أعطياتكم، وحاملًا باقي ذلك للدفع عن حريمكم، وما لعلَّه أن يحدث في النواحي والأقطار من العصاة المارقين إلى بيوت الأموال، حتى تعود الأموال إلى جمامها وكثرتها والحال التي كانت عليها؛ فاحمدوا الله، وجددوا شكرًا يوجب لكم المزيد من إحسانه إليكم بما جدَّد لكم من رأي أمير المؤمنين، وتفضَّل به عليكم، أيده الله بطاعته، وارغبُوا إلى الله له في البقاء، ولكم به في إدامة النعماء لعلكم ترحمون، وأعطوا صفقة أيمانكم، وقوموا إلى بيعتكم. حاطكم الله وحاط عليكم، وأصلح بكم وعلى أيديكم، وتولاكم ولاية عباده الصالحين».

***

بهذا الكتاب القيم البليغ أشعر العالم العربي بابتداء خلافة هارون الذي نستطيع بحق أن نقول: إنه أضخم الخلفاء المسلمين اسمًا، وأبعدهم صوتًا،

وأشدهم في الخيال تأثيرًا، فأنت لا تستطيع أن تسمع اسم هارون الرشيد حتى يُحدث في نفسك صورًا خيالية مختلفة النوع، ولكنها متفقة في القوة، فهو يُنشئُ في نفسك حينًا صورة الخليفة المترف، المسرف في الترف الذي بلغ منه ما لم يبلغه أحد قبله ولا بعده، وينشئ في نفسك حينًا آخر صورة الخليفة القوي الذي أذل أعداء الإسلام، وبسط سلطان الخلافة على أطراف الأرض، وأخذ ملوك الروم بدفع الجزية، وينشئ فيها مرة أخرى صورة الخليفة الحذر الذي بث الجواسيس ليعرف من أمر الناس ما ظهر وما خفي، ثم لم يكتف بذلك، بل استحال هو جاسوسًا يطوف في الأسواق، ويُوغل في البيوت، ويغشى المجالس والأندية حتى ألم بكل شيء، وأحاط بكل خفية، ثم بطش بأعدائه والمؤتمرين به بطشًا لم يستطع التاريخ أن ينساه، ثم ينشئ في نفسك صورة الخليفة العالم الأديب، الفقيه بألوان العلم والدين والأدب، المشجع للفقهاء والعلماء والشعراء والكتاب تشجيعًا أصبح فيه مثلًا لمن جاء بعده من الخلفاء والملوك في الشرق والغرب، وينشئ في نفسك أيضًا صورة الخليفة الورع الزاهد المُتهالِك نسكًا وطاعة وتبتُّلًا لله، كما ينشئ فيها صورة الخليفة الذي لا يكاد يخلو إلى نفسه ويسدل الستار بينه وبين رعيته حتى يأخذ مع المجّان في مجونهم، فيخيل إليك أنه لا يدع من سُبل اللذة سبيلًا إلا سلكها وجنى ثمارها، فمن غناء إلى شراب إلى عبث، إلى استمتاع بالنساء، من حرائر وإماء، وهو بعد هذا كله سياسي ماهر بعيدُ النظر في تصريفه الأمور، فيه حزم المنصور وعنفه، وميله إلى الغدر والأثرة، وكل ما يشخص سياسة «مكياڤلي»، وفيه حلم معاوية ودهاؤه اللين المرن، وسخاؤه بالمال، واصطناعه الناس.

ومن غريب الأمر أن كل هذه الصور المتناقضة التي تتباين أشد التباين قد اجتمعت حقًّا في شخص هذا الخليفة، لا كما يصورها المؤرخون والرواة والقصاص وأصحاب الأساطير، بل اجتمعت اجتماعًا يختلف قوة وضعفًا باختلاف الظروف والمؤثرات الكثيرة التي كوَّنت مِزاجه وشخصيته، وقصره، وبيئته السياسية العامة، فليس الرشيد في حقيقة الأمر شخصًا كغيره من الأشخاص يمثل نفسه وما ورث عن أسرته، ولكنه مرآة اجتمعت أمامها صور مختلفة من الناس والكفايات والظروف، فانعكست فيها هذه الصور.

فالرشيد يمثل كل هؤلاء الناس، وكل هذه الأشياء، وكل هذه الظروف التي شهدتها بغداد قرب آخر القرن الثاني للهجرة، ومن هنا كان من العسير جدًّا أن نستخلص منه صورة تاريخية صادقة بريئة من الغلو والإسراف.

فأما المؤرخون من العرب فقد تأثروا حين كتبوا عن الخلفاء، وخاصة أصحاب الشخصيات البارزة منهم، بكل ما عرفتَ أنهم تأثروا به من الإغراق والمبالغة والغلو في المدح مخلصين في أكثر الأحيان.

وأما المؤرخون من الفرنج فلم يسلم أشدهم احتياطًا من التأثر بهذه الطائفة الضخمة من الأساطير التي بثها في نفوس الجماعات كتاب «ألف ليلة وليلة» منذ زمن طويل.

وقد ظهر هذا التأثر مَظهَرينِ مختلفين؛ مظهر المدح والإسراف فيه عند قوم، ومظهر الذم والإغراقَ فيه عندَ قوم آخرين، وأولئك وهؤلاء مخدوعون عن أنفسهم واحتياطهم بكل هذه المبالغات التي أحاطت بإحسان الرشيد وإساءته.

ونحن مجتهدون لا في أن نعطيك هذه الصورة الصادقة من الرشيد التي لا يزال التاريخ محتاجًا إليها - فليس ذلك غرضنا في هذا البحث، وليس في هذا الكتاب متسع له - بل في أن نعطيك صورة صادقة من فهم المؤرخين من العرب والفرنجة لعصر الرشيد، غير مهملين مع ذلك أن نسجل آراء لنا هنا وهناك حين نشعر بالحاجة إلى ذلك؛ لتوضيح مذهبنا في فهم عصر المأمون الذي نضع فيه هذا الكتاب.

***

يجمع المؤرخون العرب على ورع الرشيد وفضله وأدبه، وبسطة يده بالخير والعطاء، وانطوائه على الجود والسخاء؛ فقد ذكروا أنه كان يصلي في كل يوم مائة ركعة إلى أن فارق الدنيا إلا أن تعرض له علة، وكان يتصدق من صلب ماله في كل يوم بألف درهم بعد زكاته.

وكان إذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج ثلاثمائة بالنفقة السابغة والكسوة الباهرة، وكان يقتفي آثار المنصور ويطلب العمل بها إلا في بذل المال، فإنه لم يُر خليفة قبله كان أعطى منه للمال، ثم المأمون من بعده، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن، ولا يؤخر ذلك في أول ما يجب ثوابه، وكان يحب الشعراء والشعر، ويميل إلى أهل الأدب والفقه، ويكره المراء في الدين ويقول: هو شيء لا نتيجة له، وبالحري ألا يكون فيه ثواب، وكان يحب المديح ولا سيما من شاعر فصيح، ويشتريه بالثمن الغالي.

ولقد كانت دولة الرشيد - كما يقول الفخري - دولة من أحسن الدول، وأكثرها وقارًا ورونقًا وخيرًا، وأوسعها رقعة مملكة، جبا الرشيد معظم

الدنيا، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقُرَّاء والقضاة والكُتَّاب والنُدماء والمُغنين من اجتمعوا على باب الرشيد، وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة، ويرفعه أعلى درجة، وكان فاضلًا شاعرًا رَاوية للأخبار والآثار والأشعار، صحيح الذوق والتمييز، مهيبًا عند الخَاصة والعامة.

***

ولقد حاول الهادي أن يرغم الرشيد على خلع نفسه من الخلافة بعده، وأن يكتب بولاية العهد لابنه جعفر، وقد تم له شيء من ذلك. وإنا لنجدُ في حوادث سنة سبعين ومائة هجرية الشيء الكثير من إخلاص آل برمك للرشيد، لا سيما شدة محافظة يحيى البرمكي على حقوق الرشيد في ولاية العهد، فعُذِّب وحُبس وأُوذي في هذا السبيل إيذاء شديدًا.

ولقد أظهر الرشيد - وهو ولي عهد - من الجرأة ومتانة الأخلاق والصراحة ما هو حقيق بالإعجاب، ولسنا نرى مندوحة من ذكر الرواية التي ذكرها محمد بن عمر الرومي، فهي تعطينا صورة دقيقة لما نحن بسبيله، فقد حدَّث عن أبيه قال: جلس موسى الهادي بعدما ملك في أول خلافته جلوسًا خاصًّا، ودعا إبراهيم بن جعفر بن أبي جعفر وإبراهيم بن سلم بن قتيبة والحراني، فجلسوا عن يساره ومعهم خادم له أسود يقال له: أسلم ويُكنى أبا سليمان - وكان يثق به ويقدمه - فبينا هو كذلك إذ دخل صالح صاحب المصلى فقال: هارون بن المهدي، فقال: ائذن له. فدخل فسلَّم عليه وقبَّل يديه وجلس عن يمينه بعيدًا من ناحية، فأطرق موسى ينظر إليه، وأدمن ذلك ثم التفت إليه فقال: يا هارون، كأني بك تُحدِّث

نفسك بتمام الرؤيا، وتُؤمِّل ما أنت منه بعيد، ودون ذلك خرط القتاد؛ تُؤمِّل الخلافة! قال: فبرك هارون على ركبتيه وقال: يا موسى، إنك إن تجبرتَ وُضعتْ، وإن تواضعتْ رُفعتْ، وإن ظلَمت خُتلت، وإني لأرجو أن يفضي الأمر إلي فأُنصِف من ظلَمت، وأصلُ من قطَعت، وأُصيِّر أولادك أعلى من أولادي، وأزوِّجهم بناتي، وأبلغ ما يجب من حق الإمام المهدي، قال: فقال له موسى: ذلك الظن بك يا أبا جعفر، ادنُ مني. فدنا منه فقبَّل يديه ثم ذهب يعود إلى مجلسه، فقال له: لا والشيخ الجليل، والملك النبيل؛ أعني أباك المنصور، لا جلستَ إلى معي. وأجلسه في صدر المجلس معه، ثم قال: يا حراني، احمل إلى أخي ألف ألف دينار، وإذا افتتح الخراج فاحمل إليه النصف منه، واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا، وما أخذ من أهل بيت اللعنة، فيأخذ جميع ما أراد، قال: ففعل ذلك. ولما قام قال لصالح: ادنِ دابتَه إلى البساط.

قال عمرو الرومي: وكان هارون يأنس بي، فقمت إليه فقلت: يا سيدي، ما الرؤيا التي قال لك أمير المؤمنين؟ قال: قال المهدي: أُريتُ في منامي كأني دفعتُ إلى موسى قضيبًا وإلى هارون قضيبًا، فأورق من قضيب موسى أعلاه قليلًا، فأما هارون فأورق قضيبه من أوله إلى آخره، فدعا المهدي الحكم بن موسى الضمري، وكان يكنى أبا سفيان، فقال له: عبِّر هذه الرؤيا، فقال: يملكان جميعًا، فأما موسى فتقلُّ أيامه، وأما هارون فيبلغ مدى ما عاش خليفة، وتكون أيامه أحسن أيام، ودهره أحسن دهر، قال: ولم يلبث إلا أيامًا يسيرة ثم اعتل موسى ومات، وكانت علته ثلاثة أيام.

قال عمرو الرومي: أفضت الخلافة إلى هارون فزوج حمدونة من جعفر ابن موسى، وفاطمة من إسماعيل بن موسى، ووفَّى بكل ما قال، وكان دهره أحسن الدهور.

***

ولقد كان الرشيد مشغوفًا بالفنون والعلوم، وكان قصره الزاهي الزاهر مركزًا لمختلف الثقافات، وأما ولعه بالشعر وضروب الآداب وإجازته الشعراء بسخاء، فالحديث في ذلك طويل المناحي.

وكان الرشيد مع استمتاعه بمرافه الحياة ومناعمها تزوَّج ست زوجات، وتسرَّى عشرين أمة ذكر أسماءهن الطبريُّ، وأسماء أولاده منهن، وكان - مع تبرج المدنية في أيامه، ومع إحيائه أندية اللغة والآداب والمنادمة - ورعًا متأثرًا بالمواعظ والزهديات. وسنذكر لك طرفًا من مواقفه الدالة على خشيته لله وأدبه وورعه وتواضعه.

أما خشيته لله وأدبه؛ فقد ذكر بعضهم أنه كان من صحابة الرشيد بالرقة بعد أن شخص من بغداد، فخرج معه يومًا إلى الصيد، فعرض له رجل من النُّساك فقال: يا هارون، اتق الله، فقال لإبراهيم بن عثمان بن بهيك: خذ هذا الرجل إليك حتى أنصرف. فلما رجع دعا بغدائه، ثم أمر أن يُطعَم الرجل من خاصِّ طعامه، فلما أكل وشرب دعا به فقال: يا هذا، أنصفني في المخاطبة والمساءلة! قال: ذاك أقل مما يجب لك، قال: فأخبرني أنا شرٌّ وأخبث أم فرعون؟ قال: بل فرعون؛ قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ وقال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ قال: صدقت، فأخبرني فمن خير: أنت أم موسى بن عمران؟ قال: موسى كليم الله وصفيه اصطفاه لنفسه، وائتمنه على وحيه، وكلَّمه من بين خلقه، قال: صدقت، أفما تعلم أنه لما بعثه وأخاه إلى فرعون

قال لهما: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ﴾ - ذكر المفسرون أنه أمرهما أن يُكنِّياه - هذا وهو في عُتُوِّه وجبروته، على ما قد علمتَ، وأنت جئتني وأنا بهذه الحالة التي تعلم؛ أؤدي أكثر فرائض الله عليَّ، ولا أعبد أحدًا سواه، أقف عند أكبر حدوده وأمره ونهيه، فوعظتني بأغلظ الألفاظ وأشنعها، وأخشن الكلام وأفظعه، فلا بأدب الله تأدبت، ولا بأخلاق الصالحين أخذت، فما كان يُؤمِّنك أن أسطوَ بك، فإذا أنت قد عرضت نفسك لما كنت عنه غنيًّا؟ قال الزاهد: أخطأتُ يا أمير المؤمنين، وأنا أستغفرك، قال: قد غفر لك الله. وأمر له بعشرين ألف درهم، فأبى أن يأخذها وقال: لا حاجة لي في المال؛ أنا رجل سائح، فقال هرثمة وخزره: تردَّ على أمير المؤمنين، يا جاهل، صِلَته؟! فقال الرشيد: أمسكْ عنه، ثم قال له: لم نُعطك هذا المال لحاجتك إليه، ولكن من عادتنا أنه لا يخاطب الخليفة أحدٌ ليس من أوليائه ولا أعدائه إلا وصَله ومنَحه؛ فاقبل من صلتنا ما شئت، وضعها حيث أحببت. فأخذ من المال ألفي درهم وفرَّقها على الحُجَّاب ومَن حضر الباب.

وأما ورعه فقد ذُكر أن أبا مريم المدني كان مع الرشيد، وكان مضحاكًا له محداثًا فَكِهًا، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يملُّ محادثته، وكان ممن قد جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المُجَّان، فبلغ من خاصته بالرشيد أن بوَّأه منزلًا في قصره، وخلَطه بحرمه وبطانته ومواليه وغلمانه، فجاء ذات ليلة وهو نائم وقد طلع الفجر، وقام الرشيد إلى الصلاة فألفاه نائمًا، فكشف اللحاف عن ظهره ثم قال له: كيف أصبحت؟ قال: يا هذا، ما أصبحت بعدُ، اذهبْ إلى عملك، قال: ويلك، قُمْ إلى الصلاة، قال: هذا وقت صلاة أبي الجارود، وأنا من أصحاب أبي يوسف القاضي.

فمضى وتركه نائمًا، وتأهب الرشيد للصلاة فجاء غلامه فقال: أمير المؤمنين قد قام إلى الصلاة. فقام فألقى عليه ثيابه ومضى نحوه، فإذا الرشيد يقرأ في صلاة الصبح، فانتهى إليه وهو يقرأ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقال ابن أبي مريم: لا أدري والله! فما تمالك الرشيد أن ضحك في صلاته، ثم التفت إليه وهو كالمغضب فقال: يا ابن أبي مريم، في الصلاة أيضًا؟ قال: يا هذا، وما صنعت؟ قال: قطعت عليَّ صلاتي، قال: والله ما فعلتُ، إنما سمعت منك كلامًا غمَّني حين قلتَ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فقلتُ: لا أدري والله! فعاد فضحك وقال: إياك والقرآن والدينَ، ولك ما شئت بعدهما.

وأما تواضعه فنترك الكلمة فيه لأبي معاوية الضرير، وهو من علماء دولته، فإنه يقول: أكلت مع الرشيد يومًا فصب على يدي الماء رجل فقال: يا أبا معاوية، أتدري من صب الماء على يديك؟ فقلت: لا، يا أمير المؤمنين، قال: أنا، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنت تفعل هذا إجلالًا للعلم؟ قال: نعم. فتصوَّر إلى أي حدٍّ بلغ صنيعه.

***

نترك جانبًا الآن التكلم عن البرامكة ونكبة البرامكة إلى فصل مستقل، وربما كان من المصلحة الفنية للكتاب أن يُفرد لكل بحث من بحوثه باب خاص نستوعب فيه ما يجدر بنا استيعابه من تلك النواحي الهامة الشديدة الصلة بموضوعنا.

والآن نرى - في عنقنا - أن نتحدث إليك في أمور أربعة قد تفيدك في عهد الرشيد عامة، وربما أفادت في تفهم عصر المأمون خاصة؛ وهي:

(١) حقيقة السياسة الداخلية في عصر الرشيد.

(٢) السياسة الخارجية.

(٣) التكلم عن بيعة الرشيد للأمين والمأمون والقاسم.

(٤) التكلم عن الدولة البرمكية والنكبة البرمكية.

وسنتوخى الإيجاز المقنع من غير إخلال بما لا يليق بنا الإخلال به، ولا سيما باب بيعات الرشيد؛ فإنا لا نرى مندوحة من إثبات نصوصها؛ لما لها من الخطر من حيث إنها أثر تاريخي خليق بالدارسة والبحث.

(١) السياسة الداخلية

أنت جِدُّ عالم بما كان من تطلع الطالبيين للخلافة، وقد مر بك القول في تحفزاتهم وخروجهم وحروبهم للخليفة العباسي الجالس على العرش كلما واتتهم الفرص وأمكنتهم الأحوال.

وأنت جِدُّ عالم أن الخلفاء ما كانوا يركنون إلى جانبهم نِفاسًا وتباغضًا، واصطدامًا للمصلحة الخاصة وتعارضًا، بيد أن الرشيد - وهو الرءوم بسجيته، المجبول على الخير بنزعته - رأى في أول عهده أن يَحدِب عليهم، ويستلَّ سخيمة العداوة من قلوبهم، فرفع الحجر عمن كان منهم ببغداد وسيرهم إلى المدينة، ما عدا العباس بن الحسن بن عبد الله، وكان أبوه مع ذلك فيمن أشخص إلى المدينة.

لم يشجع الطالبيون الرشيد على الاستمرار على خطته تلك، بل كان من بعضهم ما دفعه إلى تغيير خطته السديدة؛ إذ خرج عليه يحيى بن عبد الله - أحد الناجين من وقعة «فخ» التي كانت في أيام الهادي، ونزح إلى بلاد الديلم حيث قويت شوكتُه، واشتد ساعدُه، وهرع إليه الناس من الأمصار والكور - فاغتم الرشيد لذلك أيما اغتمام وترك، فيما يقول الرواة، شرب

النبيذ، ثم ندب إلى قتاله الفضل بن يحيى بن خالد في خمسين ألفًا، ومعه من القواد صناديدهم، ومن الجند شجعانهم، فسار سَمْت يحيى، فكاتبه ورفق به واستماله وبسط أمله، وكاتب صاحب الديلم وجعل له ألف ألف درهم على أن يسهل له خروج يحيى وحُملتْ إليه، فأجاب يحيى إلى الصلح والخروج، على أن يكتب له الرشيد أمانًا بخطه، فبادر الفضل برفع ذلك إلى الرشيد، فأثلج فؤاده، وعظم موقعه لديه، وكتب أمانًا ليحيى بن عبد الله وأشهد عليه القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم، منهم عبد الصمد بن علي والعباس بن محمد ومحمد بن إبراهيم ومن أشبههم، ووجَّه به مع جوائز وكرامات وهدايا، فوجَّه الفضل بذلك إليه، فقدم يحيى ابن عبد الله عليه.

وفي رواية أخرى أن يحيى بن عبد الله لما رأى الرشيد قد كتب إلى صاحب الديلم يطلبه منه ويتهدده، وأنه قد اشتد في مطاردته واقتفاء أثره، طلب الأمان من الفضل، فأمَّنه وحمله إلى الرشيد.

ويحدثنا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في حوادث سنة ست وسبعين ومائة، أنه لما ورد الفضل بن يحيى البرمكي بيحيى بن عبد الله العلوي بغداد، لقيه الرشيد بكل ما أحب، وأمر له بمال كثير، وأجرى عليه أرزاقًا سنية، وأنزله منزلًا سريًّا بعد أن أقام في منزل يحيى بن خالد أيامًا، وكان يتولى أمره بنفسه ولا يكِلُ ذلك إلى غيره، وأمر الناس بإتيانه - بعد انتقاله من منزل يحيى - والتسليم عليه، وبلغ الرشيد الغاية في إكرام الفضل، وفي ذلك يقول مروان بن أبي حفصة:

ظفرت فلا شلَّت يدٌ برمكية   رَتقْتَ بها الفتق الذي بين هاشم

على حين أعيا الراتقين التئامه فكـفـوا وقـالوا ليس بالمتلائم
فأصحبت قد فازت يداك بخطة من المجد باق ذكرها في المواسم
وما زال قدح الملك يخرج فائزًا لكم كلما ضُمَّت قِداح المُساهم

ونوجه النظر هنا إلى ظاهرة في شعر مروان وأبي قمامة الخطيب الذي أنشد في هذا المعنى أبياتًا له يستدل منها على اغتباط الشاعر، وجمهرة الناس طبعًا، بالوفاق بين العلويين والعباسيين، والإشادة بذلك، مفخرة للعاملين على رتق الفتق والتئام الصدع، ولكن وا أسفاه! فإن للوجهة النفعية خطرها بين الملوك وبين السُّعاة بالنميمة، ولها أثرها السيئ في إلصاق تُهم بالأبرياء، ولها مغبتها الضارة في بذر بذور الكراهية والبغضاء بين الملوك والزعماء.

وقد بينا لك أن الأمان الذي كتبه الرشيد ليحيى بن عبد الله قد أشهد عليه الفقهاء والقضاة وزعماء الشعب. وقد يكون من المفيد في تصوير ناحية من نواحي العصر أن نذكر لك هنا نصيب هذا الأمان وحظه من بعض الفقهاء في الفتيا بنقضه، وآخرين بالوفاء له، ولندع لأبي خطاب - أحد المعاصرين - الكلمة، قال: إن جعفر بن خالد حدثه ليلة وهو في سمره قال: دعا الرشيد اليوم يحيى بن عبد الله بن حسن وقد حضره أبو البختري القاضي ومحمد بن الحسن الفقيه صاحبُ أبي يوسف، وأحضر الأمان الذي كان أعطاه يحيى، فقال لمحمد بن الحسن: ما تقول في هذا الأمان، أصحيح هو؟ قال: هو صحيح، فحاجَّه في ذلك الرشيد، فقال له محمد ابن الحسن: ما تصنع بالأمان لو كان محاربًا ثم ولَّى؛ كان آمنًا؟ فاحتملها الرشيد على محمد بن الحسن، ثم سأل أبا البختري أن ينظر في الأمان، فقال

أبو البختري: هذا الأمان منتقضٌ من وجه كذا وكذا، فقال الرشيد: أنت قاضي القضاة وأنت أعلم بذلك! ومزق الأمان وتفل فيه أبو البختري.

ولك أن تعلق ما شئت على تصرف أبي البختري «الفقيه الديني» الذي أصبح بفتياه تلك قاضي القضاة، ولك أن تستنبط ما أحببت في موقفه ومرونته حين مزَّق الأمان، ولم تزد قيمته في نظره على «قصاصات الورق» حتى تفل فيه، ولك أن تقول ما أردت في موقف زميله محمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي يوسف، وعدم ترخصه أو جموده. أما نحن فإنا لا نعدو خطتنا التي رسمناها لأنفسنا في مثل هذه المواقف من التزام الحيدة التامة، وعدم الزج بأنفسنا في المزالق الخطرة، والاكتفاء من ناحيتنا بتقييد الحوادث لا أكثر ولا أقل.

ولقد سعى بالنميمة بين الرشيد ويحيى بن عبد الله الساعون، وكلما رقَّ الرشيد له أثاروا في نفسه السخيمة عليه، فقد ذكروا أن يحيى بن عبد الله قال للرشيد: يا أمير المؤمنين، إن لنا قرابة ورحمًا، ولسنا بترك ولا ديلم، يا أمير المؤمنين، إنا وأنتم أهلُ بيت واحد، فأُذكِّرك الله قرابتنا من رسول الله ﷺ، علام تحبسني وتعذبني؟ قال: فرقَّ له هارون، ولكن الزبيري - وكان حاكمًا للمدينة أيام الرشيد، وهو يعد من الأحزاب المعادية للعلويين، واشتهر بشدة البغض لهم، وكان حاضرًا مجلسهما - أقبل على الرشيد فقال: يا أمير المؤمنين، لا يغرك كلام هذا، فإنه شاقٌّ عاص، وإنما هذا منه مكر وخبث، إن هذا أفسد علينا مدينتنا، وأظهر فيها العصيان، قال: فأقبل يحيى عليه، فوالله ما استأذن أمير المؤمنين في الكلام حتى قال: أفسد عليكم مدينتكم! ومن أنتم، عافاكم الله؟ قال الزبيري: هذا كلامه قُدَّامك، فكيف

إذا غاب عنك؟! يقول: «ومن أنتم؟» استخفافًا بنا، قال: فأقبل عليه يحيى فقال: نعم، ومن أنتم، عافاكم الله؟ المدينة كانت مُهاجَر عبد الله بن الزبير أم مُهاجَر رسول الله ﷺ؟! ومَن أنت حتى تقول: أفسد علينا مدينتنا! وإنما بآبائي وآباء هذا هاجر أبوك إلى المدينة؟ ثم قال: يا أمير المؤمنين، إنما الناس نحن وأنتم، فإن خرجنا عليكم قلنا: أكلتم وأجعتمونا، ولبستم وأعريتمونا، وركبتم وأرجلتمونا، فوجدنا بذلك مقالاً فيكم، ووجدتم بخروجنا عليكم مقالاً فينا، فتكافأ فيه القول، ويعود أمير المؤمنين على أهله بالفضل. يا أمير المؤمنين، فلم يجترئ هذا وضُرباؤه على أهل بيتك يسعى بهم عندك؟ إنه والله ما يسعى بنا إليك نصيحة منه لك، وإنما يأتينا فيسعى بك عندنا عن غير نصيحة منه لنا، إنما يريد أن يباعد بيننا، ويشتفي من بعض ببعض، والله يا أمير المؤمنين، لقد جاء إليَّ هذا حين قتل أخي محمد بن عبد الله فقال: لعن الله قاتله، وأنشدني فيه مرثية قالها نحوًا من عشرين بيتًا، وقال: إن تحرَّكتَ في هذا الأمر فأنا أول مَن يُبايعك، وما يمنعك أن تلحق بالبصرة فأيدينا مع يدك، فتغيَّر وجه الزبيري واسودَّ، فأقبل عليه هارون فقال: أي شيء يقول هذا؟ قال: كاذب يا أمير المؤمنين، ما كان مما قال حرف، قال: فأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله وقال: تروي القصيدة التي رثاه بها؟ قال: نعم، يا أمير المؤمنين، أصلحك الله. وأنشدها إياه، فقال الزبيري: والله، يا أمير المؤمنين، الذي لا إله إلا هو - حتى أتى على آخر اليمين الغموس - ما كان مما قال شيء، ولقد يقول علي ما لم أقل، قال: فأقبل الرشيد على يحيى بن عبد الله فقال: قد حلف، فهل من بينةٍ سمعوا هذه المرثية منه؟ قال: لا، يا أمير المؤمنين، ولكن أستحلفه بما أريد،

قال: فاستحلِفْه، قال: فأقبل على الزبيري فقال: قل: أنا بريء من حول الله وقوته مُوكل إلى حولي وقوتي إن كنتُ قلتُه، فقال الزبيري: يا أمير المؤمنين، أي شيء هذا من الحلف؟! أحلف له بالله الذي لا إله إلا هو ويستحلفني بشيء لا أدري ما هو! قال يحيى بن عبد الله: يا أمير المؤمنين، إن كان صادقًا فما عليه أن يحلف بما أستحلفه به، فقال له هارون: احلفْ له، ويلك! قال: فقال: أنا بريء من حول الله وقوته مُوكل إلى حولي وقوتي - ويقول الطبري: إنه اضطرب منها وأرعد - فقال: يا أمير المؤمنين، ما أدري أي شيء هذه اليمين التي يستحلفني بها وقد حلفت له بالله العظيم أعظم الأشياء! قال: فقال هارون له: لتحلفنَّ له أو لأُصدقنَّ عليك ولأعاقبنَّك، فقال: أنا بريء من حول الله وقوته موكل إلى حولي وقوتي إن كنتُ قلتُه، قال: فخرج من عند هارون فضربه الله بالفالج فمات من ساعته.

وقد روى المؤرخون العرب في صدد موت ذلك الزبيري روايات، لا نرى بأسًا بإيرادها، فقد ذكر الفخري أنه ما انقضى النهار حتى مات، فحملوه إلى القبر وحطوه فيه، وأرادوا أن يطموا القبر بالتراب، فكانوا كلما جعلوا التراب فيه ذهب التراب ولا ينْطمُّ القبر، فعلموا أنها آية سماوية، فسقفوا القبر وراحوا. وإلى ذلك أشار أبو فراس بن حمدان في ميميته إذ يقول:

يا جاهدًا في مساويهم يُكتِّمها غدرُ الرشيد بيحيى كيف ينكتمُ
ذاق الزبيريُّ غِبَّ الحِنْث وانكشفتْ عن ابن فاطمة الأقوال والتُّهم

قالوا: ومع ظهور مثل هذه الآية العظيمة قُتل يحيى في الحبس شرَّ قتلة، على أن هناك رأيًا آخر في موت يحيى بن عبد الله، وهو أن الموكَّل به في الحبس منعه الأكل فمات.

ولننظر ما يرويه لنا مُعاصر، وهو عباس بن الحسن، عمَّا كان من الرشيد بعدما أصاب الزبيري، مما أجمع رواة العرب على إصابته به إثر كذبه في قسمه، فقد قال: دخلنا على الرشيد، فلما نظر إلينا قال: يا عباس بن الحسن، أما علمت بالخبر؟ فقال أبي: بلى، يا أمير المؤمنين، فالحمد لله الذي صرعه بلسانه، ووقاك الله، يا أمير المؤمنين، قطع أرحامك، فقال الرشيد: الرجل والله سليم على ما يحبُّ، ورفع السترَ فدخل يحيى وأنا والله أتبين الارتياع في الشيخ، فلما نظر إليه الرشيد صاح به: يا أبا محمد، أما علمت أن الله قد قتل عدوك الجبار، قال: الحمد لله الذي أبان لأمير المؤمنين كذب عدوه عليَّ، وأعفاه من قطع رحمه، والله، يا أمير المؤمنين، لو كان هذا الأمر مما أطلبه وأصلُح له وأريده - فكيف ولست بطالب له ولا مريده؟! - ولم يكن الظفر به إلا بالاستعانة به، ثم لم يبق في الدنيا غيري وغيرك وغيره، ما تقويت به عليك أبدًا. وهذا والله من إحدى آفاتك - وأشار إلى الفضل بن الربيع - والله لو وهبت له عشرة آلاف درهم، ثم طمع معي في زيادة ثمرة لباعك بها، فقال: أما العباسي فلا تقل له إلا خيرًا، وأمر له في هذا اليوم بمائة ألف دينار. وكان حبسه بعض يوم، قال أبو يونس: كان هارون حبسه ثلاث حبسات مع هذه الحبسة، وأوصل إليه أربعمائة ألف دينار.

***

وبعد، فقد عنينا بإثبات الروايات فيما كان من سيرة هذا الخليفة العباسي مع علوي من رجالات عصره؛ لنتبين نفسية المعاصرين والولاة، وما انطوت عليه صدورهم من حب لآل عليٍّ وتوقير لأشخاصهم، ونعتهم بالكرامات والمعجزات، وإذا اعتبرت أن هذا كله قد حصل في عهد خليفة

عظيم بسخائه وفواضله، محبوب لمآثره ونوافله، قويٍّ في مملكته، كثير الأنصار في شيعته، أيقنت أن للحزب العلوي أنصارًا يُعتدُّ بهم، ومكانة في النفوس يحفل بها. وهذا معقول جدًّا، وإنك لتستسيغه من نفسك وفهمك إذا ذكرت أن أنصار هذه الدولة هم من الفرس، وأنت تعلم ما كان بين الفرس والعرب عامة، وبين الموالي وبني أمية خاصة من عداء وشجار، ومقتٍ وكراهية، وأنت تعلم أن الدعوة في بداية أمرها كانت للعلويين دون غيرهم، وأن القائمين بها كانوا من الفرس، فمن المعقول أن تُشرب قلوبهم حب هذه الدعوة وأفراد هذه الدعوة، والتغنِّي بمذهب هذه الدعوة منذ الساعة الأولى. ولا يزيد مرورُ الزمانِ كلَّ دعوة أو مذهب حزبي إلا قوة وانتشارًا، وكثرة أنصار، ورسوخ عقيدة؛ فلنلاحظ ذلك جيدًا، فإنه قد يفيدنا في تعليل بعض أفعال البرامكة.

ولنرجع إلى التحدث معك باختصار عن بقية الحوادث الداخلية في عصر الرشيد، ولنقسِّم القول إلى ناحيتين؛ أولاهما: ثورات ناتجة عن العصبية. وثانيتهما: فتوق وثورات في شتَّى ولاياته.

أما الحوادث العصبية بين النزارية واليمنية وغيرهما، فإن ابن جرير الطبري يحدثنا أن قد وقع هياج في الشام سنة ست وسبعين ومائة بين النزارية واليمنية، ورأس النزارية يومئذ أبو الهيذام، فولى الرشيدُ موسى بن يحيى بن خالد، وضم إليه القواد والأجناد ومشايخ الكتاب، فذهب إليهم وأصلح بينهم حتى سكنت الفتنة.

وأما الثورات الأخر، فإنا نجد في أخبار سنة ثمانٍ وسبعين ومائة، وسنة ثمانين ومائة، وسنة سبع وثمانين ومائة ما يدلُّ على حصول فتن وحروب من جراء العصبية أيضًا.

ولقد حصلت حروب في خراسان والطالقان وحُوران والجزيرة واليمن ومصر وأرمينية وحمص لرافع بن ليث، وكان النصر في أكثرها حليف جيوش الرشيد وولاته.

على أن جل هذه الثورات ناجم في الواقع عن اتساع رقعة المملكة، وسرعة تبديل الولاة، وسوء تصرف بعض هؤلاء الولاة، ولا سيما في جباية الأموال، ومحاولة إرضاء الخليفة من جهة، ومطامعهم الخاصة من جهة أخرى.

وإنا لنجتزئ بما قدمناه لك عن السياسة الداخلية أيام الرشيد، ونتقدم الآن إلى الكلام عن السياسة الخارجية.

(٢) السياسة الخارجية

أما ملخص السياسة الخارجية أيام الرشيد، فيمكن تقسيمه إلى نقطتين؛ الأولى: علاقته بالروم. والثانية: علاقته بالأندلس.

فأما علاقته بالروم فقد أشارت دائرة المعارف الإسلامية، في مبحثها عن الرشيد، إلى أن حروبًا بلغت نهاية الشدة قد وقعت بين الرشيد والبزنطيين، وقالت: إن ولاة الرشيد عملوا منذ بداية عهده على تقوية الحصون التي على الحدود، وأنهم كانوا يقومون بغزوات في البقاع المعادية من غير أن يربحوا غنائم مستديمة، وأن الرشيد غزاهم بنفسه سنة ١٨١هـ (٧٩٧-٧٩٨م)، بيد أنه عجَّل بعودته، ثم شبت حرب في السنة التالية كالعادة، وإذ كانت الإمبراطورة إيرين كانت تعاني متاعب داخلية، فقد عجلت بالصلح على أن تدفع الجزية.

على أن هذا الصلح لم يدم إلا ريثما تبوَّأ الإمبراطور نيقفور أريكته سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م؛ فقد بعث إلى الخليفة بكتاب مهين طلب فيه أن يُعيد إليه الجزية التي أُدِّيت من قبلُ، فلم يحفل الخليفة بشروط الصلح، فعادت الحروب.

وفي سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٦م استولى هارون على «هِرَقْلة»، واضطر الإمبراطور إلى أن يدفع جزية جديدة عن نفسه وعن أسرته فوق الجزية العامة، وفي السنة التالية هزَم البزنطيون يزيد بن مقلد، وكانت أغلاط هرثمة معهم مُماثلةً لأغلاط «ابن مقلد».

ويقول بعض المؤرخين الغربيين: إن هارون كان على علاقة حسنة بشرلمان، وقد ذكر أن كليهما كان يبعث سفيرًا عند الآخر، على أنه لم يرد ذكر لذلك في المراجع العربية، وإنه ليُشكُّ كثيرًا في صحة هذه الرواية.

وأما علاقته بالأمويين في الأندلس، فلم يكن مرجوًّا أن تكون علاقة صفاء ومودة، فقد كان العباسيون يعدونهم خارجين على سلطانهم، ولا يرون في دولتهم نظيرًا يستحق أن يعيش وإياهم في سلام وهدوء.

وقد ظهرت أيام الرشيد دولة الأدراسة في المغرب الأقصى، وذلك أن إدريس بن عبد الله كان ممن هرب من وقعة «فخ» - وهو أخو يحيى بن عبد الله - فسار إلى مصر وشخص منها إلى بلاد المغرب الأقصى، حيث التفَّ حوله برابرة أوروبة، فأنشأ هناك أول خلافة للعلويين، وهي دولة الأدراسة.

وظهرت كذلك أيام الرشيد دولة الأغالبة في إفريقية، فإنه ولَّاها إبراهيم ابن الأغلب التميمي ليجعل من مملكته حاجزًا منيعًا بين الخلافة العباسية

والأدارسة الذين بالمغرب الأقصى، وكذلك بينه وبين الأندلسيين، وكانت توليته سنة أربع وثمانين ومائة، فعظُم أمره، وصار كملك مستقل، إلا أنه كان يخطب للرشيد.

(٣) التكلم عن البيعة

والآن نتحدث إليك عن أكبر أغلاط الرشيد، وأبعدها أثرًا في حياته وفي الدولة العباسية، بل في حياة المسلمين السياسية بوجه عام، وهي بيعته بولاية العهد الثلاثية لأبنائه: الأمين والمأمون والقاسم.

وقد قدمنا لك في الكتاب الأول رأينا في هذا النوع من احتياط الخلفاء لأنفسهم ولأبنائهم، وما كان له من الأثر السيئ في حياة القصور خاصة، وفي السياسة عامة، ولا سيما البيعة بولاية العهد لأكثر من واحد، فقد كان ذلك ينشئ بطانات مختلفة، ويُكوِّن أحزابًا لا تلتفُّ حول مبدأ أو فكرة، وإنما تلتف حول الأشخاص والمنافع التي تُنتظر منهم.

وهذه البطانات والأحزاب تتنافس في القصر، فتفسد على الخليفة والأمراء حياتهم الخاصة، وتقطع ما بينهم من صلات كان يجب أن تُرعى حرمتُها، كما أنها تتنافس خارج القصر، فتفسد على الدولة سياستها العامة فتصرفها عن مرافقها الداخلية، كما تصرفها عن الاحتياط لحماية الثغور والاحتفاظ بمهابتها الخارجية.

ومع أن هذا النوع من البيعة بولاية العهد الثنائية أو الثلاثية سُنَّة أُموية آتت ثمرها الخبيث، وجرَّت على الأمويين أنواع الوبال فمزقتهم وأضاعت ملكهم، كما قدمنا، وكان المعقول أن يستفيد العباسيون من هذا الدرس، ويُعرضوا عن سنة مُنكَرة في نفسها، وقد سنَّها أعداؤهم

السياسيون، مع هذا كله تورط الرشيد فيما تورط فيه عبد الملك وخلفاء عبد الملك، وتعرضت الدولة العباسية لما تعرضت له الدولة الأموية، بل كان خطر هذه السنة على العرب أيام بني العباس أشد منه أيام بني أمية؛ ذلك أن سقوط الدولة الأموية قد نقل السلطان من أسرة إلى أسرة واحتُفظ به لقريش.

فأما أثر هذه السنة أيام بني العباس، فهو نقل السلطان الفعلي من العرب إلى الفرس ثم إلى الترك، وجعل الخلافة نوعًا من العبث والسخرية في أيدي المتغلبين من القواد والخدم والرقيق.

ومهما نلتمس الأسباب لتورط الرشيد في هذه السنة التي كان يجب أن يتجنبها، فلن نستطيع أن نهمل سببين أساسيين؛ أحدهما: تأثر القصر العباسي بسنن الملك الفارسي القديم وسياسته. والآخر: تأثر الخلفاء بما كان للنساء، حرائرهن وإمائهن، من سلطان ونفوذ.

فلولا هذان السببان لما تورط الرشيد في هذه السنة التي تورط فيها أبوه المهدي، وذاق هو غير قليل من ثمرها.

ستقول: ولكن الرشيد احتاط فأخذ على أبنائه العهود والمواثيق أن يفي بعضهم لبعض، ويبر بعضُهم ببعض. ولكن ما قيمة هذا الاحتياط أمام سطوة الملك وسلطانه ومطامع الإنسان التي لا حدَّ لها؟ وما قيمة هذه العهود والمواثيق وقد أثبت التاريخ في جل مراحله أنها لا تعتبر عهودًا ومواثيق إلا عند الضعفاء من الأمم والأفراد، أما الأقوياء وذوو السلطان والبطش فهي عندهم ليست بعهود ولا مواثيق، إنما هي «قصاصات ورق» لا أكثر ولا أقل، وقد يُفتي بأنها «قصاصات ورق» أولئك الذين وكَّدوها وشهدوا على صحتها، وتضامنوا في البر بها، والوفاء لأصحابها؟

وقد كان الخلفاء قبل الرشيد يحتاطون لكل بيعة فيها أخذٌ للعهود والمواثيق، ومع ذلك لم ينفع هذا الاحتياط أيام بني أمية ولا أيام بني العباس.

وإليك الآن أحاديث المؤرخين من العرب وغير العرب في هذا الموضوع:

لما لاحظ الفضل بن يحيى سنة خمس وسبعين ومائة أن جماعة من بني العباس قد مدوا أعناقهم إلى الخلافة بعد الرشيد؛ لأنه لم يكن له ولي عهد، أجمَع على البيعة لمحمد، ولما صار الفضل بن يحيى إلى خراسان فرَّق في أهلها أموالاً، وأعطى الجند أعطيات متتابعات، ثم أظهر البيعة لمحمد بن الرشيد، فبايع الناس له، وسمَّاه الأمين، وفي ذلك يقول النمري:

أمسى بمرو على التوفيق قد صفَقت ... على يد الفضل أيدي العُجم والعرب

بيعة لولي العهد أحكمها ... بالنصح منه وبالإشفاق والحدب

قد وكَّد الفضل عقدًا لا انتقاض له ... لمصطفًى من بني العباس مُنتخب

ولما تناهى الخبر إلى الرشيد بذلك، وبايع له أهلُ المشرق بايع وكتب إلى الآفاق فبويع له في جميع الأمصار، فقال أبان اللاحقي في ذلك:

عزمتَ أمير المؤمنين على الرشد ... برأى هدًى فالحمد لله ذي الحمد

ويقول لنا اليعقوبي في هذا الصدد: إن هارون بايع لابنه محمد بالعهد من بعده سنة ١٧٥هـ ومحمد ابن خمس سنين، وأعطى الناس على ذلك عطايا جمة، وأُخرِج محمد إلى القواد، فوقف على وسادة فحمد الله وصلَّى على نبيه، وقام عبد الصمد بن علي فقال: أيها الناس، لا يغرنكم صغر السن، فإنها الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها في السماء. وجعل الرجل من بني هاشم يقول في ذلك حتى انقضى المجلس، ونُثِرت عليهم الدراهم والدنانير وفأر المسك وبيض العنبر.

ويقول لنا الطبري في حوادث سنة اثنتين وثمانين ومائة: إن فيها كان انصراف الرشيد من مكة، ومسيره إلى الرقة، وبيعته بها لابنه عبد الله المأمون بعد ابنه محمد الأمين، وأخذ البيعة له على الجند بذلك بالرقة، وضمه إياه إلى جعفر بن يحيى، وأنه قد بويع له بمدينة السلام حين قدمها، وولاه أبوه خراسان وما يتصل بها إلى همذان، وسمَّاه المأمون. وقد قال في ذلك سلم بن عمرو الخاسر:

بـايـع هـــارون إمـــام الهـدى   لـذي الحـجا والـخلق الفاضل
المـخـلـف المـتـلـف أمـوالـه   والـضـامـن الأثـقـال للحامل
والعالـم الـنـاقـد في عـلـمـه   والـحاكـم الـفـاضل والعادل
والـراتـق الـفاتق حلف الهدى   والـقـائـل الـصـادق والفاعل
لـخيـر عـبـاس إذا حـصَّـلوا   والمفضل المجدي على العائل
أبـرهـم بـــرًّا وأَولاهـــم   بالـعُـرف عـنـد الحدث النازل
لـمشـبـه الـمنصـور في مـلكـه   إذا تـدجَّـت ظـلـمـة الباطل
فـتـم بالـمأمـون نـور الـهدى   وانكشف الـجهل عـن الجاهل

وفي سنة تسع وثمانين ومائة بايع الرشيد لابنه القاسم بعد المأمون، وجعل أمر القاسم، في خلعه وإقراره، إلى عبد الله إن أفضت الخلافة إليه.

وأراد الرشيد أن يُوثِّق الأمر بين بنيه في ولاية العهد، حتى يسد دونهم باب الفتنة، فرأى أن خير وسيلة لذلك هي ما يحدثنا عنها أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري في حوادث سنة ست وثمانين ومائة إذ يقول: حج هارون ومحمد وعبد الله معه وقواده ووزراؤه وقضاته في سنة ١٨٦هـ، وخلف بالرقة إبراهيم بن عثمان بن نهيك العكي على الحرم والخزائن والأموال

والعسكر، وأشخص القاسم ابنه إلى مَنْبِج، فأنزله إياها بمن ضم إليه من القواد والجند، فلما قضى مناسكه كتب لعبد الله المأمون ابنه كتابين جهد الفقهاء والقضاة آراءهم فيهما:

أحدهما: على محمد بما اشترط عليه من الوفاء بما فيه من تسليم ما ولي عبدُ الله من الأعمال وصيَّر إليه من الضياع والغلات والجواهر والأموال. والآخر: نسخة البيعة التي أخذها على الخاصة والعامة، والشروط لعبد الله على محمدٍ وعليهم، وجعَل الكتابين في البيت الحرام، وبعد أخذه البيعة على محمد، وإشهاده عليه بها الله وملائكته ومن كان في الكعبة معه من سائر ولده وأهل بيته ومواليه وقواده ووزرائه وكتابه وغيرهم، وكانت الشهادة بالبيعة والكتاب في البيت الحرام، وتقدَّم إلى الحجبة في حفظهما، ومنْع من أراد إخراجهما والذهاب بهما؛ فذكر عبد الله بن محمد ومحمد بن يزيد التميمي وإبراهيم الحجبي، أن الرشيد حضر وأحضر وجوه بني هاشم والقواد والفقهاء وأُدخِلوا البيت الحرام، وأمر بقراءة الكتاب على عبد الله ومحمد، وأشهد عليهما جماعة من حضر، ثم رأى أن يُعلَّق الكتاب في الكعبة، فلما رفع ليعلق وقع، فقيل: إن هذا الأمر سريع انتقاضه، قليل تمامه. وقد أثبتنا الكتابين لعظيم خطرهما التاريخي في باب المنثور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني.

وبعد، فإن لعصر الرشيد مكانته وقدره، فقد ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية أيما ازدهار، وظهرت فيه آثار تحول المدنية في العصور التي سبقته، كما أثَّر هو في العصور التي تلته، ولقد صدق صاحب «النجوم الزاهرة» فيما رواه عن أبي علي صالح بن محمد الحافظ، قال: «اجتمع

للرشيد ما لم يجتمع لغيره: وزراؤه البرامكة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعره مروان بن أبي حفصة، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه، وحاجبه الفضل ابن الربيع أنبهُ الناس وأعظمهم، ومُغنِّيه إبراهيم الموصلي، وزوجته زبيدة بنت عمه جعفر».

وإنا لنختم مبحثنا في حياة الرشيد وعصره بكلمة تبين وجهة نظر مؤرخ كبير المكانة في الشرقيات، وهو الأستاذ «ميور»، ونتقدم بملاحظة واحدة، وهي شدته على هارون الرشيد، وقد يكون الذي دفعه إلى ذلك تأثره بمرجعه العظيم الذي وضعه الأستاذ «ويل».

وقد اعترف «ميور» نفسه بأن «ويل» كان بالغًا في قسوته على هارون مبلغًا عظيمًا، على نقيض ما عهد فيه من الحيدة والهدوء في أحكامه، فقد اعتبره من الظلم في الذروة، ولم يكن الرشيد من الرداءة بمبلغ مَن سبقه ومَن أتى بعده. ويظهر أن الفاجعة البرمكية هي التي أعطته هذه الأسبقية التي لا يغبط عليها في حكاية الشرق وتاريخه.

وسنرى مع محاولة الأستاذ «ميور» الرد على الأستاذ «ويل» في حاشية كتابه، أن كتابته عن الرشيد مع حظها العظيم من المتانة والإنصاف لا تزال عليها غلالة من صرامة «ويل» وقواذع نقده.

نترجم لك رأي «ميور» لأنه يكاد يكون صورة صحيحة للرأي العلمي الأخير في الرشيد، فهو لا يعدو الرأي الذي أبداه الأستاذ ك. ف. «زتوستين»، في العدد الثاني والعشرين من دائرة المعارف الإسلامية، ونحن جد عالمين بخطر المراجع العديدة التي استند عليها «زتوستين» في رأيه في الرشيد. فلننقل لك الآن كلمة «ميور»؛ فهي مثل الأخرى إن لم تكن أوسع وأبلغ.

قال الأستاذ «ميور» في كتابه عن الخلافة: «إن مكانة هارون الرشيد وابنه المأمون في التاريخ لهى أسمى مكانة بلغها الخلفاء العباسيون، وإن هارون لقمين بأن يكون في الذروة مع الخِيَرة مع أفاضل ملوك أسرة بني أمية، لولا شائبة القساوة المنطوية على الختل التي وصمَت سيرته جمعاء».

لقد كان الرشيد في قصوره محوطًا بضروب الرفاهية والرغد، وكان ملكًا في مكارمه وجوده، ومع ذلك قد ترك في أقبائه خزائن عامرة بلغت تسعمائة مليون جُمعت بوسائل العسف وعدم التدقيق، وإذا استثنينا ما ذكرناه؛ فإن إرادته كانت عادلة موفقة.

ولما كان الرشيد قد اعتاد منذ ميعة شبابه الحياة الحربية، فإنه كثيرًا ما شاطر جنده ميدان القتال، وقد كان من جراء انتصاراته العديدة، لا سيما على اليونان (الروم) أن طبع عصره بطابع المجد والصيت.

ولم يُظهر خليفة، من قبل أو بعد، ما أظهره الرشيد من الهمة والنشاط في مختلف حركاته، سواء أكانت في سبيل الحج أم الإدارة أم الحرب.

على أن أصل شهرة هذا الخليفة ومصدر صيته راجع إلى أن حكمه عجَّل بدخول عصر الآداب، فقد كان قصرُه المثابةَ التي يُهرع إليها الحكماء والعلماء من أنحاء العالم، وكانت سوق البلاغة والشعر والتاريخ والفقه والطب والموسيقى والفنون نافقة، إذ يقابلها الخليفة مقابلةَ مَن في سجيته النبل والكرم، كل ذلك مما آتى أكله وثمره الناضج في العصور الآتية.

لقد كان الرشيد يجيز العلماء في كل فنٍّ جائزات ملكية نبيلة، على أن الشعراء كانوا موضع كرمه الخاص، وهاك مثلًا ما أجاز به مروان بن أبي حفصة حين مدحه بمدحته فيه، فرفده الرشيد بكيس فيه خمسة آلاف دينار،

وكساه خلعته تشريفًا له، وأمر له بعشرة من رقيق الروم، وحمله على برذون من خاصِّ مراكبه. ا.هـ.

(٤) الدولة البرمكية والنكبة البرمكية

صدق الفخري إذ يقول: إن دولة البرامكة كانت غُرة في جبهة الدهر، وتاجًا على مفرق العصر، ضُربت بمكارمها الأمثال، وشُدَّت إليها الرِّحال، ونِيطَت بها الآمال، وبذلت لها الدنيا أفلاذ أكبادها، ومنحتها أوفرَ إسعادها، فكان يحيى وبنوه كالنجوم زاهرةً، والبحور زاخرة، والسيول دافعة، والغيوث ماطرة، أسواق الآداب عندهم نافقة، ومراتب ذوي الحرمات عندهم عالية، والدنيا في أيامهم عامرة، وأُبَّهة المملكة ظاهرة، وهم ملجأ اللهيف، ومعتصَم الطريد، ولهم يقول أبو نواس:

سلام على الدنيا إذا ما فقدتُمُ بني بُرمك من رائحين وغاد

ويؤخذ من المباحث التاريخية الحديثة للمستشرقين أن البرامكة هم أسرة فارسية أنتجت أول الوزراء الفرس للخلافة، وليست لفظة برمك باسم لشخص، وإنما تدل على رتبة وراثية خاصة برئيس الكهان بمعبد «نوبهار» ببلخ.

وكانت البرامكة تملك الأراضي التابعة للمعبد، ويبلغ طولها ثمانية فراسخ، وعرضها أربعة، فكانت مساحتها أربعين وسبعمائة ميل مربع، ولم تزل هذه الممتلكات أو بعضها في حوزة البرامكة في الأيام التالية، ويقول ياقوت: إن قرية «روان» الكبيرة الغنية، وهي شرق بلخ، كانت في حوزة يحيى بن خالد.

ومعنى الاسم بالسنسكريتية: الدير الجديد، وكان هذا الدير عبارة عن دير بوذي، وقد وصف كذلك بوساطة حاج صيني اسمه «هوان شانج» في

القرن السابع للمسيح، في كتاب اسمه «ذكريات على البقاع الشرقية»، وقد ترجمه إلى الفرنسية «سنت جوليان»، على أن هذا المعبد كان معروفًا لبعض الجغرافيين من العرب، أمثال: ابن الفقيه (انظر: طبعة چوچ، ص٣٢٢)؛ إذ قرر أن النوبهار كانت مخصصة لعبادة الأوثان لا النار. وإذا تركنا جانبًا بعض المبالغات في وصف ابن الفقيه، فإنا نجد وصفه مطابقًا للبوذية.

فلنلاحظ هذه العبادة لأقطاب من زعماء الفرس لعبوا دورًا هامًّا في التاريخ العباسي، ولنلاحظها جيدًا؛ فربما أفادتنا في إماطة اللثام قليلًا عن عبادات لفئات عديدة اعتُبرت زنادقة أو مانية أو ملحدين، ومهما كانت هذه الفئات موضع اضطهاد من خلفاء العصر؛ فإن من المبالغة الكتابية التي لا تُرضي العلم ولا التاريخ في شيء ألا يُحفل بها، أو لا يشار إليها إشارة طفيفة إذا لم يكن لدينا من المواد ما يسمح لنا بأن نُفرد لدراستها بابًا، كما حفل بها الخلفاء فأفردوا لها إدارة أسموا رئيسها «صاحب الزنادقة».

ولعل أول ذكْرٍ لبرمكيٍّ حفل به التاريخ واعتبره مؤسسًا لتلك الأسرة البرمكية التي نبغت في تلك الأيام الزاهية الزاهرة، والتي امتدت إلى أن انقضت في أيام الرشيد، ونظر إليه باعتباره جدَّ البرامكة هو: خالد بن برمك الذي استوزره السفاح بعد أبي سلمة الخلال وأبي الجهم.

كان خالد بن برمك من رجالات الدولة العباسية فاضلًا جليلًا كريمًا حازمًا يقظًا، استوزره السفاح وخفَّ على قلبه، وكان يسمى وزيرًا، وقيل: إن كل من استوزر بعد أبي سلمة كان يتجنَّب أن يسمى وزيرًا؛ تطيُّرًا مما جرى على أبي سلمة، ولقول من قال:

إن الـوزيـر وزيـر آل مـحمـد　　أودى فمن يشناك كان وزيرًا

قالوا: فكان خالد بن برمك يعمل عمل الوزراء ولا يسمى وزيرًا...
كان خالد عظيم المنزلة عند الخلفاء، قيل: إن السفاح قال له يومًا: يا خالد، ما رضيتَ حتى استخدمتني! ففزع خالد وقال: كيف يا أمير المؤمنين وأنا عبدك وخادمك؟! فضحك وقال: إن رَيْطة ابنتي تنام مع ابنتك في مكان واحد، فأقوم بالليل فأجدهما قد سرح الغطاء عنهما، فأرده عليهما. فقبَّل خالد يده وقال: مولًى يكتسب الأجر في عبده وأَمَته.

وكثر الوافدون على باب خالد بن برمك، ومدحه الشعراء، وانتجعه الناس، وكان الوافدون يسمون سُؤَّالًا، فقال خالد: إني أستقبح هذا الاسم لمثل هؤلاء وفيهم الأشراف والأكابر! فسماهم الزُّوار، وكان خالد أول من سمَّاهم بذلك، فقال له بعضهم: والله ما ندري أي أياديك عندنا أجل، أصلتنا أم تسميتنا؟

ولقد مدحه بشار بن برد فقال فيه:

لعمري لقد أجدى عليَّ ابنُ برمك　　وما كل من كان الغِنَى عنده يُجدي

حلبت بشعري راحتيه فدرَّتا　　سماحًا كما درَّ السحاب مع الرعد

إذا جئته للحمد أشرق وجهه　　إليك وأعطاك الكرامة بالحمد

له نـعـم فـي الـقـوم لا يستثيبها　　جزاء وكـيـل الـتاجـر الـمُـد بالمد

مـفـيـد ومِـتـلاف سبـيـل ثرائـه　　إذا ما غدا أو راح كالجزر والمد

أخـالـدُ إن الحمد يـبـقى لأهله　　جمالًا ولا تبقى الكنوز على الكد

فأطعِم وكلْ من عارة مستردة　　ولا تُـبقـهـا إنَّ العـواري للـرد

فأعطاه خالد ثلاثين ألف درهم، وكان قبل ذلك يعيطه في كل وفادة

خمسة آلاف درهم، وأمر خالد أن يُكتب هذان البيتان الأخيران في صدر مجلسه الذي كان يجلس فيه، وقال ابنُه يحيى: آخر ما أوصاني به أبي العمل بهذين البيتين.

ولقد أشرنا في كلمتنا عن الهادي إلى مبلغ إخلاص يحيى بن خالد البرمكي للرشيد في أيام الهادي حينما شرع في خلع هارون من ولاية العهد، وإن الأخبار التي رواها الطبري في سنة سبعين ومائة ناطقة بولاء يحيى وصدق إخلاصه.

ويجدر بنا هنا أن نقتطف موقفين كمثل لمواقف يحيى مع الهادي ذودًا عن الرشيد وحقوق الرشيد؛ فإنهما يعطياننا صورة من إخلاص آل برمك للرشيد ومبلغ ما رُوِّع به يحيى في سبيل الرشيد.

ذكر أبو حفص الكرماني أن محمد بن يحيى البرمكي حدثه قال: بعث الهادي إلى يحيى ليلًا، فأيس من نفسه وودع أهله وتحنط وجدد ثيابه ولم يشك في أنه يقتله، فلما أُدخِل عليه قال: يا يحيى، مالي ولك؟ قال: أنا عبدك، يا أمير المؤمنين، فما يكون من العبد إلى مولاه إلا طاعتُه، قال: فلم تدخل بيني وبين أخي تفسده عليَّ؟ قال: يا أمير المؤمنين، من أنا حتى أدخل بينكما، إنما صيرني المهدي معه، وأمرني بالقيام بأمره، فقمت بما أمرني به، ثم أمرتني بذلك فانتهيتُ إلى أمرك، قال: فما الذي صنع هارون؟ قال: ما صنع شيئًا ولا ذلك فيه ولا عنده، قال: فسكن غضبه. وقد كان هارون طاب نفسًا بالخلع فقال له يحيى: لا تفعل، فقال: أليس يترك لي الهنيء والمريء، فهما يسعانني وأعيش مع ابنة عمي؟ وكان هارون يجدُ بأم جعفر وجدًا شديدًا، فقال له يحيى: وأين هذا من الخلافة؟ ولعلك ألا يُترك هذا في يدك حتى يخرج أجمع. ومنَعه من الإجابة.

وذكر الكرماني أيضًا عن خزيمة بن عبد الله قال: أمر الهادي بحبس يحيى بن خالد على ما أراده عليه من خلع الرشيد، فرفع إليه يحيى رقعة: إن عندي نصيحة، فدعا به، فقال: يا أمير المؤمنين، أخلني. فأخلاه، فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت إن كان الأمرُ - أسأل الله ألا نَبلُغهُ وأن يقدِّمنا قبله - أتظن أن الناس يُسلمون الخلافة لجعفر وهو لم يبلغ الحُلم، ويرضون به لصلاتهم وحجهم وغزوهم؟ قال: والله ما أظن ذلك، قال: يا أمير المؤمنين، أفتأمن أن يسمو إليها أهلُك وجِلَّتهم مثل فلان وفلان، ويطمع فيها غيرهم، فتخرج من ولد أبيك! فقال له: نبَّهتني يا يحيى. قال: وكان يقول: ما كلمت أحدًا من الخلفاء كان أعقل من موسى، قال: وقال له: لو أن هذا الأمر لم يُعقد لأخيك أما كان ينبغي أن تعقده له؟ فكيف بأن تحل عقده وقد عقده المهدي له؟ ولكن أرى أن تقر هذا الأمر يا أمير المؤمنين على حاله، فإذا بلغ جعفر وبلغ الله به أتيته بالرشيد فخلع نفسه وكان أول من يبايعه ويعطيه صفقة يده، فقال: فقبل الهادي قوله ورأيه، وأمر بإطلاقه.

ولما ولي الرشيد الخلافة قلد يحيى بن خالد الوزارة وقال له: قد قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت، واعزل من رأيت، وأمض الأمور على ما ترى. ودفع إليه خاتمه، ففي ذلك يقول إبراهيم الموصلي:

ألم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمن أمين الله هارون ذي الندى ... فهارون واليها ويحيى وزيرها

وليس في مقدورنا أن نصور شخصية يحيى بن خالد بن برمك بأحسن من إثباتنا رأيه في الأخلاقيات، فقد قيل له: أي الأشياء أقل؟ قال: قناعة

ذي الهمة البعيدة بالعيش الدون، وصديقٌ كثيرُ الآفات قليلُ الإمتاع، وسكون النفس إلى المدح، وقيل له: ما الكرم؟ فقال: ملك في زي مسكين، وقيل له: ما الجود؟ فقال: عفو بعد قدرة، وقال مرة: إذا فتحت بينك وبين أحد بابًا من المعروف فاحذر أن تغلقه ولو بالكلمة الجميلة، وقال: «أحسن جبلة الولاة إصابة السياسة، ورأس إصابة السياسة العمل بطاعة الله، وفتح بابين للرعية؛ أحدهما: رأفة ورحمة وبذل وتحنُّن، والآخر: غلظة ومباعدة وإمساك ومنع».

ويروي لنا «ياقوت الرومي» في «معجمه» عنه، أنه لما كان الفضل بن يحيى واليًا على خراسان، كتب صاحب البريد إلى الرشيد كتابًا يذكر فيه: أن الفضل تشاغل بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعية، فلما قرأة الرشيد رمى به ليحيى وقال له: يا أبت، اقرأ هذا الكتاب، واكتب إلى الفضل كتابًا يردعه عن مثل هذا. فمد يحيى يده إلى دواة الرشيد وكتب إلى ابنه على ظهر الكتاب الذي ورد من صاحب البريد:

حفظك الله، يا بني، وأمتع بك، قد انتهى إلى أمير المؤمنين ما أنت عليه من التشاغل بالصيد ومداومة اللذات عن النظر في أمور الرعية ما أنكره، فعاوِدْ ما هو أزينُ بك، فإنه مَن عاد إلى ما يزينُه لم يعرِفه أهل زمانه إلا به، والسلام.

وكتب تحته هذه الأبيات:

انصَبْ نهارًا في طِلاب العلا ... واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى إذا الليل بدا مُقبلًا ... وغاب فيه عنك وجهُ الرقيب
فبادر الليلَ بما تشتهي ... فإنما الليلُ نهارُ الأريب

كم مـن فـتًـى تـحسبه ناسكًا   يستقبل اللـيـل بـأمـر عجيب
ألقى عـلـيـه اللـيـل أسـتـاره   فـبـات في لهو وعيش خصيب
ولـذة الأحـمـق مـكـشـوفـةٌ   يسـعى بـهـا كـلُّ عـدو مريب

هذا هو يحيى الذي يقول عنه المأمون: «لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحدٌ في البلاغة والكفاية والجود والشجاعة»، وهذا هو يحيى الذي كان يُجري على سفيان الثوري رضي الله عنه ألف درهم في كل شهر، فكان إذا صلى سفيان يقول في سجوده: «اللهُ إن يحيى كفاني أمرَ دنياي، فاكْفِه أمر آخرته».

هذا وإذا علمت أن أُمَّ الفضل بن يحيى، وهي زينب بنت منير، كانت ظئرًا للرشيد فأرضعته بلبان الفضل، وأرضعت الخيزرانُ، والدة الرشيد، الفضلَ بلبان الرشيد، استطعت أن تُقدِّر إلى أي مدًى كانت علاقة الرشيد بآل برمك وهو لم يَدرَج في مهده، ولم يفرق بين أمسه ويومه.

ونجد في أخبار سنة ست وسبعين ومائة، أن الرشيد ولَّى الفضل بن يحيى كُور الجبال وطبرستان ودنباوند وقومس وأرمينية وأذربيجان، وندَبه لحرب يحيى بن عبد الله الطالبي حين خروجه بالديلم، فوفِّق الفضل لأخذ أمان له من الرشيد، وأصلح أيما إصلاح، ونجح النجاح كله في غزواته وحروبه، حتى قال فيه أبو ثمامة الخطيب:

للفضل يوم الطالقان وقبله   يـوم أنـاخ بـه عـلـى خاقان
مـا مـثـل يـوميه اللذين تـواليا   فـي غـزوتـيـن تـوالـتا يومان
سد الـثـغور وردَّ أُلفة هاشم   بـعـد الـشتات فشعبها مُتدان
عصمت حكومته جماعة هاشم   من أن يُـجـرِّد بـينهـا سـيفان
تلك الحكومة لا التي عن لبسها   عظم الـنـبـا وتـفـرق الحكمان

فأعطاه الفضلُ مائة ألف درهم وخلع عليه.

ونجد في أخبار السنة نفسها، أن الفتنة هاجت بالشام بسبب العصبية التي بين النزارية واليمانية، فولَّى الرشيد موسى بن يحيى بن خالد الشام، فهرع إليها موسى وأقام بها حتى أصلح بين أهلها، وسكنت الفتنة، واستقام أمرها، فمدحه الشعراء، ومن قول بعضهم فيه:

قد هاجت الشام هيجًا يُشيب رأس وليده
فصبَّ موسى عليها بخيله وجنوده
فدانت الشام لَمَّا أتى نسيجُ وحيده
هو الجواد الذي بذْ ذَ كلَّ جُود بجوده
أعداه جودُ أبيه يحيى وجود جدوده
فجاد موسى بن يحيى بطارف وتليده
ونال موسى ذُرَى المجد وهو حشو مهوده
خصصته بمديحي منثوره وقصيده
من البرامك عُودٌ له فأكرم بعُوده
حَوَوا على الشعر طُرًّا خفيفه ومديده

وقد مدحه بمثل ذلك إسحاق بن حسان الخريمي.

ويقول الطبري في أخبار سنة ثمان وسبعين ومائة: إن الرشيد فوَّض أموره كلها إلى يحيى بن خالد بن برمك. وقد ذكر فيها شخوص الفضل بن يحيى إلى خراسان واليًا عليها، فأحسن السيرة بها، وبنى بها المساجد والرباطات، وغزا ما وراء النهر، فخرج إليه خاراخره ملك أشروسنة، وكان ممتنعًا.

وقد مدحه مروان بن أبي حفصة وغيره بقصائد عدة، وقد ذكر محمد

ابن العباس أنه سمع مروان يقول: إنه أصاب في قدمته تلك على الفضل سبعمائة ألف درهم.

وقد مدحه سلم الخاسر فقال:

وكيف نخاف من بؤس بدار ... تكنفها البرامكة البحور
وقوم منهم الفضل بن يحيى ... نفير ما يوازنه نفير
له يومان؛ يوم ندًى وبأس ... كأن الدهر بينهما أسير
إذا ما البرمكي غدا ابن عشر ... فهمَّتُه وزير أو أمير

ولننظر إلى مكانة الفضل وآل برمك من الرشيد، فإن أبا جعفر محمد بن جرير الطبري يحدثنا أنه لما قدم الفضل بن يحيى من خراسان؛ خرج الرشيد إلى بستان أبي جعفر يستقبله، وتلقاه بنو هاشم والناس من القواد والكتاب والأشراف، فجعل يصل الرجل بألف الألف وخمسمائة الألف. ومدحه مروان بن أبي حفصة فقال:

حمدنا الذي أدَّى ابن يحيى فأصبحت ... بمقدمه تجري لنا الطير أسعدا
وما هجعت حتى رأته عيوننا ... وما زلن، حتى آب، بالدمع حُشَّدا
نفى عن خُراسان العدوَّ كما نفى ... ضحى الصبح جلباب الدجَى فتعرَّدا
لقد راع من أمسى بمرو مسيره ... إلينا وقالوا شعبنا قد تبددا
على حين ألقى قُفْل كل ظلامة ... وأطلق بالعفو الأسير المُقيَّدا
وأفشى بلا منٍّ مع العدل فيهم ... أيادي عُرف باقيات وعُوَّدا
فأذهب رَوْعات المخاوف عنهم ... وأصدَر باغي الأمن فيهم وأوردا
وأجدَى على الأيتام فيهم بعُرفه ... فكان من الآباء أحنَى وأعوَدا
إذا الناس راموا غاية الفضل في الندى ... وفي البأس ألفوها من النجم أبعدا

سما صاعدًا بالفضل يحيى وخالدٌ إلى كل أمر كـان أسنَى وأمجـدا
يلين لـمن أعـطَـى الخليفة طاعة ويُسقى دمَ العاصي الحُسام المهندا
وشدَّ القُوى من بيعة المصطفى الذي علـى فـضـلـه عـهـد الخليفة قلدا
سميِّ النبي الفاتح الخاتم الذي بـه الله أعطى كـل خـير وسـدَّدا
أبحت جبال الكابُليِّ ولم تدع بهـن لـنـيران الـضـلالـة موقـدا
فأطلعتها خيلًا وطئن جموعه قتيلًا ومـأسـورًا وفَـلًّا مُـشَرَّدًا
وعادت على ابن البرم نُعماك بعدما تحوَّب مخذولًا يرى الموت مُفردًا

وفي أخبار سنة ثمانين ومائة هاجت العصبية بالشام، وتفاقم أمرها، واغتمَّ الرشيد بذلك، فعقد لجعفر بن يحيى على الشام وقال له: إما أن تخرج أنت أو أخرج أنا، فقال له جعفر: بل أقيك بنفسي. وشخص إليهم جعفر في جلة القواد والكُراع والسلاح، فأصلح بينهم، وقتل زواقيلهم(١) والمتلصصة منهم، فعادوا إلى الأمن والطمأنينة، وأطفأ تلك الثائرة. وقد مدحه منصور النمري بقصيدة مطلعها:

لقد أُوقدت بالشام نـيـران فتنة فهذا أوان الشام تخمد نارها
إذا جاش موج البحر من آل برمك عليها خبت شُهبانها وشرارها

ولما عاد جعفر مُوفقًا من سفرته هذه وقد استخلف على الشام مكانه عيسى بن العكي، دخل على الرشيد فزاده إكرامًا وإجلالًا.

وإنا لننقل لك هنا ما قاله جعفر للرشيد حين مثَل بين يديه؛ لأنه يُعتبر أثرًا قيِّمًا من ناحية تحليل نفسية الطرفين، ولروعته وبلاغته في أدب العصر، ولأنه في الوقت نفسه بمثابة نص تاريخي للعصر الذي ندرسه؛ قال الطبري: لما دخل جعفر على الرشيد قبَّل يديه ورجليه، ثم مَثَل بين يديه فقال: الحمد

لله، يا أمير المؤمنين، الذي آنس وحشتي، وأجاب دعوتي، ورحم تضرعي، وأنسأ في أجلي حتى أراني وجه سيدي، وأكرمني بقربه، وامتن عليَّ بتقبيل يده، وردَّني إلى خدمته، فوالله إن كنت لأذكر غيبتي عنه ومخرجي، والمقادير التي أزعجتني، فأعلم أنها كانت بمعاصٍ لحقتني، وخطايا أحاطت بي، ولو طال مقامي عنك يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداءك، لخفتُ أن يذهب عقلي؛ إشفاقًا على قربك، وأسفًا على فراقك، وأن يُعجل بي عن إذنك الاشتياق إلى رؤيتك، والحمد لله الذي عصمني في حال الغيبة، وأمتعني بالعافية، وعرفني الإجابة، ومسكني بالطاعة، وحال بيني وبين استعمال المعصية، فلم أشخص إلا عن رأيك، ولم أقدُم إلا عن إذنك وأمرك، ولم يخترمني أجلٌ دونك، والله يا أمير المؤمنين، فلا أعظم من اليمين بالله، لقد عاينتُ، فلو تعرض لي الدنيا كلها، لاخترت عليها قربك، ولما رأيتها عوضًا من المقام معك، ثم قال له بعقب هذا الكلام في هذا المقام: إن الله، يا أمير المؤمنين، لم يزل يُبليك في خلافتك بقدر ما يعلم من نيتك، ويُريك في رعيتك غاية أمنيتك، فيصلح لك جماعتهم، ويجمع ألفتهم، ويلم شعثهم، حفظًا لك فيهم، ورحمة لهم، وإنما هذا للتمسك بطاعتك، والاعتصام بحبل مرضاتك. والله المحمود على ذلك، وهو مستحقه.

وفارقت، يا أمير المؤمنين، أهل كور الشام وهم منقادون لأمرك، نادمون على ما فرط من معصيتهم لك، متمسكون بحبلك، نازلون على حكمك، طالبون لعفوك، واثقون بحلمك، مُؤمِّلون فضلك، آمنون بادرتك، حالهم في ائتلافهم كحالهم كانتْ في اختلافهم، وحالهم في أُلفتهم كحالهم كانت في امتناعهم. وعفوُ أمير المؤمنين عنهم، وتغمُّده لهم سابق لمعذرتهم، وصلةُ

أمير المؤمنين لهم وعطفه عليهم مُتقدِّم عنده لمسألتهم، وايم الله، يا أمير المؤمنين، لئن كنت قد شخصت عنهم وقد أخمد الله شرارهم، وأطفأ نارهم، ونفى مُرَّاقهم، وأصلح دهماءهم، وأولاني الجميل فيهم، ورزقني الانتصار منهم، فما ذلك كله إلا ببركتك ويُمنك وريحك، ودوام دولتك السعيدة الميمونة الدائمة، وتخوفهم منك، ورجائهم لك. والله، يا أمير المؤمنين، ما تقدمت إليهم إلا بوصيتك، وما عاملتهم إلا بأمرك، ولا سرتُ فيهم إلا على حدِّ ما مثَّلته لي ورسمته، ووقفتني عليه، والله ما انقادوا إلا لدعوتك وتوحُّد الله بالصنع لك، وتخوفهم من سطوتك، وما كان الذي كان مني، وإن كنت بذلتُ جهدي وبلغت مجهودي، قاضيًا ببعض حقك عليَّ، بل ما ازدادت نعمتك عليَّ عظمًا إلا ازددت عن شكرك عجزًا وضعفًا، وما خلق الله أحدًا من رعيتك أبعد من أن يُطمِع نفسه في قضاء حقك مني، وما ذلك إلا أن أكون باذلًا مهجتي في طاعتك وكل ما يقرب إلى موافقتك، ولكني أعرف من أياديك عندي ما لا أعرف مثلها عند غيري، فكيف بشكري وقد أصبحت واحد أهل دهري فيما صنعته فيَّ وبي؟! أم كيف بشكري وإنما أقوى على شكرك بإكرامك إياي؟! وكيف بشكري ولو جعل الله شكري في إحصاء ما أوليتني لم يأت على ذلك عدي؟! وكيف بشكري وأنت كهفي دون كل كهف لي؟! أو كيف بشكري وأنت لا ترضى لي ما أرضاه لي؟! وكيف بشكري وأنت تجدد من نعمتك عندي ما يستغرق كل ما سلف عندك لي؟! أم كيف بشكري وأنت تنسيني ما تقدم من إحسانك بما تجدده لي؟! أم كيف بشكري وأنت تُقدِّمني بطولك على جميع أكفائي؟! أم كيف بشكري وأنت وليي؟! أم كيف بشكري وأنت المُكرم لي؟! وأنا أسأل الله -

الذي رزقني ذلك منك من غير استحقاق له؛ إذ كان الشكر مقصورًا عن تأدية بعضه، بل دون شقص من عشر عشيره - أن يتولى مكافأتك عني بما هو أوسع له، وأقدر عليه، وأن يقضي عني حقك وجليل مِنَّتك، فإن ذلك بيده وهو القادر عليه.

وفي أخبار سنة ثمانين ومائة نفسها ولَّى الرشيد جعفرَ بن يحيى الحرس، وهكذا تجد في أخبار كل سنة نبأ عن آل برمك، وتمداحًا لآل برمك، وأثرًا جليلاً في خدمة الدولة من آل برمك، ومكانة سامية تبوَّأها آل برمك من الرشيد.

وإنا لا نرى ندحة من إيراد واقعة حالٍ رواها الفخري بين جعفر بن يحيى البرمكي وعبد الملك بن صالح الذي سعى به كاتبه قمامةُ وابنُه عبدُ الرحمن عند الرشيد بتهمة طلبه الخلافة لنفسه، حتى حبسه الرشيد عند الفضل بن الربيع - وهو منافس لآل برمك - وكثيرًا ما سعى الساعون بين صالح والرشيد. فإذا ما تعرض البرمكيون بالخير لرجل من كبار رجالات الدولة المتهمين بالتطلع إلى الخلافة، وإذا ما نجح البرمكيون في إيصال الخير لهم، وفي إرضاء قلب الرشيد عليهم، كان في ذلك أصدق دليل على مكانتهم الرفيعة من الرشيد، فما بالك إذا ما وصلوا إلى أن يبني أحد أولاد صالح على إحدى بنات الرشيد، وإذا ما اقتطعوا له الولايات ورفَدوه بأجزل الأموال؟!

على أنا نترك الكلمة لابن طباطبا ليقص عليك ما يرويه فيما نحن في صدده، قيل: إن جعفر بن يحيى البرمكي جلس يومًا للشرب وأحبَّ الخلوة، فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم، وجلس معهم وقد هُيِّئ المجلس

ولبسوا الثياب المُصبَّغة، وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو لبسوا الثياب الحُمر والصُّفر والخُضر، ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب ألا يأذن لأحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم، اسمه عبد الملك بن صالح، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات وخفقت العيدان - وكان رجل من أقارب الخليفة يقال له: عبد الملك ابن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس، وكان شديد الوقار والدين والحشمة، وكان الرشيد قد التمس منه أن ينادمه ويشرب معه، وبذَل له على ذلك أموالًا جليلة فلم يفعل - فاتفق أن عبد الملك بن صالح حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له، فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له وألا يدخل غيره، فأذِن الحاجب له، فدخل عبد الملك بن صالح العباسي على جعفر بن يحيى، فلما رآه جعفر كاد عقله يذهب من الحياء، وفطن أن القضية قد اشتبهت على الحاجب بطريق اشتباه الاسم، وفطن عبد الملك بن صالح أيضًا للقصة، وظهر له الخجل في وجه جعفر بن يحيى، فانبسط عبد الملك وقال: لا بأس عليكم، أحضروا لنا من هذه الثياب المُصبَّغة شيئًا، فأُحضر له قميص مصبوغ، فلبسه وجلس يباسط جعفر بن يحيى ويمازحه، وقال: اسقونا من شرابكم. فسقوه رطلًا، وقال: ارفقوا بنا؛ فليس لنا عادة بهذا. ثم باسطهم ومازحهم، وما زال حتى انبسط جعفر بن يحيى وزال انقباضه وحياؤه، ففرح جعفر بذلك فرحًا شديدًا وقال له: ما حاجتك؟ قال: جئت، أصلحك الله، في ثلاث حوائج أريد أن تخاطب الخليفة فيها: أولاها: أن عليَّ دينًا مبلغه ألف ألف درهم أريد قضاءه. وثانيتها:

أريد ولاية لابني يشرُف بها قدره. وثالثتها: أريد أن تزوج ولدي بابنة الخليفة؛ فإنها بنت عمه وهو كفء لها.

فقال له جعفر بن يحيى: قد قضى الله هذه الحوائج الثلاث؛ أما المال ففي هذه الساعة يُحمل إلى منزلك، وأما الولاية فقد ولَّيتُ ابنَك مصر، وأما الزواج فقد زوجته فلانة ابنة مولانا أمير المؤمنين على صداق مبلغه كذا وكذا، فانصرفْ في أمان الله. فراح عبد الملك إلى منزله فرأى المال قد سبقه، ولما كان من الغد، حضر جعفر عند الرشيد وعرَّفه ما جرى، وأنه قد ولَّاه مصر، وزوَّجه ابنته، فعجب الرشيد من ذلك وأمضى العقد والولاية، فما خرج جعفر من دار الرشيد حتى كُتب له التقليد بمصر، وأحضر القضاة والشهود وعقد العقد.

أرأيت كيف لم ينقض الرشيد ما أبرمه جعفر في مسألة خطيرة الخطر كله، لأنها تتعلق بكرامة الرشيد وأسرة الرشيد وشئون الرشيد الخاصة؟

أليس في ذلك ما يقطع برفيع مكانة القوم، وكبير قدرهم، وسامي منزلتهم عند الرشيد وفي الدولة التي هم مفزع رجالاتها، وموئل زعمائها؟

وأرجو ألا يفوتك في المثل المتقدم ما جاء فيه خاصًا بالملابس؛ فإنه قد يعطيك فكرة ما عن تخصص بعضها للسهرات والردهات والمنادمات مما لا يختلف عن نظام اليوم من «ردنجوت» و«سموكنج» و«فراك» إلى غير ذلك مما يدل على مبلغ الثروة، واستفحال أمر المدنية عند القوم في تلك الأيام الخاليات؛ فتأمل!

***

ربما تطلب إليَّ مثالًا على جُودهم وتعلق الناس بهم، فأبلغك، أرشدك الله، أن كُتب الأدب مُتْرعةٌ بالمئات من ذلك، بلا مبالغة ولا غلو ولا تهويل ولا إغراق، وسنترك الكلمة في هذا الباب لمُعاصرين؛ أحدهما: إسحاق الموصلي، والآخر: الإتليدي فيما يرويه من حديث جرى بين المأمون والمنذر ابن المغيرة. وإنا نكتفي بإيراد هذين المثلين للإفصاح عن جود البرامكة وبيان ما جبلت عليه نفوسهم من المروءة وبُعد الهمة وحب الخير.

أما مسألة إسحاق الموصلي، فتفصيل الخبر فيها أن الفضل بن الربيع دعا أحمد بن يحيى المكي وعلُّويَه ومخارقًا للاجتماع عنده - وذلك أيام المأمون بعد رجوعه ورضاه عنه - إلا أن حالة الفضل كانت ناقصة مُتضعضعة، فلما اجتمعوا عنده كتب إلى إسحاق الموصلي يسأله أن يصير إليه، ويُعلمه الحال في اجتماعهم عنده، فكتب إسحاق إليهم بحضوره، ولكن جاءهم متأخرًا، وكان علُّويه يغني فأخطأ، فقال له إسحاق: أخطأت. فغضب علُّويه وعاتبه بكلام طويل، ومنه قوله له: إنه من صنيعة البرامكة، فقال إسحاق: أما البرامكة وملازمتي لهم فأشهر من أن أجحده، وإني لحقيق فيه بالمعذرة، وأحْرى أن أشكرهم على صنيعهم، وبأن أذيعه وأنشره؛ وذلك والله أقلُّ ما يستحقونه مني، ثم أقبل على الفضل وقد غاظه مدحه لهم، فقال: أتسمع مني شيئًا أخبرك به مما فعلوه، وليس هو بكبير في صنائعهم عندي ولا عند أبي قبلي؟ فإن وجدت لي عذرًا وإلَّا فَلُمْ؛ كنتُ في ابتداء أمري نازلًا مع أبي في داره، فكان لا يزال يجري بين غلماني وغلمانه وجواري وجواريه الخصومة، كما يجري بين هذه الطبقات، فيشكونهم إليه فأتبين الضجر والتنكر في وجهه، فاستأجرت دارًا بقربه وانتقلت إليها أنا

وغلماني وجواري، وكانت دارًا واسعة، فلم أرضَ ما معي من الآلة لها، ولا لمن يدخل إليَّ من إخواني أن يروا مثله عندي، ففكرت في ذلك وكيف أصنع، وزاد فكري حتى خطر بقلبي قبح الأُحدُوثة من نزول مثلي في دار بأجرة، وأني لا آمن في وقتٍ أن يُستأذَن عليَّ وعندي مَن أحتشمه ولا يعلم حالي، فيقال: صاحب دارك، أو يُوجِّه في وقت فيطلب أجرة الدار وعندي مَن أحتشمه، فضاق بذلك صدري ضيقًا شديدًا حتى جاوز الحد، فأمرت غلامي بأن يُسرِج لي حمارًا كان عندي لأمضي إلى الصحراء أتفرَّج فيها مما دخل على قلبي، فأسرجه وركبتُ برداء ونعل، فأفضى بي المسير وأنا مفكر لا أميز الطريق التي أسلك فيها حتى هجم بي على باب يحيى بن خالد، فثواثب غلمانه إليَّ وقالوا: أين هذا الطريق؟ فقلت: إلى الوزير. فدخلوا فاستأذنوا لي، وخرج الحاجب فأمرني بالدخول، وبقيت خجلًا قد وقعتُ في أمرين فاضحين: إن دخلتُ إليه برداء ونعل وأعلمته أني قصدته في تلك الحال كان سُوء أدب، وإن قلتُ له: كنت مجتازًا، ولم أقصدك، فجعلتك طريقًا؛ كان قبيحًا. ثم عزمت فدخلت، فلما رآني تبسم وقال: ما هذا الزي يا أبا محمد؟ احتبسنا لك بالبر والقصد والتفقد، ثم علمنا أنك جعلتنا طريقًا، فقلت: لا والله يا سيدي، ولكني أصدقك، قال: هات، فأخبرته القصة من أولها إلى آخرها، فقال: هذا حق مُستوٍ، أفهذا شغل قلبك؟

قلت: إي والله، وزاد فقال: «لا تشغل قلبك بهذا. يا غلام، ردُّوا حماره، وهاتوا له خلعة.» فجاءوني بخلعة تامة من ثيابه فلبستها، ودعا بالطعام فأكلت، ووضع النبيذ فشربت وشرب فغنيته، ودعا في وسط ذلك بدواة ورقعة، وكتب أربع رقاع ظننت بعضها توقيعًا لي بجائزة، فإذا هو قد دعا

بعض وكلائه فدفع إليه الرقاع وسارَّه بشيء، فزاد طمعي في الجائزة، ومضى الرجل وجلسنا نشرب وأنا أنتظر شيئًا فلا أراه إلى العتمة، ثم اتكأ يحيى فنام، فقمت وأنا منكسر خائب، فخرجتُ وقُدِّم لي حماري، فلما تجاوزتُ الدار قال لي غلامي: إلى أين تمضي؟ فقلت: إلى البيت، قال: قد والله بيعت دارُك وأشهد على صاحبها، وابتيع الدرب كله ووزن ثمنه، والمشتري جالس على بابك ينتظرك ليعرِّفك، وأظنه اشترى ذلك للسلطان، لأني رأيت الأمر في استعجاله واستحثاثه أمرًا سلطانيًّا، فوقعتُ من ذلك فيما لم يكن في حسابي، وجئت وأنا لا أدري ما أعمل، فلما نزلت على باب داري إذا أنا بالوكيل الذي سارَّه يحيى قد قام إليَّ، فقال لي: ادخل، أيدك الله، دارك حتى أدخل إلى مخاطبتك في أمر أحتاج إليك فيه، فطابت نفسي بذلك، ودخلت ودخل إليَّ فأقرأني توقيع يحيى: يُطلَق لأبي محمد إسحاق بمائة ألف درهم يُبتاعُ له بها داره وجميع ما يجاورها ويلاصقها.

والتوقيع الثاني إلى ابنه الفضل: قد أمرت لأبي محمد إسحاق بمائة ألف درهم يبتاع له بها داره، فأطلق إليه مثلها لينفقها على إصلاح الدار كما يريد، وبنائها على ما يشتهي.

والتوقيع الثالث إلى جعفر: قد أمرت لأبي محمد إسحاق بمائة ألف درهم يبتاع له بها منزل يسكنه، وأمر له أخوك بدفع ألف درهم ينفقها على بنائها ومرمتها على ما يريد، فأطلق له أنت مائة ألف درهم يبتاع بها فرشًا لمنزله.

والتوقيع الرابع إلى محمد: قد أمرت لأبي محمد إسحاق أنا وأخواك بثلاثمائة ألف درهم لمنزل يبتاعه، ونفقة ينفقها عليه، وفرش يبتذله، فمُرْ له أنت بمائة ألف يصرفها في سائر نفقته.

وقال الوكيل: قد حملت المال واشتريت كل شيء جاورك بسبعين ألف درهم، وهذه كتب الابتياعات باسمي، والإقرار لك، وهذا المال بورك لك فيه فاقبضه. فقبضته وأصبحت أحسن حالًا من أبي في منزلي وفرشي وآلتي، ولا والله ما هذا بأكثر شيء فعلوه لي، أفأُلام على شكر هؤلاء؟! فبكى الفضل بن الربيع وكل من حضره وقالوا: لا والله لا تلام على شكر هؤلاء.

أرأيت إلى أي مدًى بلغت مكانة البرامكة من رجالات العصر وأدبائه حتى تملكوا من القلوب أعنَّتها، ومن النفوس أزمَّتها؟ وكيف استحوذوا على السُّويداء والمهج؟ ولِمَ لهجت الألسنة بتمداحهم والإشادة بذكرهم؟

أما حديث المأمون والمغيرة بن المنذر الذي رواه لنا الإتليدي، فهاكه بحذافيره: قال خادم المأمون: طلبني أمير المؤمنين ليلة وقد مضى من الليل ثلثه، فقال لي: خذ معك فلانًا وفلانًا - سماهما لي؛ وأحدهما: علي بن محمد، والآخر دينار الخادم - واذهب مسرعًا لما أقول لك، فإنه بلغني أن شيخًا يحضر ليلًا إلى آثار دور البرامكة وينشد شعرًا، ويذكرهم ذكرًا كثيرًا، ويندبهم ويبكي عليهم ثم ينصرف، فامض أنت وعلي ودينار حتى تردوا تلك الخرابات، فاستتروا خلف بعض الجُدر، فإذا رأيتم الشيخ قد جاء وبكى وندب وأنشد أبياتًا فأتوني به، قال: فأخذتهما ومضينا حتى أتينا الخرابات، فإذا نحن بغلام قد أتي ومعه بساط وكرسي حديد، وإذا شيخ قد أتى وله جمال، وعليه مهابة ولطف، فجلس على الكرسي وجعل يبكي وينتحب ويقول هذه الأبيات:

ولما رأيت السيف جندل جعفرًا ... ونادى منادٍ للخليفة في يحيى
بكيتُ على الدنيا وزاد تأسفي ... عليهم وقلت الآن لا تنفع الدنيا

مع أبيات أطالها، فلما فرغ قبضنا عليه وقلنا له: أجب أمير المؤمنين، ففزع فزعًا شديدًا وقال: دعوني حتى أوصي بوصية؛ فإني لا أوقنُ بعدها بحياة. ثم تقدَّم إلى بعض الدكاكين واستفتح وأخذ ورقة وكتب فيها وصية وسلَّمها إلى غلامه، ثم سرنا فلما مثَل بين يدي أمير المؤمنين قال: مَن أنت؟ وبما استوجبت منك البَرامكة ما تفعله في خرائب دورهم؟ قال الشيخ: يا أمير المؤمنين، إن للبرامكة أيادي خضرة عندي، أفتأذن لي أن أُحدِّثك بحالي معهم؟ قال: قل، فقال: يا أمير المؤمنين، أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، وقد زالت عني نعمتي، كما تزول عن الرجال، فلما ركبني الدينُ واحتجت إلى بيع ما على رأسي ورءوس أهلي، وبيتي الذي ولدت فيه؛ أشاروا عليَّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي ثلاثون رجلاً ونيِّف من أهلي وولدي، وليس معنا ما يباع ولا ما يُوهب، حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها، فلبستها وخرجت وتركتهم جياعًا لا شيء عندهم، ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ بأحسن زيٍّ وزينة، وعلى الباب خادمان، وفي الجامع جماعة جلوس، فطمعت في القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدم رجلاً وأؤخر أخرى، والعرق يسيل مني؛ لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا وأنا معهم، فدخلوا دار يحيى بن خالد فدخلت معهم، وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان، فسلمنا وهو يعدنا مائة وواحدًا، وبين يديه عشرة من ولده، وإذا بمائة واثني عشر خادمًا قد أقبلوا ومع كل خادم صينية من فضة على كل صينية ألف دينار، فوضعوا بين يدي كل رجل صينيته، فرأيت القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم، ويجعلون الصواني

تحت آباطهم، ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصينية، فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها، وجعلت الذهب في كُمِّي والصينية في يدي، وقمتُ وجعلتُ أتلفت ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب، فوصلت وأنا كذلك إلى صحن الدار ويحيى يلاحظني، فقال للخادم: ائتني بهذا الرجل. فأتاه بي، فقال: مالي أراك تتلفت يمينًا وشمالاً؟ فقصصت عليه قصتي، فقال للخادم: ائتني بولدي موسى. فأتاه به، فقال: يا بني، هذا رجل غريب؛ فخذه إليك، واحفظه بنفسك ونعمتك. فقبض موسى ولده على يدي وأدخلني إلى دار من دُوره، فأكرمني غاية الإكرام، وأقمت عنده يومي وليلتي في ألذ عيش وأتم سرور، فلما أصبح دعا بأخيه العباس وقال له: الوزير أمرني بالعطف على هذا الفتى، وقد علمت اشتغالي في بيت أمير المؤمنين، فاقبضه إليك وأكرمه، ففعل ذلك وأكرمني غاية الإكرام، ثم لما كان من الغد تسلمني أخوه أحمد، ثم لم أزل في أيدي القوم يتبادلونني مدة عشرة أيام لا أعرف خبر عيالي وصبياني؛ أفي الأموات هم أم في الأحياء؟ فلما كان اليوم الحادي عشر جاءني خادم ومعه جماعة من الخدم فقالوا: قم فاخرج إلى عيالك بسلام، فقلت: وا ويلاه! سُلبت الدنانير والصينية وأخرُج على هذه الحالة! ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ فرفع الستر الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، فلما رفع الخادمُ الستر الأخير قال لي: مهما كان لك من الحوائج فارفعها إليَّ، فإني مأمور بقضاء جميع ما تأمرني به، فلما رُفع الستر الأخير رأيت حجرة كالشمس حُسنًا ونورًا، واستقبلني منها رائحة الند والعود ونفحات المسك، وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون في الحرير والديباج، وحمل إليَّ مائة ألف درهم وعشرة آلاف دينار، ومنشور بضيعتين وتلك الصينية التي كانت أخذتها بما فيها من الدنانير والبنادق. وأقمت، يا أمير المؤمنين،

مع البرامكة في دورهم ثلاثَ عشرة سنة لا يعلم الناس أمن البرامكة أنا أمْ رجل غريب، فلما جاءتهم البلية، ونزل بهم، يا أمير المؤمنين، من الرشيد ما نزل، أجحفني عمرو بنُ مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلُهما به، فلما تحامل عليَّ الدهر كنت في آخر الليل أقصد خرابات دورهم، فأندبهم وأذكر حسن صنيعهم إليَّ، وأبكي على إحسانهم، فقال المأمون: عليَّ بعمرو بن مسعدة. فلما أُتي به قال له: تعرف هذا الرجل؟ قال: يا أمير المؤمنين، هو بعض صنائع البرامكة، قال: كم ألزمته في ضيعته؟ قال: كذا وكذا، فقال له: ردَّ إليه كل ما أخذت منه في مدته، وأفرغهما له ليكونا له ولعقبه من بعده، قال: فعلا نحيبُ الرجل، فلما رأى المأمونَ كثرة بكائه قال له: يا هذا، قد أحسنا إليك، فما يبكيك؟ قال: يا أمير المؤمنين، وهذا أيضًا من صنيع البرامكة! لو لم آتِ خراباتهم فأبكيهم وأندبهم حتى اتصل خبري إلى أمير المؤمنين ففعل بي ما فعل، مِن أين كنت أصل إلى أمير المؤمنين؟ قال إبراهيم بن ميمون: فرأيت المأمون وقد دمعت عيناه وظهر عليه حزنه، وقال: «لعمري هذا من صنائع البرامكة! فعليهم فابكِ، وإياهم فاشكرْ، ولهم فأوفِ، ولإحسانهم فاذكرْ».

مما يدل على تقدير المأمون للبرامكة ما رواه القاضي يحيى بن أكثم قال: سمعت المأمون يقول: لم يكن كيحيى بن خالد وولده أحدٌ في الكفاية والبلاغة والجود والشجاعة، قال القاضي: فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أما الكفاية والبلاغة والسماحة فنعرفها فيهم، ففيمن الشجاعة؟ فقال: في موسى بن يحيى، وقد رأيتُ أن أُولِّيه ثغر السند.

***

مكانة عالية بلا ريب مكانة آل برمك، وسلطان لا حد له سلطانهم، وغنى فاحش قبل الإسلام، وصولة ونفوذ قول في دولة الرشيد، فما الذي يا ترى غيَّر قلب الرشيد عليهم حتى نكبهم؟

لنذكر ما يقوله المعاصرون ونُعقِّب عليه بكلمة هادئة حكيمة لابن خلدون:

أما بَختيشُوع الطبيب المأموني فإنه يقول نقلًا عن أبيه جبريل: إنه لقاعد في مجلس الرشيد إذ طلع يحيى بن خالد - وكان فيما مضى يدخل بلا إذن- فلما دخل وصار بالقرب من الرشيد وسلَّم، ردَّ عليه ردًّا ضعيفًا، فعلم يحيى أن أمرهم قد تغيَّر، قال: ثم أقبل عليَّ الرشيد فقال: يا جبريل، يدخل عليك وأنت في منزلك أحد بلا إذنك؟ فقلت: لا، ولا يطمع في ذلك، قال: فما بالنا يُدخل علينا بلا إذن؟! فقام يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، قدَّمني الله قبلك، والله ما ابتدأتُ ذلك الساعة، وما هو إلا شيء كان خصني به أمير المؤمنين، ورفَع به ذكري، حتى إن كنت لأدخل وهو في فراشه مجرَّدًا حينًا، وحينًا في بعض إزاره، وما علمت أن أمير المؤمنين كره ما كان يحب، وإذ قد علمت فإني أكون عنده في الطبقة الثانية من أهل الإذن أو الثالثة، إن أمرني سيدي بذلك، قال: فاستحيا الرشيد، وكان من أرقِّ الخلفاء وجهًا، وعيناه في الأرض ما يرفع إليه طرفه، ثم قال: ما أردت ما تكره ولكن الناس يقولون، قال جبريل: فظننتُ أنه لم يسنح له جواب يرتضيه، فأجاب بهذا القول، ثم أمسك عنه وخرج يحيى.

أما أحمد بن يوسف كاتب عصرنا المأموني النابه، فإنه يحدثنا عن ثمامة ابن أشرس بحديث سننقله لك. وقبل إيراد هذا الحديث نودُّ أن نذكرك بأن محمد بن الليث الذي سيرد فيه هو محمد بن الليث الذي اختاره المهدي

كاتبًا للسر في مجلس مشاورته لتدبير رأي في حرب خراسان، وأمره بحفظ مراجعة أعضاء المجالس، وإثبات مقالتهم في كتاب.

وربما كان من المفيد أن نزيد القارئ بمحمد بن الليث معرفة، لا لأنه من رجالات عصرنا ومن ذوي الأثر الأدبي القيم فيه، ولا لأنه صاحب تلك الرسالة الشائقة التي بعث بها من الرشيد إلى ملك الروم التي أثبتناها في المجلد الثاني من هذا الكتاب، بل لأنا نرى في توضيح قدره توضيحًا لقدر البرامكة، ولأنك حينما ترى الرشيد يقبض على محمد بن الليث؛ بسبب البرامكة وكرامتهم ومنزلتهم من نفسه؛ لنصحه له بأن يضع حدًّا لاستفحال شأن البرامكة، وللرجل قدرُه ومنزلتُه، تستطيع أن تتصور تصوُّرًا صميمًا مكانة البرامكة من الرشيد ومن الدولة ومن العصر الذي هم فيه، ولأنك حينما تعلم أن الرشيد أطلق محمد بن الليث من حبسه واعتذر له قبيل نكبة البرامكة؛ تستطيع أن تعلم إذن مقدار التحول الذي نال نفسية الرشيد.

سنرى في مشاورة المهدي التي ذكرها ابن عبد ربه في العقد، والتي أثبتناها لك في المجلد الثاني، أن محمد بن الليث يتكلم في المجلس - وكان الرشيد بلا شك ولي العهد - كلامًا يُرضي الرشيد. إذن فمحمد بن الليث كان إلى جانب وظيفته كناموس لمجلس المشاورة صاحبُ رأي في مجلس الاستشارة نفسه يُعتدُّ به، فهو ذو شخصية عظيمة من ذوي شخصيات الدولة الذين لكلامهم خطره، ولقولهم أثره(٢).

قال: أول ما أنكر يحيى بن خالد من أمره، أن محمد بن الليث رفع رسالة إلى الرشيد يعظه فيها، ويذكر أن يحيى بن خالد لا يُغني عنك من الله شيئًا،

وقد جعلته فيما بينك وبين الله، فكيف أنت إذا وقفت بين يديه فسألك عما عملت في عباده وبلاده، فقلتَ: يا رب، إني استكفيت يحيى أمور عبادك، أتُراك تحتج بحجة يرضَى بها؟ مع كلام فيه توبيخ وتقريع، فدعا الرشيد يحيى وقد تقدم إليه خبرُ الرسالة، فقال: تعرف محمد بن الليث؟ قال: نعم، قال: فأي الرجال هو؟ قال: مُتَّهم على الإسلام - لاحظ كيف يتَّهمُون في الدين - فأمر به الرشيد فوُضع في المطبَق دهرًا.

فلما تنكر الرشيد للبرامكة ذَكَره، فأمر بإخراجه فأُحضِر، فقال له بعد مخاطبة طويلة: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، قال: تقول هذا؟! قال: نعم، وضعت في رجلي الأكبال وحُلتَ بيني وبين العيال بلا ذنب أتيت ولا حدثٍ أحدثت، سوى قول حاسد يكيد للإسلام وأهله، ويحِبُّ الإلحاد وأهله، فكيف أحبُّك؟! قال: صدقت. وأمر بإطلاقه ثم قال: يا محمد، أتحبني؟ قال: لا والله يا أمير المؤمنين، ولكن قد ذهب ما في قلبي. فأمر أن يُعطى مائة ألف درهم، فأحضرت، فقال: يا محمد، أتحبني؟ قال: أما الآن فنعم! قد أنعمت عليَّ وأحسنت إليَّ، قال: انتقم الله ممن ظلمك، وأخذ لك بحقك ممن بعثني عليك، قال ثمامة: فقال الناس في البرامكة فأكثروا، وكان ذلك أول ما ظهر من تغير حالهم.

فماذا حدث بعد ذلك؟

حدث - كما يخبرنا أحد المعاصرين، وهو محمد بن الفضل بن سفيان مولى سليمان بن أبي جعفر - أن يحيى بن خالد دخل دار الرشيد في الآونة التي نحن في صددها، فقام الغلمان إليه احترامًا وإجلالًا، فما كان من الرشيد إلا أن قال لمسرور الخادم: مر الغلمان ألا يقوموا ليحيى إذا دخل الدار، قال:

فدخل فلم يقم له أحد، فاربدَّ لونه، قال: وكان الغلمان والحجاب بعد إذا رأوه أعرضوا عنه، قال: فكان ربما استسقى الشربة من الماء أو غيره فلا يسقونه، وبالحري إن سقوه أن يكون ذلك بعد أن يدعو بها مرارًا.

ولننظر في سبب آخر يرويه لنا أحد المطلعين على أخبار ذلك العصر، وهو أبو محمد اليزيدي، قال: مَن قال: إن الرشيد قتل جعفر بن يحيى بغير سبب يحيى بن عبد الله بن حسن فلا تُصدِّقه، وذلك أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر فحبسه، ثم دعا به ليلة من الليالي فسأله عن شيء من أمره فأجابه، إلى أن قال: اتق الله في أمري ولا تتعرض أن يكون خصمك غدًا محمدًا ﷺ، فوالله ما أحدثت حدثًا ولا آويتُ محدثًا! فرقَّ عليه وقال له: اذهب حيث شئت من بلاد الله، قال: وكيف أذهب ولا آمن أن أُوخذ بعد قليل فأرد إليك أو إلى غيرك؟ فوجه معه من أداه إلى مأمنه، وبلغ الخبرُ الفضلَ بن الربيع من عين كانت له عليه من خاص خدمه، فبَلا الأمر فوجده حقًّا وانكشف عنده، فدخل على الرشيد فأخبره؛ فأراه أنه لا يعبأ بخبره وقال: وما أنت وهذا، لا أم لك، فلعل ذلك عن أمري! فانكسر الفضلُ، وجاءه جعفر فدعا بالغداء فأكلا، وجعل يلقمه ويحادثه إلى أن كان آخر ما دار بينهما أن قال: ما فعل يحيى بن عبد الله؟ قال: بحاله يا أمير المؤمنين في الحبس الضيق والأكبال، قال: بحياتي؟ فأحجم جعفر - وكان من أدق الخلق ذهنًا وأصحهم فكرًا - فهجس في نفسه أنه قد علم بشيء من أمره، فقال: لا وحياتك يا سيدي، ولكن أطلقته وعلمت أنه لا حياة به ولا مكروه عنده، قال: نِعْمَ ما فعلتَ، ما عدوتَ ما كان في نفسي. فلما خرج أتبعه بصره حتى كاد يتوارى عن وجهه ثم قال: قتلني الله بسيف الهدى على عمل الضلالة إن لم أقتلك. فكان من أمره ما كان.

سبب رابع رواه أحمد بن زهير، ونذكره لك هنا على علاته استكمالًا للموضوع من كل نواحيه، يقول الطبري: إنه يظن أن المصدر للرواية هو زاهر بن حرب، قال: «إن سبب هلاك جعفر والبرامكة أن الرشيد كان لا يصبر عن جعفر وعن أخته عباسة بنت المهدي، وكان يحضرهما إذا جلس للشرب، وذلك بعد أن أعلم جعفرًا قلة صبره عنه وعنها، وقال لجعفر: تزوجها ليحل لك النظر إليها إذا أحضرتها مجلسي. وتقدم إليه ألا يمسها ولا يكون منه شيء مما يكون للرجل إلى زوجته، فزوجها منه على ذلك، فكان يحضرهما مجلسه إذا جلس للشرب، ثم يقوم عن مجلسه ويخليهما، فيثملان من الشراب وهما شابان، فيقوم إليها جعفر فيجامعها، فحملت منه وولدت غلامًا، فخافت على نفسها من الرشيد إن علم بذلك، فوجهت بالمولود مع حواضن له من مماليكها إلى مكة، فلم يزل الأمر مستورًا عن هارون، حتى وقع بين عباسة وبعض جواريها شرٌّ، فأنهتْ أمرها وأمر الصبي إلى الرشيد، وأخبرته بمكانه ومع من هو من جواريها وما معه من الحلي الذي كانت زيَّنته به أمه، فلما حج هارون هذه الحجة، سنة سبع وثمانين ومائة، أرسل إلى الموضع الذي كانت الجارية أخبرته أن الصبي به مَن يأتيه بالصبي وبمن معه من حواضنه، فلما أُحضروا سأل اللواتي معهن الصبي، فأخبرنه بمثل القصة التي أخبرته بها الرافعة على عباسة، فأراد - فيما زُعم - قتل الصبي ثم تحوَّب عن ذلك، وكان جعفر يتخذ للرشيد طعامًا كلما حج بعُسفان فيقربه إذا انصرف شاخصًا من مكة إلى العراق، فلما كان في هذا العام اتخذ الطعام جعفرٌ، كما كان يتخذه هنالك، ثم استزاره فاعتلَّ عليه الرشيد ولم يحضُر طعامه، ولم يزل جعفر معه حتى نزل منزله من الأنبار، فكان من أمره وأمر أبيه ما كان».

أما نحن فلا نريد القطع بأن نكبة البرامكة كانت أثرًا لسبب بعينه من هذه الأسباب، وربما كانت نتيجةً لطائفة من الأسباب مجتمعة، منها ما نعرفه ومنها ما لم نعرفه بعدُ، ونحب ألا يفوتنا هنا أن نفترض فرضًا - نعترف بأنه فرض لا أكثر ولا أقل، ونعترف بأنه في حاجة إلى التحقيق العلمي، ولكنا نعترف أيضًا أن عرضه على علاته لا يخلو من النفع - وهو أن البرامكة كانوا فيما يظهر متأثرين بالناحية السياسية لمذهب المعتزلة(٣)، وهي الاعتدال بين أهواء الأحزاب السياسية المتطرفة وتلطيفُ الخصومة بين جناحي الحزب الهاشمي، فلم يرضَ الرشيد عن هذا النحو من السياسة، ومالأه على ذلك النفعيون من أنصار الجناح العباسي. وسنرى بعد قليل أن المأمون كان يرى رأي البرامكة في هذا النحو من السياسة المعتدلة الموفِّقة بين وجهات النظر المختلفة.

***

أما كيفية القبض على البرامكة، واحتياط الرشيد وحذره قبل قتلهم ومصادرته لأموالهم، وما قالته الشعراء في رثائهم، فحديث طويل يتطلب رسالة خاصة، وفقنا الله لدراسة موضوع البرامكة ونكبتهم وأثرهم في الدولة العباسية في موضوعنا «عصر الرشيد» في القريب العاجل إن شاء الله.

على أننا نرى من المستصوب قبل أن تتم هذه الفذلكة الموجزة أن نختمها بكلمة لابن خلدون لا تخلو من تحليل صحيح، ومذهب في الموازنة رجيح، وباب في التاريخ جميل المنهج، معقول التعليل.

قال ابن خلدون: إنما نكِب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية، حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشركوه في سلطانه، ولم يكن له معهم تصرُّف

في أمور ملكه، فعظمت آثارهم، وبَعُدُ صيتهم وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم، واحتازوها عمن سواهم: من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم، يقال: إنه كان بدار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيسًا من بين صاحب سيف وصاحب قلم، زاحموا فيها أهل الدولة بالمناكب، ودفعوهم عنها بالراح؛ لمكان أبيهم يحيى من كفالة هارون ولي عهد وخليفة، حتى شبَّ في حجره، ودرج من عُشه، وغلبه على أمره، وكان يدعوه: يا أبت، فتوجه الإيثار من السلطان إليهم، وعظمت الدالَّةُ منهم، وانبسط الجاه عندهم، وانصرفت نحوهم الوجوه، وخضعت لهم الرقاب، وقُصِرت عليهم الآمال، وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك وتحف الأمراء، وتسربت إلى خزائنهم، في سبيل التزلف والاستمالة، أموال الجباية، وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء، وطوَّقوهم المنن، وكسبوا من بيوتات الأشراف المعدم، وفكوا العاني، ومُدِحوا بما لم يُمدَح به خليفتهم، وأسنوا لعُفاتهم الجوائز والصلات، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأمصار في سائر الممالك، حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة، وأغصُّوا أهل الولاية، فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد، ودبَّت إلى مهادهم الوثيرة من الدولة عقارب السعاية، حتى لقد كان بنو قحطبة أخوالُ جعفر من أعظم الساعين عليهم، لم تَعطِفهم، لما وقر في نفوسهم من الحسد، عواطفُ الرحم، ولا وزَعتهم أواصر القرابة، وقارَنَ ذلك عند مخدومهم نواشئ الغيرة والاستنكاف من الحجر والأنفة وكامن الحقود التي بعثتها منهم صغائر الدالة، وانتهى بهم الإصرار على شأنهم إلى كبائر المخالفة.

هوامش

(١) الزواقيل: هم اللصوص، كما في القاموس، وشرحه في مادة «زقل».

(٢) انظر باب المنثور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني.

(٣) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا بقوله: «ليس الاعتزال مذهبًا سياسيًّا، ولم تَرُج سوق الاعتزال في زمن الرشيد ولم يكن شيئًا يعتدُّ به على عهده».

الفصل التاسع

الحياة العلمية في العصر العباسي

(١) توطئة

هذه فذلكة مجملة بمثابة توطئة لما سنعرض له بما يقتضيه المقام من شرح وإيضاح فِي العصر المأموني، فمهمتنا الآن أن نلم ببيان العناصر المهمة في الحياة العلمية العباسية.

نعلم من تاريخ اليونان القديم أن أثر اليونان في الثقافة الإنسانية عظيم عميق، لأنه إلى جانب إمداد العالم بمنتجات فلاسفتهم وعلمائهم وكتابهم ومفكريهم، قد أمدوه أيضًا بالنخب والمُلح مما وقف عليه اليونان من زبدة علوم الأشوريين والبابليين والفينيقيين والمصريين والهنود والفرس واليونان والرومان، فإذا ما قلنا: إن العرب وقفوا على الفلسفة اليونانية ومنتجات العقول اليونانية، فكأننا نقول ضِمْنًا: إنهم وقفوا على آثار العقليات الإنسانية العامة وآثار الثقافة القديمة والحضارات السالفة.

ونعلم أن الدولة العباسية كانت فارسية إلى حد ما، أو على الأقل كانت مُتَّسمة بالطابع الفارسي مُتأثِّرة به، ونعلم من تاريخ سقوط الدولة الرومانية للأستاذ «چيون» أن «جستنيان» اضطهد مدارس أثينا لأنه كان خصمًا للفلسفة الوثنية، وكانت الفلسفة الأفلاطونية حين ذاك قد آتت ثمرتها ونضجت، ثم هرع أصحابها إلى الفرس، واتصل بأنوشروان سبعة من علماء اليونان، فأكرم وفادتهم، وأفسح لهم مجال التأليف والنقل فيما هم أهله وأصحاب القدح المُعلَّى فيه.

ويقول ابن النديم في الفهرست: إن الفرس نقلت في القديم شيئًا من كتب المنطق والطب إلى اللغة الفارسية، فنقل ذلك إلى اللسان العربي عبد الله بن المقفع، فمن المعقول إذن أن يكون العرب حين اتصلت ثقافتهم بالثقافة الفارسية وتأثروا بها، تأثروا في الوقت نفسه بالثقافة اليونانية أيضًا - ولم تكن الثقافة الفارسية مما يُستهان بأمره أو يُغمط قدرُه؛ لأنك إذا استقصيت تاريخ ملوكهم الكبار، مثل سابور بن أردشير، تجد أنه في خلال عهده بعَث إلى بلاد اليونان وجلب كتب الفلسفة، وأمر بنقلها إلى الفارسية، واختزنها في مدينته، وأخذ الناس في نسْخها وتدارُسها وهكذا - فالثقافة العربية أفادت أيّما إفادة من منتجات الفرس وآثارهم وتراجمهم.

(٢) حركة النقل

لنتدرج الآن إلى شيء من التوضيح فننقل لك ما يقوله ابن صاعد الأندلسي في هذا الباب؛ لأنه مختصر عما تعرض له أمثال الأساتذة «نللينو» و«ابن أبي أصيبعة» و«القفطي» و«ابن النديم» وغيرهم ممن سيكونون عدتنا وموئلنا حين نعرض لهذه البحوث في العصر المأموني.

يقول ابن صاعد: «إن أول علم اعتُني به من علوم الفلسفة علم المنطق والنجوم، فأما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع الخطيب الفارسي، فإنه ترجَم كُتب أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق، وهي: كتاب «قاطاغورياس» وكتاب «باري أرمنياس» وكتاب «أنولوطيقا»، وذكر أنه لم يترجم منه إلى وقته إلا الكتاب الأول، وترجم ذلك المدخل إلى كتاب المنطق المعروف بـ«إيساغوجي» لـ«فرفوريوس الصوري»، وعبَّر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ، وترجم مع

ذلك الكتاب الهندي المعروف بكليلة ودمنة، وهو أول من ترجم من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية ...».

وأما علم النجوم فأول من عُني به في هذه الدولة محمد بن إبراهيم الفزاري، وذلك أن الحسين بن حميد، المعروف بابن الآدمي، ذكَر في تاريخه الكبير المعروف بنظام العقد: «إنه قدم على الخليفة المنصور سنة ست وخمسين ومائة رجلٌ من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند هندي، في حركات النجوم مع تعاديل معلومة على كردجات محسوبة لنصف نصف درجة، مع ضروب من أعمال الفلك ومع كسوفين ومطالع البروج وغير ذلك، في كتاب يحتوي على اثني عشر بابًا، وذكر أنه اختصره من كردجات منسوبة إلى ملك من ملوك الهند يسمى قبغر، وكانت محسوبة لدقيقة؛ فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب إلى اللغة العربية، وأن يؤلَّف منه كتابٌ تتخذه العرب أصلًا في حركات الكواكب، فتولَّى ذلك محمد بن إبراهيم الفزاري، وعمل منه كتابًا يسميه المنجمون «بالسند هند الكبير» وتفسير السند هند باللغة الهندية: الدهر الداهر».

وقد يكون من المستصوب أن نفهم حقيقة وجهة نظر العرب حين ذاك إلى علم الفلك، فهم كاليونانيين في زمن «بطليموس» كان غرضهم في الهيئة تبيُّن الحركات السماوية مع كل اختلافاتها المرئية بأشكال هندسية تُمكِّنهم من حساب أوضاع الكواكب لأي وقت فُرض، فإن كانت تلك الأشكال تصلح لحساب الظواهر رضوا بها، وما اهتموا بالبحث في حقيقة حركات الأجرام السماوية؛ وذلك لظنهم أن البحث عن حقيقة الحركات وعللها يكون على المشتغلين بالحكمة والطبيعة والحكمة الإلهية.

ونحن نجد، بقطع النظر عن أحكام النجوم التي صارت غير مقبولة في أيامنا، أن الهيئة عند العرب كما يقول الأستاذ «نللينو»: قد اشتملت على علم الهيئة الكروي والعملي، وقسم صغير من النظري يخص الكسوفات واستتارات الكواكب السيارة، مع علم التاريخ الرياضي، وعلم أطوال البلدان وعروضها على طريقة كتاب الجغرافية لبطليموس، فقد خرج من علم الهيئة عند العرب علم الميكانيكا الفلكية وعلم طبيعة الأجرام السماوية وأكثر علم الهيئة النظري؛ إذ إنه يبحث عن حقيقة حركات الكواكب.

فلا مرية إذن في أن العرب، إلى جانب وقوفهم على الفلسفة الفارسية والحكمة اليونانية، قد وقفوا أيضًا على آخر الآراء العلمية الخاصة بعلم الفلك في ذلك الحين، وأنهم وقفوا على آراء بطليموس فيما وقفوا عليه من الآراء. وبطليموس كما قال البتَّاني: قد تقصَّى علم الفلك من وجوهه، ودل على العلل والأسباب العارضة فيه بالبرهان الهندسي والعددي الذي لا تُدفعُ صحته ولا يُشكُّ في حقيقته، فأمر بالمحنة والاعتبار بعده، وذكر أنه قد يجوز أن يُستدرك عليه في أرصاده على طول الزمان، كما استدرك هو على أبرخس وغيره من نظرائه؛ لجلالة الصناعة، ولأنها سماوية جسيمة لا تدرك إلا بالتقريب.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى ترجمة كتاب زيج بطليموس المقول بأن أيوب وسمعان فسَّراه لمحمد بن خالد البرمكي، ونرجو حين تعرُّضنا لهذه الموضوعات في العصر المأموني أن نُلمَّ بها إلمامًا أدقَّ وأوسع.

على أنه يجدر بنا في هذه الفذلكة أن نشير إلى الكتب البهلوية الثلاثة التي استطاع الأستاذ «نللينو» أن يكتشف أثر نقلها فيما قبل انتهاء القرن

الثاني للهجرة، فواحد منها في علم الهيئة الحقيقي، وهو زيج الشاه أو زيج الشهريار، والآخران في صناعة أحكام النجوم؛ وهما: المبزيذج في المواليد، المنسوب إلى بُزُرْجِمِهْر، وكتاب صور الوجوه لتنكلوس، وكذلك يجدر بنا أن نشير إلى أن كتاب المَجَسْطي نقل في أيام الرشيد.

وإنا نلخص لك هنا ما لاحظه المرحوم جورجي بك زيدان في أمر النقل، من أن العرب، مع كثرة ما نقلوه عن اليونان، لم يتعرضوا لشيء من كتبهم التاريخية أو الأدبية أو الشعر، مع أنهم نقلوا ما يقابلها عند الفرس والهنود، فقد نقلوا جملة صالحة من تاريخ الفرس وأخبار ملوكهم، وترجموا الشاهنامة، ولكنهم لم ينقلوا تاريخ هيرودوتس ولا جغرافية إسترابون ولا إلياذة هوميروس ولا أوديسته، وسبب ذلك أن أكثر ما بعث المسلمين على النقل رغبتهم في الفلسفة والطب والنجوم والمنطق (1).

ولا يُستخَفُّ بما اقتضاه ذلك النقل عن أشهر أمم الأرض في ذلك العصر من التأثير في الآداب الاجتماعية والآراء العامة، ولا سيما ما نقل عن الفارسية؛ لأن معظمه في الأدب والتاريخ، فدخل الآداب العربية كثير من آداب الفرس الساسانية وأفكارهم، اقتبسها العرب من الكتب التي نقلت عنهم، ولم يبق منها إلا ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، ونُتَف متفرقة في بعض الكتب، وقد درس في هذا الموضوع المُتَشَرِّق «إينواسترانشتيف» الروسي، ووضع فيه كتابًا طُبع في بطرسبرج سنة ١٩٠٩م.

على أنا نلاحظ أن تأثير هذا النقل عن الفرس لا يزال قائمًا إلى الآن في بعض الكتب العربية التي وضعت في عصور قريبة من عصر المأمون، نذكر منها على طريق التمثيل: كتاب «عيون الأخبار» لابن قتيبة، و«التاج»

المنسوب للجاحظ، فعلى هذه المنقولات وأمثالها بنى المسلمون ما ألَّفوه في هذه العلوم أثناء تمديُنهم غير ما اختبروه وأضافوا إليها من عند أنفسهم.

وإن المُطَّلع على ما جاء بالفهرست لابن النديم خاصًّا بتلك المنقولات يعلم، مع شديد الأسف، أن جلها قد ضاع، على أنه كان للقليل الباقي منها أثره الفعَّال في نهضة أوروبا، وأهم ما بقي من ذلك التراث القيِّم هو كتاب المَجَسْطي لبطليموس، ترجمه الحجاج بن يوسف، وكتاب السياسة في تدبير الرياسة، ترجمه يوحنا بن البطريق، وبعض آثار لقسطا بن لوقا البعلبكي وغيرها.

(٣) العلوم القرآنية واللغوية والفقهية

كان المؤرخون القدماء يقولون في العلوم القرآنية: إنه قد تفرع عن القرآن نحو ثلاثمائة علم. ونحن نُحيلك على أمثال «مفتاح السعادة» لأحمد بن مصطفى، المعروف بطاش كبرى زاده، المطبوع بمطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد، ومقدمة ابن خلدون، و«مفاتيح العلوم» وغيرها. وأما النحاة وطبقاتهم واللغة وما دخلها من الألفاظ المستحدثة في العصر العباسي، فأمامك أمثال «شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل» لشهاب الدين الخفاجي، «ودرة الغواص» للحريري، وكتاب «المعرب من الكلام الأعجمي» لأبي منصور الجواليقي المتوفَّى في منتصف القرن السادس، وطُبع في ليبسك سنة ١٨٩٧م، وكتاب «طبقات النجاة» المعروف بـ«نزهة الألباء في طبقات الأدباء» لأبي البركات عبد الرحمن بن محمد الأنباري، وغيرها مما لا يقع تحت حصر.

وحسبنا أن نقول لك: إنه لم يكن في الجاهلية ولا في صدر الإسلام ذلك التراث العظيم من الألفاظ الطبية وأسماء الأدوية والجراحة وأسماء الأمراض والاصطلاحات الفلسفية وغير ذلك مما وُضع في العصر العباسي خاصة، أمثال قولهم: صيدلية، وتشريح، ونبض، وهضم، ومبردات، وقابض، ومسهل، وتشنُّج، وذات الرئة، وبنج، والهيولى، والقاموس، والقانون، إلى مئات الألفاظ من أمثال ذلك النوع الذي تجده في مظانِّه ولا نرى حاجة بنا إلى الاستطراد فيه.

ويجدر بنا هنا أن نشير إلى أثر من أجل الآثار الاقتصادية للدولة الإسلامية في بداية العصر العباسي، ويُمكن النظر إليه كما ينظر الإسكتلنديون إلى كتاب «جون سنكلر» عن تاريخهم الاقتصادي، وهذا الأثر القيم الخالد الذي نظم جباية الدولة أجمل تنظيم وأدقه هو كتاب «الخراج» للفقيه الأكبر أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري، صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان.

هوامش

(١) ويرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار «أنه يمكن إرجاع ذلك إلى سبب يراه أهم؛ وهو أن الراحلين من اليونان أيام الاضطهاد إلى حرَّان لم يكونوا أدباء ولا مؤرخين، وإنما كانوا فلاسفة وأطباء؛ فأسسوا في تلك البلاد مدرستهم، وأخَذ أهلُ البلاد عنهم ما يعرفون. فالأدب والتاريخ والجغرافيا لم يهاجرن إلى البلاد التي أخذ عنها العرب، وإنما هاجر الطب والفلسفة والهندسة والرياضة».

الفصل العاشر

الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس

(١) توطئة

أسلفنا لك القول في الحالة الأدبية في عصر بني أمية التي كانت في الواقع، إلى جانب ما بيَّناه لك من اختلافها عن العصر الجاهلي، قريبة في جملتها من غضاضة البدو وخشونة المدر، فلم تتسع لها الأغراض ولم تنفرج لها الجوانب إلا بقدر ما تنطبق عليه جزيرة العرب وبادية الشام من الأفكار والأخيلة، وما تُوحي به غياض دمشق ونَبَرات معبدٍ من صفاء الفكر ووضوحه، وجلاء المعنى واقترابه، لا يبالي القومُ الإمعانَ في الآراء البعيدة والأفكار الدقيقة، وإنما كان همهم، كما يقول الرواة، أن تجود ألفاظهم، وتجلَّ تراكيبهم.

وفي الحقيقة أنهم قد اقتعدوا في ذلك من البلاغة ذروتها، وبلغوا من الجزالة غايتها، فكان الرجل منهم يضع لسانه حيث أراد ومتى شاء، وحسبك أن تنظر إلى ما جاء به زياد وعبد الملك والحجاج، وما أرسله جرير والأخطل والفرزدق؛ لتعرف أين كان القوم من البلاغة، وكيف تملكوا أعنتها في أيديهم، فلما جاءت دولة العباسيين وقامت أركانها على سواعد العجم، ودلف إليها السُّريان واليهود والفرس، وضمتهم الدولة إلى أحضانها، وأفرجت لهم بين ذراعيها، وأنزلتهم في كثير من أمور الدولة وشئونها، وأجرت عليهم من الأرزاق والخيرات، وتقدموا لها بتراث آبائهم

وعصارة قرائح علمائهم، وحولوا ميراثهم إلى ميراثها؛ أفادت لغة العرب، وامتزجت المدنية الساميَّة بالآرية، واتسعت دائرة المعارف، وتشعبت أغراض اللغة، وشمَّر كلُّ ذي فضل في تدوين العلوم واستنباط أحكامها، ووضع الفنون واصطلاحاتها، وترتيب الدواوين ومراسيمها، وترجموا كتب الحكمة والمنطق، وازدهرت الآداب ازدهار الفتاء والقوة، فانتظمت رخاء الدنيا وسعادة الإنسان، وازَّينتْ بالحجج الحكمية والبراهين العقلية، وتولَّى كِبرُ ذلك بشار وابن المقفع وأبو نواس وأضرابهم، وأدخلوا إليها الجديد عن طريق المجاز والقياس والاشتقاق، ولم يتحرَّجوا من استعمال الألفاظ الأعجمية في أسماء الألوان والآنية والفرش، وتأنَّقوا في صوغ العبارات وإحكامها، حتى مال بعضهم إلى السجع والازدواج، ومن أمثلة ذلك ما كتبه أبو شراعة إلى سعيد بن مسلم إذ يقول: «أستَنسِئُ الله أجلَك، وأستعيذه من الآفات لك، وأستعينه على شكر ما وهب من النعمة فيك؛ إنه لذلك وليٌّ، وبه مليٌّ. أتاني غلامك المليح قده، السعيد بملكك جدُّه، بكتاب قرأته، غير مستكره اللفظ ولا مُزوَّرٍ عن القصد، ينطق بحكمتك، ويُبينُ عن فضلك».

وجملة القول إن اللغة قد تجدَّد إهابُها، وانفرجت شعابُها، ونوَّعت أساليبُها بما دخل عليها من نعيم الدولة وترف الحضارة، وما احتوته من العلوم والفنون، حتى كانت سيدة لغات العالم جميعًا.

(٢) الخطابة والخطباء

كانت الداعية إلى الخطابة في العصر العباسي قوية متوافرة بليغة، كانت قوية لأن طبيعة الانقلابات السياسية الخطيرة، والدعوات المذهبية الحادة،

والثورات الاجتماعية العنيفة من شأنها خلق مجالات التكلم، وتقوية الملكات الخطابية وتنميتها وزيادة ثروتها، والعمل على صقلها وبلاغتها، وكانت متوافرة لتعدد موضوعاتها وتشعب مناحيها، ولانكباب الدعاة والنفعيين عليها لانتهاز أمثال تلك المواقف، وكانت بليغة لقرب العصر العباسي من عصر البلاغة الإسلامية الأموية من ناحية الحرارة والتشيع إلى بني العباس، وقوة المحاجَّة في إنكار ما انتهكه الأُمويون من حُرمات الدين، ولتعدُّد أسباب التفاضل بين آل العباس والعلويين.

وإن نظرة تحليلية إلى خطبة المنصور التي خطبها حينما أخذ عبد الله بن الحسن وإخوته والنفر الذين كانوا معه من أهل بيته، تعزز قولنا وتؤيد حكمنا، قال: يا أهل خراسان، أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دولتنا، ولو بايعتم غيرنا لم تبايعوا من هو خير منا، وإن أهل بيتي هؤلاء من ولد علي ابن أبي طالب تركناهم، والله الذي لا إله إلا هو، والخلافةَ فلم نعرض لهم فيها بقليل لا وبكثير، فقام فيها علي بن أبي طالب فتلطَّخ وحكم عليه الحكمانِ، فافترقت عنه الأمة، واختلفت عليه الكلمة، ثم وثبت عليه شيعته وأنصاره وأصحابه وبطانته وثقاته فقتلوه، ثم قام من بعده الحسن ابن علي، فوالله ما كان فيها برجل! قد عُرِضتْ عليه الأموال فقبلها، فدسَّ إليه معاوية: إني أجعلك ولي عهدي من بعدي، فخدَعه فانسلخ له مما كان فيه وسلَّمه إليه، فأقبل على النساء يتزوَّج في كل يوم واحدة فيطلقها غدًا، فلم يزل على ذلك حتى مات على فراشه، ثم قام من بعده الحسين بن علي فخدعه أهل العراق وأهل الكوفة، أهل الشقاق والنفاق والإغراق في الفتن، أهل هذه المدرة السوداء - وأشار إلى الكوفة - فوالله ما هي بحرب

فأُحاربها، ولا سلم فأُسالمها، فرَّق الله بيني وبينها، فخذلوه وأسلموه حتى قتل، ثم قام من بعده زيد بن علي فخدعه أهل الكوفة وغرُّوه، فلما أخرجوه وأظهروه أسلموه، وكان قد أتى محمد بن علي فناشده في الخروج، وسأله ألا يقبل أقاويل أهل الكوفة وقال له: إنا نجد في بعض علمنا أن بعض أهل بيتنا يصلب بالكوفة، وأنا أخاف أن تكون ذلك المصلوب، وناشده عمي داود بن علي وحذره غدر أهل الكوفة، فلم يقبل وتمَّ على خروجه؛ فقُتل وصُلب بالكُناسة[1]، ثم وثَب علينا بنو أمية فأماتوا شرفنا وأذلوا عزنا، والله ما كانت لهم عندنا ترةٌ يطلبونها، وما كان ذلك كله إلا فيهم، وبسبب خروجهم عليهم، فنفونا من البلاد، فصرنا مرة بالطائف، ومرة بالشام، ومرة بالشراة حتى ابتعثكم الله لنا شيعة وأنصارًا، فأحيا شرفنا وعزَّنا بكم أهل خراسان، ودمغ بحقكم أهلَ الباطل، وأظهر حقنا، وأصار إلينا ميراثنا عن نبينا ﷺ، فقرَّ الحق مقره، وأظهر مناره، وأعزَّ أنصاره، وقُطع دابر القوم الذين ظلموا، والحمد لله رب العالمين، فلما استقرت الأمورَ فينا على قرارها من فضل الله فيها، وحكمه العادل لنا؛ وثبوا علينا ظلمًا وحسدًا منهم لنا، وبغيًا لما فضلنا الله به عليهم وأكرمنا به من خلافته وميراث نبيه ﷺ.

جهلًا عليَّ وجُبنًا عن عدوِّهم لبئست الخَلَّتان الجهل والجبن

فإني، والله يا أهل خراسان، ما أتيتُ من هذا الأمر ما أتيتُ بجهالة؛ بلغني عنهم بعض السقم والتعرُّم، وقد دسست لهم رجلًا فقلتُ: قُم يا فلان، قم يا فلان، فخذ معك من المال كذا، وحذوتُ لهم مثالًا يعملون عليه، فخرجوا حتى أتوهم بالمدينة فدسُّوا إليهم تلك الأموال، فوالله ما

بقي منهم شيخ ولا شاب ولا صغير ولا كبير إلا بايعهم بيعة استحللتُ بها دماءهم وأموالهم، وحلّت لي عند ذلك بنقضهم بيعتي، وطلبهم الفتنة، والتماسهم الخروج عليّ، فلا يرون أني أتيتُ ذلك على غير يقين. ثم نزل وهو يتلو على درج المنبر هذه الآية: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾.

ولقد يُلاحظ على الخطابة العباسية اتِّسامُها بطابع النعرة الدينية لمباهاتهم بصلتهم من النبي، كما يُلاحظ عليها اللغة «الأتوقراطية» التي لا تختلف في شيء عن لغة باباوات رومة في العصور الوسطى، ولغة الملوك الذين يدينون بنظرية «حقوق الملك المقدسة»، وأنهم ورثة الله في أرضه ومُمثِّلوه بين خلقه.

خطبة للمنصور الخليفة العباسي

خطب في مكة فقال:

أيها الناس، إنما أنا سطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله أعمل فيه بمشيئته وإرادته، وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قُفلًا إن شاء أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني، فارغبوا إلى الله وسلُوه في هذا اليوم الشريف الذي وهَب لكم من فضله ما أعلمكم به في كتابه إذ يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ أن يوفقني للرشاد والصواب، وأن يلهمني الرأفة بكم، والإحسان إليكم. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

خطبة للخليفة المهدي

الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه، ورضِيَ به من خلقه، أحمده على آلائه،

وأُمجِّده لبلائه، وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه توكلَ راضٍ بقضائه وصابرٍ لبلائه. أوصيكم، عباد الله، بتقوى الله؛ فإن الاقتصار عليها سلامة، والترك لها ندامة، وأحثكم على إجلال عظمته، وتوقير كبريائه وقدرته، والانتهاء إلى ما يقرب من رحمته، وينجي من سخطه، ويُنال به ما لديه من كريم الثواب، وجزيل المآب. فاجتنبوا ما خوفكم الله من شديد العقاب، وأليم العذاب، ووعيد الحساب، يوم تُوقفون بين يدي الجبار، وتُعرضُون فيه على النار، ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾، ﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾؛ فإن الدنيا دار غرور وبلاء وشرور واضمحلال، وزوال وتقلب وانتقال، قد أفنت من كان قبلكم، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم، مَن ركَن إليها صرعته، ومن وثق بها خانته، ومن أمَّلها كذَّبته، ومن رجاها خذلته، عزُّها ذلٌّ، وغناها فقر، والسعيد من تركها، والشقي من آثرها، والمغبون فيها من باع حظه من دار آخرته بها. فالله الله عبادَ الله، والتوبة مقبولة، والرحمة مبسوطة، وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يُؤخذ بالكَظَم، وتندموا فلا تنالون الندم يومَ حسرة وتأسف وكآبة وتلهُّف. يوم ليس كالأيام، وموقف ضنك المقام.

خطبة لهارون الرشيد

الحمد لله الذي نحمده على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصره على أعدائه، ونؤمن به حقًّا، ونتوكل عليه مُفوِّضين إليه. أوصيكم عباد الله بتقوى

الله؛ فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزًا بالجنة ونجاة من النار، وأُحذِّركم يومًا تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاقي ويوم التنادي، يوم لا يُستعتب من سيئة ولا يُزداد في حسنة، ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾. حصِّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، وإياكم والأمانيَّ؛ فقد غرَّت وأرْدَت وأوبقت كثيرًا حتى أكذبتهم مناياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون، فرَغِب ربكم عن الأمثال والوعد، وقدَّم إليكم الوعيد، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي جيلًا فجيلًا، وعهدتم الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم، ومن بين أظهركم، لا تدفعون عنهم ولا تحولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت بهم الأسباب، فأسلَمتهم إلى أعمالهم عند الموقف والحساب: ﴿ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾.

وإنَّ نظرةً عَجلَى إلى النُّخب الصغيرة التي اخترناها لك عن المنصور والمهدي والرشيد تعطيك فكرة صحيحة؛ بأنا لم نعدُ لباب الصواب فيما ذهبنا إليه من «أتوقراطيتها» و«بابويتها» في طبيعة منحاها، وطلاوتها وبلاغتها في مبناها.

***

على أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوة التي كانت عليها في صدر تلك الدولة حينما استقرت ورسخَت، إذ فترت عند ذلك الدواعي، وهدأت

الدوافع، وأخذت حالتها في الاضمحلال لاشتداد اختلاط العرب بالأعجام، ولأن الشخصيات البارزة في الدولة كانت، في الغالب، من الفرس وغيرهم من الموالي الذين لم تنجرد ألسنتهم بالخطابة لما يصيبها أحيانًا من لكنة العي، وحصر العجمة وإن سمَت معلوماتهم، وارتقت في البلاغة أساليبهم.

وربما كان من المعقول أن نقول: إن الخطابة في العصر العباسي كانت بوجه عام أقل منها في العصر الأموي من ناحية البلاغة والأسلوب، مع وجود بعض خطباء مصاقع لا يقلون عن إخوانهم الأمويين بلاغة واقتدارًا، بيد أنها كانت متعددة الأبواب؛ لتشعب ما بيَّناه لك من الوجوه والمناحي.

(٣) الكتابة

جرت الكتابة في العهد الأول من عصر العباسيين على ما كانت عليه عند بني أمية من جودة اللفظ، ومتانة الأسلوب، وجلاء المعنى، ووضوح القصد وبساطته، فلم يكن القوم ليمعنوا في التصوُّر والتفكير، أو ينظروا إلى السماء فيستوحوها، أو إلى الطبيعة فيستنطقوها، أو يستشفُّوا ما وراء العالم، فإن الأفكار كانت لا تزال سهلة يرمون فيها عن حاضر البديهة وعفو الخاطر، فلم يشاركوا الحكماء في تفكيرهم، ولا المناطقة في حججهم، إذا استثنينا نفرًا قليلًا أمثال ابن المقفع، وإنما كانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيت بديع، أو مثل سائر، أو حكمة رائعة، أو فكرة سامية، أو معنًى يصل إلى القلب بلا استئذان، وأوغلُوا في ذلك حتى صاروا فصحاء الناس وأمراء البيان، فكان الأديب منهم يرسل الرسالة أمام مقصده، فتعمل في النفوس ما لا تعمله الأسنَّة والرماح، وناهيك بما كانت تفعله تلك الرسائل في نفوس القوم.

فلما حَفَلَتْ بغداد، وأقبلت الدنيا، واتَّسع السلطان وامتدت أطرافه، وضمت الدولة إلى أحضانها أبناء الفرس والسُّريان، وكانوا يحملون تراث آبائهم وطُرف علمائهم، وأوسع الخلائف رحابَهم لكل ذي فضل من رجال الدولة، وعرفوا للعلم مَقامه فرفعوه، وللأدب صولته فأكرموه، وقربوا العلماء والأدباء، وعقدوا مجالس للمناظرة والمنادمة، كما سنبين لك، وأكبَّ الناس على العلم والتأليف والترجمة، وتكشَّف كل ذلك عن علوم وفنون لا عهد للعربية بها، فنقلوا إليها الطب والسياسة والحكمة والفلك والمنطق والتنجيم، وألَّف المسلمون في الفقه والنحو والحديث والتفسير، كان لكل ذلك أثره في أخيلة الكُتَّاب، وأَسَلات الأقلام، ووحي القرائح، فتعددت الأغراض، ونُوِّعت الأساليب، ومال الكتاب إلى السهولة في العبارة، والتأنق في اللفظ، والجودة في الرصف، وأطالوا في المقدمات، ونوعوا البدء والختام والألقاب والدعاء، ومالوا إلى الغلو والمبالغة، وهاك مثلًا ما كتب ابن سيابة إلى يحيى بن خالد من رسالة يقول فيها: «للأصيد الجواد، الواري الزناد، الماجد الأجداد، الوزير الفاضل، الأشم البازل، اللباب الحُلاحل، من المُستكين المستجير، البائس الضرير، فإني أحمد الله ذا العزة القدير، إليك وإلى الصغير والكبير، بالرحمة العامة، والبركة التامة. أما بعد، فاغنم واسلم واعلم، إن كنت تعلم، أن من يَرحم يُرحم، ومن يَحرم يُحرم، ومن يُحسن يَغنم، ومن يصنع المعروف لا يعدَم، قد سبق إليَّ تغضبُّك عليَّ، واطِّراحك لي، وغفلتُك عني بما لا أقوم له ولا أقعد، ولا أنتبه ولا أرقد، فلست بحيٍّ صحيح ولا بميت مستريح؛ فررتُ بعدَ الله منك إليك، وتحمَّلت بك عليك ...».

أما الإطناب في الكتابة، فكان صفة غالبة في كل ما شمل بيعة أو عهدًا أو احتجاجًا أو انتصارًا، أو تقريرًا لمذهب أو استهواء، أو دفعًا لشبهة، أو طلبًا لنعمة، أو ما يقوم نضالًا، أو ما يدعو نزالًا. وستجد طرفًا من رسائل القوم في ذلك العصر الزاهي الزاهر في باب المنثور بالكتاب الثاني من المجلد الثاني.

وقد بالغوا في تمداح ممدوحهم وذم مذمومهم، وحسبك من ذلك أن ترى ما دار بين المنصور العباسي والنفس الزكية؛ فقد جاء مما كتبه الأول قوله: «أما بعد، فقد أتاني كتابك وبلغني كلامك، فإذا جُلُّ فخرك بالنساء؛ لتُضلَّ به الجفاة والغوغاء، ولم يجعل الله النساء كالعمومة، ولا الآباء كالعصبة والأولياء، وقد جعل العمَّ أبًا، وبدأ به على الوالد الأدنى، فقال جل ثناؤه عن نبيه عليه السلام: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾، ولقد علمتَ أن الله تبارك وتعالى بعث محمدًا ﷺ وعمومته أربعة، فأجابه اثنان أحدهما أبي، وكفر به اثنان أحدهما أبوك. فأمَّا ما ذكرت من النساء وقراباتهن، فلو أُعطين على قرب الأنساب وحق الأحساب لكان الخير كله لآمنة بنت وهب، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه ...».

غير أن ذلك لم يكن ليمنع أن الميل إلى الإيجاز له في نفوس القوم مقامه، وفي قلوب البلغاء عزُّه وسلطانه، لا سيما ما كان من قبيل التوقيع من أمير أو وزير أو ذي جاه وسلطان، فقد رُفع إلى المنصور شكاةٌ من أهل الكوفة لاعوجاج في عاملهم، فوقَّع عليها: «كيفما تكونوا يولَّ عليكم»، وكتب جعفر إلى عامل شُكي له منه: «قد كثر شاكوك وقلَّ شاكروك، فإما اعتدلت وإما اعتزلت».

وقد أجمع الرواة أن الحال قد بقيت على ذلك من المتانة وحسن الإشارة، ولطف المدخل، وفراهة المعنى، وحسن الابتداء، حتى خلف من بعدهم خلفٌ ضعفت فيهم ملكة اللغة، وأعوزهم البيان، فمالوا إلى الألفاظ وصناعتها، والأسجاع «وزخرفتها»، وبقيت الكتابة تتقلب في أكفهم وتدور حول نفسها حتى مال رأسها مع رأس العباسيين في القرن السابع الهجري.

(٤) مجالس الخلفاء والمناظرة

للخلفاء العباسيين - بحكم طبيعة دعوتهم السياسية واستفحال أمر المدنية في أيامهم - مجالسُ حافلةٌ بالأدباء والشعراء والمُغنين والمُنادمين قد أُترعت بذكرها كتب الآداب، واستوعَبَ الشيء الكثير منها أبو الفرج الأصفهاني في أغانيه.

وكانوا يُجلُّون العلماء كما بيَّنا لك في موقف الرشيد مع أبي معاوية الضرير، ويعتنون بالشعر واللغة، ويحرصون على تعليم أولادهم بوساطة نخبة من رجالات عصرهم، فالمنصور ضم الشرقي بن القطامي إلى ابنه المهدي، وأوصاه أن يعلمه أخبار العرب ومكارم الأخلاق وقراءة الأشعار، والرشيد عهد بتعليم ابنه الأمين إلى الأحمر النحوي ثم الكسائي، وعهد بتأديب المأمون إلى اليزيدي وسيبويه وغيرهما، وللرشيد وصية يقال إنه أوصى بها الأحمرَ حينما عهِد إليه بتأديب الأمين، ونحن نثبتها هنا لتقف منها على نوع التربية التي كان يتطلبها خلفاء ذلك العصر لأبنائهم، ولأنها تدل في الوقت نفسه على مبلغ التحول الذي وصلت إليه المدنية العربية في العصر العباسي، وكيف استفادت من نظم اليونان والفرس وغيرهم ممن وقف العرب على آرائهم ومؤلفاتهم.

أما الوصية فهي:

يا أحمر، إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة، وطاعته لك واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآن وعرفه الأخبار، وروِّه الأشعار، وعلِّمه السنن، وبصِّره بمواقع الكلام وبدئه، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته، وخذه بتعظيم مشايخ بني هاشم إذا دخلوا عليه، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه، ولا تَمُرَّنَّ بك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها، من غير أن تُحزنه فتُميت ذهنه، ولا تُمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويألفه، وقوِّمه ما استطعت بالقرب والملاينة، فإن أباهما؛ فعليك بالشدة والغلظة.

وكانوا يعنون بالمسائل اللغوية واللفظية عناية عظيمة، كما كانوا يعنون أيّما عناية بحفظ الأشعار وروايتها، ويعتبرون عدم حفظها مصيبة وكارثة، فقد روى الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: لما مات جعفر المنصور بن الأكبر، مشى المنصور في جنازته من المدينة إلى مقابر قريش ومشى الناس أجمعون معه حتى دفنه، ثم انصرف إلى قصره، ثم أقبل على الربيع فقال: يا ربيع، انظر مَن في أهلي ينشدني:

أمن المنون وريبها تتوجَّع

حتى أتسلَّى بها عن مصيبتي، قال الربيع: فخرجت إلى بني هاشم وهم بأجمعهم حضور، فسألتهم عنها، فلم يكن فيهم أحد يحفظها، فرجعت فأخبرته فقال: والله لمصيبتي بأهل بيتي ألا يكون فيهم أحد يحفظ هذا لقلة رغبتهم في الأدب، أعظمُ وأشدُّ عليَّ من مصيبتي بابني، ثم قال: انظر هل في القواد والعوام من الجند من يعرفها، فإني أحبُّ أن أسمعها من إنسان ينشدها.

فخرجتُ فاعترضتُ الناس فلم أجد أحدًا ينشدها إلا شيخًا كبيرًا مُؤدبًا قد انصرف من موضع تأديبه، فسألته: هل تحفظ شيئًا من الشعر؟ فقال: نعم، شعر أبي ذؤيب، فقلت: أنشدني. فابتدأ هذه القصيدة العينية، فقلت له: أنت بغيتي، ثم أوصلته إلى المنصور، فاستنشده إياها، ثم أجازه بمائة درهم.

***

أما التحول العظيم الذي حصل في أبهاء «صالونات» الخلفاء الخاصة بالمنادمة، فالحديث عنه يطول، وحسبك في ذلك ما يدلي به إسحاق بن إبراهيم، أحد المعاصرين العباسيين، فإنه يحدثك بما ينقع الغُلَّة؛ إذ قد سئل عن أحوال الأمويين في الشراب واللهو فتكلم بإيجاز عن حالتهم، وسئل عن العباسيين فوصف وأجاد، وصور وأفاد، قال:

أما معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد، فكان بينهم وبين الندماء ستار، وكان لا يظهر أحد من الندماء على ما يفعله الخليفة إذا طرب للمَغْنَى والتذَّه، حتى ينقلب ويمشي ويحرك كتفيه ويرقص ويتجرد حيث لا يراه إلا خواصُّ جواريه، إلا أنه كان إذا ارتفع من خلف الستار صوت أو نعيرُ طربٍ أو رقصٌ أو حركة بزفير تُجاوز المقدار، قال صاحب الستار: حسبُك ياً جارية كُفِّي! انتهي! أقصري! يُوهم الندماء أن الفاعل لذلك بعض الجواري، فأما الباقون من خلَفاء بني أمية فلم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ويتجردوا ويحضروا عُراة بحضرة الخُلعاء والمُغنِّين، ومع ذلك لم يكن أحد منهم في مثل حال يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد في المجون والرفث بحضرة الندماء والتجرُّد ما يُباليان ما صنَعا.

قلت: فعمر بن عبد العزيز؟ قال: ما طنَّ في سمعه حرف غناء منذ أفضت الخلافة إليه إلى أن فارق الدنيا، فأما قبلها، وهو أمير المدينة، فكان يسمع الغناء ولا يَظهَر منه إلا الأمر الجميل، وكان ربما صفَّق بيديه، وربما تمرَّغ على فراشه وضرب برجليه وطرِب، فأما أن يخرج عن مقدار السرور إلى السخف فلا.

قلت: فخلفاؤنا (خلفاء بني العباس)؟ قال: كان أبو العباس في أول أيامه يظهر للندماء ثم احتجب عنهم بعد سنة - أشار بذلك عليه أسيد بن عبد الله الخزاعي - وكان يطرب ويبتهج ويصيح من وراء الستار: «أحسنت والله! أعِدْ هذا الصوت»، فيُعاد له مرارًا، فيقول في كلها: «أحسنتَ»، وكانت فيه فضيلة لا تجدها في أحد؛ كان لا يحضره نديم ولا مغنٍّ ولا مُلهٍ فينصرف إلا بصلة أو كُسوة قلَّت أو كثرت، وكان لا يؤخر إحسان محسن لغدٍ، ويقول: «العجب ممن يفرح إنسانًا فيتعجَّل السرور، ويجعل ثواب من سره تسويفًا وعِدَة.» فكان في كل يوم وليلة يقعد فيه لشغله لا ينصرف أحد ممن حضره إلا مسرورًا، ولم يكن هذا لعربيٍّ ولا عجميٍّ قبلَه، غير أنه يحكى عن بَهرامَ جُور ما يُقارب هذا.

فأما أبو جعفر المنصور فلم يكن يظهر لنديم قط، ولا رآه أحد يشرب غير الماء، وكان بينه وبين الستار عشرون ذراعًا، وبين الستار والندماء مثلها، فإذا غناه المغني فأطربه حرَّكت الستار بعض الجواري، فاطَّلع إليه الخادم صاحب الستار فيقول: قل له: «أحسنت! بارك الله فيك»، وربما أراد أن يُصفِّق بيديه، فيقوم عن مجلسه ويدخل بعض حجر نسائه فيكون ذاك هناك، وكان لا يثيب أحدًا من ندمائه وغيرهم درهمًا فيكون له رَسْمًا في

ديوان، ولم يُقطِع أحدًا ممن كان يضاف إلى مُلهية أو ضحك أو هزلٍ موضعَ قدم من الأرض، وكان يحفظ كل ما أعطى واحدًا منهم عشر سنين ويحسبه ويذكره له.

وكان المهدي في أول أمره يحتجب عن الندماء مُتشبِّهًا بالمنصور نحوًا من سنة، ثم ظهر لهم، فأشار عليهم أبو عون بأن يحتجب عنهم، فقال: «إليك عني يا جاهل! إنما اللذة في مشاهدة السرور، وفي الدنوِّ ممَّن سرَّني، فأما من وراء وراء فما خيرُها ولذَّتها؟ ولو لم يكن في الظهور للندماء والإخوان إلا أني أُعطيهم من السرور بمشاهدتي مثل الذي يعطونني من فوائدهم لجعلت لهم في ذلك حظًّا مُوفَّرًا.» وكان كثير العطايا يواترها، قل مَن حضَره إلا أغناه، وكان لين العريكة، سهل الشريعة، لذيذ المنادمة، قصير المناومة، لا يمل نديمًا ولا يتركه إلا عن ضرورة، قطيع الخنا، صبورًا على الجلوس، ضاحك السن، قليل الأذى والبذاء.

وكان الهادي شكس الأخلاق، صعب المرام، قليل الإغضاء، سيئ الظن، قل من توقَّاه وعرف أخلاقه إلا أغناه، وما كان شيء أبغض إليه من ابتدائه بسؤال، وكان يأمر للمغني بالمال الخطير الجزيل فيقول: «لا يعطيني بعدها شيئًا.» فيعطيه بعد أيام مثل تلك العطية.

ويقال: إنه قال يومًا وعنده ابن جامع وإبراهيم الموصلي ومعاذ بن الطبيب، وكان أول يوم دخل عليه معاذ، وكان حاذقًا بالأغاني عارفًا بها: مَن أطربني اليوم منكم فله حُكمُه! فغناه ابن جامع غناء لم يحركه، وكان إبراهيم قد فهم غرضه فغناه:

سليمى أجمَعَت بَيْنًا فأين تقولُها أيْنَا؟

فطرب حتى قام عن مجلسه ورفع صوته وقال: «أعِدْ بالله وبحياتي!» فأعاد فقال: «أنت صاحبي فاحتكِمْ»، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، حائط عبد الملك بن مروان وعينه الخرَّارة بالمدينة، قال: فدارت عيناه في رأسه حتى صارتا كأنهما جمرتان، ثم قال: «يا ابن اللخناء! أردت أن تَسمعَ العامةُ أنك أطربتني، وأني حكَّمتُك فأقطعتُك، أما والله لولا بادرة جهلك التي غلبت على صحيح عقلك وفكرك لضربتُ الذي فيه عيناك»، ثم سكت هنيهة، قال إبراهيم: فرأيتُ ملك الموت قائمًا بيني وبينه ينتظر أمره، ثم دعا إبراهيم الحراني فقال: «خذ بيد هذا الجاهل فأدخله بيت المال؛ فليأخذ منه ما شاء»، فأخذ الحراني بيدي حتى دخل بي بيت المال، فقال: كم تأخذ؟ فقلت: مائة بدرة، فقال: دعني أؤامره، قلت: فآخذ تسعين، قال: حتى أؤامره، قلت: فثمانين، قال: لا؛ فأبى إلا أن يؤامره، فعرفت غرضه فقلت له: آخذ سبعين لي، ولك ثلاثون، قال: شأنك، قال: فانصرفتُ بسبعين ألفًا، وانصرف ملك الموت عن الدار.

قال: وكان الرشيد في أخلاق أبي جعفر المنصور يتمثلها كلها إلا في العطايا والصلات والخلع، فإنه كان يقفو فعل أبي العباس والمهدي، ومَن خبَّرك أنه رآه قط وهو يشرب إلا الماء فكذبه، وكان لا يحضر شربه إلا خاص جواريه، وربما طرب للغناء فتحرك حركة بين الحركتين في القلة والكثرة.

وهو من بين خلفاء بني العباس من جعل للمغنين مراتب وطبقات، على نحو ما وضعهم أردشير بن بابك وأنوشِرْوان، فكان إبراهيم الموصلي وإسماعيل أبو القاسم بن جامع وزلزل منصور الضارب في الطبقة الأولى، وكان زلزل يضرب، ويُغنِّي هذان عليه.

والطبقة الثانية: سليم بن سلَّام «أبو عبيد الله الكوفي» وعمرو الغزال ومن أشبههما.

والطبقة الثالثة: أصحاب المعازف والصنج والطنابير، وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم، وكان إذا وصل واحدًا من الطبقة الأولى بالمال الكثير الخطير جعل لصاحبيه اللذين معه في الطبقة نصيبًا منه، وجعل للطبقتين اللتين تليانه منه أيضًا نصيبًا، وإذا وُصِل أحد من الطبقتين الأخريين بصلة لم يقبل واحد من الطبقة العليا منه درهمًا، ولا يجترئ أن يعرض ذلك عليه.

قال: فسأل الرشيد يومًا برصومًا الزامر، فقال له: يا إسحاق، ما تقول في ابن جامع؟ فحرك رأسه وقال: خمرُ قُطْرَبُّلَ[٢] يَعقِل الرِّجل ويُذهب العَقْل، قال: فما تقول في إبراهيم الموصلي؟ قال: بستان فيه خوخ وكمثرى وتفاح وشوك وخرنوب، قال: فما تقول في سُليم بن سلام؟ فقال: ما أحسن خضابه! قال: فما تقول في عمرو الغزَّال؟ قال: ما أحسن بنانه! قال: وكان منصور زلزل من أحسن وأحذق من برأ الله بالجس، فكان إذا جسَّ العود فلو سمعه الأحنفُ ومن تحالَمَ في دهره كله لم يملكْ أن يطرَبَ.

قال إبراهيم: فغنيت يومًا على ضربه فخطَّأني، فقلت لصاحب الستار: هو والله أخطأ، قال: فرفَع الستار ثم قال: يقول لك أمير المؤمنين: أنت والله أخطأت! فحمي زلزلٌ وقال: يا إبراهيم، تخطئني! فوالله ما فتح أحد من المُغنِّين فاه بغير لفظ إلا عرفت غرضه، فكيف أُخطَّأ وهذه حالي؟! فأدَّاها صاحب الستار، فقال الرشيد: قل له: صدقت، أنت كما وصفت نفسك، وكذب إبراهيمُ وأخطَأَ، قال إبراهيم: فغمَّني ذلك، فقلتُ لصاحب الستار:

أبلغ أمير المؤمنين سيدي ومولاي، أن بفارس رجلًا، يقال له سنيد، لم يخلق الله أضرب منه بعود، ولا أحسن مجسًّا، وإنْ بعث إليه أمير المؤمنين فحمله عرَف فضلَه، وتغنَّيت على ضربه، فإن زَلْزلاً[٣] يكايدني مكايدة القُصَّاص والقرَّادين، قال: فوجه الرشيد إلى الفارسي فحُمل على البريد، فأقلق ذلك زلزلًا وغمَّه، فلما قدِم الفارسي؛ أحضرنا وأخذنا مجالسنا وجاءوا بالعيدان قد سُوِّيت - وكذلك كان يفعل في مجلس الخلافة ليس يُدفَع إلى أحد عوده فيحتاج إلى أن يُحرِّكه؛ لأنها قد سُوِّيت وعُلِّقت مثالثُها مشاكِلة للزِّيَرة على الدقَّة والغلظ - قال: فلما وُضِع عودُ الفارسي في يديه نظر إليه منصور زلزل فأسفر وجهه وأشرق لونه، فضرَب وتغنَّى عليه إبراهيم، ثم قال صاحب الستار لزلزل: يا منصور، اضرِبْ! قال: فلما جسَّ العود ما تمالك الفارسي أن وثب من مجلسه بغير إذن حتى قبَّل رأس زلزل وأطرافه، وقال: مثلُك، جعلتُ فداك، لا يُمتهن ويُستعمل، مثلُك يُعبدُ، فعجب الرشيد من قوله، وعرف فضيلة زلزل على الفارسي، فأمر له بصلةٍ وردَّه إلى بلده.

وكان منصور زلزل من أسخى الناس وأكرمهم؛ نزل بين ظهراني قوم وقد كان يحل لهم أخذ الزكاة، فما مات حتى وجبت عليهم الزكاة.

وكان إسحاق برصومًا في الطبقة الثانية، قال: فطرب الرشيد يومًا لزَمْره، فقال له صاحب الستار: يا إسحاق، ازمُر على غناء ابن جامع، قال: لا أفعل، قال: يقول لك أمير المؤمنين ولا تفعل! قال: إن كنت أزمُرُ على الطبقة العليا رُفعتُ إليها، فأما أن أكون في الطبقة الثانية وأزمر على الأولى فلا أفعل، فقال الرشيد لصاحب الستار: ارفعه إلى الطبقة الأولى، فإذا قمتُ فادفع البساط الذي في مجلسهم إليه، فرفع إسحاق إلى الطبقة العالية

وأخذ البساط، وكان يساوي ألفي دينار، فلما حمله إلى منزله استبشرت به أمه وأخواته، وكانت أمه نبطية لكناء، فخرج برصومًا عن منزله لبعض حاجاته وجاء نساء جيرانه يهنئن أمه بما خُصَّ به دون أصحابه ويدعون لها، فأخذت سكينًا وجعلت تقطع لكل من دخل عليها قطعة من البساط حتى أتت على أكثره، فجاء برصومًا فإذا البساط قد تقسم بالسكاكين، فقال: ويلك ما صنعت؟! قالت: لم أدر، ظننتُ أنه كذا يقسم، فحدَّث الرشيد بذلك فضحك ووهب له آخر.

وزعم سعيد بن وهب أن إبراهيم الموصلي غنَّى أمير المؤمنين هارون صوتًا فكاد يطير طربًا، فاستعاد عامَّة ليله وقال: ما رأيت صوتًا يجمع السخاء والطرب وجودة الصنعة والخفةَ غير هذا الصوت، فأقبل إبراهيم فقال: يا أمير المؤمنين، لو وهب لك إنسان مائة ألف درهم أو لو وجدت مائة ألف درهم مطروحة، كنتَ أسرَّ بها أو بهذا الصوت؟ قال: والله لأنا أسرُّ بهذا الصوت مني بألف ألف وألف ألف، قال: فلو فقدت من بيت مالك مائة ألف كان أشد عليك، أو لو فقدتَ هذا الصوت وفاتك هذا السرور؟ قال: بل ألف ألف وألف ألف أهون عليَّ، قال: فلمَ لا تهب مائة ألف أو مائتي ألف لمن أتاك بشيءٍ فَقْدُ ألفي ألف أهون عليك منه؟ فأمر له بمائتي ألف درهم.

***

امتاز العصر العباسي بتقدم مجالس المناظرة وورنقها وتنظيمها وقيد المناقشات فيها، وقد يكون من المفيد إعطاؤك صورة صحيحة للمناظرة وعظمها، واهتمامهم بتزويق عبارتها، وطلاوة أساليبها، وبلاغة تراكيبها،

وملاحظة قوة الحجة فيها، بأن ننقل إليك مشاورة المهدي لأهل بيته، وهي - إن صحَّت - تعتبر أثرًا أدبيًّا له قيمته وخطره، وأثرًا سياسيًّا لمناقشات القوم السياسية، ولتضمنها خططًا ونصائح لا يزيد عليها إلا تلك النصائح التي تضمنها كتاب طاهر بن الحسين القائد المأموني لابنه عبد الله - وستراه في موضعه من باب المنثور بالكتاب الثالث في المجلد الثالث من هذا الكتاب - أما المشاورة فستجدها في الكتاب الثاني من المجلد الثاني.

(٥) الشعر

لا يُقدِّس العرب من علوم الحياة وفنونها شيئًا أكثر من تقديسهم الشعر الذي استودعوه أفكارهم وأخبارهم، وحفظوا به فخرهم ومناسبهم، وساقوا به الجيوش والجحافل، فدكَّت عروشًا وأبادت ممالك، وضمنوه من أخلاقهم وعاداتهم وشئون حياتهم ما جعله مكان فخرهم ومفزع أمرهم، فكنت تجد العربي يسمع البيت من الشعر فيترنح ترنح النشوان، ويثور حتى كأنه جبل نار، وكثيرًا ما سجدوا أمامه لمكانه من نفوسهم، وقد روى الأصمعي وغيره من ذلك شيئًا كثيرًا.

وقد بقيت للشعر هذه المكانة في كل عصوره العربية، ولم ينل منه أن دولة العباسيين قامت على سواعد الفرس، وحلوا منها مكان الصدور والحكام، فإن الخلفاء والسادة وجمهرة الأمراء والأدباء كانوا يحملون فوق أكتافهم رءوسًا عربية حفظوا فيها تراث آبائهم ومفاخر أجدادهم، وأقبلوا على الشعر وإنشاده، وكانوا هم أنفسهم يقرضون الشعر. وإليك ما جاء في عيون الأخبار عن المنصور قال: كان عمرو بن عبيد إذا رأى المنصور يطوف حول الكعبة في قرطين يقول: إن يرد الله بأمة محمد خيرًا يولِّ أمرَها

هذا الشاب من بني هاشم - وكان له صديقًا - فلما دخل عليه بعد الخلافة وكلَّمه وأراد الانصراف، قال: يا أبا عثمان، سَلْ حاجتك، قال: حاجتي ألا تبعث إليَّ حتى آتيك، وألا تعطيني حتى أسألك، ثم نهض فقال المنصور:

كلهم ماشي رُوَيد ... كلهم خاتل صيد

غير عمرو بن عُبيد

فلما مات عمرو رثاه المنصور فقال:

صلى الإله عليك من متوسِّد ... قبرًا مررت به على حران

قبر تضمن مؤمنًا متحنِّفًا ... صدق الإله ودان بالقرآن

وإذا الرجال تنازعوا في سُنة ... فصل الحديث بحكمة وبيان

فلَوَ انَّ هذا الدهر أبقى صالحًا ... أبقى لنا حيًّا أبا عثمان

ولقد أحضروا لأبنائهم المؤدبين يقفونهم على الشعر واستظهاره، وجلسوا للشعراء مجالس أثابوا فيها وأعطوا ووهبوا من المنح ما وهبوا؛ روى الفضل بن الربيع أن مروان بن أبي حفصة دخل على المهدي، بعد وفاة معن بن زائدة الشيباني، في جماعة من الشعراء فيهم سلم الخاسر وغيره، فأنشد مديحًا فيه، فقال له: ومن أنت؟ قال: شاعرُك يا أمير المؤمنين وعبدُك مروان بن أبي حفصة، فقال له المهدي: ألست القائل:

أقمنا باليمامة بعد مَعْن ... مُقامًا لا نريد به زوالا

وقلنا أين نرحل بعد مَعْن ... وقد ذهب النوالُ فلا نوالا

قد ذهب النوال فيما زعمت، فلم جئت تطلب نوالنا؟! لا شيء لك عندنا، جُرُّوا برجله. فجروا برجله حتى أُخرِج، فلما كان من العام المقبل تلطَّف حتى دخل مع الشعراء فمثَل بين يديه وأنشد:

طرقَتْك زائرةً فحَيِّ خيالَها ... بيضاء تخلط بالجمال دلالها

قـادت فـؤادك فاستقاد ومثلها　　　قـاد القلوب إلـى الصِّبا فأمالها

قال: فأنصت له الناس حتى بلغ قوله:

هل تطمسون من السماء نجومها　　　بـأكـفـكـم أو تسترون هلالها؟

أو تـجحدون مقالةً عن ربـكـم　　　جبـريـل بلَّغها النـبـي فقالها؟

شـهـدتْ مـن الأنفال آخرُ آية　　　بـتـراثـهم فأردتـمـو إبـطالهـا

قال: فرأيت المهدي قد زحف من صدر مُصلَّاه حتى صار على البساط إعجابًا بما سمع، ثم قال: كم هي؟ قال: مائة بيت. فأمر له بمائة ألف درهم.

هذه القصة وأمثالها وقعت لكثير من الأمراء والوزراء الذين عرفوا للشعر منزلته، فاستعانوا به على أغراضهم السياسية، كما كان الأمويون يستعينون به فيها، وحسبك أن نقول لك: إنهم استعملوه في المفاخرة، وفي إثارة العصبية واستحقاق الخلافة، وفي الهجاء والتحريض، فقد دخل سديف على عبد الله بن علي العباسي وعنده جماعة من بني أمية فأنشده قوله:

لا يـغـرَّنـك مـا تــرى مـن أناس　　　إن تـحـت الـضـلـوع داء دويًّـا

فضع الـسيـف وارفع السوط حتى　　　لا ترى فوق ظـهـرها أمـويًّـا

فأمر عبد الله فذهبت أرواحهم هباء.

وكثيرًا ما كانوا يستشفعون بالشعر والشعراء، ويحتالون به على قضاء حاجاتهم، ويقدمونه أمامهم لمخاطبة الملوك والأمراء عند الغضب، فقد رووا أن الرشيد عند رجوعه من حرب الروم أتاه كتاب، وهو في الطريق، من ملك الروم «نقفور» يفيد نقضَ الصلح الذي عقد معه، فهاب القوم إخبار الرشيد وامتنعوا عن مكاشفته، وقدموا لمكالمته من الشعراء الحجاجَ

بن يوسف التميمي وإسماعيلَ بن القاسم أبا العتاهية وغيرهما، فأنشده الحجاج بن يوسف:

نقض الذي أعطيته نقفورُ وعليه دائرة البوار تدور
أبشر أمير المؤمنين فإنه غُنمٌ أتاك به الإله كبير
فلقد تباشرت الرعية أن أتي بالنقض عنه وافدٌ وبشير
ورجَتْ يمينك أن تُعجِّل غزوة تشفي النفوس مكانُها مذكور
أعطاك جزيته وطأطأ خده حذر الصوارم والردى محذور
فأجرته من وقعها وكأنها بأكفنا شُعل الضرام تطير
وصرفت بالطول العساكر قافلًا عنه وجارك آمن مسرور
نقفور إنك حين تغدر أن نأى عنك الإمام لجاهل مغرور
أظننت حين غدرت أنك مفلت؟ هَبلتك أمك ما ظننتَ غرور
ألقاك حَيْنُك في زواخر بحره فطَمتْ عليك من الإمام بحور
إن الإمام على اقتسارك قادر قربت ديارك أم نأت بك دور
ليس الإمام وإن غفلنا غافلًا عما يسوس بحزمه ويدير
ملك تجرد للجهاد بنفسه فعدوُّه أبدًا به مقهور
يا من يريد رضا الإله بسعيه والله لا يخفى عليه ضمير
لا نصح ينفع من يغُشُّ إمامه والنصح من نصحائه مشكور
نُصحُ الإمام على الأنام فريضة ولأهلها كفارة وطهور

فكر الرشيد راجعًا في أشد محنة وأغلظ كلفة حتى أناخ بفنائه، فلم يبرح حتى رضي وبلغ ما أراد، فقال أبو العتاهية:

ألا نادت هرقلة بالخراب من الملك الموفق بالصواب

غـدا هارون يُـرعـد بالـمـنـايـا ويُـبـرق بالـمـذكِّرة القضاب
ورايات يـحـل الـنصر فـيهـا تـمـر كـأنـهـا قـطع السحاب
أمـيـر المؤمنين ظفرت فاسلم وأبـشـر بالـغـنـيمـة والإياب

وكان الشعراء يلعبون دورًا هامًّا في الحياة الحزبية، وحسبك أن تعلم أن للخلفاء شعراء اختصوا بهم كأبي دلامة، وحمَّاد عجرد، وبشار ابن برد، ومروان بن أبي حفصة، وسلم الخاسر، وأبي نواس، ومنصور النمري وغيرهم.

وللبرامكة شعراء أمثال: أبان بن عبد الحميد، وابن مناذر، والرقاشي وغيرهم، ولسائر الأمراء شعراء، وهناك شعراء لم يكتسبوا بالشعر كصالح بن عبد القدوس، وشعراء للشيعة كالسيد الحميري، وسليمان قتة، ودعبل، وشعراء لم يتحضروا كربيعة الرقي وكلثوم بن عمرو العتابي وغيرهم. وإنا نحيلك هنا إلى ما أثبتناه لك من منظوم العصر العباسي في الكتاب الثاني من المجلد الثاني.

وجماع المقال أن الشعر العباسي قد تضمن فنونًا عديدة، ولكنه لا يحتج به في اللغة كالأموي مثلًا؛ لأن النقدة في الشعر والأدب جعلوا حدَّهم بشارًا ولم يتعدوه؛ بسبب تفشي اللحن واستفحال اختلاط الأعجام بالعرب.

على أن الشعراء العباسيين قد تفننوا في أنواعه أيما تفنن من قول في المهاجاة إلى قول في الأخلاف، إلى مُلَح إلى تضرُّع إلى وصفٍ إلى هَجْو الخلفاء برضاهم إلى مدحهم.

وعلى الجملة فقد استعملوه في كل غرض من أغراض الحياة من مُفاخرة وخمريات وزهريات ورثاء، كما أن منهم من ذكر الوقائع العربية في شعره،

فأثرى الشعراء وأترفوا، وحسبك أن تعلم أن سلمًا الخاسر خلف ثروة مقدارها ٥٠٠٠٠ دينار، ١٥٠٠٠٠٠ درهم غير الضِّياع، ومثله مروان ابن أبي حفصة وغيرهما. وسكن الشعراء الآطام والقصور، واقتنوا الأنف الحسَّانة من الحدائق وشاهقات الدور، واستخدموا الجواري والغلمان، وأمعنوا في شهواتهم ولذاتهم، وتنعموا بحطام الدنيا ومرافقها، فسهُلت ألفاظُهم، ورقَّت طباعهم، وقل اقتضابهم، وحاولوا الخروج على الطريقة القديمة، وأرادوا أن يستبدلوا الخمر وساقيها من الدار وبانيها، وتقدم في ذلك النواسي يحمل علمهم فقال:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقد بالغ في ذلك حتى سجنه الخليفة وأخذ عليه ألا يذكر الخمر في شعره، فقال:

أَعِر شعرك الأطلال والمنزل القفرا فقد طالما أزرى به نعتك الخمرا
دعاني إلى نعت الطلول مسلَّط تضيق ذراعي أن أردَّ له أمرًا
فسمعًا أمير المؤمنين وطاعة وإن كنت قد جشَّمتني مركبًا وعْرا

ونهج كثير من الشعراء نهج أبي نواس وركبوا مركبه، وإن كان للطريقة القديمة محبوها حتى الآن.

***

هذا الترف الذي شمل القوم - يضاف إليه اختلاطهم بالأعاجم وما كان لهم في ذلك الوقت من حرية في التصور والتفكير - جعلهم يفتحون في اللغة العربية فتحًا جديدًا يتناولون فيه أفكار الفرس واليونان

فيدخلونها في أشعارهم وآثارهم، وتمتد أيديهم إلى كثير من اللفظ الأعجمي يصورون ما جاد به النعيم، وما استلزمته الحضارة، فيقول أبو نواس في ذلك:

وذات خـــدٍّ مُـــوردْ قُــوهــيَّــة المــتــجــردْ
تــأمَّــل الــعــين مــنــهــا مــحــاســنًــا لــيــس تــنــفــد
فــبــعــضــهــا قــد تــنــاهــى وبــعــضــهــا يــتــولــد
والــحــسن فــي كل عــضــو مــنــهــا مُــعــادٌ مُــردَّد

ولم يقفوا عند هذا، بل وصفوا مناظر الطبيعة ورغد العيش ونعيمه، وصحبة الإخوان، وغناء القيان، ومصايد الوحش والطير، ومجالس الأنس والسرور، وابتدعوا كثيرًا من المعاني الجديدة كقول بشار:

يا قوم أُذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانًا
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين توفي القلب ما كانا

وقال أبو تمام:

وإذا أراد الله نــشــر فــضــيــلــة طــويــت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طِيب عَرْف العُود

بقيت هنالك أمور جديرة بالاهتمام كان يصح أن نقف عندها قليلاً، فقد بالغوا في الوصف، وفتحوا باب القصص، وتغزلوا بالغلمان، ولكن المقام يضيق عن ذلك.

هوامش

(١) الكُناسة بالضَّمِّ: محلة بالكوفة.

(٢) قطربل - بالضم ثم السكون ثم فتح الراء، وباء موحدة مشددة مضمومة ولام: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر، وما زالت متنزهًا للبطالين وحانةً للخمارين، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. انظر: ياقوت في «قطربل».

(٣) كذا ضبطه صاحب القاموس «كفدفد»، وضبطه ابن خلكان «كهدهد».

الكتاب الثالث:

الأمين والمأمون

الفصل الأول

محمد الأمين

(١) توطئة

في التاريخ الأموي مأساة مروعة، وهي أن جند الوليد بن يزيد عبد الملك قتلوا خليفتهم وحزُّوا رأسه، وذهبوا به إلى يزيد فنصبه على رمح وطِيف به في دمشق!

كانت تلك المأساة المروعة نتيجة دعوة سياسية حادة على الخليفة الوليد الذي تُشبه حالته السياسية من جلِّ وجوهها حالة الأمين، فقد كان من ضحايا نظام ولاية العهد الثنائي؛ ذلك بأن والده يزيد بن عبد الملك أراد أن يجعله خليفة بعده، فاضطر إلى تولية أخيه هشام، ثم ابنه الصغير الوليد بعد هشام.

فحاول هشام أن يولي ابنه مسلمة بدل الوليد، كما حاول يزيد من قبل تولية ابنه الوليد، فلم يفلح هذا ولا ذاك، وكانت النتيجة المعقولة لخطتهما السياسية من محاولة كليهما خلع ولي العهد والبيعة لولده، أن انضم إلى كلٍّ بعض القواد والزعماء والأنصار تأييدًا له فيما يريد.

وكان هؤلاء القواد والزعماء والأنصار يصبحون موضع المقت والاضطهاد من ولي العهد المضطهد متى ولي الخلافة وصار الأمر إليه، فإذا ما اضطُهد الخليفة نفسه وحبطت خطته كان نصيب سيرته من الرواة نصيبِ الوليد بن يزيد، وهو نصيب محمد الأمين.

نريد أن نقول إرضاءً للعلم والتاريخ والمنطق إن الرواة إذا قالوا مثلًا: إن الوليد كان كافرًا أو كان مجموعة قبائح، أو أنه سلَّم يوسف الثقفي كلًّا من محمد وإبراهيم ابني إسماعيل المخزومي مُوثقين في عباءتين، وأن يوسف أقامهما للناس وجلدهما وعذبهما وأماتهما، أو قالوا: إنه حبس يزيد ابن هشام، وفرق بين رَوْح بن الوليد وبين امرأته، أو ذكروا أنه عذب خالد ابن عبد الله القسري سيد اليمن، وأنه سلمه للثقفي فنزع ثيابه وعذبه مرَّ العذاب حتى أماته، أو وصفوا منافسه يزيد بالنسك والورع، فإن من واجب المؤرخ المنصف المتحري للحقائق التاريخية، والراغب في النصفة العلمية، والمتمشي في أناة وتروٍّ وحكمة مع الافتراضات التحليلية، والخاضع لأحكام المنطق والحيدة والتعقل، أن ينظر بتحفظ وتحرز كبير إلى مثل تلك الروايات التي يوصف بها الخليفة المضطهد والمغلوب على أمره، وكل من انثلَّ عرشه وضاع ملكه، وختمت بالقتل أو الحرمان حياته.

على أنه يجدر بنا أن نتساءل قبل أن نقتحم موضوعنا في هدوء وسكون: ما هو الروح الذي يغلب على الرواة المعاصرين، والشعراء المعاصرين، والكتاب المعاصرين والمُحدِّثين المعاصرين؟ وما النهج الذي تسلكه الصحافة المعاصرة؟ أليس هو إلى حد غير قليل مُناصرة الحزب القوي أو الزعيم القوي مناصرة حارة قوية حادة، وقد لا تخلو من مبالغة في تمدُّحها بمحاسنه، وإغراق في زرايتها على خصمه بنقائصه.

فمهمة المؤرخ إذن - حين يعرض لحياة خليفة مضطهَد انتهت حياته بحزٍّ رأسه، مثل حياة الوليد بن يزيد الأموي، ومحمد الأمين العباسي، وحين يعرض لتحليل حياة خليفة منتصر، مثل حياة يزيد خصم الوليد

في العصر الأموي، وحياة عبد الله المأمون خصم محمد الأمين في العصر العباسي - ليست ميسورة مُعبَّدة؛ بل هي جد شائكة.

وقد يكون من الحصافة والنصفة العلمية أن يُعرض ما يرويه الرواة المعاصرون من مدح للغالب وانتقاص للمغلوب على بساط البحث التحليلي، ولسنا نرمى بذلك إلى أن تُرفض مقولاتهم، وتُنتقص - بلا حق - وجاهة رواياتهم، وإنما نوصي بالحيطة والاحتراس لا أكثر ولا أقل.

(٢) مولده

بعد هذه التوطئة الوجيزة التي لم نر نُدْحة عن إثباتها في هذا الموضع، نبدأ كلمتنا عن محمد الأمين من الناحية التحليلية لأخلاقه، أما ناحية النزاع الذي شجر بينه وبين أخيه المأمون، فلها موضعها التاريخي من كتابنا.

هو محمد الأمين بن هارون الرشيد، ولد سنة سبعين ومائة هجرية، وهي السنة التي استُخلف فيها والده الرشيد، وكان مولده بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بستة أشهر، وولد المأمون في الليلة التي استُخلف فيها والده.

وأم الأمين أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور؛ فهو هاشمي الأب والأم، وقيل: إن ذلك لم يتفق لخليفة عباسي غيره.

وإذ كان أخواله هاشميين ولهم في الدولة نفوذ قوي وكلمة مسموعة، فقد سعوا، فيما يحدثنا التاريخ، حين مدَّ جماعة من بني العباس أعناقهم إلى الخلافة، إلى أن يكون الأمر إلى ابن أختهم، وقد نجحوا.

سعى خال الأمين عيسى بن جعفر بن المنصور إلى الفضل بن يحيى الذي بعثه الرشيد على رأس جيش إلى خراسان، لمحاربة بعض الخارجين على

الخلافة، وتسكين الاضطراب في تلك النواحي، وقد كان التوفيق حليفه في ذلك الوجه، فقال عيسى للفضل: «أنشدك الله لما عملت في البيعة لابن أختي، فإنه ولدُك وخلافتُه لك»، فوعده الفضل أن يفعل، فلما كان الفضل بخراسان يُدِلُّ بها واتاه فيها من ظهور على الخارجين، وهو بعدُ من آل برمك وزراء الرشيد، وأصحاب السلطان العظيم في الدولة، بايَع لمحمد الأمين هو ومن معه من القواد والجند بعد أن فرق أموالاً عظيمة، وأعطى أعطيات كثيرة، وتغني بذلك شعراء العصر، أمثال أبان بن عبد الحميد اللاحقي والنمري وسلم الخاسر وغيرهم. ولبيان وجهة نظرهم في البيعة نقتطف لك شيئًا مما قاله سلم والنمري؛ قال سلم:

قد وفَّق الله الخليفة إذ بنى ... بيت الخليفة للهجان الأزهر
فهو الخليفة عن أبيه وجده ... شهدا عليه بمنظر وبمخبر
قد بايع الثقلان في مهد الهدى ... لمحمد ابن زبيدة ابنة جعفر

وقال النمري:

أمسَت بمرو على التوفيق قد صفَقتْ ... على يد الفضل أيدي العُجم والعرب
ببيعة لولي العهد أحكمها ... بالنصح منه وبالإشفاق والحدب
قد وكَّد الفضل عقدًا لا انتقاض له ... لمصطفى من بني العباس منتخب

فلما تناهى أمر البيعة إلى الرشيد ووجد نفسه أمام «الأمر الواقع»؛ إذ قد بايع لمحمد أهل المشرق، بايع له بولاية العهد، وكتب إلى الآفاق فبويع له في جميع الأمصار.

ومن هذا تعلم ما يصح أن يعتبر سرًّا في أن الأمين كان ولي عهد الرشيد دون أن يكون أكبر ولده سنًّا.

(٣) نشأته وأخلاقه

تقرأ ما سطره أمثال «كارليل» عن «كرومول» و«فردريك الأكبر»، وما كتبه «ترڤيان» عن «ماكولي» و«بُزْول» عن «جونسون» و«اللورد مورلي» عن «جلادستون»، وغيرهم من الكُتَّاب الذين يعرضون لكتابة تاريخ حياة الملوك أو الساسة أو العبقريين، فتلاحظ في جل كتبهم، وفي الدقيق المستوفَى منها على الأخص، أنهم يحفلون أيَّما احتفال، بقيد ملاحظاتهم عن تاريخ بطلهم في طفولته، وكيف كانت ثقافته في ميعة شبابه وطراوة إهابه، وما هي الأوابد والغرائب أيام كان حدثًا صغيرًا.

وقد لا تدهشك متانة «ماكولي» وقوة سبكه وارتفاعه إلى ذروة البلاغة في أساليبه، ولا يهولك كثرة ما حفظ ووفرة ما اطَّلع، إذا علمتَ، مثلًا، أنه وهو لم يعدُ السادسة أو السابعة كانت محفوظاته في طفولته تبشر بعبقريته في رجوليته، وكذلك يقال عن «شارلس دكنز» وسيع الاطلاع في صباه على جلِّ ما سُطِّر وكُتب، حتى صار في مقتبل حياته وقد ملك ناصية البلاغة، وتسنَّم الذروة في تعرُّف النفسيات وتحليل روح الطبقات كافة من بائسين مُعوزين إلى أشراف مُترفين، وكذلك يقال عن «سپنسر» الفيلسوف العظيم والمربي النابه الذي كان يحفل في مبدأ نشأته، وهو لم يعدُ العاشرة مثلًا، بالدويبات وغريب الهوام التي كانت على شاطئ النهر، فعكف على دراستها، فتولدت في نفسه صفات الجلد والأناة والمواظبة حتى أصبحنا نراه وهو في شيخوخته يُخرج للناسِ المعجزَ المطربَ في علم النفس وعلم الحياة وعلم الأخلاق وعلم التربية، وهكذا مما لا حد له ولا حصر.

كذلك يقال عن «جونسون» في صباه، وكيف كان يغالب المرض والمرض يغالبه، وكيف كانت أحاديثه في مطامعه، وكيف كان سحر بيانه وتدفقه في مجالسه، وكيف كان أبيًّا عيوفًا مُترفِّعًا أنوفًا، فرفض في شمم وإباء حذاءً جديدًا اشتراه له من لاحَظ تخرُّق حذائه وقصَر يده عن جديد ... إلى آخر ما يقيده كتاب العصر عن نشأة أبطالهم، ممَّا نُمسك القلم عن الاسترسال في إثبات شبيهه ومثيله، مما يُفيد في تعرُّف أحوالهم، ويساعد على تفهم حقيقة أمورهم؛ لأن القارئ إذا زامل الزعيم في طفولته وصباه، ووقف على عبثه وجده، وجلده أو تبرمه، وتعلمه أو تعرُّمه، ونشاطه أو خموله، ورزانته أو تبذله، ووقف كذلك على نقائصه وفضائله، وهو حدَثٌ بعدُ، يستطيع أن يفهم فهمًا صحيحًا حكمة تصرفاته في مقتبل حياته، كما يفهم الصديق صديقه والخدن خدنه.

ولنتساءلْ الآن: هل سجَّل لنا التاريخ شيئًا قيمًا عن نشأة الأمين وطفولته؟

أظن أنني لا أعدو الحق كثيرًا إذا قلت: لا؛ إذ قلما يعرض المؤرخون القدماء لشيء من طفولة العظماء ورجال التاريخ.

على أنا قد وقفنا من طفولة الأمين على شذرات ليست بذات غناء كبير، نثبتها لك وندرسها معك؛ فربما ساعدتنا بعض المساعدة على تفهم حداثة الأمين، واستخلاص بعض الحقائق عنه.

يحدثنا البيهقي في «المحاسن والمساوئ» بما سنلخصه لك خاصًّا بنشأة الأمين التعلُّمية؛ لتقف على البيئة التي كان فيها الأمين، ولأن روايته - خصوصًا ما جاء عن حُلم زبيدة وفزعها منه، مما رواه المسعودي في

«مروجه» أيضًا - قد تجعلنا نعلل بحق أثر الوسط والوراثة في خَلْق ما كان بالأمين من استعداد لحب الاستخارة، مما كانت له نتائجه السيئة، ولأنه يفهمنا بوجه عامٍّ لِمَ كان الأمين فصيحًا أديبًا بليغًا، ولِمَ كان عابثًا مستهترًا، ولِمَ كان وادعًا متهيبًا من الدماء، ولأنه يفسر نشأته في ترف الخلافة ونعيمها، ومَرَح الحداثة ونهزِها، والاستمتاع بمال زبيدة والإدلال بهاشميتها.

***

أنت جِدُّ عالم أن الرشيد جعل الأمين في حِجْر الفضل بن يحيى، والمأمون في حجر جعفر بن يحيى، وأنت جد عالم أن الفضل بن يحيى قال لهشيم بن بشر الواسطي: «ليكن أكثر ما تأخذ به ولي العهد الأمين تعظيم الدماء، فإني أُحب أن يُشرِب الله قلبه الهيبة لها، والعفاف عن سفكها»، وأنت جد عالم بوصية الرشيد للأحمر النحوي بأخذ الأمين بالشدة إن لم تنفع الملاينة في تقويمه، وقد آن لنا أن نترك للأحمر فرصة التكلم، فيروي لك ما كان من أمره مع تلميذه الأمين.

يقول الأحمر: «كنت كثيرًا ما أشدد على الأمين في التأديب، وأمنعه الساعات التي يتفرغ فيها للهو واللعب، فشكا ذلك إلى خالصة - ولعلها كانت كبيرة وصيفات أو أمينات القصر الزبيدي - فأتتني برسالة من أم جعفر تعزم عليَّ بالكفِّ عنه، وأن أجعل له وقتًا أُجِمُّه فيه لتوديع بدنه، فقلت: الأمير قد عظُم قدره، وبَعُد صوتُه، وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد لا يحتملان التقصير، ولا يقبل منه الخطل، ولا يُرضى منه بالزلل في المنطق، والجهل بالشرائع، والعمى عن الأمور التي فيها قِوام السلطان وإحكام السياسة، قالت: صدقت، غير أنها والدة لا تملك نفسها،

ولا تقدر على كفِّ إشفاقها، ومع حذَرها أمرٌ إن شئتَ حدَّثتُك به، فقلتُ: وما ذاك؟ قالت: حدثتني السيدة أنها رأت في الليلة التي حملت فيها به كأن ثلاث نسوة دخلن عليها، فقعدت منهن ثنتان، واحدة عن يمينها، وواحدة عن يسارها، فأمرَّتْ إحدى الثلاث يدها على بطنها، ثم قالت: ملكٌ ربَحْلٌ، عظيم البذل، ثقيل الحمل، سريع الأمر! وقالت الثانية: ملك قصير العمر، سليم الصدر، منهتك الستر! وقالت الثالثة: ملك قَصاف، عظيم الإتلاف، يسير الخلاف، قليل الإنصاف! فانتبهت وأنا فزعة فلم أحس لهنَّ أثرًا، حتى كانت الليلة التي وضعتُه فيها أتينني في الخَلْق الذي رأيتهنَّ فيه، فقَعدْنَ عند رأسه واطَّلعْنَ جميعًا في وجهه، ثم قالت واحدة منهن: شجرة نضرة، وريحانة جنية، وروضة زاهرة، وعين غدقة قليل لبْثُها، عَجل ذهابها! وقالت الثانية: سفيهٌ غارم، طالب للمغارم، جسور على المخاصم! وقالت الثالثة: احفروا قبره، وشقوا لحده، وقربوا أكفانه، وأعدوا جهازه، فإن موته خير له من حياته! قالت: فبقيتُ متحيرة، وبعثتُ إلى المنجمين والمُعبرين ومن يزجر الطير، فكل يُبشِّرني بطول عمره، ويعدني بقاءه وسعادته، وقلبي يأبى إلا الحذر عليه والتهمة لما رأيت في منامي. وبكَتْ خالصةُ وقالت: يا أحمر، وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحتراق واقع القدر، أو يقدر أحد على أن يدفع عن أحبائه الأجل؟ قلتُ: صدقتِ، إن القضاء لا يدفعه شيء».

ويحدثنا التاريخ أن الرشيد اتخذ فيمن اتخد لتربية الأمين وتعليمه قطربًا النحوي، وكان حماد عجرد يتعشق الأمين، ويطمع أن يتخذه الرشيد عليه مؤدبًا، فلم يتهيأ له ذلك لتهتكه وقبيح ذكره في الناس، وقد كان رام ذلك

فلم يُجَب إليه، فلما سمع أن قطربًا قد استوى أمره وأجيب إلى ذلك لستره وعفافه، أخذ حمادًا المقيمُ المقعدُ حسدًا على ما ناله قطرب من ذلك وبلغه من المنزلة الرفيعة والدرجة السنية، فأخذ رقعة وكتب فيها أبياتًا ودفعها إلى بعض الخدم الذين يقومون على رأس الرشيد، وجعل له على ذلك جُعلًا، وسأله أن يُودع الرقعة دواة أمير المؤمنين، ففعل، فما كان بأسرع من أن دعا الرشيد بالدواة، فإذا فيها رقعة فيها هذه الأبيات:

قل للإمام جـزاك الله مـغـفـرة ... لا يجمع الدهر بين السخل والذيب

السخل غرٌّ وهمُّ الذيب غفلته ... والذيب يعلم ما بالسَّخل من طيب

فلما قرأ الرشيد الرقعة قال: انظُروا ألا يكون هذا المعلم لوطيًّا، أنفوه من الدار؛ فأخرجوه عن تأديب الأمين. قيل: ثم جعل الرشيد على الأمين حراسًا، واتخذ عليه حمادًا وكان عليه رقباء سبعين أو ثمانين.

ربما كان من الحق أن نقول: إن هذه النشأة كانت لها آثارها السيئة، خصوصًا أنَّا نلاحظ أن الأمين تنقصه الدربة السياسية، وأنت تعلم أن الدربة السياسية هي ناحية يُؤبَه لها كثيرًا في تنمية روح الحكم، وتقوية المواهب الإدارية، وتنظيم ملكات السلطان في ولي العهد، خصوصًا ذلك العصر الذي لم تكن فيه وسائل الثقافة الملكية متوافرة توافرها اليوم؛ من سياحة لولي العهد إلى الممالك المتمدينة، ووقوف على مبلغ الحضارة العالمية، كما هي حال ولي عهد إنجلترا ونظرائه مثلًا، مع أن الحاجة إلى الثقافة السياسية في ذلك العصر كانت أشد منها اليوم؛ لأن الملك حين ذاك كان صاحب سلطان فعليٍّ مُطلق غير مقيد بقانون أو دستور إلا ما يرجع إلى دينه وورعه.

نريد أن نقول: إنه إذا كان نَدْب الهادي للرشيد حين ولاه قيادة الجند لحرب الروم، قد أوجد الرشيد في مركز القيادة العامة، وفيها من الشيوخ المحنكين والقادة المدربين والزعماء المنظمين مجموعةٌ صالحة للثقافة السياسية، وفرص تسنح في الفينة بعد الفينة للمرانة السياسية، ولتخريج خليفة مُدرَّب في فنون الملك، وإذا كان المأمون قد نُدب للحكم في خراسان وغير خراسان حتى نكَّبت به ظروف الأحوال عن مفاسد مال الخلافة ونعمة ابن زبيدة ودلال الهاشميين، نريد أن نقول: إنه إذا كان ذلك كذلك، وكانت هذه هي نتائج الدربة السياسية، فمن الميسور أن نفهم مغبة افتقادها، كما أنه من الميسور أن نستنبط أن عنصرًا هامًّا من عناصر تكوين رجال السياسة والحكم كان ينقص الأمين الذي لم تستطع غاشيته من الخدم، وبطانته من الموالي، وأخواله من الهاشميين، وأساتيذه من المربين أن يحولوا بينه وبين ما تشتهيه نفسه وتهوَى طفولته.

وهل تظن أنهم يستطيعون أن يُكرهوه على أن يأخذ نفسه بحزم في أموره، وبسداد في تصرفه، وقمع لميوله، وتقويم لاعوجاجه، وبها يجعله رجلًا كاملًا، أظن لا، وأظن أنك محق في نفيك هذا عمَّن كان في ظروفه وبيئته.

على أنه من العدل والحق أن نقرر أن الأمين لم يكن بليد الذهن أو ثقيل الظل، بل كان نقيض ذلك على حظٍّ من توقُّد الذهن وفصاحة اللسان، وخفة الروح والظل، وحسبك أن ترى شيئًا مما كان ينضح به في مجالس اللهو والمنادمة من سرعة البديهة، وظرافة النكتة، وحلاوة التندر، ورقة الدعابة، وعذوبة الفكاهة؛ لتؤمن بها نقول.

وكل ما أجمع عليه المؤرخون الفرنجة كـ «ميور» وكُتَّاب دائرة المعارف الإسلامية، واتفقت عليه كلمة المؤرخين العرب جميعًا أنه كان مستهترًا مسرفًا، مع خَوَر خُلُقي، وعدم تبصر في العواقب ولا تروٍّ في مهمات الأمور - مما يرجع في الواقع إلى عدم العناية بثقافته السياسية، كما أسلفنا.

وإنا محقون إذا ما قررنا أنه لو وجد الأمين يدًا حكيمة تقسو عليه أحيانًا فتفلُّ من شباة نفسه العابثة المرحة، وتقوِّم اعوجاج خلقه الرخو، وتقوِّي سجاياه المنحلة، وتبعث به إلى الحروب، ليصهر بلظى أُوارها، ويصقل من جلادها وسجالها، ويفيد نفسه من خبرة كُماتها، ودُربة شيوخها، وخِدع مديريها، وخُطط مُشيريها، وتُوليه حُكم صُقع من الأصقاع للمرانة فيه على معضلات الحكم ومشكلاته، والاحتكاك بقادته وقضاته؛ إذن لكان للمأمون منه خصم لا يستهان به ولا تلين قناته لغامز.

على أنَّا وإن قلنا: إن الأمين كان مستهترًا، لا نستطيع مع ذلك أن نستسيغ الخبر الذي رواه الطبري وغيره، والذي ضربه الفخري مثلاً على إهمال الأمين وغفلته وجهله، إلا بشيء من التحفظ كثير، وهاك خلاصة الخبر لكي تُقدِّر معنا ما لهذه الملاحظة من وجاهة وقيمة:

لما اشتد الخلاف بين الأمين والمأمون حتى انتهى إلى غايته، أرسل الأمين لمحاربة أخيه جيشًا لم يُرَ في بغداد قبلَ ذلك أكثف منه، قوامُه أربعون ألفًا، وقيل خمسون، وزوَّده بالسلاح الكثير والأموال الوافرة، وعلى رأسه شيخ من شيوخ الدولة جليل القدر، مهيب الجانب، هو علي بن عيسى بن ماهان. وقد خرج معه الأمين إلى ظاهر المدينة مشيعًا مودعًا، وكان في حكم اليقين أن الظفر سيكون حليفه؛ لكثرة عدده، ووفرة سلاحه وذخيرته، فلما التقى بجيش طاهر بن الحسين قائد المأمون، وعسكره في حدود أربعة آلاف، ثم كانت الغلبة

لطاهر، وورد الخبر بنعي علي بن عيسى إلى الأمين وهو يصيد، قال للذي أخبره بذلك: دعني فإن كوثرًا قد اصطاد سمكتين وأنا إلى الآن ما اصطدت شيئًا! وكان كوثرُ هذا خادمًا من الخصيان قيل: إن الأمين كان يحبه كثيرًا.

نقول، ولعلك توافقنا فيما نذهب إليه: إنا لا نستطيع أن نقبل هذا الخبر وأمثاله إلا بشيء من التحفظ كثير، فإن خليفة يسمع مثل هذا النبأ العظيم ويعلم أن وراءه الفصل في مصير سلطانه ثم لا يأبه له، لا يكفي أن يوصف بالإهمال والجهل، بل هو جدير بما فوق ذلك؛ بالسفه والبلاهة، والسفية الأبله أولى بالحجر عليه منه بأن يكون ذا سلطان مطلق في دولة بعيدة الأطراف والنواحي، ومُحالٌ على الرشيد الذي عُرف بالحزم وجودة الحدس والتأني في الأمور أن يسند هذا السلطان العظيم من بَعدِه لسفيهٍ أبله.

لهذا نميل إلى الافتراض كثيرًا، بل إلى الترجيح بأن هذا الخبر والكثير من أمثاله ليس إلا أثرًا من آثار الدعوة المأمونية التي كان لها من الأثر في ثل عرش الأمين، وتثبيت سلطان المأمون، ما لا يقل عن أثر عساكر المأمون وحَزْم قُوَّاده وحِكْمة مُشيريه.

ويقول «ميور»: إن أهل بغداد قد ندموا وأسقط في أيدي جنودها لفتورهم في الدفاع عن الأمين، وعدم استبسالهم في الذود عنه. ويعزو مؤرخه الأستاذ «ويل» أسباب ندمهم هذا إلى سخاء الأمين وإسرافه فيما كان يغدق عليهم من الأموال والخيرات.

أما أنه كان سخيًّا بل مسرفًا في السخاء فمما لا ريب فيه، ومهما افترضت المبالغة فيما سنرويه لك نقلًا عن المظان الأدبية والمصادر التاريخية، فإن الصورة التي ستقع من نفسك مهما جعلتها متواضعة مقتصدة - وهذا

ما نوصيك به دائمًا - كافية للاقتناع بأنه كان سخيًّا، بل مسرفًا في السخاء.

يقول الأصفهاني في أغانيه: غنَّى إبراهيم بن المهدي ليلةً محمدًا الأمين صوتًا في شعر أبي نواس:

يا كثير النوح في الدِّمَن لا عليها بل على السكن
سُنَّة العشاق واحدة فإذا أحببت فاستكن
ظن بي مَن قد كَلفتُ به فهو يجفوني على الظنن
رشأٌ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن

فأمر له بثلاثمائة ألف دينار، فقال إبراهيم: يا أمير المؤمنين، قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم، فقال الأمين: هل هي إلا خراج بعض الكُور؟! هكذا ذكر إسحاق.

أما محمد بن الحارث فقد روى لنا هذه الحكاية عن إبراهيم فقال: لما أردت الانصراف قال: أوقروا زورق عمي دنانير، فانصرفت بمال جزيل.

ثم تعال، أرشدك الله، لننظر معًا فيما يرويه أحد المعاصرين، وهو سعيد ابن حميد، فإنه يقول: لما ملك محمد وجه إلى جميع البلدان في طلب الملهين وضمهم إليه، وأجرى عليهم الأرزاق، ونافس في ابتياع فُرِه الدواب، وأحدِّ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك، واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخفَّ بهم، وقسَّم ما في بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر في خصيانه وجلسائه ومحدثيه، وحُمل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسلاح، وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه بقصر الخلد والخيزرانية وبستان موسى وقصر عبدويه وقصر المعلى، ورقة كَلْواذَى، وباب الأنبار، وتبارى والهوب، وأمر بعمل خمس

حرَّاقات في دجلة على خلْقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس، وأنفق في عملها مالًا عظيمًا.

فقال أبو نواس يمدحه:

سخر الله للأمين مطايا ... لم تُسخَّر لصاحب المحراب
فإذا ما ركابه سِرنَ برًّا ... سار في الماء راكبًا ليث غاب
أسدًا باسطًا ذراعيه يهوِي ... أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يُعانيه باللجام ولا السَّو ... ط ولا غمز رجله في الركاب
عجب الناس إذ رأوك على صُو ... رةِ ليثٍ تمرُّ مرَّ السحاب
سبَّحوا إذ رأوك سرت عليه ... كيف لو أبصروك فوق العقاب؟!
ذات زور ومنسر وجناحيْ ... ن تشق العُباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اسْ ... تعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمير وأبقا ... ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه ... هاشمي موفق للصواب

على أنه يصح التساؤل: من أين للخليفة ما يكفيه من الأموال الطائلة والثروات الوفيرة لسد مطامعه، ولإجابته إلى شتَّى مناعمه؟

وإنا نظن أنه يكفيك أن تنظر أيضًا فيما تنظر إليه من مختلف مصادر المال، من خَراج - ربما كان ظالمًا - وجبايا هائلة مروعة، وموازين غنية، وضرائب مبالغ في فرضها، إلى باب الاستصفاء وحده وما ينجم عنه وعن نكبة الوزراء والكبراء. وحبذا لو وُفِّق لدراسته بعض الباحثين في التاريخ الإسلامي؛ فهو هامٌّ وهو خطير.

ثم انظر ما ذكره الحسين بن الضحاك، وهو شاعر الأمين كما تعلم، قال:

ابتنى الأمير سفينة عظيمة أنفق عليها ثلاثة آلاف ألف درهم، واتخذ أخرى على خِلْقة شيء يكون في البحر يقال له: «الدلفين»، فقال في ذلك أبو نواس:

قد ركب الدلفين بدرُ الدجى   مقتحمًا في الماء قد لججا
فأشرقت دجلة في حسنه   وأشرق السكان واستبهجا
لم تر عيني مثله مركبًا   أحسن إن سار وإن أحنجَا
إذا استحثته مجاذيفه   أعنق فوق الماء أو هَمْلَجا
خص به الله الأمين الذي   أضحى بتاج الملك قد تُوِّجا

ثم لتتدبر معي ما يرويه لنا أحد الأمناء بقصر الرشيد، وهو حسين خادم الرشيد، فإنه يقول: إن الخلافة لما صارت إلى محمد هُيِّئ له منزل من منازله على الشط بفرش أجود ما يكون من فرش الخلافة وأسواه، فقال: يا سيدي، لم يكن لأبيك فرش يباهي به الملوك والوفود الذين يَردون عليه أحسن من هذا، فأحببت أن أفرشه لك، قال: فأحببتَ أن يُفرش لي في أول خلافتي المردراج! قال: مزِّقوه! قال: فرأيت والله الخدم الفراشين قد صيروه ممزقًا وفرقوه.

وهناك مئات من الشواهد التي يرويها المعاصرون، أمثال مخارق المغني، وأبي عبادة البحتري عن مشيخته، والعباس بن الفضل بن الربيع، وكوثر وغيرهم، عن سَرَف الأمين وبذخه ولهوه وعبثه، يصحُّ أن ترجع إليها في مظانِّها، وكلها تؤيد صدق اللباب والجوهر.

فمن ذلك ما يرويه لنا حميد بن سعيد، من أن محمدًا الأمين لما ملَك وكاتَبه عبد الله المأمون وأعطاه بيعته؛ طلب الخصيان وابتاعهم وغالَى بهم وصيَّرهم لخلوته في ليله ونهاره، وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه، وفرض

لهم فرضًا سماهم الجرادية، وفرضًا من الحبشان سماهم الغرابية، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رمى بهم، وحتى قال في ذلك بعض شعراء العصر وقد ذكر أسماء بعضهم وحال الأمين معهم:

ألا يا مزمن المثوى بطوس غريبًا ما يفادَى بالنفوس
لقد أبقيت للخصيان بعلًا تحمَّل منهم شؤم البسوس
فأما نوفل فالشأن فيه وفي بدر فيا لك من جليس
وما العُصميُّ بشَّارٌ لديه إذا ذكروا بذي سهم خسيس
وما حسن الصغير أخس حالًا لديه عند مخترق الكئوس
لهم من عمره شطر وشطر يعاقر فيه شرب الخندريس
وما للغانيات لديه حظ سوى التقطيب بالوجه العبوس
إذا كان الرئيس كذا سقيمًا فكيف صلاحنا بعد الرئيس
فلو علم المقيم بدار طوس لعزَّ على المقيم بدار طوس

وفي الحق أن قصف الأمين وانهماكه في لهوه وغلوِّه في عبثه، واستهتاره في مرحه، واشتغاله بوجه خاص بخدمه، قد جرَّ عليه وبالًا كثيرًا، وشرًّا مستطيرًا، ونفَّر منه قلوب العقلاء من مشايعيه ومناصريه، والأقوياء من مؤيديه وذويه.

من أمثال ذلك ما ذكروه عن العباس بن عبد الله بن جعفر، وهو من رجالات بني هاشم جلدًا وعقلًا وصنيعًا، وكان يتخذ الخدم كطبيعة حياة المترفين في ذلك العصر، قالوا: كان له خادم من آثرِ خدَمه عنده يقال له منصور، فوجَد الخادم عليه فهرَب إلى محمد وأتاه وهو بقصر أم جعفر المعروف بالقرار، فقبله محمد أحسن قبول، وحظي عنده حظوة عجيبة،

فركب الخادم يومًا في جماعة خدم كانوا لمحمد يقال لهم السيافة، فمرَّ بباب العباس بن عبد الله، يريد بذلك أن يُري خدم العباس هيئته وحاله التي هو عليها، وبلغ ذلك الخبر العباس، فخرج إليه وقامت معركة، وكادوا يُحرقون دار العباس، وقبض الأمين على العباس وهمَّ أن يقتله لولا وساطة أم جعفر من ناحية، واشتغاله بخروج الحسين بن علي بن ماهان عليه وانضمامه إلى المأمون من ناحية أخرى.

ولموضوع خدم الخليفة وغاشيته ذوي السلطان من المقربين والزعماء والقادة والوزراء، بل الخدم والأمناء أسوأ أثرٍ في تاريخ المدنية الإسلامية.

***

وهناك ظاهرة خُلُقية في أخلاق الأمين، وهي حبه للاستخارة، واحتفاله بالبحث عن أمر طالعه، وركونه حتى في آخر لحظة من حياته، وهي لحظة التقرير في مصيره، أيُسلِّم نفسه إلى طاهر أم إلى هرثمة إلى منام رآه.

وربما كانت هذه الخلة فيه من أثر البيئة، كما أسلفنا، أو من روح العصر نفسه، وإن كان ابن ماهان قائده يحتقرها، وسنرى أن المأمون كان على عكس الأمين لا يحفل في مهام أموره بالاستخارة ووحي الأحلام، بل كان يجعل جل اعتماده على مشورة رجالاته وذوي النصيحة من أنصاره.

على أنه ليس معنى ذلك أن الأمين لم يكن يستشير، ولكنه كان في كل شئونه يغلبه هواه على وجه الصواب من أمره، وكان لرياء حاشيته وتأثير بطانته فيه النتيجة السيئة، فكان لا يعمل بما يُدلَى به إليه من نصح.

وحسبك دليلًا على ظهور هذه الخلة فيه ما رواه عمرو بن حفص مولى محمد إذ يقول: دخلت على محمد في جوف الليل، وكنت من خاصته أصل

إليه حيث لا يصل أحد من مواليه وحشمه، فوجدته والشمع بين يديه وهو يفكر، فسلَّمت عليه فلم يرد عليَّ، فعلمت أنه في تدبير بعض أموره، فلم أزل واقفًا على رأسه حتى مضى أكثر الليل، ثم رفع رأسه إلي فقال: أحضرني عبد الله بن خازم، فمضيت إلى عبد الله فأحضرته، فلم يزل في مناظرته حتى انقضى الليل، فسمعت عبد الله وهو يقول: «أنشدك الله يا أمير المؤمنين، أن تكون أول الخلفاء نكث عهده، ونقض ميثاقه، واستخفَّ بيمينه، ورد رأي الخليفة قبله»، فقال: «اسكت، لله أبوك، فعبد الله كان أفضل منك رأيًا وأكمل نظرًا؛ حيث يقول: لا يجتمع فحلان في هجمة»، ثم جمع وجوه القواد، فكان يعرض عليهم واحدًا واحدًا ما اعتزمه فيأبونه، وربما ساعده قوم حتى بلغ إلى خزيمة بن خازم فشاوره في ذلك فقال: «يا أمير المؤمنين، لم ينصحك من كذبك، ولم يغشك من صدقك، لا تُجرِّئ القواد على الخلع فيخلعوك، ولا تَحمِلهم على نكث العهد فينكثوا عهدك وبيعتك، فإن الغادر مخذول، والناكث مفلول».

ولكن الأمين، كما قلنا، كانَ هواه يُعمِّي عليه وجه الصواب من أمره، وكان واقعًا تحت سلطان الفضل بن الربيع وعلي بن عيسى بن ماهان وغيرهما من بطانته، وهم الذين كان رياؤهم سمًّا زُعافًا، ونفاقهم وباء فتَّاكًا، ولين كلامهم حسكًا وقتادًا، والذين لم يُخلصوا لمليكهم أو بلادهم فيما يدلون به من الآراء، وما يقدمونه من النصائح، وإنما يُخلصون لعاجل مصلحتهم، فزينوا له نكث العهد، وسهلوا له أمره، حتى أقدم عليه، وكان ما كان من النزاع على ما سنصفه لك في بابه.

على أنا لا نعني بما ذكرناه لك الآن أن الأمين كان بليد الذهن، وإنما نعني أنه كان ضعيف الإرادة، عديم الدُّرْبة، ونكرر لك هنا ما أسلفنا قوله لك من اعتقادنا بتوقد ذهنه، وفصاحة لسانه، ونقرر أيضًا، إحقاقًا للحق وإنصافًا للتاريخ، أنه كان بليغًا متعهدًا، إلى حدٍّ غير قليل، قوادَّه بالنصح والرأي، فقد ذكر أحد معاصريه، وهو عمرو بن سعيد، أن محمدًا الأمين لما جاز باب خراسان ترجَّل وأقبل يوصي علي بن عيسى بن ماهان: «امنع جندك من العبث بالرعية، والغارة على أهل القرى، وقطع الشجر، وانتهاك النساء، ووَلِّ الريَّ يحيى بن علي، واضمم إليه جندًا كثيفًا، ومُره ليدفع إلى جنده أرزاقهم مما يجيء من خراجها، ووَلِّ كلَّ كورة ترحل عنها رجلاً من أصحابك، ومَن خرَج إليك من جند أهل خراسان ووجوهها فأظهر إكرامه، وأحسن جائزته، ولا تُعاقب أخًا بأخيه، وضع عن أهل خراسان رُبع الخراج، ولا تُؤَمِّن أحدًا رماك بسهم أو طعن في أصحابك برمح».

ولم تكن هذه الوصية هي الوصية الوحيدة للأمين فنقول: فلتةٌ من عابث؛ فإن هناك ثانية وثالثة وهلمَّ جرًّا، وها هو ذا أحمد بن مزيد أحد قواده يخبرنا أنه لما أراد الشخوص في مهمته دخل على محمد الأمين فقال: أوصني، أكرم الله أمير المؤمنين، فقال: «أوصيك بخصال عدة: إياك والبغي؛ فإنه عقال النصر، ولا تقدم رجلًا إلا باستخارة، ولا تشهر سيفًا إلا بعد إعذار، ومهما قدرت عليه باللين فلا تتعده إلى الخرق والشر، وأحسن صحابة مَن معك من الجند، وطالعني بأخبارك في كل يوم، ولا تُخاطر بنفسك طلب الزلفة عندي، ولا تَستَقْها فيما تخاف رجوعه عليَّ ...» إلى آخر نصيحته.

ومن العدل أن نقرر أيضًا أنه كان إلى آخر لحظة من حياته محاولاً الانتصار، باذلاً مقدوره في الحرب، ولكن عبثه ولهوه كانا يقعدان به.

وكان طيب القلب يعفو حتى عن الخارجين عليه والمسيئين إليه، وإن موقفه مع حسين بن علي بن ماهان لمعروفٌ مشهور، وكذلك موقفه مع أسد بن يزيد أحد قادته حينما طلب إليه أن يدفع له ولدي عبد الله المأمون ليكونا أسيرين في يديه، فإن أعطاه المأمون الطاعة فبها، وإلا عمل فيهما بحكمه، وأنفذ فيهما أمره، فقال له الأمين: «أنت أعرابي مجنون، أدعوك إلى ولاء أعنة العرب والعجم، وأطعمك خراج كور الجبال إلى خراسان، وأرفع منزلتك عن نظرائك من أبناء القواد والملوك، وتدعوني إلى قتل ولديَّ، وسفك دماء أهل بيتي! إن هذا للخَرقُ والتخليط!».

هذا الموقف النبيل دليل على سلامة طويته وطهر سجيته، ولكن حظه الحالك ونجمه الآفل، ورياء مشيريه، وضعف إرادته، وخور عزيمته، ولهوه وعبثه، ونصيب المغلوب من الدعوة عليه، والحملة الموجهة إليه قد ضربت بجِرانها على سيرته؛ فإذا بها شوهاء مُزْرية، وإذا بها مقبحة منفرة، حتى قيل فيه ما قيل مما يجدر بنا ألا نخلي كتابنا من إثبات بعضه.

جاء في الجزء السادس من كتاب بغداد لأحمد بن أبي طاهر طيفور: «قال المأمون لطاهر بن الحسين: يا أبا الطيب، صف لي أخلاق المخلوع، قال: كان، يا أمير المؤمنين، واسع الطرب، ضيق الأدب، يبيح نفسه ما تعافه همم ذوي الأقدار، قال: فكيف كانت حروبه؟ قال: كان يجمع الكتائب ويفضها بسوء التدبير، قال: فكيف كنتم له؟ قال: كنا أسدًا تبيت وفي أشداقها أعناق الناكثين، وتصبح في صدورها قلوب المارقين، قال: أما إنه أول من يؤخذ بدمه يوم القيامة ثلاثة - لست أنا ولا أنت رابعهم ولا خامسهم - وهم: الفضل بن الربيع، وبكر بن المُعتمر، والسِّنْدي بن شاهَك، هم والله ثارُ أخي وعندهم دمه ...».

وقال المسعودي في التنبيه والإشراف: «إن الأمين كات باسطًا يده بالعطاء، قبيح السيرة، ضعيف الرأي، سفاكًا للدماء، يركب هواه، ويهمل أمره، ويتكل في جليلات الخطوب على غيره، ويثق بمن لا ينصحه، واستوزر الفضل بن الربيع إلى أن استتر الفضل لما تبيَّن من اختلال أمر محمد، ووهي أمره، فقام بوزارته من حضر من كتابه كإسماعيل بن صبيح، وغلب عليه عدة من الأولياء؛ منهم: علي بن عيسى، والسندي بن شاهك، وسليمان بي أبي جعفر المنصور»، وقال غيره: «إنه كان كثير اللهو واللعب، منقطعًا إلى ذلك مشتغلًا به عن تدبير مملكته».

ويقول ابن الأثير: «لم نجد للأمين شيئًا من سيرته نستحسنه فنذكره»، وهذا حق في جملته عن الأمين كمدبر مملكة وخليفة، فإن فتًى غرًّا لم يُثقَّف الثقافة السياسية اللازمة، ثم يصبح ذا سلطان مطلق في ملك كبير يشبع ذوي المطامع النهمة، ثم تحوطه حاشية من الدهاة ذوي المطامع الواسعة، والأغراض الكبيرة كالفضل بن الربيع الذي أفسد ما بينه وبين أخيه، وبكر ابن المعتمر الذي زيَّن له خلعه، ثم هو فوق ذلك ينصرف إلى حد كبير عن معالجة تدبير الملك إلى اللهو، وإلى اللهو بكل ألوانه وضروبه، فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ثلاث وتسعين ومائة عن علي بن إسحاق أحد معاصريه، أنه لما أفضت الخلافة إلى محمد، وهدأ الناس ببغداد، أصبح صبيحة السبت، بعد بيعته بيوم، فأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في المدينة للصوالجة واللعب، فقال في ذلك شاعر من أهل بغداد:

بنى أمينُ الله ميدانًا ... وصيَّر الساحة بستانًا
وكانت الغزلان فيه بانا ... يُهدَى إليه فيه غزلانا

نقول: إن مثل هذا الفتى الذي يولِّي وجهه منذ الساعة الأولى إلى مثل هذه الشئون التي كان يجدر به ومن كان في مكانه ألا تكون صاحبة النصيب الأول من عنايته واهتمامه، خليقٌ ألا يجد المؤرخ له عملًا صالحًا في شأن من شئون الدولة، وقمينٌ على ذلك أن يكون موضع استغلال كبير للدعوة المأمونية.

وقال غير ابن الأثير: «كان الأمين فصيحًا بليغًا كريمًا»، وكيف لا يكون تلميذ الأحمر والكسائي وقطرب وحماد وغيرهم من فحول اللغة، وجهابذة البيان، وأساتذة الأدب من منثور ومنظوم فصيحًا بليغًا؟

على أنه من الحق والعدل أن نقرر أيضًا، أن هذه الصفات تكاد تكون من سجايا كل ناجم من هذه الأسرة الباسقة الفينانة، ومن أجل هذا ذهبنا إلى ما ذهبنا إليه من أن الأمين لم يكن كما صوَّروه لنا من البلَهِ والسُّخف، ومن الخمول والبلادة، ومحال أن يكون كذلك وتصرفاته في بعض شئون الدولة على ما وصفنا، ومحال أن يكون بليدًا بفطرته واستعداده، أو جاهلًا غبيًّا؛ لأنه في الذروة من الهاشمية، وأنت تعلم مقدار اهتمام الخلفاء العباسيين والأمراء الهاشميين بالثقافة الأدبية، كما بينا لك ذلك في كلمتنا عن الحياة الأدبية والعلمية في العصر العباسي، وإنما ظروف حياة الأمين والبيئة التي أحاطت به وما إلى ذلك مما فصلناه لك، جعلت صورة الأمين كما أراناها التاريخ، ثم هي في الوقت نفسه جنحت به إلى الاستهتار، وإلى العبث والمجانة.

وقد يكون أحسن ما نختم به كلمتنا عن تحليل الأمين وسيرته، وأصدق وصف له ما ذكره الفضل بن الربيع، وزيره ووزير أبيه من قبله، والذي

سنعرض لشيء من دقيق تصرفاته، وحكيم تدبيراته عندما نعرض لتفصيل النزاع بين الأمين والمأمون، فهذا الوصف ربما كان أقل تحاملاً من غيره على الأمين، وربما كان خيرًا من سواه في تصوير الأمين وتحليل أخلاقه ونفسيته.

ذكر الطبري أن أسد بن يزيد بن مزيد حدَّثه أن الفضل بن الربيع بعث إليه بعد مقتل عبد الرحمن بن جبلة الأنباري، قال: فأتيته، فلما دخلت عليه وجدته قاعدًا في صحن داره، وفي يده رقعة قد قرأها واحمرَّت عيناه واشتدَّ غضبه وهو يقول: ينام نوم الظربان، لا يفكر في زوال نعمة، ولا يتروي في إمضاء رأي ولا مكيدة، قد ألهاه كأسه، وشغله قدَحُه، فهو يجري في لهوه والأيام تسرع في هلاكه، قد شمَّر عبد الله له عن ساقه، وفوَّق له أصيبَ أسْهُمِه، يرميه على بُعد الدار بالحتف النافذ والموت القاصد، قد عبَّى له المنايا على متون الخيل، وناط له البلاء في أسنة الرماح وشِفار السيوف. ثم استرجَع وتمثَّل بشعر البعيث:

ومجدولةٍ جدْل العنان خريدة ... لها شعر جَعْد ووجه مقسم
وثغر نقي اللون عذب مذاقه ... تضيء له الظلماء ساعة يبسم
وثديان كالحُقين والبطن ضامر ... خميصٌ وجُهر ناره تتضرَّم
لهوتُ بها ليل التمام ابنَ خالد ... عليَّ بمرو الرُّوذ غيظًا تجرم
أظلُّ أناغيها وتحت ابن خالد ... أميةَ نَهدُ المَرْكلين عَثَمْثم
طواها طراد الخيل في كل غارة ... لها عارض فيه الأسنة تُرزِم
يُقارع أتراك ابن خاقان ليلَه ... إلى أن يُرى الإصباح لا يتلعثم
فيصبح من طول الطراد وجسمه ... نحيل وأُضحي في النعيم أصمِّم

فشتَّانَ ما بيني وبين ابن خالد   أمية في الرزق الذي الله قاسِم

ثم التفت إليَّ فقال: «يا أبا الحارث، إنا وإياك لنجري إلى غاية، إن قصرنا عنها ذُممنا، وإن اجتهدنا في بلوغها انقطعنا، وإنما نحن شعب من أصل إن قوي قوينا، وإن ضعُف ضعفنا، إن هذا قد ألقى بيده إلقاء الأمة الوكعاء يشاور النساء، ويعتزم على الرؤيا، وقد أمكن بمسامعه ما معه من أهل اللهو والجسارة، فهو يعدونه الظفر ويمنونه عقب الأيام، والهلاك أسرع إليه من السيل إلى قيعان الرمل، وقد خشيت والله أن نهلك بهلاكه، ونعطب بعطبه».

الفصل الثاني

المأمون

(١) توطئة

لننتقل الآن إلى حداثة المأمون، ولنتبع في دراستنا له نفس الطريقة التي ترسمناها حين دراستنا لحداثة الأمين، فنتكلم عن مولده، كما نتكلم عن نشأته وأخلاقه محاولين أن نجمع شتات المعلومات التاريخية في هذا الصدد، وأن ننظر فيها نظرة تفهم واستيعاب وإمعان ومقارنة وموازنة بما يقتضيه المقام من إجمال وإيجاز.

(٢) مولده

ولد عبد الله المأمون لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة سبعين ومائة هجرية، وهي التي استُخلف فيها الرشيدُ، فلما بُشِّر بمولده سُرَّ به سرورًا عظيمًا، وسماه المأمون تيمنًا بذلك، وأمه أم ولد باذغشية تسمى «مَراجل»، ويقال: إنها تمت إلى أسرة عريقة في المجد من الأسر الفارسية.

نشأ المأمون في حجر الخلافة، وتهيأ له من وسائل التربية والتثقيف ما لم يتهيأ إلا لأخيه الأمين، وكانت ظاهرةً عليه مخايل النجابة والذكاء وبُعد الهمة والتعالي بنفسه عن سفساف الأمور.

ومع كبر سن المأمون وظهور هذه الخلال فيه، وثقة الرشيد به ومحبته له لم يُتَح له ما أتيح للأمين من البيعة بولاية العهد؛ إذ كان لأم الأمين من

المكانة لدى الرشيد، وهي زوجه، ما لم يكن لأم المأمون. وقد سبق أن بينا لك في كلامنا على الأمين ما قام به أخواله من المسعى المُوفَّق في أن يكون أمر الدولة من بعد الرشيد لابن أختهم، وما قام به الفضل بن يحيى في خراسان من البيعة للأمين بولاية العهد، حتى أصبح الرشيد أمام الأمر الواقع، فأعلن بولاية العهد للأمين راضيًا أو مكرهًا.

(٣) نشأته وأخلاقه

وكَّل الرشيد بكفالة المأمون والنظر في شئونه ومراقبة أحواله جعفر بن يحيى وزيره، كما جعل الأمين في كفالة الفضل أخي جعفر. ونحن نحس عند ذكر كفالة الفضل للأمين إحساسًا، قد لا يعدو الواقع كثيرًا، أن بين هذه الكفالة وبين إعلان الفضل بولاية العهد للأمين في خراسان صلةً.

فلما نما المأمون وترعرع أخذ المؤرخون يذكرون لنا من مظاهر نجابته وحزمه، وتقديره لنفسه وللناس، ومعرفته بمن كانت أهواؤهم معه أو عليه، ووقوفه على ما يجري حوله من شئون وأحوال، مما سنقصُّه عليك، ما ينبئ بما سيكون لهذا الغلام من شأن عظيم.

ولعل أظهر ما يدل على نجابة المأمون في صباه ما يقصه علينا التاريخ عن أبي محمد اليزيدي مؤدبه الذي يقول: «كنت أؤدب المأمون وهو في كفالة سعيد الجوهري، فجئت دار الخلافة وسعيد قادم إليها، فوجهت إلى المأمون بعض خدمه يُعلمه بمكاني، فأبطأ عليَّ، ثم وجهت آخر فأبطأ، فقلت لسعيد: إن هذا الفتى ربما تشاغل بالبطالة وتأخر، فقال: أجل، ومع هذا فإنه إذا فارقك تعرَّم[1] على خدمه، ولقوا منه أذًى شديدًا، فقوِّمه بالأدب، فلما خرج تناولته ببعض التأديب، فإنه ليدلُك عينيه من البكاء إذ قيل: جعفر بن يحيى

الوزير قد أقبل، فأخذ منديلًا فمسح عينيه وجَمَع ثيابه، وقام إلى فراشه فقعد عليه متربعًا، ثم قال: ليدخلْ، فقمتُ عن المجلس وخفت أن يشكوني إليه فألقى منه ما أكره، قال: فأقبل عليه بوجهه وحدَّثه حتى أضحكه وضحك إليه، فلما همَّ بالحركة، دعا المأمون بدابة جعفر ودعا غلمانه فسعوا بين يديه، ثم سأل عني فجئتُ، فقال: خذ عليَّ بقية حِزْبي، فقلت: أيها الأمير، أطال الله بقاءك، لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر بن يحيى، ولو فعلتَ لتنكر لي، فقال: تُراني، يا أبا محمد، كنتُ أُطلع الرشيد على هذه، فكيف بجعفر بن يحيى حتى أطلعه على أنني أحتاج إلى أدب؟! خُذْ في أمرك، عافاك الله، فقد خطر ببالك ما لا تراه أبدًا ولو عدت إلى تأديبي مائة مرة!».

وكذلك مما يدل على ذكاء المأمون وثقوب بصيرته، وأصالته وحصافته منذ نعومة أظفاره وميعة صباه ما يُحكى من أن أم جعفر عاتبت الرشيد في تقريظه للمأمون دون الأمين ولدها، فدعا خادمًا وقال له: وجِّه إلى الأمين والمأمون خادمًا يقول لكل واحد منهما على الخلوة: ما تفعل إذا أفضت الخلافة إليك؟ فأما الأمين فقال للخادم: أقطعك وأعطيك، وأما المأمون فإنه قام إلى الخادم بدواةٍ كانت بين يديه وقال: أتسألني عما أفعل بك يوم يموت أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين، إني لأرجو أن نكون جميعًا فداءً له، فقال الرشيد لأم جعفر: كيف ترين؟ فسكتت عن الجواب.

وأعدل الشواهد على تقدير هذا الغلام لنفسه كأمير وابن خليفة، وشعوره بما له من منزلة اجتماعية خاصة، وبما ينبغي أن يكون له في نفوس الناس من إجلال واحترام، وما يجب لمثله في آداب التحية وحسن الخطاب ما جَبَه به الحسن اللؤلؤي، وهو الذي اتخذه الرشيد مؤدبًا للمأمون بعد

أبي محمد اليزيدي، حين كان يطارحه شيئًا من الفقه، وأخذت المأمون سنة من النوم، فقال له اللؤلؤي: نمت أيها الأمير؟ فقال المأمون: سوقيٌّ ورب الكعبة، خذوا بيده، فجاء الغلمان فأقاموه، فلما بلغ الرشيد ما صنع قال متمثلًا:

وهل يُنبتُ الخطيَّ إلا وشيجُه … وتُغرَس إلا في منابتها النخل

ويحدثنا التاريخ أيضًا عن المأمون صبيًّا، أن الرقاشي هجاه حين مدح الأمين بقوله:

لم تـلـده أمـةٌ تعـ … رف في السوق التجارا

لا ولا حُـدَّ ولا خـا … ن ولا في الخزي جارا

يُعرِّض بالمأمون لأن الرشيد كان قد حدَّه في جارية أو في خمر.

ومهما يكن من شيء في صبا المأمون فقد كانت ظاهرة فيه مخايل النجابة والذكاء والحزم، وحسن التدبير، وجودة الحدس، والطموح إلى الكمال.

وقد يجد الذين يذهبون إلى أن في تلقيح الأجناس تحسينًا للنوع حجة ظاهرة في المأمون لمذهبهم؛ إذ لا تعوزهم الوسيلة في أن يرجعوا نجابته إلى أنه من أم فارسية وأب عربي، أو بعبارة أخرى: إلى أنه قد جمع بين الدم الآري والدم(٢) السامي.

هذه المخايل حببته إلى الرشيد وجعلته يُقدِّره قدرَه، فجعله ولي عهد الخلافة بعد أخيه الأمين، وجَمَعت حوله طائفة من ذوي الهمم الشماء الذين توسموا فيه مُحقِّقًا لأطماعهم الواسعة.

ومن أظهر هؤلاء الذين التفوا حوله لتحقيق مطامعهم الفضل بن سهل الذي اتخذ يحيى بن خالد البرمكي وسيلة إلى الرشيد في أن يكون في خدمة

المأمون، وحسبك أن تعلم من أمر الفضل هذا، أنه القائل حين سئل عن السعادة: إنها أمر جائز وكلمة نافذة! وأنه الذي قال له مُؤدِّب المأمون يومًا في أيام الرشيد: إن المأمون لجميل الرأي فيك، وإني لا أستبعد أن يحصل لك من جهته ألف ألف درهم، فاغتاظ من ذلك وقال له: ألك عليَّ حقد؟ ألي إليك إساءة؟! فقال المؤدِّب: لا والله ما قلتُ هذا إلا محبة لك، فقال: أتقول لي: إنك تحصل منه ألف ألف درهم؟ والله ما صحبته لأكتسب مالًا قلَّ أو جلَّ، ولكن صحبته ليُمضيَ حُكم خاتمي هذا في الشرق والغرب! قال: فوالله ما طالت المدة حتى بلغ ما أمَّل.

حسبك أن نذكر لك هذا من أمر الفضل بن سهل لتعلم ما لهذا الرجل من هِمَّة وثابة، وعزيمة مرهفة مضَّاءة، ومطالع واسعة، وحسبك أن نذكر لك ما وصفه به أحد معاصريه، وهو إبراهيم بن العباس؛ لتُقدِّر الرجل وتُقدِّر كفايته، قال:

يُمضي الأمور على بديهته	وتريه فكرته عواقبها
فيظل يصدرها ويوردها	فيَعُمُّ حاضرها وغائبها
وإذا ألمَّت صعبةٌ عظُمت	فيها الرَّزيَّة كان صاحبها
المستقلُّ بها وقد رسبت	ولَوَت على الأيام جانبها
وعدَلتَها بالحق فاعتدلت	ووَسِعت راغبها وراهبها
وإذا الحروب بدت بعثت لها	رأيًا تَفُلُّ به كتائبها
رأيًا إذا نبت السيوف مضى	عزم بها فشفى مضاربها
وإذا الخطوب تأثلت ورست	هدت فواضله نوائبها
وإذا جرت بضميره يده	أبدت به الدنيا مناقبها

يقول الفخري: قالوا لما رأى الفضل بن سهل نجابة المأمون في صباه، ونظر في طالعه - وكان خبيرًا بعلم النجوم - فدلّته النجوم على أنه سيصير خليفة، لزم ناحيته وخدمه ودبر أموره حتى أفضت الخلافة إليه فاستوزره.

وسواء أكان مرجع اتصاله بالمأمون إلى خبرته بالنجوم أم إلى جودة حدسه، فقد اتصل بالمأمون وهو صبي، وكان الحامل له على أن يكون في خدمته تحقيق آمال كبار، رأى بكياسته وحذقه في نجابة المأمون خيرَ كفيل بتحقيقها.

ولقد كان استعداد المأمون الفطري منذ نشأته أن يكون رجل جماعة وقائد أمة؛ إذ قد حبَتْه الطبيعة فيما حَبَتْه من شتى المواهب موهبة الخطابة والتبريز فيها، فقد أخبرنا محمد بن العباس اليزيدي، قال: حدثني عمي عبد الله وأخي أحمد قالا: لما بلغ المأمون وصار في حدِّ الرجال أمَرَنا الرشيد أن نعمل له خطبة يقوم بها يوم الجمعة، فعملنا له خطبته المشهورة، وكان جهير الصوت حسن اللهجة، فلما خطب بها رقَّت له قلوب الناس، وأبكى من سمعه، فقال أبو محمد اليزيدي يمدح المأمون:

لِتَهْنِ أميرَ المؤمنين كرامة ... عليه بها شُكر الإله وُجوب
بأنَّ وليَّ العهد مأمون هاشم ... بدا فضله إذ قام وهو خطيب
ولما رماه الناس من كل جانب ... بأبصارهم والعود منه صليب
رماهم بقول انصتوا عجبًا له ... وفي دونه للسامعين عجيب
ولما وعت آذانهم ما أتى به ... أنابت ورقت عند ذاك قلوب
فأبكى عيون الناس أبلغ واعظ ... أغر بِطاحيُّ النِّجار نجيب
مهيب عليه للوقار سكينة ... جريء جنان لا أكعُّ هَيُوب

ولا واجِبٌ فوق المنابر قلبه ... إذا ما اعترى قلب النَّخيب وجيب
إذا ما علا المأمون أعواد منبر ... فليس له في العالمين ضريب
تصدع عنه الناس وهو حديثهم ... تحدَّث عنه نازح وقريب
شبيه أمير المؤمنين حزامة ... إذا وردت يومًا عليه خطوب
إذا طاب أصل في عروق مشاجه ... فأغصانه من طيبه ستطيب
فقل لأمير المؤمنين الذي به ... يُقدَّم عبد الله فهو أديب
كان لم تغب عن بلدة كان واليًا ... عليها ولا التدبير منك يغيب
تتبَّع ما يرضيك في كل أمره ... فسيرته شخص إليك حبيب
ورثتم بني العباس إرث محمد ... فليس لحيٍّ في التراث نصيب

فلما وصلت هذه الأبيات إلى الرشيد أمر لأبي محمد بخمسين ألف درهم، ولابنه محمد بن أبي محمد بمثلها.

***

وبعد، فليس من شك في نجابة المأمون وتبريزه، ولعل هذه النجابة الخارقة كانت من الأسباب التي حملت الرشيد على أن يستوثق له الأمر في ولاية العهد من أخيه، ولأخيه منه، فجمعهما في بيت الله الحرام حين حج عام ست وثمانين ومائة، ومعه كبار رجال الدولة وجل الظاهرين من الأسرة المالكة، واستكتب كليهما عهدًا بما له وعليه قبل الآخر، وأشهد عليهما جماعة من ذوي المكانة والنفوذ، ثم علق العهدين في الكعبة، ليكونا في مكان الاحترام الديني، وقد أثبتنا لك العهدين في باب المنثور من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث.

نقول: لعل هذه النجابة الخارقة كانت من الأسباب التي حملت الرشيد على أن يفعل ما فعل من استيثاق الأمر بين الأخوين؛ خوفًا على المأمون ومنه.

ولسنا ننكر أن من جملة تلك الأسباب ما يصح افتراضه من أن الرشيد كان يقدر قوة حزبي المأمون والأمين، وبعبارة أخرى: حزبي الفرس والعرب، أو العلوية والهاشمية، أو الشيعية والسنية.

ونحن لا نستطيع أن نرجع مظاهر العطف المختلفة، وفي مناسبات كثيرة، من الرشيد على المأمون إلى الأُبوة وحدها، فإن للرشيد أولادًا غير المأمون وغير الأمين لم ينالوا شيئًا من هذه الحظوة العظيمة لديه؛ لذلك نرى - وقد ترى معنا رأينا - أن هذه الحُظوة التي ينالها المأمون من الرشيد في مناسبات كثيرة دون إخوته ترجع إلى ما امتاز به المأمون من نجابة خارقة، وميل إلى جد الأمور، وترفُّع عن سفسافها، وسموٍّ عن دناياها، واضطلاع بما يُكلف القيام به من أعباء ومهام.

ولعل أظهر مظاهر العطف من الرشيد على المأمون ما فعله الرشيد حين وافته منيته بـ «طوس»، من وصيَّته بجميع ما كان معه من جند وسلاح ومال للمأمون دون أن يكون لخليفته من بعده؛ ليشد بذلك من أزر المأمون، ويقوي من جانبه، وأنت جد عالم بما قدمناه لك، من الكلام في العصر الأموي، عن أثر المال، فتُقدِّر معنا ما كان يرومه الرشيد، ولست في حاجة لأن أقول لك: إن أثر المال وسلطانه في نفوذ الكلمة وقوة الشوكة دونه كل أثر وكل سلطان.

ولعلنا لا نعدو الواقع كثيرًا حين نذهب إلى القول بأن الرشيد كان يحذر الخلاف بين الأخوين، ويخاف كليهما على الآخر، يخاف الأمين على المأمون؛

لأن الأمين سيصبح الخليفة الذي بيده قوة الدولة من جند ومال، وتصحبه مزاياها من عظم الهيبة ونفوذ الكلمة، وسيكون مطمح آمال الآملين وموضع رجاء الراجين.

ومن شأن كل هذا أن يجعل الناس جميعًا أو الأكثرية الساحقة منهم يلتفون حوله رغبةً أو رهبة، وجدير بمن كان هذا شأنه أن يُخشى ويُتَّقى.

ويخاف المأمون على الأمين؛ لأن ما امتاز به المأمون من نجابة خارقة، وجدٍّ وحنكة، وعرفان بشئون الحياة واضطلاع، واعتداد بنفسه يجعل منه خطرًا شديدًا على الأمين جديرًا بأن يُخشى ويُتَّقى أيضًا، ويظهر أن كل هذا وقر في نفس الرشيد الذي كان معروفًا بالحزم وجودة الحَدْس، وقوة البصر بالعواقب، فأراد أن يتقيه، ورأى أن خير وسيلة لاتقائه، أن يستكتبهما العهدين، كما قدمنا، فيقطع بذلك أسباب الخلاف بين الأخوين، ويحول دون دسِّ الدساسين، وسعاية الساعين، ويفهم أنصار الفريقين ما للبيعة بين الأميرين من حرمة وتوقير.

غير أن تصرفات الأيام، وآثار البطانة، ونتائج السعاية، ومغبات الرياء والنفاق كانت فوق ما كان يُقدِّر الرشيد، فوقع الخلاف بين الأخوين أعنف ما يكون، ولم يكن ما اتخذه الرشيد من وقاية وحيطة ليصد تياره الجارف.

وكان المأمون الشاب حسن التوفيق في اختيار حاشيته ومشيريه، فجمع حوله طائفة من ذوي الدهاء والحنكة، وهؤلاء وإن كانوا من ذوي المطامع والأغراض قد أخلصوا له النصح، وثقَّفوه التثقيف الذي يكفل له النجاح، فإن تحقيق أطماعهم الواسعة موقوف على نجاحه.

فإخلاصهم له إخلاص في الواقع لأنفسهم أيضًا، ولما كانت أم المأمون فارسية فربما جاز لنا أن نقول: لعل لكونها فارسية أثرًا في أن يخلص له هؤلاء المشيرون؛ إذ كانوا كلهم من الفرس، وإذ كانت له بهم هذه القرابة.

وهذا يفسر لنا عاطفة من عواطف المأمون، وهي ميله إلى خراسان، وتعصبه بعض التعصب للخراسانيين؛ إذ يحدثنا التاريخ أن رجلًا من الشام اعترض طريقه مرارًا وقال: «يا أمير المؤمنين، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان، فقال له: أكثرت عليَّ! والله ما أنزلتُ قيسًا عن ظهور خيولها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، يعني فتنة ابن العامري، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفياني حتى تكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على ربها مُذ بعث الله نبيه من مُضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شاريًا [٣] اعرف! فعل الله بك!».

وإنه ليجوز لنا أن نرجع هذا الميل لا إلى ما ذكره المأمون وحده، بل إلى التربية وأثر البيئة الفارسية في نفسه، وإلى مقابلة حسن الصنيع بمثله، فأم المأمون فارسية، والذين كفلوه وقاموا بتثقيفه فارسيون، والذين أحاطوا به ونصروه فارسيون، ومن هنا نستطيع أن نفهم الرأي الذي يقول به بعض المؤرخين الفرنجة: إن انتصار المأمون على الأمين كان أيضًا انتصارًا للفرس على العرب، كما كان انتصارًا للفرس على العرب انتصارُ العباسيين على الأمويين، ومن هنا نستطيع أن نعلل أيضًا ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن المأمون كان شيعيًّا وهو عباسي؛ لأن البيئة الفارسية التي نشأ فيها كانت إلى حد غير قليل مهد التشيع للعلويين، فيجوز أن تكون قد صبغت المأمون بشيء من ألوانها، وقد كان لذلك آثاره لا في السياسة ونظام الملك فحسب،

بل في الآراء والمذاهب مما سنذكره حين نعرض للكلام على الخليفة المأمون.

ولعلنا نكون بما قدمناه لك عن نشأة المأمون وصباه قد رسمنا لك صورة واضحة لهذا الأمير الذي سيكافح كفاحًا شديدًا في سبيل الملك، والذي كان له أكبر أثر في الحضارة الإسلامية.

أما شتى مواهب المأمون وآراؤه، وما اشتهر به من الحلم والعفو والكرم والبصر بالسياسة، وجودة الحدس، وكفاية البطانة، وشغفه بالعلم والأدب والجدال، وما كان لهذا الشغف من ثورة علمية وفكرية وكلامية في عصره، فسنرجئ الكلام فيها إلى موضعها من كتابنا، وهو الكلام على الخليفة المأمون بعد أن استقر له الأمر في بغداد، وحين نضجت فيه هذه الخلال وآتت كل ما لها من ثمرات.

هوامش

(١) أصابهم بشراسة وأذًى.

(٢) كتب أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار عن هذا ما نصه: «كذلك كان الرشيد، كان يجمع بين الدم الآري والدم السامي، فهل التحسين ينجع في الطبقة الأولى فقط ويفسد في الثانية؟ ومع هذا فإن جوزتاف لوبون يخالف هذا الرأي على إطلاقه ويقول: إن أمة كل أفرادها مولدون لا تُساس، ويعلل ذلك بتضارب السجايا والخصال والعقائد التي يرثها من أبويه، واضطرابها في نفسه».

(٣) في ابن الأثير: «سائسًا»، وهو غلط، والصحيح ما أثبتناه عن أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار. والشراة هم الخوارج.

الفصل الثالث

النزاع بين الأمين والمأمون

(١) توطئة

عرفت مما ذكرناه لك في مجمل كلامنا عن الرشيد والأمين، أن الرشيد أعلن ولاية العهد للأمين في سنة ١٧٥ هجرية، وسِنُّ الأمين فيما قيل وقتئذٍ خمس سنين، ثم أشرك معه المأمون في ولاية العهد سنة ١٨٣ هجرية، ثم استوثق لكليهما من أخيه سنة ١٨٦ هجرية، وهو عام حج الرشيد، بأن استكتب كلًّا منهما عهدًا بما عليه وله قبل الآخر، وعلَّق العهدين بالكعبة، كما قدمنا.

ويؤخذ من نصوص العهدين وما تبودل بعد ذلك من الرسائل بين الأمين والمأمون، مما سنورد لك بعضه لما تضمنته من «الديبلوماطيقية العباسية»؛ وهي: لين في حزم، وتيئيس في تأميل طويل الأجل، ويؤخذ منها أن خراسان ونواحيها إلى الري كانت تحت إمرة المأمون يتصرف في جميع شئونها من سياسية وحربية واقتصادية وقضائية تصرفًا تامًّا، لا تربطه بحاضرة الخلافة إلا رابطة الدعاء للخليفة، وقد صارت إليه إمرة هذه النواحي في عهد الرشيد، وهي من الأمور التي أخذ الأمين بالوفاء بها فيما أخذ به من عهود ومواثيق.

وكان الرشيد قد أشرك في سنة ١٨٨ هجرية ولده القاسم مع أخويه في ولاية العهد، وجعل من نصيبه العمل على الشام وقنسرين والعواصم والثغور.

وكانت الأمور جارية مجراها الطبيعي آخر أيام الرشيد، ثم شطرًا كبيرًا من السنة الأولى من خلافة الأمين، إلا ما كان من أشياء طوى عليها المأمون كشحًا دُرْبة منه وسياسة، وحصافة وكياسة، وتريثًا وتعقلًا، وحزامة وتمهلاً.

ولم تنقض السنة الأولى من خلافة الأمين حتى كانت الدسائس قد فعلت فعلها، وحتى كانت المنافسة العنيفة بين البطانتين قد بلغت غايتها، وأخذ كل من الأخوين يحذر أخاه ويتقيه، وامتلأت الصدور حفائظ وإحنًا، ولم يبق إلا أن تُلمس فتنفجر. وسنفصل لك كل ذلك تفصيلاً.

(٢) بيعة الأمين وخلافته

لما خرج رافع[١] بن الليث بن نصر بن سيار بخراسان، وكثُف أنصارُه، وقويت شكوته، وعظم خطره، رأى الرشيد أن يخرج إليه بنفسه لمحاربته، وتسكين حبل الأمن الذي اضطرب في تلك النواحي، فأصابه من مشاق السفر وتغير الطقس وشدة التفكير ما أعلَّ صحته، وبدا له من ظروف الأحوال ما حمله على تجديد البيعة للمأمون الذي كان بمرو، وأوصى بأن يصير ما معه من قواد وجند وسلاح ومال إلى جانبه، وأخذ المواثيق على من معه بأن يُوفوا بهذه الوصية.

ثم أخذت تشتدُّ به العلة حتى وافته مَنيَّته بطوس سنة ١٩٣ هجرية، وبويع للأمين بالخلافة في عسكر الرشيد، ووصله نعي الرشيد في بغداد يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من جُمادى الآخرة، وقيل: ليلة النصف من هذا الشهر، فكتَم الخبر بقية يومه وليلته، ثم أظهره يوم الجمعة.

ويحدثنا التاريخ أن الأمين لما بلغه اشتداد المرض على الرشيد وتوقَّع وفاته بعَث بكر بن المعتمر رسولًا إلى مقر الخليفة ليوافيه بالأخبار كل يوم، وكتب معه كتبًا، وجعلها في قوائم صناديق منقورة ألبسها جلد البقر ليخفي أمرها، وكلفه ألا يُظهر أحدًا على شيء من أمره وما توجَّه فيه ولو قُتل، حتى إذا نفذ أمر الله في الرشيد دفع إلى كل مَن له كتاب كتابه.

فلما وصل رسول الأمين رابَ الرشيدُ قدومه، فسأله عما جاء له، فلمَّا لم يجد في جوابه ما يزيل ريبه أمر بتفتيشه وحبسه. ولعلك تصيب لباب الصواب أو لا تعدوه كثيرًا إذا افترضت أن هذا الريب الذي خامره من رسول الأمين كان من العوامل التي حملته على تجديد البيعة للمأمون، وأن يوصي له بما معه من جند وسلاح ومال.

لبث رسول الأمين في الحبس أشهرًا؛ إذ تاريخ الكتب التي يحملها إلى مَن أرسلت إليهم شوال سنة ١٩٢هـ، ووفاة الرشيد كانت في جُمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ، ثم بدا للرشيد أن يحمل بكرًا على الإقرار، فكلَّف الفضل بن الربيع ذلك، وأن يُهدِّده بالموت إذا لم يقرَّ. وقد حالت وفاة الرشيد في ذلك اليوم دون تمام هذا الإقرار، ثم لما وثق الرسول من وفاة الرشيد دفع إلى كلٍّ كتابه.

وقد أثبتنا لك من هذه الكتب كتابه إلى أخيه المأمون وكتابه إلى أخيه صالح، في موضعهما من المجلد الثالث من هذا الكتاب؛ لما لهما من خطر في موضوع النزاع، فإنهما يدلان على أن الأمين لم يكن لينكث ما عقد من عهود ومواثيق، وإنما بطانة السوء هي التي زينت له أن يفعل ما فعل، فراجعهما ثمة، وتأمل طويلًا فيما لبطانات السوء من وخيم العواقب بين

الأشقاء والزعماء والأمراء، وما تجره على البلاد من انتثار العقد وتشتيت الشمل، وتشعث الألفة، وفرقة الجماعة، وسريان الفتن، وذيوع الفوضى، وانتشار الاضطرابات، واندلاع نيران الثورات، ومن ترجيح كفة الأشرار على الأبرار، إلى غير ذلك من شتى النتائج السيئة والعواقب المهلكة التي سنحدثك عنها، وستراها واضحة جلية في كلمتنا الآتية.

(٣) مبدأ النزاع وكيف تقلب ونتيجته

قد تطلب إليَّ، وفقك الله، أن تقف على ما كان لتلك الكتب من أثر في نفوس من أرسلت إليهم، وإني شافٍ غُلتك، مُجيبك إلى سُؤْلك، مُحيلك إلى الطبري في هذا الصدد إذ يقول:

لما قرأ الذين وردت عليهم كتب محمد بـ «طوس» من القواد والجند وأولاد هارون، تشاوروا في اللحاق بمحمد، فقال الفضل بن الربيع: لا أدع مُلكًا حاضرًا لآخر لا يدري ما يكون من أمره. وأمَر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك؛ محبةً منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم ببغداد، وتركوا العهود التي كانت أخذت عليهم للمأمون.

أما المأمون، بعد أن انتهى إليه بمرو خبر نكث القوم للعهود التي أخذت عليهم وفرارهم إلى بغداد بما كان الرشيد أوصى بأن يكون له من جند ومال وسلاح، فقد اجتمعت كلمة الرواة على حسن تيقظه وسرعة مبادرته لشتى أموره، وأنه شد لها حيازيمه، وحسر لها عن ساقه. ويحدثنا التاريخ أنه قد جَمع من معه من قواد أبيه وأخبرهم الخبر وشاورهم في الأمر، فأشاروا عليه أن يلحق القومَ في ألفي فارس ويحولَ بينهم وبين ما أرادوا.

ولكن المأمون عمل بمشورة الفضل بن سهل الذي كان يثق به وبكفايته، ويؤمن بكياسته وحسن سياسته، ويقتنع بثقوب بصره وصدق نظره، فقد قال له الفضل: إن فعلت ما أشاروا به عليك جعلت هؤلاء هدية إلى محمد، ولكن الرأي أن تكتب إليهم كتابًا، وتُوجِّه إليهم فتذكرهم البيعة وتسألهم الوفاء، وتُحذِّرهم الحنث وما يلزمهم في ذلك في الدنيا والدين، وإن كتابك ورسلك تقوم مقامك فتستبرئ ما عند القوم، وتُوجِّه سهل بن صاعد، وكان على قهرمته، فإنه يأمُلك ويرجو أن ينال أمله، فلم يألوك نصحًا، وتوجِّه معه نوفلًا الخادم مولى موسى أمير المؤمنين، وكان عاقلًا، فلم ير المأمون وهو الحاذق الفطن ندحة دون صدوره عن رأي ابن سهل، فكتب كتابًا ووجَّه من أشار بهما الفضل إلى القوم، فلحقاهم بنيسابور، فقال الفضل ابن الربيع لما وصله كتاب المأمون معتذرًا متعللًا: «إنما أنا واحد منهم!» وقد نال بعضُهم من المأمون وأغلظ لرسوليه، ثم رجع الرسولان بالخبر.

وكان ممكنًا بعد أن طوى المأمون كشحًا على ما وقع من القوم من نكث للعهود، واغتصاب لما أوصى به الرشيد له من جند ومال وسلاح، وبعد أن أخذ يُهدي إلى أخيه خير ما وصلت إليه يُمناه من تُحف خراسان ونفائسها، أن تسير الأمور في مجراها الطبيعي، وأن يستقر الأمر بين الأخوين على ما أراد الرشيد، لولا أن بطانة الأمين أوغرت صدره على أخيه، ولولا أن بطانة المأمون حفزته إلى مقابلة العدوان بمثله، وأفعمت قلبه ثقة بالغلبة والظفر، وإيمانًا بالفوز والنُّجح.

وإن كلمة الفضل بن الربيع «لا أدع ملكًا حاضرًا لآخر لا يدري ما يكون من أمره» فيها الغنية والكفاية في تفهيمنا الأساس الذي بنيت عليه تصرفاته بين الأخوين، فهو ينظر لمصلحة من بيده الملك اليوم، لا يحفل

ببيعة ولا عهد، ولا يكترث لوحدة قومية، ولا يحفل بإحلال الوفاق بين العباد، ولا يعمل على مصافاة ولا وداد، وإنما همه الملك الحاضر، والإمعان في إرضاء الملك الحاضر.

كذلك كانت حال الفضل بن سهل في موقفه مع عبد الله المأمون، ومهما كانت صورة المأمون التي صورها لنا التاريخ بأنه المغلوب على أمره في النزاع الذي نشب بين الأخوين، وأن الأمين هو الناكث الغادر، ومهما كانت القلوب الإنسانية تحنو على المظلوم، وتعطف على المغلوب، مهما كان كل ذلك، مما يجعلنا نستسيغ تصرفات الفضل بن سهل مع المأمون، بل مما يدفعنا إلى الافتنان بها، وعزو الحصافة والأصالة والكياسة إلى صاحبها، وأن ليس هناك من هو أنهدُ منه في مثل مواقفه ولا أجزى، ولا أحكم من تدبيراته ولا أوفى، ولا أرهف غرارًا من عزماته ولا أمضَى، ولا أقدر منه في خططه ولا أغنَى، بيد أنا مع ذلك إذا جردنا النفس الإنسانية من بعض صفاتها ونظرنا «ببرود» - على حد التعبير الإنجليزي - وبحيدة ونَصفة منه وله، فإنا نقرر من غير أن نعدو الحق والواقع، أن الفضل بن سهل لعب مع المأمون ذلك الدور الخطير بذاته الذي لعبه الفضل بن الربيع مع الأمين، وأن كلًّا قد توكأ على أميره لغايته، واستغله في سبيل نجح سياسته، ودفع به إلى حيث يريد.

انظر إليه وقد عادت وفود المأمون من مقابلة الفضل بن الربيع ومن لحق به من جند وسلاح؛ تَرَهُ يُصارح المأمون عنهم بقوله: أعداء قد استرحت منهم، ولكن افهم عني ما أقول لك: إن هذه الدولة لم تكن قط أعز منها أيام أبي جعفر، فخرج عليه «المقنع» وهو يدَّعى الربوبية، وقال بعضهم:

طلَب بدم أبي مسلم، فتضعضع المعسكر بخروجه بخراسان، فكفى الله المُؤنة، ثم خرج بعده يوسف البرم، وهو عند بعض المسلمين كافر، فكفى الله المُؤنة، ثم خرج أستاذ سيس يدعو إلى الكفر، فسار المهدي من الري إلى نيسابور، فكفَى الله المؤنة.

ولكن ما أصنع أكبر عليك، أخبرني كيف رأيت الناس حين ورد عليهم خبر رافع؟ قال المأمون: «رأيتهم اضطربوا اضطرابًا شديدًا»، فقال له الفضل: وكيف وأنت نازل في أخوالك وبيعتُك في أعناقهم، كيف يكون اضطراب أهل بغداد؟ اصبر وأنا أضمن الخلافة، قال المأمون: «قد فعلتُ وجعلت الأمر إليك فقُم به».

على أنه إذا صدق الرواة فيما يروونه لنا من أن الفضل بن سهل قال للمأمون في حديثه معه: «لأصدقنَّك أنَّ عبد الله بن مالك ويحيى بن معاذ ومَن سمَّينا من أمراء الرؤساء إن قاموا لك بالأمر كان أنفع مني لك برياستهم المشهورة، ولما عندهم من القوة على الحرب، فمن قام بالأمر كنت خادمًا له حتى تصير إليَّ محبتك، وترى رأيك فيَّ»، وصدقوا في أن الفضل بن سهل لقي هؤلاء الزعماء في منازلهم، وذكر لهم البيعة التي في أعناقهم، وما يجب عليهم من الوفاء، وأن الخيبة كانت نصيبَ دعوته لهم وتذكيره إياهم، وأنها مع ذلك لم تَصدِفه عن قصده الذي نهد إليه، ولم تَحُل بينه وبين مضيه قدمًا في سبيل غايته التي تأدَّى بها بأداته، وتذرع لها بذرائعه، وأخذ لها عدته، وأرهف لها عزمته، وأنه قال للمأمون: «لقد قرأت القرآن وسمعت الأحاديث وتفقهت في الدين، فالرأي أن تبعث إلى مَن بالحضرة من الفقهاء فتدعوهم إلى الحق والعمل به، وإحياء السنة، ونقعد على اللبود

وتردَّ المظالم»، وصدقوا حقًّا في أن المأمون والفضل فعلا ذلك، وأنهما بعثا إلى الفقهاء وأكرما القواد والملوك وأبناء الملوك، وصدقوا في أن الفضل كان يقول للتميمي: نقيمك مقام موسى بن كعب، وللربعي مقام أبي داود خالد بن إبراهيم، ولليماني مقام قحطبة ومالك بن الهيثم، وصدقوا في أنهما كانا يدعوان كل قبيلة إلى نقباء ورؤساء الدولة كاستمالتهم الرءوس، وصدقوا في أن المأمون والفضل قد حطَّا عن خراسان ربع الخراج حتى حسُن موقع ذلك من الخراسانيين وسُرُّوا به وقالوا: «ابن أختنا وابن عم نبينا ﷺ»، وصدقوا في أن المأمون تواترت كتبه إلى أخيه محمد الأمين بالتعظيم والهدايا إليه من طرف خراسان، من المتاع والآنية والمسك والدواب والسلاح، حتى أوائل سنة أربع وتسعين ومائة التي عزل فيها الأمين أخاه القاسم عما كان أبوه ولاه من عمل قنسرين والشام والعواصم والثغور، وولَّى مكانه خزيمة بن خازم، والتي أمر فيها بالدعاء لابنه موسى على المنابر بالإمرة، وحتى مكَر كل واحد منهما بصاحبه وظهر بينهما الفساد - إذا صدق الرواة في كل ذلك - فإنا نرى من النصفة العلمية والتاريخية أن نقرر حينئذٍ أن الفضل بن سهل كان دَهِيًّا حقًّا، وممعنًا في الديبلوماتيقية، وكان موقفه لا يقل عن موقف «وارن هاستنج» و«كليف» في الهند، وغيرهما من جهابذة السياسة وأقطاب الدهاء، وربما كانت مكانته أسمى منهما وأرفع وأخلق بمقارنتها بمن يشار إليه بالبنان من ساسة هذا الزمان.

ولننظر معًا - وهبنا الله وإياك الجلد والأناة، ووفقنا إلى ما نرومه من تمحيص وتحقيق، وتفهم وتدقيق - في حوادث سنة أربع وتسعين ومائة؛ لنكون مُلمِّين بتحول النزاع الذي شجر بين الأخوين، ولنؤمن الإيمان كله

أن البطانة قد لعبت دورًا شنيعًا في إشعال جذوة الحقد والسخيمة بينهما، وعملت على إضرام أُوارها، وسعَت جهدها في توسيع مسافة الخلف بين الأخوين حتى كان ما كان، نجد أن الفضل بن الربيع، فيما يرويه لنا المؤرخون، سعى بعد مقدمه العراق على محمد مُنصرفًا عن «طوس» وناكثًا للعهود التي كان الرشيد أخذها عليه لابنه عبد الله، وعلم أن الخلافة إن أفضت إلى المأمون يومًا وهو حي لم يُبْق عليه، وكان يترقب في ظفره به عَطَبه - سعى جهده في إغراء محمد به، وأعمل قريحته في حثِّه على خلعه، وزيَّن له، بما في مقدوره، أن يصرف ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى، ولم يكن ذلك في رأي محمد ولا عزمه، بل كان عزمه، فيما ذكر الرواة عنه الوفاء لأخويه عبد الله والقاسم بما كان أخذ عليه لهما والده من العهود والشروط، فلم يزل به الفضل بن الربيع يُصغِّر في عينيه شأن المأمون، ويزيِّن له خلعه، حتى قال له: «ما تنتظر يا أمير المؤمنين بعبد الله والقاسم أخويك، فإن البيعة لك كانت متقدمة قبلهما، وإنما أُدخلا فيها بعدك واحدًا بعد واحد!».

قال ذلك ابن الربيع وضمَّ إلى رأيه معه علي بن عيسى بن ماهان والسندي وغيرهما ممن بحضرته.

ومن المعقول أن تفترض أن الفضل مضى في الإيقاع على هذه النغمة ثَنْيًا بعد ثني، ومرة إثر أخرى، وقدح في ذلك قريحته، واستخدم شتى وسائل أمثاله ونظرائه حتى أزال محمدًا عن رأيه، وقد ذكر المؤرخون أن أول ما بدأ به محمد عن رأي الفضل بن الربيع فيما دبر من ذلك، أن كتب إلى جميع العمال في الأمصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالإمرة بعد الدعاء له، وللمأمون والقاسم بن الرشيد.

والآن، بعد أن وقفت على تصرف محمد وجماعة محمد مع المأمون وجماعة المأمون، لك أن تستنبط ما يفعله الفريق الآخر إجابة على تصرف الفريق الأول، ولك أن تنتظر من المأمون أن يدبر أمره تدبير من يرى أن أخاه يدبر عليه خلعه، ولك أن تنتظر مثل ذلك من جماعة المأمون وأنصاره.

وهكذا تنبئنا حوادث السنة نفسها؛ إذ ينبئنا الطبري أن فيها قطع المأمون البريد عن محمد، وفيها أسقط اسمه من الطرز، وفيها لحق رافع بن الليث بالمأمون، وهو من سلالة نصر بن سيار لما انتهى إليه من الخبر عن المأمون، وحسن سيرته في أهل عمله، وإحسانه إليهم، فيما يرويه المؤرخون، أو سعي المأمون ورجالات المأمون كهرثمة وطاهر في إصلاح ما بينه وبين المأمون، وطلب الأمان له؛ ليكون عدة وظهيرًا للحزب المأموني، كما نستسيغه نحن ونستخلصه، وفيها ولَّى المأمون هرثمة رياسة الحرس، ولهرثمة مكانته وشهرته، وله سيرته ونجدته، ولرافع بيته وأنصاره، وكتائبه وفرسانه، كما أن لطاهر بن الحسين حزمه وشجاعته وفروسته ومرانه، ولابن سهل بلا ريب حذقه في تصرفاته التي بمثلها ترد الأهواء الشاردة، وتستصرف الأبصار الطامحة، وعلى رأسهم أو إلى جانبهم إن شئت المأمون، وقد تسربل بالثوب الذي نُصِح إليه بلبسه، فأضحى محمود الشيم، مرضيَّ الخلال، وهو باستعداده ونزعته ذلك الرجل السياسي المعتدل المزاج، الهادئ الأعصاب، السديد التصرف، السمح الأخلاق، اللين العريكة، الكريم المهزة، مع أناة وجلد وعزم وحزم ونفاذ ومضاء.

ومن المعقول أيضًا أن ينكر الأمين ذلك من ناحيته أيضًا، والمعقول أن يبدأ بالتدبير على المأمون ليصدف عنه قلوب رجاله، وأن تتسلسل الحلقات وتستطرد الإجراءات المحتومة الوقوع في مثل هذه الحالات.

وربما كنا على حق إذا قلنا: إن النزاع أضحى بين الفضلين؛ ابن سهل وابن الربيع، وانقلب عنيفًا أعظم العنف، فقد كان بين كفايتين لا يعرفان الونية والتضجيع،(٢) ولهما من الحصافة وثقوب البصيرة، ومن سعة الحيلة وقَدْح الخَتْل، ومن وفرة الحنكة وغناء الاختبار، ومن مضاء العزيمة وثروة الذهن، لهما من ذلك كله وما إلى ذلك من شتى الصفات السياسية ما لا قبل لأحدهما به من صاحبه، فلكلٍّ من صاحبه بواء ونديد، ومُنازِل عنيد، وكميٌّ صنديد.

انظر إلى الأمين قد كتب إلى العباس بن عبد الله بن مالك، وهو عامل المأمون على الريِّ، وأمره بأن يبعث إليه بغرائب غروس الريِّ، فبعث إليه المسكين بما أمره به، غيرَ عالم أن للمأمون ورجاله عيونًا وأرصادًا، ولهم قبل ذلك يقظتهم التي لا تني ولا تغفل، فماذا كان من المأمون؟

بلغ المأمون ما كان من عامله الساذج المسكين فعزله، ووجَّه مكانه الحسن بن علي المأموني، وأردفه بالرُّسغيِّ على البريد، وهكذا حاولت الديبلوماتيقية «الربيعية» أن تصرف قلب عامل كبير عن أمر المأمون والقضية المأمونية؛ نِكايةً بالديبلوماتيقية «السهلية» التي اكتسبت رافعًا وضمَّت إلى حزبها بيت ابن سيار، وناهيك ببيت ابن سيار!

ولنتطرق الآن إلى التكلم عن الحرب الكلامية التي نشبت بين الأخوين، والتي كانت بلا ريب مقدمة لوقوع الحرب العامة، وبعبارة أدق: لنتكلم عن الوفود السياسية محاولين على قدر استطاعتنا، واستنادًا إلى ما بين أيدينا من مصادر ووثائق وصْف الكفايات السياسية في ذلك العصر الغني حقًّا برجالاته ودهاته.

(٤) الوفود السياسية

لنتساءل أولًا: ماذا حدث في السنة التي نحن في صددها، وهي سنة أربع وتسعين ومائة؟ فإنها مليئة - والحق يقال - بمنتجات هاتين العقليتين العاتيتين حقًّا، الجبارتين بلا مبالغة ولا إغراق، ونعني بهما عقليتي الفضل ابن الربيع والفضل بن سهل.

حدث أن وجَّه الأمين وفدًا سياسيًّا إلى المأمون قوامه العباس بن موسى، وصالح صاحب المصلى، ومحمد بن عيسى بن نهيك، وطلبوا إليه تقديم موسى بن الأمين الذي سماه «الناطق بالحق» على نفسه، وقد يكون من الطريف الممتع حقًّا أن نوضح ما كان من أمر هذا الوفد، وهل وفق الحزب المأموني فيما حاول من الأخذ بقلوب رجاله، أو بعضهم على الأقل؟ فإن في توضيحنا لذلك ما يمدنا بصورة لا بأس في جملتها، من صور الديبلوماتيقية في ذلك العصر، وإن في تفهمنا هذه الصورة ووقوفنا عليها نفعًا عظيمًا يعيننا، بلا ريب، على تفهم العصر وروح سياسته.

يحدثنا التاريخ أن العباس بن موسى، أحد رجال الوفد الأميني، قال للمأمون: «وما عليك أيها الأمير من ذلك، أي من تقديم موسى عليه، فهذا جدي عيسى بن موسى قد خلع، فما ضرَّه ذلك؟!» ويحدثنا أيضًا بأن الفضل بن سهل كان موجودًا، كما هو المنتظر، في ذلك المؤتمر السياسي، وأنه لما سمع كلمة العباس هذه صاح به: «أسكت فجدُّك كان في أيديهم أسيرًا، وهذا بين أخواله وشيعته!».

أتعرف ماذا كان من أمر الوفد؟

إنه قد انصرف، ولكن لا إلى الأمين، بل إلى منازل خصصها لهم المأمون،

حيث أفرد لكل واحد من أعضاء الوفد منزلًا، وأكرمهم مثل ذلك النوع من الإكرام السياسي الذي تتلقى به الحكومات الحاضرة الوفود السياسية، فتأمَّلْ.

ثم لننظر معًا، معتصمين بالأناة والصبر قليلًا، في تصرف الفريق الآخر في السنة عينها، فنرى أن الوفد قد عاد إلى الأمين وأخبره بامتناع المأمون، فألح عليه الفضل به الربيع وعلي بن ماهان في البيعة لابنه موسى «الناطق بالحق»، وخلع المأمون، فأجاب الأمين إلى ذلك، وأحضن ابنه علي بن موسى الذي ولاه العراق، وتسارع بعض ولاة الأمين في انتهاز الفرصة للتقرب منه، والتحبب إليه بالمبادرة بأخذ البيعة له قِبَلهم، وقد كان أول من فعل ذلك بشر بن السعيد الأزدي وصاحب مكة وصاحب المدينة.

لم يكتف الفضل بهذا ولا بالكثير من أمثاله مما يُنتظر من مثله في مثل تلك الظروف، من نهيه عن ذكر عبد الله المأمون والقاسم بن الرشيد، وحظر الدعاء لهما على شيء من المنابر، بل دسَّ من ذكر المأمون بسوء، وحطَّ من قدره، ولصق به أقبح النقائص والمثالب، ووصمه بأشنع الوصمات والمعايب.

ولم يكتب الفضل بهذا، بل وجَّه إلى مكة كتابًا مع محمد بن عبد الله، أحد سدنة البيت الحرام، فأتاه بالكتابين اللذين كان الرشيد كتبهما لعبد الله المأمون على محمد الأمين، وكان حظُّهما من الأمين لما صارا إليه حظَّ غيرهما من العهود في ذلك العصر، و«المعاهدات» و«قصاصات الورق» في عصرنا الحاضر، فمزقهما وأبطلهما، وأجاز سارقهما.

ثم تعال معي لننظر معًا نظرة إنعام وتروٍّ في مشاورة المأمون لشيعته، حينما حزبه الأمر، وضاق به السبيل، فهي لعمرك آية في الحكمة والمهارة السياسية.

يقول الطبري: «كان محمد، فيما ذكر، كتب إلى المأمون، قبل مكاشفة المأمون إياه بالخلاف عليه، يسأله أن يتجافى له عن كور من كور خراسان سماها، وأن يوجه العمال إليها من قبل محمد، وأن يحتمل توجيه رجل من قبله يوليه البريد عليه ليكتب إليه بخبره، فلما ورد إلى المأمون الكتاب بذلك كبُر ذلك عليه واشتد، فبعث إلى الفضل بن سهل وإلى أخيه الحسن فشاورهما في ذلك، فقال الفضل: «الأمر خطير، ولك من شيعتك وأهل بيتك بطانة، ولهم تأنيس بالمشاورة، وفي قطع الأمل دونهم وحشة، وظهور قلة ثقة، فرأي الأمير في ذلك»، وقال الحسن: كان يقال: «شاور في طلب الرأي من تثق بنصيحته، وتألَّف العدو فيما لا اكتتام له بمشاروته».

فأحضر المأمون الخاصة من الرؤساء والأعلام، وقرأ عليهم الكتاب، فقالوا جميعًا له: «أيها الأمير، تشاور في مخطر، فاجعل لبديهتنا حظًّا من الروية»، فقال المأمون: ذلك هو الحزم، وأجَّلهم ثلاثًا، فلما اجتمعوا بعد ذلك قال أحدهم: «أيها الأمير، قد حملت على كرهين، ولست أرى خطأ مدافعة بمكروه أولهما مخافة مكروه آخرهما»، وقال آخر: «كان يقال، أيها الأمير أسعدك الله: إذا كان الأمر مخطرًا فإعطاؤك من نازعك طرفًا من بغيته أمثل من أن تصير بالمنع إلى مكاشفته»، وقال آخر: «إنه كان يقال: إذا كان علم الأمور مغيبًا عنك، فخذ ما أمكنك من هدية يومك؛ فإنك لا تأمن أن يكون فساد يومك راجعًا بفساد غدك»، وقال آخر: «لئن خفت للبذل عاقبة، إن أشد منها لما يبعث ألا تأمن الفرقة»، وقال آخر: «لا أرى مفارقة منزلة سلامة، فلعلِّي أُعطى معها العافية»، فقال الحسن: فقد وجب حقكم باجتهادكم، وإن كنت من الرأي على مخالفتكم، قال المأمون: فناظِرْهم!

قال: لذلك ما كان الاجتماعُ! وأقبل الحسن عليهم فقال: هل تعلمون أن محمدًا تجاوز إلى طلب شيء ليس له بحق؟ قالوا: نعم، ويحتمل ذلك لما نخاف من ضرر منعه، قال: تثقون بكفه بعد إعطائه إياها فلا يتجاوز الطلب إلى غيرها؟

قالوا: لا، ولعل سلامة تقع من دون ما نخاف ونتوقع، قال: فإن تجاوز بعدها بالمسألة، أفما ترونه قد توهن بها بذل منها في نفسه؟ قالوا: ندفع ما يعرض له في عاقبته بمدافعة ما تنجزون في عاجله، قال: فهذا خلاف ما سمعناه من قول الحكماء قبلنا؛ قالوا: استصلح عاقبة أمرك باحتمال ما عرض من كره يومك، ولا تلتمس هدية يومك بإخطار أدخلته على نفسك في غدك، قال المأمون للفضل: ما تقول فيما اختلفوا فيه؟ قال: «أيها الأمير، أسعدك الله، هل يؤمن محمد أن يكون طالَبك بفضل قوتك ليستظهرَ بها عليك غدًا على مخالفتك؟ وهل يصير الحازم إلى فضلة من عاجل الدعة بخطر يتعرض له في عاقبته؟ بل إنما أشار الحكماء بحمل ثقل فيما يرجون به صلاح عواقب أمورهم»، فقال المأمون: «بل بإيثار العاجلة صار من صار إلى فساد العاقبة في أمر دنيا وآخرة»، قال القوم: قد قلنا بمبلغ الرأي، والله يؤيد الأمير بالتوفيق، فقال: اكتب يا فضل إليه، فكتب».

ويستطرد الطبري بعد ذلك في القول بأن المأمون أملى على الفضل هذا الكتاب ليبعث به إلى أخيه، وهو: «قد بلغني كتاب أمير المؤمنين يسأل التجافي عن مواضع سماها، مما أثبته الرشيد في العقد، وجعل أمره إليَّ، وما أمر رآه أمير المؤمنين أحد يجاوز أكثره، غير أن الذي جعل إلي الطرف الذي أنابه لا ظنينٌ في النظر لعامته، ولا جاهل بما أسند إليَّ من أمره ولو لم يكن

ذلك مثبتًا بالعهود والمواثيق المأخوذة، ثم كنت على الحال التي أنا عليها من إشراف عدو مخوف الشوكة، وعامة لا تتألف عن هضمها، وأجناد لا يستتبع طاعتها إلا بالأموال، وطرف من الإفضال، لكان في نظر أمير المؤمنين لعامته، وما يحب من لمِّ أطرافه ما يوجب عليه أن يقسم له كثيرًا من عنايته، وأن يستصلحه ببذل كثير من ماله، فكيف بمسألة ما أوجبه الحق، ووكدته مأخوذه العهد؟ وإني لأعلم أن أمير المؤمنين لو علم من الحال ما علمت لم يطلع ما كتب بمسألته إلي، ثم أنا على ثقة من القبول بعد البيان إن شاء الله».

ألا يجدر بنا - وقد اطلعنا على تلك المشاورة السياسية التي يجوز لك أن تقول عنها، بالنسبة لوقتها وجيلها، وموضوعات وقتها وجيلها: إنها لا تقل في دقتها وحذقها وقوة مناحيها عمَّا يجري حول المائدة الخضراء بين ساسة اليوم - أن نقول: إن المأمون قد حُصِّن بساسة عُتاة ومُشيرين دُهاة.

ثم انظر إلى مبالغة المأمون في حذره، أو مبالغة حزبه في الحيطة والحذر، فقد أثبت المؤرخون أنهم قد وجَّهوا حُرَّاسًا من قِبَلهم على الحدود حتى لا يتركوا للأمين أو لرجاله فرصة الاتصال برعية المأمون، وبالغوا أيَّما مبالغة في تدبيرهم حتى جاء كما يقول الرواة: «تدبيرًا مؤيدًا، وعقدًا مستحصدًا متأكدًا، فضمنوا بذلك ألا تحمل رعيتهم على منوال خلاف أو مفارقة».

وهنا لا نرى مندوحة من إثبات ذلك المجهود العظيم الذي بذله الفضل بن الربيع أو الأمين، كيفما شئت التعبير، في استمالة القلوب النافرة من الجماعة المأمونية، فقد كان، والحق يقال، طلق اليدين، ندي الكفين، كثيرةً جدواه، وافرةً حُذْياه، عظيمة عطاياه، ولم يألُ جهدًا في إرسال دعاته

وأنصاره لبثِّ الدعوة الأمينية في العامة، وإظهارهم على رجحانها وحقها وعدلها، وإظهار الحجة المفارقة، والدعاء لأهل القوة إلى المخالفة. وكان هؤلاء الدعاة يبذلون المال، ويضمنون للأنصار معظم الولايات والقطائع، وصفوة القول أن تصرف الأمين وجماعته من هذه الناحية كان قريب الشبه بتصرف المأمون وجماعته.

ولكن هؤلاء الدعاة وجدوا جميع ذلك ممنوعًا محسومًا، حتى صاروا إلى باب المأمون، وهنا يجب أن نقول: إن الحرب الكلامية قد بدأت تشتد بين الأخوين، والحرب الكلامية، أيدك الله، هي ميزة هامة من ميزات العصر العباسي، وقد صدق «كشاجم» في قوله مشيرًا إلى عداوة أصحاب الأقلام في تلك الدولة ومهادنة أصحاب السيوف:

هنيئًا لأصحاب السيوف بطالة ... تُقضَّى بها أوقاتهم في التنعم
فكم فيهم من وادع العيش لم يهج ... لحرب ولم ينهد لقرن مصمم
يروح ويغدو عاقدًا في نجاده ... حسامًا سليم الحد لم يتثلم
ولكن ذوو الأقلام في كل ساعة ... سيوفهم ليست تجف من الدم

وإن المطلع على تاريخ العصر، المستقصي لدقائقه وجلائله، الواقف على أسراره وخفياته، وآدابه ومشاوراته، ليوافق أولئك الذين يذهبون في القول بأن قِوام السياسة في هذه الدولة كان على التحيل والمخادعة أكثر مما كان على القوة والشدة.

لننتقل الآن إلى ذكر الكتاب الذي بعث به الأمين إلى أخيه مع رسله الذين بعثهم للدعوة وإثارة رجالات المأمون قبل كل اعتبار، فهاكه: «أما بعد، فإن أمير المؤمنين الرشيد وإن كان أفردك بالطرف، وضم ما ضم إليك

من كور الجبل تأييدًا لأمرك، وتحصينًا لطرفك، فإن ذلك لا يوجب لك فضلة المال عن كفايتك، وقد كان هذا الطرف وخراجه كافيًا لحدثه، ثم يتجاوز بعد الكفاية إلى ما يفضل من رده، وقد ضم لك إلى الطرف كورًا من أمهات كور الأموال لا حاجة لك فيها، فالحق فيها أن تكون مردودة في أهلها ومواضع حقها، فكتبت إليك أسألك رد تلك الكور إلى ما كانت عليه من حالها؛ لتكون فضول ردها مصروفة إلى مواضعها، وأن تأذن لقائم بالخبر يكون بحَضْرتك يؤدي إلينا علم ما نُعنَى به من خبر طرفك، فكتبت تَلطُّ دون ذلك بما إن تم أمرك عليه صيَّرنا الحقُّ إلى مطالبتك، فانثنِ عن همِّك أنثنِ عن مطالبتك، إن شاء الله».

ورد الكتاب على المأمون، وقرأه المأمون وجماعته، فسرعان ما رد المأمون وحزبه عليه بهذا الكتاب: «أما بعد، فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، ولم يكتب فيما جهل فأكشف له عن وجهه، ولم يسأل ما لا يوجبه حق فيلزمني الحجة بترك إجابته، وإنما يتجاوز المناظران منزلة النصفة ما ضاقت النصفة عن أهلها، فمتى تجاوزها متجاوز، وهي موجودة الوسع، لم يكن تجاوزها إلا عن نقضها واحتمال ما في تركها، فلا تبعثني يا ابن أبي على مخالفتك وأنا مُذعِن بطاعتك، ولا على قطيعتك وأنا على إيثار ما تحب من صلتك، وارض بما حكم به الحق في أمرك أكن بالمكان الذي أنزلني به الحق فيما بيني وبينك، والسلام».

ثم انظر إلى نعومة المأمون السياسية - ونثق أنها ستروقك كثيرًا، وأنك ستشهد بعلو كعب صاحبها في الفنون السياسية - فإن التاريخ يُحدِّثنا أنه أحضر رُسلَ أخيه وقال لهم: «إن أمير المؤمنين كتبتُ إليه في أمرٍ كتَب إليَّ

جوابه، فأبلغوه الكتاب، وأعلموه أني لا أزال على طاعته، حتى يضطرني بترك الحق الواجب إلى مخالفته»، فأراد أعضاء الوفد الأميني أن يذهبوا في أفانين القول، وأرادوا المحاجَّة والمدافعة، وأرادوا المفاوضة والمناقشة، ولكن المأمون السياسي المتيقظ جبار العقل قطَع عليهم سبيل القول وسبيل التفكير؛ إذ جابههم بقوله: «قفوا أنفسكم حيث وقفنا بالقول بكم! وأحسنوا تأدية ما سمعتم، فقد أبلغتمونا من كتابنا ما لا عسى أن تقولوه لنا».

انصرف أعضاء الوفد ولم يستطيعوا أن يثبتوا لأنفسهم حجة قبل المأمون، ولم يوفقوا إلى حمل خبر يؤدونه إلى صاحبهم، ورأوا من المأمون وجماعة المأمون كما يقول الطبري: «جِدًّا غير مشوب بهزل في منع ما لهم من حقِّهم الواقع بزعمهم».

وصل الخبر إلى الأمين فأرغى وأزبد، واستمرت الحرب الكلامية على حدتها بين الأخوين بشأن المال الذي تركه الرشيد وبشأن غير المال، مما يصح الاطلاع عليه، وعلى ما رواه سهل بن هارون وأضرابه وصفًا لذلك في مظانه.

على أنه يجدر بنا هنا أن نشير إلى ما كان من نصيحة قدمها للأمين أحدُ رجالات عصره المشهود لهم بالحزم ونضوج الرأي، وهو يحيى بن سليم، حينما عزم على خلع أخيه، لعلاقتها بما نحن في سبيل القول فيه من ناحية، ولأنها تساعدنا فوق ذلك على تفهم «الدبلوماتيقية العباسية» في ذلك العصر من ناحية أخرى، وأخيرًا لأنها تبين لنا فرق ما بين الأمين والمأمون في تقدير المشورة والأخذ بالنصيحة.

قال يحيى بن سليم للأمين حين مشاورته له في خلع المأمون: «يا أمير المؤمنين، كيف بذلك لك مع ما قد وكَّد الرشيد من بيعته، وتوثق بها من عهده، والأخذ للأيمان والشرائط في الكتاب الذي كتبه؟» فقال له محمد: «إن رأي الرشيد كان فلتة شبهها عليه جعفر بن يحيى بسحره، واستماله بُرقاه وعُقده، فغرس لنا غرسًا مكروهًا لا ينفعنا ما نحن فيه معه إلا بقطعه، ولا تستقيم لنا الأمور إلا باجتثاثه والراحة منه» فقال: «أما إذا كان رأي أمير المؤمنين خلعه فلا تجاهره مجاهرة، فيستنكرها الناس ويستشنعها العامة، ولكن تستدعي الجند بعد الجند، والقائد بعد القائد، وتؤنسه بالألطاف والهدايا، ونُفرِّق في ثقاته ومن معه، وتُرغِّبهم بالأموال وتستميلهم بالأطماع، فإذا وهنت قوته واستفرغت رجاله أمَرته بالقدوم عليك، فإن قدِم صار إلى الذي تريد منه، وإن أبى كنت قد تناولته وقد كلَّ حدُّه وهيض جناحه، وضعف ركنه وانقطع عزه» فقال محمد: «ما أقطع أمرًا كصريمة! أنت مهذار خطيب، ولستَ بذي رأي، فزُلْ عن هذا الرأي إلى الشيخ الموفق والوزير الناصح، قُمْ فالحق بمدادكَ وأقلامك».

ونرى من المستصوب، بعد هذا الاستطراد، أن نشير هنا إلى ما رواه الطبري من أن الفضل بن سهل كان قد دسَّ قومًا اختارهم ممن يثق بهم من القواد والوجوه ببغداد؛ ليكاتبوه بأخبار الأمين وجماعته يومًا فيومًا. وكان التجسس لذلك العهد فنًّا منظمًا متقدمًا، فكان للأمين، وهو ولي عهد، على والده الرشيد عيون، وكان لأخيه حين ذاك عيون، وكان للخليفة على ولاته وعماله وأولاده عيون، ولولاته وعماله عليه عيون، وكان للوزراء والكبراء والزعماء وغيرهم مثل ذلك من العيون والأرصاد بعضهم على بعض،

وكانت روح العصر تساعد على ذيوع الجاسوسية واستفحال أمرها، فمن المعقول إذا شاور الأمين أو الفضل بن الربيع أحدًا وقال بما فيه مصلحة القضية المأمونية، أن يصل خبر ذلك من فوره إلى المأمون، فيقف بذلك المأمون وجماعته على جلية الخبر وحقيقة الحال عند خصومهم السياسيين. ونكاد نرجح من ناحيتنا أن لتقدم فن الجاسوسية عند المأمون أثره العظيم في غلبته وظهوره على أخيه.

ولننتقل الآن إلى أخبار سنة خمس وتسعين ومائة، ولننظر في حوادثها الجسام نظرة عجلى فيما يهمنا مما نحن في صدده من بحوثنا هذه، فنجد أن الخصومة السياسية بين الأخوين حملت الأمين على أن يأمر بإسقاط ما كان ضُرب لأخيه عبد الله المأمون من الدنانير والدراهم بخراسان في السنة التي قبلها؛ وذلك لأن المأمون كان أمر ألا يثبت فيها اسم محمد، وقال بعض المؤرخين: إن تلك الدنانير والدراهم كانت لا تجوز في بعض الأحايين، وكانت تدعى بالرباعية.

وقد سبق لنا القول: إن الأمين أمر بالامتناع عن الدعاء لأخويه: المأمون والقاسم، وإنه أمر بالدعاء لنفسه ولطفله الصغير من بعده، وإنه صدر في ذلك كله عن رأي الفضل بن الربيع وجماعة الفضل بن الربيع، مما كان من نتائجه نشوب الحرب الكلامية بين الأخوين، وإنذارها بوقوع شر مستطير بين الأميرين.

(٥) نفور الرأي العام واستمرار الوفود السياسية

ونريد الآن أن نقفك على مبلغ نفور الرأي العام من فعل الأمين وجماعته مما رواه لنا المؤرخون، وسنلخصه لك - كطريقتنا التي أخذنا بها أنفسنا،

والتي لم نَحِد عنها إلا إذا دعت الضرورة والمصلحة إلى تصوير أمر هام يحتاج إلى الشرح والإيضاح - ونعتمد في تلخيصنا هذا على مصادر عدة؛ منها: الطبري وابن الأثير واليعقوبي وغيرهم من الفرنجة الذين كتبوا في التاريخ الإسلامي في العصر الذي نحن بسبيل القول فيه.

روى المؤرخون أن محمدًا الأمين عقد في السنة التي نسرد عليك مجمل أخبارها لعلي بن عيسى بن ماهان على كور الجبل كلها: نهاوند وهمذان وقم وأصفهان، حربها وخراجها، وضم إليه جماعة من القواد، وأمَر له، فيما ذكر، بمائتي ألف دينار، ولولده بخمسين ألف دينار، وأعطى الجند مالًا عظيمًا، وأمر له بألفي سيف من السيوف المحلاة، وستة آلاف ثوب للخِلَع، وقيل: إن محمدًا الأمين أحضر بعد ذلك رجال بيته ومشيريه وتكلم فيهم بما كان بين الأخوين، وكان من المنتظر لو أن للأمين ظهيرًا من الرأي العام أن يجد من يمتدح فعلته، أو يخطب في نشر الدعوة له، وبيان أنه على حق فيما يريد أن يفعل، ولكنا نجد أنه انتهى إلى آخر كلامه فلم يتكلم بعده إلا ثلاثة من جماعته الظاهرين ممن عرفنا مصالحهم في الزلفى إليه والتقرب منه؛ وهم: سعيد بن الفضل الخطيب، ومحمد بن عيسى بن نهيك، والفضل بن الربيع.

على أنَّا يجب أن نقول: إن الفضل بن الربيع كان ماكرًا أعظم ماكر، ولكن مَكْره كان مفضوحًا في هذا الموقف، فقد قال في معرض كلامه: «إن الأمير موسى بن أمير المؤمنين قد أمر لكم، يا معاشر أهل خراسان، من صُلب ماله بثلاثة آلاف درهم تُقسم بينكم».

نقول: إن مَكْره كان مفضوحًا لأنَّا نعلم أن موسى كان طفلًا غرًّا لا يفهم هذه الأمور ولا يعقلها، ولكن الفضل أراد أن يُقرَّ عين الأمين، ولا يمكن

أن يكون جادًّا في رغبته في إثارة الخراسانيين بهذه الطريقة المكشوفة، ولكنها البطانة يأبى عليها رياؤها ونفاقها وتزلفها إلا أن تُصوِّر لولي نعمتها أمير المؤمنين أنه الحكمة والعدل، وأنه النباغة والعبقرية، وأن سلالته قد جَمَع أحداثُها مرانة الشيوخ وكفايتهم، وأصالة المُجرِّبين ودرايتهم، وذكاء النوابغ ومواهبهم، وهكذا تستمر البطانة على نغمتها هذه؛ لا صفة بمَن عداه وعدا حامَّته وخاصَّته، ما شاء هوى الخليفة، حتى يقع في روعه أن حاشيته لا تنطق إلا حقًّا، ولا تقول إلا صدقًا.

ولنتساءل الآن: ماذا كان من المأمون إزاء تصرفات أخيه؟

إنه لم يتهاون البتة في أموره صغيرها وكبيرها، وكان يقابل كل تصرف من أخيه بمثيله ونظيره، مع وضع كل شيء موضعه، واستقصاء المصلحة والصواب في تصرفه.

وقد تراسل الأخوان بعد ذلك بكتب عدة، وإنا نثبت هنا نص كتاب المأمون ردًّا على كتاب بعث به إليه الأمين مع وفد سياسي في شأن البيعة لابنه موسى، قال: «أما بعد، فقد انتهى إلي كتاب أمير المؤمنين منكرًا لإبائي منزلة تهضَّمني بها، وأرادني على خلاف ما يعلم من الحق فيها، ولعمري إن أورد أمير المؤمنين موارد النصفة، فلم يطالب إلا بها ولم يوجب نكرة تركها لانبسطتْ بالحجة مطالع مقالته، ولكنت محجوجًا بمفارقة ما يوجب من طاعته، فأما وأنا مذعن بها، وهو على ترك أعمالها، فأولى به أن يدير الحق في أمره، ثم يأخذ به ويعطي من نفسه، فإن صرتُ إلى الحق فرغت عن قلبه، وإن أبيت الحق قام بمعذرته، وأما ما وعد من برِّ طاعته، وأوعد من الوطأة بمخالفته، فهل أحد فارق الحق في فعله فأبقى للمُتبيِّن موضع ثقة بقوله؟! والسلام».

ولقد كان من تصرفات المأمون إزاء تصرفات أخيه وحاشيته أن كتب إلى علي بن عيسى، قائد الجيوش الأمينية، لَمَّا بلغه ما عزم عليه:

أما بعد، فإنك في ظل دعوة لم تزل أنت وسلفك بمكان ذبٍّ عن حريمها، وعلى العناية لحفظها، ورعاية لحقها، توجبون ذلك لأئمتكم، وتعتصمون بحبل جماعتكم، وتعطون بالطاعة من أنفسكم، وتكونون يدًا على أهل مخالفتكم، وحزبًا وإخوانًا لأهل موافقتكم تؤثرونهم على الآباء والأبناء، وتتصرفون فيما تصرفوا فيه من منزلة شديدة ورخاء لا ترون شيئًا أبلغ في صلاحكم من الأمر الجامع لألفتكم، ولا أَجْرَى لبواركم مما دعا بشتات كلمتكم، ترون من رغب عن ذلك جائرًا عن القصد، ومن أَمَّه على منهاج الحق، ثم كنتم على منهاج الحق، ثم كنتم على أولئك سيوفًا من سيوف نقم الله، فكم من أولئك قد صاروا وديعة مَسبعةٍ وجَزَرًا جامدة، قد سفَت الرياحُ في وجهه، وتداعَت السباع إلى مصرعه غير ممهد ولا موسَّد قد صار إلى أُمِّه ... وغير عاجل حظه ممن كانت الأئمة تنزلكم لذلك بحيث أنزلتم أنفسكم من الثقة بكم في أمورها، والتقدمة في آثارها، وأنت مستشعر دون كثير من ثقاتها وخاصتها، حتى بلغ الله بك في نفسك أن كنت قريع أهل دعوتك، والعالِم القائم بمعظم أمر أمتك، إن قلتَ ادنُوا دَنَوا وإن أشرتَ أقبِلُوا أقبَلوا، وإن أمسكت وقفوا وقرُّوا وِثامًا لك واستنصاحًا، وتزداد نعمة مع الزيادة في نفسك، ويزدادون نعمة مع الزيادة لك بطاعتك، حتى حللت المحل الذي قربت به من يومك، وانقرض فيما دونه أكثر مدتك، لا يُنتظر بعدها إلا ما يكون ختام عملك من خير فيرضَى به ما تقدم من صالح فعلك، أو خلافٍ فيضلُّ له متقدم سعيك. وقد ترى، يا أبا يحيى، حالاً عليها جلوت

أهل نعمتك، والولاة القائمة بحق إمامتك، من طعن في عُقدة كنتَ القائم بشدِّها، وبعهود توليت معاقد أخذها، يُبدأ فيها بالأخصِّين حتى أفضى الأمر إلى العامة من المسلمين، بالأيمان المحرجة والمواثيق المؤكدة، وما طلع مما يدعو إلى نشر كلمة وتفريق أمة وشت جماعة، وتتعرض به لتبديل نعمة وزوال ما وطَّأت الأسلاف من الأئمة. ومتى زالت نعمة من ولاة أمركم وصل زوالها إليكم في خواص أنفسكم، ولن يُغير الله ما بقوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم. وليس الساعي في نشرها بساع فيها على نفسه دون السعي على حمَلتها القائمين بحرمتها، قد عرضوهم أن يكونوا جَزَرًا لأعدائهم، وطُعْمة قوم تتظفر مخالبهم في دمائهم، ومكانك المكان الذي إن قلتَ رُجع إلى قولك، وإن أشرت لم تُتَّهم في نصيحتك، ولك مع إيثار الحق الحظوة عند أهل الحق - ولا سواء مَن حَظِي بعاجل مع فراق الحق فأوبق نفسه في عاقبته، ومَن أعان الحق فأدرك به صلاح العاقبة مع وفور الحظ في عاجلته - وليس لك ما تُستدعَى ولا عليه ما تُستعطف، ولكنه حق من حق أحسابك يجب ثوابه على ربك، ثم على من قمت بالحق فيه من أهل إمامتك، فإن أعجزك قول أو فعل، فصر إلى الدار التي تأمن فيها على نفسك، وتحكم فيها برأيك، وتجاوز إلى مَن يحسن تقبُّلًا لصالح فعلك، ويكون مرجعك إلى عقدك وأموالك، ولك بذلك الله، وكفى بالله وكيلًا، وإن تعذر ذلك بقيَّةً على نفسك فإمساكًا بيدك وقولًا بحق ما لم نخَفْ وقوعه بكرهك، فلعل مقتديًا بك ومغتبطًا بنهيك، ثم أعلمني رأيك أعرفه إن شاء الله.

على أن ما يرمي إليه الرواة من تحقير شأن الأمين لا يحول بينك وبين تبيُّن حقيقة الأمين ورجاله؛ لأنك ستلاحظ بلا ريب، في ثنايا سطورهم

وفلتات الحوادث التي يروونها لك، ما قد يتيح لك أن تؤمن أن عند الأمين بعض رجالات أفذاذ، فإن الطبري يحدثنا في حوادث سنة خمس وتسعين ومائة، أن ابن الربيع أشار على الأمين بأن يكتب لأخيه كتابًا تستطيب به نفسه وتسكن وحشته؛ فإن ذلك أبلغ في التدبير وأحسن في القالة من مكاثرة بالجنود، ومعاجلته بالكيد، وإنه لذلك أحضر له إسماعيل ابن صبيح للكتابة إلى عبد الله، قال: «يا أمير المؤمنين، إن مسألتك الصفح عما في يديه توليد للظن، وتقوية للتهمة، ومدعاة للحذر، ولكن اكتب إليه فأعلمه حاجتك إليه، وما تحب من قربه والاستعانة برأيه، وسَلْه القدوم إليك؛ فإن ذلك أبلغ وأحرى أن يبلغ فيما يوجب طاعته وإجابته».[٣]

فقال الفضل: القول ما قال يا أمير المؤمنين.

قال: فليكتب بما رأى، قال: فكتب إليه:

من عند الأمين محمد أمير المؤمنين إلى عبد الله بن هارون أمير المؤمنين

أما بعد، فإن أمير المؤمنين رأى في أمرك والموضع الذي أنت فيه من ثغرك، وما يؤمل في قربك من المعاونة والمكانفة على ما حمَّله الله وقلَّده من أمور عباده وبلاده، وفكَّر فيما كان أمير المؤمنين الرشيد أوجب لك من الولاية، وأمر به من إفرادك على ما يصير إليك منها، فرجا أمير المؤمنين ألا يدخل عليه وَكَفٌ في دينه، ولا نكث في يمينه، إذ كان إشخاصه إياك فيما يعود على المسلمين نفعُه، ويصل إلى عامتهم صلاحه وفضله.

وعلم أمير المؤمنين أن مكانك بالقرب منه أسدُّ للثغور وأصلحُ للجنود وآكد للفيء، وأردُّ على العامة من مقامك ببلاد خراسان مُنقطعًا عن أهل

بيتك، متغيبًا عن أمير المؤمنين وما يحب الاستماعَ به من رأيك وتدبيرك. وقد رأى أمير المؤمنين أن يولي موسى ابن أمير المؤمنين فيما يُقلِّده من خلافتك ما يحدث إليه من أمرك ونهيك، فاقدَمْ على أمير المؤمنين على بركة الله وعونه، بأبسط أمل، وأفسح رجاء، وأحمد عاقبة، وأنفذ بصيرة، فإنك أولى مَن استعان به أمير المؤمنين على أموره، واحتمل عنه النصب فيما فيه صلاح أهل بيته وذمته. والسلام.

ولننظر إلى ما يرويه لنا ابن جرير الطبري عن أعضاء هذا الوفد، فإنه يقول:

لما وصلوا إلى عبد الله أذن لهم، فدفعوا إليه كتاب محمد وما كان بعَث به معهم من الأموال والألطاف، ثم تكلم العباس بن موسى بن عيسى فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الأمير! إن أخاك قد تحمل من الخلافة ثقلًا عظيمًا، ومن النظر في أمور الناس عبئًا جليلًا، وقد صدقت نيتُه في الخير، فأعوزه الوزراء والأعوان والكُفاة على العدل، وقليل ما يأنس بأهل بيته، وأنت أخوه وشقيقه وقد فزع إليك في أموره وأمَّلك للمؤازرة والمكانفة، ولسنا نستبطئك في برِّه اتهامًا لنصرك له، ولا نَحضُّك على طاعته تخوفًا لخلافك عليه، وفي قُدومك عليه أنس عظيم وصلاح لدولته وسلطانه، فأجب أيها الأمير دعوة أخيك، وآثر طاعته، وأعِنْه على ما استعانك عليه في أمره، فإن في ذلك قضاء الحق، وصلة الرحم، وصلاح الدولة، وعز الخلافة. عزم الله للأمير على الرشد في أموره، وجعل له الخيرة والصلاح في عواقب رأيه.

وتكلم عيسى بن جعفر بن أبي جعفر فقال: إن الإكثار على الأمير – الله! الله! – في القول خرق، والاقتصار في تعريفه ما يجب من حق أمير المؤمنين

تقصير، وقد غاب الأمير - أكرمه الله - عن أمير المؤمنين، ولم يستغن عن قربه من شهد غيره من أهل بيته، ولا يجد عنه غنًى، ولا يجد منه خلفًا ولا عوضًا، والأمير أولى من برَّ أخاه وأطاع إمامه؛ فليعمل الأمير فيما كتب به إليه أمير المؤمنين بما هو أرضى وأقرب من موافقة أمير المؤمنين ومحبته، فإن القدوم عليه فضل وحظ عظيم، والإبطاء عنه وكَفٌّ في الدين، وضرر ومكروه على المسلمين.

وتكلم محمد بن عيسى بن نهيك فقال: أيها الأمير، إنا لا نزيدك بالإكثار والتطويل فيما أنت عليه من المعرفة بحق أمير المؤمنين، ولا نشحذ نيتك بالأساطير والخطب فيما يلزمك من النظر والعناية بأمور المسلمين.

وقد أعوز أمير المؤمنين الكُفَاة والنصحاء بحضرته، وتناولك فزعًا إليك في المعونة والتقوية له على أمره، فإن تُجِب أميرَ المؤمنين فيما دعاك إليه فنعمة عظيمة يتلافى بها رعيتك وأهل بيتك، وإن تقعد يُغْنِ الله أمير المؤمنين عنك، ولن يضعه ذلك مما هو عليه من البرِّ بك، والاعتماد على طاعتك ونصيحتك.

وتكلم صالح صاحب المُصلَّى فقال: أيها الأمير، إن الخلافة ثقيلة، والأعوان قليل، ومن يكيد هذه الدولة وينطوي على غشها والمعاندة لأوليائها من أهل الخلاف والمعصية كثير، وأنت أخو أمير المؤمنين وشقيقه، وصلاح الأمور وفسادها راجع عليك وعليه؛ إذ أنت ولي عهده والمُشارك في سلطانه وولايته، وقد تناولك أمير المؤمنين بكتابه، ووثق بمعاونتك على ما استعانك عليه من أموره، وفي إجابتك إياه إلى القدوم عليه صلاح عظيم في الخلافة، وأنس وسكون لأهل الملة والذمة. وفَّق الله الأمير في أموره، وقضى له بالذي هو أحب إليه وأنفع له.

ثم انظر، رعاك الله، إلى مبلغ دهاء الفضل ودقة سياسته ومحكم أمره وما يرويه بنفسه عن صنيعه مع أحد أعضاء الوفد في إحدى الدفعات التي أُرسل فيها إلى المأمون، لأنّا نلاحظ وفود الأمين قد أُرسلت إلى أخيه المأمون أكثر من مرة، قال: «أعجبني ما رأيت من ذكاء العباس بن موسى، فخلوتُ به فقلتُ: يذهب عليك بعقلك وسنِّك أن تأخذ بحظك من الإمام - أي المأمون؛ إذ سُمِّي بذلك بسبب خلع الأمين له - فقال له العباس: قد سميتموه بالإمام!» فأجابه الفضل: «قد يكون إمام المسجد والقبيلة! فإن وفيتم لم يضركم، وإن غدرتم فهو ذاك» ثم وصل إلى أن قال للعباس: «لك عندي ولاية الموسم، ولا ولاية أشرف منها، ولك من مواضع الأعمال بمصر ما شئت ...».

وصل الفضل إلى ذلك القول وما بَرِح به حتى أخذ عليه البيعة للمأمون بالخلافة، وتحول الأمر إلى أن أصبح للحزب المأموني من العباسِ العينُ التي تبلغهم الأخبار، والمتفاني في المأمونية يمدهم بالأفكار، ويشير عليهم بالآراء، وحتى أضحى منه الشخص الذي يقول لعلي بن يحيى السرخسي: إن ذا الرياستين أكبر مما وصفت، وإنه قد صافح المأمون الإمام، وإنه لذلك يمسح يده على رأس علي بن يحيى لتَنَالَه البركةُ والخير. فتأمل!

وإنه جميل حقًّا أن نرى المأمون يتريث في أمره تريث العاقل الحكيم لما جاءه الوفد الأميني، ويتصرف تصرف الكيس الحاذق إذ قال لهم، فيما أثبت الرواةُ، بعد أن حاجُّوه وناقشوه في أمر الأمين: قد عرفتموني من حق أمير المؤمنين، أكرمه الله، ما لا أُنكره، ودعوتموني من الموالاة والمعونة إلى ما أُوثره ولا أدفعه، وأنا لطاعة أمير المؤمنين مقدم، وعلى المسارعة إلى

ما سرَّه ووافقه حريص، وفي الروية تبيان الرأي، وفي إعمال الرأي نصح الاعتزام. والأمر الذي دعاني إليه أمير المؤمنين أمر لا أتأخر عنه تثبطًا ومدافعة، ولا أتقدم عليه اعتسافًا وعجلة وأنا في ثغرٍ من ثغور المسلمين كَلِبٍ عدوُّه شديد شوكته، وإن أهملت أمره لم آمن دخول الضرر والمكروه على الجنود والرعية، وإن أقمت عليه لم آمن فوت ما أُحبُّ من معونة أمير المؤمنين ومؤازرته وإيثار طاعته؛ فانْصَرِفوا حتى أنظر في أمري ونصح الرأي فيما أعتزم عليه من مسيري إن شاء الله، ثم أمر بإنزالهم وإكرامهم والإحسان إليهم.

تريث المأمون مع الوفد تريث العاقل الحكيم وإن كان في الواقع قد هاله الأمر وخشي سوء مغبته، ويذكر لنا أحد المعاصرين، وهو سفيان بن محمد، أن المأمون لما قرأ الكتاب سُقِط في يده، وتعاظمه ما ورد عليه منه، ولم يَدرِ ما يردُّ عليه، فدعا الفضل بن سهل فأقرأه الكتاب وقال: ما عندك في هذا الأمر؟ قال: أرى أن تتمسك بموضعك، ولا تجعل علينا سبيلًا وأنت تجد من ذلك بدًّا، قال: وكيف يمكنني التمسك بموضعي ومخالفة محمد وعِظَمُ القواد والجنود معه، وأكثر الأموال والخزائن قد صارت إليه، مع ما قد فرق في أهل بغداد من صلاته وفوائده، وإنما الناس مائلون مع الدراهم منقادون لها، لا ينظرون إذا وجدوها حفظ بيعة ولا يرغبون في وفاء عهد ولا أمانة؟ فقال له الفضل: إذا وقعت التهمة حق الاحتراس، وأنا لغَدْر محمد مُتخوِّف، ومن شَرَهِه إلى ما في يديك مشفق، ولأن تكون في جندك وعزك مقيمًا بين ظهراني أهل ولايتك أحرى، فإن دهمك منه أمر جردت له وناجزته وكايدته، فإما أعطاك الله الظفر عليه بوفائك ونيتك، أو كانت

الأخرى فمِتْ محافظًا مُكرمًا غير مُلق بيديك ولا مُمكِّن عدوك من الاحتكام في نفسك ودمك، قال: إن هذا الأمر لو كان أتاني وأنا في قوة من أمري وصلاح من الأمور كان خطبه يسيرًا، والاحتيال في دفعه ممكنًا، ولكنه أتاني بعد إفساد خراسان، واضطراب عامرها وغامرها، ومفارقة جيغويه الطاعة، والتواء خاقان صاحب التبت، وتهيُّؤ ملك «كابل» للغارة على ما يليه من بلاد خراسان، وامتناع ملك أترابنده بالضريبة التي كان يؤديها، وما لي بواحدة من هذه الأمور يدٌ، وأنا أعلم أن محمدًا لم يطلب قدومي إلا لشر يريده، وما أرى إلا تخلية ما أنا فيه واللحاق بخاقان ملك الترك والاستجارة به وببلاده، فبالحَرَى أن آمن على نفسي وأمتنع ممن أراد قهري والغدر بي، فقال له الفضل: أيها الأمير، إن عاقبة الغدر شديدة، وتبعة الظلم والبغي غير مأمون شرها، ورُبَّ مستذلٍّ قد عاد عزيزًا، ومقهور قد عاد قاهرًا مستطيلًا، وليس النصر بالقلة والكثرة، وحرج الموت أسلم من حرج الذل والضيم، وما أرى أن تفارق ما أنت فيه، وتصير إلى طاعة محمد متجردًا من قوادك وجندك كالرأس المختزل عن بدنه، يجري عليك حكمه فتدخل في جملة أهل مملكته من غير أن تُبلي عذرًا في جهاد ولا قتال، ولكن اكتب إلى جيغويه وخاقان، فولِّهما بلادهما، وعِدْهما التقوية لهما في محاربة الملوك، وابعث إلى ملك كابلٍ بعض هدايا خراسان وطُرفها وسَلْه المُوادعة تجدْه على ذلك حريصًا، وسلِّم لملك أترابنده ضريبته في هذه السنة، وصيِّرها صِلةً منك وصلْتَه بها، ثم اجمع إليك أطرافك، واضمُم إليك من شذَّ من جندك، ثم اضرب الخيل بالخيل والرجال بالرجال، فإن ظفرت وإلا كنت على ما تريد من اللحاق بخاقان قادرًا. فعرف عبد الله صدق

ما قال، فقال: اعمل في هذا الأمر وغيره من أموري بما ترى. فتدبَّر، وفَّقك الله، هذا التفكير الدقيق، وهذه السياسة المُحكَمة الأطراف من كليهما.

ثم انظر إلى تصرف المأمون الحكيم، بعد ما قدمناه لك، فإنه أنفذ الكتب إلى رجاله وأنصاره، وعمل على لمِّ شعثه ورأب صَدْعه، واستقدم طاهر بن الحسين، عامله على الري، ليعهد إليه في قيادة جنده، ثم مكث يُدبِّر الرأي فيما يجيب به أخاه، واستقر رأيه على مناجزة أخيه ومنازلته، بعد أن أعلمه ابن سهل أن النصر له، وأن النجوم تنبئ بذلك.

وانظر ما يرويه لنا المؤرخون من أنه كتب إلى الأمين:

أما بعد، فقد وصل إلي كتاب أمير المؤمنين، وإنما أنا عامل من عماله، وعون من أعوانه، أمرني الرشيد، صلوات الله عليه، بلزوم هذا الثغر، ومكايدة من كايد أهله من عدو أمير المؤمنين، ولعمري إن مقامي به أرد على أمير المؤمنين، وأعظم غناء عن المسلمين من الشخوص إلى أمير المؤمنين، وإن كنت مغتبطًا بقربه، مسرورًا بمشاهدة نعمة الله عنده، فإن رأى أن يُقرِّني على عملي، ويعفيني من الشخوص إليه فعَل إن شاء الله. والسلام.

ثم دعا العباس بن موسى وعيسى بن جعفر ومحمدًا وصالحًا فدفع إليهم الكتاب، وأحسن إليهم في جوائزهم، وحمل إلى محمد ما تهيأ له من ألطاف خراسان، وسألهم أن يُحسِّنوا أمره عنده، وأن يقوموا بعذره لديه.

(٦) إعلان الحرب

ولننتقل الآن إلى الكلام عن الحرب العملية التي تلت هذه الحرب الكلامية، كما هو المنتظر، إن التاريخ يحدثنا أن الأمين ورجال الأمين بدءوا

في تعبية الجنود، كما بدأ المأمون ورجال المأمون في حشد الكتائب، وإنا لنرتاب كثيرًا في صحة ما ذكره الرواة من أن طاهر بن الحسين، القائد العام للجيوش المأمونية، كان في جيش عدته ثمانمائة وثلاثة آلاف، بينما كان علي بن عيسى بن ماهان، القائد العام للجيوش الأمينية، في زهاء أربعين ألفًا، ونرجح كثيرًا أن الرواة قد نقصوا عدد الجنود المأمونية ليُظهروا للناس مبلغ كفاية طاهر، وأنه استطاع بجند قليل عددهم أن يُنازِل جيوشًا جرارة ويغلبها على أمرها؛ لأنهم كثيرًا ما يجنحون إلى الإغراق والمبالغة في مثل هذه المواقف من مظاهرتهم للأقوياء وانتقاصهم للضعفاء، كما أسلفنا.

نشك في صحة ذلك كثيرًا، ونشك كذلك فيما يروونه من أن الجيوش المأمونية قد عثرت في عسكر ابن ماهان على سبعمائة كيس، في كل كيس ألف درهم، وأنها عثرت كذلك على صناديق عدة فيها خمرٍ سوادي وقناني عِدَّة!

قد يكون أمر الأموال صحيحًا، ولكننا نميل إلى الافتراض بأن أمر الصناديق العدة إن لم يكن مكذوبًا في جملته بقصد الزراية بالجماعة الأمينية، فهو مغالًى فيه كثيرًا.

ويذهب ابن الأثير في بيان غرور علي بن عيسى بن ماهان إلى أنه لما قرب من الري ظن أن طاهر بن الحسين، قائد القوات المأمونية، لا يثبت له، وأن عليًّا قال: «ما طاهر إلا شوكة من أغصاني وشرارة من ناري، وما مثل طاهر يؤمَّر على جيش، وما بينه وبين الأمين[٤] إلا أن تقع عينه على سوادكم، فإن السِّخالَ لا تقوى على نِطاح الكباش، والثعالب لا تقوى على لقاء الأُسد»، وأن علي بن عيسى بن ماهان قال لابنه لما أشار عليه بأن يبعث طلائع ويرتاد موضعًا لعسكره: «ليس طاهر يُستعدُّ له بالمكايد والتحفُّظ؛ إن حال طاهر

يؤدي إلى أمرين: إما أن يتحصن بالري فيثب به أهلها ويكفونا مئونته، أو يُخلِّيها ويُدبر»، فقال له ابنه: «إن الشرارة ربما صارت ضرامًا»، فأجابه: «إن طاهرًا ليس قِرنًا في هذا الموضع، وإنما تحترس الرجال من أقرانها».

ونحن نقول: إن من الجائز أن يكون شيء من هذا قد وقع، ومن الجائز أن يكون بعليٍّ بن ماهان زهو وغرور وقصرُ نظرٍ وسُوء تدبير، وقد يكون عليٌّ حين المقارنة والموازنة أقل شأنًا من مُنازِله وخصمه طاهر بن الحسين، ولكنا مع ذلك نحس إحساسًا لا يعدو الواقع كثيرًا أن هذا الحديث المعزو إليه من قبيل الروايات المنحولة، والقصص المخترعة التي كثيرًا ما تُخترع وتُنحَل في مثل تلك الظروف.

على أنَّا مع ذلك نقرر أن الجيوش المأمونية كانت على أتم تعبية، وأكمل كفاية، وأدق نظام، وأحسن حال، وأن خديعة طاهر وقواد طاهر من حمل صورة البيعة على أسنة رماحهم(٥) تعيد إلى الأذهان ما كان بين جند معاوية وجند علي من حمل جند معاوية المصاحف على الرماح.

لننتقل الآن إلى مسألة أخرى لها علاقة بعلي بن عيسى بن ماهان من ناحية، كما أن لها علاقات بما يقع فيه القُصَّاص والمؤرخون والرواة من تناقض من ناحية أخرى، تلك المسألة هي ما يعزى إلى زبيدة من نصيحتها لابن ماهان باحترام المأمون وإجلاله، وأنها قالت له: «يا علي، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي، إليه تناهت شفقتي، وعليه تكامل حذري، فإني على عبد الله متعطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذًى، وإنما ابني ملكٌ نافس أخاه في سلطانه، وغارَّه على ما في يده، والكريم يأكل لحمه ويمنعه غيره، فاعرفْ لعبد الله حق والده وإخوته، ولا تجبهه بالكلام؛

فإنك لستَ نظيره، ولا تقتسرْه اقتسار العبيد، ولا تُرهقه بقيد ولا غُلٍّ، ولا تمنع منه جارية ولا خادمًا، ولا تعنِّف عليه في السير، ولا تُساوه في المسير، ولا تركب قبله، ولا تستقلَّ على دابتك حتى تأخذ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه، وإن سَفِه عليك فلا تُرادَّه».

معقول أن يكون ذلك من زبيدة لابن زوجها الرشيد! ولكن التاريخ يُحدِّثنا عن قيد من الفضة قيل إنها أعدته ليقيَّد به المأمون، كما يحدثنا أن المأمون نفسه اعترف بمسألة هذا القيد، بيد أن نص النصيحة وما اشتملت عليه من الأوامر وما جبلت عليه نفسية السيدة زبيدة زبيدة مما يرجح عدم صحة القول بإعدادها قيد فضة أو ذهب ليقيد به المأمون.

(٧) انتصار الجيوش المأمونية ومقولات الشعراء

وقد كتب الله للجيوش المأمونية الفلج والنصر على الجيوش الأمينية. ونترك هنا الكلمة لطاهر بن الحسين، قائد المأمون، فإنه ينبئ خليفته عن ذلك الانتصار بقوله: «أطال الله بقاءك، وكبَت أعداءك، وجعل من يَشْنَؤُك فداءك، كتبت إليك ورأس علي بن عيسى بين يدي، وخاتمه في أصبعي، والحمد لله رب العالمين».

وذكر بعض أهل خراسان أن المأمون لما أتاه كتاب طاهر بخبر علي بن عيسى بن ماهان، وما نالته جيوشه من فوز وانتصار، وما أوقع الله بجند خصمه من فشل وانكسار، قعد للناس، فكانوا يدخلون عليه فيهنئونه ويدعون له بدوام العز والنصر، وأن المأمون في ذلك اليوم أعلن خلع محمد، كما أعلن خلافته في جميع كور خراسان وما يليها، وسُرَّ بذلك أهل خراسان وخطبت الخطباء وأنشدت الشعراء، وفي ذلك يقول الشاعر:

أصبحت الأمة في غبطة من أمر دنياها ومن دينها
إذ حفظت عهد إمام الهدى خير بني حواء مأمونها
على شفًا كانت، فلما وفت تخلصت من سوء تحيينها
قامت بحق الله إذ دُبِّرت في ولده كُتْبُ دواوينها
ألا تراها كيف بعد الرَّدى وفَّقها الله لتزيينها؟!

وهي أبيات كثيرة.

وذكر علي بن صالح الحربي أن علي بن عيسى لما قُتل أرجف الناس ببغداد إرجافًا شديدًا، وندم محمد على ما كان من نكثه وغدره، ومشى القواد بعضهم إلى بعض، وذلك يوم الخميس للنصف من شوال سنة ١٩٥، فقالوا: إن عليًّا قد قُتل، ولسنا نشك أن محمدًا يحتاج إلى الرجال واصطناع أصحاب الصنائع، وإنما يحرك الرجال أنفسها، ويرفعها بأسها وإقدامها، فليأمر كل رجل منكم جندَه بالشغب وطلب الأرزاق والجوائز، فلعلنا أن نصيب منه في هذه الحالة ما يُصلحنا ويُصلح جندنا.

خبرني، لعمرك! أليست هذه بوادر الفوضى وعلامات الانتقاض؟ أوليست هذه هي هي بعينها مبادئ الثورة وأمارات زوال الملك وسقوط العروش وأفول نجم أصحابها؟ أجل إنها لكذلك، وإن في انقسام كلمة الزعماء وإثارتهم النفوس بالاضطراب والقلاقل، وإضرامهم نيران الفتن، وتحريكهم الجند وما إلى الجند للشغب والهياج تقطيعًا لأوصال البلاد، ونذيرًا بالهدم والفناء.

ولننظر ماذا كان من حماقات رجال الأمين؟

إن التاريخ ليحدثنا أن رأيهم قد اجتمع على الشغب والاصطياد في الماء العكر، وأنهم أصبحوا فتوافوا إلى باب الجسر وكبروا، فطلبوا الأرزاق

والجوائز، وبلغ الخبر عبد الله بن خازم، فركب إليهم في أصحابه وفي جماعة غيره من قواد الأعراب، فتراموا بالنشاب والحجارة واقتتلوا قتالاً شديدًا، وسمع محمد التكبير والضجيج، فأرسل بعض مواليه أن يأتيه الخبر، فرجع إليه فأعلمه أن الجند قد اجتمعوا وشغبوا لطلب أرزاقهم، قال: فهل يطلبون شيئًا غير الأرزاق؟ قال: لا، قال: ما أهون ما طلبوا! ارجع إلى عبد الله بن خازم فمُرْه فلينصرف عنهم، ثم أمر لهم بأرزاق أربعة أشهر، ورفع من كان دون الثمانين إلى الثمانين، وأمر للقواد والخواصِّ بالصلات والجوائز.

ولنتساءل الآن إزاء إجابة الأمين لسُؤْل القادة والجند ومبادرته إلى رفدهم، وإسراعه بمنحهم الأعطيات والهبات والجوائز والصلات: أكان في تصرفه حكيمًا، وفي عمله مُسدَّدًا مُوفَّقًا؟

لا نظن ذلك، وكان الحزم به أولى ليقدَع الفتنة، وليضع حدًّا صارمًا لشهوات ذوي الغايات والمنتفعين الذين يكثر وجودهم وتتوافر جماعتهم في إبانها وفتراتها.

***

وقد كان اختيار الأمين لعلي بن عيسى بن ماهان خطلًا سياسيًّا؛ لأن سابقة ابن ماهان في خراسان أيام الرشيد كانت سابقة سوء، فهو ممقوت أشد المقت عندهم، ونقرر بهذه المناسبة أنه يخيل إلينا، إلى حدٍّ غير قليل، اختلاق تلك القصة التي تعزى إلى الفضل بن سهل، من أنه كتب إلى الدسيس الذي كان ممن يشاورهم الفضل بن الربيع في أمره، أنه إن أبى جماعة الأمين إلا عزمةً في الخلاف، فألطِف لأن تجعل أمرهم لعلي بن عيسى.

وقال الطبري: وإنما خص ذو الرياستين عليًّا بذلك لسوء أثره في أهل خراسان، واجتماع رأيهم على كرهه، وأن العامة قائله بحربه، فشاور الفضلُ الدسيسَ الذي كان مشاوره، فقال: علي بن عيسى! وإنه إن فعَل فلم يَرمِهم بمثله في بُعد صَوبه، وسخاوة نفسه، وكان في بلاد خراسان في طول ولايته وكثرة صنائعه، ثم هو شيخ الدعوة وبقية أهل المشايعة. فأجمعوا على توجيهه.

نميل إلى القول بأن نسبة اختيار ابن ماهان إلى تدبير ابن سهل، وإسناد كل فضل إليه من باب الدعوة لابن سهل، ونحن ممن يقرُّ بذكائه وسعة حيلته، كما أسلفنا.

ولكننا نقرر أيضًا أن صلة ابن ماهان بالأمين وبدولة الأمين وبابن الربيع كانت مما يحتم على الأمين لا محالة تقليده أمر جيوشه، وتفضيله على غيره من القادة، لا أن دسيس جماعة المأمون هو الذي أشار بندبه واختياره، فلنحترس كثيرًا من مبالغة المؤرخين والرواة، ولنجعل من عقولنا ومنطقنا محكًا وحكمًا.

ونلفت النظر هنا إلى تناقض وقع فيه الرواة من الحزب المأموني، فبينا نراهم يقررون أن جيش المأمون عثر على صناديق عدة من الخمر فيما غنمه من علي بن عيسى بن هامان، إذ بالدسيس يصفه بقوله: «ليس مثله في بُعد صوبه وسخاوة نفسه!».

ومهما قيل بأن وصفه كذلك من باب الختل والخديعة، وبأنه كان في حقيقة الأمر سكِّيرًا مُعَربدًا، فإنا نرى أثر التأليف القصصي في الروايتين ظاهرًا جليًّا.

وسبق لنا أن قد فنَّدنا، حينما كنا بسبيل القول في الأمين، ما رواه محمد بن يحيى بن عبد الملك النيسابوري من أن الأمين قال لمَّا نعَى الناعي إليه قائده: «ويلك! دعني فإن كوثرًا قد اصطاد سمكتين وأنا ما اصطدت شيئًا بعدُ»، وترك الناعي وخبره وأقبل على الصيد وكوثره، فلنضم هذه إلى تلك.

***

ويجدر بنا الآن أن نطلعك على بعض مقولات الشعراء في موقف الأخوين، مع ملاحظة ما لاحظناه من مبالغتهم في تمداحهم للقوي وغلوهم في زرايتهم على الضعيف.

قال أحد الشعراء البغداديين:

أضاع الخلافة غش الوزير ... وفسق الإمام وجهل المشير
ففضل وزير وبكرٌ مُشير ... يريدان ما فيه حتف الأمير
وما ذاك إلا طريق غرور ... وشر المسالك طرق الغرور
لِواط الخليفة أعجوبة ... وأعجب منه خَلاق الوزير
فهذا يدوس وهذا يداس ... كذاك لعمري اختلاف الأمور
فلو يستعينان هذا بذاك ... لكانا بعُرْضة أمر ستير
ولكن ذا لجَّ في كوثر ... ولم يشفِ هذا دِعاس الحمير
فشُنِّع فعلاهما منهما ... وصارا خِلافًا كبَولِ البعير
وأعجب من ذا وذا أننا ... نبايع للطفل فينا الصغير
ومَن ليس يُحسن غسل استِه ... ولم يخلُ مَتنُه من حجر ظير
وما ذاك إلا بفضل وبكر ... يريدان نقض الكتاب المنير
وهذانِ لولا انقلاب الزمان ... أفي العيرِ هذان أم في النفير؟

ولـكـنـهـا فـتـن كـالجـبـال تـرفَّـع فـيـهـا الـوضيع الحقير
فصبرًا ففي الصبر خـيـر جميل وإن كان قد ضاق صبر الصبور
فـيـا رب فـاقـبـضـهـمـا عاجلًا إلـيـك وأورد عـذاب السعـيـر
ونـكِّـل بـفـضـل وأشـيـاعـه وصلِّبهُمْ حـول هذي الجسور

(٨) عود على بدء، مجهودات الأمين في سبيل الفوز

ولقد سبق أن قلنا لك: إنه مع ما يرمي إليه الرواه من تحقير شأن الأمين ورجالات الأمين يمكننا مع ذلك تبين حقيقة أمره مما يلاحظ في ثنايا السطور وفلتات الحوادث، وقلنا: إن تلك الفلتات قد تتيح لنا أن نُؤمِنَ بأن عند الأمين بعض رجالات أفذاذ. ونريد الآن أن نثبتَ لك ذلك.

وهذا الطبري يحدثنا في حوادث سنة ست وتسعين ومائة، أنه لما قوي طاهر واستعلى أمرُه، وهزم من هزم من قواد محمد وجيوشه، دخل عبد الملك بن صالح على محمد - وكان عبد الملك محبوسًا في حبس الرشيد، فلما توفِّي الرشيد وأفضى الأمر إلى محمد أمر بتخلية سبيله، وذلك في ذي القعدة سنة ١٩٣، فكان عبد الملك يشكر ذلك لمحمد ويوجب به على نفسه طاعته ونصيحته - فقال: يا أمير المؤمنين، إني أرى الناس قد طمعوا فيك، وأهل العسكرين قد اعتمدوا ذلك، وقد بذلت سماحتك، فإن أتممت على أمرك أفسدتهم وأبطرتهم، وإن كففت أمرك عن العطاء والبذل أسخطتهم وأغضبتهم، وليستْ تُمْلكُ الجنود بالإمساك، ولا تبقى بيوت الأموال على الإنفاق والسرف، ومع هذا فإن جندك قد رعبتهم الهزائم، ونهكتهم وأضعفتهم الحرب والوقائع، وامتلأت قلوبهم هيبة لعدوِّهم، ونكولًا عن لقائهم ومناهضتهم، فإن سيَّرتهم إلى طاهر غلَب بقليل من معه كثيرهم،

وهزم بقوة نيَّته ضعف نصائحهم ونيَّاتهم، وأهل الشام قوم قد ضرستهم الحروب، وأدَّبتهم الشدائد، وجلُّهم مُنقاد إليَّ مُسارعٌ إلى طاعتي، فإن وجَّهني أمير المؤمنين اتخذت له منهم جندًا تعظم نكايتهم في عدوه، ويؤيد الله بهم أولياءه وأهل طاعته، فقال محمد: فإني مُوليك أمرهم، ومُقوِّيك بما سألت من مال وعُدَّة، فعجِّل الشخوص إلى ما هنالك، فاعملْ عملًا يظهر أثره، وتُحمد بركته برأيك ونظرك فيه، إن شاء الله. فولَّاه الشام والجزيرة واستحثَّه بالخروج استحثاثًا شديدًا، ووجه معه كنفًا من الجند والأبناء.

حاول الأمين بعد ذلك أن ينتصر على أخيه بكل ما في مقدوره، وبعث له الجند تلو الجند، وإنا مع اعترافنا بكفاية قادته، أمثال عبد الرحمن بن جبلة الذي ندب أهل البأس والنجدة والغَنَاء، نقرر أن طريقة الإرجاف وبث الدعاة التي اتبعها القادة المأمونيون كانت خطرة جدًّا.

انظر إلى مَن يقول لأهل حمص: يا أهل حمص، الهرب أهون من العطب، والموت أهون من الذل! إنكم بَعُدتم عن بلادكم، وخرجتم من أقاليمكم، ترجون الكثرة بعد القلة، والعزة بعد الذلة، ألا وفي الشر وقعتم، وإلى حومة الموت أنختم. إن المنايا في شوارب المسوِّدة وقلانسهم، النفير النفير! قبل أن ينقطع السبيل وينزل الأمر الجليل، ويفوت المطلب ويعسر المذهب، ويبعد العمل ويقترب الأجل. وقام رجل من كلب في غرز ناقته ثم قال:

شؤبوب حرب خاب من يَصلاها قد شرعت فرسانها قناها

فأورد الله لظَى لظاها إن عمَرت كلبٌ بها لحاها

ثم انظر لمن يقول: «يا معشر كلب، إنها الراية السوداء، والله ما ولَّت ولا عدلت، ولا ذلَّ نصيرها ولا ضعف وليها، وإنكم لتعرفون مواقع

سيوف أهل خراسان في رقابكم، وآثار أسنتهم في صدوركم، اعتزلوا الشر قبل أن يعظُم، وتخطوه قبل أن يضطرم شامكم، داركم داركم! الموتُ الفِلَسطينيُّ خير من العيش الجَزَري، ألا وإني راجعٌ، فمن أراد الانصراف فلينصرف معي!» ثم سار وسار معه عامة أهل الشام.

أرأيت إلى أي مدًى كان أثر الدعاية المأمونية؟

لقد كان المأمون مُوفَّقًا بلا ريب، وكانت ظروف النصر والإقبال تواتيه من هنا ومن هناك، وتُظاهره على النجاح من جرَّاء حكمته وكفاية رجالاته، كما كانت تظاهره من جراء حماقة خصومه وقلة غنائهم.

ثم انظر ما كان من أمر العصبية في حوادث سنتي خمس وتسعين ومائة وست وتسعين ومائة، وما كان من اشتطاط جند الأمين في طلب المال، وما كان من عدم قدرته على إجابة طلبات القادة الكُماة، أمثال أسد بن يزيد، وما كان من تقلب الحسين بن علي معه وعليه، وما كان من لَيَان الأمين معه بعد أن حبسه، فإن التاريخ يحدثنا بأن كل ما فعله الأمين معه هو أن لامَه على خلافه وقال له: «ألم أُقدِّم أباك على الناس، وأُولِّه أعنَّة الخيل، وأملأ يده من الأموال، وأشرِّف أقداركم في أهل خراسان، وأرفع منازلكم على غيركم من القواد؟!» فقال له: بلى، قال: «فما الذي استحققت به منك أن تخلع طاعتي وتُؤلِّب الناس عليَّ وتندُبهم إلى قتالي؟» قال: الثقة بعفو أمير المؤمنين، وحسن الظن بصفحه وتفضله، قال: «فإن أمير المؤمنين قد فعل ذلك بك، وولَّاك الطلب بثأرك ومن قُتل من أهل بيتك» ثم دعا له بخلعة فخلعها عليه، وحمله على مراكب وأمره بالمسير إلى حُلْوان، وولَّاه ما وراء بابه.

انظر إلى ذلك كله، فإنك تستطيع أن تقتنع معنا بأن لسوء التدبير حظًّا غير قليل في خذلان الأمين وضياع ملكه.

(٩) مظاهر الثورة وخطباؤها

على أن هناك ظاهرة في الجيش الأميني والأطراف الأمينية مثل ظاهرة الثورة الفرنسية من بعض وجوهها يجدر بنا أن نقيدها لك ولو «على الهامش» كما يقولون.

ذلك أن الزواقيل واللصوص والثوار لعبوا دورهم الخطير، كما أن الفوضى ضربت بجرانها على كل البقاع الأمينية، ولم يكن ثمة من طاعة ولا نظام لا في الجند الأميني ولا في قادة الجند الأميني.

وقد كان هناك خطباء كما كان في الثورة الفرنسية، وإن الطبري ليحدثنا أن محمد بن أبي خالد قام بباب الشام فقال: أيها الناس، والله ما أدري بأي سبب يتأمر الحسين بن علي علينا، ويتولى هذا الأمر دوننا؟ ما هو بأكبرنا سنًّا، ولا أكرمنا حسبًا، ولا أعظمنا منزلة! وإن فينا من لا يرضى بالدنية ولا يُقاد بالمخادعة، وإني أولكم نقضًا لعهده، وإظهارًا للتغيير عليه والإنكار لفعله، فمن كان رأيه رأيي فليعتزلْ معي، وقام أسد الحربي فقال: يا معشر الحربية، هذا يوم له ما بعده، إنكم قد نمتم وطال نومكم، وتأخرتم فقُدِّم عليكم غيرُكم، وقد ذهب أقوام بذكر خلع محمد وأسْره، فاذهبوا بذكر فكه وإطلاقه.

يحدثنا التاريخ عن ذلك كله كما يحدثنا بأن شيخًا كبيرًا من أهل الكفاية قد أقبل على فرس فصاح بالناس: اسكتوا! فسكتوا فقال: أيها الناس، هل تعتدُّون على محمد بقطع منه لأرزاقكم؟ قالوا: لا، قال: فهل قصر بأحد

منكم أو من رؤسائكم وكبرائكم؟ قالوا: ما علمنا، قال: فهل عزل أحدًا من قوادكم؟ قالوا: معاذ الله أن يكون فعل ذلك، قال: فما بالُكم خذلتموه وأعنتم عدوه على اضطهاده وأسره؟! أما والله ما قتل قوم خليفتهم قطُّ إلا سلَّط الله عليهم السيف القاتل والحتف الجارف. انهضوا إلى خليفتكم وادفعوا عنه وقاتلوا من أراد خلعه والفتك به.

أما ما أصاب بغداد من سلب ونهب وتحريق وتخريب، وفتنة شعواء وقتل ودماء، فإنا نترك الكلمة في ذلك لشعراء العصر مما أثبتناه لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث، فلتراجع ثمَّة.

(١٠) قتل الأمين

ولقد ضيق طاهر وهرثمة على الأمين الخناق، وفكَّرا فيمن يتسلَّم الأمين ليكون له قصب السبق، وإنه لمن المؤلم حقًّا أن ترى الأمين وهو يُقبِّل أولاده، ومن المؤلم أن تسمعه وهو يقول: «وددت أن الله قتل الفريقين جميعًا، فما منهم إلا عدوٌّ من معي ومن عليَّ، أما هؤلاء فيريدون مالي، وأما أولئك فيريدون نفسي!» وقال:

تفرقوا ودعوني ... يا معشر الأعوان
فكلكم ذو وجوه ... كثيرة الألوان
وما أرى غير إفك ... وتُرَّهات الأماني
ولست أملك شيئًا ... فسائلوا خُزَّاني
فالويل لي ما دهاني ... من نازل البستان؟

وإنه لمن المؤلم حقًّا أن يتفقا على أن يأخذ أحدهما بدنه، والآخر خاتم الخلافة وشاراتها! ومن المؤلم حقًّا أن تُختم حياته بمأساته المُروِّعة.

هوامش

(١) هو حفيد نصر بن سيار آخر والٍ لبني أمية بخراسان إذ دالَتْ بعد ذلك دولتهم، وسبب خروج رافع هذا أنه طمع في زواج امرأة يحيى بن الأشعث بن يحيى الطائي لشرفها ومالها، وكانت مغاضبة لزوجها، فحمَلها على أن تُعلن الكفر لتُطلَّق ثم تَزوَّج منها، فبلغ أمره الرشيدُ الذي كلف عامله أن يفرق بينهما، وأن يعاقب رافعًا ويجلده الحد، ويُقيده ويطوف به في مدينة سمرقند مُقيدًا على حمار حتى يكون عظة لغيره، فدرأ عنه العامل الحدَّ وطاف به ثم سجنه، فهرب من الحبس، فطارده عمال الرشيد، وما زال أمره يشتدُّ حتى اضطر الرشيد إلى الذهاب إليه بنفسه.

(٢) التضجيع: التقصير.

(٣) يرى أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار «أن هذه المكيدة التي دبرها الفضل بن الربيع جاءت مفضوحة مهتوكة الأستار، وكان أجدر بكياسته أن يرسل ذلك الخطاب أول الأمر، بعد أن يردَّ على المأمون ما أوصى به الرشيد من مال وكراع وسلاح، فأما بعد نكث الجنود والوزير والأمراء، وبعد طلب الكور، وبعد طلب تقديم القائم على المأمون، وبعد تلك الوفود السياسية وتمزيق العهود التي كانت في نظرهم مقدسة ومؤكدة بأخذها وتعليقها في جوف الكعبة، فإن الأمر أتى بعد أوانه، ولا ينتظر منه سوى الخيبة والفشل».

(٤) أي إلاَّ أن يؤخذ أسيرًا عند الأمين.

(٥) يخالفنا أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار في هذا بقوله: «لم يكن كل الجند المأموني حاملاً صورة البيعة ولا كثير منهم، ولكن الأمر في ذلك أن أحمد بن هشام علق البيعة للمأمون على رمحه - وكان علي بن عيسى هو الذي أخذها للمأمون على أهل خراسان أيام كان واليًا بها - ليقيم بذلك الحجة على علي بن عيسى، فدنا منه أحمد بن هشام بعد أن طلب الأمان وأمَّنه عليُّ بن عيسى، وقال له أحمد: ألا تتقي الله عز وجل؟ أليس هذه نسخة البيعة التي أخذتها أنت خاصة؟ اتق الله؛ فقد بلغت باب قبرك. فلم يأبه علي بن عيسى، بل قال: من أتاني به فله ألف درهم. فشتمه أصحاب أحمد ... إلخ من ابن الأثير».

الفصل الرابع

الخليفة المأمون

(١) توطئة

من تحصيل الحاصل أن نقول ما يقوله الفخري وغيره من أن المأمون كان من أفاضل الخلفاء وعلمائهم، وحلمائهم وحكمائهم، أو أنه كان دَيِّنًا، عارفًا بالعلم، فيه دهاء وسياسة، أو أنه كان فَطِنًا ذكيًّا، أو أنه كان كاملاً عالمًا جوادًا، عظيم العفو، ميمون النقيبة، حسن التدبير، جليل الصنائع، لا تخدعه الأماني، ولا تجوز عليه الخدائع، علمه بما بَعُد عنه كعلمه بما حضر، أو أنه كان مُتَّصفًا بالعدل والحلم.

من تحصيل الحاصل أن نقول ذلك لأنه معلوم متعارف من ناحية، ولأن خطتنا في كتابتنا ومنجهنا في بحوثنا أن نترك للحوادث الكلمة الفاصلة في تحليل صفاته اتِّباعًا للطريقة التحليلية التي اتبعناها فيما كتبناه عن سواه.

وقد أسلفنا لك القول في بيان حياة المأمون قبل الخلافة، وفصلنا لك ما كان من أمر النزاع بين الأخوين، ووصلنا بك إلى مأساة تلك الحرب الشعواء والفتنة العمياء، ألا وهي قتل محمد الأمين في ٢٥ محرم سنة ثمان وتسعين ومائة، والآن نتقدم إلى القول بأن المأمون بويع له بالخلافة العامة في ذلك التاريخ، واستمر كذلك إلى أن توفِّي غازيًا في ١٩ رجب سنة ٢١٨هـ، فتكون خلافته قد أنافت على عشرين سنة، أقام منها في خراسان حتى منتصف صفر سنة ٢٠٤ هـ، حين انتقل إلى بغداد مقر الخلافة العباسية.

فيمكننا إذن أن نقسم كلامنا عن حكم المأمون إلى مدتين: المدة الخراسانية، والمدة البغدادية، وفي بيان هاتين المدتين بيان للحالة السياسية الداخلية في عصره، وهو ما سنعالج الكلام فيه الآن.

(٢) السياسة الداخلية

ملخص الحالة العامة في المدة الخراسانية

اطلعنا في دور النزاع بين الأخوين على شيء غير قليل من تصرفات الفضل بن سهل وتدبيراته، ووقفنا على أثره العظيم في الدولة، كما اطلعنا على ما كان من نجاح طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين في حروبهما للجيوش الأمينية.

ونتساءل الآن، بعد أن تم الأمر للمأمون وحزبه وخلا الجو إلى حد كبير للفضل بن سهل: أمن المعقول أن تستطيع هذه الشخصية البارزة، الفارسية المنبت والنزعة، ذات البيت الكبير والحُماة والأصدقاء، والعُفاة والأنصار، أن تحتمل أن يكون إلى جانبها شخصيات بارزة من العرب كهرثمة بن أعين، وأبطال من ذوي الفضل العظيم والدور الأول في النجاح كطاهر ابن الحسين؟

نحن نعلم ما كان من أبي مسلم الخراساني مع أمثاله من القادة والكُماة، كما نعلم ما كان نصيبه من الخليفة المنصور، نعلم ذلك كما نعلم الكثير من أمثال ذلك، وإنه ليلوح لنا من غير أن نعدو الصواب كثيرًا أنه في مقدورنا أن نجيب عن تساؤلنا هذا. إن المعقول في طبيعة هذه الشخصيات الفذة في تلك الأزمان المطلقة الحكم أنها تعمل على إزالة كل الشخصيات البارزة من طريقها؛ ليكون ذلك لأطماعها ممهدًا، ولخططها معبدًا.

يلوح لنا أنا لا نعدو الصواب إذا قلنا ذلك؛ إذ إن هذا هو ما فعله الفضل بن سهل مع الظاهرين وأصحاب الكلمة في الدولة، فإن التاريخ ينبئنا أنه رأى مستقبله ومستقبل حزبه يكون مهددًا إذا بقي طاهر وهرثمة في العراق، فاستصدر أمرين ملكيين: أولهما بتولية شقيقه الحسن بن سهل جميع ما فُتح بجهود طاهر وقيادته الحكيمة وإخلاصه للقضية المأمونية. ينبئنا بأنه نصَّبه على كور الجبال وفارس وعلى الأهواز والبصرة، وعلى الكوفة والحجاز واليمن، كما ينبئنا بأنه ولَّى طاهرًا الموصل والجزيرة والشام والمغرب. ولكي يتمَّ الأمر بإبعاده كتب إليه أن يُسلم الحسن بن سهل جميع ما بيده من الأعمال، وأن يُبادر في الشخوص إلى الرقة لمحاربة نصر بن شبث. وثانيهما إلى هرثمة بن أعين يُكلِّفه به أن يشخص إلى خراسان.

ولنتساءل الآن: هل كان من المصلحة السياسية هذه الصدمة العنيفة لزعيمين قويين أحسنا البلاء في الدولة، ولهما مكانتهما ولهما حزبهما؟

وهل كل من المصلحة السياسية إخلاء العراق وهو مصدر الشقاق والنفاق والعصيان والعدوان من هرثمة وطاهر؟

وهل كان من المصلحة السياسية أن يترك المأمون مسألةً كمسألة تعيين الحسن بن سهل وإقصاء هرثمة وطاهر تمرُّ هكذا؛ فيستغلها الدعاة على ملكه من بني هاشم ممن لم يكن لهم حظ في دولته، ومن غير بني هاشم ممن يودُّون زوال الملك الهاشمي، فيقول - فيما يقولون عنه: إنه غلب على أمره، أو أن الفرس ملكوا زمامه، أو أن الفضل بن سهل أنزله قصرًا فحجبه عن رجالات دولته، وأن السلطان ومقاليد السلطان قد نزعت منه؟

نعود نتساءل: أكان ذلك كله من مصلحته السياسية؟

لم يكن ذلك من المصلحة السياسية طبعًا، لا سيما أنه لم تسكن الفتن والثورات بعدُ في الأقطار المأمونية، ولكنا نميل إلى اعتقاد أن المأمون كان مرغمًا على الوقوع في هذه الغلطة السياسية وهو ذلك السياسي المحنك والداهية القدير، كما رأيت وكما سترى في موضعه؛ لأن لظروف الأحوال نصيبها في ذلك التصرف منه ومن غيره ممَّن يكون في مكانه، ولأنه ربما تحاشى بتصرفه ذلك خطرًا أجسم، وأوسع نطاقًا، وأبعد مدًى؛ وهو خطر إغضاب الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل.

ومهما يكن من شيء، فإن هذه التصرفات التي كانت من الفضل بن سهل وإقرار المأمون لها، وبقاء المأمون بعد أن تم له الأمر في مَرْو دون بغداد عاصمة الخلافة العباسية، كانت لها نتائجها السيئة في شيعة المأمون وأنصاره من جهة، وفي أعدائه والراغبين عن سلطانه من جهة أخرى، ذلك بأن أنصار المأمون وقواده، ونخصُّ بالذكر منهم طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين، قد كَسَر قلوبهم وفلَّ من عزائمهم، أن يكون جزاؤهم على فوزهم وحسن بلائهم وإخلاصهم تلك التصرفات السيئة التي كانت نصيبهم من المأمون ومن حاشية المأمون.

هذا كان أثرها في شيعته وخاصة أنصاره، وأما غير هؤلاء فقد جعلت هذه التصرفات ألسنتهم تنطلق باتِّهام المأمون بأنه يميل إلى الخراسانيين، وأنه أصبح آلة في أيديهم يُحرِّكونه كما يشاءون، وقد حدث من جراء هذه الإشاعات وفتور همة أنصار المأمون الذين لم يجازوا الجزاء الأوفى أن اضطربت الأمور وكثرت الفتن، ووجد أعداء المأمون الفرصة سانحة لتحقيق أطماعهم، ومن تلك الفتن ما يحدثنا التاريخ عنه من خروج محمد

ابن إبراهيم العلوي المعروف بابن طباطبا بالكوفة، وقد قام بتدبير أمره رجل من رجالات هرثمة بن أعين وكبار أنصاره، وقد خرج لأنه حبس عنه ما كان يُعطاه من رزق. هذا الرجل هو أبو السرايا السري بن منصور، وكان هو الخارج على المأمون في الواقع لا ابن طباطبا، وقد بلغ من أمره أن ضرب الدراهم وجند الجنود حتى اضطر الحسن بن سهل أن يسترضي هرثمة ويستعينه؛ ليكفيه شرَّ هذا الخارج القوي.

ويظهر أن موت الزعماء كان طلسماً من الطلاسم أو سرًا من الأسرار، أو صناعة من الصناعات الخفية؛ فإنا نجد أن محمد بن إبراهيم هذا، الذي سمت منزلته بين أتباعه وعظمت طاعتهم له، قد مات بعد أن كُتب النصرُ للقائم بتدبير أموره على سليمان بن جعفر والي الكوفة من قِبَل المأمون، ثم نرى هذا المنتصر يولي مكانه غلامًا أمرد حدثًا هو محمد بن محمد بن زيد العلوي.

وتعال معي لننظر في حوادث سنة تسع وتسعين ومائة؛ ففيها ما يكشف القناع عن أمور جسام تُفيدنا في تفهم الروح الحزبية بين العلويين والعباسيين، وتفيدنا أيضًا في إماطة اللثام عن سبب هامٍّ من الأسباب التي يرجع إليها تبرُّم بعض الوُلاة الكُفاة بدولة الفضل بن سهل، وانفراده هو وجماعته بمراتب الدولة ووظائفها.

تعال ننظر في حوادث تلك السنة، فنجد فيها أن هرثمة جدَّ في طلب أبي السرايا صديقه بالأمس ومُنازله اليوم، حتى وصل إلى قصر ابن هبيرة، فكانت بينهما وقعة شديدة قُتل فيها من أصحاب أبي السرايا خَلقٌ كثير، أليس في هذا ما يقنعك بأن إيماضة رضًا وابتسامة تشجيع، لرجل من

رجالات الدولة، كافية لأن ينهض فيحارب زميله ويقاتل خدنه؟ ثم نجد في تلك السنة فيها أن محمد بن محمد وثَب ومعه الحزب الطالبي على دور بني العباس ودور مواليهم وأتباعهم بالكوفة، فانتهبوها وخربوها وأخرجوهم من الكوفة، واستخرجوا الودائع التي كانت لهم عند الناس فأخذوها، وعملوا في ذلك عملاً قبيحًا، وتجد كذلك فيها أن مسرورًا الكبير، الخادم الرشيدي، قد حج تلك السنة في مائتي فارس من أصحابه، وأنه عُبِّي لحرب من يريد دخول مكة وأخذها من الطالبيين، وأنه قال لعامل مكة داود بن عيسى: أَقِمْ لي شخصَك أو شخص بعض ولَدِك وأنا أكفيك قتالهم، فقال له داود: لا أستحلُّ القتال في الحرم، والله لئن دخلوا من هذا الفج لأخرجنَّ من الفج الآخر، فقال له مسرور: تُسلِّم ملكك وسلطانك إلى عدوك ومَن لا تأخذه فيك لومة لائم في دينك ولا حُرَمك ولا مالك؟! قال له: أي ملك لي؟! والله لقد أقمتُ معهم حتى شِخْتُ فما ولوني ولاية حتى كبرت سني، وفني عمري، فولوني من الحجاز ما فيه القوت، إنما هذا الملك لك ولأشباهك، فقاتل إن شئت أو دَعْ.

هذه حالة نفسية لبعض الولاة العرب قد يكون من النفع أن تُلاحظ تبرمها وسخطها من سياسة العصر، أو من الهيمنة الفارسية على شتَّى أمور الدولة عامة، والجسيمات منها خاصة في ذلك العصر، وربما كانت هذه الحالة النفسية تمثل لك حالات كثيرة من نفسيات العرب لذلك العهد.

ثم لننظر في حوادث سنة مائتين، فنجد أن زيد بن موسى الطالبي المعروف بـ «زيد النار» كان بالبصرة، وإنما سمي «زيد النار» لكثرة ما حرَّقه من دور العباسيين وأتباعهم في البصرة، وكان إذا أُتِي برجل من

المسوِّدة العباسية كانت عقوبته عنده أن يُحرق بالنار، ونجد فيها أن إبراهيم ابن موسى الطالبي قد خرج باليمن، ونجد أيضًا أن الكعبة وخزائنها وأحجارها الكريمة لم تسلم من أبي السرايا وأتباعه العلويين، وكم حبس من العباسيين وكم آذى! حتى ندب محمد بن مسلمة الكوفي لتولِّي عذاب العباسيين، فأسرف في ذلك حتى سُميت داره بـ«دار العذاب»، ونجد أيضًا أن خارجيًّا آخر وهو حسن بن حسين أراد اقتفاء ما رسمه أبو السرايا، فذهب إلى علوي وداع محبَّب معروف في مكة والمدينة وهو محمد بن جعفر ونصَّبه خليفة اسمًا، وجعل السلطان بيده فعلًا.

ونجد فيها قبائح وفضائح لحسن بن حسين هذا مع زوجة قرشية من بني فهر، وزوجها من بني مخزوم، ولها جمال بارع، فاغتصبها من زوجها، ونجد فيها مثل ذلك الصنيع المعيب من علي بن محمد، الخليفة المنصوب، مع ابن القاضي إسحاق بن محمد، وكان جميلًا بارعًا في الجمال.

نجد ذلك كله ونجد الكثير من أمثاله مما أدى إلى إثارة الرأي العام في مكة، فاحتجوا حتى رد الصبي لأبيه مُكرهًا مُرغمًا! ونجد فيها أمثلة عدة لاستلاب أموال الناس، كما نجد فيها رجلًا عباسيًّا موتورًا من العلويين، وهو محمد بن الحكيم، ممن كان الطالبيون قد انتهبوا داره وعذبوه عذابًا شديدًا، عثَر على محمد بن جعفر الطالبي الخليفة المنصوب، وقد طُرد شر طردة، وكان في مقدوره أن يقتله فلم يفعل، فلنقيد هذه الحادثة فإنها تنفعنا في تفهم السر الذي كان كثيرًا ما يحدو بالمأمون إلى احترام العلويين وتقدير مكانتهم والعمل على إرضائهم؛ لأن لهم حرمة في نفوس حزب غير قليل من الشعب.

ونجد في السنة ذاتها أن الحج قد تولاه أكثر من شخص لتعدد السلطات، فندب المأمون أبا إسحاق بن هارون الرشيد، ووجَّه إبراهيم بن موسى الطالبي الذي خرج باليمن رجلاً من ولد عقيل بن أبي طالب، كما وجه غيره مَن يُمثِّله، مما يدل على الفرقة والانقسام وعلى الفوضى والاضطراب، فلتتعرف ذلك جيدًا.

ويجدر بنا هنا أن نبين نتائج الحالة الحزبية بين الفريقين؛ فقد بلغ أبا إسحاق بن الرشيد أن الجماعة الطالبية التي أتت من اليمن للحج قد مرت بها قافلة من الحاج والتجار، وفيها كسوة الكعبة وطيبها، فاستلبت أموالهم وطيبهم، فندب لهم محمد بن عيسى بن يزيد الجلودي الذي أحدق بهم فأسر أكثرهم، وهرب من هرب منهم، وأخذ منهم الطيب وأموال التجار والحاج فوجَّه به إلى مكة، ودعا بمن أسر من أصحاب العقيلي العلوي فأمر بهم فقنَّع كل رجل منهم عشرة أسواط، ثم قال لهم: «اعزُبوا يا كلاب النار، فوالله ما قتلكم وعر، ولا في أسركم جمال» وخلَّى سبيلهم. ولنلاحظ تسميته لهم بـ «كلاب النار».

وإنا نلخص لك الحوادث التي وقعت بعد أن قمَع هرثمةُ ثورةَ أبي السرايا التي انتهت بقتله عام ٢٠٠هـ وإخماد فتنته، معتمدين في ذلك على الطبري والأستاذ «ميور» خاصة.

لما قمع هرثمة ثورة أبي السرايا عاد إلى نهروان دون أن يعرِّج على والي بغداد، وهناك وافاه أمر الخليفة بتوليه حكم سوريا وبلاد العرب، وكان قد اعتزم الذهاب بعد ذلك إلى «مرو» مباشرة ليكشف للخليفة عن حقيقة الموقف وحرجه الذي يخفيه عنه وزيره الفضل، بسبب بقاء الخليفة في

«مرو»، وأن الغرب سينتقض عليه سريعًا ويخرج من يده إذا هو لم يبادر إلى العودة إلى بغداد، فلما أحس الفضل عزم هرثمة على القدوم فطن إلى ما ينويه، فدس له عند المأمون حتى أوغر صدره عليه، وكادت السنة تنتهي قبل أن يذهب هرثمة إلى «مرو»، فلما ذهب خشى أن يكتم الفضل خبر قدومه عن المأمون، فدق الطبول عند دخوله المدينة، فلما علم الخليفة الموغر الصدر بقدومه أمر بإحضاره، فلما مثَل بين يديه بالغ في تقريعه وتأنيبه على توانيه في تسكين ثورة أبي السرايا، وفي مخالفة ما أصدره إليه من أمره بالذهاب إلى ما ولاه من أعمال، وما كاد هذا القائد يهم بالكلام ويشرح لمولاه الحالة حتى هجم عليه الحرس الذين أَسَرَّ إليهم الفضل أن يغلظوا في تعذيبه، فانهالوا عليه ضربًا ولكمًا على وجهه وجسمه ثم سحبوه بسرعة إلى السجن حيث مات به بعد زمن قصير متأثرًا بجروحه، ولقد اعتقد عامة الناس أن الذي أماته هو الفضل.

وهكذا انطوت صحيفة هذا الباسل العظيم الذي ذبَّ عن مُلك المأمون، وكافح في توطيد دعائم الدولة من إفريقية إلى خراسان، والذي يرجع إليه الفضل الأكبر في انتصار المأمون على أخيه المخلوع.

ومات هذا القائد العظيم ضحية للسعاية ونكران الجميل كما مات أمثاله من قبل من صناديد هذه الدولة من جراء السعاية والمنافسة، ومن جراء أعمال البطانة ودسائس الحاشية.

ولنتساءل: ماذا كانت نتيجة قتل هرثمة؟

يحدثنا التاريخ أن هرثمة كان محبوبًا في الغرب، وأن موته أحدث فتنًا وقلاقل في بغداد، وثارت الجنود في وجه الحسن بن سهل؛ إذ عدوه آلة

في يد أخيه الفضل الذي كانوا ينعتونه بالمجوسي، وبعد قتال دام ثلاثة أيام طردوا الحسن من المدينة، فلجأ إلى «المدائن» ثم ارتد إلى «واسط»، واستمرت الفتن والقلاقل بعد ذلك قائمة ببغداد شهورًا عدة نشطت في خلالها عصابات اللصوص وشراذمة الصعاليك، وشمرت عن ساعدها في أعمال النهب والسلب حتى طغى سيل غاراتهم على تلك المدينة المنكودة التي أصبحت تحت رحمتهم.

ويحدثنا التاريخ أنهم قد أسرفوا في ذلك إسرافًا عظيمًا مما فزع له أعيان المدينة ووجهاؤها، فأجمعوا أمرهم على صد هؤلاء السفلة الأشرار ودفع غائلتهم عن المدينة وأهلها، ولما تم لهم ما أرادوا اختاروا من بينهم رجلين من ذوي الفضل والمكانة فيهم وولوهما تدبير الحكم ريثما تستقر الحال ويعود الأمن إلى نصابه، ثم عرضوا عرش الخلافة على المنصور بن المهدي والبيعة له، فتأبى عليهم ولكنه عاد وقَبِل أن يتولَّى الحكم باسم الخليفة المأمون.

ولم توشك هذه السنة أنْ تنتهي حتى كان قواد الجند في بغداد قد سئموا القتال، فاتفقوا مع الحسن بن سهل الوالي فعاد إلى بغداد بعد أن أصدر عفوًا عامًّا، ووعد بأنه يدفع للجند رواتبهم عن ستة أشهر، وبأن يدفع كذلك لذوي المعاشات أرزاقهم حسبما هو مدرج بقوائمهم.

***

ولنتساءل الآن: ماذا حدث بعد ذلك؟

حدث أنه ما كاد الأمر ينتهي على هذه الشروط حتى عادت الفتنة والاضطراب أشد مما كانا عليه؛ ذلك بأن المأمون لغرض سياسي أو لنزعة شيعية أو لتقدير كفاية خاصة استدعى واحدًا من سلالة سيدنا علي، وهو

«علي الرضا» ﷺ، وهو ثامن أئمة الشيعة أو حزب العلويين إلى «مرو»، واختاره وليًّا لعهد الخلافة مع أنه يكبره باثنتين وعشرين سنة.

وربما كان المأمون في رأيه هذا صادرًا عن رأي وزيره الفضل الذي زين له أن هذه أنجح وسيلة لتسكين ثورة العلويين في الغرب، وربما كانت تنجح هذه الوسيلة في التوفيق بين البيتين العلوي والعباسي قبل استفحال الخلف بينهما.

أما وقد استطار الشر بينهم، وقلب بعضهم لبعض ظهر المِجَنِّ، ولبسوا جلد النمر وتحفزوا للقتال وتداعوا للجلاد، فإن أمر الوفاق بينهم صار حلمًا، وعاد الإقدام عليه سخفًا وحماقة مُهلِكة.

وماذا ترتب على إسناد ولاية العهد لفرد من العلويين؟

إن التاريخ يحدثنا أنه ترتب على إسناد ولاية العهد لعلي الرضا أن أمر الخليفة ولاته في جميع أنحاء الدولة بأخذ البيعة لولي عهده، ولكي يجعل المأمون الدولة تصطبغ بصبغة العلويين خلع الشعار الأسود، شعار العباسيين، وارتدى الشعار الأخضر، شعار الشيعة، وأمر عماله بالاقتداء به.

وفي أواخر هذه السنة تلقَّى الحسن بن سهل من أخيه الفضل أمرًا بإعلان ذلك وتنفيذه، فكان لذلك الأمر أسوأ أثر في أهل بغداد؛ إذ وقع عليهم كالصاعقة لأن أهلها كانوا يخافون الشيعة ويمقتونهم، وكذلك شعر العباسيون بأن الضربة موجهة للقضاء على خلافتهم، فشقوا عصا الطاعة وهموا بخلع المأمون واختيار خليفة سواه، ولم يعارض زعماء البيت الملكي من العباسيين في ذلك، فلم تأت آخر جمعة من هذه السنة حتى دُعي لإبراهيم بن المهدي على المنابر خليفة بدلًا من المأمون، وسرعان ما بويع

له بالخلافة، وكان إبراهيم بارعًا في الموسيقى والغناء والشعر، ولكن كانت تنقصه المؤهلات التي يستطيع بها أن يضطلع بأعباء الملك التي ألقيت على عاتقه، والتي ناء بحملها مدة سنتين.

ثم ماذا كان بعد ذلك؟

نشب القتال بين جنود المأمون وجنود إبراهيم المُغتصِب للخلافة، فاضطر الحسن بن سهل نائب المأمون أن يرتد إلى واسط مرة أخرى، وخيل إليه أنه إذا جارى أهل الكوفة في ميولهم الشيعية يستطيع أن يضمها إليه، وبدأ ذلك بأن ولَّى عليها أحد إخوة علي الرضا، ولم يدر أن التوفيق بين عائلتي علي والعباس في مدينة كهذه متقلبة الأهواء ضرب من المستحيل؛ فإن أهلها كانوا على استعداد في أول أمرهم للقاء الحسن كقائد من صميم العلويين، ولكنهم انتقضوا عليه باعتباره الوالي الفارسي من قبل المأمون؛ وعلى ذلك قامت الثورات في هذه المدينة أيضًا كما قامت في غيرها.

ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

إن التاريخ يحدثنا أنه بينما كان الغرب غارقًا في لجج هذه الفوضى حدث في مرو تغيير جديد ذو شأن؛ ذلك أن المأمون قد تنبه في آخر الأمر لحرج الموقف وخطورة الحالة، ومن الغريب أن أول من نبَّه الخليفة إلى هذا الخطر المحدق به وبعرش آبائه وأجداده هو علي الرضا نفسه، فتبين المأمون أن ولايته للعهد كانت شؤمًا على الدولة؛ إذ سارت الأمور فيها من سيئ إلى أسوأ زهاء عام منذ توليه.

ويحدثنا التاريخ أن عليًّا الرضا خلا بالخليفة وكاشفه أن الفضل وزيره يكاتمه حقيقة الحال ويخفي عنه أمور الدولة، وأن أهل العراق يقولون عنه،

أي الخليفة: إنه مجنون أو مسحور، وأن الخلافة توشك أن تُفلتَ من يده بين إبراهيم والعلويين، وأن الحسين أخا الفضل يعمل في القضاء على الغرب، بينما طاهر ذلك القائد الباسل الذي يستطيع أن يقود سفينة الدولة إلى شاطئ النجاة منبوذ في سوريا.

وقد أيد هذه الحقائق للمأمون جماعة من قواد الدولة وزعمائها بعد أن أمنهم المأمون من غضب وزيره، ونصحوا إليه بأن خير علاج لسلامة الدولة أن يعجل بالعودة إلى بغداد، وقالوا له: إن هذه كانت نصيحة هرثمة التي جاء من أجلها منذ سنتين ليُسرَّها إليه لو أنه أمهله واستمع له.

فأيقن المأمون أخيرًا أن استسلامه للفضل وانقياده له كانا سببًا لكل ما حدث من الفتن والثورات، فأمر بانتقال بيت الخلافة إلى بغداد، وما كادوا يُحُلُّون بسرخس وهم في طريقهم إلى بغداد حتى وجدوا الفضل قتيلًا في حمامه - وكان الفضل قبل ذلك قد اضطهد جماعة القواد والزعماء الذين كشفوا أمره عند الخليفة - فوعد الخليفة بمكافأة لمن يأتيه بالقتَلة، ولما قُبض عليهم دافعوا عن أنفسهم بأنهم إنما قتلوه بأمر مولاهم الخليفة، ولكن لم يُغنهم دفاعهم شيئًا وضربت أعناقهم، وبعث الخليفة برءوسهم إلى الحسن ابن سهل مشفوعةً بكتاب تعزيةٍ منه، ووعده فيه بأنه سيستوزره خلفًا من أخيه، وبلغ من عطف الخليفة عليه، أو من سياسته وحكيم تدبيره أن عقَد زواجَه من ابنته بُوران التي كانت إذ ذاك، فيما قيل، طفلة في الحول العاشر من عمرها، ولم يدخل بها إلا بعد ثمان سنين بعد ذلك، وفي الوقت نفسه زوَّج إحدى بناته لعلي الرضا الذي كان في ذلك الوقت قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره، كما زوَّج بنتًا له أخرى من ابن علي الرضا، وكذلك

ولَّى أحد إخوة علي الرضا إمرة الحج، وبهذه المصاهرة تمت مظاهر حسن العلاقات وتوثيق العُرَا بينه وبين الحزب العلوي، وكانت هذه المصاهرة في ذاتها تصرفًا سياسيًّا آية في الحكمة والسداد.

لم يمض بعد ذلك غير قليل حتى حدث حادث آخر لم يكن متوقعًا؛ ذلك أنه في أثناء سفر الخليفة إلى بغداد نزل بطوس في فصل الخريف، وهناك مات علي الرضا فجأةً وقيل: إن موته كان بسبب إفراطه في أكلة عنب، فدفنه المأمون بجوار قبر أبيه الرشيد، فاهتزت الدولة لموته الفجائي الذي جاء عقب مقتل الفضل، وإنه لمن المعقول في مثل هذه الأحوال أن تنتشر الإشاعات، وتكثر الأراجيف في سبب موته، كما أنه من المعقول أيضًا في مثل هذه الأحوال أن يصعب الوقوف على الحقيقة لتضارب الإشاعات وتناقض الأراجيف واختلاف وجهات النظر، وقد قيل فيما قيل: إن المأمون دسَّ له السم في العنب، بيد أن الرعاية التي أظهرها المأمون لعلي الرضا خصوصًا بعد توثيق عُرا العلاقات بعد المصاهرة قد تدفع هذه الشبهة عن الخليفة.

إنا لا نمنعك من أن تفترض من جهة أخرى أن الفضل وعليًّا كانا عقبة كأداء في سبيل المأمون لا يزيلها من سبيله إلا موتهما، ويجوز لك أن تذهب في التدليل على أن المأمون كان يعدُّ عليًّا عقبة في سبيل إرضاء أهالي بغداد، إلى أنه في الوقت الذي كتب فيه كتاب تعزية إلى الحسن بن سهل ينعى فيه موت عليٍّ أرسل كتابًا آخر إلى أهل بغداد يقول لهم فيه: إن عليًّا الذي أظهروا سخطهم وتبرمهم من إسناد ولاية العهد له قد قضى، فلا شيء إذن يمنعهم الآن من العودة إلى طاعته وموالاته.

على أنَّا لا نجاريك في هذا الافتراض لما بيناه لك من ناحية، ولأن نفسية المأمون وخلقه، مما ستقف عليه قريبًا، لمما يجعل هذا الافتراض واهنًا ضعيفًا.

أما فيما يختص بكتاب المأمون إلى البغداديين بشأن موت علي الرضا فنقول لك: إنه وإن لم يحدث أثره المطلوب تمامًا في نفوس البغداديين لأنهم أجابوا عنه بكتاب جاف فاتر، إلا أنه قد خطا به خطوة ما في سبيل استمالة أهل بغداد، وفي هذا الوقت أخذ أنصار إبراهيم القلائل ينفضون من حوله لضعفه وسوء تدبيره في إدارة الحكم، وتخلَّى عنه جنوده ولم يتقدموا لمدافعة جنود المأمون، وسقطت المدائن التي كان فيها مقر خلافته في أيدي جنود المأمون وساءت أحواله واضطرب نظام ملكه في فصل الشتاء، ولما دنا قواد المأمون وجنوده للعاصمة لمهاجمتها خرج إليهم قواد المدينة وزعماؤها يظهرون ولاءهم وطاعتهم للمأمون.

وما كادت تنتصف السنة حتى استولى قواد المأمون على المدينة، وحتى اختفى إبراهيم كما اختفى غيره ممن كانوا قد خرجوا على المأمون، وذلك بعد أن عانت ما عانت من ضروب الفوضى واختلال الأمن وسقم الحال مدة سنتين تقريبًا، وبقي مختفيًا فيما يقال ثماني سنين ثم قبض عليه مُتنكرًا في زي امرأة، ثم عفا عنه المأمون. وسنذكر ذلك في موضعه.

ملخص الحالة العامة في المدة البغدادية – دخول المأمون بغداد (في صفر سنة ٢٠٤هـ/أغسطس سنة ٨١٩م)

لما خمدت ثورة بغداد وفرَّ إبراهيم بن المهدي مختفيًا، واستقر النظام وعاد أهلوها إلى الطاعة والولاء لخليفتهم تقدم إليها المأمون مُتَّئدًا في سيره، إذ

كان يقف في أثناء سفره بالمدائن التي يمر بها كي يعيد إليها الأمن ويقر فيها النظام، فأقام في جُرجان شهرًا كما أقام في النهروان ثمانية أيام، فخرج لاستقباله أهل بغداد يتقدمهم أهل بيته وقواده ووجوه المدينة احتفاءً بقدومه إليهم.

وكان المأمون قد كتب في أثناء سفره إلى طاهر وهو في الرقة أن يوافيه في النهروان، فوافاه بها، ثم تقدم بعد ذلك ودخل بغداد في صفر سنة ٢٠٤هـ/ أغسطس سنة ٨١٩م.

وكان لا يزال الشعارُ الأخضر شعارُ العلويين الذي اتخذه المأمون وهو في مرو شعارَ الدولة، فما زال به كبار قواده وأهل بيته حتى طرحه واستبدل به الشعار الأسود شعار العباسيين.

ويحدثنا يحيى بن الحسن أن المأمون لبس الخُضرة بعد دخوله بغداد تسعة وعشرين يومًا ثم مُزِّقت، ثم خلع الخلع السنية على من حضر من القواد والأشراف ورجالات الدولة، وعفا عن الفضل بن الربيع وزير الأمين الذي كان اختفى بعد مقتله ثم ظهر مساعدًا لإبراهيم بن المهدي في ثورته، وكذلك عفا عن عيسى وزير إبراهيم مع أنهما كانا رأسي الفتن والقلاقل التي أثيرت على حكم المأمون، فكان موقف المأمون معهما غاية في التسامح والكرم.

ولم يكن قد استقر الأمر والنظام في جميع أنحاء الدولة بدخول المأمون بغداد، فقد كان لا يزال نصر بن شبث خارجًا في سوريا، وكانت لا تزال مصر مسرحًا للفتن والقلاقل، وبابُك الخرمي يعظُم خطره في شمال فارس، والزُّط لا يزالون يعيثون في الأرض فسادًا على الخليج الفارسي. وسنقص عليك في موضعه ما وصلت إليه هذه الثورات وكيف أخمدت.

ثم ولَّى المأمون طاهرًا حاكمًا على بغداد، وأقام ابنه عبد الله واليًا على الرقة خلفًا من أبيه، غير أن المأمون لم يلبث أن تنكر لطاهر وأظهر له الجفوة، ثم نرى بعد قليل أن طاهرًا ولِّي حاكمًا على خراسان.

وقد كنا نكون في حيرة من أمر هذا التنكر الفجائي من الخليفة على رجله العظيم من غير سبب ظاهر، ثم ينتهي ذلك بأن يكون حاكمًا على خراسان، لولا أن ابن طيفور يروي لنا أسباب كل هذا في قصة ممتعة ملخصها: أن طاهرًا دخل على المأمون ذات يوم في حاجة، وكان المأمون فيما قيل في مجلس شراب، فأمر له برطلين من النبيذ، ثم بكى المأمون وتغرغرت عيناه فقال له طاهر: يا أمير المؤمنين، لِمَ تبكي، لا أبكي الله عينك؟! فوالله لقد دانت لك البلاد، وأذعن لك العباد، وصرت إلى المحبة في كل أمرك، فقال: أبكى لأمر ذكره ذل، وستره حزن، ولن يخلو أحد من شجَن؛ فتكلَّمْ بحاجة إن كانت لك. فما زال طاهر بعد ذلك يتخذ الوسائل إلى معرفة السبب حتى وفِّق بالمال إلى إغراء ساقي المأمون أن يتعرف كنه ذلك السبب، فلما تغدى المأمون ذات يوم قال لساقيه: يا حسين، اسقني، قال: لا والله لا أسقيك أو تقول لِمَ بكيت حين دخل عليك طاهر! قال: يا حسين، وكيف عُنيت بهذا حتى سألتني عنه؟ قال: لغمِّي بذلك، قال: هو أمر إن خرَج من رأسك قتلتُك، قال: يا سيدي، ومتى أخرجت لك سرًّا؟! قال: إني ذكرت محمدًا أخي وما ناله من الذلة فخنقتني العَبرة، فاسترحتُ إلى الإفاضة، ولن يفوت طاهرًا مني ما يكره! قال: فأخبر حسين طاهرًا بذلك، فركب طاهر إلى أحمد بن أبي خالد وهو وزير المأمون فقال له: إن الثناء مني ليس برخيص، وإن المعروف عندي ليس بضائع، فغيِّبني عن عينه، فقال له: سأفعل؛ فبكِّرْ عليَّ غدًا.

قال وركب ابن أبي خالد إلى المأمون، فلما دخل عليه قال له: ما نمت الليلة، فقال له: ولِمَ ويحك! قال: لأنك ولَّيتَ غسان خراسان وهو ومن معه أَكَلة رأس،[1] فأخاف أن يخرج عليك خارجة من الترك فيصطلمه؛ قال: لقد فكرت فيما فكرت فيه، قال: فمَن ترى؟ قال: طاهر بن الحسين، قال: ويلك يا أحمد! أهو والله خالع؟ قال: أنا الضامن له، قال له: فأنفذه، قال: فدعا بطاهر من ساعته.

ويظهر أن المأمون، فيما ذكر الرواة، لم يكن مُطمئنًا مع ضمان وزيره لطاهر إلى تعيينه حاكمًا على خراسان، فإن بعض الرواة يقول: إن المأمون أسرَّ إلى خصيٍّ له أمين بمرافقة طاهر حتى إذا رأى منه خروجًا دسَّ له السم.

ثم لم يلبث طاهر بعد أن تولى شئون خراسان وأدارها بحزم وسداد رأي حتى ظهر منه ما كان يخشاه المأمون من خروج وعصيان، فقد أسقط اسم المأمون من خطبة الجمعة، وذكر دعاء مُبهمًا لنصرة الدين، فأنفذ عينُ المأمون عامل البريد فورًا بكتاب إلى المأمون يخبره فيه بما وقع من طاهر، ثم نرى المأمون يتوقع مجيء كتاب آخر وينتظره بفارغ الصبر في اليوم التالي لورود الكتاب الأول، وقد جاءه هذا الكتاب فعلًا ينعى طاهرًا الذي وجد ميتًا في فراشه.

ونحن نرى بعد أن ذكرنا ما ذكرنا أنه لم يبق شيء من الغموض في هذه الناحية من عصر المأمون، وأن تصرفات المأمون مع طاهر ثم خروج طاهر عليه ثم موت طاهر بعد ذلك كلها حوادث واضحة الأسباب معقولة النتائج، ولا نستطيع أن نماشي الأستاذ «ميور» الذي يرى أن على هذه الحوادث جميعها غِشاءً من الغموض كثيفًا.

ثم رأى المأمون بعد موت طاهر أن يولي مكانة ابنه طلحة، وأن يستبقي ابنه عبد الله واليًا على الجانب الغربي من الخلافة، ليقمع ما فيه من ثورات ويسكن ما به من اضطراب، ثم أرسل وزيره مع طلحة ليقوي دعائم سلطانه في ولايته، فشخص الوزير إلى ما وراء النهر وقام بحملة موفقة على بعض العصاة ثم قفل راجعًا إلى بغداد مزودًا، فيما يقول الرواة، بهدية نفيسة له من طلحة مقدارها ثلاث آلاف ألف درهم، ولكاتبه بأخرى مقدارها خمسمائة ألف درهم.

أما طاهر الذي توفي في فراشه، وربما كان الذي يعلم سر وفاته قبل سواه هو المأمون وبطانته؛ فقد قدمنا لك شيئًا في كلمتنا عن النزاع بين الأخوين عن عظيم خطره، وحسن بلائه وخبرته بالحروب، ولا يقل خطره في تدبير الحكم وشئون السياسة عن خطره في الحرب، وكان مع ذلك مشغوفًا بالعلم والأدب مشجعًا لأربابهما، حاثًّا على تعلمهما، وليس أدل على تبريزه في العلم والأدب وخبرته بشئون السياسة وبصره بتصرف الأيام من عهده الذي كتبه إلى ابنه عبد الله. ولسنا نرى ما نقدم به إليك هذا العهد خيرًا من وصف المأمون له حين بلغه، وتقديره له واحتفائه به واستنساخه ثم إرساله إلى عماله في الولايات، قال ابن طيفور: لما عهد طاهر بن الحسين إلى عبد الله ابنه هذا العهد تنازعه الناس وكتبوه وتدارسوه، وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه وقال: ما بقَّى أبو الطيب شيئًا من أمر الدين والدنيا والتدبير والرأي والسياسة، وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيعة وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة إلا أحكمه وأوصى به وتقدم فيه. وأمر أن يُكتب بذلك إلى جميع العمال في نواحي الأعمال.

وكانت كتابة هذا العهد من طاهر لابنه عبد الله حين اختار المأمونُ عبدَ الله لولاية مصر ولمحاربة نصر بن شبث؛ لما رآه فيه من حزم وفطنة وكفاية وحسن بلاء، وكان عهد أبيه إليه قانونًا يُطبقه على نفسه أحزم تطبيق، وكان لا يورد شيئًا في شأن من شئونه أو يصدره إلا على منهجه وفي حدود إرشاداته.

ولما كان هذا العهد من الوثائق التاريخية التي لها قيمتها العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية آثرنا ذكره، وقد أثبتناه في باب المنثور من الكتاب الثالث في المجلد الثالث فراجِعْه.

ثورة نصر بن شبث

أما نصر بن شبث الذي وُجِّه عبد الله بن طاهر لمحاربته بعد أن وُجِّه إليه أبوه، فقد كان ممن خرجوا حين اضطرب نظام الدولة وكثرت الأراجيف ونشط أعداء المأمون خاصة والعباسيين عامة؛ لبقاء المأمون في مرو بعيدًا عن عاصمة الملك وحاضرة الخلافة.

وكان من الممكن أن يكون مصير ثورة نصر مصير غيرها من الثورات التي خمدت بسرعة لولا أن طاهرًا لم يَجِدَّ في محاربته، وقد ذُكر أنه قال للحسن بن سهل حينما ندبه للخروج إلى محاربة نصر بن شبث: حاربت خليفة، وسُقْت الخلافة إلى خليفة، وأؤمر بمثل هذا! وإنما كان ينبغي أن تُوجِّه لهذا قائدًا من قوادي! وذكر بعض المؤرخين أن طاهرًا فرَّ كالمنهزم أمام نصر بعد معارك حامية بين جنديهما، ولكنه حرص بعد ذلك على ما بقي في يده من البلاد أن يُغير نصر عليها.

ويظهر أن ما يقوله بعض المؤرخين من أن فتور طاهر في محاربة نصر ابن شبث يرجع إلى الصدمة التي صدمه بها آل سهل حين حرموه من ثمار

فتوحه في العراق له حظ كبير من الحق؛ فإننا لا نسيغ عجز طاهر عن مناهدة نصر وإخضاعه مع ما هو معروف عنه من الدهاء والبصر بالحرب وحسن تعبئته للجيوش، ووضع أدق الخطط لحملاتها، ومع أن وراءه الدولة تُمدُّه بما يحتاج إليه من جند وسلاح ومال.

ومهما يكن من شيء فقد كثُف أنصار نصر وعظُم خطره حتى ذهب إليه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا له: قد وَتَرْت بني العباس وقتلت رجالهم، فلو بايعت لخليفة لكان ذلك أقوى لأمرك! فقال: من أي الناس؟ فقالوا: تبايع لبعض آل علي بن أبي طالب، فقال: أُبايع بعض أولاد السوداوات فيقول: إنه خلقني ورزقني! قالوا: فتبايع لبعض بني أمية، قال: أولئك قوم قد أدبر أمرهم، والمدبر لا يُقبل أبدًا، ولو سلم عليَّ رجلٌ مدبر لأعداني إدباره، وإنما هواي في بني العباس، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يُقدِّمون عليهم العجم. فتأمل قوله هذا طويلًا؛ فهو يميط لنا اللثام عن حقائق يجب أن نقف عليها.

يروى لنا التاريخ أن عبد الله بن طاهر الذي نهد لمحاربة نصر بن شبث كتب إلى المأمون يُعلمه أنه حصَره وضيَّق عليه وقتل رؤساء من معه، وأنه قد عاذ بالأمان وطلبه، فأمره أن يكتب له كتاب أمان، فكتب إليه أمانًا نسخته: «أما بعد، فإن الإعذار بالحق حجة الله المقرون بها النصر، والاحتجاج بالعدل دعوة الله الموصول بها العز، ولا يزال المُعْذر بالحق المحتج بالعدل في استفتاح أبواب التأييد، واستدعاء أسباب التمكين حتى يفتح الله وهو خير الفاتحين، ويمكن وهو خير المُمكِّنين، ولست تعدو أن تكون فيما لهجت به أحد ثلاثة: طالب دين،

أو ملتمس دنيا، أو متهورًا يطلب الغلبة ظلمًا؛ فإن كنت للدين تسعى بما تصنع فأوضِحْ ذلك لأمير المؤمنين يغتنم قبوله إن كان حقًّا، فلعمري ما همته الكبرى ولا غايته القصوى إلا الميل مع الحق حيث مال، والزوال مع العدل حيث زال، وإن كنت للدنيا تقصد فأعْلِمْ أمير المؤمنين غايتك فيها، والأمر الذي تستحقها به، فإن استحققتها وأمكنه ذلك فعله بك؛ فلعمري ما يستجيز منْع خَلْق ما يستحقه وإن عظُم، وإن كنت متهورًا فسيكفي اللهُ أميرَ المؤمنين مُؤنتك، ويُعجل ذلك كما عجل كفايته مؤن قوم سلكوا مثل طريقك كانوا أقوى يدًا، وأكثف جندًا، وأكثر جمعًا وعددًا ونصرًا منك، فيما أصارهم إليه من مصارع الخاسرين، وأنزل بهم من جوائح الظالمين.

وأمير المؤمنين يختم كتابه بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله ﷺ، وضمانه لك في دينه وذمته الصفح عن سوالف جرائمك، ومتقدمات جرائرك، وإنزالك ما تستأهل من منازل العز والرفعة إن أنبْتَ وراجعت إن شاء الله. والسلام».

وقد ذهب عبد الله بن طاهر إلى وجهه في محاربة نصر ولبث في مناهدته حتى اضطره إلى التسليم نحو خمس سنين، وفي أثناء هذه المدة سعى المأمون إلى إخماد الثورة من طريق الصلح، فندب جعفر بن محمد العامري ليؤدي رسالة منه إلى نصر يطلب منه فيها ترك الحرب والجنوح إلى السلم.

وقد كاد يتم الصلح بين الفريقين وتحقن الدماء ويَذهب عن الناس في تلك النواحي ما أصابهم من فزع وهلع، لولا خُنْزُوانة(٢) في رأس نصر قابلتها أخرى، فيما يقول الرواة، في رأس المأمون، حالتا دون هذه

الغاية السامية؛ ذلك بأن نصرًا قَبِل ما اقترحه المأمون، لكنه شرط ألا يطأ بساطه، فلما بلغ المأمون هذا الشرط قال: لا أجيبه والله إلى هذا أبدًا ولو أفضيتُ إلى بيع قميصي حتى يطأ بساطي! ثم كتب إليه المأمون بعد ذلك كتابًا هذه نسخته:

أما بعد، فإنك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها، وبرد ظلها وطيب مرتعها، وما في خلافها من الندم والخَسار وإن طالت مدة الله بك؛ فإنه إنما يملي لمن يلتمس مظاهرةَ الحجة عليه، لتقع عِبَره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إذكارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون لما أكتب به إليك موقعٌ منك، فإن الصدق صدق والباطل باطل، وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يُعنون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك ولا أحرص على استنقاذك والانتياش[٣] لك من خطائك مني، فبأي أول أو آخر أو سِطَة أو إمْرة إقدامُك يا نصر على أمير المؤمنين تأخذ أمواله، وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبيت آمنًا أو مطمئنًا أو وادعًا أو ساكنًا أو هادئًا؟ فوَعالم السرِّ والجهر، لئن لم تكن للطاعة مُراجِعًا، وبها خانعًا لَتَستوبلنَّ وَخَم اَلعاقبة، ثم لأبدأَنَّ بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت في الأرض فتنة وفسادًا كبيرًا، ولأطأنَّ بمن معي من أنصار الدولة كواهل رِعاع أصحابك، ومَن تأشَّب[٤] إليك من أداني البلدان وأقاصيها، وطغامها[٥] وأوباشها، ومن انضوى إلى حوزتك من خُرَّاب[٦] الناس، ومَن لفظه بلده ونفته عشيرته لسوء موضعه فيهم، وقد أعذر من أنذر. والسلام.

ثم أخذ عبد الله يَجِدُّ في محاربته وحصره حتى ضيَّق عليه واضطره إلى طلب الأمان، وقد احتُفي بنصر وهو ذاهب إلى بغداد خاضعًا للخليفة احتفاء عظيمًا، بيد أن جماعة ممن كانوا ناقمين على المأمون لم يرقهم أن ينتهي الخلاف بينه وبين ثائر قوي، فأرادوا أن يكدروا صفاء السرور فدبروا مؤامرة، وهي أن يقطعوا جسر الزوارق عند اقتراب نصر بموكبه الحافل، فقبض عليهم، ولأمرٍ ما كان المأمون على غير عادته قاسيًا في عقابهم، فقد جاء بزعيمهم ابن عائشة، فيما قال الرواة، وهو من بني العباس، ووضعه على باب داره في أشعة الشمس المحرقة ثلاثة أيام، ثم أمر بضربه بالسياط، ثم أمر بضرب عنقه مع كثير ممن كانوا معه.

نقول لأمرٍ ما كان المأمون قاسيًا في عقابهم لأن الرجل الذي يصل به عفوه وحلمه إلى أن يعفو عن إبراهيم بن المهدي والفضل بن الربيع وغيرهما من أصحاب الكبائر وممن كادوا له حقًّا، وسعوا في ضياع ملكه واستلاب عرشه، لا بد أن يكون الدافع له إلى القسوة في عقاب هؤلاء الأشخاص حاجة في نفسه عمِّيت علينا، ونحن نعترف بأن المصادر التي بين أيدينا لم تفسر لنا تفسيرًا مقنعًا السر في هذا الاشتطاط وهذه المبالغة في العقوبة من المأمون الوديع الحليم.

على أن هذه الحادثة تحتاج إلى تحقيق دقيق، ولم تُتح لنا المصادر الحاضرة القيام بتعرف وجه الحق فيها، ولا يستبعد البتة أن يكون المأمون منها براء. وليت أعضاء المجمع العلمي العربي وغيرهم من رجال العلم والتاريخ والأدب يعنون بتمحيص مثل هذه النقط المهمة في تاريخ أزهى عصورنا الإسلامية.

الزط

أما الزُّطُّ فهم المعروفون بالنَّوَرة،[٧] وقد قال ابن خلدون عنهم: إنهم قوم من أخلاط الناس غلبوا على طريق البصرة وعاثوا فيها وأفسدوا البلاد.

أما نحن فلا نستطيع من ناحيتنا أن نسلك هؤلاء القوم في سلك أصحاب الثورات، أو الخارجين على الخليفة لنحلة دينية أو مذهب سياسي، وإنما هم طائفة من هنود آسيا كانوا يسكنون شواطئ الخليج الفارسي، قد وُجدوا به حين اضطراب الأمن في أطراف الدولة وضعف سلطان الحكومة، وانصراف القائمين بتدبير الشئون العامة إلى أمر الفتنة القائمة بين الأمين والمأمون التي انتهزها الزط وأمثال الزط فرصة للسلب والنهب والعيث في الأرض فسادًا، فتجمعوا واستولوا على طريق البصرة، فهم بقُرْصان البحر وقطَّاع الطرق أشبه منهم بالثائرين وأصحاب المبادئ.

ويظهر أنهم كما يقول الأستاذ المرحوم محمد الخضري بك: كانوا إذا أخرجهم الجند تفرقوا في تلك الفيافي، فإننا نرى المأمون يكلِّف غير مرة أكثر من قائد أمر القضاء عليهم، ثم نراهم لا يزالون يعيثون في الأرض فسادًا حتى السنة الأولى من عهد المعتصم الذي كلف أحد قواده، عجيف بن عنبسة، القضاء عليهم، فاهتم عجيف بحربهم وضيق عليهم طريق البر والبحر وحصرهم من كل وجه، ثم حاربهم وأسر منهم نحو خمسمائة رجل، وقتل منهم نحو ثلاثمائة، وقطع رءوس الأسرى وبعث بالرءوس جميعًا إلى المعتصم، وجدَّ في حربهم حتى اضطرهم إلى التسليم، فإذا عِدَّتُهم سبعة وعشرون ألف شخص بين رجل وامرأة وصبي، وكان من هذا العدد اثنا عشر ألف مقاتل، ثم حملهم في السفن إلى بغداد، فمروا

على المعتصم بأبواقهم وهيئتهم الحربية ثم نقلوا آخر الأمر إلى قرية تُسمى عين زَرْبة.[٨]

وقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٢٤١هـ في عهد المتوكل أن الروم أغارت على عين زربة هذه فأخذت من كان فيها أسيرًا من الزط مع نسائهم وذراريهم وذويهم.

ثورة مصر

أما مصر فقد كانت مسرحًا للقلاقل والفتن، وكان رأس الفتنة وزعيمها عبيد الله بن السري بن الحكم الذي عظم خطره باشتغال عبد الله بن طاهر بمحاربة نصر بن شبث وإخضاعه، ومما زاد في اضطراب النظام في مصر قدوم جماعة من أَفَّاقي الأندلس إلى الإسكندرية يحدثنا عنهم الطبري بقوله: حدَّثني غير واحد من أهل مصر أن مراكب أقبلت من بحر الروم من قِبَل الأندلس فيها جماعة كبيرة أيام شُغل الناس قبلهم بفتنة الجَرَويِّ وابن السري، حتى أرسوا مراكبهم بالإسكندرية، ورئيسهم يومئذ يدعى أبا حفص، فلم يزالوا بها مقيمين حتى قدم عبد الله مصر.

ويحدثنا عن الفتنة التي كانت بمصر بقوله: قال لي يونس بن عبد الأعلى: قدم علينا من قبل المشرق فتًى حدَث، يعني عبد الله بن طاهر، والدنيا عندنا مفتونة قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب، والناس منهم في بلاء، فأصلح الدنيا وأمَّن البريء وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة.

أما ما كان من أمر عبد الله بن طاهر في مصر، فإن التاريخ يحدثنا أنه لما انتهى أمر نصر بن شبث، كما قدمنا، كتب المأمون إلى عبد الله يأمره بالتوجه إلى مصر لإخماد ما فيها من فتنة، فذهب إليها وجادَّ الثائرين القتال حتى اضطرهم جميعًا إلى طلب الأمان فأجابهم إليه.

وأما الأندلسيون الذين حضرت جماعة كبيرة منهم إلى الإسكندرية فقد طلبوا الأمان على أن يرتحلوا عنها إلى بعض أطراف الروم، فرحلوا إلى جزيرة إقريطش «كريت» فاستوطنوها وأقاموا بها.

وأما ما كان من ابن السري فإنه طلب الأمان إلى عبد الله، وذلك بعد قتال عنيف وانهزامه شر هزيمة.

ولما أخمدت الفتنة في مصر وبلغ المأمون الخبر كتب إلى عبد الله يهنئه، وجعل في أسفل كتابه أبياتًا من الشعر إن ثبت صدورها من المأمون حقًّا ولم تكن من وضع القُصاص والرواة، فإنها تعتبر آية في كرم أخلاق المأمون. وقد ذكرناها في علاقة المأمون مع عماله.

وقد كتب إليه أحمد بن يوسف وزير المأمون يهنئه بهذا الفوز كتابًا بليغ اللفظ رشيق الأسلوب هذه نسخته:

بلغني، أعزَّ الله الأمير، ما فتح الله عليك وخروج ابن السري إليك، فالحمد لله الناصر لدينه، المعز لدولة خليفته على عباده، المذل لمن عَنَدَ[9] عنه وعن حقه، ورغب عن طاعته، ونسأل الله أن يُظاهر له النعم، ويفتح له بلدان الشرك، والحمد لله على ما وَلِيَك مُذ ظَعَنتَ لوجهك، فإنا ومَن قِبَلنا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك، ونُكثر التعجب لما وفِّقت له من الشدة والليان في مواضعهما، ولا نعلم سائس جند ورعية عدَل بينهم عدلك، ولا عفا بعد القدرة عمَّن آسفه[10]. وأضغنه عفوك، ولقلما رأينا ابن شَرَف لم يُلقِ بيده مُتَّكلًا على ما قدَّمت له أبوته، ومن أُوتي حظًّا وكفاية وسلطانًا وولاية لم يُخلِد إلى ما عفا له حتى يُخِلَّ بمُساماة ما أمَامه، ثم لا نعلم سائسًا استحق النُّجح لحسن السيرة وكفِّ معرَّة الأتباع استحقاقك، وما يستجيز أحد

ممن قبلنا أن يقدِّم عليك أحدًا يَهوي عند الحاقة والنازلة المُعضلة، فليَهْنِكَ منة الله ومزيده، ويُسوِّغك الله هذه النعمة التي حواها لك، بالمحافظة على ما به تمت لك، من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين، وملاك وإيانا العيش ببقائه، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قبلنا مكرمًا مقدمًا معظمًا، وقد زادك الله في أعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم، ويُعدُّونك لأحداثهم ونوائبهم، وأرجو أن يوفقك الله لمحابِّه كما وفق لك صنعه وتوفيقه، فقد أحسنت جوار النعمة فلم تُطْغِك ولم تزدد إلا تذلُّلًا وتواضعًا، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك. والسلام.

وقد خرج المأمون إلى مصر في ١٦ من ذي الحجة سنة ٢١٦ هجرية أثر شخوصه إلى دمشق للمرة الثانية، وكان خروجه إلى مصر، فيما يقول الرواة، لإخماد ما قام فيها من فتن واضطرابات، وذلك أن أهالي الوجه البحري خرجوا ومعهم أقباط البلاد على عيسى بن منصور عامل مصر؛ لسوء سيرته فيهم ولقبح صنيعه معهم.

ويحدثنا التاريخ أن عيسى هذا قد بذل ما في مقدوره لإخماد الفتنة والقضاء على الثورة، فلم يحالفه الظفر، وأخرجه الثوار أقبح مُخْرج من البلاد، فقدم القائد التركي المعروف بالأفشين وعمل على قمع الفتنة وإخماد الثورة، وقتل مقتلة ذريعة من الأهلين فسكنت الفتنة إلى حين.

ثم عادت الفتنة ثانية واندلع لهيبها واستدعت خطورتها قدوم المأمون إلى مصر، فجاء إليها ونظر في شكاة الأهلين وعمل على إنصافهم، وسخط على عيسى بن منصور ونسب إليه وإلي سيئ أعماله كل ما حدث في طول البلاد وعرضها من فتن وثورات.

ويظهر أن الثورة المصرية لم تُخمَد تمامًا، وأنها تطلَّبت من المأمون إلى جانب ما أظهره من رغبة في إحقاق الحق وإجراء العدل شيئًا من الحزم واستعمال القوة، فجادَّ الثائرين القتال حتى أذعنوا أخيرًا، ويقول المؤرخون: إنه لبث في مصر أربعين يومًا أو يزيد؛ إذ قدمها في الخامس من محرم سنة ٢١٧هـ وبقي بها إلى الثامن عشر من صفر.

ويظهر أنه قضى هذه المدة إلى جانب اشتغاله بحرب أهلها بالتنقل بين العاصمة وبعض الأعمال مثل سِنْجار وحُلوان وغيرهما.

ومن أعماله في مصر تعمير مقياس النيل وبعض إصلاحات أخرى بالجزيرة تجاه الفسطاط. وعاد المأمون أخيرًا إلى دمشق بعد أن شَهِد المصريين وخربهم وعدم احتمالهم ظلم الحكام والولاة.

بابك الخُرَّمِي

يخبرنا المؤرخون أن بابك الخرمي قد ظهر من كورة في شمال بلاد فارس تسمى «البذ»، وقد كان خروجه للدعوة إلى مذهبه الإباحي سنة ٢٠١هـ، وكان المأمون لا يزال في «مرو» قبل أن ينتقل إلى عاصمة ملكه بغداد، وقد امتدت فتنة بابك عنيفةً طوال عهد المأمون وصدرًا من عهد المعتصم.

وقال أبو سعيد عبد الكريم بن محمد السمعاني المروزي في كتاب الإنساب: «الخرمي»[١] هذه النسبة إلى طائفة من الباطنية يقال لهم الخرمدينية، قوم يدينون بما يريدون ويشتهون، وإنما لقبوا بذلك لإباحتهم المحرمات من الخمر وسائر اللذات ونكاح ذوات المحارم وفعْل ما يتلذذون به، فلما شابهوا في هذه الإباحة المَزْدَكية من المجوس الذين خرجوا في أيام

قُباذ وأباحوا النساء كلهنَّ وأباحوا سائر المحرمات إلى أن قتلهم أنوشروان بن قباذ، قيل لهم بهذه المشابهة خرمدينية كما قيل للمزدكية.

وقبل أن نخوض في تفصيل حوادث هذا الرجل وما بذله المأمون ثم المعتصم في قتاله، ثم ما كان من مصيره بعد ذلك على يد الأفشين قائد المعتصم التركي سنة ٢٢١هـ، قبل كل هذا نحب أن نورد لك ما ذكره ابن النديم في فهرسته عن مذهب الخُرَّمِية البابكية وما يتعلق به؛ لتكون على بصيرة من مذهب الرجل وما كان يدعو إليه من نحْلة وبدعة.

قال محمد بن إسحاق: «الخُرَّمية صنفان: الخُرَّمية الأَوَّلون ويُسمون المُحمِّرة، وهم منتشرون بنواحي الجبال فيما بين أذربيجان وأرمينية، وبلاد الديلم وهمذان ودِينَور، وفيما بين أصفهان وبلاد الأهواز، وهؤلاء أهل مجوس في الأصل ثم حدث مذهبهم، وهم ممن يعرف باللقطة، وصاحبهم مزدك القديم أمرهم بتناول اللذات والانعكاف على بلوغ الشهوات، والأكل والشرب والمواساة والاختلاط، وترك الاستبداد بعضهم على بعض، ولهم مشاركة في الحُرَم والأهل لا يمتنع الواحد منهم من حرمة الآخر ولا يمنعه، ومع هذه الحال فيرون أفعال الخير وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس، ولهم مذهب في الضيافات ليس هو لأحد من الأمم؛ إذا أضافوا الإنسان لم يمنعوه من شيء يلتمسه كائنًا ما كان، وعلى هذا المذهب مزدك الأخير الذي ظهر في أيام قباذ بن فيروز وقتَله أنوشروان وقتَل أصحابَه، وخبرُه مشهور معروف. وقد استقصى البلخي أخبار الخرمية ومذاهبهم وأفعالهم في شربهم ولذاتهم وعبادتهم في كتاب «عيون المسائل والجوابات» ولا حاجة بنا إلى ذكر ما قد سبقنا إليه غيرنا».

«فأما الخرمية البابكية فإن صاحبهم بابك الخرمي، وكان يقول لمن استغواه: إنه إله، وأحدث في مذاهب الخرمية القتل والغصب والحروب والمثلة، ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك».

ثم ذكر صاحب الفهرست بعد ذلك نشأته وما وقع له في بدء أمره حتى صار إمام هذه النحلة التي تنسب إليه، نقلًا عن واقد بن عمرو التميمي الذي عمل أخبار بابك، فقال: وكان أبوه رجلًا من أهل المدائن دهّانًا، نزع إلى ثغر أذربيجان فسكن قرية تدعى «بلال أباد» من رستاق «ميمند»، وكان يحمل دهنه في وعاء على ظهره ويطوف في قرى الرستاق، فهوى امرأة عوراء، وهي أم بابك، وكان يفجُر بها برهة من دهره، فبينما هي وهو منتبذان عن القرية متوحدان في غيضة ومعهم شراب يعتكفان عليه، إذ خرج من القرية نسوة يستقين الماء من عين في الغيضة، فسمعن صوتًا نبطيًّا يُترنَّم به فقصدن إليه، فهجمنَ عليهما فهرب عبد الله وأخذنَ بشعر أم بابك، وجئن بها إلى القرية وفضحنها فيها، قال واقد: ثم إن ذلك الدهان رغب إلى أبيها فزوجه منها فأولدها «بابكًا»، ثم خرج في بعض سفراته إلى جبل سيلان واعتراضه من استقفاه وجرحه فقتله، فمات بعد مُدَيدة، وأقبلت أم بابك ترضع للناس بأجرة إلى أن صار لبابك عشر سنين، فيقال: إنها خرجت في يوم من الأيام تلتمس بابكًا وكان يرعى بقرًا لقوم، فوجدته تحت شجرة قائلًا وهو عريان، وإنها رأت تحت كل شعرة من صدره ورأسه دمًا، فانتبه من نومه فاستوى قائمًا وحال ما رأت من الدم فلم تجده، قالت: فعلمت أنه سيكون لابني نبأ جليل.

قال واقد: وكان أيضًا بابك مع الشبل بن المنقى الأزدي برستاق سراة يعمل في سياسة دوابه، وتعلَّم ضرب الطُّنبور من غلمانه ثم صار إلى تبريز

من عمل أذربيجان، فاشتغل مع محمد بن الرواد الأزدي نحو سنتين ثم رجع إلى أمه وله ثمان عشرة سنة، فأقام عندها، قال واقد بن عمرو: وكان بجبل البذ وما يليه من جباله رجلان من العلوج متحرمين ولهما جِدةٌ وثروة، وكان متشاجرين في التملك على من بجبال البذ من الخرمية ليتوحد أحدهما بالرياسة، يقال لأحدهما: «جاويدان بن سهرك»، والآخر غلبت عليه الكنية يعرف بـ «أبي عمران»، وكانت تقوم بينهما الحرب في الصيف وتحول بينهما الثلوج في الشتاء لانسداد العقاب، فإن جاويدان، وهو أستاذ بابك، خرج من مدينته بألف شاة يريد بها مدينة رنجان من مدائن ثغور قزوين، فدخلها وباع غنمه وانصرف إلى جبل البذ، فأدركه الثلج والليل برستاق ميمند، فعاج إلى قرية «بلال أباد» فسأل جريرها إنزاله، فمضى به بالاستخفاف منه بجاويدان فأنزله على أم بابك وما تستبيت من ضَنْك وعُدم، فقامت إلى نار فأججتها ولم تقدر على غيرها، وقام بابك إلى غلمانه ودوابه فخدمهم وأسقى لهم الماء، وبعث به جاويدان فابتاع له طعامًا وشرابًا وعلفًا وأتاه به، وخاطبه وناطقه فوجده على رداءة حاله وتعقد لسانه بالأعجمية فَهِمًا، ورآه خبيثًا شهمًا، فقال لأمه: أيتها المرأة، أنا رجل من جبل البذ ولي به حال ويسار، وأنا محتاج إلى ابنك هذا؛ فادفعيه إليَّ لأمضي به معي فأوكله بضياعي وأموالي وأبعث بأجرته إليك في كل شهر خمسين درهمًا، فقالت له: إنك لشبيه بالخير، وإن آثار السعة عليك ظاهرة، وقد سكن قلبي إليك، فأَنهِضه معك إذا نهضت. ثم إن أبا عمران نهض من جبله إلى جاويدان فحاربه فهُزم، فقتل جاويدانُ أبا عمران ورجع إلى جبله وبه طعنة أخافته، فأقام في منزله ثلاثة أيام ثم مات - وكانت امرأة

جاويدان تتعشق بابكًا، وكان يفجر بها - فلما مات جاويدان قالت له: إنك جلد شهم! وقد مات ولم أرفع بذلك صوتي إلى أحد من أصحابه، فتهيأ لغدٍ، فإني جامعتهم إليك، ومُعلِمتهم أن جاويدان قال: إني أريد أن أموت في هذه الليلة، وإن روحي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحه، وإنه سيبلغ بنفسه وبكم أمرًا لم يبلغه أحد ولا يبلغه بعده أحد، وإنه يملك الأرض ويقتل الجبابرة ويرد المزدكية، ويعزُّ به ذليلُكم ويرتفع به وضيعكم، فطمع بابك فيما قالت له واستبشر به وتهيأ له.

فلما أصبحت تجمَّع إليها جيش جاويدان فقالوا: كيف لم يدعُ بنا ويوصِ إلينا؟! قالت: ما منعه من ذلك إلا أنكم كنتم متفرقين في منازلكم من القرى، وأنه إن بعث وجمعكم انتشر خبره، فلم يأمن عليكم شرة العرب، فعهد إليَّ بما أنا أؤديه إليكم إن قبلتموه وعملتم به، فقالوا لها: قولي ما عهد إليك؛ فإنه لم تكن منا مخالفة لأمره أيام حياته، وليس منا مخالفة له بعد موته، قالت: قال لي: إني أموت في ليلتي هذه، وإن روحي تخرج من جسدي وتدخل بدن هذا الغلام خادمي، وقد رأيت أن أملِّكه على أصحابي، فإذا متُّ فأعلميهم ذلك، وإنه لا دين لمن خالفني فيه واختار لنفسه خلاف اختياري، قالوا: قد قبلنا عهده إليك في هذا الغلام! فدعت ببقرة فأمرت بقتلها وسلخها وبسط جلدها، وصيَّرت على الجلد طستًا مملوءًا خمرًا وكسرت فيه خبزًا، فصيرته حوالي الطست، ثم دعت برجل رجل فقالت: طَأ الجلدَ برجلك، وخذ كسرة واغمسها في الخمر وكُلْها وقُل: آمنت بك يا روح بابك كما آمنت بروح جاويدان، ثم خذ بيد بابك فكفِّر عليها وقبِّلها، ففعلوا ذلك إلى وقت ما تهيأ لها فيه طعام، ثم أحضرتهم الطعام والشراب

وأقعدته على فراشها، وقعدت معه ظاهرة لهم، فلما شربوا ثلاثًا ثلاثًا أخذت طاقة ريحان فدفعتها إلى بابك، فتناولها من يدها، وذلك تزويجهم، فنهضوا وكفَّروا لها رضًا بالتزويج، والمسلمون غريبهم ومواليهم.

***

وبعد، فإنَّا نستطيع أن نقول مستندين إلى ما ذكره ابن النديم وغيره عن نشأة بابك ومذهبه وتعاليمه: إن الباعث الذي دفعه إلى الخروج غير البواعث التي دفعت نصر بن شبث في الشام، وإبراهيم بن المهدي في بغداد، ومحمد بن إبراهيم المعروف بابن طباطبا في الكوفة، وغيرهم ممن كانوا منقادين بفكرة سياسية أو عامل جنسي، وإنما كان خارجًا على النظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر، وكذلك كانت وجهة نظر بغداد في قتاله ومطاردته.

أجل! لم تكن الغاية في نظر بغداد من قتاله إخضاعه لسلطان الخلافة، حتى إذا أتيح لها إخضاعه رضيت عنه وكفت القتال دونه، وإنما كانت الغاية التي ترمي إليها القضاء على مذهبه وتعاليمه الضارة بنظم الحياة والاجتماع.

وربما جاز لنا أن نقول: إن موقفه من الخلافة الإسلامية في ذلك العصر أشبه شيء بموقف البلاشفة من الأمم المتحضرة في عصرنا الحاضر.

وهاك ما فعله الخليفة المأمون مع بابك والبابكيين بعد ما عاثوا في الأرض فسادًا وأخافوا السبل وأثاروا الاضطراب، بعث المأمون لمحاربتهم بعد أن انتقل إلى بغداد يحيى بن معاذ، فكانت بينهما وقعة لم يتح الفوز فيها لأحدهما على الآخر، ثم اختار المأمون قائدًا آخر هو عيسى بن محمد، فولاه

أرمينية وأذربيجان ومحاربة بابك، فنُكب وفشل، ثم وجه إليه صدقة بن علي المعروف بزريق، وندب للقيام بأمره أحمد بن الجنيد الإسكافي، فأسره بابك، ثم بعث إليه محمد بن حميد الطوسي فقتله بابك سنة ٢١٤هـ بهشتادسر وفضَّ عسكره وقتل جمعًا كثيرًا ممن كان معه.

وهكذا كان أمر بابك؛ كلما وُجِّهت إليه حملة هزمها؛ لمكانه الحصين وقوته الكبيرة وشدة تأثيره في قلوب أتباعه وأنصاره، وأخيرًا انصرف عنه المأمون لانشغاله بمناوأة الروم، حتى إذا شعر بدنو منيته كتب في وصيته إلى المعتصم بشأن بابك يقول:

والخُرَّمية فأغْزِهم ذا حزامة وصرامة وجلد، واكنُفه بالأموال والسلاح والجنود، من الفرسان والرَّجَّالة، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك مقدم النية فيه راجيًا ثواب الله عليه.

وقد عظم خطر بابك وكثر الداخلون في مذهبه في أول عهد المعتصم سنة ٢١٨هـ، وما زال به المعتصم يُجرِّد إليه الحملات تلو الحملات حتى انتهى أمره في سنة ٢٢١هـ بأسْره، وقتْله بـ «سُرَّ مَن رأى»، هو ورهط من أتباعه، على يد قائد المعتصم التركي العظيم حيدر بن كاوس الأشروستي المعروف بالأفشين.

مذاهب ونحل

ويحسن بنا أن نشير هنا إلى أن هذا العصر من العصور الإسلامية قد كثر فيه الاختلاط بين أمم الشرق والغرب، فظهرت في العالم الإسلامي مقالات دينية وفلسفية كثيرة غريبة، أشار إليها مؤرخو الآراء والمذاهب،

تجد طرفًا منها في فهرست ابن النديم، وطرفًا في كتب «الملل والنحل»، وطرفًا في كتاب الأستاذ «برون» الذي وضعه عن «تاريخ الفرس الأدبي»، ففيه شيء عن المانيَّة[١٢] وغيرها، وقد وقف أبو العلاء المعري عند هذه الآراء والمذاهب في «رسالة الغفران» وقفة ممتعة.

على أنا لا نحب أن نعرض لهذه المقالات بشرح أو تفصيل؛ لأنا نحس إحساسًا صادقًا، وربما كنا فيه على حق، أن الكثير من هذه الآراء والمذاهب لا يزال غامضًا لقلة النصوص وعدم غناء المصادر وكفايتها، ونظن أن الاحتياط في مثل هذا الموقف أسلم وأبقى، وكل ما نأمله هنا ونرجوه حقًّا أن يتجرد لمثل هذا البحث الممتع النافع بعض الذين يُعنون بتاريخ الآراء والمذاهب الفلسفية والدينية في الإسلام.

افتراضات

أما وقد انتهينا من كلمتنا الموجزة عن السياسة الداخلية في عصر المأمون، فقد حق علينا أن نتساءل: لماذا مكث المأمون شطرًا طويلًا من سِنيِّ حكمه في خراسان دون بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية؟

أما أن نزعم لك أنا سنجيبك إجابة دقيقة مقنعة، فهذا ما لا نقبله لك ولا لأنفسنا؛ لأن المصادر التي بين أيدينا لم تكشف لنا القناع عن وجه الصواب في ذلك.

إذن فسنقدم لك آراء لنا في هذا الصدد يجدر بنا أن نعتبرها بمثابة افتراضات لا أكثر ولا أقل.

نفترض أن الفضل بن سهل وجماعة الفضل بن سهل، وحولهم حولهم وسلطانهم سلطانهم، آثروا بقاء المأمون في «مرو» عاصمة خراسان حيث

تُجبى أموال الدولة إليه؛ ليكون نصيب البقاع الفارسية والشيعة الفارسية من هذه الأموال أوفر.

ونفترض أن المأمون وجماعته كانوا يحسون إحساسًا، ربما كان صادقًا، أن كبار رجالات الدولة من العرب القاطنين بغداد لم يكن هواهم مع دولته الفارسية الطابع والميول، وأنهم كانوا لذلك يخشون النزوح إلى بغداد قبل لمِّ شعثهم وتقوية سلطانهم.

ونفترض أنهم آثروا القُرب من الولايات التي تمدُّهم بجندها ورجالها، كما آثروا أن يكونوا في أوساطهم الفارسية التي من مصلحتها نصرة المأمون وتوطيد دعائم ملكه، والعمل على خذلان مناوئيه.

هذه افتراضات رأينا أن نقيدها لك لتتأمل فيها، فربما كان بعضها سائغًا معقولًا، على أن تكون حذرًا كل الحذر فلا تتورط في اعتبار كل فرض سائغ معقول لازم الوقوع في التاريخ، فكثيرًا ما يقع في التاريخ غير المعقول من الحوادث.

(٣) السياسة الخارجية

نعتقد أن الوقت لم يَأْن بعدُ لدرس السياسة الخارجية في أيام المأمون وغيره من خلفاء المسلمين دراسة علمية محققة؛ ذلك لأن كل ما نعرف من أمر هذه السياسة إنما هو الروايات العربية التي تناقلها المؤرخون متأثرين بأشياء كثيرة.

فقد كان الكثيرون من هؤلاء الرواة يجهلون لغات الأمم الأجنبية التي كانت العلاقات متصلة بينها وبين المسلمين، كما كانوا متأثرين بالحرص على رفع شأن الدولة الإسلامية والتنويه بمجدها وسلطانها؛ فاضطرها هذا كله إلى الغلو حينًا، وإلى التقصير حينًا آخر.

ولم يظفر البحث بعدُ بنصوص تاريخية واضحة معاصرة كتبت في غير اللغة العربية، ومع أن الباحثين في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية «الروم» جادون في التنقيب على النصوص والآثار التي تجلو تاريخ هذه الدولة في القرون الوسطى، فهم لم يصلوا بعدُ إلى شيء ذي غناء فيما يَمسُّ علاقتها بالدول الإسلامية، فأما الأمم الشرقية الأُخَر التي كانت على اتصال بالمسلمين فلم تترك لنا شيئًا، أو لم نظفر من آثارها التاريخية بشيء ذي قيمة، وإذن فنحن مضطرون إلى أن نعتمد اعتمادًا مؤقتًا ملؤه الاحتياط والتحفظ على ما كتبه العرب.

ونحن نعلم أن السياسة الخارجية في عصر المأمون كانت تنقسم إلى قسمين متمايزين: الأول سياسته مع دول إسلامية مستقلة عن الخلافة. والثاني سياسته مع دول أجنبية غير إسلامية.

وليس هناك شكٌّ في أن سياسة المأمون مع الدول الإسلامية المستقلة كانت واضحة بينة الأسلوب؛ فقد اعتقدت الخلافة العباسية دائمًا أن المسلمين جميعًا يجب أن يذعنوا لسلطانها، وإذن فلم تعترف في وقت من الأوقات باستقلال الأمويين في الأندلس، ولا الأدارسة في المغرب الأقصى، وإنما اعتبرتهم بغاةً وعجزت مع ذلك عن إخضاعهم لسلطانها فعلًا أو اسمًا، فاضطرت إلى أن تتقيهم من ناحية، وتؤلب عليهم من ناحية أخرى.

على ذلك نستطيع أن نفهم تشجيعها دولة بني الأغلب في إفريقية وعطفها عليها؛ فقد كانت هذه الدولة تستمتع بشيء من الاستقلال غير قليل، وتظفر بحماية الخلافة؛ لأنها كانت بمثابة الحرس الأمامي الذي يرد عن الخلافة غارات هؤلاء البُغاة، ويحول بينهم وبين التوسع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.

نستطيع أن نفهم هذا، وأن نفهم أيضًا ما نلمحه لمحًا في القصص من اتصال علاقات ودية بين بغداد وملوك الفرنج الذين كانوا يُناوئون بني أمية في الأندلس.

أما القسم الثاني من السياسة الخارجية فينقسم أيضًا إلى قسمين: أحدهما سياسة الخلافة مع أهل الشرق الذين لم يخضعوا لسلطان المسلمين كالترك والديلم، وهذه السياسة واضحة أيضًا - على قلة النصوص - فقد كانت سياسة توسع وبسط للسلطان، ولكن في احتياط وتحفظ ومصانعة، وكانت بغداد تعتبر كل هذه الناحية من الشرق منطقة نفوذ تسلك في استغلالها واتقائها عند الحاجة طريقًا كلها حكمة وفطنة، فبينما نراها تهاجم فتفتح وتأسر نراها مرة أخرى مُوادِعة مُحالفة مُستخدمة، وهي تستفيد في الحالين، ولكنك تعلم حق العلم ما أنتجته هذه السياسة آخر الأمر حين ضعف الخلفاء، من تسلُّط أهل هذه المنطقة على أمور الدولة وعبثهم بعظمة الخلافة.

والقسم الثاني هو سياسة الخلافة مع قياصرة «قسطنطينية»، وهذا القسم هو الذي نستطيع أن نقول في غير تردد: إنه احتاج حقًّا إلى جهود الخلفاء وكفاياتهم؛ فقد كانت العلاقة بين «قسطنطينية» و«دمشق» أيام الأمويين، وبينها وبين «بغداد» أيام العباسيين شديدة الاضطراب والتعقد لا تكاد تستقر على حال، وإنما هي حرب حينًا، وسلم حينًا آخر.

ومهما يكن من شيء فقد كانت القاعدة الأساسية لهذه السياسة أن الحرب هي الحال الطبيعية بين الدولتين، فأما السلم فحال عارضة؛ ولذلك كانت تسمى دائمًا هدنة، وربما كان من المعقول أن نقول: إن أصحاب «قسطنطينية» و«بغداد» كانوا يضطرون إليها اضطرارًا.

غزو المأمون للروم

قدمنا لك في الكلام عن بابك الخرمي أن المأمون أرسل إليه آخر حملة بقيادة محمد بن حميد الطوسي سنة ٢١٢هـ، وأن هذه الحملة باءت بالهزيمة والفشل كما باء غيرها مما سبقها من حملات، وأن المأمون انصرف عن بابك مؤقتًا لاشتغاله بغزو الروم الذين يعلل بعضُهم سبب تحفُّز المأمون إلى غزوهم، بعد أن ظل السلم المسلح بينه وبينهم زهاء ست عشرة سنة، بما تأكده المأمون من مشايعتهم لبابك وإمدادهم إياه بالمعونة.

ويقول الأستاذ «ميور» في بيان سبب هذه المهادنة الطويلة بين الخلافة والروم، وعدم انتهاز المسلمين فرصة الثورة التي نشبت في بلاد الروم بين «توماس» و«ميخائيل» لغزو آسيا الصغرى: «إنه لا شك أن تريث العرب عن اقتحام بلاد الروم في ذلك الوقت يرجع إلى أن بطريق أنطاكية ببلاد سوريا كان قد توج توماس إمبراطورًا، ولو نجح في تأميره وسلطانه لكفى العرب مئونة القتال، ولكان توماس هذا تابعًا للخليفة المأمون».

على أن المأمون قد شخص سنة ٢١٥هـ إلى بلاد الروم ليغزوها سالكًا إليها طريق الموصل، ثم منبج ثم دابق ثم أنطاكية ثم المصيصة، ومنها خرج إلى طرسوس، وهي الثغر الإسلامي، ومن طرسوس دخل بلاد الروم في منتصف جمادى الأولى (يوليو سنة ٨٣٠م) ففتح وغنم كثيرًا من الحصون ثم شخص إلى الشام، وورد عليه في دمشق الخبر بأن ملك الروم قتل قومًا من أهل طرسوس والمصيصة، فأعاد الكرة إلى بلاد الروم، وكان الظفر والتوفيق حليفه في هذه الكرة أيضًا.

وفي المدة التي قضاها المأمون بين مصر ودمشق بدأت المناوشات بين عماله وملك الروم، ثم اشتدت حتى اضطُرَّ إلى أن يشخص إلى بلاد الروم للمرَّة الثالثة، وهي المرة التي توفِّي فيها.

وفيما هو سائر إليها معتزمًا تحقيق خطة رسمها لنفسه؛ إذ يقول: أُوجِّه إلى العرب فآتي بهم من البوادي ثم أُنزلهم كل مدينة افتتحها حتى أضرب إلى القسطنطينية، إذ جاءه رسول ملك الروم يحمل إليه كتاب مولاه يطلب فيه الصلح والمهادنة، وهذه نسخته فيما يقول الرواة العرب: «أما بعد، فإن اجتماع المختلفين على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما، ولستَ حريًّا أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظًّا تحوزه إلى نفسك، وفي علمك كافٍ عن إخبارك، وقد كنت كتبت إليك داعيًا إلى المسالمة، راغبًا في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنا، ونكون كل واحد لكل واحد وليًّا وحزبًا، مع اتصال المرافق والفسْح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق والبيضة، فإن أبيت فلا أدِبُّ لك في الخمر،[١٣] ولا أزخرف لك في القول، فإني لخائض إليك غمارها، آخذ عليك أسدادها، شانٌّ خيلها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدَّمت المعذرة، وأقمت بيني وبينك علَم الحجة. والسلام».

أما رد المأمون عليه، فيقول المؤرخون العرب إن نسخته كانت: «أما بعد، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشدة مما استعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق وفك الأسارى ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعتُ إليه من إعمال

التؤدة، والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأي في مستقبلة إلا في استصلاح ما أوثر في مُعتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلًا تحمل رجالًا من أهل البأس والنجدة والبصيرة، ينازعونكم عن ثُكلكم، ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلُّون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أُوصل إليهم من الأمداد، وأُبلغ لهم كافيًا من العدة والعتاد؛ هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرَّتهم عليكم، موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة، أو كريم منقلب، غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة؛ من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية، فإن أبيت ففدية توجب ذمة، وتثبت نَظِرة، وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة. والسلام على من اتبع الهدى».

(٤) كلمة ختامية عن وفاة المأمون ورجالاته ومعاصريه ووصيته

لقد عاجلت المنية المأمون دون تحقيق خطته بموضع يقال له «البدندون» بين «لؤلؤة» و«طرسوس»، وكانت وفاته لثلاث عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ٢١٨هـ وسِنُّه ثمان وأربعون سنة وأربعة أشهر.

أما عن كبار رجالات المأمون وولاته فيقول اليعقوبي: وكان الغالب عليه في خلافته ذو الرياستين ثم جماعة منهم: الحسن بن سهل، وأحمد بن أبي خالد، وأحمد بن يوسف، وكان على شرطته العباس بن المسيب بن زهير، ثم عزله وولَّى طاهر بن الحسين ثم عبد الله بن طاهر الذي استخلف إسحاق بن إبراهيم ببغداد، فوجَّه إسحاق بأخيه خليفة له على شرطته.

وكان على حرسه شبيب بن حميد بن قحطبة، ثم عزله وولاه قومس، واستعمل مكانه هرثمة بن أعين ثم عبد الواحد بن سلامة الطحلاوي قرابة هرثمة، ثم علي بن هشام ثم قتله وولَّى عجيف بن عنبسة، وكانت حجابته إلى أحمد بن هشام وعلي بن صالح صاحب المُصلَّى، قال: وخلَّف من الولد الذكور ستة عشر ذكرًا؛ وهم: محمد، وإسماعيل، وعلي، والحسن، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، وأحمد، والعباس، والفضل، والحسين، ويعقوب، وجعفر، ومحمد الأكبر - وهو ابن معللة وتوفي في حياته - ومحمد الأصغر وعبيد الله أمهما أم عيسى بنت موسى الهادي.

أما صاحب «نهاية الأرب» فقد ذكر في الجزء العشرين من كتابه أن حجابه هم: عبد الحميد بن شبث، ثم محمد وعلي ابنا صالح مولى المنصور، ثم إسماعيل بن محمد بن صالح.

وذكر أن قضاته هم: محمد بن عمر الواقدي، ثم محمد بن عبد الرحمن المخزومي، ثم بشر بن الوليد. وكان نقش خاتمه فيما ذكره المسعودي في التنبيه والإشراف: «الله معه عبد الله به نؤمن».

***

وقد يكون من المفيد لنا من وجهة نظر التاريخ المصري أن نقف على ولاة مصر وقضاتها في عهد المأمون؛ وذلك ييسره لنا كتابان ممتعان وافيان في هذا الموضوع، وهما: كتاب «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي الأتابكي، وكتاب «الولاة والقضاة» الذين ولوا أمر مصر وقضاءها للكندي. ونحن ذاكرون لك هؤلاء الولاة والقضاة على وجه الاختصار:

أما الولاة فهم: مالك بن دلهم، وحاتم بن هرثمة، وجابر بن الأشعث، وعبَّاد بن محمد، والمطلب بن عبد الله، والعباس بن موسى، والسري بن الحكم، وسليمان بن غالب، ومحمد بن السري، وعبيد الله بن السري، وعبد الله بن طاهر، وعيسى بن يزيد، وعمير بن الوليد، وعبدويه بن جبلة.

ولقد حدثنا المؤرخون في أيامه عمَّا سُمِّي في مصر بالبدع المأمونية الأربع: فالبدعة الأولى منها هي لبس الخُضْرة وتقريب العلوية وإبعاد بني العباس. والثانية: القول بخلق القرآن، والثالثة: ما كتبه المأمون إلى نائبه ببغداد أن يأخذ الجند بالتكبير إذا صلوا الجمعة وبعد الصلوات الخمس.

ثم أباح المأمون في هذه السنة - وهي سنة ٢١٥هـ - «المُتْعة»، فقال الناس: هذه بدعة رابعة. وبعد ولاية ابن جبلة هذا ولاية عيسى بن منصور ونصر بن عبد الله، وشهرته كيدر، والمظفر بن كيدر.

أما قضاة مصر في عهده فهم: عبد الرحمن العمري، وهاشم بن أبي بكر البكري، وإبراهيم بن البكاء، ولهيعة بن عيسى الحضرمي، والفضل بن غانم، وإبراهيم بن إسحاق العاري، وعطاف بن غزوان، وجعله عبد الله بن طاهر على المظالم، وبعدئذٍ ولي القضاء من قبله عيسى بن المنكدر، وأخيرًا هارون بن عبد الله.

أما معاصروه فقد كان يعاصره في الأندلس الحكم بن هشام ثالث أمراء بني أمية، ثم ابنه عبد الرحمن، وفي عهدهما سمعنا رأي الأندلس في القول بخلق القرآن؛ فقد قال أبو خلف المعافِري:

لا والذي رفع السما ء بلا عماد للنظرْ
ما قال خلقٌ في القُرا ن بخلقه إلا كفر

لــكـــن كـــــلام مــنــزل   مــن عــــنــد خلّاق الـبـشـر

وكان يعاصر المأمون في بلاد المغرب الأقصى إدريس بن إدريس ابن عبد الله ثم ابنه محمد بن إدريس، ويعاصره في إفريقيا من بني الأغلب عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب ثم ابنه زيادة الله بن إبراهيم فاتح صقلية، ويعاصره في فرنسا «شارلمان» صديق أبيه، ثم «لويز الأول» المُلقَّب باللين، ويعاصره في القسطنطينية «ليون الأرمني» و«ميخائيل» المُلقَّب بالتمتام، ثم ابنه «توفيل».

أما صفته فهي كما ذكرها صاحب «نهاية الأرب»: «كان المأمون ربعة أبيض طويل اللحية رقيقها قد وخطه الشيب، وقيل: كان أسمر تعلوه صفرة، أجنى أعين ضيق الجبهة، بخده خال أسود» وكذلك وصفه الطبري وغيره.

ولما حضرته الوفاة أوصى لأخيه المعتصم من بعده، وعلل بعضهم أن الوصية كانت للمعتصم دون ابنه العباس بأن الثاني كان متغيبًا عنه ساعة وفاته.

ولقد أثبتنا لك في باب المنثور من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث وصيته التي أوصى بها حين مماته؛ لقيمتها التاريخية، ولأنها توضح بعض آرائه وتفصح عن السر في بعض تصرفاته، فراجعها ثمة.

هوامش

(١) يريد أنهم قليل عددهم يشبعهم رأس واحد.

(٢) الخنزوانة: الكبر.

(٣) استنقاذك من الهلكة.

(٤) أي اختلط بك وانضم إليك.

(٥) الطغام: أوغاد الناس.

(٦) جمع خارب وهو: اللص، وخصَّه الأصمعيُّ بسارق الإبل.

(٧) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «إن النور قبيلة من القبائل الآسيوية كالقاجار الذين نسميهم الغجر والتاتار أو التتر، وهم يعرفون بالشلخت في النمسا والمانيا، وفي بلاد الإنكليز أسمهم جبسون، ويسميهم الترك باسم «قبط»، وفريق منهم يسمى سنجانه وهم سكان تراقيا، وفي مصر يسمون تارة غجرًا وتارة حلبًا».

(٨) ضبطها ياقوت بفتح الزاي وسكون الراء وباء موحدة وألف مقصورة، وقال: إنها بلد بالثغر من نواحي المصيصة بناها الرشيد سنة ١٨٠هـ، وندب إليها ندبة من أهل خراسان وغيرهم وأقطعهم إياها.

(٩) عند عن الشيء: مال عنه وعدل.

(١٠) آسفه: أغضبه.

(١١) جاء في القاموس وشرحه: «خُرَّمة» كسُكَّرة: قرية بفارس منها بابك الخرمي الطاغية الذي كاد أن يستولي على الممالك زمن المعتصم، ثم قال: وتخَرَّم الرجل دان بدين الخُرَّمِية أصحاب التناسُخ والحُلُول والإباحة.

(١٢) المانية، وأتباعها يقال لهم المانوية، هي النحلة التي أتى بها ماني من وجود إلهين: إله الخير وإله الشر، وكان وجوده قبل الإسلام بمدة طويلة، وقد اعتبر زنديقًا وقُتل وسُلخ وحُشس جلده وعُلِّق على أحد أبواب نيسابور، ويُعرف بباب ماني، ولكن نحلته لم تكن تعدم أنصارًا بعد موته، فكانت تظهر ويتبعها أناس في فترات مختلفة:

وكم لظلام الليل عندك من يد ... تحقق أن المانوية تكذب

وقاك ردى الأعداء تسري إليهم ... وزارك فيه ذو الدلال المحجب

(١٣) الخمر «بالتحريك»: ما وارى الشخص من شجر وغيره، يقال: دبَّ له في الخمر إذا تخفَّى له ليختله.

الفصل الخامس
الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون
تاريخ الوزارات المأمونية

(١) توطئة

لسنا نريد أن نتكلم عن تاريخ الوزارة ومكانتها في العصر العباسي، فقد تعرض لدرسها كثيرون نذكر منهم، على سبيل التمثيل، الأستاذ «برون» في كتابه تاريخ الفرس الأدبي، والمؤرخ ابن طباطبا في الآداب السلطانية، وإنما قُصارى ما نرمي إليه كتابة فذلكة موجزة عن حياة البارزين من وزراء المأمون، حتى تقف بذلك على صورة كاملة قدر المستطاع عن العصر الذي تصدرنا للكتابة عنه ومكانة رجالاته البارزين فيه فنقول:

وزارتا الفضل بن سهل وأخيه الحسن

يحدثنا التاريخ أن أولَ وزراء المأمونِ الفضلُ بن سهل، وهو من رجال جعفر البرمكي، فلا غرو إذا نزع في سياسة الملك منزع البرامكة، ولا غرو إذا ائتمَّ بهم وتلا تِلْوهم في تدبير أمور السلطان، ولا غرو إذا كانت دولة بني سهل غرَّة في جبين الدهر ودُرَّة على مفرق العصر؛ لأنها كانت كما يقول الفخري: مختصر الدولة البرمكية.

أما طريقة اتصاله بالمأمون، فإن المظان التاريخية والأدبية تحدثنا أن جعفرًا البرمكي لما عزم على استخدامه للمأمون وصَفه يحيى بن خالد بحضرة الرشيد، فقال له الرشيد: أوْصِلْه إلي، فلما وصل إليه أدركته حيرة فسكتْ،

فنظر الرشيد إلى يحيى نظَرَ مُنكرٍ لاختياره، فقال ابن سهل: يا أمير المؤمنين، إن من أعدل الشواهد على فَرَاهة المملوك أن يملك قلبَه هيبةُ سيده، فقال الرشيد: لئن كنت سكتَّ لتصوغ هذا الكلام فلقد أحسنت، وإن كان بديهةً إنه لأحسن وأحسن، ثم لم يسأله بعد ذلك عن شيء إلا أجابه بما يصدِّق وصف يحيى له.

ويروي لنا أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو - كما تعلم - شيخ من مشيخة الأدب والبيان في عصرنا المأموني، في كتابه «الحيوان»: أن جعفرًا الضبي وصف الفضل بن سهل بقوله: أيها الأمير، أسكتني عن وصفك تساوي أفعالك في السؤدد، وحيرني فيها كثرة عددها، فليس إلى ذكر جميعها سبيل، وإن أردت وصف واحدة اعترضت أختها إذ لم تكن الأولى أحق بالذكر، ولست أصفها إلا بإظهار العجز عن وصفها.

ويقول ابن طباطبا: إن الفضل كان سخيًّا كريمًا يجاري البرامكة في جوده، شديد العقوبة، سهل الانعطاف، حليمًا بليغًا عالمًا بآداب الملوك، بصيرًا جيد الحدس مُحصلًا للأموال، وكان يقال له: الوزير الأمير.

وكان الفضل بن سهل يتشيع كمذهب غالب الفرس، وكانت له إصابة حسنة بعلم النجوم، كما أسلفنا لك القول في كلمتنا عن المأمون في صباه، ومما يؤيد ذلك ما رواه أبو الحسين علي بن أحمد السلامي في تاريخ ولاة خراسان، أن المأمون لما عزم على إرسال طاهر بن الحسين إلى محاربة أخيه محمد الأمين، نظر الفضل بن سهل في مسألته، فوجد الدليل في وسط السماء، وكان ذا يمينين، فأخبر المأمون بأن طاهرًا يظفر بالأمين ويلقب بذي اليمينين، فتعجب المأمون من إصابة الفضل ولقب طاهرًا بذلك.

وكان الفضل بن سهل شبيهًا بأساتذته البرامكة في رفد الشعراء وتشجيع الشعر، وكان مُنتجَع القُصَّاد منهم قبل وزارته، فإن كتب الأدب تحدثنا أن مسلم بن الوليد قال فيه حين ذاك وكان من ندمائه وسمَّاره:

وقائل ليست له همة كلا ولكن ليس لي مال
وهمة المقتر أُمنية عون على الدهر وأثقال
لا جدة ينهض عزمي بها والناس سُؤَّال وبُخَّال
فاصبر على الدهر إلى دولة يرفع فيها حالَك الحالُ

ويقول لنا الفخري: إن الفضل لما علت حالُه وتولى الوزارة قصده مسلم ابن الوليد، فلما رآه سُرَّ به وقال له: هذه الدولة التي يرفع فيها حالك الحال، وأمر له بثلاثين ألف درهم، وولاه بريد جُرجان، فاستفاد من ثَمَّ مالًا طائلًا.

ويحدثنا ابن خلكان أن الفضل بن سهل قال يومًا لثُمامة بن الأشرس المتكلم المعروف: ما أدري ما أصنع بطلاب الحاجات، فقد كثُروا علي وأضجروني، فقال له: زُلْ عن موضعك وعليَّ ألا يلقاك أحد منهم! فقال: صدقت! وانتصب لقضاء أشغالهم، وكان قد مرض بخراسان وأشفَى على التلَف، فلما أصاب العافية جلس للناس فدخلوا عليه وهنئوه بالسلامة وتصرفوا في الكلام، فلما فرغوا من كلامهم أقبل على الناس وقال: إن في العلل لنعمًا لا ينبغي للعقلاء أن يجهلوها: تمحيص الذنوب، والتعرض لثواب الصبر، والإيقاظ من الغفلة، والإذكار بالنعمة في حال الصحة، واستدعاء التوبة، والحض على الصدقة.

وقد مدحه جماعة من أعيان الشعراء، وفيه يقول إبراهيم بن عباس الصولي:

لـلـفـضـل بـن سـهـل يد   تـقـاصر عـنـهـا المـثـل
فـنـائـلـهـا لـلـغـنـى   وسـطـوتها لـلأجـل
وبـاطـنـهـا لـلـنـدى   وظـاهـرهـا لـلـقـبـل

ويقول ابن خلكان: إن ابن الرومي أخذ من قول الصولي هذا مدحته التي صاغها في الوزير القاسم بن عبيد الله التي فيها:

أصبحت بين خصاصة وتجمل   والحر بينهما يموت هزيلًا
فـامـدُد إلي يـدًا تـعـوَّد بطنُها   بـذل الـنـوال وظهرُها التقبيلا

وفيه يقول آخر:

لعمرك ما الأشراف في كل بلدة   وإن عظموا للفضل إلا صنائع
ترى عظماء الناس للفضل خُشَّعًا   إذا مـا بـدا والـفـضلُ لله خاشع
تـواضـع لمـا زاده الله رفعة   وكل جـلـيـل عـنـده متواضع

وحكى الجهشياري أن الفضل بن سهل أصيب بابن له يقال له: العباس، فجزع عليه أشد الجزع، فدخل عليه إبراهيم بن موسى بن جعفر العلوي وأنشده:

خـيـر مـن العباس أجرُك بعده   والله خـيـرٌ مـنـك للعـبـاس

وقال فيه مسلم بن الوليد من قصيدة له:

لو نطق الناس أو أثـنَـوا بعلمهم   ونبَّأت عن معالي دهرك الكتب
لم يبلغوا منك أدنى ما يمتُّ به   إذا تفاخرت الأملاكُ وانتسبوا

فأمر له عن كل بيت من هذه القصيدة بألف درهم.

وإنه ليلوح لنا من قراءتنا الطويلة لكتب الأدب والتاريخ أن جماعة الشعراء الذين كانوا يمتدحون البرامكة - وما أكثرهم - هم بأنفسهم الذين امتدحوا آل سهل، واتخذوا منهم برامكة آخرين.

كما يلوح لنا أن لمقولاتهم وقصائدهم في امتداحهم وإظهار قوتهم واستفحال سلطانهم بعض الأثر في نكبتهم؛ لأنه غير معقول البتة أن يمر على المأمون قول مثل قول القائل:

أقمت خلافة وأزلت أخرى　　جليل ما أقمت وما أزلتا

من غير أن يترك في نفسه بعض ما كانت تتركه على البرامكة أمثالُ تلك الأقوال في نفس الرشيد، ومهما قيل عن حلم المأمون وعفوه واعتدال مزاجه وسعة صدره؛ فإن النفس الإنسانية هي هي.

وقد مرَّ بك فيما أجملناه لك من الحوادث التي وقعت في حكم المأمون، أنه جعل في سنة ٢٠١هـ علي بن موسى العلوي وليَّ عهد المسلمين والخليفة من بعده، وسماه الرضا من آل محمد ﷺ، وأنه أمر جنده بطرح السواد ولبس الخضرة، وبيَّنَّا ما كان لذلك من ثورات وفتن لم تهدأ إلا بعد أن عاد إلى مقر ملكه، وأعلم آله وأنصاره بوفاة الرضا، وعاد إلى لبس السواد وهو شعار العباسيين.

ونريد الآن أن نشير هنا إلى ما كان من الفضل بن سهل فيما نحن في صدده، ونعتمد على ما رواه الطبري، قال: إن علي بن موسى بن جعفر بن محمد العلوي أخبر المأمون بما فيه الناس من الفتنة والقتال منذ قتل أخوه، وبما كان الفضل بن سهل يستر عنه من الأخبار، وأن أهل بيته والناس قد نقموا عليه أشياء، وأنهم يقولون: إنه مسحور مجنون، وأنهم لما رأوا ذلك

بايعوا لعمه إبراهيم بن المهدي بالخلافة، فقال المأمون: إنهم لم يبايعوا له بالخلافة وإنما صيروه أميرًا يقوم بأمرهم على ما أخبر به الفضل، فأعلمه أن الفضل قد كذبه وغشَّه، وأن الحرب قائمة بين إبراهيم والحسن بن سهل، وأن الناس ينقمون عليك مكانه ومكان أخيه، ومكاني ومكان بيعتك لي من بعدك، فقال: ومَن يعلم هذا من أهل عسكري؟ فقال له: يحيى بن معاذ وعبد العزيز بن عمران وعدة من وجوه أهل العسكر، فقال له: أدخلهم عليَّ حتى أسائلهم عما ذكرت، فأدخلهم عليه، وهم: يحيى بن معاذ، وعبد العزيز بن عمران، وموسى وعلي بن أبي سعيد، وهو ابن أخت الفضل، وخلف المصري، فسألهم عما أخبره فأبوا أن يخبروه حتى يجعل لهم الأمان من الفضل بن سهل ألَّا يَعرِض لهم فضمن ذلك لهم وكتب لكل رجل منهم كتابًا بخطه ودفعه إليهم، فأخبروه بما فيه الناس من الفتن وبينوا ذلك له، وأخبروه بغضب أهل بيته ومواليه وقواده عليه في أشياء كثيرة، وبما موَّه عليه الفضل من أمر هرثمة، وأن هرثمة إنما جاء لينصحه وليُبيِّن له ما يعمل عليه، وأنه إن لم يتدارك أمره خرجت الخلافة منه ومن أهل بيته، وأن الفضل دسَّ إلى هرثمة من قتله، وأنه أراد نصحه، وأن طاهر بن الحسين قد أبلى في طاعته ما أبلى، وافتتح ما افتتح، وقاد إليه الخلافة مزمومة حتى إذا وطَّأ الأمر أُخرج من ذلك كله، وصُيِّر في زاوية من الأرض بالرقة قد حُظرت عليه الأموال حتى ضعُف أمره، فشغب عليه جندُه، وأنه لو كان على خلافتك ببغداد لضبط الملك ولم يُجترأ عليه بمثل ما اجتُرئ به على الحسن بن سهل، وأن الدنيا قد تفتقت من أقطارها، وأن طاهرًا بن الحسين قد تُنوسي في هذه السنين منذ قُتل محمد في الرقة لا يُستعان به في شيء من

هذه الحروب، وقد استعين بمن هو دونه أضعافًا، وسألوا المأمون الخروج إلى بغداد؛ فإن بني هاشم والموالي والقواد والجند لو رأوا غرَّتك سكنوا إلى ذلك، وبخعوا بالطاعة لك.

فلما تحقق ذلك عند المأمون أمر بالرحيل إلى بغداد، فلما أمر بذلك علِم الفضلُ بن سهل ببعض ذلك من أمرهم، فتعنَّتهم حتى ضرب بعضهم بالسياط وحبس بعضًا ونتف لحى بعض، فعاوده علي بن موسى في أمرهم، وأعلمه ما كان من ضمانه لهم، فأعلمه أنه يُداري ما هو فيه، ثم ارتحل من مرو، فلما أتى سَرَخْس شدَّ قوم على الفضل بن سهل وهو في الحمام فضربوه بالسيوف حتى مات، وذلك يوم الجمعة لليلتين خلتا من شعبان سنة ٢٠٢ هـ فأُخِذوا. وكان الذين قتلوا الفضل من حشم المأمون، وهم أربعة نفر: غالب المسعودي الأسود، وقسطنطين الرومي، وفرج الديلمي، وموفق الصقلي، وقتلوه وله ستون سنة وهربوا، فبعَث المأمون في طلبهم، وجعَل لمن جاء بهم عشرة آلاف دينار، فجاء بهم العباس بن الهيثم بن بزرجمهر الدِّينوري، فقالوا للمأمون: أنت أمرتنا بقتله، فأمر بهم فضُربت أعناقهم، وقد قيل: إن الذين قتلوا الفضل لما أُخِذوا سألهم المأمون، فمنهم من قال: إن علي بن أبي سعيد، ابن أخت الفضل، دسَّهم، ومنهم من أنكر ذلك، وأمر بهم فقتلوا، ثم بعث إلى عبد العزيز بن عمران وعلي وموسى وخلف فسألهم فأنكروا أن يكونوا علموا بشيء من ذلك، فلم يقبل ذلك منهم، وأمر بهم فقتلوا، وبعث برءوسهم إلى الحسن بن سهل في واسط، وأعلمه ما دخل عليه من المصيبة بقتل الفضل، وأنه قد صيَّره مكانه، وتزوج المأمون من ابنته بوران، وأظهر الحسنُ في حفلة زواجها من الكرم الخارق، والجود الحاتمي ما دعا

المأمون إلى أن نسبه فيه إلى السرف، ولقد قدم على الحسن بن سهل شاعرٌ يلتمس صلته وعارفته، فاشتغل عنه مُديدة فكتب إليه:

المال والعقل مما يستعان به ... على المقام بأبواب السلاطين
وأنت تعلم أني منهما عَطِل ... إذا تأملتني يا ابن الدهاقين
أما تدلك أثوابي على عَدَمي ... والوجه أني رئيس في المجانين
والله يعلم ما للملك من رجل ... سواك يصلح للدنيا وللدين

فقيل: إن الحسن أمر له بعشرة آلاف درهم ووقع في رقعته:

أعجلتنا فأتاك عاجل برِّنا ... قُلًّا ولو أنظرتنا لم يُقلل
فخذ القليل وكُن كأنك لم تَنل ... ونكون نحن كأننا لم نُسأل

ويظهر لنا مما قرأناه عن الحسن بن سهل في أمالي أبي علي القالي وغيره من مظان الكتب الأدبية، أن له بصرًا بالأدب عظيمًا، ومكانة في الكتابة سامية، وحظًّا بأفانين القول ومناحيه وفيرًا.

فقد روي عنه أنه كتب إلى محمد بن سماعة القاضي: «أما بعد، فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير، ذي عفة ونزاهة طُعْمة،[1] قد هذَّبته الأخلاق وأحكمته التجارب، ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلِّد مُهمًّا من الأمور أجزأ فيه، له سن مع أدب ولسان، تقعده الرزانة ويسكنه الحلم، قد فُرَّ عن ذكاء وفطنة، وعضَّ على قارحة من الكمال، تكفيه اللحظة، وترشده السكتة، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام في أمورهم فحُمد فيها، له أناة الوزراء وصولة الأمراء، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوب الرجال

بحلاوة لسانه وحسن بيانه، دلائل الفضل عليه لائحة وأمارات العلم له شاهدة، مُضطلعًا بها استُنهض مُستقلًّا بها حُمِّل، وقد آثرتك بطلبه وحبوتك بارتياده؛ ثقة بفضل اختيارك ومَعرفةً بحُسن تأتِّيك».

ويقول ابن طباطبا: إن الحسن بن سهل كان أعظم الناس منزلة عند المأمون، وكان المأمون شديد المحبة لمفاوضته، فكان إذا حضر عنده طاوله في الحديث، وكلما أراد الانصراف منَعه، فانقطع زمان الحسن بذلك وثقُلت عليه الملازمة، فصار يتراخى عن الحضور بمجلس المأمون، ويستخلف أحد كُتَّابه كأحمد بن أبي خالد وأحمد بن يوسف وغيرهما، ثم عرضت له سوداء كان أصلُها جزعَه على أخيه، فكانت سبب انقطاعه في داره واحتجابه عن الناس. وقد هجاه حين ذاك بعض الشعراء فقال:

تولت دولة الحسن بن سهل ... ولم أبلُل لهاتي من نداها

فلا تجزعْ على ما فات منها ... وأبكَى اللهُ عينيْ مَن بكاها

وقد قرأنا في كتاب الأغاني ما يستدل منه على أن الحسن بن سهل هو صاحب الوساطة في العفو عن إبراهيم بن المهدي، وذلك يختلف مع ما رواه البعض من أن بوران ابنته هي التي طلبت العفو عنه، وما رواه البعض الآخر من أن طاهر بن الحسين هو صاحب الوساطة.

وتفصيل الرواية: أن الحسن بن سهل دخل على المأمون وهو يشرب فقال له: بحياتي وبحقي عليك يا أبا محمد إلا شربت معي قدحًا، وصبَّ له من نبيذه قدحًا، فأخذه بيده وقال: مَن تحب أن يغنِّيك؟ فأومأ إلى إبراهيم ابن المهدي، فقال له المأمون: غنِّه يا عم، فغناه:

تسمَع للحَلْي وَسْواسًا إذا انصرفتْ

يُعرِّض به لما كان لحِقَه من السوداء أو الاختلاط، فغضب المأمون حتى ظن إبراهيم أنه سيوقع به، ثم قال له: أبيتَ إلا كُفرًا يا أكفر خلق الله لنعمه! والله ما حقن دمك غيره، ولقد أردت قتلك فقال لي: إن عفوت عنه فعلت فعلًا لم يسبقك إليه أحد! فعفوت والله عنك لقوله، فحقه أن تُعرِّض به ولا تدعُ كيدَك ولا دغَلك! أو أنِفْت من إيمائه إليك بالغناء! فوثب إبراهيم قائمًا وقال: يا أمير المؤمنين، لم أذهب حيث ظننتَ ولست بعائد، فأعرَض عنه.

وزارة أحمد بن أبي خالد

يظهر أن المأمون كان قد صدم صدمة عنيفة من وزارة الفضل بن سهل ومن أخيه، لاستبدادهما بجل الأمور من دونه، ويظهر أنه فكر جديًّا في ألا يستوزر بعد الفضل أحدًا، ويقال: إنه لما دعا إليه أحمد بن أبي خالد - وكان أبوه كاتب سر ابن عبيد الله كاتب المهدي ووزيره - قال له: إني كنت عزمت ألا أستوزر أحدًا، ثم عرض عليه الوزارة، فتنصل أحمد منها وقال: يا أمير المؤمنين، أعفني من التسمي بالوزارة، وطالبني بالواجب فيها، واجعل بيني وبين العامة منزلة يرجوني لها صديقي ويخافني لها عدوي، فما بعد الغايات إلا الآفات!

وتدل هذه المناقشة، وإن كانت قصيرة، على أن أحمد بن أبي خالد قد وجد العبرة في تاريخ الفضل بن سهل وأمثاله، فرأى أن يكون مقتصدًا في مكانته وسلطانه، وقد أعجب المأمون بكلامه واستوزره.

وسترى في كلمتنا المجملة التي عقدناها عن تقدير المأمون للشجاعة الأدبية طرفًا من تصرفات أحمد بن أبي خالد وحسن تخلصه في حادثة عمرو

ابن مسعدة، وكيف كان شجاعًا وصادقًا، وكيف كان مخلصًا للمأمون عاملاً على إصلاح ما بينه وبين رجالات دولته.

ويقول صاحب الآداب السلطانية والدول الإسلامية: إن المأمون لما ولي طاهر بن الحسين خراسان استشار فيه أحمد بن أبي خالد، فصوب أحمد الرأي في تولية طاهر، فقال المأمون لأحمد: إني أخاف أن يغدر ويخلع ويفارق الطاعة، فقال أحمد: الدرك في ذلك عليَّ - ويجب أن نشير هنا إلى ما جاء بكتاب عيون الأخبار عن دقة المأمون في مثل هذا الموقف، فإن المعلى بن أيوب أحد المعاصرين يحدثنا عن ذلك بقوله: سمعت المأمون يقول: مَن مدح لنا رجلاً فقد تضمن عيبه - فولّاه المأمون، فلما كان بعد مدة أنكر عليه المأمون أمورًا وكتب إليه كتابًا يتهدده فيه، فكتب طاهر جوابًا أغلظ فيه للمأمون، ثم قطع اسمه من الخطبة ثلاث جمع، فبلغ ذلك المأمون فقال لأحمد بن أبي خالد: أنت الذي أشرت بتولية طاهر وضمنت ما يصدر منه، وقد ترى ما صدر منه من قطع الخطبة ومفارقة الطاعة، فوالله لئن لم تتلطف لهذا الأمر وتصلحه كما أفسدته وإلا ضربت عنقك! فقال أحمد: يا أمير المؤمنين، طب نفسًا؛ فبعد أيام يأتيك البريد بهلاكه، ثم إن أحمد بن أبي خالد أهدى لطاهر هدايا فيها كواميخ مسمومة - وكان طاهر يحب الكامخ[2] - فأكل منها فمات من ساعته.[3]

فإن صحت هذه الرواية دلت على أن المأمون ورجاله لم يكونوا قد صرفوا أنفسهم يومئذ عن التذرع إلى الخلاص من بعض رجال الدولة بالقضاء على حياتهم.

قال الفخري: إن أحمد بن أبي خالد لما تولَّى طاهر خراسان حسب هذا الحساب؛ فوهب له خادمًا وناوله سمًّا وقال له: متى قطَع خطبة المأمون

فاجعل له هذا السم في بعض ما يحب من المآكل، فلما قطع طاهر خطبة المأمون جعل الخادم له السم في كامخ، فأكل منه فمات في ساعته، ووصل الخبر على البريد بموته إلى المأمون بعد أيام، فكان ذلك مما عظم به أمر أحمد ابن أبي خالد. فتأمل طريقة التخلص من الزعماء في ذلك الحين، ولاحظ كيف كانت عندهم خاتمة الحياة لمن يتبرمون هم من كبار القواد والوزراء، ولتعلل بعد ذلك لم أقفرت البلاد من قادتها وكُماتها، ولم أضحت الكلمة النافذة فيما بعد للغِلْمة الأتراك وغيرهم من الغرباء!

وكان أحمد بن أبي خالد إلى جانب كفايته وبصره بالأمور مُصابًا بالشَّرَه، وقد قال أحد المعاصرين لما ناقب المأمون أحمد بن أبي خالد هذا: ما أظن أن الله خلق في الدنيا نفسًا أنبل ولا أكرم من نفس المأمون، فلما سُئل: لماذا؟ قال: لأنه عرف نفس الرجل، يعني أحمد بن أبي خالد، وشرهه فكان إذا وجَّهه إلى رجل برسالة أو في حاجة قال: ائته بالغداة واخلع ثيابك واطمئنَّ عنده، فإن انصرفتَ وقد قمتُ فاكتب إليَّ بجواب ما جئت به في رقعة، وادفعها إلى فَتْح يوصلها إليَّ.

ومما ينسب إليه أنه ولَّى رجلًا كورة عظيمة القدر بخوان فالُوذَج أهداه إليه، وقيل: إن جماعة من أهل كورة الأهواز شكوا عاملًا كان عليهم فعُزل وصار إلى مدينة السلام، فتكلموا فيه فأُنهِي خبرهم إلى المأمون، فأحضرهم وخَصْمهم وأمر أحمد بن أبي خالد بالنظر في أمورهم، فقال رجل من خصوم العامل: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداءك، تقدَّمْ إلى أحمد ألا يقبل من هذا الفاجر هدية حتى يقطع أمرنا، فوالله لئن أكل من طعامه رغيفًا ومِن فالوذجه جامًا ليُدحِضنَّ الله حجَّتَنا على يديه، وليُبطلنَّ حقنا على

يديه، فكان من جرَّاء ما قاله متكلم الجماعة أن المأمون طلب إليهم أن يحضروا إليه يوم الأربعاء لينظر في شكايتهم بنفسه، وكان من جراء مثل هذه الشكاوى وما قيل في ابن أبي خالد من أنه «يقتل المظلوم ويعين الظالم بأكلة»، أن أجرى المأمون عليه في كل يوم ألف درهم لمائدته لئلا يَشْرَه إلى طعام أحد من بطانته أو من طعام الناس.

ومن طريف حوادثه مع المأمون، وهي تؤيد لنا صحة ما يُرمَى به من هذه الناحية وتدل على اقتناع المأمون بإصابته بها، ما يرويه لنا ابن طيفور في تاريخه قال: «حدثني بعض أصحابنا قال: قال المأمون يومًا لأحمد بن أبي خالد: اغدُ علي باكرًا لأخذ القصص التي عندك؛ فإنها قد كثرت لنقطعَ أمور أصحابها، فقد طال انتظارهم إياها. فبكَّر، وقعد له المأمون، فجعل يعرضها عليه ويوقع عليها إلى أن مر بقصة رجل من اليزيديين يقال له: فلان اليزيدي، فصحَّف وكان جائعًا فقال: الثريدي، فضحك المأمون وقال: يا غلام! ثريدة ضخمة لأبي العباس؛ فإنه أصبح جائعًا، فخجل أحمد وقال: ما أنا بجائع يا أمير المؤمنين، ولكن صاحب هذه القصة أحمق، وضع نسبته ثلاث نقط، قال: دعْ هذا عنك فالجوع أضر بك حتى ذكرت الثريد، فجاءوه بصحفة عظيمة كثيرة العُرَاق[4] والودك، فاحتشم أحمد، فقال المأمون: بحياتي عليك لما عدَلت نحوها، فوضع القصص ومال إلى الثريد، فأكل حتى انتهى والمأمون ينظر إليه، فلما فرغ دعا بطَسْت فغسل يده ورجع إلى القصص، فمرت به قصة فلان الحِمْصي، فقال: فلان الخَبيصي! فضحك المأمون وقال: يا غلام، جامًا ضخمًا فيه خَبيصٌ؛[5] فإن غداء أبي العباس كان مبتورًا، فخجل أحمد وقال: يا أمير المؤمنين، صاحب هذه القصة أحمق، فتح الميم فصارت كأنها سِنَّتان! قال: دع عنك هذا؛ فلولا

حمقه وحمق صاحبه لمتَّ جوعًا، فجاءوه بجام خبيص فخجل، فقال له المأمون: بحياتي عليك إلا ملْت إليها! فانحرف فانثنى عليه وغسل يده ثم عاد إلى القصص، فما أسقطَ حرفًا حتى أتى على آخرها».

وبعد، فإنا نستنبط - من هذه الرواية ومما جرى من الحديث بينه وبين المأمون في شأن أكلة ابن أبي خالد عند دينار بن عبد الله التي كلفت المأمون ألف ألف[٦] - شَرَه هذا الوزير الجليل.

ويجدر بنا أن نقيد هنا ملاحظة أخرى، وهي طول احتمال المأمون وكبير جلده وقوة اصطباره على مطالعة شكاوى الجمهور ومظالمهم، غير مكترث لألم الجوع ولا جانح إلى الرغد والراحة في سبيل نظرها وإنصاف أصحابها.

على أن هذه الهنة في هذا الوزير وإن كانت عائبة للرجل ناقصة من كرامته، فكفايته مقطوع بها، وليس أدل على عظيم قدره وسمو مكانته من حضور المأمون جنازته وصلاته بنفسه عليه، وقوله عنه بعد أن دُلِّيَ في حفرته وترحم عليه: أنت والله كما قال القائل:

أخو الجِدِّ إن جدَّ الرجال وشمروا وذو باطل إن كان في القوم باطل

وزارة أحمد بن يوسف

وقد استوزر المأمون بعد ابن أبي خالد أحمدَ بن يوسف الكاتب، ولما كنا سنعقد له بحثًا خاصًّا في قسم الآداب والعلوم، فستجد ثمة طرفًا عن حياته وأثره.

وزارة يحيى بن أكثم التميمي

استوزر المأمون بعد أحمدَ يحيى بنُ أكثم، وهو من أصحاب ثمامة بن أشرس المتكلم المعروف، ولّاه المأمون وظيفتي الوزارة وقاضي القضاة.

ولم أجد اختلافًا قويًّا، هو اختلاف النقيضين، كاختلاف القدماء في يحيى بن أكثم، ولما كان له مظهر بارز في الدولة المأمونية من الوجهة العلمية والأدبية - لأنه كان كما يقول أحمد بن حنبل رضي الله عنه: مُتفننًا فيها؛ فكان إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث، وإذا رآه يحفظ الحديث سأله في النحو، وإذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام ليقطعه ويُخجله - آثرنا أن نُلمَّ بحياته وأقوال الناس فيه من قادح ومادح، ونبين قدره على وجه الإجمال لا التفصيل، وسنورد كلامنا فيه أيضًا في قسم العلوم والآداب من هذا الكتاب.

وزارات أخرى

وقد ذُكر أن المأمون استوزر بعدَ مَن قدَّمناه لك أبا عبَّاد ثابت بن يحيى ابن يسار وأبا عبد الله بن يَزداد، وقد ائتمَّا في سيرتيهما بمن سبقهما، كما أنه ذكر أنه استوزر عمرو بن مسعدة، وهو صِنْو أحمد بن يوسف نباهة وكفاية وكتابة. وإنا لا نرى مدعاة لإثبات ما هو من لون واحد، ففي ذلك إضاعة للوقت وتكرار للقول.

(٢) الجند والقواد في عصر المأمون

لا نريد هنا أن نتكلم عن ديوان الجند وتاريخه ولا عن مرتبات الجند وتحولهم منذ العهود الأولى فإن ذلك يطول كثيرًا، على أنا نحيلك مع ذلك إلى ما جاء بالجزء الأول من تاريخ التمدين الإسلامي في هذا الباب، وقصارى ما نريد قوله الآن أن راتب الجندي الراجل، وهو مثل «النفر» في النظام العسكري الحديث، هو ٢٤٠ درهمًا في السنة، فضلًا عن

حصته في الغنائم عند الغزوات. ويظهر أن حصة الجنود من الغنائم كانت حبست عنهم حتى ردها عليهم الأمين سنة ١٩٨ هجرية، فأصاب الرجل ستة دنانير.

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون جعل المأمون راتب الجندي ثمانين درهمًا في الشهر، على أن هذا الراتب عاد إلى ما كان عليه بعد انتهاء الفتنة.

أما القواد العظام في هذا العصر، فإنا نكتفي بما وقفتَ عليه أثناء النزاع بين الأخوين؛ لأن من التكرار في القول أن نعيد هنا ما قلناه هناك.

(٣) ديوان القضاء والمظالم والحسبة

ستقف من بحوثنا التي أفردناها لتحليل أخلاق المأمون على شيء من سلطان القضاة في ذلك العهد، ونحيلك هنا إلى المحاضرة القيمة التي ألقيت في المجمع العلمي بدمشق عن تاريخ القضاة في الإسلام، كما نحيلك إلى الفصل المسهب الذي أفرده في هذا الموضوع صاحب التمدين الإسلامي.

ويكفينا هنا أن نقول: إن نظام الحكم أو الفصل في الدعاوى في ذلك العهد كان مُتشعِّبًا بقدر ما كان مُحكَمًا؛ إذ قد كان يوجد إلى جانب ديوان القضاء ديوان المظالم وديوان نظر الحسبة، وهذه الدواوين كلها كانت تنظر فيما يرفع إليها من دعاوى.

ويطول بنا الحديث في هذا المقام لو أردنا استيعاب بيان كل نوع من هذه الدواوين وما يختص بالنظر فيه.

على أنه يجوز لك أن تفترض إلى حدٍّ ما أن ديوان المظالم كان يشبه في بعض نظامه وسلطته المحاكم العليا كمحاكم الاستئناف والنقض والإبرام، كما يشبه إلى حد غير قليل المجالس التأديبية.

وإنا نحيلك هنا إلى الفصول الممتعة التي أفردها أبو الحسن علي بن محمد ابن حبيب الماوردي في كتابه القيم «الأحكام السلطانية»، فقد عالج فيها الكلام عن القضاة وما يختصون به من الدعاوى، وعن ولاة المظالم وما يختصون به أيضًا، وكذلك عن ولاة الحسبة وحدود سلطانهم، وقد نقل عنه صاحب نهاية الأرب في نهاية الجزء السادس جملة صالحة منه؛ فراجعها.

أما راتب القضاة فنقول: إن راتب القاضي بلغ في أيام المأمون ٤٠٠٠ درهم في الشهر، أي حوالي ٢٧٠ دينارًا، وهذا الراتب في ذاته يدل على ما وصلت إليه الثروة في ذلك العصر. وقد كنا نود أن نختص الولاة ورواتبهم بكلمة لولا أن المصادر في ذلك تنقصنا، وفيما بيناه عن القضاة مقياس لمن كان في مكانتهم ولمن كان أرفع منهم أو أقل مرتبة؛ فعليك أن تفكر وتقارن.

هوامش

(١) الطُّعمة - بضم الطاء وكسرها: وجه الكسب الطيب أو الخبيث.

(٢) هو إدام يُؤتَدم به، وقيل: هو خُبز بخَلٍّ، مُعرَّب كلمة بالفارسية، وخصَّه بعضهم بالمخللات التي تستعمل لتشهي الطعام.

(٣) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «يلوح لي أن هذه الحكاية مصنوعة؛ فكيف يجترئ أحمد بن أبي خالد على هذا الأمر وهو يعلم مكانة عبد الله بن طاهر ومكيدته وأنفته وحسن تأتيه للأمور؟ فهل يأمن أن يعتريه عبد الله بما يوبقه ويعجل هلاكه؟ وبعدُ فهذه الرواية تناقض الرواية الأخرى؛ وهي أن صاحب البريد كتب إلى المأمون بما كان من طاهر من ترك الدعاء له، وكتب إليه في اليوم الثاني بموته.»

(٤) العراق: جمع عرق وهو القطعة من اللحم. وهو أحد الجموع النادرة، وقد عدَّ هذه الجموع ابنُ السكيت في لسان العرب مادة عرق؛ فراجعها. والودك: الدسم.

(٥) نوع من الحلوى.

(٦) انظر هذه الحكاية في تاريخ بغداد لابن طيفور، ص٢٢٢-٢٢٤.

الفصل السادس
خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية

(١) توطئة

أما أثر المال في النفوس وأثر الأحزاب السياسية وكيف تغيرت وجهات النظر في كثير من الأمور الدينية، فإنك قد وقفت على شيء من ذلك فيما سردناه لك.

على أنا نظن أنه قد آن لنا أن ندون بعض ملاحظاتنا في هذا العصر، وآن لنا أن نتكلم عن نصيب الوزراء والقواد والزعماء في هذه الدولة التي كان للوزراء والقواد والزعماء الأثر الكبير في تدعيم بنيانها وتقوية أركانها وتشييد سلطانها.

(٢) نكبة الوزراء

نريد أن نلاحظ أن حياة الوزراء وحياة القواد والزعماء كانت تنتهي في الغالب بنكبتهم في حياتهم أو استصفاء أموالهم.

ومع أنا نحيلك إلى بعض المصادر القيمة في هذا الموضوع مثل كتاب تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء لأبي الحسن الهلالي بن المحسن بن إبراهيم الصابي الكاتب، وإلى ما كتب من الفصول في غيره، نريد أن نلاحظ أن جُلَّهم قد نكبه خليفتُه مثل نكبة المنصور لأبي مسلم وعبد الله بن علي وأبي سلَمة الخلال وأبي الجهل، ونكبته لأبي أيوب المورياني، ونكبة الربيع بن يونس الذي سمَّه الهادي، ونكبة المهدي ليعقوب بن داود، ونكبة الرشيد للبرامكة، والمأمون لمن رأيت.

نلاحظ ذلك ونلاحظ أن غدر الخلفاء بوزرائهم في ذلك العهد قد لاكته الألسنة وتكلمت فيه الشعراء؛ فقد قال بعضهم حينما قتل المتوكلُ وزيرَه محمد بن عبد الملك الزيات:

يـكـاد الـقـلـب من جزع يطير   إذا مـا قـيـل قـد قُـتـل الـوزير
أمـيـر الـمؤمنين قتلتَ شخصًا   عـلـيـه رَحـاكُـم كـانت تدور
فـمهـلًا يـا بـنـي الـعباس مهلًا   لـقـد كُويتْ بـغدركم الصدور

كما نلاحظ أيضًا تنصُّل شخصيات عظيمة من قبول الوزارة في ذلك العهد لما عهدوه من وخيم عواقبها، وسوء مغبَّة الاضطلاع بها، فقد ذكر ابن طيفور أن ثمامة بن أشرس المتكلم المعروف قال: لما قُتل الفضل بن سهل بعث إليَّ المأمون وكنت لا أنصرفُ من عنده إلا الوَقْعة إلى منزلي، ثم يأتيني رسوله في جوف الليل فآتيه، وكان قد أهَّلني لمكان الفضل بن سهل من الوزارة، فلما رأيته قد ألحَّ عليَّ في ذلك تعاللتُ عليه، فقال لي: إنما أردتك لكذا وكذا، فقلت: يا أمير المؤمنين، إني لا أقوم بذلك، وأحر بي أن أضنَّ بموضعي من أمير المؤمنين وحالي أن تزول عنده، فإني لم أرَ أحدًا تعرض للخدمة والوزارة إلا لم يكن لتسلم حالُه ولا تدوم منزلته. ورشَّح له أحمد بن أبي خالد الأحول، ثم انظر إلى اعتلاله عليه مرة أخرى حينما رشَّح له يحيى بن أكثم؛ فإنك توقن معنا بنفور رجال الدولة من الوزارة وهربهم من شَرَكها وسُوء عقباها.

(٣) الاستصفاء

هم ينفرون من الوزارة لأن خاتمة حياتهم كانت التقتيل كما رأيت،

وينفرون منها لأن مصير أموالـهم وأموال ذويـهـم كان في الغـالـب إلى الاستصفاء والاغتصاب.

ولقد عم الاستصفاء سائر رجال الحكومة حتى الرعية، وأصبحت بتوالي الأيام المصدر الأول لتحصيل المال.

فالعامل يستصفي مما للرعية، والوزير يستصفي مما للعمال، والخليفة يستصفي مما للوزراء ومما للناس على اختلاف طبقاتهم، حتى لقد أنشأوا للاستصفاء ديوانًا خاصًّا مثل سائر دواوين الحكومة، فكان المال يتداول بالاستصفاء كما يتداول بالمتاجرة.

أما أنواع الاستصفاء ومقاديره في ذلك العصر فنترك الكلمة في هذا للوزير ابن الفرات قريب العهد بالمأمون، قال: «تأملت ما صار إلى السلطان من مالي فوجدته ١٠٠٠٠٠٠٠ دينار، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهري بن الجصاص فكان مثل ذلك». فكأنه لم يخسر شيئًا لأنهم يقبضون بالاستصفاء ويدفعون بالاستصفاء، وإذا استصفى أحدهم من مال لم يكن في وسعه أداؤه كله مُعجَّلًا أجَّلوه بالباقي، وساعدوه على تحصيله أو جمعه بردِّ جاهه وتغيير زيه وإنزاله في دار كبيرة فيها الفرش والآلة الحسنة؛ ليستطيع التدخل في جمع الأموال من الناس.

وتعددت أسباب الاستصفاء وجهاته حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة له، وهاك بيانًا لما قبضه ابن الفرات من الاستصفاء على أيام الراضي بالله ننشرها لك لتكون أنموذجًا لأنواع الاستصفاءات ومقاديرها:

دينار	
٧٣٠٠	من أحمد بن محمد بن إبراهيم البسطامي، عن النصف مما بقى عليه من استصفائه في سنة ٣٠٠هـ.
١١٠٠٠	من علي بن الحسين الباذبيني الكاتب، عما تولاه من الموصل.
٣٠٠٠٠	من محمد بن عبد الله الشافعي، عما تصرف فيه لعلي بن عيسى.
٨٠٠٠٠	من محمد بن علي بن مُقلة، عما تصرف فيه.
١٠٠٠٠٠	من محمد بن الحسن المعروف بأبي طاهر.
١٣٠٠٠	من الحسن بن أبي عيسى الناقد، عما ذكر أنه وديعة لعلي بن عيسى.
٤٠٠٠	ومنه أيضًا صُلحًا عن نفسه.
٢٠٠٠٠	من إبراهيم بن أحمد المادرائي.
٣٦٣٣٠	من عبد الواحد بن عبيد الله بن عيسى، عن بقية استصفاء والده.
١٠٠٠٠	من أحمد بن يحيى بن حاني الكاتب عن مصلحةٍ وجبتْ.
٦٠٠٠	من إبراهيم بن أحمد بن إدريس الجهبذ، عن صلحه.
٤٠٠٠	من محمد بن عبد السلام بن سهل، عما عنده من الوديعة لمحمد بن علي وإبراهيم بن أحمد المادرائي.
٤٠٠٠٠	من عبد الوهاب بن أحمد بن ما شاء الله، عن صلحه.
١٠٠٠٠	من محمد بن عبد الله بن الحارث، عن صلحه.
٢٥٠٠٠٠	من محمد بن أحمد بن حماد، عما تصرف فيه بالموصل وغيرها.
١٥٠٠٠	من إبراهيم بن أحمد المادرائي، عن الباقي عليه من جملة خمسين ألفًا.
٣٠٠٠	من أبي عمر محمد بن أحمد الصباح الجرجراي، عن ضمانه الباقي على أبي العباس أحمد بن محمد بن علي المعروف بقرقر.

دينار	
٧٠٠٠٠٠	من علي بن محمد بن الحواري وقتل.
٧٠٠٠	من هارون بن أحمد الهمذاني.
٢٠٥٠	من عبد الله بن زيد بن إبراهيم.
١٥٠٠٠	من عبد الله بن زيد، صلحًا عن نفسه.
٦٠٠٠٠	من علي بن مأمون بن عبد الله الإسكافي كاتب ابن الحواري وقتل.
٧٠٠٠٠٠	من يحيى بن عبد الله بن إسحاق، عما تصرف فيه مع حامد.
١٣٠٠٠٠٠	من حامد بن العباس وقُتل.
١٥٠٠٠٠	من محمد بن محمد بن حمدون الواسطي.
٣٢١٠٠٠	من أبي الحسن علي بن عيسى.
١٠٠٠٠٠	من إبراهيم بن يوحنا جهبذ حامد بن العباس.
١٢٠٠٠٠٠	من أبي محمد الحسن بن أحمد المادرائي.
١٠٠٠٠٠٠	ومنه أيضًا.
١٠٠١٠٠٠	من أبي بكر محمد بن علي المادرائي.
١٠٠٠٠	ومنه أيضًا.
٧٣٠٥٦٨٠	

درهم	
٥٠٠٠٠	من أبي الفضل محمد بن أحمد بن بسطام
٢٠٠٠٠٠	من علي بن الحسن الباذبيني، صلحًا عما تصرف فيه بالموصل وقتل

درهم	
١٠٠٠٠٠	من أبي عمر محمد بن أحمد بن الصباح الجرجراي، عن ضمان الباقي من استصفاء أبي ياسر إسحاق بن أحمد
١٠٠٠٠٠	من عبيد الله بن أحمد اليعقوبي
١٠٠٠٠٠	من الحسن بن إبراهيم الخرائطي، صلحًا عما اقتطعه من مال الرئيس
١٠٠٠٠٠	من الحسين بن علي بن نصير أخي نصير بن علي
٢٥٠٠	من علي بن محمد بن أحمد بن السمان، عن ورثة قرقر
١٠٠٠٠	من أبي بكر أحمد بن القاسم الأزرق الجرجاني، عن ضياع علي بن عيسى
١٣٠٠٠٠	من الحسين سعد بن القُطْرَبلي
١٥٠٠٠٠٠	من محمد بن أحمد
٣٠٠٠٠٠٠	من أبي الحسن محمد بن أحمد بن بسطام
٥٠٠٠٠	من أحمد بن محمد بن حامد بن العباس
١٣٠٠٠٠	من سليمان بن الحسن بن مخلد

ومن المعقول أن نستنبط من ذلك أن الوزير أو العامل لا بد أن يجنح إلى الرشوة، فيعوض المال الذي سيُستصفَى منه والثروة التي ستُغتصب منه.

ومن المعقول أيضًا أن نعلل لم تعددت الثورات في بعض الولايات، ولم كثرت الشكايات من بعض الولاة في ذلك العهد. وإنه وإن لم يهتم المؤرخون القدماء بإثبات شكايات العامة وأسباب ثوراتهم، فقد عثرنا بين السطور على العبارة الآتية في الجزء الثاني من اليعقوبي، نثبتها لك بنصها:

«أخذ الرشيد العمال والتُّناء[1] والدهاقين[2] وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمُقبِّلين،[3] وكان عليهم أموال مجتمعة، فولَّى مطالبتهم عبد الله ابن الهيثم بن سام، فطالبهم بصنوف من العذاب - وكان ذلك سنة ١٨٤ هـ، واعتل الرشيد في تلك السنة علة شديدة وشفي منها - فدخل إليه الفضيل فرأى الناس يُعذَّبون في الخراج فقال: ارفعوا عنهم، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من عذب النفس في الدنيا عذبه الله يوم القيامة» فأمر بأن يرفع عن الناس فارتفع العذاب من تلك السنة».[4]

ويجوز لنا أن نستدل من هذه العبارة ومما ذكره الطبري وسواه من تخفيض بعض الخلفاء لخراج بعض البلدان عقب ثورة من الرعية أو زيارة ملكية، على أن العمال كانوا يجنحون إلى الشدة والعسف وجمع المال بشتى الوسائل، وكل ذلك من جراء النظام المتبع معهم كما أسلفنا.

فتأمل كيف يكون عسف الولاة للرعية بسبب عسف الملوك للولاة والعمال يعسفون[5] ويظلمون والرعية وحدها هي التي تحتمل وتصبر، بيد أن التاريخ يحدثنا دائمًا في كافة الدول وكافة الأجيال أن نهاية هذا الاحتمال وذلك الصبر هي يقظة الأمم وانتباهها، ونهضة الشعوب ونضوجها، ورفضها في إباء وشمم، وفي عقيدة وإيمان، وفي شجاعة وحرية، وفي تصميم وقوة إرادة، احتمال أمثال هذه الأدران والمآثم، وتلك الإساءات والمظالم ممن تسلموا مقاليد الرعية من الحكام وذوي السلطان.

(٤) ثروة الخلفاء ورجال الدولة وبذخهم

نريد أن نقيد ملاحظة أخرى وهي نتيجة لازمة من نتائج الاستصفاء والاغتصاب، تلك الملاحظة هي استفحال ثروة الخلفاء طبعًا، واستفحال

ثروة كبار رجالاتهم والمقربين من أفراد البيت الملكي من بطانة وحاشية، واستفحال بذخهم، واستفحال أعطياتهم، ونحن وإن كنا لم نجد مصدرًا منظمًا في هذا الموضوع، وخاصة في العصر المأموني، فقد عثرنا في كتاب «لطائف المعارف» للثعالبي أن «المكتفي» وهو قريب الصلة بعصر المأمون قد خلف مائة مليون دينار! وهذا تفصيلها:

دينار	
٢٠٠٠٠٠٠٠	من العين والورق والأواني المعمولة
٢٠٠٠٠٠٠٠	من الفرش
٢٠٠٠٠٠٠٠	من الكراع والسلاح والغلمان
٢٠٠٠٠٠٠٠	الضياع والعقار والأملاك
٢٠٠٠٠٠٠٠	الجوهر والطيب وما يُجرى معهما

ومن المعقول أن نتخذ من حالة هذا الخليفة العباسي مقياسًا لغيره، وإن كنا نعلم أن غيره مثل الرشيد والمأمون كانا أبسط منه سلطانًا وأكثر أعوانًا، فهما إن لم يكونا أرفع منه شأنًا ليسا بأقل منه بالثروة مكانًا.

أما ثروة كبار رجالهم، فإنا نذكر لك هنا على سبيل المثال نصًّا هامًّا يصح أن نتخذه أساسًا لتقدير ثروة أسرة الفضل بن سهل أو أسرة طاهر بن الحسين أو غيرهما من أساطين الدولة وأقطاب المملكة، وهو النص الذي رواه سهل بن هارون، أحد المعاصرين، خاصًّا بثروة البرامكة، وكلامه حجة لا محالة لأنه إلى جانب كونه من المعاصرين الواقفين على مجريات الأمور وبواطنها في ذلك العهد، فقد كان يشغل وظيفة خازن دار الحكمة

في أيام المأمون، قال: «... وأمر الرشيد بضم أموالهم فوجد من العشرين ألف ألف التي كانت مبلغ جبايتهم اثني عشر ألف ألف مكتوبٌ على بدَرها صكوكٌ مختومة تفسيرها رقيمًا حبوا بها، فما كان منها حِباءٌ على غريبة أو استطراف مُلحة تصدق به يحيى، وأثبت ذلك في ديوانها على تواريخ أيامها، فكان ديوان إنفاق واكتساب فائدة، وقبض من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وسبعين ألفًا إلى سائر ضياعهم وغلاتهم ودورهم ورياشهم، والدقيق والجليل من مواعينهم، فإنه لا يصف أقله ولا يعرف أيسره إلا مَن أحصى الأعمال وعرف مُنتهى الآجال».

ويجوز لنا كذلك أن نستخلص مما صرف على زواج بوران بالمأمون مبلغ ثروة الحسن بن سهل، كما يجوز لنا أن نتبين مقدار ثروة عبد الله بن طاهر من رواية صاحب النجوم الزاهرة الخاصة بإحدى مواقفه في الكرم ومُؤدَّاها: أنه افتدى الأسرى من الترك بنحو ألفي ألف درهم، ثم انظر ما رواه المسعودي في مُرُوجه خاصًّا بما فعله إبراهيم بن المهدي في زيارة للرشيد له؛ إذ اصطنع له طاهِيه جملة أطعمة فخمة وكان من جملتها جامُ سمك مقطَّع، فاستصغر الرشيد قِطعَه واستفسر منه عن حقيقتها، فأجابه إبراهيم بن المهدي: يا أمير المؤمنين، هذه ألسنةُ السمك. وقُدِّرت نفقة ما في ذلك الجام بألف درهم.

ثم انظر بذَخهم في لباسهم وقد سبق لنا أن أشرنا إلى ما كانوا يلبسونه في المنادمة من مختلف الثياب وغاليها، ونريد أن نبين هنا ما وقفنا عليه من مخلَّفات بعض المعاصرين من الخلفاء والقواد؛ ليكون مثالاً تقريبيًّا لحالة من لم يصل إلى علمنا خبره، فقد ذُكر أن ما خلفه المُكتفي من الألبسة هو:

عدد	
٤٠٠٠٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخامات
٦٣٠٠٠	من الأثواب الخراسانية المَرْوية
٨٠٠٠	من الملاءات
١٣٠٠٠	العمائم المروية
١٨٠٠	الحُلل المُوشَّاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب
١٨٠٠٠٠	البطائن التي من كِرْمان في أنابيب القصب
١٨٠٠٠	الأبسطة الأرمنية

وذكروا أن ذا اليمينين توفِّي وفي خزانته ألف وثلاثمائة سراويل ديبقي لم يستعملها، وقيل إنهم وجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سراول ديبقي.

وقد اطلعنا في الجزء العشرين من «كتاب نهاية الأرب» على أن ملك التبت قدم على المأمون ومعه صنم من ذهب على سرير من ذهب مرصع بالجوهر، فأسلم الملك وأخذ المأمون الصنم وأرسله إلى الكعبة، وطالعنا فيه أيضًا أن ملك الهند أهدى إليه هدية نفيسة وكتب إليه مُعدِّدًا أمواله وثروته، مما يدل على بذخ العصر وثروة الملوك فيه.

وقد استفحل أمر البذخ في ذلك العصر حتى أصبحنا نرى أبا العتاهية مثلًا وهو المعروف ببخله يهدي إلى الرشيد في سبيل طلبه لعُتْبه ثلاث مَراوِح - وكان العباسيون قد تفننوا فيها وفي المَذَابِّ التي اخترعت في أيامهم - وكتب على كل مروحة بيتًا قال في مجموعها:

ولقد تـنسَّمت الرياح لحاجتي فإذا لـهـا مـن راحـتـيـه شميم
أعلقتُ نفسي من رجائك مالـه عـنـقٌ يـحث إليك بي ورسيم
ولربما استيأستُ ثم أقول لا إن الذي ضمـن الـريـاح كريم

ولعلك إذا تذكرت أمر سُفن الأمين وبذخه وإسرافه مضافًا إليه ما ذكرنا هنا وغيره تؤمن بما نقول من بذخ العصر واستفحال ثروته، على أنا قد عثرنا على مصدرين ننشرهما مع الحيطة والحذر لبيان ثروة العصر، يتضمن الأول بيان الجباية في أيام المأمون، ويتضمن الثاني حالتها في أيام أخيه المعتصم مُفترضينَ في كلتا الحالتين جواز المبالغة في التقدير؛ في المصدرين نرى مع ذلك أن أي تقدير متواضع للخراج في ذلك العصر لا بد أن يكون عظيماً ودالًّا على الثروة والغِنى والبذخ.

(٥) الخراج في عهد المأمون

يمتاز عهد المأمون بوجود أثر تاريخي يدل على مقدار الجباية الخراجية في جميع الأقاليم التي كانت تحت حكم الدولة العباسية، وهو الثبت الذي نقله العلامة ابن خلدون في تاريخه، وقد أحببنا لما في ذلك الثبت من الفائدة أن ننقله عنه، وها هو ذا:

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	درهم	
السواد	٢٧٨٠٠٠٠٠	٢٠٠ حلة نجرانية
		٢٤٠ رطلًا من طين الختم
كسكر	١١٦٠٠٠٠٠	
كور دجلة	٢٠٨٠٠٠٠٠	

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
حلوان	٤٨٠٠٠٠٠	
الأهواز	٢٥٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ رطل سكر
فارس	٢٧٠٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠ قارورة ماء ورد ٢٠٠٠٠ رطل زيت أسود
كرمان	٤٢٠٠٠٠٠	٥٠٠ ثوب متاع يماني ٢٠٠٠٠ رطل تمر
مكران	٤٠٠٠٠٠	
السند وما يليه	١١٥٠٠٠٠٠	١٥٠ رطل عود هندي
سجستان	٤٠٠٠٠٠٠	٣٠٠ ثوب معين ٢٠ رطل من الفانيد
خراسان	٢٨٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠ نقرة فضة ٤٠٠٠ برذون ١٠٠٠ رأس رقيق ٢٠٠٠٠ ثوب متاع ٣٠٠٠٠ رطل إهليلج
جرجان	١٢٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ شقة إبريسم
قومس	١٥٠٠٠٠٠	١٠٠٠ نقرة فضة
طبرستان والريان ودماوند	٦٣٠٠٠٠٠	٦٠٠ قطعة فرش طبري ٢٠٠ كساء و٥٠٠ ثوب ٣٠٠ منديل و٣٠٠ جام
الري	١٢٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
همدان	١١٣٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رطل رب الرمانين
		١٢٠٠٠ رطل عسل
ماها البصرة والكوفة	١٠٧٠٠٠٠٠	
ماسبذان والريان	٤٠٠٠٠٠٠	
شهرزور	٦٧٠٠٠٠٠	
الموصل وما يليها	٢٤٠٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠ رطل عسل
أذربيجان	٤٠٠٠٠٠٠	
الجزيرة وما يليها من أعمال الفرات	٣٤٠٠٠٠٠٠	١٠٠٠ رأس رقيق
		١٢٠٠٠ زق عسل
		١٠ بزاة
		٢٠ كساء
أرمينية	١٣٠٠٠٠٠٠	٢٠ قسط محفور
		٥٣٠ رطل رقم
		١٠٠٠٠ رطل من المسايح السرماهي
		١٠٠٠٠ رطل صونج
		٢٠٠ بغل
		٣٠ مُهرًا
برقة	١٠٠٠٠٠٠	
إفريقية	١٣٠٠٠٠٠٠	١٢٠ بساط
المجموع	٣١٨٦٠٠٠٠٠	درهم

الإقليم	الجباية من الدراهم والدنانير	الجباية من العروض
	من الدنانير	
قنسرين	٤٠٠٠٠٠	١٠٠٠ حمل زيت
دمشق	٤٢٠٠٠٠	
الأردن	٩٧٠٠٠	
فلسطين	٣١٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠ رطل زيت
مصر	٢٩٢٠٠٠٠	
اليمن	٣٧٠٠٠٠	سوى المتاع (الذي لم يذكر)
الحجاز	٣٠٠٠٠٠	
	٤٨١٧٠٠٠	دينار، وتساوي ٧٢٢٥٥٠٠٠ درهم باعتبار الدينار ١٥ درهماً، وهو تقديره في ذلك العصر،
فيكون المجموع بالدراهم	٧٢٢٥٥٠٠٠	
يضاف إليه جباية الأقاليم المذكورة أعلاه	٣١٨٦٠٠٠٠٠	
الجملة	٣٩٠٨٥٥٠٠٠	درهم

(٦) الخراج في عهد المعتصم

أما جباية الدولة في أيام المعتصم، فهاك هي نقلاً عن قدامة بن جعفر:

كانت جباية السواد معظمها من الحنطة والشعير، وقد ذكر قدامة مقدار كل منهما مفصلًا باعتبار طساسيج السواد، أي نواحيه في الشرق والغرب:

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠
طساسيج السواد في الجانب الغربي:			
الأنبار ونهر عيسى	١١٨٠٠	٦٤٠٠	٤٠٠٠٠٠
طسوج مسكن	٣٠٠٠	١٠٠٠	١٥٠٠٠٠
طسوج قطربل	٢٠٠٠	١٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
طسوج بادوريا	٣٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠٠
نهر سير	١٧٠٠	١٧٠٠	١٥٠٠٠٠
الرومقان	٣٣٠٠	٣٣٠٠	٢٥٠٠٠٠
كوثى	٣٠٠٠	٢٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
نهر درقيط	٢٠٠٠	٢٠٠٠	٢٠٠٠٠٠
نهر جوبر	١٥٠٠	٦٠٠٠	١٥٠٠٠٠
باروسما ونهر الملك	٣٥٠٠	٤٠٠٠	١٢٢٠٠٠
الزوابي الثلاثة	١٤٠٠	٧٢٠٠	٢٥٠٠٠٠
بابل وخطرنية	٣٠٠٠	٥٠٠٠	٣٥٠٠٠٠
الفلوجة العليا	٥٠٠	٥٠٠	٧٠٠٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
الفلوجة السفلى	٢٠٠٠	٣٠٠٠	٢٨٠٠٠٠
طسوج النهرين	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
طسوج عين التمر	٣٠٠	٤٠٠	٤٥٠٠٠
طسوج الجبة والبداة	١٥٠٠	١٦٠٠	١٥٠٠٠٠
سورا وبرنسيما	١٥٠٠	٤٥٠٠	٢٥٠٠٠٠
البرس الأعلى والأسفل	٥٠٠	٥٥٠٠	١٥٠٠٠٠
فرات بادقلي	٢٠٠٠	٢٥٠٠	٦٢٠٠٠
طسوج السيلحين	١٠٠٠	١٥٠٠	١٤٠٠٠٠
روذستان وهرمزجرد	٥٠٠	٥٠٠	٢٠٠٠٠
تستر	٢٢٠٠	٢٠٠٠	٣٠٠٠٠٠
إيغار يقطين	١٢٠٠	٢٠٠٠	٢٠٤٨٠٠
كسكر	٣٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
طساسيج السواد في الجانب الشرقي:			
طسوج بزرجسابور	٢٥٠٠	٢٢٠٠	٣٠٠٠٠٠
طسوج الراذانين	٤٨٠٠	٤٨٠٠	١٢٠٠٠٠
طسوج نهر بوق	٢٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
كلواذى ونهر بين	١٦٠٠	١٥٠٠	٣٣٠٠٠٠
جازر والمدينة العتيقة	١٠٠٠	١٥٠٠	٢٤٠٠٠٠

اسم الناحية	مقدار الحنطة بالكر	مقدار الشعير بالكر	الدراهم
روستقباد	١٠٠٠	١٤٠٠	٢٤٦٠٠٠
سلسل ومهروذ	٢٠٠٠	١٥٠٠	١٥٠٠٠٠
جلولا وجللتا	١٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠٠٠
الذيبين	١٩٠٠	١٣٠٠	٤٠٠٠٠
الدسكرة	١٨٠٠	١٤٠٠	٦٠٠٠٠
البنذنيجين	٦٠٠	٥٠٠	٣٥٠٠٠
طسوج براز الروذ	٣٠٠٠	٥١٠٠	١٢٠٠٠٠
النهروان الأعلى	١٧٠٠	١٨٠٠	٣٥٠٠٠٠
النهروان الأوسط	١٠٠٠	٥٠٠	١٠٠٠٠٠
بدرايا وبكسايا	٤٧٠٠	٥٠٠٠	٣٣٠٠٠٠
كور دجلة	٩٠٠	٤٠٠٠	٤٣٠٠٠٠
نهر الصلة	١٠٠٠	٣١٢١	٥٩٠٠٠
النهروان الأسفل	١٧٠٠	١٣٠٠	٥٣٠٠٠
مجموع خراج السواد	١١٥٦٠٠	١٢٣٩٢١	٨٨٢١٨٠٠

فمجموع جباية السواد باعتبار نواحيه ١١٥٦٠٠ كر حنطة، و١٢٣٩٢١ كر شعير، و٨٨٢١٨٠٠ درهم، على أن هذا المجموع يختلف عما قاله قدامة المذكور بعد أن أورد خراج كل ناحية بالتفصيل كما تقدم، فقد قال في إيراد المجموع: «ذلك ارتفاع السواد سوى صدقات البصرة من الحنطة ١٧٧٢٠٠ كر، ومن الشعير ٩٩٧٢١ كرًّا، ومن الورق ٨٠٩٥٨٠٠ درهم»، وقد قال

المرحوم جرجي بك زيدان: ولعل سبب هذا الفرق خطأ في قراءة بعض الأعداد، على أن الفرق على كثرته لا يعتد به فيما نحن فيه. بقي علينا أن نحول الحنطة والشعير إلى دراهم، وقد فعل جعفر ذلك فحوَّلهما باعتبار ثمن الكُرَّين المقرونين من الحنطة والشعير ٦٠ دينارًا، والدينار على صرف ١٥ درهمًا بدينار، فبلغ ذلك ١٠٠٣٦١٨٥٠ درهم وقال: إن صدقات البصرة ترتفع في السنة ٦٠٠٠٠٠٠ درهم، فإذا جمعت ذلك كله بلغ ١١٤٤٥٧٦٥٠ درهمًا على هذه الصورة:

٨٠٩٥٨٠٠	الدراهم المجموعة ورقًا
١٠٠٣٦١٨٥٠	قيمة الحنطة والشعير بالدرهم
٦٠٠٠٠٠٠	صدقات البصرة
١١٤٤٥٧٦٥٠	درهمًا

هذا هو ارتفاع السواد، فلنتقدم إلى إيراد جبايات سائر الأقاليم بالمشرق والمغرب وهي مع السواد:

أقاليم المشرق	درهم
السواد	١١٤٤٥٧٦٥٠
الأهواز	٢٣٠٠٠٠٠٠
فارس	٢٤٠٠٠٠٠٠
كرمان	٦٠٠٠٠٠٠
مكران	١٠٠٠٠٠٠
أصبهان	١٠٥٠٠٠٠٠

أقاليم المشرق	درهم
سجستان	١٠٠٠٠٠٠
خراسان	٣٧٠٠٠٠٠٠
حلوان	٩٠٠٠٠٠
ماه الكوفة	٥٠٠٠٠٠٠
ماه البصرة	٤٨٠٠٠٠٠
همدان	١٧٠٠٠٠٠
ماسبذان	١٢٠٠٠٠٠
مهرجان قذق	١١٠٠٠٠٠
الإيغارين	٣١٠٠٠٠٠
قم وقاشان	٣٠٠٠٠٠٠
أذربيجان	٤٥٠٠٠٠٠
الري ودماوند	٢٠٠٨٠٠٠٠
قزوين وزنجان وأبهر	١٨٢٨٠٠٠
قومس	١١٥٠٠٠٠
جرجان	٤٠٠٠٠٠٠
طبرستان	٤٢٨٠٧٠٠
تكريت والطيرهان	٩٠٠٠٠٠
شهرزور والصامغان	٢٧٥٠٠٠٠
الموصل وما يليها	٦٣٠٠٠٠٠
قردي وبذيدي	٣٢٠٠٠٠٠

أقاليم المشرق	درهم
ديار ربيعة	٩٦٣٥٠٠٠
أرزن وميافارقين	٤٢٠٠٠٠٠
طرون	١٠٠٠٠٠
آمد	٢٠٠٠٠٠٠
ديار مضر	٦٠٠٠٠٠٠
أعمال طريق الفرات	٢٩٠٠٠٠٠
المجموع	٣١١٥٨١٣٥٠

أقاليم المغرب	دنانير
قنسرين والعواصم	٣٦٠٠٠٠
جند حمص	٢١٨٠٠٠
جند دمشق	١١٠٠٠٠
جند الأردن	١٠٩٠٠٠
جند فلسطين	٢٩٥٠٠٠
مصر والإسكندرية	٢٥٠٠٠٠٠
الحرمين	١٠٠٠٠٠
اليمن	٦٠٠٠٠٠
اليمامة والبحرين	٥١٠٠٠٠
عمان	٣٠٠٠٠٠

وإذا ما حوَّلنا هذه الدنانير إلى دراهم باعتبار الدينار ١٥ درهمًا؛ فإنها تساوي ٧٦٧١٠٠٠٠ درهم، وبإضافتها إلى مجموع جباية أقاليم المشرق والجزيرة يكون مجموع ذلك كله ٣٨٨٢٩١٣٥٠ درهم، وهو ارتفاع الخراج على تقدير قدامة.

(٧) السعايات والجاسوسية

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالقيد وهي انتشار السعايات والدسائس في ذلك العصر انتشارًا مروعًا، ولعل سبب ذلك جنوح العباسيين إلى استعمال الجواسيس والرقباء بكثرة هائلة، فانظر مثلًا ما جاء في الجزء العشرين من كتاب «نهاية الأرب» عن المأمون؛ إذ يقول: إنه كان يحب سماع أخبار الناس حتى جعل برسم الأخبار ببغداد ألف عجوز وسبعمائة عجوز، فتأمل جاسوسية العصر التي لا يبعد البتة أن تكون لها يومئذ إدارات خاصة.

وبعد، فمهما يكنِ من افتراضك للمبالغة والغلو فيما يرويه لنا صاحب نهاية الأرب، فإن اطلاعك على كتاب ابن طيفور الذي كان معاصرًا لكثير من رواته، والذي كان قريب العهد بالمأمون وعصره، يقنعك بكثرة العيون وكثرة الأرصاد كثرةً قد تهولُك حقًّا وتدهشك صدقًا.

وقد سبق أن قلنا: إن جِل الساسة العباسيين كانوا يوصون بحفظ الأسرار، ويحبون الرجل الكُتَمة القُفَلة، وكان لحفظ الأسرار عندهم مكانة عظيمة، وإنك إذا نظرت إلى قول المأمون: «تحتمل الملوك كل شيء إلا ثلاثة: إفشاء السر، والقدح في الملك، والتعرض للحرم» علمت حينئذ مكانة حفظ السر عندهم، وأنها في المنزلة الأولى من اعتبارهم، واستطعت أن تعلل لم كانت خططهم غير واضحة ولا جلية، وربما كانت مُعمَّاة مبهمة.

(٨) الدعاوة «البروپاچندا»

وهناك مسألة أخرى نحدثك بها، وهي جديرة بالملاحظة قمينة بالبحث، تلك هي عنايتهم بأمر الدعاوة وتقويتهم حملاتهم فيما يريدون الدفاع عنه، فقد كان إتقانهم لأمرها وعلمهم بأفانينها ووقوفهم على نظمها بالغًا مبلغًا عظيمًا؛ إذ كان في مكنتهم وطوع بنانهم أن يصوروا الحق باطلًا والباطل حقًّا، وإن فيما رواه الطبري وغير الطبري عن سِنِيِّ حياة المأمون واستخدامه للرقاع تعلَّق على ظهر من يقتل أو يعاقب من رجالات دولته الغُنية والكفاية فيما نحن بسبيل القول فيه.

وإنا نسوق إليك مثلين لتأييد ما ذهبنا إليه:

فقد ذكر الطبري أن المأمون لما قتل علي بن هشام أمر أن تكتب رقعة وتعلق على رأسه ليقرأها الناس، فكُتب - وقد ذكرنا هذا الكتاب فيما سبق لمناسبة أخرى:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين كان دعا علي بن هشام فيمن دعا من أهل خراسان أيام المخلوع إلى معاونته والقيام بحقه، وكان فيمن أجاب وأسرع الإجابة، وعاون فأحسن المعاونة، فرعى أمير المؤمنين ذلك له واصطنعه وهو يظن به تقوى الله وطاعته، والانتهاء إلى أمر أمير المؤمنين في عمل إن أسند إليه في حسن السيرة وعفاف الطعمة، وبدأه أمير المؤمنين بالإفضال عليه، فولاه الأعمال السنية ووصله بالصلات الجزيلة التي أمر أمير المؤمنين بالنظر في قدرها، فوجدها أكثر من خمسين ألف ألف درهم، فمد يده إلى الخيانة والتضييع لما استرعاه من الأمانة، فباعده عنه وأقصاه، ثم استقال أمير المؤمنين عثرته، فأقاله إياها وولَّاه الجبل وأذربيجان وكور

أرمينية ومحاربة أعداء الله الخونة، على ألا يعود لما كان منه، فعاود أكثر ما كان بتقديمه الدينار والدرهم على العمل لله ودينه، وأساء السيرة، وعسف الرعية، وسفك الدماء المحرمة، فوجه أمير المؤمنين عجيف بن عنبسة مباشرًا لأمره، وداعيًا إلى تلافي ما كان منه، فوثب بعجيف يريد قتله، فقوَّى الله عجيفًا بنيته الصادقة في طاعة أمير المؤمنين حتى دفعه عن نفسه، ولو تم ما أراد بعجيف لكان في ذلك ما لا يستدرك ولا يستقال، ولكن الله إذا أراد أمرًا كان مفعولًا، فلما أمضى أمير المؤمنين حكم الله في علي بن هشام، رأى ألا يؤاخذ من خلفه بذنبه، فأمر أن يُجرَى لولده ولعياله ولمن اتصل بهم ومن كان يجري عليهم مثل الذي كان جاريًا لهم في حياته، ولولا أن علي بن هشام أراد العُظمَى بعجيف لكان في عداد من كان في عسكره ممن خالف وخان كعيسى بن منصور ونظرائه. والسلام.

فأنت ترى من هذا إلى أية درجة من العناية والاهتمام وصلت الدعاوة «البروباجندة» المأمونية.

ولا غرو فقد أفادت المأمون أيَّما إفادة، وقد كان المسلمون بسبب نشاط العباسين في الدعوة لأنفسهم أطوع لهم مما كانوا لبني أمية، واعتقدوا أن خلافتهم تبقى أبد الدهر حتى يأتي السيد المسيح، وغُرس في أذهان الناس بتوالي الأزمان أن الخليفة العباسي إذا قتل اختل نظام العالم، واحتجبت الشمس وامتنع القطر وجف النبات! كل ذلك من أثر عناية العباسيين بالدعاوة لأنفسهم، واهتمامهم أيَّما اهتمام بتبرير تصرفاتهم وتزكية أعمالهم.

ثم انظر ماذا حصل لإبراهيم بن المهدي ترَ أن الدعوة المأمونية أبتْ إلا أن يقعد في دار المأمون لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند، وصيَّر الدعاةُ

المِقْنَعة التي كان متنقِّبًا بها في عنقه، والملحفة التي كان مُلتحفًا بها في صدره ليراه الناس ويعلموا كيف أُخِذ.

وانظر أخيرًا - رعاك الله ووفقك - إلى ما يحدِّثنا به أحمد بن أبي دواد عن كلمة المأمون في هذا الصدد، قال: «قال لي المأمون: لا يستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم، ولا يستطيعون أن ينظروا بالعدل بين الملوك وحُماتهم وكُفاتهم، وبين صنائعهم وبطانتهم، وذلك أنهم يرون ظاهرَ حرمة وخدمة واجتهاد ونصيحة، ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهرًا، حتى يزال الرجل يقول: ما أوقع به إلا رغبة في ماله أو رهبة في بعض ما لا تجود النفوس به، ولعل الحسد والملالة وشهوة الاستبدال اشتركت في ذلك، وهناك خيانات في صلب الملك أو في بعض الحُرَم فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة في الملك، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك الذنب، ولا يستطيع الملك ترك عقابه لما في ذلك من الفساد على علمه بأن عذره غير مبسوط للعامة ولا معروف عند أكثر الخاصة».

(٩) صعوبة مهمة المؤرخ

والحق أنها مهمة صعبة أن تستكشف حقيقة الظالم من المظلوم، والغالب من المغلوب، والهادي والضال في هذه الدولة التي لعبت فيها الأقلام والألسنة دورًا عظيمًا، ولولا ما جنحنا إليه من الاطلاع على شتى المصادر، وقضينا في ذلك تمهيدًا طويلًا ودرسًا مملًّا مُتعبًا، فطالعنا أقوال الأحزاب المتضاربة، ووازنَّا بين كلمة هذا ودفاع ذاك لما كنا بالغين بعض ما بلغناه من إماطة اللثام عن بعض الحقائق التاريخية. وفي هذا القدر الكفاية عن حياة المأمون الخليفة، وآن لنا أن نتكلم عن نواحيه الخلقية.

هوامش

(١) التُّنَّاء «وِزان سُكَّان»: جمع تانئ، والتانئ: الدهقان، انظر القاموس.
(٢) الدهاقين: جمع دهقان، وهو التاجر أو رئيس الإقليم، وهو فارسي مُعرَّب.
(٣) هم ملتزمو جباية الخراج للولاة.
(٤) يرى الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار أن عمل الرشيد هذا لم يكن من قبيل الاستصفاء، وإنما هو من قبيل الإعنات في استيفاء الحقوق.
(٥) يلاحظ الأستاذ النجار أيضًا أن كل ما ذكر في هذا الباب لا يتناول زمن المأمون، وإنما كان ذلك بعده، والرشيد لم يحفظ عليه إلا استصفاء البرامكة حين نكبهم، وأن المأمون رفعت إليه رقعة فيها أن فلانًا مات وترك لورثته كذا وكذا، وكان المال يبلغ الملايين من الدراهم، فكتب في الرقعة: هذا قليل لمن تقلب في دولتنا وطالت خدمته لنا؛ فبارَكَ الله لورثته فيما ترك لهم.

الفصل السابع

شخصية المأمون

(١) توطئة

نريد هنا أن نحلل أخلاق المأمون، ونريد أن نستقصي كل ما قيل عنه، وأن ندرس شتى نواحيه الخلقية بما تستحقه من العناية والتعليق والتوضيح، وسنعتمد فيما سنكتبه على الحوادث وما رواه المعاصرون عنه، ونرجو أن نوفق فيما سنعانيه.

(٢) كرمه وسخاؤه

يقول صاحب النجوم الزاهرة: إنه لم يفرِّق ملك ولا سلطان في يوم واحد مثل ما فرَّقه المأمون يوم ولَّى ولده العباس على الجزيرة؛ إذ أمر لكل من المعتصم والعباس بخمسمائة ألف دينار، وأمر بمثل ذلك لعبد الله بن طاهر.

وقد يكون من نافلة القول أن نذكر أن المأمون كان من أكثر خلفاء العباسيين جودًا وأبسطهم يدًا وأسخاهم نفسًا، بعد أن نرى كتب التاريخ والأدب مُفْعَمة بما كان له من حوادث غريبة في السخاء والجود.

والذي يتتبع ما ذكره المؤرخون من حوادث جوده وفيض إنعامه يرى أن كرم المأمون وسخاءه يرجع إلى عناصر مختلفة في نفسه، فمنها ما يرجع إلى ما في فطرته من أريحية واهتزاز للمعروف، ومنها ما يرجع إليه كسياسي يريد أن يظفر ويتملك القلوب ويوطِّد أركان سلطانه بالمال.

ونحن إذا نظرنا إلى الدوحة الهاشمية التي تفرَّع عنها المأمون، وأنه نشأ في حجر الخلافة في النعيم والترف، ومَن هذا شأنه قلَّ حرصه على المال، وإذا نظرنا أيضًا إلى أنه خاض معمعة سياسية وحربية كان المال من أفعل آلاتها وأبعدها أثرًا - وقد بيَّنَّا لك في العصر الأموي ما كان للمال من أثر قوي في إقامة سلطان بني أمية وتوطيده - لم نر غلوًّا كبيرًا فيما أُترعت به كتب الأدب والتاريخ من حوادث جود المأمون وكرمه، ولننظر فيما يرويه لنا ابن طيفور في هذا السبيل فإنه قال: إن المأمون لما فتح «حصن قُرَّة» وغنم ما فيه اشترى السبي بستة وخمسين ألف دينار، ثم خلَّى سبيلهم وأعطاهم دينارًا دينارًا.

وهاك مثالًا مما يصح أن يكون من آثار أريحية المأمون وإرادته توطيد سلطانه:

يحدثنا ابن الأثير والطبري أن العبسي صاحب إسحاق بن إبراهيم قال: كنت مع المأمون بدمشق وكان قد قل المال عنده حتى أضاق وشكا ذلك إلى أبي إسحاق المعتصم، فقال له: يا أمير المؤمنين، كأنك بالمال وقد وافاك بعد جُمعة، وكان قد حَمل إليه ثلاثين ألف ألف ألف[1] درهم من خراج ما يتولاه له، قال: فلما ورد عليه ذلك المال قال المأمون ليحيى بن أكْثَم: اخرُج بنا ننظر إلى هذا المال، قال: فخرجا حتى أصحرا ووقفا ينظرانه، وكان قد هُيئ بأحسن هيئة، وحُلِّيت أباعره، وألبست الأحلاس الموشَّاة والجلال المصبغة، وقُلِّدت العِهَن، وجعلت البِدَر بالحرير الصيني الأحمر والأخضر والأصفر، وأُبديت رءوسها، قال: فنظر المأمون إلى شيء حسن، واستكثر ذلك فعظُم في عينه، واستشرفه الناس ينظرون إليه ويعجبون منه، فقال المأمون ليحيى:

يا أبا محمد، ينصرف أصحابنا هؤلاء الذين تراهم الساعة خائبين إلى منازلهم، وننصرف بهذه الأموال وقد ملكناها دونهم، إنَّا إذن للئامٌ! ثم دعا محمد بن يزداد فقال له: وقِّع لآل فلان بألف ألف، ولآل فلان بمثلها، ولآل فلان بمثلها، قال: فوالله إن زال كذلك حتى فرَّق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورِجلُه في الرِّكاب ثم قال: ادفع الباقي إلى المعلى يعطي جندنا، قال العبسي: فجئت حتى قمت نُصْب عينه، فلم أردَّ طرفي عنها لا يلحظني إلا رآني بتلك الحال، فقال: يا أبا محمد، وقِّع لهذا بخمسين ألف درهم من ستة آلاف الألف، قال: فلم يأت عليَّ ليلتان حتى أخذت المال.

ومما يدل على كرم نفس المأمون وحسن تبسطه ما رواه القاسم بن محمد الطيفوري قال: شكا اليزيدي إلى المأمون خلة أصابته ودَينًا لحقه فقال: ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تريد، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأمر قد ضاق عليَّ، وإن غرمائي قد أرهقوني، قال: فرُمْ لنفسك أمرًا تنلْ به نفعًا، فقال: لك منادمون فيهم مَن إنْ حرَّكته نلت منه ما أحب، فأطلقْ لي الحيلة فيهم، قال: قل ما بدا لك، قال: فإذا حضروا وحضرت فمُرْ فلانًا الخادم أن يوصل إليك رقعتي، فإذا قرأتها فأرسِل إليَّ: «دخولك في هذا الوقت متعذر، ولكن اختر لنفسك مَن أحببت»، قال: فلما علم أبو محمد بجلوس المأمون واجتماع ندمائه إليه، وتيقن أنهم قد ثملوا من شربهم أتى الباب فدفع إلى ذلك الخادم رقعة قد كتبها، فأوصلها إلى المأمون فقرأها فإذا فيها:

يا خير إخواني وأصحابي   هذا الطفيلي لدى الباب
خُبِّر أن القوم في لذة   يصبو إليها كل أواب
فصيِّروني واحدًا منكم   أو أخرِجوا لي بعض أترابي

قال: فقرأها المأمون على من حضره، فقالوا: ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيلي على مثل هذه الحالة، فأرسل إليه المأمون: «دخولك في هذا الوقت متعذر؛ فاختر لنفسك من أحببت تنادمه» فقال: ما أرى لنفسي اختيارًا غير عبد الله بن طاهر، فقال له المأمون: قد وقع اختياره عليك فسرْ إليه، قال: يا أمير المؤمنين، فما أكون شريك الطفيلي، قال: ما يمكن رد أَبي محمد عن أمرين؛ فإن أحببت أن تخرج وإلا فافتدِ نفسك، فقال: يا أمير المؤمنين، له عليَّ عشرة آلاف درهم! قال: لا أحسبُ ذلك يقنعه منك ومن مجالستك، قال: فلم يزل يزيده عشرة عشرة والمأمون يقول له: لا أرضى له بذلك حتى بلغ مائة ألف، قال: فقال له المأمون: فعجِّلها له، قال: فكتب له بها إلى وكيله ووجه معه رسولاً، فأرسل إليه المأمون: «قبضُ هذه في هذه الحال أصلحُ لك من منادمته على مثل حاله وأنفع عاقبة».

ويتجلى سخاء المأمون مع الوفاء وطيب النفس في موقفه مع غلام سعيد الجوهري الذي كان قد لزَّ بالمأمون في الكُتَّاب، فكان إذا احتاج المأمون إلى محو لوحه بادر إليه فأخذ اللوح من يده فمحاه، وغلب على غلمان المأمون ومسحه وجاء به فوضعه على المنديل في حجره، فلما سار المأمون إلى خراسان وكان من أخيه محمد الأمين ما كان، خرج إليه غلام سعيد هذا فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزيدي، فلما رآه عرفه فدخل فأخبر المأمون، فقال له مستبشرًا بقدومه: لك البشرى! ثم أذن له فدخل عليه، فضحك إليه حين رآه ثم قال: أتذكر وأنت تبادر إلى محو لوحي؟ قال: نعم يا سيدي. فوصله بخمسمائة ألف درهم.

وانظر فيما يحدثنا به الطبري عن محمد بن أيوب قال: إنه كان بالبصرة رجل من بني تميم، وكان شاعرًا ظريفًا خبيثًا ماكرًا، وكنت أنا والي البصرة آنس به

وأستحليه، فأردت أن أخدعه وأستنزله فقلت له: أنت شاعر، وأنت ظريف، والمأمون أجود من السحاب الحافل والريح العاصف، فما يمنعك منه؟ قال: ما عندي ما يُقلُّني، قلت: فأنا أعطيك نجيبًا فارهًا ونفقة سابغة وتخرج إليه وقد امتدحته، فإنك إن حظيت بلقائه صرت إلى أمنيتك، قال: والله أيها الأمير، ما إخالك أبعدتَ فأعِدَّ لي ما ذكرت، قال: فدعوت له بنجيب فارهٍ فقلت: شأنك به فامتطه، قال: هذه إحدى الحسنيين، فما بال الأخرى؟

فدعوت له بثلثمائة درهم وقلت: هذه نفقتك، قال: أحسبك أيها الأمير قصَّرت في النفقة، قلت: لا، هي كافية إن قصرت عن السرف، قال: ومتى رأيت في أكابر سعدٍ سرفًا حتى تراه في أصاغرها؟ فأخذ النجيب والنفقة ثم عمل أرجوزة ليست بالطويلة فأنشدنيها وحذف منها ذكري والثناء عليَّ، وكان ماردًا، فقلت له: ما صنعت شيئًا، قال: وكيف؟ قلت: تأتي الخليفة ولا تثني على أميرك! قال: أيها الأمير، أردت أن تخدعني فوجدتني خدَّاعًا، أما والله ما لكرامتي حملتني على نجيبك ولا جُدتَ لي بمالك الذي ما رامه أحد قط إلا جعل الله خده الأسفل، ولكن لأذْكُرك في شعري وأمدحك عند الخليفة، افهم هذا، قلت: قد صدقت، فقال: أما إذ أبديتَ ما في ضميرك، فقد ذكرتك وأثنيت عليك، قلت: فأنشدني ما قلت، فأنشدنيه، فقلت: أحسنت.

ثم ودَّعني وخرج فأتى الشام وإذا المأمون «بسلغوس»، قال: فأخبرني قال: بينا أنا في غزاة قرة قد ركبت نجيبي ذاك، ولبست مقطعاتي وأنا أروم العسكر، فإذا أنا بكهل على بغل فارهٍ ما يقر قراره ولا تدرك خُطاه، قال: فتلقاني مكافحة ومواجهة وأنا أردد نشيد أرجوزتي، فقال: سلام عليكم -

بكلام جهوري ولسان بسيط - فقلت: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته! قال: قف إن شئتَ، فوقفتُ، فتضوَّعت منه رائحة العنبر والمسك الأذفر، فقال: ما أوَّلك؟ قلت: رجل من مُضر، قال: ونحن من مضر، ثم قال: ثم ماذا؟ قلت: رجل من بني تميم، قال: وما بعد تميم؟ قلت: من بني سعد، قال: هيه! فما أقدمك هذا البلد؟ قال: قصدت هذا الملك الذي ما سمعت بمثله أندى رائحة، ولا أوسع راحة، ولا أطول باعًا، ولا أمد يفاعًا، قال: فما الذي قصدته به؟ قلت: شعر طيب يلذ على الأفواه وتقتفيه الرواة ويحلو في آذان المستمعين، قال: فأنشدنيه، فغضبتُ وقلت: يا ركيك! أخبرتك أني قصدت الخليفة بشعر قلته ومديح حبَّرته، تقول أنشدنيه! قال: فتغافل والله عنها وتطامن لها وألغى عن جوابها، قال: وما الذي تأمل منه؟ قلت: إن كان على ما ذُكِر لي عنه فألف دينار، قال: فأنا أُعطيك ألف دينار إن رأيت الشعر جيدًا والكلام عذبًا، وأضع عنك العناء وطول الترداد، ومتى تصل إلى الخليفة وبينك وبينه عشرة آلاف رامح ونابل؟ قلت: فلي الله عليك أن تفعل، قال: نعم، لك الله عليَّ أن أفعل، قلت: ومعك الساعة مال؟ قال: هذا بغلي، وهو خير من ألف دينار، أنزل لك عن ظهره، قال: فغضبت أيضًا وعارضني نَزَق سَعْد وخفَّة أحلامها، فقلت: ما يساوي هذا البغل هذا النجيب، قال: فدع عنك البغل، ولك الله عليَّ أن أعطيك الساعة ألف دينار، قال: فأنشدته:

مأمون يا ذا المنن الشريفهْ	وصاحب المرتبة المنيفهْ
وقائد الكتيبة الكثيفه	هل لك في أرجوزة طريفه
أظرف من فقه أبي حنيفه	لا والذي أنت له خليفه

ما ظلمت في أرضنا ضعيفه　　أميرنا مُؤنته خفيفه
وما اجتبى شيئًا سوى الوظيفه　　فالذئب والنعجة في سقيفه
واللص والتاجر في قطيفه

قال: فوالله ما عدا أن أنشدته، فإذا زُهاء عشرة آلاف فارس قد سدوا الأفق، يقولون: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته!

قال: فأخذني أُفْكَل[٢] ونظر إليَّ بتلك الحالة فقال: لا بأس عليك أي أخي.

قلت: يا أمير المؤمنين، جعَلني الله فداءك، أتعرف لغات العرب؟

قال: إي لعَمْرُ الله!

قلت: فمن جعل الكاف منه مكان القاف؟

قال: هذه حِمْير.

قلت: لعنها الله ولعَن من استعمل هذه اللغة بعد اليوم!

فضحك المأمون وعلم ما أردتُ، والتفت إلى خادم إلى جانبه فقال: أعْطِه ما معك، فأخرج إليَّ كيسًا فيه ثلاثة آلاف دينار.

فقال: هاك، ثم قال: السلام عليك ومضى، فكان آخر العهد به.

أما عن كرم نفسه، فإن ابن طيفور يحدثنا أن مخارقًا قال: كنا عند المأمون أنا والمغنون بدمشق وعريب معنا.

فقال: غنِّ يا مخارق.

فقلت: أنا محموم.

فقال: يا عريب، جسيه.

فرفعت يدها إلى عضدي، فقال لها المأمون: قد اشتهيته، تحبين أن أزوجك؟

قالت: نعم!

فقال: من تريدين؟

قالت: هذا، وأومأت إلى محمد بن حامد، فقال: اشهدوا أني قد زوَّجتها منه، ثم انظر ما يستطرد به مخارق من أن المعتصم لما وَلِي كتب إلى إسحاق ابن إبراهيم أن: مُر محمد بن حامد أن يُطلِّق عريبًا، فأمره فتأبى، فكتب إليه أن: اضربه، فضربه بالمقارع حتى طلقها، ففي هذه الرواية ما يساعد على الوصول إلى تنظير في هذه الناحية بين المأمون وأخيه المعتصم.

أما كرم بطانته واقتفاؤهم أثره وترسمهم خطواته، فإن الحديث في ذلك يطول، وقصارانا أن نحيل إلى ما فعل طلحة بن طاهر وعبد الله بن طاهر وغيرهما، فاطلب ذلك في مظانه.

وبعد، فإنه لمن الجميل الممتع حقًّا أن يكون الملك كريمًا بسجيته، جوادًا بنزعته، وقد يكون أجمل وأمتع وأبلغ وأوقع أن يكون من وراء فواضله وإنعاماته تشجيع الكفايات على الظهور، واستحثاث أصحاب الهمم والعزمات، والمواهب والعبقريات، وعلى التبريز والإحسان، والإجادة والإتقان خدمةً لبني الإنسان ورفعة للأوطان.

(٣) كيف تملك المأمون قلوب بطانته؟

نريد أن نترك الكلمة في تصوير هذه الناحية لما يرويه لنا ولاة المأمون أنفسهم، فقد قال رجل من إخوة المأمون للمأمون: يا أمير المؤمنين، إن عبد الله بن طاهر يميل إلى ولد أبي طالب، وكذا كان أبوه قبله، فدفع المأمون ذلك وأنكره، ثم عاد بمثل هذا القول، فدس إليه رجلًا ثم قال له: امض في هيئة القُرَّاء والنُّساك إلى مصر، فادع جماعة من كبرائها إلى القاسم

ابن إبراهيم بن طباطبا، واذكر مناقبه وعلمه وفضائله، ثم صِرْ بعد ذلك إلى بعض بطانة عبد الله بن طاهر، ثم ائته فادعه ورغِّبه في استجابته له، وابحث عن دفين نيته بحثًا شافيًا، وائتني بما تسمع منه.

قال: ففعل الرجل ما قال له وأمره به، حتى إذا دعا جماعة من الرؤساء والأعلام قعد يومًا بباب عبد الله بن طاهر وقد ركب إلى عبيد الله بن السري بعد صلحه وأمانه، فلما انصرف قام إليه الرجل فأخرج من كُمِّه رقعة فدفعها إليه، فأخذها بيده، فما هو إلا أن دخل فخرج الحاجب إليه، فأدخله عليه وهو قاعد على بساطه ما بينه وبين الأرض غيره، وقد مد رجليه وخُفَّاه فيهما.

فقال له: قد فهمت ما في رقعتك من جملة كلامك، فهات ما عندك.

قال: ولي أمانك وذمة الله معك؟

قال: لك ذلك.

قال: فأظهر له ما أراد ودعاه إلى القاسم فأخبره بفضائله وعلمه وزهده.

فقال له عبد الله: أتنصفني؟

قال: نعم.

قال: هل يجب شكر الله على العباد؟

قال: نعم.

قال: فهل يجب شكر بعضهم لبعض عند الإحسان والمنة والتفضل؟

قال: نعم.

قال: فتجيء إليَّ وأنا في هذه الحال التي ترى؛ لي خاتم في المشرق جائز وفي المغرب كذلك، وفيما بينهما أمري مطاع وقولي مقبول، ثم ما التفتُّ

يميني ولا شمالي وورائي وقدامي إلا رأيت نعمة رجل أنعمها عليَّ، ومنة ختم بها رقبتي، ويدًا لائحة بيضاء ابتدأني بها تفضلًا وكرمًا، فتدعوني إلى الكفر بهذه النعمة وهذا الإحسان، وتقول: اغدر بمن كان أولًا لهذا وآخرًا، واسعَ في إزالة خيط عنقه وسفك دمه! تراك لو دعوتني إلى الجنة عيانًا من حيث أعلم أكان الله يحب أن أغدر به، وأكفر إحسانه ومنته، وأنكث بيعته! فسكت الرجل، فقال له عبد الله: أما إنه قد بلغني أمرك، وتالله ما أخاف عليك إلا نفسك، فارحل عن هذا البلد فإن السلطان الأعظم إن بلغه أمرك - وما آمن ذلك عليك - كنتَ الجاني على نفسك ونفس غيرك، فلما أيس الرجل مما عنده جاء إلى المأمون فأخبره الخبر، فاستبشر وقال: ذلك غرسُ يدي، وإلفُ أدبي، وتِرْب تلقيحي، ولم يُظهِر من ذلك لأحد شيئًا ولا علم به عبد الله إلا بعد موت المأمون.

وانظر إلى تلك النصيحة التي تقدم بها عبد الله بن طاهر لمنصور بن طلحة ينهاه عن الكلام في الإمامة؛ إذ يقول: «إنما نبت شعرنا على رءوسنا ببني العباس»، ثم انظر إلى ما كتبه المأمون إلى عبد الله المذكور:

أخي أنت ومولاي ... ومن أشكر نعماه
فما أحببت من أمر ... فإني الدهر أهواه
وما تكره من شيء ... فإني لست أرضاه
لك الله على ذاك ... لك الله لك الله

وانظر إلى ما رواه الطبري عما قاله عبد الله بن طاهر وهو مُحاصِرٌ بمصر عبيد الله بن السري إذ قال:

بكَرتْ تُسبل دمعًا ... أن رأت وشك براحي

وتبدلت صقيلاً يمنيًا بوشاحي
وتماديت بسير لغدو ورواح
زعمت جهلًا بأني تعِبٌ غير مراح
أقصري عني فإني سالك قصد فلاحي
أنا للمأمون عبد منه في ظل جناح
إن يُعاف الله يومًا فقريب مستراحي
أو يكن هُلك فقولي بعويل وصياح
حلَّ في مصر قتيل ودعى عنك التلاحي

ألا يجوز لنا أن نستخلص مما قدمناه لك أن المأمون كان محبوبًا عند بطانته؟ ولسنا ننفي بذلك أن الأمين لم يكن محبوبًا، وأن موته آلم أهل بغداد وجندها، ولا ننكر أن بعضًا من جند طاهر بن الحسين انضم إلى الأمين طمعًا في ماله، وحبًا في سخائه مما بيّناه لك في موضعه، ولكنا الآن بموقف الذين يحللون أخلاق المأمون، وفي عنقنا ألا نترك ناحية من نواحيه من غير أن نَفِيَها حقَّها من البحث، ونعطيها نصيبها من الاستقراء.

وبعد، فإنه مما لا مندوحة للمليك عنه أن يكون وادعًا محببًا إلى بطانته وحاشيته بإحسانه إليهم، وتعهده إياهم بعطفه ورعايته، وأن يحدب عليهم ويرعاهم بعناية تشملهم ألطافها، وتقلد أعناقهم مِنَنها، وتكون أشمل للرعية وأرعى للأفراد لحقِّهم من شخصه الجليل؛ إذ هو ملك للرعية جميعها، على اختلاف ألوانها وتباين مراتبها، وهو عظيم التبعة أمام الله والتاريخ عمن تملَّك عليهم وتولَّى أمر دنياهم وآخرتهم.

(٤) تقديره لرجال الدولة

كان المأمون أكثر توفيقًا من أخيه الأمين في كفاية بطانته، وقدرة قادته، وحزم مشيريه، وبصر ولاته، وكان مع ظفره بالناصحين من خاصته كثيرَ التأمل لما يجري في ملكه من مظاهر الضعف والقوة، حريصًا على تدبر ما يمر به من مختلف الشئون في تعرف الشخصيات القوية التي يرجو أن يستند إليها الملك ويتأيد بها النظام.

ولقد حدثنا الطبري في تاريخه عن إسحاق بن إبراهيم أن المعتصم قال له: يا إسحاق، في قلبي أمر أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة، وإنما بسطتك في هذا الوقت لأفشيه إليك، فقلت: قل يا سيدي يا أمير المؤمنين، فإنما أنا عبدك وابن عبدك، قال: نظرت إلى أخي المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا، واصطنعتُ أنا أربعة لم يفلح أحد منهم، قلت: ومن الذين اصطنعهم أخوك؟ قال: طاهر بن الحسين، فقد رأيتَ وسمعتَ، وعبد الله بن طاهر، فهو الرجل الذي لم ير مثله، وأنت، فأنت والله الذي لا يعتاض السلطان منك أبدًا، وأخوك محمد بن إبراهيم، وأين مثل محمد؟ وأنا فاصطنعت الأفشين، فقد رأيت إلى ما صار أمره، وإشناس ففشل رأيه، وإيتاخ فلا شيء، ووصيفًا فلا مُغني فيه، فقلت: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك، أُجيب عن أمان من غضبك؟ قال: قل، قلت: يا أمير المؤمنين، أعزك الله، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها، واستعمل أمير المؤمنين فروعًا لم تُنجَب؛ إذ لا أصول لها، فقال: يا إسحاق، لمقاساةُ ما مرَّ بي في طول هذه المدة أسهل عليَّ من هذا الجواب.

ولقد كان المأمون، إلى جانب هذه الخبرة بما يحتاج إليه من صفوة الرجال، بصيرًا بما في مملكته من ألوان المكر وصنوف الرياء؛ فقد حدثنا ابن طيفور عن إبراهيم بن المهدي قال: قال المأمون يومًا وفي مجلسه جماعة: هاتوا من عسكرنا من يطلب ما عندنا بالرياء، قال: فقال كل واحد بما عنده؛ إما أن يقول في عدو بما يقدح فيه، أو يقول بما يعلم أنه يسر خليفته، فلما قالوا ذلك قال: ما أرى عند أحد منكم ما يبلغ إرادتي، ثم أنشأ يحدث عن أهل عسكره أهل الرياء، حتى والله لو كان قد أقام في رَحْل كل واحد منهم حولًا محرمًا ما زاد على معرفته، قال: فكان مما حفظت عنه في ثَلْب أصحابه أن قال حين ذكر أهل الرياء وما يعاملون به الناس: تسبيح حميد الطوسي، وصلاة قحطبة، وصيام النوشجاني، ووضوء المريسي، وبناء مالك بن شاهي المساجد، وبكاء إبراهيم بن بريهة على المنبر، وجمع الحسن بن قريش اليتامى، وقصص منجى، وصدقة علي بن الجنيد، وحملان إسحاق بن إبراهيم في السبيل، وصلاة أبي رجاء الضحى، وجمع علي بن هشام القصاص، قال: حتى عددنا جماعة كثيرة، فقال لي رجل من عظماء العسكر حين خرجنا من الدار: بالله هل رأيت أو سمعت بملك قط أعلم برعيته ولا أشد تنقيرًا من هذا؟ قلت: اللهم لا! فحدث بهذا الحديث رجلًا من أصحاب الأخبار والعلم، فقال: وما نصنع بهذا؟ قد شهدت رسالته إلى إسحاق بن إبراهيم في الفقهاء يخبر بمعايبهم رجلًا رجلًا، حتى لهو بها أعلم منهم بما في منازلهم.

وإن في ذيوع هذه الأخبار عن المأمون دليلًا على عنايته بنشر دعوة الملك الموطد الذي ييأس المخاتلون من التنكر له والخروج عليه، فإن ظهور الملوك بالنفاذ إلى سرائر الرعية، يزيدهم قوة إلى قوة وسلطانًا إلى سلطان.

وإنا إذا نظرنا إلى من استوزره وأعلى مكانه واستخلصه لنفسه من رجالات دولته وقواد ملكه؛ لم نتردد في الحكم للمأمون وأنه كان الموفق المسدد في اختيار أهل الكفايات والنبوغ.

وقد كان إلى جانب هذا يقدر الكفاية في خصومه، ونظرة فيما رواه ابن طيفور عن الحسن بن عبد الخالق خاصًّا برأي المأمون في الفضل بن الربيع، وهو الذي تعلم مقدار إساءته إليه، تدلك على هذا، فقد قال المأمون في معرض الحديث عن الفضل:

كان يدبر الخطأ فيقع صوابًا، ويبعث بالجيش الضعيف فيقع به النصر، وأدبر أنا فيقع بغير ذلك، فلما وقفت على البصيرة من أمري، وفكَّرت في نفسي، وعملت بالأحزم في ذلك ملت إلى الحزم فوردت العراق. وإن الفضل بن الربيع بقية الموالي، فلا تخبره بذلك عني؛ فإني أكره أن يبلغه عني ما يسره.

ويؤيد صحة هذه الرواية ما ذكره بشر السلماني من المعاصرين إذ يقول: «سمعت أحمد بن أبي خالد يقول: كان المأمون إذا أمرنا بأمر فظهر من أحدنا فيه تقصير يقول: أترون أني لا أعرف رجلًا ببابي لو قلدته أموري كلها لقام بها؟ فقال بشر: فقلت لأحمد بن أبي خالد: يا أبا العباس، مَن يعني؟ قال: الفضل بن الربيع».

ويظهر أن خطة المأمون في تقدير الكفايات أنَّي وُجدتْ قد اتبعها قادة المأمون نفسه، فإن ابن طيفور يحدثنا أنه لما وُلِّي طاهر بن الحسين على شرطة المأمون سنة أربع ومائتين، وكان عليها من قبلُ العباس بن المسيب بن زهير، كتب طاهر إلى الفضل بن الربيع: «إن في رأيك البركة، وفي مشورتك

الصواب، فإن رأيت أن تختار لي رجلين للجسر!» فكتب إليه ابن الربيع: «قد وجدتهما لك، وهما: خيار السندي بن يحيى، وعياش بن القاسم». فولَّاهما طاهرٌ الجسرين.

وبعد، فإنا نظن أن في هذا القدر الكفاية لإثبات ما كان من تقدير المأمون ورجاله لأهل الكفاية والاقتدار، وحرصهم على استعمال أصحاب المواهب، والاستعانة بهم وبكفاياتهم في خدمة الدولة.

(٥) قدره للشجاعة الأدبية

كان المأمون يرضيه أن يكون الرجل نقي السريرة، رابط الجأش، يُقدم على كلمة الحق غير هياب، وقد حدثنا ابن أبي طاهر طيفور عمن روى عنه قال: «حدثني أحمد بن أبي خالد الأحول بخراسان فيما كان يخبرني به عن كرم المأمون وفضله واحتماله وحسن معاشرته، أنه سمع المأمون يومًا وعنده علي بن هشام وأخواه أحمد والحسين ذكَر عمرو بن مسعدة فاستبطأه، وقال: أيحسب عمرو أني لا أعرف أخباره وما يُجبي إليه وما يعامل به الناس؟ بلى والله، ثم بعثه ألا يسقط علي منه شيء! ونهض وانصرفنا، فقصدت عمرًا من ساعتي فخبرته بما جرى، وأُنسيتُ أن أستحلَّه من حكايته عني، فراح عمرو إلى المأمون، فظن المأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم؛ لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة، فأذن له، فخبرني عمرو أنه لما دخل عليه وضع سيفه بين يديه وقال: يا أمير المؤمنين، أنا عائذ بالله من سخطه، ثم عائذ بك من سخطك يا أمير المؤمنين، أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد، أو يُسرَّ عليَّ ضغنًا يبعثه بعض الكلام على إظهاره ما يظهر منه!

فقال لي: وما ذاك؟ فخبَّرته بما بلغني ولم أُسمِّ له مُخبري، فقال لي: لم يكن الأمر كما بلغك، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به، وإنما أخرج مني ما أخرج معنًى تجاريناه، وليس لك عندي إلا ما تُحب، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك. فأعدت الكلام، فما زال يسكن مني ويطيب من نفسي حتى تحلَّل بعض ما كان في قلبي، ثم بدأ فضمني إلى نفسه، وقبلت يده، فأهوى ليعانقني فشكرته، وتبينت في وجهه الحياء والخجل مما تأدَّى إليَّ، قال أحمد: فلما غدوت على المأمون قال لي: يا أحمد، أما لمجلسي حرمة؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، وهل الحُرم إلا لما فصل عن مجلسك! قال: ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم! قلت: وأية معاملة يا أمير المؤمنين؟ هذا كلام لا أعرفه، قال: بلى، أما سمعت ما كنا فيه أمس من ذكر عمرو؟ ذهب بعض من حضر من بني هاشم فخبره به، فراح إلي عمرو مظهرًا منه ما وجب عليه أن يُظهره، فدفعت منه ما أمكن دفعه، وجعلت أعتذر إليه منه بعذر قد تبين فيَّ الخجل منه، وكيف يكون اعتذار إنسان من كلام قد تكلم به إلا كذلك يتبين في عينيه وشفتيه ووجهه، ولقد أعطيته ما كان يقنع مني بأقل منه، وما حداني عليه إلا ما دخلني من الخساسة، وإنما كان نطق به اللسان عن غير روية ولا احتمال مكروه به، فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أخبرت عمرًا به لا أحد من ولد هاشم، فقال: أنت! قلت: أنا، فقال: ما حملك على ما فعلت؟ فقلت: الشكر لك والنصح والمحبة لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء، فكيف الأولياء والأقرباء؟ ولا سيما مثل عمرو في دنوه من الخدمة، وموقعه من العمل ومكانه من رأي أمير المؤمنين، أطال

الله بقاءه. سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئًا، فخبرته به ليصلحه ويقوم من نفسه أوَدها لسيده ومولاه، ويتلافى ما فرَط منه ولا يفسده مثله ولا يبطل العناء فيه، وإنما كان يكون ما فعلت عيبًا لو أشعت سرًّا فيه قدح في السلطان، أو نقضُ تدبير قد استتبَّ، فأما مثل هذا فما حسبته يبلغ أن يكون ذنبًا عليَّ، فنظر إلي مليًّا ثم قال: كيف قلتَ؟ فأعدت عليه، ثم قال: أعد، فأعدت الثالثة، فقال: أحسنت والله يا أحمد، لما خبَّرتني به أحب إلي من ألف ألف وألف ألف وألف ألف! وعقد خنصره وبنصره والوسطى ثم قال: أما ألف ألف فلنفيك عني سوء الظن، وأطلق وسطاه، وأما ألف ألف فلصدقك إياي عن نفسك، وأطلق البنصر، وأما ألف ألف فلحسن جوابك، وأطلق الخنصر، وأمر لي بمال».

وهذه الشجاعة من أتباع المأمون تدلنا على ما كان فيه من الاستعداد لقدر كرائم الخلال، فلو أنه كان معروفًا بالاستبداد لما أمكن هذه النفوس أن تبلغ ما كانت تطمح إليه من النبل والكرامة، وفي استماعه لاحتجاج جليسه حرصٌ على استبقائه واستكناه ما في نفسه، فضلًا عما يتوقعه من عواقب هذا التشجيع المقصود من التفاف حول شخصه، وتفانٍ في الوفاء له، وإمعان في خدمته وخدمة بلاده، خدمة الحر للحر بباعث وجداني، لا خدمة العبد للسيد بعامل الإرهاب والإكراه. ولن تكون الخدمة الخالصة للبلاد بالإرهاب والإكراه، ولن تكون خدمة الملوك على وجهها الصحيح بدافع العسف والإعنات، وإنما يكون ذلك جميعه بحسن الصنيع وجميل الأثر، والإحسان بالقول والفعل، وصفاء النفوس من عوامل البغضاء والغل والعدوان.

ثم انظر فيما يرويه لنا أبو الشماخ قال: قال لي المأمون وعنده الزيدي والنقفي مولى الخيزُران، وإسماعيل بن نَوبَخْت، وتذاكروا الشعراء فقالوا: النابغة وقالوا: الأعشى وخاضوا فيهم، فقال: لا أشعرهم إلا واحدًا كان خليعًا؛ الحسن بن هانئ، فقالوا: صدق أمير المؤمنين، قال: الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة، فقالوا: فبم قدمته؟ قال بقوله:

يا شقيق النفس من حكم ... نمت عن ليلى ولم أنم

ثم لم يسبقه إلى هذا البيت أحد:

ثم دبت في عروقهم ... كدبيب البرء في السَّقَم

وفي عبارة «الصدق على المناظرة أحسن من الصدق على الهيبة» دلالة على رغبته في إحياء الغرائز الأدبية التي تُميتها المصانعة، ويقبرها الرياء، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن تقديمه ابن هانئ لتجويده في وصف الراح له دلالته وله مغزاه، فهو يدل إلى حد غير قليل إلى جانب ما علمناه عن المأمون؛ أصيد الهمة، مستحصد العزم، على أنه كان في أوقات أنسه ومرحه الرجل المرح الطروب الذي يتذوق المعاني الفرحة وما لها من مجاملات وأفانين.

وبعد، فإن تربية الشعوب على قدر كرامتها الخاصة ورفعة شأنها بين الأمم لتتطلب تعهدًا خاصًّا ممن يتولى أمرها في هذا السبيل، فيعمل على أن يُحسَّ الأفراد والحكام ممن هم في عنقه وتحت هيمنته ما لهم من مكانة ومنزلة، وما لآرائهم وتصرفاتهم من احترام وقدر، أخذًا لهم بالشجاعة في المجاهرة بمعتقداتهم، وتنمية للروح الذي تفيده هذه الألفاظ «حرية، إخاء، مساواة» في نفوسهم، وإن في انتهاجهم هذا السبيل لأجلَّ خدمة لممالكهم وشعوبهم وعروشهم.

(٦) عدله وإنصافه

كان المأمون عدلًا منصفًا إلى حد بعيد، وقد عرف فيه الناس هذه الخلة، فكانوا يطمعون في أنصاره والمقربين إليه، ويجهرون بالشكوى من كل من يسوءهم طمعه أو ينفذ إليهم عدوانه.

حدث بعض المعاصرين قال: «شهدت المأمون وقد ركب بالشماسية وخلف ظهره أحمد بن هشام، فصاح به رجل من أهل فارس: الله الله يا أمير المؤمنين! فإن أحمد بن هشام ظلمني واعتدى عليَّ، فقال: كن بالباب حتى أرجع، ثم مضى، فلما جاز الموضع بعُدوة التفت إلى أحمد فقال: ما أقبح بنا وبك أن نقفك وصاحبك هذا رءوس هذه الجماعة، ويقعد في مجلس خصمك، ويسمع منه كما يسمع منك، ثم تكون محقًّا، ثم تكون مبطلًا، فكيف إن كنت في صفته لك، فوجِّه إليك من يُحوِّله من بابنا إلى رَحْلِك، وأنصفه من نفسك، وأعطه ما أنفق في طريقه إلينا، ولا تجعل لنا ذريعة إلى ما تكره من لائمتك، فوالله لو ظلمت العباس ابني كنت أقل نكيرًا عليك من أن تظلم ضعيفًا لا يجدني في كل وقت ولا مَجْلوًّا له وجهي، وسيما من تجشم السفر البعيد وكابد حرَّ الهواجر وطول المسافة».

قال المحدث المعاصر: فوجه إليه أحمد فجاء به وكتب إلى عامله يرد عليه ما أخذ منه، ويشتمه ويعنفه، ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم وأمره بالخروج من يومه.

وهناك الكثير من هذا المثل؛ كموقفه مع موسى بن الحسن وإنصافه بأن أخذ حقه من محمد بن أبي العباس الطوسي، وموقفه مع النصراني الذي من أهل[٣] كَشْكَر.

ثم انظر موقفه المشرف له وللقضاء في أيامه؛ فقد قالوا: إن رجلًا دخل على المأمون وفي يده رقعة فيها مظلمة من أمير المؤمنين، فقال: أمظلمة مني؟ فقال الرجل: أفأُخاطبُ يا أمير المؤمنين سواك؟ قال: وما هي ظلامتك؟ قال: إن سعيدًا وكيلك اشترى مني جواهر بثلاثين ألف دينار، قال: فإذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظلامة مني! قال: نعم، إذ كانت الوكالة قد صحَّت له منك! قال: لعل سعيدًا قد اشترى منك الجوهر وحمل إليك المال أو اشتراه لنفسه، وعليه فلا يلزمني لك حق، ولا أعرف لك ظلامة، فقال له - بعد كلام طويل: إن في وصية عمر بن الخطاب لقضاتكم: «البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر»، قال المأمون: إنك قد عَدِمت البينة، فما يجب لك إلا حَلْفة، ولئن حلفتها لأنا صادق إذ كنت لا أعرف لك حقًّا يلزمني، قال: فإذن أدعوك إلى القاضي الذي نصبته لرعيتك، قال: نعم، يا غلام، عليَّ بيحيى بن أكثم، فإذا هو قد مثَل بين يديه، فقال له المأمون: اقضِ بيننا! قال: في حكم وقضية؟ قال: نعم، قال: إنك لم تجعل ذلك مجلس قضاء، قال: قد فعلت، قال: فإني أبدأ بالعامة أولًا ليصلُح المجلس للقضاء، قال: افعل، ففتح الباب وقعد في ناحية من الباب وأذن للعامة، ثم دُعي بالرجل المتظلم فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول أن تدعو بخصمي أمير المؤمنين المأمون، فنادى المنادي، فإذا المأمون قد خرج ومعه غلام يحمل مصلًّى حتى وقف على يحيى وهو جالس، فقال له: اجلس، فطرح المصلى ليقعد عليها، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين، لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، فطُرح له مُصلًى آخر، ثم نظر في دعوى الرجل، وطالب المأمون باليمين فحلف، ووثب يحيى بعد

فراغ المأمون من يمينه فقام على رجليه، فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنت في حق الله جل وعز حتى أخذته منك، وليس الآن من حقي أن أتصدر عليك، ثم أمر المأمون أن يحضر ما ادَّعى الرجل من المال، فقال له: خذه إليك، والله ما كنت أحلف على فَجْرة ثم أسمح لك فأفسد ديني ودنياي، والله يعلم ما دفعت إليك هذا المال إلا خوفًا من هذه الرعية، لعلها ترى أني تناولتك من وجه القدرة، وإنها لتعلم الآن أني ما كنت أسمح لك باليمين وبالمال.

ويحق لنا أن نستنبط من هذا الموقف قيمة القضاء في تلك الأيام، واحترام الخلفاء أو من يَمُتُّ إلى الخلفاء لشعائره وأحكامه، ولا نستبعد البتة صحة تلك الرواية؛ لأن تصرفات المأمون العباسي تجعلنا نقرها ونؤمن بصدقها من جهة، ولأنا قرأنا شبيهاتها من جهة أخرى، فقد قيل: إن إبراهيم بن المهدي تنازع وابن بختيشوع الطبيب بين يدي أحمد ابن أبي دُوَاد في مجلس الحكم في عقار بناحية السواد، فأربى عليه إبراهيم وأغلظ، فأحفظ ذلك ابن أبي دُوَاد فقال: يا إبراهيم، إذا نازعت في مجلس الحكم بحضرتنا امرأً فلا أعلمن أنك رفعت عليه صوتًا ولا أشرتَ بيد، وليكن قصدك أممًا وريحُك ساكنة، وكلامك معتدلًا، ووفِ مجالس الخليفة حقوقها من التعظيم والتوقير والاستكانة والتوجه إلى الواجب، فإن ذلك أشكل بك وأشمل لمذهبك في محتدك وعظيم خطره، ولا تعجلنَّ؛ فرب عجلة تهب ريثًا، والله يعصمك من خطل القول والعمل، وأن يتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل، إن ربك حكيم عليم، فقال إبراهيم: أصلحك الله تعالى، أمرت بسداد وحضضت على رشاد، ولست عائدًا لما

يَثلِم مروءتي عندك، ويُسقطني من عينيك، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار، فهأنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقر بذنبه معترف بجرمه، ولا يزال الغضب يستفزني بمواده، فيردني مثلك بحلمه، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك، وقد جعلت حقي من هذا العقار لابن بختيشوع؛ فليت ذلك يكون وافيًا بأرش الجناية عليه، ولم يتلف مال أفاد موعظة، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

فترى مما قدمناه لك مبلغ سلطان القضاء وحرمته عند البيت المالك.

وقد يكون أجمل من هذا كله - فيما لو صح - ذلك الموقف الروائي الذي تقدمت إلى المأمون فيه امرأة تشكو ظلم ابنه العباس؛ فقد شكت إليه بأبيات رقيقة فلم يسعه إلا أن يعدها الإنصاف بأبيات رقيقة على الوزن والقافية، وكانت تلك الأبيات في خفتها وجودة الخاطر بها في ساعتها بردًا وسلامًا على قلب تلك المرأة المظلومة.

قال الشيباني: جلس المأمون يومًا للمظالم، فكان آخر من تقدم إليه وقد همَّ بالقيام امرأة عليها هيئة السفر، وعليها ثياب رثة، فوقفت بين يديه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم، فقال لها يحيى: وعليك السلام يا أمة الله، تكلمي في حاجتك، فقالت:

يا خير منتصف يُهدى له الرشد ... ويا إمامًا به قد أشرق البلد
تشكو إليك عميد القوم أرملة ... عدا عليها فلم يترك لها سبَد
وابتزَّ منِّي ضياعي بعد مَنْعَتها ... ظلمًا وفُرِّق مني الأهل والولد

فأطرق المأمون حينًا ثم رفع رأسه إليها وهو يقول:

في دون ما قلت زال الصبر والجلد عني وأقرح مني القلب والكبد
هذا أذان صلاة العصر فانصرفي وأحضري الخصم في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت إن يُقض الجلوس لنا ننصفك منه وإلا المجلسُ الأحد

فلما كان اليومُ الأحدَ جلس، فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: وعليك السلام، أين الخصم؟ فقالت الواقف على رأسك يا أمير المؤمنين. وأومأت إلى العباس ابنه، فقال لأحمد بن أبي طالب: خذ بيده فأجلسه معها مجلس الخصوم، فجعل كلامُها يعلو كلام العباس، فقال لها أحمد بن أبي طالب: يا أمة الله، إنك بين يدي أمير المؤمنين، وإنك تكلمين الأمير، فأخفضي من صوتك، فقال المأمون: دعها يا أحمد، فإن الحق أنطقها وأخرسه، ثم قضى لها برد ضيعتها إليها، وظلم العباس بظلمه لها، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوفر لها ضيعتها ويحسن معاونتها، وأمر لها بنفقة.

وبعد فإن المؤرخ المنصف لجدير به أن يقف أمام هذه المثل العليا وقفة احترام وإجلال، وعظة واعتبار، وأن يرغب رغبة صادقة في إذاعة هذه المثل ونشرها، والعمل على تداولها وذكرها؛ لأنها قدوة صالحة لحملة التيجان في إنصاف زميلهم الإنسان، وإن قُدس العدالة لواجب احترامه، وأحق الناس باحترامه هم الولاة وحملة التيجان، وإن في شعور الرعية وعامة الناس بأنهم وحكامهم سواسية لمدعاة للرضا والاغتباط، والإمعان في خدمة الأوطان، والذب بأرواحهم وقلوبهم عن الملوك وأصحاب السلطان.

(٧) عفوه

كان المأمون مضرب المثل في العفو حتى لقد كان يَخشَى أن لا يؤجر عليه؛ إذ صار فطرة فيه، وأظرف أنواع عفوه تغاضيه عما كان يحدث في قصره.

قالت شُكْر مولاة أم جعفر بنت جعفر بن المنصور: سمعت المأمون أمير المؤمنين وكانت عنده أم جعفر فدعا بمقاريض،[٤] فقال الغلام: قد ذُهِب بالمقاريض إلى الشمَّاسية، ثم قال: يا غلام، بُلَّ لنا الخَيْش[٥] فوق، فقال الغلام: لا، قال: يُبَلّ، فقالت أم جعفر: سبحان الله يا أمير المؤمنين! ما هذا؟ وأنكرتْ أن يكون سأل عن شيئين فلم يُعملا، فقال المأمون: من قدرت على عقوبته لسوء فعله وقبيح جرمه، فقدرتك عليه كافيتُك نصرًا لك منه، ولا معنى لعقوبة بعد قدرة، الحلم عن الذنب أبلغ من الأخذ به.

وهو هنا يعلل العفو تعليلًا مقبولًا جديرًا بأن يكون درسًا في الأخلاق.

ثم انظر مبلغ عفوه وحلمه وسماحة نفسه فيما يرويه أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر طيفور في كتابه، قال: «كان للمأمون خادم يتولى وضوءه، فكان يسرق طِساسَه، فبلغ ذلك المأمونَ فعاتبه، ثم قال له يومًا وهو يُوضِّئه: ويحك! لِمَ تَسرقُ هذه الطِّساسَ؟ لو كنت إذا سرقتها أتيتي بها اشتريتُها منك! قالَ: فاشتر هذا الذي بين يديك! قال: بكم؟ قال: بدينارين، قال المأمون: أعطوه دينارين، قال: هذا الآن في الأمان».

ومهما يكن على هذه الرواية من مسحة المبالغة، أو أنها أقصوصة أكثر منها حقيقة، فإن طبيعة المأمون وسجيته وجنوحه إلى العفو وأخذه بالحلم لما يؤيد لبابها وعصارتها، ويقرر جوهرها وخلاصتها، ولما يصدق فيه قول من قال له:

أمير المؤمنين عفوت حتى كأن الناس ليس لهم ذنوب

أما حديث حلمه مع عمه إبراهيم بن المهدي فمتعارف مشهور، ومُذاع مذكور، فقد أبى إبراهيم أن يبايعه ثم ذهب إلى الري وادعى فيها الخلافة لنفسه، وأقام مالكها سنة وأحد عشر شهرًا واثني عشر يومًا، والمأمون يتوقع منه الانقياد إلى الطاعة، والانتظام في سلك الجماعة، حتى يئس من عوده، فركب بخيله ورَجْله، وذهب إلى الري وحاصر المدينة وافتتحها، فهرب إبراهيم وتنكر ثم أخذ بعد لأْي، وقدم إلى المأمون في زي امرأة، فلما مثَل بين يديه سلَّم عليه بالخلافة، فقال المأمون: لا سلَّم الله عليك، ولا حيَّاك ولا رعاك! فقال إبراهيم: مهلًا يا أمير المؤمنين، إن وليَّ الثأر محكَّم في القصاص، ولكن العفو أقرب للتقوى، ومَن تناوله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الشقاء، أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب، كما جعل كل ذي ذنب دونك، فإن أخذت فبحقك، وإن عفوت فبفضلك، ثم أنشد:

ذنبي إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أوْ لَا فاصفح بفضلك عنه
إن لم أكن في فعالي من الكرام فكُنْه

فقال المأمون: شاورتُ أبا إسحاق والعباس في قتلك فأشارا به، فقال: فما قلت لهما يا أمير المؤمنين؟ قال المأمون: قلت لهما: نبدؤه بإحسان، ونستأمره فيه، فإن غيَّر فالله يُغيِّر ما به، قال: أمَّا أن يكونا قد نصحا في عظيم بما جرَتْ عليه السياسية فقد فعلا، وبلغا ما يلزمهما، وهو الرأي السديد،

ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيثُ عوَّدك الله، ثم استعبر باكيًا، فقال له المأمون: ما يُبكيك؟ قال: جذَلًا إذ كان ذنبي إلى مَن هذه صفته في الإنعام، ثم قال: إنه وإن كان قد بلغ جرمي استحلال دمي، فحلم أمير المؤمنين وفضله يبلغانني عفوه، ولي بعدهما شفاعة الإقرار بالذنب، وحق الأُبوَّة بعد الأب، فقال المأمون: يا إبراهيم، لقد حُبِّب إليَّ العفو حتى خفت ألا أُؤجَر عليه. أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقربوا إلينا بالجنايات! لا تثريب[٦] عليك، يغفر الله لك، ولو لم يكن في حق نسبك ما يبلِّغ الصفح عن جرمك، لبلَّغك ما أمَّلت حسنُ تفضلك ولطفُ توصُّلك، ثم أمر برد ضياعه وأمواله، فقال إبراهيم:

رددت مالي ولم تبخل علي به ... وقبل ردك مالي قد حقنت دمي
وقام علمك بي فاحتج عندك لي ... مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به ... والمال حتى أسُلَّ النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية سلفت ... لو لم تَهَبْها لكنتَ اليوم لم تُلَم

وبعد، فشدَّ ما يحتاج الولاة والقادة والزعماء إلى خلة العفو والإحسان في حزم وحسن مواتاة؛ ليستلوا من القلوب عداوتها، وليستأصلوا من النفوس سخيمتها، وليضمنوا من الرعية والأتباع الإخلاص المحض والود الصحيح.

(٨) احتماله

ومن الدلائل على صلاحية المأمون لما أعدته له الأيام اتصافه بالاحتمال الذي لا يقوم الملك إلا به، ولا تسير الأمور بدونه، وهو خُلقٌ يراه البعض سماحة، ونراه من المأمون سياسة هي من الصميم في آداب

الملوك، وإنه ليحتمل حتى لتحسبه من الغافلين، ولكن الرجل كان يعرف أن للمُلك مصاعب ومتاعب أقلُّها مداراة الناس، والنزول لهم عن بعض ما يشتهون.

روى بعضهم عن قثم بن جعفر أنه قال: قال المأمون في يوم الخميس، وقد حضر الناس الدار، لعلي بن صالح: ادعُ إسماعيل، قال: فخرج ابن صالح فأدخل إسماعيل بن جعفر، وأراد المأمونُ إسماعيلَ بن موسى، فلما بَصُر به من بعيد، وكان أشد الناس له بغضًا، رفع يديه مادَّهما إلى السماء ثم قال: اللهم أبدلني من ابن صالح مطيعًا؛ فإنه لصداقته لهذا آثر هواه على هواي، قال: فلما دنا إسماعيل بن جعفر سلَّم فرد عليه، ثم دنا فقبل يده، فقال: هات حوائجك؟ قال: ضيعتي بالمغيثة غُصبتُها وقُهرتُ عليها، قال: نأمر بردها عليك، ثم قال: حاجتك؟ قال: يأذن لي أمير المؤمنين في الحج، قال: أذنَّا لك، ثم قال: حاجتك؟ قال: وقف أبي أُخرج من يدي وصار إلى قثم والقاسم ابني جعفر، قال: فتريد ماذا؟ قال: يردُّ إليَّ، قال: أمَّا ما كان يُمكننا من أمرك فقد جُدْنا لك به، وأما وقفُ أبيك فذاك إلى ورثته ومواليه، فإن رضوا بك واليًا عليهم وقيمًا لهم رددناه إليك، وإلا أقررناه في يد من هو في يده، ثم خرج، فقال المأمون لعلي بن صالح: ما لي ولك عافاك الله! متى رأيتني نشطت لإسماعيل بن جعفر وعنيت به وهو صاحبي بالأمس بالبصرة؟! قال: ذهب عن فكري يا أمير المؤمنين، قال: صدقت، لعمري ذهب عن فكرك ما كان يجب عليك حفظه، وحفظ فكرك ما كان يجب عليك ألا يخطر به، فأما إذ أخطأتَ فلا تُعلم إسماعيل ما دار بيني وبينك في أمره.

فظن عليٌّ أنه عنى بقوله هذا إسماعيل بن موسى، فأخبر إسماعيل ابن جعفر القصة حرفًا حرفًا، فأذاعها، وبلغ الخبر المأمون فقال: الحمد لله الذي وهب لي هذه الأخلاق التي أصبحت أحتمل بها علي بن صالح وابن عمران وابن الطوسي وحميد بن عبد الحميد ومنصور بن النعمان ورعامش.

وبعد، فالاحتمال خلة محببة إلى النفوس تدعو إلى الوفاق والوئام، وهي بالملوك أولى وأجدر لمكانهم من الزعامة والقيادة، ولمنزلتهم من الرياسة والسلطان، ولأنهم أحق الناس بكل سجية تحببهم إلى الناس، وتكون قدوة يرتسمها من عداهم ممن يتصرفون في شئون العباد ومستقبل البلاد.

(٩) بصره بالأدب

سترى فيما نعرض له في القسم الأدبي من آثار المأمون وكتابته مبلغ تبريزه في الفنون الأدبية، وتملكه أعنة البلاغة، وحسن تصريفه لكل أفانين الثقافة العربية، إلى جانب حسن تصريفه لشتى أمور ملكه.

والآن وسبيلنا تحليل شخصية المأمون، نرى من الواجب لتوفية البحث حقه من مختلف وجوهه أن نشير إلى كلَفه بالأدب، مفترضين على كل حال ما قد يكون بمثله من تشيع المُغالين من الولاء له وما قد يضاف إليه من الآثار.

ولكن ذلك كله لن يؤثر في اللب والجوهر، وهو أن المأمون كان أديبًا عالمًا بأفانين القول ومناحيه، وليس ذلك ببعيد على من تتلمذ على شيوخ الأدب العربي، كسيبويه واليزيدي ويحيى بن المبارك بن المغيرة، الذي أخذ العربية عن أمثال أبي عمرو بن العلاء وابن أبي إسحاق الحضرمي، وأخذ

اللغة والعروض عن الخليل بن أحمد، والذي ألف كتابًا في النحو لبعض أولاد المأمون.

فقد أفاد المأمون من هؤلاء وأمثالهم من رجال الأدب والكفاية أيما إفادة، قال عمارة بن عقيل: أنشدت المأمون قصيدة مائة بيت، فأبتدئ بصدر البيت فيبادرني إلى قافيته كما قفيته، فقلت: والله يا أمير المؤمنين، ما سمعها مني أحد قط، فقال: هكذا ينبغي أن يكون، ثم قال لي: أما بلغك أن عمر بن أبي ربيعة أنشد عبد الله بن عباس قصيدته التي يقول فيها:

تشط غدًا دارُ جيراننا

فقال ابن عباس:

وللدار بعد غد أبعد

حتى أنشده القصيدة يقفيها ابن عباس، ثم قال: أنا ابن ذاك. ورووا أن المأمون قال:

بعثتك مرتادًا ففزت بنظرة وأغفلتني حتى أسأت بك الظنا
فناجيتَ من أهوى وكنت مباعدًا فيا ليت شعري عن دنوِّك ما أَغْني
أرى أثـرًا منه بعينيك بيِّنًا لقد أخذتْ عيناك من عينه حسنا

ومهما قيل: إن المأمون أخذ هذا المعنى من العباس بن الأحنف الذي يقول:

إن تشق عيني بها فقد سعدت عين رسولي وفزت بالخبر
وكلما جاءني الرسول لها ردَّدت عهدًا في عينه نظري
خذ مقلتي يا رسولُ عارية فانظر بها واحتكم على بصري

فإن شعر المأمون يدل في جملته على تذوقه الحسن بالشعر الحسن، والخيال الحسن، ثم لتنظر معي في الحديث الذي دار بين عبد الله بن أبي السمط وعمارة بن عقيل، فإن أولهما يقول لعمارة: أعلمت أن المأمون لا يبصر الشعر؟ فقال عمارة: ومن يكون أعلم منه؟ فوالله إنا لننشده أول البيت فيسبقنا إلى آخره، قال عبد الله: إني أنشدته بيتًا أجدتُ فيه فلم يتحرك له، فقال عمارة: وما هو؟ قال:

أضحى إمام الهدى المأمون مشتغلًا   بالدين والناس بالدنيا مشاغيل

فقال عمارة: والله ما صنعت شيئًا، هل زدت على أن جعلته عجوزًا في محرابها؟ فإذن من الذي يقوم بأمر الدنيا إذا تشاغل عنها وهو المُطوَّق بها؟ ألا قلت كما قال جدي جرير في عبد العزيز بن الوليد:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه   ولا عرَض الدنيا عن الدين شاغله

فقال عبد الله: الآن علمتُ أني قد أخطأت.

ولقد كان المأمون واقفًا أتم وقوف وأكمله على شعر العصر ومقولات الشعراء، مع حسن بصر وأتم حذق وأدق تفهم، يدلك على ذلك ما ذكره أبو نزار الضرير الشاعر قال: قال لي علي بن جبلة: قلت لحميد بن عبد الحميد: يا أبا غانم، قد امتدحت أمير المؤمنين بمدح لا يُحسن مثله أحد من أهل الأرض، فاذكرني له، فقال: أَنْشدنيه، فأنشدتُه، فقال: أشهد أنك صادق، فأخذ المديح فأدخله على المأمون، فقال: يا أبا غانم، الجواب في هذا واضح، إن شاء عفونا عنه وجعلنا ذلك ثوابًا لمديحه، وإن شاء جمعنا بين شعره فيك وفي أبي دلف القاسم بن عيسى، فإن كان الذي قال فيك وفيه أجود من الذي مدحنا به، ضربنا ظهره وأطلقنا حبسه، وإن كان الذي

قال فينا أجود أعطيته بكل بيت من مديحه ألف درهم، وإن شاء أقلناه، فقلت: يا سيدي، ومن أبو دلف ومن أنا حتى يمدحنا بأجود من مديحك، فقال: ليس هذا الكلام من الجواب عن المسألة في شيء، فاعرضْ ذلك على الرجل، قال علي بن جبلة: فقال لي حميد: ما ترى؟ قلت: الإقالة أحبُّ إلي، فأخبر المأمون، فقال: هو أعلم، قال حميد: فقلت لعلي بن جبلة، إلى أي شيء ذهب في مدحك أبا دلف وفي مدحك لي؟ قال: إلى قولي في أبي دلف:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين مبداه ومحتضره

فإذا ولَّى أبو دلف ... ولَّت الدنيا على أثره

وإلى قولي فيك:

لولا حميد لم يكن ... حسب يعدُّ ولا نسب

يا واحد العرب الذي ... عزَّتْ بعزته العرب

ثم انظر سعة عطفه وكثير تسامحه وما جبلت عليه نفسه من العفو والحلم فيما رواه أحد قرابة دعبل الشاعر حيث قال: إن دعبلًا هجا المأمون بقوله:

أيسومني المأمون خطة عاجز ... أوَما رأى بالأمس رأس محمد

يوفي على هام الخلائف مثلما ... توفي الجبال على رءوس القرد[٧]

ويحل في أكناف كل ممنَّع ... حتى يذلل شاهقًا لم يُصعد

إن التراث مسهَّد طلابها ... فاكفُف لعابك عن لعاب الأسود

فلم يتقدم المأمون بإيذاء دعبل، وكل ما فعل أن قال: هو يهجو أبا عباد ولا يهجوني. يريد حِدَّة أبي عباد.

وكان بصيرًا بأخبار العرب واقفًا على تاريخ مجاويدهم وغطاريفهم؛ فقد ذكر عمارة بن عقيل قال: قال لي المأمون يومًا وأنا أشرب عنده:

ما أخبثك يا أعرابي! قال: قلت: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ وهمَّتني نفسي، قال: كيف قلت:

قـالـتْ مُـفـدَّاة لمَّا أن رأت أرقـي ... والهم يعتـاده مـن طـيـفـه لـمـم
نهبت مالك في الأدنـين آصرة ... وفي الأباعـد حـتـى حفَّك العدم
فاطلب إليهم ثرى ما كنت من حسن ... تُسدي إليهم فقد باتت لهم صرم[٨]
فقلت عذلك قد أكثرت لأئمتي ... ولـم يـمـتْ حاتم هزلًا ولا هرم

فقال لي المأمون: أين رميت بنفسك إلى هرم بن سنان سيد العرب وحاتم الطائي؟ فعلا كذا وفعلا كذا، وأقبل ينثال[٩] عليَّ بفضلهما، قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا خير منهما، أنا مسلم وكانا كافرين، وأنا رجل من العرب.

ثم انظر بلاغته ومتانة عبارته في مشافهاته ومبادهاته؛ فقد روى إبراهيم ابن عيسى قال: لما أراد المأمون الشخوص إلى دمشق هيَّأت له كلامًا مكثتُ فيه يومين وبعض آخر، فلما مثلت بين يديه قلت: أطال الله بقاء أمير المؤمنين في أدوم العز وأسبغ الكرامة، وجعلني من كل سوء فداه، إن من أمسى وأصبح يتعرَّف من نعمة الله - له الحمد كثيرًا - عليه برأي أمير المؤمنين أيَّده الله فيه، وحسن تأنيسه له، حقيقٌ بأن يستديم هذه النعمة، ويلتمس الزيادة فيها، بشكر الله، وشكر أمير المؤمنين - مد الله في عمره - عليها، وقد أحب أن يعلم أمير المؤمنين، أيده الله، أني لا أرغب بنفسي عن خدمته، أيده الله، بشيء من الخفض والدعة؛ إذ كان هو، أيده الله، يتجشم خشونة السفر ونصب الظعن، وأولى الناس بمواساته في ذلك وبذل نفسه فيه أنا؛ لما عرفني الله من رأيه، وجعل عندي من طاعته، ومعرفة ما أوجب

الله من حقه، فإن رأى أمير المؤمنين، أكرمه الله، أن يكرمني بلزوم خدمته والكينونة معه فعل.

فقال لي المأمون مبتدئًا من غير تروية: لم يعزم أمير المؤمنين في ذلك على شيء، وإن استصحب أحدًا من أهل بيتك بدَأ بك وكنتَ المُقدَّم عنده في ذلك، ولا سيما إذ أنزلت نفسك بحيث أنزلك أمير المؤمنين من نفسه، وإن ترك ذلك فمن غير قلًى لمكانك ولكن بالحاجة إليك، قال إبراهيم: فكان والله ابتداؤه أكثر من ترويتي.

قال أبو العتاهية: وجَّه إليَّ المأمون يومًا فصرت إليه، فألفيته مطرقًا مفكرًا، فأحجمت عن الدنو منه في تلك الحال، فرفع رأسه فنظر إلي وأشار بيده أن ادْنُ فدنوت، ثم أطرق مليًا ورفع رأسه فقال: يا أبا إسحاق، شأن النفس الملل، وحب الاستطراف، تأنس بالوحدة كما تأنس بالألفة، قلت: أجل يا أمير المؤمنين، ولي في هذا بيت، قال: ما هو؟ قلت:

لا يصلح النفس إذ كانت مدبرة   إلا التنقل من حال إلى حال

ثم انظر إلى بلاغة المأمون التي كانت سليقة فيه وإن نزلت بساحته الهموم والفوادح؛ فقد ذكر المؤرخون أنه أصيب بابنة له كان يجدُ عليها وجدًا شديدًا، فجلس وأمر أن يُؤذن لمن بالباب، فدخل عليه العباس بن الحسن العلوي فقال له: يا أمير المؤمنين، إنا لم نأتك مُعزِّين، ولكن أتيناك مقتدين، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن لساني ينطلق بمدحك غائبًا، وأحب أن يتزيَّد عنك حاضرًا، أفتأذن فأقول، قال المأمون: قل فإنك تقول فتحسن، وتشهد فتزين، وتغيب فتؤتمن، فقال العباس له – وصدق فيما يقول: يا أمير المؤمنين، ما أقول بعد هذا؟! لقد بلغت من مدحي ما لا أبلغه من مدحك.

وانظر إلى حلاوته في بلاغته، وفراهته في طلاوته، ومتانته في عبارته حين نصح لابنه العباس فقال له: ينبغي يا بني لمن أسبغ الله عليه نعمه، وشركه في ملكه وسلطانه، وبسط له في القدرة أن ينافس في الخير بما يبقَى ذكرُه، ويجبُ أجرُه، ويرجى ثوابُه، وأن يجعل همته في عدل ينشره، أو جور يدفنه، وسُنَّة صالحة يحييها أو بدعة يميتها، أو مكرمة يعتقدها، أو صنيعة يسديها، أو يد يودعها ويوليها، أو أثر محمود يتبعه.

ويقول لنا الجاحظ في البيان والتبيين: كان سهل بن هارون شديد الإطناب في وصف المأمون بالبلاغة والجهارة، وبالحلاوة والفخامة، وجودة اللهجة والطلاوة.

ويقول ثمامة بن أشرس النميري: ما رأيت رجلًا أبلغ من جعفر بن يحيى والمأمون.

وإن فيما ذكره ابن الجوزي والعاملي وغيرهما في طرب المأمون للطُّرف واللغة، لما يثبت بصره بالأدب وحذقه للغة، وتمكنه في النحو، وإنا نختتم كلمتنا هذه بما قاله المأمون لولده وعنده عمرو بن مسعدة ويحيى بن أكثم؛ فإنها في السِّماك بلاغة ودقة معنًى، وحلاوة أسلوب، وسمو سجايا، وحسن تدبير، ونضوج دربة، ولا يقولها إلا من كان إلى جانب ما وصفناه حمال أعباء نهَّاضًا[1]. ببزلاء، قصيًّا مرمى همته، رفيعًا مناط عزمته، وهي مع كل ذلك من عفو الخاطر ونتاج البديهة.

قال: اعتبروا في علو الهمة بمن ترون من وزرائي وخاصتي، إنهم والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم، إنه من تبع منكم صغار الأمور تبعه التصغير والتحقير، وكان قليل ما يفتقد من كبارها أكثر من كثير ما يستدرك

من الصغار، فترفعوا عن دناءة الهمة، وتفرغوا لجلائل الأمور والتدبير، واستكفوا الثقات، وكونوا مثل كرام السباع التي لا تشتغل بصغار الطير والوحش، بل بجليلها وكبارها، واعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم، فإن قائدكم لا يقدمكم ولا يغني الوليُّ عنكم شيئًا ما لم تعطوه حقه، وأنشده:

نحن الذين إذا تَخمَّط عُصبة ... من معشر كنا لها أنكالا
ونرى القُروم مخالة لقرومنا ... قبل اللقاء تُقطِّر الأبوالا
ترد المنية لا نخاف ورودها ... تحت العجاجة والعيون تلالا
نعطي الجزيل فلا نمُنُّ عطاءنا ... قبل السؤال ونحمل الأثقالا
وإذا البلاد على الأنام تزلزلت ... كنا لزلزلة البلاد جبالا

وبعد، فشدَّ ما يروق الرعية تبريز ولاتها في البلاغة والبيان، وشدَّ ما يثلج الأفئدة ويقر العيون تملكهم لأعنة القول، واطلاعهم على الغُرر والمُلح وتشجيعهم لذوي الإحسان.

وجميل جدًّا أن تنشر الكفايات، وأن يتخذ الولاة من كلمة المأمون: «إن وزرائي والله ما بلغوا مراتبهم عندي إلا بأنفسهم.» سنة يترسَّمُونها، وقاعدة يتبعونها، وحكمة يذيعونها لترتفع النفوس، وتسمو النزعات، ولينال الإحسان أهل الإحسان.

(١٠) علم المأمون

كان المأمون وافر العلم غزير الاطلاع، وليس ذلك بعزيز على خليفة ملأ عصره بأنواع المعارف الإنسانية، ونفخ فيه من روحه القوي حتى استطاع الباحث أن يسمه بسمته، وأن يرجع فضل الحضارة العباسية إليه.

ولكن المأمون في علمه وثقافته لم يقف عند حد الثقافة الذاتية، وإنما وجه حرصه إلى أن يثير في نفوس أصحابه كوامن الرغبة إلى التعمق في الدرس، والشوق إلى إدراك حقائق الأشياء، وكانت له في ذلك طريقة معروفة هي توجيه السمر والحديث إلى فنون العلم وضروب العرفان، فكان حديث الليل وحديث المائدة يفتح لجلسائه أبوابًا من القول ما كانت تخطر لهم ببال.

قال جعفر بن محمد الأنماطي: إن المأمون لما دخل بغداد وقر بها قراره، وأمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد في صدر نهاره على لُبود في الشتاء وعلى حصر في الصيف ليس معها شيء من سائر الفرش، ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين لا يمتنع منه أحد، قال: واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل، فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى حصل منهم عشرة، كان أحمد ابن أبي دُوَاد أحدهم، وبشرٌ المريسي. قال جعفر بن محمد الأنماطي: وكنت أحدهم، قال: فتغدينا يومًا عنده، فظننت أنه وضع على المائدة أكثر من ثلاثمائة لون، فكلما وضع لون نظر المأمون إليه فقال: هذا يصلح لكذا، وهذا نافع لكذا، فمن كان منكم صاحب بلغم ورطوبة فليجتنب هذا، ومن كان صاحب صفراء فليأكل من هذا، ومن غلبت عليه السوداء فليأكل من هذا، ومن أحب الزيادة في لحمه فليأكل من هذا، ومن كان قصده قلة الغذاء فليقتصر على هذا، قال: فوالله إن زالت تلك حاله في كل لون يقدم حتى رُفعت الموائد، قال: فقال له يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين، إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته! أو في النجوم كنت هِرْمِس في حسابه! أو الفقه كنت علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في علمه!

أو ذكرنا السخاء فأنت فوق حاتم في جوده! أو ذكرنا صدق الحديث كنت أبا ذر في صدق لهجته! أو الكرم كنت كعب بن مامة في إيثاره على نفسه! قال: فسُرَّ بذلك الكلام وقال: يا أبا محمد، إن الإنسان إنما فضل على غيره من الهوام بفعله وعقله وتمييزه، ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم، ولا دم أطيب من دم، وإنك إذا قلت: إن يحيى بن أكثم قد بالغ في تحليل المأمون وغلا في صفته، فأنا معك في ذلك، ولكنني ألاحظ أن هذا الغلو لا يخلو من أثارة من حق وصدق.

ولتنظر معي نظرة مُستقص لاطلاع المأمون وتدفق المعاني إليه، ومواتاة الأفكار له حينما ارتد رجل من أهل خراسان وأمر المأمون بحمله إلى مدينة السلام، فلما أدخل عليه أقبل بوجهه إليه ثم قال له: «أخبرني ما الذي أوحشك مما كنت به آنسًا من ديننا، فوالله لأن أستحييك بحق أحب إليَّ من أن أقتلك بحق، وقد صرت مسلمًا بعد أن كنت كافرًا، ثم عدت كافرًا بعد أن صرت مسلمًا، فإن وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به؛ إذ كان المريض يحتاج إلى مشاورة الأطباء، فإن أخطأك الشفاء ونبا عن دائك الدواء، كنت قد أعذرت ولم ترجع على نفسك بلائمة، فإن قتلناك بحكم الشريعة ترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة، وتعلم أنك لم تُقصِّر في اجتهاد ولم تدع الأخذ بالحزم» فقال المرتد: «أوحشني ما رأيت من كثرة الاختلاف في دينكم» فقال المأمون: «فإن لنا اختلافين؛ أحدهما: كالاختلاف في الأذان وتكبير الجنائز، والاختلاف في التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك، وليس هذا باختلاف إنما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة، فمن أذن مثنى وأقام

فرادى لم يُؤثِّم من أذَّن مثنى وأقام مثنى، لا يتعايرون ولا يتعايبون، أنت ترى ذلك عيانًا، وتشهد عليه بيانًا، والاختلاف الآخر: كنحو الاختلاف في تأويل الآية من كتابنا، وتأويل الحديث عن نبينا ﷺ، مع إجماعنا على أصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر، فإن كان الذي أوحشك هذا حتى أنكرت كتابنا فقد ينبغي أن يكون اللفظ بجميع ما في التوارة والإنجيل متفقًا على تأويله كالاتفاق على تنزيله، ولا يكون بين الملتين من اليهود والنصارى اختلاف في شيء من التأويلات، وينبغي لك ألا ترجع إلا إلى لغة لا اختلاف في ألفاظها، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لا تحتاج إلى تفسير لفعل، ولكنا لم نر شيئًا من الدين والدنيا دُفع إلينا على الكفاية، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوَى والمِحنة، وذهبت المسابقة والمنافسة ولم يكن تفاضل، وليس على هذا بنى الله جل وعز الدنيا» فقال المرتد: «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن المسيح عبد الله ورسوله، وأن محمدًا ﷺ صادق، وأنك أمير المؤمنين حقًّا» قال: فانحرف المأمون نحو القبلة فخرَّ ساجدًا، ثم أقبل على أصحابه فقال: «وفِّروا عليه عرضه، ولا تبروه في يومه، ريثما يعتق إسلامه، كيلا يقول عدوه: إنه يسلم رغبة، ولا تنسوا نصيبكم من بره ونصرته وتأنيسه والفائدة عليه».

وهذا المنحى الذي نحاه المأمون في إقناع ذلك المرتد يدلنا على ناحيتين من نواحي تفكيره:

● **الأولى**: بصره بأسرار الشريعة وعلمه بدقائق الدين وتدقيقه في فهم أنواع الخلاف بين المسلمين، ويكاد هذا التقسيم يقضي على كل شبهة

عند من يريبهم هذا النزاع الذي طال بين الفرق الإسلامية، وتشعبت به مذاهب الفقهاء.

• **الثانية**: تعمقه في درس النفسيات واستقصاء خلجات القلب وهجسات الضمير، وذلك ظاهر في مراجعته لحياة الرجل الروحية، وتأمله لما ألفته نفسه وسكن إليه وجدانه قبل إسلامه، فقد بنى على هذه السابقة طريقة التآلف والتسامح التي قضى بها على ما مُني به الرجل من الكفر بعد الإيمان.

وبعد، فإن المأمون في علمه وعرفانه أهل للاحتذاء والارتسام من أقرانه، قمين بالتمثل به والاقتفاء من أخذانه، ليكون زمانهم غرة في جبين الدهر كزمانه، وليكون نصيبهم نصيبه في مهابته ورفعة شأنه، ورسوخ عرشه، وقوة بنيانه.

(١١) احترامه للدين

كان المأمون شديد الاحترام للتقاليد الدينية يرى فيها صيانة لنفسه واستبقاء لقلوب رعيته، ولكنه كان يشتطُّ في ذلك فيعاقب على هفوة مرت عليها عشرات السنين، وسنقصُّ عليك حادثة هي دلالة على هذا الإسراف، وهي أيضًا عنوان على ذوقه في نقد الشعر، وإنا لنرجح أن للظرف الذي وقعت فيه هذه الحادثة تعليلًا لما اجتُرح فيها، فلولا مجلس الغناء ولعبه بالنفس لما عزل قاضٍ لهفوة لفظية طال على عهدها الزمان، وإليك الحديث:

ذكر أحد المعاصرين، وهو أبو حشيشة محمد بن علي بن أمية بن عمرو، قال: كنا قدام أمير المؤمنين المأمون بدمشق: فغنى علّويه:

برئت من الإسلام إن كان ذا الذي أتاك به الواشون عنى كما قالوا
ولكنهم لما رأوك سريعة إلي تواصوا بالنميمة واحتالوا

فقال: يا علُّويه، لمن هذا الشعر؟ فقال: للقاضي، قال: أي قاضٍ ويحك؟ قال: قاضي دمشق، فقال: يا أبا إسحاق، اعزله، قال: قد عزلته، قال: فيُحضَر الساعة، قال: فأحضر شيخ مخضوب قصير، فقال له المأمون: مَن تكون؟ قال: فلان بن فلان الفلاني، قال: تقول الشعر؟ قال: قد كنت أقوله، فقال: يا علُّويه، أنشده الشعر، فأنشده، فقال: هذا الشعر لك؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، ونساؤه طوالق وكل ما يَمْلك في سبيل الله إن كان قال الشعر منذ ثلاثين سنة إلا في زهد أو معاتبة صديق، فقال: يا أبا إسحاق، اعزله؛ فما كنت أولي رقاب المسلمين من يبدأ في هزله بالبراءة من الإسلام ... ثم قال: يا علويه، لا تقل: برئت من الإسلام، ولكن قل:

حرمت مُناي منك إن كان ذا الذي أتاك به الواشون عني كما قالوا

وهذا الموقف من المأمون شبيه كل الشبه بموقفه مع يحيى بن أكثم وزيره وقاضيه، حيث قال له المأمون: «لا أترك قاضيًا يشرب النبيذ!»

ثم لننظر ما يُروى عن سعيد بن زياد أحد المعاصرين؛ فإنه يدلك على تقديس المأمون لآثار النبي واحترامه لها، وتيمنه لها مع ورع وخشوع، فقد قيل: إنه لما دخل المأمون دمشق قال له: «أرني الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لكم» فأراه سعيد إياها، فقال له: «إني لأشتهي أن أدري أي شيء هذا الغشاء على هذا الخاتم» فقال له أبو إسحاق: حل العقدة حتى ترى ما هو، فقال المأمون: ما أشكُّ أن النبي ﷺ عقد هذا العقد، وما كنت

لأحل عقدًا عقده رسول الله ﷺ، ثم قال للواثق: خذه فضعه على عينيك؛ لعل الله أن يشفيك، وجعل المأمون يضعه على عينيه ويبكي.

على أنا نرى من الوفاء للنقد العلمي أن نحيل القارئ هنا إلى كلمتنا عن سياسة المأمون، وإلى مذهبه الديني في الاعتزال، كما نحيله إلى مبحثنا في الحياة العلمية والأدبية في عصره، ونظن أنه سيلاحظ معنا أن هذه السذاجة الطيبة، وذلك الإيمان الجميل في تقدير المأمون للآثار النبوية لا تتفق في حقيقة جوهرها مع ما أجمع عليه المؤرخون في سياسته، ولا مع اعتزاله[11] أو توغله فيما ترك الفلاسفة الأولون، ولا مع ما أخذ به المأمون بعض معاصريه من ألوان النقد في شئون دينهم ودنياهم.

والمأمون عند صحة هذه الرواية بين اثنتين: إما أن يكون قوي العاطفة الدينية رقيق الحس يخضع لوجدانه وإيمانه، وإما أن يكون في مثل هذه الأحوال رجل سياسة ودهاء يحسب ألف حساب لعواطف الجماهير، ويحترم ميول الجماعات الدينية.

وبعد، فالدين للديان جل جلاله، وأنعِمْ بالولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات.

(١٢) سياسته

ولقد كان المأمون سياسيًّا فذًّا، وليس أدل على «ديبلوماطيقيته» من خطته التي لا نجد لها في عصره ما هو أحكم منها ولا أسدُّ، مع ركونه إلى مشاورة شيعته وأنصاره إذا حزبه أمر، ولا أدل على كياسته وكبير مهارته من تصرفاته مع سفراء أخيه الأمين مما وقفتُك على طرف منه في فصل النزاع بين الأخوين.

وكان سياسيًّا فذًّا في تزوجه من بوران بنت الحسن بن سهل ليكتسب الحزب الفارسي، وفي تزويجه علي بن موسى الرضا ابنته أم حبيب، ومحمد ابن علي بن موسى ابنته أم الفضل ليكتسب الحزب العلوي، راميًا بذلك كله إلى ضمان تأييد الأحزاب له، عارفًا لنفسيات الجمهور وأمزجة الجماعات.

وكان سياسيًّا فذًّا مصيبًا لباب الصواب في قوله لأحمد بن أبي دُوَاد عن أهل بغداد: «الناس على طبقات ثلاث في هذه المدينة: ظالم، ومظلوم، ولا ظالم ولا مظلوم، فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا وإمساكنا، وأما المظلوم فليس يتوقع أن يُنصَف إلا بنا، ومن كان لا ظالمًا ولا مظلومًا فبيتُه يسعه».

وكان سياسيًّا فذًّا، في مداراته عمَّاله، وليس أدل على ذلك من تصرفه مع إبراهيم بن السندي صاحب الأخبار وقد رفع إليه خبرًا عن حادثة بمصر، فكذبه عبد الله بن طاهر، فعنف المأمون السندي آلم التعنيف أمام ابن طاهر، ثم بعث إليه وقال له: «إني آمر وأُداري عمالي وعمالهم مداراة الخائف، والله ما أجد إلى حملهم على المحجة البيضاء سبيلًا، فاعمل لي على حسب ما تراني أعمل، ولِنْ لهم تسلمْ لك أيامك، ويغَضَّ دينك».

وكان سياسيًّا فذًّا حينما رفع إليه صاحب خبره: «إنا أصبنا يا أمير المؤمنين رقاعًا فيها كلام السفهاء والسفلة، وفيها تهديد ووعيد، وبعضها عندنا محفوظ إلى أن يأمر أمير المؤمنين فيها بأمره، فكتب المأمون بخطه: «هذا أمر إن أكبرناه كثُر غمُّنا به، واتسع علينا خرقه، فمُرْ أصحاب أخبارك متى وجدوا من هذه الرقاع رقعة أن يمزقوها قبل أن ينظروا فيها، فإنهم إذا فعلوا ذلك لم يُر لها أثر ولا عين، ففعلوا ذلك فكان الأمر كما قال».

وتعال ننظر نظرة تحليلية قصيرة فيما يرويه لنا زيد بن علي بن الحسين قال: «لما كان في العيد، بعد قدوم المأمون سنة أربع ومائتين، والمأمون يتغدى وعلى مائدته طاهر بن الحسين، وسعيد بن سلم، وحميد بن عبد الحميد، وعلى رأسه سعيد الخطيب وهو يقرظه ويذكر مناقبه ويصف سيرته ومجلسه، إذ انهملت عينا المأمون بالدموع، فرفع يده عن الطعام، فأمسك القوم حين رأوه بتلك الحال حتى إذا كفَّ قال لهم: كلوا، قالوا: يا أمير المؤمنين، وهل نسيغ طعامًا أو شرابًا وسيدنا بهذه الحال، قال: أما والله ما ذلك من حدث ولا لمكروه هممت به بأحد، ولكنه جنس من أجناس الشكر لله لعظمته، وذكر نعمته التي أتمَّها عليَّ، كما أتمَّها على أبوي من قبلي، أما ترون ذلك الذي في صحن الدار، يعني الفضل بن الربيع قال: وكانت الستور قد رفعت ووضعت الموائد للناس على مراتبهم، وكان يجلس الفضل مع أصحاب الحرس - وكان في أيام الرشيد وحالُه حالُه، يراني بوجه أعرِف فيه البغضاء والشنآن، وكان له عندي كالذي لي عنده، ولكني كنت أُداريه خوفًا من سعايته وحذرًا من أكاذيبه، فكنت إذا سلَّمت عليه فرد عليَّ أظل لذلك فرحًا وبه مبتهجًا، وكان صَغْوه إلى المخلوع فحمله على أن أغراه بي ودعاه إلى قتلي، وحرك الآخر ما يحرك القرابة والرحم الماسَّة فقال: أما القتل فلا أقتله، ولكني أجعله بحيث إذا قال لم يطع، وإذا دعا لم يُجب، فكان أحسن حالاتي عنده أن وجَّه مع علي ابن عيسى قيد فضة بعدما تنازعا في الفضة والحديد ليُقيِّدني به، وذهب عنه قول الله جل وعز: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾ فذاك موضعه من الدار بأخسِّ مجالسها وأدنى مراتبها، وهذا الخطيب على رأسي، وكان

بالأمس يقف على هذا المنبر الذي بإزائي مرة، وعلى المنبر الغربي أخرى، فيزعم أني المأفون ولست بالمأمون، ثم هو الساعة يقرظني تقريظه المسيح ومحمدًا عليهما السلام، فقال طاهر بن الحسين: يا سيدنا، فما عندنا فيهما وقد أباحك الله إراقة دمائهما فحصَّنتهما بالعفو والحلم! قال: فعلت ذلك لموضع العفو من الله، ثم قال المأمون: مدوا أيديكم إلى طعامكم، فأكل وأكلوا».

ألا يسوغ لنا أن نستنبط مما قدمناه لك أن المأمون كان سياسيًّا ذهِنًا، حاذقًا في تصرفه مع الفضل؟ ألم يكن للفضل مكانة عند الرشيد ونفوذ بعيد المدى في الدولة؟ ألا يجوز أن سعايته بالمأمون وأكاذيبه عليه، إن لم يداره، تجد آذانًا مصغية، وأنها قد تجر عليه من الشرور ما ليس في حاجة إليه؟

ألم يكن خير سبيل لاتقاء شانئته أن يُداريه عملًا بقول أبي الدرداء: «إنا لنبَشُّ في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم».

فهل ترى سياسة أحكم وبصرًا بالأمور أتم من تصرف المأمون ومداراته؟ ثم انظر ما كان من مداراته للفضل بن سهل، كما صرح بذلك لولي عهده علي بن موسى الرضا، ومداراته لطاهر بن الحسين قاتل أخيه، وما كان من تصرفاته مع الوفود الأمينية؛ تؤمن معنا أن المأمون كان سياسيًّا، ولعل لاطلاعه على ما ترجم من المؤلفات اليونانية والفارسية مع استعداده الخاص ونزوعه إلى البحوث الكلامية عامة، وحبه للمشاورة واكتنافه بالرءوس المفكرة الناضجة، لعل لهذا وأمثاله الفضل في تكوين المأمون على ما رأيت وتخريجه على ما شاهدت.

وبعد، فإن للحياة تقاليدها، وإن لسياسة الشعوب أسرارها، كما أن للصراحة محامدها، وللمداراة ضرورتها، وأنعم بمن يضع الأمور في مواضعها، ويزن المواقف بميزانها، ويطب لكل حاجة دواءها وعلاجها.

(١٣) مذهب المأمون الديني

أما مذهب المأمون الديني أو السياسي إن شئت، وهل كان يميل للفرس حقًّا ويؤثرهم على غيرهم من العرب في خدمة الدولة، وهل كان شيعيًّا علويًّا، أو معتدلًا في التشيع أو معتزليًّا؟ فهذا باب يستفيض القول في شتى نواحيه وتزدحم معانيه؛ لاختلاف وجهات النظر فيه، ولعلك تبينت مما كتبناه عن المأمون السياسي بعض ما يساعدك على تفهم مذهبه الديني.

ولما كنا قد أرجأنا الكلام في موضوع المحنة والقول بخلق القرآن إلى قسم العلوم والآداب، فنحن نلفت النظر هنا إلى ذلك.

بيد أنا نرى من واجبنا أن نشير هنا إلى أن المأمون كان محُوطًا بشيوخ الاعتزال والكلام، أمثال ثمامة بن أشرس ويحيى بن المبارك وغيرهما، ويجوز لنا أن نفترض أن المأمون قد أخذ مذهب الاعتزال من يحيى بن المبارك مؤدبه، فإن ياقوتًا الرومي قد ذكر عنه - في الجزء السابع من معجمه - أنه كان يتهم بالميل إلى الاعتزال، فلا يستبعد إذن، وصلته بالمأمون صلة الأستاذ بتلميذه، أن يكون المأمون قد تأثر بميله خصوصًا، أنه اتصل به منذ صباه في أيام الرشيد، وكذلك كان محوطًا بشيوخ آخرين لهم آثارهم ومكانتهم في الدولة مثل يحيى بن أكثم وغير يحيى بن أكثم.

وكان على ذلك متأثرًا بما تُرجم من أخلاقيات فلاسفة اليونان وعلومهم، وآداب الفرس وفنونهم، كما كان، إلى حد غير قليل، تحت

سلطان الفرس ووزرائهم أمثال الفضل بن سهل، وكان يحسب للعلويين حسابهم، وللعباسيين حسابهم، فلا غرو إذن أن يكون لكل هذه العوامل أثر غير قليل في تكييف مزاجه الديني، وقد يفتر بعض هذه العوامل حينًا وقد يشتد حينًا آخر طبقًا للأحوال.

هذا هو رأينا في مذهبه الديني أو السياسي على وجه عام، على أن هذا لا يمنعنا، وقد اتخذنا لأنفسنا خطة الحيدة في تدوين التاريخ من أن نثبت آراء القدماء فيه، وأن نذكر طرفًا مما جاء منها في هذا الصدد.

قال ابن الأثير في كامله: «قال أبو العباس أحمد بن عبد الله بن عمار: كان المأمون شديد الميل إلى العلويين والإحسان إليهم، وخبره مشهور معهم، وكان يفعل ذلك طبعًا لا تكلفًا، فمن ذلك أنه توفِّي في أيامه يحيى بن الحسين ابن زيد بن علي بن الحسين العلوي، فحضر الصلاة عليه بنفسه، ورأى الناس عليه من الحزن والكآبة ما تعجبوا منه، ثم إن ولدًا لزينب بنت سليمان بن علي ابن عبد الله بن عباس، وهي ابنة عم المنصور، تُوفِّي بعده، فأرسل له المأمون كفنًا وسيَّر أخاه صالحًا ليصلي عليه ويعزي أمه، فإنها كانت عند العباسيين بمنزلة عظيمة، فأتى إليها وعزَّاها عنه، واعتذر عن تخلفه عن الصلاة عليه، فظهر غضبها وقالت لابن ابنها: تقدم فصلِّ على أبيك، وتمثَّلت:

سبكناه ونحسبه لُجينًا فأبدى الكير عن خبَث الحديد

ثم قالت لصالح: قل له: يا ابن مراجل، أما لو كان يحيى بن الحسين بن زيد لوضعت ذيلك على فيك وعدوت خلف جنازته».

ثم تعال معي نتدبر ما يرويه لنا التغلبي أحد المعاصرين، قال: سمعت[١٢] يحيى بن أكثم يقول: أمرني المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع

له وجوه الفقهاء وأهل العلم من أهل بغداد، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلًا وأحضرتهم، وجلس لهم المأمون فسأل عن مسائل وأفاض في فنون الحديث والعلم، فلما انقضى ذلك المجلس الذي جعلناه للنظر في أمر الدين، قال المأمون: يا أبا محمد، كَرِه هذا المجلس الذي جعلناه للنظر طوائف من الناس بتعديل أهوائهم وتزكية آرائهم، فطائفة عابوا علينا ما نقول في تفضيل علي بن أبي طالب ﵁، وظنوا أنه لا يجوز تفضيل علي إلا بانتقاص غيره من السلف، والله ما أستجيز أن أنتقص الحجاج! فكيف السلف الطيب؟! وإن الرجل ليأتيني بالقُطَيعة من العود أو بالخشبة أو بالشيء الذي لعل قيمته لا تكون إلا درهمًا أو نحوه فيقول: إن هذا كان للنبي ﷺ قد وضع يده عليه أو شرب فيه أو مسَّه، وما هو عندي بثقة ولا دليل على صدق الرجل، إلا أنِّي بفرط النية والمحبة أقبل ذلك فأشتريه بألف دينار وأقل وأكثر، ثم أضعه على وجهي وعيني وأتبرك بالنظر إليه وبمسِّه، فأستشفي به عند المرض يصيبني أو يصيب من أهتمُّ به، فأصونه كصيانتي نفسي، وإنما هو عود لم يفعل شيئًا ولا فضيلة له تستوجب المحبة إلا ما ذكر من مس رسول الله ﷺ، فكيف لا أرعى حق أصحابه وحرمة من قد صحبه وبذل ماله ودمه دونه، وصبر معه أيام الشدة وأوقات العسرة، وعادى العشائر والعمائر والأقارب، وفارق الأهل والأولاد، واغترب عن داره ليعز الله دينه ويظهر دعوته، يا سبحان الله! والله لو لم يكن هذا في الدِّين معروفًا لكان في الأخلاق جميلًا، وإن من المشركين لمن يَرعَى في دينه من الحرمة ما هو أقل من هذا. معاذ الله مما نطق به الجاهلون، ثم لم ترضَ هذه الطائفة بالعيب لمن خالفها حتى نسبته إلى البدعة في

تفضيله رجلًا على أخيه ونظيره ومن يقاربه في الفضل، وقد قال الله جل من قائل: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ثم وسع لنا في جهل الفاضل من المفضول، فما فرض علينا ذلك ولا ندبنا إليه إذ شهدنا لجماعتهم بالنبوة، فمن دون النبيين من ذلك بعد إذ شهد لهم بالعدالة والتفضيل امرؤ لو جهله جاهل رجونا ألا يكون اجترح إثمًا. وهم لم يقولوا بدعة فيمن قال بقول واحد من أصحاب النبي ﷺ وشك الآخرُ، واحتج في كسره وإبطاله من الأحكام في الفروج والدماء والأموال التي النظر فيها أوجب من النظر في التفصيل، فيغلط في مثل هذا أحد يعرف شيئًا، أو له روية أو حسن نظر، أو يدفعه من له عقل، أو معاند يريد الإلطاط،[١٣] أو متبع لهواه ذابٌّ عن رياسة اعتقدها.

وطائفة قد اتخذ كل رجل منهم مجلسًا اعتقد به رياسة لعله يدعو فئة إلى ضرب من البدعة، ثم لعل كل رجل منهم يعادي من خالفه في الأمر الذي قد عقد به رياسة بدعة، ويُشيط[١٤] بدمه، وهو قد خالفه من أمر الدين فيما هو أعظم من ذلك، إلا أن ذلك أمر لا رياسة له فيه، فسالمه عليه وأمسك عنه عند ذكر مخالفته إياه فيه، فإذا خولف في نِحْلته، ولعلها مما وسَّع الله في جهله بها، أو فيما اختلف السلف في مثله، فلم يُعاد بعضُهم بعضًا، ولم يروا في ذلك إثمًا، ولعله يكفر مخالفه أو يبدعه أو يرميه بالأمور التي حرمها الله عليه من المشركين دون المسلمين، بغيًا عليهم، وهم المترقبون الفتن، والراسخون فيها، لينهبوا أموال الناس ويستحلوها بالغلبة، وقد حال العدل بينهم وبين ما يريدون، يزأرون على الفتنة زئير الأُسد على فرائسها.

وإني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا - بتوفيق الله وتأييده ومعونته على إتمامه - سببًا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين، إمَّا شاكٌّ فيتبين ويتثبت فينقاد طوعًا، وإما مُعاند فيردُّ بالعدل كَرْهًا.

ولقد همَّ في سبيل علَويته هذه أن يلعن معاوية، وأن يكتب بذلك كتابًا يُقرَأ يوم الدار وحَفْل الناس، فثناه عن ذلك يحيى بن أكثم. وقد يكون من الممتع الطريف حقًّا أن نذكر لك ما قاله يحيى وغيره لتتبين نفسية الزعماء فيما نحن بسبيله.

«قال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين، إن العامة لا تحتمل هذا، ولا سيما أهل خراسان، ولا تأمن أن تكون لهم نفرة وإن كانت لم تَدرِ ما عاقبتها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه، ولا تُظهر لهم أنك تميل إلى فرقة من الفرق، فإن ذلك أصلح في السياسة، وأحرى في التدبير، فركن المأمون إلى رأيه، ثم دخل عليه ثمامة، أحد المعاصرين، فقال له المأمون: يا ثمامة، قد علمت ما كنا دبرناه في معاوية، وقد عارضنا رأي هو أصلح في تدبير المملكة وأبقى ذكرًا في العامة، ثم أخبره أن ابن أكثم خوَّفه إياها، وأخبره بنفورها عن هذا الرأي، فقال ثمامة: يا أمير المؤمنين، والعامة في هذا الموضع الذي وصفها به يحيى، والله لو وجهت إنسانًا على عاتقه سواد ومعه عصا لساق إليك بعصاه عشرة آلاف منها، والله يا أمير المؤمنين، ما رضي الله جل ثناؤه أن سواها بالأنعام حتى جعلها أضل منها سبيلًا، فقال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ والله يا أمير المؤمنين، لقد مررت منذ أيام في شارع الخُلْد وأنا أريد الدار، فإذا إنسان قد بسط كساءه، وألقى عليه أدوية وهو قائم ينادي عليها:

هذا الدواء لبياض العين والعَشا والغِشاوة والظلمة وضعف البصر، وإن إحدى عينيه لمطموسة، وفي الأخرى مُؤسًى له، والناس قد انثالوا عليه وأجفلوا إليه يستوصفونه، فنزلت عن دابتي ناحية ودخلت في غمار تلك الجماعة فقلت: يا هذا، أرى عينك أحوج هذه الأعين إلى العلاج وأنت تصف هذا الدواء وتخبر أنه شفاء لوجع العين، فلِمَ لا تستعمله؟ فقال: أنا في هذا الموضع منذ عشر سنين ما مر بي شيخ أجهل منك، فقلت له: وكيف؟ قال: يا جاهل، أين اشتكت عيني؟ قلت: لا أدري، قال: بمصر، فأقبلتْ عليَّ تلك الجماعة فقالوا: صدق الرجل، أنت جاهل، وهمُّوا بي، فقلت: لا والله، ما علمتُ أن عينه اشتكتْ بمصر، فما تخلصتُ منهم إلا بهذه الحجة».

نريد بعد ما قدمناه لك أن نقول لك: إن مذهب المأمون الديني كان متمشيًا تمامًا مع مذهبه السياسي، وإنه إذا كان يريد من وراء خطته السياسية من التزوج من هذا الحزب وذاك، ومن إرضاء هذا الطرف وذاك أن يظفر بتكوين وحدة سياسية من شتى الأحزاب ولو أدى ذلك أن يكون من العلويين خليفة، ثم من العباسيين خليفة ما دامت بغيته متحققة من استتباب الأمن، وامتزاج الأحزاب، وتوحيد القوى، فكذلك كان يريد أن يتخذ من مذهبه الديني مذهبًا وسطًا. ويُخيل إلينا من النتائج التي وقفنا عليها من دراسة هذا العصر أن المأمون لم يظفر بغايته لا من الوجهة السياسية كما علمت من انتهاء حياة الرضا من آل محمد، ولا من الوجهة الدينية.

وبعد، فقد قلنا لك: إن الدين للديان جل جلاله، وأكبرنا وأكبرت معنا أولئك الولاة الذين يحترمون ما للجماعات من آراء ومعتقدات وديانات،

ويظهر أن المأمون لم يكن فيما رامه في هذا السبيل موفقًا توفيقه فيما عداه، وأن له زلة كان يجدر ألا يقع مثله في مثلها، وسترى ذلك موضحًا في الفصل الذي عقدناه عن «محنة القرآن».

(١٤) كلمة ختامية عن المأمون

وإنا بعد أن حللنا شخصية المأمون بما يجب من التفصيل والتوضيح، نرى من المستصوب أن نضم إلى آراء المؤرخين العرب وروايات المعاصرين للمأمون التي لا تخلو من مبالغة في تمدحهم بفضائله، رأي مؤرخ مستشرق عكف على دراسة عصر المأمون، وهو السير وليم موير، فربما أفادنا كثيرًا من ناحية استيعاب وجهات النظر عند الفرنجة من المؤرخين، ذلك لأن الحقيقة العلمية لا تخدم بمثل ما يخدمها تباين الآراء واختلاف المصادر وتناقض الروايات، وليس من مهمتنا أن نعرض للرد على «السير موير»، وإنما نحن بسبيل إثبات وجهات النظر المختلفة كما قلنا.

قال الأستاذ موير في كتاب الخلافة في مختتم بحثه عن المأمون ما نترجمة لك بنصه: «فمما لا نزاع فيه أن المأمون كان على وجه العموم متصفًا بالعدل والحلم، وإنما يؤخذ بأنه كان متقلبًا في آرائه وشعوره، سواء أكان ذلك في المسائل السياسية أم الدينية».

ويرجع السبب في ذلك إلى نزعته الفارسية التي ورثها عن أمه، والبيئة التي رُبِّي فيها من جهة، وإلى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله كما كان حاله مع الفضل من جهة أخرى.

على أننا مع اعترافنا بعدله لا نستطيع أن ننزهه عن الجنوح في بعض الأحايين إلى الجور واستعمال القسوة من غير مسوغ، فإنه قد تصرف

في بعض الحوادث تصرف الجبابرة والقساة من أسلافه الذين أتوا من المنكرات ما سوَّدوا به صحائف تاريخهم.

وسأذكر على سبيل المثال حادثة استعمل فيها المأمون وحشية غريبة، ذلك أن أبا دُلف - وكان بطلًا من أشراف العرب وزعيمًا لإمارة همذان؛ إذ كان من أسرة كريمة نالت شهرة عظيمة وصيتًا واسعًا بين عشائرها وذوي البيوتات فيها - كان من الذين انضموا إلى نصرة الأمين وشايعوه، فلما قُتل واستقلَّ المأمون بالخلافة، أبى أبو دُلف أن يدخل في طاعته، وآثر العودة إلى مسقط رأسه في فارس، فمدحه شاعر أعمى بقصيدة رائعة، وغالى في مدحه وإطرائه، ووصفه بأنه أشرف العرب والمقدم عليهم، فاغتاظ المأمون من الشاعر غيظًا شديدًا؛ إذ ظن أن الشاعر يقصد إهانته، فأمر بتعذيبه وقتله شر قتلة، ولكن لم يمضِ على ذلك غير قليل من الزمن حتى دخل أبو دُلف في طاعة المأمون، فاحتفل به وقربه إليه، فإن كان تجاوزه عن أبي دلف وسعة حلمه عليه مما يعظم شأن المأمون، ويدل على رحابة صدره، فهذا التجاوز لا يغير حكمنا عليه بالقسوة الوحشية في قتل ذلك الشاعر الأعمى، ولو أغضينا عن الشبهات التي حامت حول مقتل الفضل وموت علي الرضا غدرًا وغيلة، فإننا لا نستطيع أن نغضي عن معاملته الجائرة لابن عائشة، وما لقيه هرثمة وطاهر مع تفانيهما في نصرته وتوطيد حكمه، واضطهاده لكثير من أجلاء المفكرين وأصحاب الآراء المخالفة لرأيه في بعض مسائل الدين في مجلس المناظرة، مما يدل على قسوته، إلا أننا إذا راعينا طول مدة حكمه وموقفه النبيل في عفوه عن الخارجين عليه في بغداد، نرى كفة عدله وحلمه أرجح من كفة جوره

وقسوته، وقصارى القول أن عصر خلافته كان بوجه الإجمال من أزهى عصور التاريخ الإسلامي. ا.هـ.

***

وبعد، فلقد حللنا شخصية المأمون الفذة البارزة بما استحقته من الاستقصاء والاستيعاب والدرس والتحليل، وأعقبنا كل كلمة عن سجاياه ما نعتبره موضع العظة والاعتبار من دراسة هذا العصر المُتْرَع بالمثل العليا، ونأمل أن نكون قد وفقنا فيها رُمناه من إصابة شاكلة الحق ولُباب الصواب.

هوامش

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «أحسب أن ألفًا زائدة في عباراتهم المنقولة؛ لأن حساب ذلك يئول إلى مليارين من الدنانير، وغلة بني العباس في عشر سنوات لا تفي بذلك، فكيف بمصر وحدها؟»

(٢) أُفْكَل: رعدة وقشعريرة.

(٣) انظر هذه الحكاية في الجزء السادس من تاريخ بغداد، ص١٠١.

(٤) جمع مقراض وهو ما يقطع به الثواب أو غيره، وهو المعروف بالمقص.

(٥) العادة كانت جارية في العراق أن يوضع الخيش فوق سطح المنزل ويبل وقت الحر ليكون تأثير الشمس واقعًا عليه دون السقف، وهكذا كانت تفعل ملوك فارس، فلما كان زمن المأمون عمل بطانة للسقف استغنى بها عن الخيش وبله، وهي ما نسيمه «بغدادلي»، وفي بعض البلاد يسمى المأموني.

(٦) التثريب: اللوم والتعيير بالذنب.

(٧) القردد: ما ارتفع وغلظ من الأرض.

(٨) الصرم: جمع صرمة، وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين.

(٩) يعدد محاسنها ويذكرها.

(١٠) يقال: هو نهاض ببزلاء أي صاحب همة يقوم بالأمور العظام.

(١١) يقول الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار: «الاعتزال مذهب من مذاهب التوحيد أراد القائمون به تنزيه الله عن الأشباه، فنفوا أن يكون لله صفات لئلا يتعدَّد القدماء، ثم انتقلوا إلى الأفعال فنفوا أن يكون لله أثر في فعل الشر فقالوا: إن الله منزهٌ عن الشر، وإن الإنسان يخلق أفعال نفسه الاختيارية بقدرة أودعها الله فيه إلخ ما قالوا. وليس في هذا ما ينافي إجلال المأمون لآثار رسول الله ﷺ».

(١٢) هذه القطعة منقولة كما هي عن «تاريخ بغداد»، ج٦، ص٧٥ وما بعدها.

(١٣) الإلطاط: الاشتداد في الأمر والخصومة.

(١٤) يشيط بدمه: يهدره.

الفصل الثامن

الحياة العلمية في عصر المأمون

(١) توطئة

قيل: إن سهل بن هارون كان يتولى الهيمنة على إدارة دار الكتب الخاصة بالدولة المأمونية في بغداد، وكانت تعرف ببيت الحكمة، كما كان يتولى تنظيم خزانة المأمون، وقيل: إن بيت الحكمة هذا أنشئ في الغالب أيام الرشيد، حيث قد جمع له فيه البرامكة من الكتب ما وفّقوا إليه هنديةً كانت أو فارسية أو يونانية.

وقيل: إن يحيى بن أبي منصور الموصلي، المنجم المعروف وأحد أصحاب الأرصاد في العصر المأموني، ومحمد بن موسى الخوارزمي، صاحب الأزياج وصورة الأرض، كانا من خزنة دار الحكمة المأمونية، كما كان جدُّ أحمد الطيبي المعروف بالصنوبري الحلبي والفضل بن نوبَخْت وأولاد شاكر وغيرهم من رجالات بيت الحكمة في العصر المأموني، أو ممن كان يتردد على هذه الدار للعمل فيها بصفة رسمية أو للمطالعة أو النسخ أو الترجمة أو التأليف.

وقيل: إن الراوية النسَّابة المعروف علّان الشعوبي الفارسي الأصل كان ممن ينسخ في بيت الحكمة، أو في أحد بيوت الحكمة هذه؛ إذ يلوح لنا أنها كانت على الأرجح أكثر من بيت للرشيد والبرامكة والمأمون.

وقيل: إن المأمون بعث إلى حاكم صقلية المسيحي أن يبادر بأن يرسل إليه مكتبة صقلية الشهيرة الغنية بكتبها الفلسفية والعلمية الكثيرة، وإن الحاكم تردد في إرسالها، وكان بين الضن بها والحرص عليها والخوف من القوة المأمونية والهيبة المأمونية، ومن أجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وأدلى إليهم بطلب المأمون، فأشار عليه المطران الأكبر بقوله: «أرسلها إليه؛ فوالله ما دخلت هذه العلوم في أمه إلا أفسدتها». فأذعن الحاكم لمشورته وعمل بها.

ويقول الأستاذ كرد علي: «إن المأمون هو الذي جمع بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه، ودعيت الصورة المأمونية، صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه، وبره وبحره وعامره وغامره، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك، وهي أحسن مما تقدمها من جغرافية بطلميوس وجغرافية مارينوس، وقد وضع له علماء رسم الأرض - وقال الزهري: إنهم كانوا سبعين رجلاً من فلاسفة العراق - كتابًا في الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد والأمم التي أظلتها الراية العباسية، هذا إلى عنايته بالفلك، وفلكيُّه الفزاري أول من استعمل الأسطرلاب من العرب، وعُني بالطبيعة والرياضيات فوق عنايته بالطب ومعرفة العقاقير والنبات والحيوان، إلى ما شاكل تلك العلوم مما كان له الأثر المحسوس في إدخال المدنية على دولة العرب، وفتح به المأمون باب العقل على مصراعيه في كل مطلب وشأن».

قيل هذا، وقيل أكثر من هذا مما يدلنا دلالة صحيحة أو دلالة تقريبية على كثرة الكتب في العهد المأموني، ومما يشير إلى عدم قلتها في أيام مَن سبقه من الخلفاء العباسيين.

والآن يحق لنا أن نتساءل: هل أفاد المأمون من هذه الكتب؟ وماذا أفادنا المأمون خاصة؟ وما هي الحركة العملية المأمونية، ومن هم رجالها؟ وما هي مؤلفاتها؟!

يحق لنا أن نتساءل عن ذلك وعن مثل ذلك، ويحق لنا أن نعرض لهذه البحوث وأن نوضح بعض ما كنا أجملناه في كلمتنا عن الحياة العلمية في العصر العباسي.

أما أن المأمون أفاد من كتب عصره سواء أكانت مترجمة عن اليونانية أو الفارسية أو غيرهما، أم كانت مؤلفة موضوعة، فهذا ما لا شك فيه مما قد تبينته فيما وضحناه لك عند تعرضنا لتحليل شخصية المأمون، وحين تكلمنا عنه تلميذًا، وولي عهد، وخليفة، وأديبًا، وعالمًا، وسياسيًّا، وباحثًا دينيًّا.

وأما أن المأمون أفاد عصره بمؤلفاته الخاصة، فهذا ما لا ريب فيه أيضًا، وهاك ابن النديم يحدثنا في فهرسته أن للمأمون من الكتب كتابَ جوابِ ملكِ البرغر فيما سأل عنه من أمور الإسلام والتوحيد، ورسالته في إعلان النبوة.

وأما عن الحركة العلمية المأمونية ورجالاتها ومؤلفاتهم، فهذا ما نحن مقبلون على بحثه؛ يحدثنا ابن أبي أصيبعة في طبقاته عن أوكد الأسباب عند المأمون لاستخراج الكتب، فيقول: «قال يحيى بن عدي: قال المأمون: رأيت فيما يرى النائم كأن رجلًا على كرسي جالسًا في المجلس الذي أجلس فيه فتعاظمته وتهايبته وسألت عنه، فقيل لي: هو أرسطوطاليس، فقلت: أسأله عن شيء، فسألته فقلت: ما الحسن؟ فقال: ما استحسنته العقول، فقلت: ثم ماذا؟ قال: ما استحسنته الشريعة، قلت: ثم ماذا؟ قال:

ما استحسنه الجمهور، قلت: ثم ماذا؟ قال: ثم لا ثم، فكان هذا المنام من أوكد الأسباب في إخراج الكتب».

فإن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، وقد استظهر عليه المأمون، فكتب إلى ملك الروم يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة في بلد الروم، فأجاب إلى ذلك بعد امتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر، وابن البِطريق، وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنُقل، وقد قيل: إن يوحنا بن ماسويه ممن نفذ إلى بلد الروم، وأحضر المأمون أيضًا حنين بن إسحاق، وكان فتيَّ السن، وأمره بنقل ما يقدر عليه من كتب الحكماء اليونانيين إلى العربي وإصلاح ما ينقله غيره، فامتثل أمره.

ومما يُحكى عنه أن المأمون كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربي مثلًا بمثل، وقال أبو سليمان المنطقي: «إن بني شاكر؛ وهم: محمد وأحمد والحسن كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن إسحاق، وحبيش بن الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر نحو خمسمائة دينار للنقل والملازمة».

ويقول القاضي صاعد بن أحمد الأندلسي: «إن العرب في صدر الإسلام لم تُعنَ بشيء من العلوم إلا بلغتها ومعرفة أحكام شريعتها، حاشا صناعة الطب، فإنها كانت موجودة عند أفراد منهم غير منكرة عند جماهيرهم؛ لحاجة الناس طرًّا إليها، فهذه كانت حال العرب في الدولة الأموية، فلما أدال[1] الله تعالى للهاشمية، وصرف الملك إليهم ثابت الهمم من غفلتها، وهبت الفطن من موتتها، فكان أول من عُني منهم بالعلوم الخليفة الثاني

أبو جعفر المنصور، وكان مع براعته في الفقه كلِفًا بالفلسفة وعلم النجوم، ثم لما أفضت الخلافة فيهم إلى الخليفة السابع عبد الله المأمون بن هارون الرشيد تمَّم ما بدأ به جده المنصور، فأقبل على طلب العلم في مواضعه، وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلسفة، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطوطاليس وأبقراط وجالينوس وأوقليدس وبطلميوس وغيرهم من الفلاسفة، فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلَّفهم إحكام ترجمتها، فترجمت له على غاية ما أمكن، ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعليمها، وكان يخلو بالحكماء ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكراتهم، علماً منه بأن أهل العلم هم صفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده، وأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، وزهدوا فيما يرغب فيه الصين والترك ومن نزع منزعهم من التنافس في دقة الصناعة العملية، والتباهي بأخلاق النفس والتفاخر بالقوى؛ إذ علموا أن البهائم تشركهم فيها، وتفضلهم في كثير منها». فلهذا السبب كان أهل العلم مصابيح الدُّجى، وسادة البشر، وأوحشت الدنيا لفقدهم.

فهذا الحلم الذي قيل: إنه دفع بالمأمون إلى الاستهامة بأرسطو ومؤلفات أرسطو، أو بعبارة عملية أدق: هذا الميل إلى الفلسفة والمنطق عند المأمون كان من آثاره حركة نقل وتأليف عنيفة قوية، ويخيل إلينا أن المأمون لاتساع دائرة معارفه العامة، ورغبته في القياس العقلي، وتأثره بمذهب الاعتزال - كما سترى في كلمتنا التي عقدناها لك في القول بخلق القرآن - كان لذلك كله وأمثاله أكبر رجل عمل في انتشار حركة الترجمة والتأليف، وخاصة في مؤلفات أرسطو، وكان من نتائج إقبال العرب وغيرهم على تلك المؤلفات وأمثالها أن تولد عندهم علم الكلام والفلسفة الأفلاطونية الجديدة.

(٢) حركة الترجمة والنقل

يقول الأستاذ «سنتلانه» في مفتتح محاضراته في تاريخ المذاهب الفلسفية بالجامعة المصرية: «إن تاريخ الترجمة في عهد آل عباس على ثلاثة أدوار: فالدور الأول من خلافة أبي جعفر المنصور إلى وفاة هارون الرشيد، أي من سنة ١٣٦هـ إلى سنة ١٩٣هـ، وهي الطبقة الأولى من المترجمين؛ منهم: يحيى ابن البطريق مترجم المجسطي في أيام المنصور، وجورجيس بن جبرائيل الطبيب عاش سنة ١٤٨هـ، وعبد الله بن المقفع الذي مات نحو سنة ١٤٣ هـ وترجم بعض الكتب المنطقية لأرسطوطاليس، ويوحنا بن ماسويه، وكان في أيام الرشيد، وقد أدرك أيام المتوكل، واعتنى في الأغلب بالكتب الطبية، وسلام الأبرش، وكان في أيام البرامكة، وباسيل المطران.

والدور الثاني من ولاية المأمون سنة ١٩٨ إلى سنة ٣٠٠ هـ، وهي الطبقة الثانية من المترجمين؛ منهم: يوحنا بن البطريق، والحجاج بن مطر الذي عاش سنة ٢١٤هـ، وقسطا بن لوقا البعلبكي وعاش سنة ٢٢٠هـ، وعبد المسيح ابن ناعمة الحمصي وعاش سنة ٢٢٠هـ، وحنين بن إسحاق وتوفي سنة ٢٦٠هـ، وقيل سنة ٢٦٢هـ، وابنه إسحاق بن حنين وتوفي سنة ٢٩٨هـ، وثابت بن قرة الصابي المُتوفَّى سنة ٢٨٨هـ، وحبيش بن الحسن، ويدعى حبش الأعسم ابن أخت حنين، وتوفي سنة ٣٠٠هـ، ومما ترجم في هذا العصر أغلب كتب أبقراط وجالينوس وأرسطوطاليس، وشيء من كتب أفلاطون ومن التفاسير على الكتب المذكورة.

والدور الثالث من سنة ثلاثمائة للهجرة، وهي تاريخ وفاة حبيش، إلى منتصف القرن الرابع، ومن مترجمي هذه الطبقة متَّى بن يونس، وتاريخ

وفاته مجهول إلا أنه يذكر عنه أنه كان ببغداد بين سنة ٣٢٠ وسنة ٣٣٠هـ، ومنهم سنان بن ثابت بن قرة، المُتوفَّى سنة ٣٦٠ هـ، ويحيى بن عدي وتوفي سنة ٣٦٤ هـ، وأبو علي بن زرعة، من سنة ٣٣١ إلى سنة ٣٩٨هـ، وهلال بن هلال الحمصي، وعيسى بن سهرنجت، وكان أكثر اشتغالهم بالكتب المنطقية والطبيعية لأرسطو، وبالمفسرين كالإسكندر الأفروديسي ويحيى النحوي وغيرهما» ا.هـ.

وبعد، فقد سبق لنا أن بينا لك طرفًا عن الحياة العلمية في العصر الأموي وفي صدر العصر العباسي، وآن لنا الآن أن نذكر لك بعض أسماء أقطاب الحركة العلمية سواء أكانت في علم الفلك أم الطب أم الفلسفة ترجمة وتأليفًا في العصر المأموني، معتمدين في ذلك على الفهرست لابن النديم، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، وكتاب أخبار الحكماء للقفطي، وهاك جملة منهم؛ وهم: أحمد بن محمد بن كثير الفرغاني، أحد منجمي المأمون، وبختيشوع جورجيس، وجبرائيل بن بختيشوع، وجبرائيل الكحال المأموني، والحارك المنجم صاحب الحسن بن سهل، والحسن بن سهل بن نَوبَخْت، وزكريا الطيفوري، وسهل بن سابور بن سهل المعروف بالكوسج الذي كان يجتمع مع يوحنا بن ماسويه، وجورجيس بن بختيشوع، وعيسى ابن الحكم، وزكريا الطيفوري، ثم سِنْد بن علي المنجم المأموني، وسلمويه ابن بنان صاحب المعتصم، وصالح بن بهلة الهندي صاحب الرشيد، والعباس بن سعيد الجوهري المنجم صاحب المأمون، وعبد الله بن سهل ابن نوبخت المنجم المأموني، وأبو حفص عمر بن الفرخان الطبري، أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم النجوم، وموسى بن شاكر وبنوه محمد

وأحمد والحسن من منجمي المأمون، وكان بنوه الثلاثة فيما ذكره القفطي من أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل، وموسى بن إسرائيل صاحب أبي إسحاق بن إبراهيم بن المهدي، وما شاء الله المنجم اليهودي، وميخائيل ابن ماسويه، ويحيى بن أبي منصور المنجم المأموني، ويعقوب بن إسحاق وتلاميذه: حسنويه ونفطويه وسلمويه ورحمويه وأحمد بن الطيب، ثم يوحنا ابن البطريق الترجمان مولى المأمون، ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني، وأبو قريش المعروف بعيسى الصيدلاني وغيرهم كآل ثابت وماسرجويه، وآل الكرخي، وابن دهن الهندي مدير بيمارستان البرامكة، وكان فيما يذكره ابن النديم ينقل من الهندية إلى العربية، ومنكه طبيب الرشيد الهندي، وكان ينقل من الهندية «السنسكريتية»، وعشرات غيرهم ممن لا يقع تحت حصر.

ولو أردنا أن نكتب عن واحد واحد من رجال هذه الحركة العلمية العنيفة لخرجنا عن وضع كتاب في العصر المأموني إلى وضع موسوعة أو معجم، وإذا لم نكتب عنهم فقد رُمينا بالتقصير المعيب ولم نصور العصر بما ينبغي أن يصور به، لذلك آثرنا أن نكتب كلمة عن جبرائيل بن بختيشوع، وقدرُه في العصر ومنزلتُه؛ لتكون مثالًا وتوضيحًا لسواه من رجالات العلم في ذلك العصر الغني حقًّا، والغني برجالاته صدقًا، وستقف على هذه الكلمة في موضعها من الفصل العاشر من هذا الكتاب.

(٣) كتب العصر

وإنا ننقل لك هنا طرفًا من أسماء الكتب التي ترجمت في ذلك العصر من اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والعبرانية واللاتينية والنبطية، معتمدين في ذلك على البحث الطريف الذي كتبه صاحب التمدن

الإسلامي، ولخص فيه ما كتبه ابن النديم، وصاحب الطبقات وتراجم الحكماء، منوهين بجهده أمانةً للعلم واعترافًا بالفضل.

أولًا: الكتب المنقولة عن اليونانية

(أ) كتب الفلسفة والأدب

كتب أفلاطون

(١) كتاب السياسة نقله حنين بن إسحاق.

(٢) كتاب المناسبات نقله يحيى بن عدي.

(٣) كتاب النواميس نقله حنين ويحيى.

(٤) كتاب طيماوس نقله ابن البطريق وأصلحه حنين.

(٥) كتاب أفلاطن إلى أقرطن نقله يحيى بن عدي.

(٦) كتاب التوحيد نقله يحيى بن عدي.

(٧) كتاب الحس واللذة نقله يحيى بن عدي.

(٨) كتاب أصول الهندسة نقله قسطا بن لوقا.

كتب أرسطوطاليس

(١) قاطيغورياس (المقولات) نقله حنين بن إسحاق.

(٢) كتاب العبارة نقله حنين بن إسحاق إلى السريانية وإسحاق إلى العربية.

(٣) تحليل القياس نقله ثيادورس وأصلحه حنين.

(٤) كتاب البرهان نقله إسحاق إلى السرياني ومتى إلى العربي.

(٥) كتاب الجدل نقله إسحاق إلى السرياني ويحيى إلى العربي.

(٦) كتاب المغالطات أو الحكمة المموهة نقله ابن ناعمة وأبو بشر إلى السرياني ويحيى إلى العربي.

(٧) كتاب الخطابة نقله إسحاق وإبراهيم بن عبد الله.

(٨) كتاب الشعر نقله أبو بشر من السرياني إلى العربي.

(٩) كتاب السماع الطبيعي نقله أبو روح الصابي وحنين ويحيى وقسطا وابن ناعمة.

(١٠) كتاب السماء والعالم نقله ابن البطريق وأصلحه حنين.

(١١) كتاب الكون والفساد نقله حنين إلى السرياني وإسحاق والدمشقي إلى العربي.

(١٢) كتاب الآثار العلوية نقله أبو بشر ويحيى.

(١٣) كتاب النفس نقله حنين إلى السرياني وإسحاق إلى العربي.

(١٤) كتاب الحس والمحسوس نقله أبو بشر متى بن يونس.

(١٥) كتاب الحيوان نقله ابن البطريق.

(١٦) كتاب الحروف أو الإلهيات نقله إسحاق ويحيى وحنين ومتى.

(١٧) كتاب الأخلاق نقله إسحاق.

(١٨) كتاب المرآة نقله الحجاج بن مطر.

(١٩) كتاب أثولوجيا نقله الحجاج بن مطر.

ولكتب أرسطو شروح وتعاليق لبعض تلامذته، أو من جاء بعده كثاوفرسطس، وديدوخس برقلس، والإسكندر الأفروديسي، وفرفوريوس، وأمونيوس، وتامسطيوس، ونيقولاوس، وفلوطرخس، ويحيى النحوي وغيرهم.

ولبعض هؤلاء مؤلفات خاصة، وكلها في الفلسفة وفروعها، وقد نُقل كثيرٌ منها إلى العربية ولم يعلم ناقلها؛ فأغضينا عن ذكرها، وقد ذكرها صاحب الفهرست.

وذكروا لجالينوس في جملة كتبه الطبية الآتي بيانها بضعة كتب في الفلسفة والأدب، وهي: كتاب ما يعتقده رأيًا ترجمه ثابت وكتاب تعريف المرء عيوب نفسه نقله توما وأصلحه حنين وكتاب الأخلاق نقله حبيش وكتاب انتفاع الأخيار بأعدائهم نقله حبيش والمحرك الأول لا يتحرك نقله حبيش وعيسى، وغير ذلك.

(ب) كتب الطب وفروعه

كتب أبقراط

(١) كتاب عهد أبقراط نقله حُنين إلى السريانية وحبيش وعيسى إلى العربية.

(٢) كتاب الفصول نقله حنين لمحمد بن موسى.

(٣) كتاب الكسر نقله حنين لمحمد بن موسى.

(٤) كتاب تقدمة المعرفة نقله حنين وعيسى بن يحيى.

(٥) كتاب الأمراض الحادة نقله عيسى بن يحيى.

(٦) كتاب أبيذيميا نقله عيسى بن يحيى.

(٧) كتاب الأخلاط نقله عيسى بن يحيى لأحمد بن موسى.

(٨) كتاب قاطيطيون نقله حنين لمحمد بن موسى.

(٩) كتاب الماء والهواء نقله حنين وحبيش.

(١٠) كتاب طبيعة الإنسان نقله حنين وعيسى.

كتب جالينوس

وأشهر كتب جالينوس الكتب الستة عشر، وهي: كتاب الفرق، الصناعة، كتاب النبض، شفاء الأمراض، المقالات الخمس، الاسطقصات، كتاب المزاج، القوى الطبيعية، العلل والأمراض، تعرف علل الأعضاء الباطنة، كتاب النبض الكبير، كتاب الحميات، البحران، أيام البحران، تدبير الأصحاء، حيلة البرء، وقد نقلها كلها حنين بن إسحاق إلى العربية إلا كتاب العلل الباطنة، وكتاب النبض الكبير، وكتاب تدبير الأصحاء، وكتاب حيلة البرء فقد نقلها حبيش، أما ما بقي من كتب جالينوس الطبية، فإليك أسماؤها مع أسماء ناقليها:

(١) التشريح الكبير: حبيش الأعسم.

(٢) اختلاف التشريح: حبيش الأعسم.

(٣) تشريح الحيوان الحي: حبيش الأعسم.

(٤) تشريح الحيوان الميت: حبيش الأعسم.

(٥) علم أبقراط بالتشريح: حبيش الأعسم.

(٦) الحاجة إلى النبض: حبيش الأعسم.

(٧) علوم أرسطو: حبيش الأعسم.

(٨) تشريح الرحم: حبيش الأعسم.

(٩) آراء أبقراط وأفلاطون: حبيش الأعسم.

(١٠) العادات: حبيش الأعسم.

(١١) خصب البدن: حبيش الأعسم.

(١٢) المَنِي: حبيش الأعسم.

(١٣) منافع الأعضاء: حبيش الأعسم.
(١٤) تركيب الأدوية: حبيش الأعسم.
(١٥) الرياضة بالكرة الصغيرة: حبيش الأعسم.
(١٦) الرياضة بالكرة الكبيرة: حبيش الأعسم.
(١٧) الحث على تعليم الطب: حبيش الأعسم.
(١٨) قوى النفس ومزاج البدن: حبيش الأعسم.
(١٩) حركات الصدر: نقله أصطفان وأصلحه حنين.
(٢٠) علل النفس: أصطفان وأصلحه حنين.
(٢١) حركة العضل: أصطفان وأصلحه حنين.
(٢٢) الحاجة إلى النفس: أصطفان وأصلحه حنين.
(٢٣) الامتلاء: أصطفان وأصلحه حنين.
(٢٤) المرة والسوداء: أصطفان وأصلحه حنين.
(٢٥) علل الصوت: حنين.
(٢٦) الحركات المجهولة: حنين.
(٢٧) أفضل الهيئات: حنين.
(٢٨) سوء المزاج المختلف: حنين.
(٢٩) الأدوية المفردة: حنين.
(٣٠) المولود لسبعة أشهر: حنين.
(٣١) رداءة التنفس: حنين.
(٣٢) الذبول: حنين.
(٣٣) قوى الأغذية: حنين.

(٣٤) التدبير الملطف: حنين.

(٣٥) مداواة الأمراض: حنين.

(٣٦) أبقراط في الأمراض الحادة: حنين.

(٣٧) إلى تراسوبولوس: حنين.

(٣٨) الطبيب والفيلسوف: حنين.

(٣٩) كتب أبقراط الصحية: حنين.

(٤٠) محنة الطبيب: حنين.

(٤١) أفلاطون في طيماوس: حنين وإسحاق.

(٤٢) تقدمة المعرفة: عيسى.

(٤٣) الفصد: عيسى وأصطفان.

(٤٤) صفات لصبي يصرخ: ابن الصلت.

(٤٥) الأورام: ابن الصلت.

(٤٦) الكيموس: ثابت وحبيش.

(٤٧) الأدوية والأدواء: عيسى.

(٤٨) الترياق: ابن البطريق.

وهناك كتب في الطب وتوابعه ذكرها صاحب الفهرست ولم يذكر ناقليها، وأما مؤلفوها فمنها بضعة وعشرون كتابًا لروفس من أهل أفسس - كان قبل جالينوس - ولعلها لم تنقل كلها، ومما ذكر ناقلوه بضعة كتب لأوريباسيوس، وهي؛ كتاب الأدوية المستعملة نقله أصطفان بن باسيل، وكتاب السبعين مقالة نقله حنين وعيسى بن يحيى إلى السريانية، وكتاب إلى ابنه أسطاث نقله حنين، وكتاب إلى أبيه أونافيس نقله حنين،

ولديسقوريدس العين زربى، ويقال له: السائح في البلاد؛ لسياحته في طلب العقاقير والحشائش، كتابٌ في الحشائش سيأتي تاريخ نقله، ولإسكندروس كتاب البرسام نقله ابن البطريق، وغير هذه مما لم يعرف ناقلوها.

(ج) كتب الرياضيات والنجوم وسائر العلوم

ويشتمل النظر في ذلك على علم النجوم والهندسة والحساب والموسيقى والميكانيكيات، وهاك خلاصة الكلام فيها:

(١) كتب أقليدس، منها: أصول الهندسة نقله الحجاج بن مطر نقلين؛ الهاروني والمأموني، ونقله إسحاق بن حنين وأصلحه ثابت بن قرة، ونقله أبو عثمان الدمشقي. ولا يزال هذا الكتاب باقيًا إلى الآن. ومن كتب أقليدس التي لم يعرف مُترجموها: كتاب الظاهرات، وكتاب اختلاف المناظر، وكتاب الموسيقى، وكتاب القسمة، وكتاب القانون، وكتاب الثقل والخفة.

(٢) كتب أرخميدس، وهي عشرة ولم يعرف ناقلوها.

(٣) أبلونيوس، صاحب كتاب المخروطات، وكتاب قطع السطوح، وقطع الخطوط، والنسبة المحدودة، والدوائر المماسة، ولم يعرف ناقلوها.

(٤) منالاوس، له كتاب الأشكال الكروية، وكتاب أصول الهندسة، نقله إلى العربي ثابت بن قرة.

(٥) بطليموس القلوذي، صاحب كتاب المجسطي الشهير، وقد تقدم خبر نقله وتفسيره على يد يحيى البرمكي، ولبطليموس أيضًا كتاب الأربعة، نقله إبراهيم بن الصلت وأصلحه حنين، وكتاب جغرافيا المعمور وصفة الأرض، نقله ثابت إلى العربي نقلًا جيدًا، ولبطليموس ١٥ كتابًا آخر في الجغرافيا وغيرها لم يُعرف ناقلوها.

(٦) أبرخس، له كتاب صناعة الجبر ويعرف بالحدود، وكتاب قسمة الأعداد لم يعرف ناقلها.

(٧) ذيوفنطس، له كتاب صناعة الجبر لم يعرف ناقله.

وهناك كتب عديدة في الرياضيات والهيئة والأزياج ونحوها ذكرها ابن النديم ولم يذكر ناقليها، منها: كتاب العمل بالأسطرلاب المسطح لأبيون البطريق، وكتاب جرم الشمس والقمر لأرسطرخس، وكتاب العمل بذات الحلق، وكتاب جداول زيج بطليموس المعروف بالقانون المسير، وكتاب العمل بالأسطرلاب، وكلها لثاون الإسكندري.

أضف إلى ذلك كتب الرياضة التي تقدم ذكرها أثناء ذكر كتب الفلسفة رغبة في إيرادها لأصحابها مع سائر مؤلفاتهم، وقد نقل للمسلمين من كتب الموسيقى عن اليونانية كتاب الموسيقى الكبير لنيقوماخس الجهراسيني، وكتاب الموسيقى المنسوب لأقليدس، وقد تقدم ذكره، ومقالات في الموسيقى لفيثاغورس وغيره، وكتاب الريموس، وكتاب الإيقاع لأرسطكاس، وكتاب الآلات المصونة المسماة بالأرغن البوقي، والأرغن الزمري لمورطس.

ونقل لهم من كتب الميكانيكيات غير ما جاء في كتب أرخميدس كتاب الحيل الروحانية، وكتاب رفع الأثقال لأيرن، وكتاب استخراج المياه لبادروغوغيا، وكتاب الآلات المصونة على ستين ميلاً لمورطس.

ثانيًا: الكتب المنقولة عن الفارسية

أكثر الكتب المنقولة عن الفارسية في النهضة العباسية من قبيل الآداب والأخبار والسير والأشعار وبعضها في النجوم مما نقله آل نوبخت وعلي

ابن زياد التميمي وغيرهم، أما ما بقي من كتبهم المنقولة إلى العربية فهي مع أسماء ناقليها.

(١) كتاب رستم وأسفنديار: جبلة بن سالم.

(٢) كتاب بهرام شوس: جبلة بن سالم.

(٣) كتاب خداينامه في السير: عبد الله بن المقفع.

(٤) كتاب آيين نامه: عبد الله بن المقفع.

(٥) كتاب كليلة ودمنة: عبد الله بن المقفع.

(٦) كتاب مزدك: عبد الله بن المقفع.

(٧) كتاب التاج في سيرة أنوشروان: عبد الله بن المقفع.

(٨) كتاب الأدب الكبير: عبد الله بن المقفع.

(٩) كتاب الأدب الصغير: عبد الله بن المقفع.

(١٠) كتاب اليتيمة: عبد الله بن المقفع.

(١١) كتاب هزار أفسانه: لم يذكر ناقله.

(١٢) كتاب شهريزاد مع أبرويز: لم يذكر ناقله.

(١٣) كتاب الكارنامج أنوشروان: لم يذكر ناقله.

(١٤) كتاب دارا والصنم الذهب: لم يذكر ناقله.

(١٥) كتاب بهرام ونرسي: لم يذكر ناقله.

(١٦) كتاب هزاردستان: لم يذكر ناقله.

(١٧) كتاب الدب والثعلب: لم يذكر ناقله.

(١٨) سير ملوك الفرس: وهي غير كتاب، ترجم أحدهما محمد بن جهم البرمكي، وآخر ترجمه زادويه بن شاهويه الأصفهاني، وآخر محمد بن بهرام بن مطيار الأصفهاني.

ومما يجب ذكره من مترجمات الفرس وإن كان من مؤلفاتهم بعد نشوء التمدن الإسلامي: كتاب «شاهنامه» التي نظمها الفردوسي للسلطان محمود الغزنوي سنة ٣٨٤هـ في نحو ٦٠٠٠٠ بيت على نسق إلياذة هوميروس، وقد تضمنت تاريخ الفرس القديم، نقلها إلى العربية الفتح ابن علي البنداري الأصبهاني نثرًا للملك المعظم عيسى الأيوبي، أتم ترجمتها سنة ٦٩٧هـ، ولا ريب أن العرب نقلوا من اللغة الفارسية كتبًا أخرى تاريخية وأدبية وخصوصًا ما يتعلق بالمذاهب القديمة ونحوها.

ثالثًا: الكتب المنقولة عن اللغة الهندية

نقل العرب عن اللغة الهندية (السنسكريتية) كثيرًا من كتب الطب والنجوم والرياضيات والحساب والأسمار والتواريخ، والكتب الطبية المنقولة عنها كثيرة وإن لم يصل إلينا من أخبارها إلا القليل؛ لأن بغداد كانت في إبان الزهو العباسي كعبة العلماء والأطباء والنجار والسياح من كل الملل، وكان للبرامكة عناية باستقدام أطباء الهند إليها، وقد بعث يحيى ابن خالد فاستقدم بضعة صالحة، منهم: «كنكه» و«بازيكر» و«قليرفل» و«سندباز» وغيرهم.

ويظهر مما كتبه المسلمون بعد العصر العباسي في الأدب أو الطب أو الصيدلة أو السير أنهم اعتمدوا في جملة مصادرهم على كتب هندية الأصل، فإنك إذا راجعت مثلًا قانون ابن سينا، أو الملكي للرازي، أو غيرهما من كتب الطب الكبرى، رأيتهم يذكرون بعض الأمراض ويشيرون إلى أن الهنود يسمونها مثلًا كذا وكذا، أو يعالجونها بكذا وكذا، وإذا قرأت العقد الفريد لابن عبد ربه، أو سراج الملوك للطرطوشي، أو غيرهما من كتب

الأدب المهمة رأيت مؤلفيها إذا ذكروا بعض الآداب أو الأخلاق أو نحوها قالوا: «وفي كتاب الهند كذا وكذا».

كتب الطب وفروعها

على أننا نعلم ما كتبه صاحب طبقات الأطباء أنه اشتهر حوالي العصر العباسي جماعة من علماء الهند في الطب والنجوم والفلسفة وغيرها، منهم كنكه الهندي، وهو من متقدميهم وأكابرهم، وخصوصًا في علم النجوم فضلًا عن الطب، وله مؤلفات كثيرة منها: كتاب النموذار في الأعمار، وكتاب أسرار المواليد، وكتاب القرانات الكبير والصغير، وكتاب في الطب يجري مجرى الكناش، وكتاب في التوهم، وكتاب في إحداث العالم والدور في القرآن. ومنهم أيضًا صنجهل وباكهر وغيرهما.

وقد نقل كثير من مؤلفاتهم في النجوم والطب إلى اللغة العربية إمَّا رأسًا أو بوساطة اللغة الفارسية، بأن يُنقل الكتابُ من الهندي إلى الفارسي، ثم ينقل من الفارسي إلى العربي، منها كتاب سيرك الهندي، وقد نقله من الفارسي إلى العربي عبد الله بن علي، وكتاب آخر في علامات الأدواء ومعرفة علاجها، أمر يحيى بن خالد البرمكي بنقله، وكتاب فيما اختلف فيه الروم والهند في الحار والبارد، وقُوى الأدوية، وكتب أخرى في فروع الطب.

ومن مشهوريهم منكه الهندي المتقدم ذكره بين المترجمين، وقد أتى بغداد بإشارة يحيى بن خالد لمعالجة الرشيد فشفاه، فأجرى عليه الرشيد رزقًا واسعًا، وكان منكه يعرف الفارسية أيضًا، فكان ينقل من الهندي إلى الفارسي، وله حديث طويل ذكره صاحب طبقات الأطباء، ومنهم صالح ابن بهلة الهندي، جاء العراق في أيام الرشيد أيضًا، ونال شهرة واسعة

وخالط أطباءها يومئذ واختلطوا به، فإن لم يكونوا نقلوا شيئًا من كتبه فلا بد أن يكونوا قد اقتبسوا شيئًا من آراء الهند فيه.

ومن مشهوريهم أيضًا شاناق، وله كتاب في السموم خمس مقالات، نقله من اللسان الهندي إلى الفارسي منكه الهندي، وأوعز يحيى بن خالد إلى رجل يعرف بأبي حاتم البلخي بنقله إلى العربي، ثم نُقل للمأمون على يد العباس بن سعيد الجوهري مولاه، ولجودر الحكيم كتاب في المواليد نقل إلى العربي أيضًا.

ومن الكتب الطبية التي نقلت من الهندية إلى لسان العرب في العصر العباسي غير ما تقدم ذكره:

(١) كتاب سسرد في الطب نقله منكه.

(٢) كتاب أسماء عقاقير الهند نقله منكه لإسحق بن سليمان.

(٣) كتاب إستانكر الجامع نقله ابن دهن.

(٤) كتاب صفوة النجح ابن دهن.

(٥) كتاب مختصر الهند في العقاقير لم يذكر ناقله.

(٦) كتاب علاجات الحبالى للهند لم يذكر ناقله.

(٧) كتاب روسا الهندية في علاجات النساء لم يذكر ناقله.

(٨) كتاب السكر للهند لم يذكر ناقله.

(٩) كتاب التوهم في الأمراض والعلل لم يذكر ناقله.

(١٠) كتاب رأي الهند في أجناس الحيات وسمومها لم يذكر ناقله.

كتب النجوم والرياضيات

أما الرياضيات والكواكب فللهند شأن كبير فيها، وقد ذكرنا خبر السند

هند فيها تقدم، وكان لنقل هذا الزيج تأثير في علم النجوم عند العرب، وقد قلدوه وألفوا على مذهبه. فممن ألف على هذا المذهب محمد بن إبراهيم الفزاري، وحبش بن عبد الله البغدادي، ومحمد بن موسى الخوارزمي وغيرهم. والفزاري أول من عمل إسطرلابًا في الإسلام، وما من فلكي من فلكيي المسلمين أراد التوسع في علم النجوم إلا طالع كتبهم، إما في اللغة الهندية أو في ترجمتها إلى العربية، وأكثر المسلمين عناية في ذلك واطلاعًا على آداب الهند وعلومهم أبو ريحان البيروني المتوفَّى سنة ٤٤٠هـ، فإنه طاف بلاد الهند واطلع على علومهم وآدابهم، ثم ألف كتابه «الآثار الباقية عن القرون الخالية»، وله من المؤلفات ما يعد بالعشرات، ومنها كثير في علوم الهند إما ترجمة أو تصحيحًا أو نقدًا.

ومما ذكره من كتبه التي ألفها في هذا الصدد قوله: وعملت في السند هند كتابًا سميته «جوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم» جاء ما تم منه ٥٥٠ ورقة، وهذبت زيج الأركند وجعلته بألفاظي؛ إذ كانت الترجمة الموجودة منه غير مفهومة وألفاظ الهند فيها متروكة لحالها، وعملت كتابًا في المدارين المتحدين والمتساويين، وسميته بخيال الكسوفين عند الهند، وهو معنى مشتهر فيما بينهم لا يخلو منه زيج من أزياجهم، وليس بمعلوم عند أصحابنا، وعملت تذكرة في الحساب والعد بأرقام السند والهند في ٣٠ ورقة، وكيفية رسوم الهند في تعلم الحساب، وتذكرةً في أن رأي العرب في مراتب العدد أصوب من رأي الهند فيها، وفي راسكيات الهند وترجمة ما في إبرهم سدهاند من طرق الحساب، ومقالة في تحصيل الآن من الزمان عند الهند، ومقالة في الجوابات على المسائل الواردة من منجمي الهند،

ومقالة في حكاية طريقة الهند في استخراج العمر، وترجمة كلب باره، وهي مقالة للهند في الأمراض التي تجري مجرى العفونة وغير ذلك.

فيؤخذ من هذا أن الهنود أهل علم ورأي في النجوم وعلومها، وأن المسلمين نقلوا عنهم شيئًا كثيرًا.

كتب الأدب

وأما ما نُقل إلى العربية فمنها: كتب الهند في الأدب والتاريخ والمنطق والأسمار والخرافات:

(١) كتاب كليلة ودمنة، وقد نقل عن طريق الفارسية كما تقدم، وبعد نقله إلى العربية نظموه شعرًا كما نظمه الفرس من قبلهم، وممن نظمه في العربية أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي، وعلي بن داود.

(٢) كتاب سندباد الكبير.

(٣) كتاب سندباد الصغير.

(٤) كتاب البد.

(٥) كتاب يوذاسف.

(٦) يوذاسف مفرد.

(٧) كتاب أدب الهند والصين.

(٨) كتاب هابل في الحكمة.

(٩) كتاب الهند في قصة هبوط آدم.

(١٠) كتاب طرق.

(١١) كتاب دبك الهندي في الرجل والمرأة.

(١٢) كتاب حدود منطق الهند.

(١٣) كتابساديرم.

(١٤) كتاب ملك الهند القتال والسباح.

(١٥) كتاب بيدبا في الحكمة.

ومما نقله العرب عن الهنود كتاب في الموسيقى اسمه في الهندية «بيافر» ومعناه ثمار الحكمة، وفيه أصول الألحان وجوامع تأليف النغم.

رابعًا: الكتب المنقولة عن النبطية

قد رأيت فيما تقدم كتبًا كثيرة فلسفية وطبية نقلت من اليوناني إلى العربي بوساطة اللغة السريانية أخت النبطية، أو هي عينها، فلا نتعرض لذكرها، وإنما نريد هنا الكتب التي كانت مكتوبة في اللغة الكلدانية أو النبطية، ونقلت إلى العربي رأسًا، ولولا نقلها لضاعت، وأهم تلك الكتب:

(١) كتاب الفلاحة النبطية، فإنه فريد في بابه، وقد نقله إلى العربية أحمد ابن علي بن المختار النبطي المعروف بابن وحشية سنة ٢٩١هـ، وظل معتمد أهل الزراعة إلى أمد غير بعيد، وقد نقل إلى اللغات الإفرنجية، ولولا نقله إلى العربية لضاع وخسره العالم كما يؤخذ من مطالعة مقدمته، فقد قال ابن وحشية وهو يُملي الكتاب على علي بن محمد بن الزيات سنة ٣١٨هـ: «اعلم يا بني أني وجدت هذا الكتاب في كتب الكسدانيين «الكلدان أو النبط» يترجم معناه في العربية كتاب فلاحة الأرض وإصلاح الزرع والشجر والثمار ودفع الآفات عنها، وكان هؤلاء الكسدانيون أشد غيرةً عليها، لئلا يظهر هذا الكتاب، فكانوا يخفونه بجهدهم، وكان الله عز وجل قد رزقني المعرفة بلغتهم ولسانهم، فوصلت إلى ما أردت من الكتب بهذا الوجه، وكان هذا الكتاب عند رجل متميز، فأخفى عني علمه، فلما اطلعت عليه

لُته في إخفاء الكتاب عني، وقلت له: إنك إن أخفيت هذا العلم دُثر ومضى ولا يبقى لأسلافك ذكر، وما يصنع الإنسان بكتب لا يقرؤها ولا يدع من يقرؤها، فهي عنده بمنزلة الحجارة والمدر، فصدَّقني في ذلك وأخرج إليَّ الكتب، فجعلت أنقل كتابًا بعد كتاب، فكان أول كتاب نقلته كتاب دواناي البابلي في معرفة أسرار الفلك والأحكام على حوادث النجوم، وهو كتاب عظيم المحل، ونقلت كتاب الفلاحة هذا بتمامه» إلخ ...

(٢) كتاب طرد الشياطين ويُعرف بالأسرار.

(٣) كتاب السحر الكبير.

(٤) كتاب السحر الصغير.

(٥) كتاب دوار على مذهب النبط.

(٦) كتاب مذاهب الكلدانيين في الأصنام.

(٧) كتاب الإشارة في السحر.

(٨) كتاب أسرار الكواكب.

(٩) كتاب الفلاحة الصغير.

(١٠) كتاب في الطلسمات.

(١١) كتاب الحياة والموت في علاج الأمراض.

(١٢) كتاب الأصنام.

(١٣) كتاب القرابين.

(١٤) كتاب الطبيعة.

(١٥) كتاب الأسماء.

وأكثرها من نقل ابن وحشية غير ما لا بد من نقله من كتب الدِّين وأخبار الكلدان القدماء.

خامسًا: الكتب المنقولة عن العبرانية واللاتينية والقبطية

لا ريب أن كثيرًا من تعاليم اليهود وآدابهم المدونة في التلمود وغيره من كتبهم قد نقل إلى العربية، وإن كنا لا نرى شيئًا منها مدونًا على أنه مترجم؛ لأنهم كانوا ينقلونها شفاهًا للصحابة وغيرهم على ما تقدم، وربما دونوا منها شيئًا وضاع، وأما ما وصل إلينا خبره من المنقول عن العبرانية، فترجمة أسفار التوراة، نقلها سعيد الفيومي المتوفَّى سنة ٣٣٠هـ، وهو أقدم من نقل التوراة إلى العربية مما وصل إلينا خبره، وله أيضًا شروح وتفاسير عليها.

ولا يبعد أن يكون قد نقل إلى العربية بعض الكتب عن اللاتينية؛ لأنها كانت تحوي كثيرًا من العلوم الفلسفية والتاريخية والشرعية وغيرها، وربما فات نقلة الأخبار ذكر ما نقل عنها، وقد رأينا في جملة المترجمين يحيى بن البطريق لا يعرف غير اللغة اللاتينية، وأنه ترجم عدة كتب، فالظاهر أنه ترجمها عن اللاتينية.

وأما القبطية فإذا لم ينقل العرب عنها رأسًا، فلا نشك في أنهم نقلوا كثيرًا من علوم المصريين بوساطة اللغة اليونانية، وخصوصًا صناعة الكيمياء القديمة وغيرها مما برع فيه المصريون، وأما الكيمياء فقد نقلت عن القبطي واليوناني معًا بأمر خالد بن يزيد.

(٤) آثار النهضة المأمونية

هذه هي بعض كتب العصر، وكانت لها آثارها ونتائجها في العقلية العربية أولًا، وفي المدينة العربية ثانيًا، حتى أصبحنا نرى المأمون يُضرب به المثل في عظم الحركة العلمية، وحتى نرى «نولدكه» ومحرري دائرة المعارف

البريطانية وغيرهم يمثلون المأمون بأنوشروان وغيره من خَدَمة الإنسانية ورُسل الثقافة العامة.

والحق أن المأمون وعصر المأمون كانا متقدمين عن زمنهما، إذ كانت حالة المأمون وحالة المملكة المأمونية في ذلك الحين أرقى بمراحل من حالة ملوك أوروبا وممالك أوروبا.

ويقول الدكتور «طوطح» في رسالته الإنجليزية عن حالة التعليم عند العرب: «إنه بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكبًا على مطالعة رسائله مع أترابه في مدرسة القصر كان المأمون يعالج الفلسفة ومناقشة أقضيتها هناك في بغداد»، ويقول في مكان آخر من رسالته القيمة: «إن المأمون أوفد عميد بيت الحكمة إلى بلاد اليونان لنقل حكمة اليونان وعلوم اليونان إلى اللغة العربية». وهناك أقوال كثيرة عن آثار النهضة المأمونية، وهي لا تخرج عما قدمناه لك من رأي السير وليام ميور عن ازدهار العلوم والمعارف في عصر المأمون، فنكتفي بما قدمناه عن التبسط في القول في هذه الناحية الهامة حقًّا.

على أن لهذه النهضة المأمونية آثارها ونتائجها أيضًا في زيادة الثروة اللفظية في اللغة العربية، وقد بيّنا لك طرفًا منه في كلمتنا عن حالتها في الصدر العباسي، فلا حاجة إذن بنا إلى تكراره هنا، وقصارى ما نقوله أنا نحيلك إلى بعض المصادر القيمة فيما نحن في صدده من بيان تأثر اللغة بهذه النهضة التي تشبه في كل وجوهها حركة التجديد «رينسناينس» في أوروبا، وهي: كتاب خطي منسوب للجاحظ عن الألفاظ الفارسية في اللغة العربية، وبحوث العلامة أنستانس الكرملي البغدادي في السنة الأولى من المشرق عن الكلم اليونانية في اللغة العربية، كما أحيلك إلى بحوث

«مجلة المجمع العلمي» في شأن تفسير الألفاظ العباسية الواردة في كتاب «نشوار المحاضرة».

أما فن التاريخ والجغرافيا فلم تبدأ العناية الجدية بهما إلا منذ أيام اليعقوبي وابن خرداذيه[٢] في نهاية القرن الثاني.

وأما العلوم القرآنية وما تفرع عنها فقد سبق أن أشرنا إليها في بابها من العصر العباسي، ويظهر أن عناية المأمون بها لم تكن مثل عنايته بالفلسفة اليونانية وما إليها، اللهم إذا كانت موجهة إلى الناحية الاعتزالية الكلامية.

وقد آن لنا الآن أن نتكلم عن القول بخلق القرآن لاتصاله وكبير أثره في الحياة العلمية والعقلية في عصر المأمون.

(٥) القول بخلق القرآن

يقول ابن الأثير في تاريخه عن هشام بن عبد الملك: «إن الجعد بن درهم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام، فأخذه وأرسله إلى خالد القسري، وهو أمير العراق، وأمره بقتله، فحبسه خالد ولم يقتله، فبلغ الخبر هشامًا، فكتب إلى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله، فأخرجه خالد من الحبس في وَثاقه، فلما صلى العيد يوم الأضحى قال في آخر خطبته: انصرفوا وضحُّوا يقبل الله منكم، فإني أريد أن أضحِّي اليوم بالجعد بن درهم، فإنه يقول: ما كلم الله موسى، ولا اتخذ إبراهيم خليلاً، تعالى الله عما يقول الجعد علوًّا كبيرًا، ثم نزل وذبحه».

ويقول ابن الأثير في حياة مروان بن محمد: إن سبب تسميته بالجعدي ذهابه مذهب الجعد بن درهم في القول بخلق القرآن، والقدر وغير ذلك.

ومن هذا تعلم أن القول بخلق القرآن بدعة نبتت في العصر الأموي، ثم لم تجد الجو الذي تنمو فيه وتُرعرع حتى كان عصر المأمون، فوجدت من شخصيته العالمة، ومن نفوذه العظيم ونفوذ علمائه خير متعهد لنمائها، حريص على نصرتها، شديد اليد بالبطش على مخالفيها.

ولعلك تتساءل لمَ وجد القول بخلق القرآن من المأمون الصدر الرحب والعامل على نصرته؟ وهل كان مُوفقًا فيما أخذه على عاتقه أو قد اشتد به الغلو في تأييد وجهة نظره حتى خرج به عن القصد؟

ونحن قبل أن نجيبك عن هذه الأسئلة وقبل أن نعرض للموضوع من وجهاته المختلفة، نريد أن ننقل لك كلمة للأستاذ «ميور» في هذا الصدد، وهي وإن لم تكن تتفق مع وجهة نظرنا في هذا المبحث، تبين لنا وجهة نظر مُتشرِّق بحَّاثة كبير فيما نحن بصدده.

يقول الأستاذ «ميور» في الفصل الذي عقده عن المأمون في كتابه الممتع «الخلافة»: «وفي الحق أن المأمون كان متعصبًا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه، شديد الميل إلى العلويين، ونشأ عن ذلك في السنوات الأخيرة من حكمه مزيج من حرية الأفكار والتعصب، وكان المأمون في بعض هذه المسائل واسع الحرية حقًّا لدرجة مدهشة، وقد ألغى من بضع سنوات مضَت الأمر الذي كان أسلافه قد أصدروه يُحرِّمون فيه ذكر معاوية أو أحد الأمويين بخير، وأباح للمسيحيين حرية المناقشة في أي الدينين أفضل: الإسلام أم المسيحية، غير أن ميوله الفارسية التي كان يجنح إليها دائمًا دفعته أخيرًا أن يتناقش بحماسة في نظريات المعتزلة الذين أباحوا حرية التفكير، ثم أحاط المأمون نفسه بالفقهاء وعلماء الدين من كل فئة،

وأباح لهم المناقشة في حضرته في نظريات كان البحث ممنوعًا فيها؛ كعلاقة الإنسان بخالقه، وطبيعة الألوهية وغير ذلك، وأخيرًا أعلن تحوله إلى عقائد تخالف تعاليم الدين الصحيحة، فمن ذلك أنه كان يعتقد بمذهب الذين يقولون بالاختيار لا بالجبر، وأن القرآن وإن كان وحيًا إلا أنه مخلوق، بدلًا من العقيدة(٣) التي كانت لا تنازع؛ وهي أن القرآن أزلي غير مخلوق، وأعلن المأمون أيضًا أن عليًّا أشرف الخلق بعد النبي، وعلى هذه النظرية بُنيت نظرية الإمامة المقدسة أو الزعامة الدينية التي كانت تنتقل من عضو إلى آخر من بيت علي، وبدأ في تلقين الناس أنه يوجد مصادر أخرى غير القرآن والحديث يمكن الاسترشاد بها في مسائل الدين، وفسَّر القرآن تفسيرًا من غير تقييد بلفظه، وبذلك ذُلِّلت صعوبات كثيرة كانت تعترض حرية التفكير أو تقف عَثْرة في تقدم العمران؛ كإباحة شرب الخمر «كذا!» وزواج المتعة.(٤) وعلى مر السنين تحولت فكرة المأمون في خلق القرآن من مجرد رأي إلى إعلانه المشئوم الذي حمل فيه رعاياه بالاضطهاد والعقوبات على اتخاذه عقيدة لهم.

وقد أرسل إلى والي بغداد وهو في حملته الأخيرة على الروم أمرًا بأن يجمع كبار العلماء والفقهاء ويمتحنهم في هذه المسألة الخطيرة، ويرسل إليه إجابتهم، وقد تأثر كثير من العلماء في مجلس المناظرة الذي كان أشبه بمحكمة التفتيش، حتى أظهروا القول بخلق القرآن، إلا أن البعض بقي ثابتًا على عقيدته بأن القرآن غير مخلوق؛ كأحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي الذي حملوه مكبلًا بالحديد إلى معسكر الخليفة.

ولقد ذكر التاريخ أن اثنين من هؤلاء المخالفين هُدِّدا بالقتل، وأُرسل عشرون منهم تحت خفارة حراس لينتظروا في «طرسوس» عودة الخليفة

من حروبه، ولكن جاءتهم الأنباء في أثناء سيرهم في الطريق بموت المأمون. ولقد سوَّدت أمثال هذه الفظائع سمعة المأمون في سنوات كثيرة» ا.هـ.

ذلك هو رأي المتشرق «ميور»، ولنرجع الآن إلى معالجة الإجابة عما تساءلتَ عنه فنقول: إنك جِدُّ عالم بأن المأمون كان تلميذًا ليحيى بن المبارك الزيدي المتهم بالاعتزال، جد عالم بصلته بثمامة بن أشرس، زعيم المذهب الثمامي في الاعتزال وإعجابه به، حتى عرض عليه الوزارة مرتين، كما أسلفنا لك القول في باب الوزارة، جد عالم بأن المأمون كان يعقد مجالس للكلام في مختلف البحوث، وكان من نتائج هذه المجالس أن قرَّب إليه كل متكلم حاذق أو مفكر بصير بمداخل القول ومخارجه؛ مثال أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم بن سيار وغيرهم، وأنت جد عالم بأن ثمامة والعلاف وإبراهيم كانوا من مشيخة الاعتزال، أنت جد عالم بهذا كله، فلا غرو أن حبب هؤلاء القوم إلى المأمون مذهبهم، ولا غرو أن كانت مهمتهم ميسورة معبدة؛ لأنهم وجدوا من المأمون ذلك التلميذ المُتأثِّر بمذهب أستاذه ابن المبارك.

كل هذه العوامل كانت في الواقع ناحية واحدة، ولها أثرها القوي في تنمية النزعة الاعتزالية في نفس المأمون، بيد أن هنالك ناحية قوية أخرى لها أثرها القوي أيضًا، تلك الناحية هي حركة النقل والترجمة، تلك الحركة التي حببت إلى المأمون الفلسفة وما إلى الفلسفة، ووجهت عنايته إلى المنطق وما إلى المنطق، وبعثت في نفسه حب أرسططاليس، حتى أصبح موضع تفكيره في يقظته ونومه. وصفوة القول أن الناحية الثانية لم تكن لتقل عن الأولى أثرًا، فقد هيأت منه ذلك التسامح الذي يتبع ما توحي به سلسلة أفكاره.

وسترى في أخذه بالقول بخلق القرآن إلى أي مدًى دفعت به حرية

التفكير حتى وصلت به إلى ما يناقض حرية التفكير؛ لأنه ليس من حرية التفكير في شيء تلك الطريقة الشاذة في إلزام العلماء وجلة الفقهاء الأخذ بمذهبه، وليس من حرية التفكير في شيء تلك النتائج السيئة التي انتهت إليها مأساة القول بخلق القرآن في أيام المعتصم وأيام غير المعتصم.

وقد أثبتنا لك في باب المنثور في الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث مثلاً مما كتبه المأمون إلى ولاته في الأخذ بمذهبه في القول بخلق القرآن، وهو كتابه إلى إسحاق بن إبراهيم، كما أثبتنا لك ما رواه لنا الطبري مما حصل وقتئذٍ، فراجعهما ثمة.

هوامش

(١) نقل الدولة إليهم.

(٢) انظر القاموس وشرحه في مادة «روم» فإنه ضبطه بالياء المثناة بعد الذال المعجمة وبعد الياء هاء.

(٣) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «ما كان عند المسلمين عقيدة بهذا الوصف، ولكن القول بخلق القرآن جاء بِكْرًا لم يكن لرسول الله ولا لأصحابه ولا للتابعين قول ينافيه أو يوافقه، فلما أغرم المأمون بهذه المقالة وعرضها على العلماء لجئوا إلى كتاب الله ينظرون فيه حكم المقالة التي لا عهد لهم بها فلم يجدوا، فنظروا إلى السنة فلم يجدوا، والقوم في ذلك العهد يردون كل شيء إلى الكتاب والسنة، فلما لم يجدوا فيها حكمًا توقفوا في هذا القول احتياطًا لدينهم أن يقولوا على الله ما لا يعلمون، فلم يرض المأمون هذا التوقف واعتقد أنهم يرمون بهذا إلى اعتقاد أن مع الله قديمًا سواه، وأن يوجد موجود ولا أثر لله في إيجاده، ولجَّ في إعناتهم وتناوُلِهم بالحبس والإيذاء».

(٤) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «قد رجع المأمون عن هذه المقالة بعد أن أقام أحمد بن دواد الحجة عليه في ذلك بما ملخصه: أن زوجة المتعة ليست الزوجة التي يجب نفقتها وترث ويثبت نسب الولد منها كما هو شأن الزوجة الشرعية، فهي ليست زوجة وليست ملك يمين، والله تعالى يقول: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ فهي بما وراء ذلك، ويكون زواج المتعة زنًا، وعامة أهل الإسلام على هذا سوى الشيعة الرافضة».

الفصل التاسع

الحياة الأدبية في عصر المأمون

(١) توطئة

لكتاب الخلافة «للسير وليام ميور» مكانة رفيعة في التاريخ العربي، ولا سيما عصرنا المأموني، بناحيتيه العلمية والأدبية؛ ذلك لأن الرجل إلى جانب دراسته الدقيقة لمؤلفات العرب وكتابات العرب وبحوث المؤرخين العرب، لم يترك مصدرًا من مصادر المُتشرِّقين أمثال: «نولدكه» و«كريمر» و«هرزلد» و«أمرز» و«بربياد» و«مينارد» و«چوچ»، وغيرهم من عشرات المؤرخين إلا وقد استوعبه واستقصى البحث فيه، كذلك لم يترك مصدرًا من مصادر التاريخ الفارسي، وهو كما نعلم شديد الصلة بعصرنا المأموني، من غير أن يدرسه حق دراسته ويفهمه حق فهمه، فطالع فيما طالعه في ذلك الباب آثار «ماكولم» و«فرازر» و«برون» و«سيكس» و«جوجينس» وغيرهم.

من أجل هذا، ومن أخذ ذلك المؤرخ البحاثة بالدقة في كل ما تصدر له جاءت جلّ بحوثه أفضل من سواه، وأرفع مكانة من غيره، ونحن نستبيح لأنفسنا أن ننقل إليك ما ذكره في هذا الباب، قال: «كان حكم المأمون مجيدًا عادلًا، وكان عصره مزدهرًا بأنواع العلوم والفنون والفلسفة، وكان أديبًا مولعًا بالشعر متمكنًا منه، ولقد حدث مرة أن شاعرًا كان ينشد بين يديه قصيدة من مائة بيت، فكان الشاعر كلما أنشد شطر بيت بادره المأمون بشطره الآخر، حتى دهش الشاعر وحار في سرعة بديهته. وكان مجلسه

حافلًا بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة؛ إذ كان يقربهم إليه، ويجزل لهم العطاء، وكما كان عصره عامرًا بالعلماء والأدباء والنحاة؛ فإنه كان كذلك حافلًا بجماعة المحدثين والمؤرخين والفقهاء؛ كالبخاري والواقدي الذي نحن مدينون له بأوثق السير عن حياة النبي، والشافعي[1] وابن حنبل. وكان المأمون يُجِلُّ علماء اليهود والنصارى ويحتفي بهم في مجلسه، لا لعلمهم فحسب بل لثقافتهم في لغة العرب وحذقهم في معرفة لغة اليونان وآدابها. ولقد أخرجوا من أديرة سوريا وآسيا الصغرى وسواحل الشام وفلسطين كتبًا خطية في الفلسفة والتاريخ وعلم الهندسة لعلماء اليونان وفلاسفتهم، ثم ترجموها إلى العربية بدقة وعناية عظيمة، وبهذه الوسيلة انتقلت علوم الغرب إلى العالم الإسلامي، ولم تقتصر جهود هؤلاء الجهابذة على نقل هذه الكتب القديمة إلى اللغة العربية، بل توسعوا وأضافوا إليها ما اكتسبوه من مباحثهم واطلاعهم، وأقاموا مرصدًا في «سهل تَدْمُر» مجهزًا بجميع الآلات التي تمكنهم من النجاح في دراسة علمي الفلك والهندسة والتوسع فيهما، وقد صنفوا كتبًا في الرحلات والتاريخ ولا سيما كتب الطب، وعُنُوا عناية كبيرة ببعض علوم تافهة، إلا أنها كانت أكثر ذيوعًا وانتشارًا كالتنجيم والكيمياء، وكان لمجهود هؤلاء العلماء الأثر الأكبر في نهضة أوروبا التي كانت غارقة في بحار الجهالة في العصور الوسطى؛ حيث أيقظتهم من غفلتهم، وأنارت لهم سبل علومهم التي كانوا أغفلوها، وهي علوم اليونان وفلسفتها» ا.هـ.

ويقول الأستاذ البحاثة «كرد علي» في بحث طريف له: إن عصر المأمون قد ازدان بكثير من حملة الشريعة والأدب، منهم: يحيى بن أكثم، وأبو محمد اليزيدي، والحسن بن زياد، وأبو داود الطيالسي، وأبو عبيد

القاسم بن سلام، وابن الأعرابي، والنضر بن شميل، وأبو عمرو الشيباني، ومحمد بن عمر الواقدي، وأبو عبيدة، والفراء، والأخفش، والأصمعي، والصغاني، والضبي، والشافعي، وابن سعد، وأبو داود، وابن أبي دواد، وابن حرب، وابن حنبل، والجاحظ، والقواريري، وقتيبة، وسعدويه الواسطي، وابن الجعد، وابن عُليَّة الأكبر، وأبو نصر التمَّار، وأبو مَعمَر القطيعي، وأبو العوَّام البزَّاز، وابن شُجاع، وبِشر المريسي، وبشر بن الوليد، وسجَّادة، ومحمد بن نوح، وأبو هارون بن البكاء، والهذيل محمد ابن الهذيل، وأبو زكريا المُري، ومحمد بن مبشر، إلى مئات غيرهم كانوا فخر الدولة وعنوان نبوغ الأمة.

أما الشعراء والكتاب فكانوا طبقة عالية كثيرة العدد كالحصى، جيدة المَنحَى والأسلوب، تغلب الرقة والجزالة على أهل هاتين الصناعتين، تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة حتى غدا الشعر المدني البديع ظاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلي، بعيدًا عن وصف الأطلال والدمن والركاب وطلب الثأر والمفاخرات الفارغة. هذا، وكان الجمهور يشارك الأدباء في فهم الشعر، وقدَّر الخطبَ والرسائل قدرها، فلم يكن الشعراء في واد والأمة في آخر، بل كان الشاعر أو الكاتب إذا قرض شعرًا أو حبر خطابًا تتناقله الأيدي في الحال، وتتعاوره الرواة فيفشو في الأمصار، وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الأديب، وشعر الشاعر، وخطبة الخطيب، ويحثه على تجويد مقاله. ا.هـ.

وبعد، فقد بينا في كلمتنا عن الحياة الأدبية في صدر العصر العباسي ما أخذت تتحول إليه الآداب العربية عامة في الألفاظ والأساليب والمعاني والأغراض، وبينا لك الأسباب التي كانت تبعث على هذا التحول،

من شدة الامتزاج بين العناصر المختلفة التي خضعت لسلطان العرب بالغرب، وما استتبعه هذا الامتزاج من إضافة ثقافات ومدنيات جديدة إلى ما كان للعرب من ثقافة ومدنية، ومن اتساع السلطان وامتداد أطرافه، ومن تشجيع الخلفاء لأهل العلم، وإكرامهم لرجال الأدب، ومن انصراف همم أولي الفضل إلى التأليف والترجمة، ومن كثرة حاجات الناس وتنوعها، حتى اضطرت اللغة أمام هذه العوامل وغيرها، مما سبق أن بيناه لك، أن تنفرج جوانبها لتسع هذه الأغراض، ولتقوم بحاجات الناس طبقًا لمقتضيات العصر وخضوعًا لسنة التحول.

بينا لك كل هذا، وقد يكون من التعسف أن نعرض لتحول الآداب في أيام المأمون خاصة، فإنه إذا افترضنا أن الآداب تحولت تحولًا خاصًّا في أيام المأمون، فقد يكون من العسير تبيين هذا التحول وتحديد مداه، ذلك بأن تحوُّل الآداب بطيء، ولا يمكن تبيينه إلا بعد ظهور آثاره ظهورًا لا سبيل إلى الشك فيه، بخلاف الحوادث السياسية، فإنك تستطيع أن تؤقت الحوادث السياسية بالسنة، بل بالشهر، بل باليوم، ولا تستطيع ذلك في الآداب إلا بعشرات السنين.

إذن رأيُنا في الآداب لعصر المأمون هو رأينا في الآداب لصدر العصر العباسي، وإنما الذي حدث أن السبيل التي سلكتها الآداب في صدر العصر العباسي قد بلغت غايتها في أيام المأمون، فعصر المأمون إذن هو الثمرة الناضجة لتغيُّر الآداب في العصر العباسي، أو بعبارة أخرى: يعتبر عصر المأمون العصر الذي بلغت فيه الآداب العربية الذروة من الكمال المقدور لها.

وسبيلنا الآن أن نورد لك من آثار عصر المأمون ما يقوم لديك دليلًا على هذه النتيجة، وقد أوردنا من هذه الآثار في المجلد الثالث ما فيه الكفاية.

(٢) المحادثة أو لغة التخاطب

بدأت لغة التخاطب تنحدر مدارجة عن الفصحى منذ الفتوح الإسلامية بسبب اتصال العرب بغير العرب ممن دان لسلطانهم، وانتظم في ملكهم.

ولقد لاحظنا أثناء مطالعتنا في الطبري وفي غير الطبري في الفترة المأمونية، أن بعض جند خراسان كانوا لا يفهمون العربية فيقولون مثلًا: «بُسر زبيدة» و«مكن» وغيرها من الألفاظ الفارسية التي أثبتها المؤرخون.

وقد يكون من الممتع حقًّا أن يخصص باحث ممن لهم اطلاع على لغات البلدان التي فتحها العرب كتابًا لدراسة مبلغ تأثر اللغة العربية بلغات من خضع لسلطان العرب في الأرجاء المختلفة، وقصارى ما نقرره هنا أن اللغة العربية تأثرت حقًّا من أثر الفتوح، سواء أكانت فتوح سيف أم فتوح ثقافات وترجمات قد أضعفت من بلاغة اللسان، ومتانة اللفظ، بقدر ما أغنت من ثروة ذهنية عظيمة.

وإنك إذا ذكرت ما كتبناه في الفصل السادس وفي نظيره من كتابنا عن الصدر العباسي في شأن ما زيد في الألفاظ العربية، من ألفاظ العلوم المترجمة في ذلك العصر، وذكرت أن الموالي الفرس وغيرهم هم الذين قد عُهد إليهم بالترجمة والنقل والتحرير، إذا ذكرت هذا إلى جانب ما قدمناه لك، فإنك تسوغ معنا ما نذهب إليه من القول بتأثر اللغة في ذلك العصر.

وفي هذا القدر الكفاية، ولنتدرج إلى ذكر كلمة عن الخطابة.

(٣) الخطابة

قلنا فيما سبق: إن عصر المأمون كان الثمرة الناضجة للآداب العربية في العصر العباسي، فهل كان الأمر كذلك في الخطابة أيضًا؟

أنت تعلم أن قوة الشيء ترجع إلى قوة عوامله وأسبابه، ونحن نرى، معتمدين على ما لدينا من آثار خطابية لهذا العصر، أن أسباب الخطابة وعواملها كانت ضعيفة ضعفًا نسبيًّا، ومن ثم لم تُماشِ الخطابةُ سائر أنواع الآداب في سبيلها إلى الكمال المقدور لها، ولعل ذلك يرجع إلى ضيق مجالها وضعف الحاجة إليها، فبعد أن كنا نراها في العصر الأموي الوسيلة إلى قمع الفتن ورد البدع، ولسان الخليفة في رعيته، والقائد في جنده، والزعيم في أتباعه، وبعد أن كنا نرى حظها في عصر الانتقال وصدر العصر العباسي لا يقل عن حظها في العصر الأموي لحاجة الدعاية والزعماء إليها، أصبحنا نرى مجالها في عصر المأمون يضيق، حتى كادت تقصر على التهنئة والتعزية والخطب الدينية؛ كالجمعة والعيدين. وضيق مجالها يرجع إلى استغناء الخلفاء العباسيين وعمالهم وقوَّادهم عنها بالمنشورات العامة، حيث يتبسطون فيها ويُضمِّنونها ما يريدون من أغراض، ثم تُتلى على من يُراد أن تُتلى عليهم، ولعل ذلك لاصطباغ الخلافة العباسية بالصبغة الفارسية، ولاحتجاب الخلفاء عن مخالطة الجماهير، ولأن جل عمال بني العباس في ذلك العصر كانوا من الموالي، وهؤلاء وإن أُوتوا حظًّا عظيمًا من بلاغة القول وحسن البيان، فقد كانت لا تزال بألسنتهم لوثة من العُجمة تحول بينهم وبين ما تقتضيه الخطابة من اندفاع الألفاظ وتدفقها.

لعل لكل هذا أو بعضه أثرًا ما في تضييق مجال الخطابة والاستغناء عنها بالرسائل والمنشورات العامة، ومهما يكن من شيء فقد ألقيت في عصر

المأمون خطب قليلة القدر والقيمة، ننشر لك منها على سبيل المثال خطبتين: إحداهما للمأمون في عيد الفطر، والآخرى تهنئة بمقدم المأمون إلى بغداد.

خطبة المأمون

ألا وإن يومكم هذا يوم عيد وسنة وابتهال ورغبة، يوم ختم به الله صيام شهر رمضان، وافتتح به حج بيته الحرام، فجعله أول أيام شهور الحج، وجعله معقبًا لمفروض صيامكم، ومتنفل قيامكم؛ فاطلبوا إلى الله حوائجكم، واستغفروه لتفريطكم؛ فإنه يقال: لا كثير مع ندم واستغفار، ولا قليل مع تمادٍ وإصرار. اتقوا الله عبادَ الله، وبادروا الأمر الذي لم يحضر الشك فيه أحدًا منكم، وهو الموت المكتوب عليكم؛ فإنه لا يستقال بعده عثرة، ولا يُحظر قبله توبة، واعلموا أنه لا شيء بعده إلا فوقه، ولا يُعين على جزعه وعَلَزه وكُرَبه، وعلى القبر وظلمته، ووحشته وضيقه، وهول مطلعه، ومسألة ملَكيه إلا العمل الصالح الذي أمر الله به، فمن زلت عند الموت قدمه، فقد ظهرت ندامته وفاتته استقالته، ودعا من الرجعة ما لا يجاب إليه، وبذل من الفدية ما لا يقبل منه، فالله الله عباد الله، كونوا قومًا سألوا الرَّجعة فأُعطُوها إذ مُنِعها الذين طلبوها، فإنه ليس يتمنى المتقدمون قبلكم إلا هذا الأجل المبسوط لكم، فاحذروا ما حذركم الله منه، واتقوا اليوم الذي يجمعكم الله فيه لوضع موازينكم، ونشر صحفكم الحافظة لأعمالكم، فلينظر عبد ما يضع في ميزانه مما يثقل به، ومما يُملى في صحيفته الحافظة لما عليه، ولستُ أنهاكم عن الدنيا بأكثر مما نهتكم به الدنيا عن نفسها، فإن كلَّ ما بها يُحذِّر منها ويَنهَى عنها، وكل ما فيها يدعو إلى غيرها، وأعظم ما رأته أعينكم من فجائعها وزوالها ذم الله لها والنهي عنها،

فإنه يقول تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾، وقال: ﴿ أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ ﴾، فانتفعوا بمعرفتكم بها وبإخبار الله عنها، واعلموا أن قومًا من عباد الله أدركتهم عصمة الله فحذِروا مصارعها، وجانبوا خدائعها، وآثروا طاعة الله فيها، وأدركوا الجنة بما يتركون منها.

خطبة التهنئة

قال ابن أبي طاهر: دخل المأمون بغداد فتلقاه وجوهها، فقال له رجل منهم: يا أمير المؤمنين، بارك الله لك في مَقدَمك، وزاد في نعمتك، وشكرك عن رعيتك، تقدمت من قبلك، وأتعبت من بعدك، وأيأست أن يُعاين مثلك، أما فيما مضى فلا نعرفه، وأما فيما يبقى فلا نرجوه، فنحن جميعًا ندعو لك ونثني عليك، خصب لنا جنابُك، وعذب ثوابك، وحسنت نظرتك، وكرمت مقدرتك، جبرت الفقير، وفككت الأسير، والخيرُ بفنائك، والشر بساحة أعدائك، والنصر منوطٌ بلوائك، والخذلان مع ألوية حُسَّادك، والبرُّ فعلك، قد طَحْطَح عدوَّك غضبُك، وهزَم مغايبهم مشهدُك، وسار في الناس عدلُك، وشسع بالنصر ذكرك، وسكَّن قوارع الأعداء ظفرُك، الذهب عطاؤك، والدواة رمزك، والأوراق لحظك وأطرافك.

(٤) الكتابة

قلنا في كلمتنا عن الكتابة في صدر العصر العباسي: إن أسبابًا كثيرة وقوية - ذكرناها هناك - دفعت الكتابة فتعددت أغراضها وتنوعت أساليبها، ومال الكُتَّاب إلى السهولة في العبارة، والتأنق في اللفظ، والجودة

في الرصف، وأطالوا في المقدمات، ونوَّعوا المبدأ والختام، والألقاب والدعاء، ومالوا إلى الغلو والمبالغة.

ثم قلنا بعد كلام: أما الإطناب في الكتابة فكان صفة غالبة في كل ما شمل بيعة أو عهدًا أو احتجاجًا، أو انتصارًا أو تقريرًا لمذهب، أو استهواء أو دفعًا لشبهة، أو طلبًا لنعمة ... إلخ، وقد أثبتنا لك جملة صالحة من آثار العصر المأموني مما يقوم حجة على ما ذهبنا إليه، ونحيلك إلى رسالة أبي الربيع محمد بن الليث إلى قسطنطين ملك الروم، وإلى رسالة يحيى بن زياد الحارثي في تقريظ أمير المؤمنين الرشيد، وقد أثبتناهما لك، نقلًا عن النسخة الخطية من كتاب «المنظوم والمنثور» لابن طيفور، في باب المنثور في الكتاب الثاني من المجلد الثاني، كما أثبتنا لك في الكتاب الثالث من المجلد الثالث رسالة قيمة للمأمون تسمى «رسالة الخميس»، كان بعث بها إلى أهل خراسان كمنشور من الخليفة، ورسالة ممتعة لسهل بن هارون خازن بيت الحكمة في عهده، فراجع ذلك ثمة.

ولو قد ذهبنا نورد من آثار عصر المأمون الكتابية لعدونا القصد وأمللنا، فحسبنا ما أحلناك إلى مراجعته الآن، وهو فيه الكفاية لإثبات ما ذهبنا إليه، وقد أوردنا هذه الرسائل من غير أن نعرض لها بتحليل أو بيانٍ، فهي في وضوحها ودلالتها على ما أردنا من إيرادها غير محتاجة إلى شيء.

(٥) مجالس المناظرة و«أبهاء» الأدب والغناء والمنادمة

أما مجالس المناظرة ومكانتها السامية في العصر المأموني، فقد وقفت على طرف عظيم منه في الفصول التي عقدناها لك عن المأمون وعلمه وأدبه ودينه وسياسته، فمن نافلة القول وتكراره أن ننقلها لك هنا، وقصارانا أن نقول: إن

المناقشات الحادة بين سيبويه والكسائي في شأن مسألة نحوية، وبين الشعراء والأدباء في تفضيل شاعر على شاعر، وبين السُّنيين والمعتزلة في القول بخلق القرآن، وأبهاء الأدب عند الأمين والمأمون وأنصارهما، وأمراء العرب كأبي دُلَف وعبد الله بن طاهر وغيرهما، لتدل أوضح الدلالة على ما كان للمناظرة في هذا العصر من مكانة، حتى أصبحت من أهم مميزاته وكبريات آثاره.

وأما المنادمة والغناء، فقد سبق أن نقلنا لك ما رواه صاحب «التاج» عن حالة المنادمة في الصدر العباسي، وقد آن لنا أن نُتمَّ لك القول في حالتها في العصر المأموني، ونحيلك في الوقت نفسه إلى كتاب «حلبة الكميت»، و«الأغاني»، و«نهاية الأرب» وغيرها من كتب الأدب، فهي مترعة بأخبار الغناء والمنادمة، غنية بأخبار المنادمين والمغنين.

سئل إسحاق بن إبراهيم الموصلي عن رأيه في حال المنادمة في تلك الأيام، فقال عن الأمين: ما كان أعجب أمره كله، فأما تبذله فما كان يُبالي أين قعد ومع من قعد، وكان لو كان بينه وبين ندمائه مائة حجاب خرقها كلها وألقاها عن وجهه، حتى يقعد حيث قعدوا، وكان من أعطى الخلق لذهب وفضة، وأنهبهم للأموال إذا طرب أو لها، وقد رأيته وقد أمر لبعض أهل بيته في ليلة بوقر زورق ذهبًا فانصرف به، وأمر لي ذات ليلة بأربعين ألف دينار فحملت أمامي، ولقد غناه إبراهيم بن المهدي غناء لم أرتضه، فقام عن مجلسه فأكبَّ عليه فقبَّل رأسه، فقام إبراهيم فقبَّل ما وطئت رجلاه من بساطه، فأمر له بمائتي ألف دينار، ولقد رأيته يومًا وعلى رأسه بعض غلمانه فنظر إليه فقال: ويلك! ثيابك هذه تحتاج إلى أن تغسل، انطلق فخذ ثلاثين بدرة فاغسل بها ثيابك.

ولقد حدثني علُّويه الأعسر، وهو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سيف عنه قال: لما أُحيط به وبلغت حجارة المنجنيق بساطه كُنَّا عنده، فغنته جارية له بغناء تركت فيه شيئًا لم تُجِد حكايته، فصاح: يا زانية، تُغنِّينني الخطأ! خذوها فحُمِلت، وكان آخر العهد بها.

وسئل عن حال المنادمة عند المأمون فقال: أقام بعد قدومه عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الغناء، ثم سمعه من وراء حجاب مُتشبهًا بالرشيد، فكان كذلك سبع حجج، ثم ظهر للندماء والمُغنين، قال: وكان حين أحب السماع ظاهرًا بعينه، أكبر ذاك أهل بيته وبنو أبيه.

ويقال: إنه سأل عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي، فغمزه بعض من حضر وقالوا: ما يغادر تِيهًا وبَأْوًا، فأمسك عن ذكره، قال: فجاءه زُرْزُر يومًا فقال له: يا إسحاق، نحن اليوم عند أمير المؤمنين، فقال إسحاق: فغنِّه بهذا الشعر:

يا سرحة الماء قد سدت موارده ... أما إليك طريق غير مسدود

لحائم حام حتى لا حراك به ... مُحلأً عن سبيل الماء مطرود

فلما غناه به زُرْزُر أطربه وبهجه، وحرك له جوارحه وقال: ويلك! من هذا؟ قال: عبدك المجفو المُطَّرح يا سيدي؛ إسحاق، قال: يحضر الساعة، فجاءه رسوله وإسحاق مستعد قد علم أنه إن سمع الغناء من مجيد مؤدٍّ أنه سيبعث إليه، فجاءه الرسول، فحُدِّثت أنه لما دخل عليه ودنا منه مد يده إليه ثم قال: ادنُ منِّي فأكبَّ عليه، واحتضنه المأمون وأدناه، وأقبل عليه بوجهه مُصغيًا إليه مسرورًا به.

وحسبنا هذا القدر، وإن أردت زيادة وإفاضة فإنا نحيلك إلى بعض أخبارها في الجزء السادس من كتاب بغداد مع ما ذكرناه لك من المراجع.

(٦) الشعر

أشرنا في كلمتنا عن حالة الشعر وفنونه في صدر العصر العباسي إلى ما أخذ يتحول هو إليه أيضًا تبعًا لمقتضيات العصر وظروف الزمان، ومسايرة للحياة الاجتماعية والاقتصادية، ولِمَا جدَّ على أحوال الناس ومعايشهم من الغنى والترف، وما يستلزمه الغنى والترف من الاستمتاع بألوان اللهو واللذات، والافتنان في بناء القصور والسفن، وإنشاء الحدائق والمتنزهات. ولقد كان في مرجونا أن نفرد لك فصلًا خاصًّا نضمنه ما كان من الخلفاء في إقامة مبانٍ وقصور وحدائق ودُور لم يكن للعرب بها ولا بنظيراتها سابقة عهد، وإنما ألجأتهم إليها المدنية والبذخ، وما أصابوه فيها من رفاهة عيش، وسعة يد، ووفرة غنًى، بيدَ أن ذلك يطول ويخرج بنا عما رسمناه لأنفسنا من القصد والإيجاز، مع الإلمام بكافة النواحي لهذا العصر.

على أنه من الميسور لك أن تتصور مبلغ ما وصل إليه الخلفاء العباسيون وأمراء البيت المالك ورجالات الدولة من الثروة والبذخ، بما أومأنا إليه في كلمتنا عن خراج الدولة وما كان فيها من استصفاء وأعطيات عظيمة.

وقد كانت أيضًا الحياة السياسية والفكرية حادة عنيفة، فقد اشتدت الملاحاة بين شيعة العلويين والعباسيين، وبلغ النزاع غايته بين أصحاب المذاهب وزعماء الآراء، ولا تنس أن تضيف إلى ما تقدم ما كان لترجمة العلوم اليونانية وغير اليونانية من أثر بعيد في أفكار الناس وأخيلتهم وأساليبهم، والدقة في تعبيراتهم، والتنظيم فيما لهم من آثار.

وقد كانت الآثار الشعرية لهذا العصر إلى حد ما مرآة صادقة لأحواله وما كان يجري فيه من شئون.

أسرف الناس في شرب الخمر فافتنَّ الشعراء في وصف الخمر ووصف كئوسها، وتخيَّر الناس السقاة من الغلمان ومن في زي الغلمان، فوصف الشعراء السقاة وتغزلوا في الغلمان، وولع الناس بالصيد، فوصف الشعراء الصيد وما يجري في مجال الصيد، وافتنَّ الناس كما قلنا في بناء القصور وغير القصور، ففتحوا المجال واسعًا لخيال الشعراء في شتى الأبواب، واشتدت المنافسة السياسية بين شيعة العلويين والعباسيين، فأخذ شعراء كل فريق ينضحون عن رأيهم، ويؤيدون مذهبهم، وألَّف العلماء في الفقه والأخلاق والكلام، فأخذ الشعراء يعالجون نظم الفقه والأخلاق والكلام، وهكذا تعددت أغراض الشعر، وتنوعت ألوانه.

وتحضَّر الناس في بغداد وغير بغداد من الحواضر الإسلامية، فرقَّت طباعُهم، ولانت أخلاقهم، ونبَتْ عن الحوشية أذواقهم، فرقَّ شعر أهل الحواضر، وسلست ألفاظه، وبعُدت من الحوشية، وترجمت العلوم اليونانية وغير اليونانية من فلسفة ومنطق وأخلاق، فكان لهذه العلوم أثرها في تنظيم أفكار الشعراء ودقة خيالاتهم.

ولو ذهبنا نورد لك شواهد على كل هذا وغيره لأطلنا وأمللنا، وإنما نحيلك على آثار شعراء هذا العصر، كأبي نواس في الخمر وكئوسها، وأوقات شرابها وسُقاتها، والغزل بالغلمان، والصيد والطرد، ووصف مظاهر الحضارة العباسية، وكدعبل الخزاعي والسيد الحميري في النزاع السياسي بين العلويين والعباسيين، وكأبي العتاهية في الأخلاق، وأبان ابن عبد الحميد في نظم العلوم كالفقه وغير الفقه، وهذه الإحالة لا تمنعنا أن نورد لك أمثالًا من آثار هذا العصر الشعرية.

وهنا تعرض لنا ملاحظةٌ نرى إيرادها حتمًا علينا، وهذه الملاحظة هي أن الشعر في عصر المأمون كان مرآة صادقة للحياة وما يجري فيها من شئون إلى حد ما.

نقول: «إلى حد ما»، ويدفعنا إلى هذا القول معتقدنا القوي الذي تكوَّن لنا من دراستنا لروح هذا العصر، ذلك بأنا نرى كثيرًا من شعراء الحاضرة المجيدين في هذا العصر وفي العصر الذي قبله يَنحلون نتائج أفكارهم وما تجود به قرائحهم شعراء الجاهلية وأعراب البادية.

ونرى أيضًا أن كبار الرواة وأهل الأدب ينشدون الشعر الجيد لمحدث، فيعجبون به على أنه قديم أو لأعرابي، حتى إذا تبين لهم أنه لمحدث أنكروه وازورُّوا عنه.

هذا يدلنا على أن جماعة قوية يعتد بها في هذا العصر كانت تميل إلى إيثار الشعر القديم وشعر أعراب البادية على الشعر الجديد ورجال الشعر الجديد، وإذا كان هذا حقًّا كان من الطبيعي أن يعيش الشعراء من الناحية الشعرية في غير عصرهم، وأن يكونوا بأخيلتهم في غير حاضرتهم، لكي يتملقوا الروح الغالبة، ويظفروا برضا العلماء، وقد يكون لهؤلاء العلماء والرواة حظ كبير في صرف أذهان الناس إلى الشعر القديم.

وليس معنى ذلك أن شعر المحدثين لم تكن له مكانة رفيعة عند القوم، بل على النقيض كانت له منزلة رفيعة في النفوس.

لذلك نحن نميل إلى القول بأن خير من يمثل هذا العصر أولئك المجددون الذين لم يتقيدوا ببكاء الأطلال، والحنين إلى الرسوم؛ كأبي نواس وأضراب أبي نواس.

على أنه يجدر بنا أن نورد لك مثلين مما كانوا يتذوقونه في هذا العصر من شعر المحدثين وما قاله أبو دُلَف ناعيًا منهج التقعر، بعد إيرادنا لك ما وعدناك بإيراده من شعر لهذا العصر في شتى الأنحاء.

وقد نشرنا لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث من المجلد الثالث أمثلة من شعر هذا العصر، كما نشرنا لك تلك القصيدة التي أنشدها محمد ابن عبد الملك للمأمون يحرضه فيها على قتل إبراهيم بن المهدي حين ظفر به، فقال المأمون: لا والله أُشمِتُه به، بل أعفو عنه! وانظر إلى مطلع القصيدة تر الفلسفة اليونانية جاثمة فيه:

ألم تـر أن الشـيء للشيء علة ... يكون لـه كالنـار تُقدح بالزَّنْد

وكان للمأمون جارية تسمى عريبَ - كانت تعشق جعفر بن حامد - وكان يتعشَّقها، فلما وجدت من المأمون غفلة وضعت على فراشها مثال رخام يحسب من رآه من بعيد أنها نائمة، وكان جعفر بن حامد قد نزل إلى جانب قصر المأمون، فصعدت إلى السطح ونزلت في زنبيل، فلما قضى نهمَتَه منها قعدت في الزنبيل فصعدت ورجعت إلى مكانها، وطلبها المأمون قبل أن ترجع إلى فراشها فلم يجدها، فعلم إلى أين صارت، فقال أبو موسى حاكيًا لهذه القصة:

قاتل الله عريبا ... فعلت فعلًا عجيبا
ركبت والليل داج ... مركبًا صعبًا مهيبا
فارتقت متَّصلًا بالنـْ ... ـنجم أو منه قريبا
صبرت حتى إذا ما ... أقصَد النومُ الرقيبا
مثَّلت بين حشايا ... ها لكي لا يستريبا

خلفًا منها إذا نُو ... ديَ لم يُلفَ مجيبا
ومضت يحملها الخو ... ف قضيبًا وكثيبا
مُحَّة لو حركت خِفـْ ... ت عليها أن تذوبا
فتدلَّت لُمحبٍّ ... فتلقاها حبيبا
جذلًا قد نال بالد ... نيا من الدنيا رغيبا
أيها الظبى الذي تسـْ ... حرُ عيناه القلوبا
والذي يأكل بعضًا ... بعضه حسنًا وطيبا
كنت نهبًا لذئاب ... فلقد أطمعت ذيبا
وكذا الشاة إذا لم ... يك راعيها لبيبا
لا يبالي وَبَأَ المَرْ ... عَى إذا كان خَصيبا
ولقد أصبح عبدُ ... الله كَشخانًا[2] حريبا
قد لعمري لطم الخدْ ... د وقد شق الجيوبا
وجرت منه دموعٌ ... بلَّت الذقن الخضيبا

ومما يعتبر من الهجاء السياسي قصيدة جحشويه الشاعر في يحيى بن أكثم قاضي المأمون بالبصرة، إذ فيه أيضًا هجو لآل العباس وخلافتهم، قال:

أنطقني الدهرُ بعد إخراس ... بحادثات أطلن وَسْواسي
يا بؤس للدهر لا يزال كما ... يرفع ناسًا يحطُّ من ناس
لا أفلحت أمة وحق لها ... بطول لعنٍ وطول إتعاس
ترضى بيحيى يكون سائسها ... وليس يحيى لها بسوَّاس
قاضٍ يرى الحدَّ من الزناء ولا ... يرى على من يلوط من باس
يحكم للأمرد الظريف على ... مثل جُوَينٍ ومثل عُدَّاس[3]

فالحـــمـــد لله قـــد ذهـــب الـْ جُـــود وقلَّ الوفـــاء في الناس
أمـــيـــرنـــا جـــائـــرٌ وقاضينا يلوط والرأسُ شـــرٌّ مـــا راس
لو قصد الـــرأسُ واستقام لقد قـــام على القصد كـــل مُرْتاس
ما أحسب الجور ينقضي وعلى الـْ نـــاس أميرٌ مـــن آل عـــبـــاس

وقد أثبتنا لك في باب المنظوم من الكتاب الثالث في مجلدنا الثالث مثلاً آخر من الهجاء قاله بعض الشعراء في يحيى بن أكثم، فراجعه ثمة.

وهناك نوع من الشعر يمثل لك ناحية من نواحي العصبية بين القبائل، وهو إلى حد ما يعتبر من الشعر السياسي، وهذا النوع مثل ما قاله مسلم ابن الوليد في هجاء قريش والافتخار بالأنصار، ورد ابن قنبر عليه، وإنا نحيلك على موضع ذلك من مجلدنا الثاني للاطلاع عليه؛ لضيق المقام عن إيراده هنا.

وفي هذه القصة الآتية طرافة من الفراسة في العصر آثرنا إثباتها لذلك، وهي:

قال أبو السمراء: خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر، حتى إذا كنا بين الرملة ودمشق إذ نحن بأعرابي قد اعترض، فإذا شيخ فيه بقية على بعير له أورق، فسلم علينا فرددنا عليه السلام، قال أبو السمراء: وأنا وإسحاق بن إبراهيم الرافقي وإسحاق بن أبي ربعي ونحن نساير الأمير، وكنا يومئذ أفره من الأمير دوابَّ، وأجود منه كُسًا، قال: فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا، قال: فقلت: يا شيخ، قد ألححت في النظر، أعرفتَ شيئًا أم أنكرته؟ قال: لا والله ما عرفتكم قبل يومي هذا، ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم، ولكني رجل حسن الفراسة في الناس جيد

المعرفة بهم، قال: فأشرت له إلى إسحاق بن أبي ربعي فقلت: ما تقول في هذا؟ فقال:

أرى كاتبًا داهي الكتابة بيِّنٌ ... عليه وتأديبُ العراق منير
له حركات قد يشاهدْنَ أنه ... عليمٌ بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحاق بن إبراهيم الرافقي فقال:

ومظهر نسك ما عليه ضميرُه ... يحبُّ الهدايا بالرجال مكور
أخال به جبنًا وبخلًا وشيمة ... تخبرٍّ عنه إنه لوزير

ثم نظر إليَّ وأنشأ يقول:

وهذا نديم للأمير ومؤنس ... يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راويًا ... فبعضٌ نديمٌ مرة وسمير

ثم نظر إلى الأمير وأنشأ يقول:

وهذا الأمير المرتجى سيْبُ كفِّه ... فما إن له فيمن رأيتُ نظير
عليه رداء من جمال وهيبة ... ووجهٌ بإدراك النجاح بشير
لقد عُصم الإسلام منه بذائد ... به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبدُ الإله بن طاهر ... لنا والد برٌّ بنا وأمير

قال: فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع، وأعجبه ما قال الشيخ، فأمر له بخمسمائة دينار وأمره أن يصحبه.

هذا، وقد حدث بعضهم قال: احتج أصحاب المأمون عنده يومًا فأفاضوا في ذكر الشعر والشعراء، فقال بعضهم: أين أنت يا أمير المؤمنين من مسلم ابن الوليد حيث يقول؟ قال: ماذا قال؟ قال: حيث يقول ورَثَى رجلًا:

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوه فطِيبُ تراب القبر دلَّ على القبر

وهجا رجلًا بقبح الوجه والأخلاق فقال:

قبُحتْ مناظُره فحين خبرتـه حسـنت مـناظره لقبح المخبر

ومدح رجلًا بالشجاعة فقال:

يجود بالنفس إن ضنَّ الجواد بها والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وتغزَّل فقال:

هوًى يـجِـدُّ وحبيب يلعب أنت لـقـى[٤] بينهما مُعذَّب

ومما كان يستحسنه المأمون من دعبل الخزاعي هجاء المأمون المعروف قوله:

ألـم يأنِ للسَّفْر الذين تحمَّلوا إلى وطنٍ قـبـل الممات رجوع

فقلتُ ولم أمـلكْ سوابق عبرة نطَقن بما ضمَّت عليه ضلوع

تبيَّن فكم دار تفرَّق شملها وشمـل شتيت عاد وهو جميع

طِوال الليالي صَرفُهن كما ترى لـكـل أنـاس جـدبـة وربيع

وقد حدث ابن طيفور عن مشيخته أن منصورًا النمري والحسن بن هانئ وأبا العتاهية وأبا زغبة[٥] اجتمعوا فتذاكروا أبياتًا على وزن واحد، ففُضِّل أبو العتاهية عليهم، فقال النمري:

أعـمـير كـيـف بـحـاجـة طُـلـبـت إلى صُـمِّ الصخور

لله در عُــدَاتــكــم كـيـف انتسبن إلى الغـرور

ولـقـد تـبـيـتُ أنـامـلي يَجـنـينَ رُمَّـان الـنـحـور

وقال أبو العتاهية:

لهفي على الزمن القصير ... بين الخورنق والسدير
إذ نحن في غُرف الجنا ... ن نعُوم في بحر السرور

وقال الحسن بن هانئ:

وعظتك واعظة القتير[٦] ... وعلَتْك أُبهة الكبير
ورددت ما كنت استعر ... ت من الشباب إلى المعير
ولقد تحل بعقوة الـ[٧] ... ألباب من بقر القُصور
صور إليك مؤنثًا ... تُ الدَّلِّ في زي الذكور
أُرهِفنَ إرهاف الأعنـ ... ـة والحمائل والسيور
أصداغهن معقربًا ... تٌ والشوارب من عبير

قال المحدث: ولا أحفظ ما قال أبو زغبة، ففضَّلوا أبا العتاهية، وأبو نواس عندي أشعرهم.

وقد روى ابن طيفور أن عامل أبي دُلَف قد قصَّر في أمره، فبعث إليه من عزله وقيده وحبسه، فكتب إلى أبي دُلَف من السجن كتابًا تنطع فيه وقعَّر وطوَّل، فكتب إليه أبو دُلَف:

يا صاحب التطويل في كُتبه ... وصاحب التقصير في فعله
وراكب الغامض من جهله ... وتارك الواضح من عقله
لم يحظ من ألزمه قيده ... بل صير القيد إلى أهله
قيده للحبس تقعيره ... فالقيد لم يخرج من رجله
والله لا فارقه قيده ... أو يقطع التقعير من أصله

وفي الختام نرى لزامًا في عنقنا أن نحيلك على ما قاله الشعراء وصفًا لثورة بغداد وحريقها، وعلى رثائهم للأمين، ونماذج أخرى لمختلف مقولاتهم في مختلف المناحي، وقد نشرنا لك من هذا جملة صالحة في باب المنظوم من الكتاب الثالث من مجلدنا الثالث، فإنها تعطيك صورة صادقة لدرجة الشعر في ذلك العصر، فراجعة ثمة.

هوامش

(١) يقول أستاذنا الشيخ عبد الوهاب النجار: «لم يكن للشافعي اتصال بالمأمون».
(٢) الكشخان - بفتح الكاف وبكسر: الديوث.
(٣) كذا في تاريخ بغداد وفي ابن خلكان ج٢، ص٣٢٦: «مثل جرير ومثل عباس».
(٤) اللقى: الملقى المطروح.
(٥) كذا في تاريخ بغداد، وعلق عليه ناشره بأنه في ديوانه: «ابن زغيب».
(٦) القتير: الشيب.
(٧) العقوة: ساحة الدار.

الفصل العاشر

نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني

(١) توطئة

أعترف أنه من الصعوبة بمكان أن أختار لك أشخاص هذه النماذج؛ لأن الكثرة من رجالات العصر من النباهة والكفاية بمكان، وقد كان يحلو لي حقًّا ويسرني أيّما سرور لو اتسعت رسالتي للكتابة عن رجالات العصر من وزراء وعلماء وقضاة وشعراء وكتاب وأطباء ومغنين وندماء، بيد أن ذلك يتطلب سعة لا يحتملها هذا المقام.

على أنا قد رأينا أن نكتب لك كلمات مجملة عن «جبرائيل بن بختيشوع» من أطباء العصر، وعن «الجاحظ» من ملوك الكتاب ورؤساء الاعتزال، وعن «أبان اللاحقي» الشاعر وصاحب نظم كليلة ودمنة، وعن «أحمد ابن يوسف» الوزير المأموني ومدبِّج رسالاته، وعن «يحيى بن أكثم» قاضي قضاته، وأخيرًا عن «إسحاق بن إبراهيم» وهو مجموعة هؤلاء.

ونعترف لك بأن في كتابنا شيئًا من التقصير نحسُّه، وسببه حاجة هذه الموضوعات إلى الإفاضة في الشرح والبيان، وإلى التحليل والإسهاب مما لا قبل لرسالتنا به.

وبعد، فلنبدأ بهذا النماذج فنقول:

(٢) جبرائيل بن بختيشوع الطبيب النسطوري

لسنا نريد أن نستطرد في الحديث عن بُختيَشُوع الطبيب الشهير، وإنما

نريد أن نلم إلمامة به يتعرف منها القارئ ما كان للرجل من أثر في عصره، فنقول: إن هذه الأسرة هي الأسرة الوحيدة النسطورية التي استقام دور عزها ثلاثة قرون، كان لها خلالها حظ وجاه، وكانت لأفرادها حظوة، فاستعملهم الخلفاء العباسيون، فانتفعوا من الخلفاء، ونفعوا الطب وغير الطب من العلوم بآثارهم ومنتجات عقولهم.

أما هذه التسمية فسريانية، وهي مركبة من لفظتين سريانيتين، بُخْت ومعناه العبد، ويشوع ومعناه يسوع أي عبد يسوع، وكانت هذه الأسرة من مدينة جُندَيْسابور، وأول من عرفه التاريخ منها هو ديورجيس بن جبرائيل ابن بختيشوع، وكان يزاول مهنة الطب فبرع فيها، ونبُهَ ذكْرُه، وأقيم رئيسًا لمستشفى مدينته حتى إن أبا جعفر المنصور قد أرسل وفدًا من قبله إلى جنديسابور يستدعيه إليه؛ إذ كان قد انتابه مرض فعجزت عن شفائه نُطُس الأطباء، فتأبى بختيشوع بادئ الرأي حتى اعتقله العامل، ولكن أعيان بلده من مطارنة وقساوسة وغير هؤلاء نصحوا له بأن يمتثل للأمر، فانقاد لنصيحتهم، وولى وجهه شطر دار السلام، ثم كانت له حظوة عند المنصور، وما كنا لنستطرد في الحديث عن هذه الأسرة، وإنما سُقنا هذه الكلمة لنأتي على شيء من أخبار أسرة جبرائيل، لنُظهر ما لهذا الرجل من المكانة في عالم الطب، وأنه من سلالة كانت تتوارث أخلافها عن أسلافها هذه الصناعة.

نقول: إن جبرائيل هذا قد نبغ على مثال ذويه، وظهرت فيه عوامل الوراثة، فورث عن آبائه الصفات الأدبية، وبرع في صناعة الطب، وكان إلى جانب هذا وديع الخلق، لطيف المحضر، كريم السجايا، عُرف في جو الطب سنة ١٧٥هـ/ سنة ٧٩١م، ذلك بأن جعفر بن خالد بن برمك بعد أن

أبلَّ من مرضة باعتناء بختيشوع، رغب إليه أن يبقى معه طبيبًا له، فاعتذر وأناب عنه ابنه جبرائيل هذا، فلقى منه كل رعاية، وكاشفه جعفر بداء خفي كان قد أصابه، فعالجه جبرائيل في ثلاثة أيام، وشفي جعفر، فزادت مكانة جبرائيل عنده وقربه منه، فكان جليسه وكان نديمه، وكان لا يفارقه ساعة واحدة، وحدث أن جارية من جواري هارون الرشيد قد يبست ذراعها، فأبرأها جبرائيل بحيلة لطيفة بعد أن أخفق الأطباء في معالجتها، فحباه بخمسين ألف درهم، وقد عظم شأنه حتى قال الرشيد لأصحابه: كل من كانت له إليَّ حاجة فليخاطب بها جبرائيل؛ لأني أقبل كل ما يسألني فيه ويطلبه مني، وكان في صحبة الرشيد أينما حلَّ وحيثما ارتحل، فقد ذهب معه إلى الرقة وصار معه إلى الحجاز.

ولما تولَّى الأمين الخلافة عرض جبرائيل على الخليفة أن يكون له خادمًا، فقبله ورحب به، ولم يكن يأكل شيئًا إلا بإذنه، ولما بلغ ذلك المأمون اعتقل جبرائيل، ولم يطلق سراحه حتى شفع فيه الحسن بن سهل، وفي سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٦م مرض المأمون مرضًا أعجز أطباءه، وكان في مقدمتهم ميخائيل صِهْر جبرائيل، فأخذ جبرائيل على نفسه شفاء المأمون، وكان مُوفَّقًا، فلم تمضِ أيام حتى شفي المأمون، فغمره بنعمائه واتخذه أنيسًا ونديماً، ولم يقف احترام المأمون لجبرائيل وإكرامه له عند هذا الحد، بل قد عداه إلى غيره من عمال الدولة، فقد أصدر المأمون أمره إلى الموظفين والعمال والقواد بأن يوقروا جبرائيل ويجلوه، وكان الرجل يتدخل في شئون طائفته كلها، حتى الشئون الكنسية، وبتأثيره انتخب البطريرك جيورجيس المعروف بابن الصباغ، فتولى الرياسة الدينية في طائفته وهو في سن الشيخوخة، ولما

كانت سنة ٢١٣هـ/ ٨٢٨م مرض جبرائيل، واتفق أن الخليفة المأمون كان في ذلك العهد قد سافر إلى بلاد الروم، فأقعد المرض جبرائيل عن ملازمته، ولكنه أناب عنه ابنه بختيشوع، ولم يرجع المأمون وبختيشوع من رحلتهما حتى كان جبرائيل قد تُوفِّي.

فأقيم له مأتم حافل قلما كان لمثله في ذلك العصر، ودفن في مدفن القديس سرجيس بالمدينة، وترك مالًا كثيرًا، وملكًا واسعًا، فكانت له ضِياع بجُندَيْسابُور والسوس والبصرة والسَّواد، حصل عليها بما ناله من الخلفاء من التخصيصات الجزيلة، والهدايا الكثيرة في المواسم والمعاشات، وله من الكتب رسالة في المطعم والمشرب قدمها إلى المأمون، وكتاب المدخل إلى صناعة المنطق، ورسالة مختصرة في الطب، وهي مختصر تأليف ديروكوريدس وجالينوس وبولس الإيجيني، وله أيضًا كتاب في صناعة البخور، وقد نسب إليه السمعاني في مكتبته الشرقية مُعجمًا سريانيًّا على أن هذا مشكوك في روايته.

(٣) الجاحظ

«الكتاب وعاء مُلِئ علمًا، وظرف حشي ظرفًا، وبستان يحمل في رُدن، وروضة تقلب في حجر، ينطق عن الموتى، ويترجم كلام الأحياء، ولا أعلم جارًا أبرَّ، ولا خليطًا أنصف، ولا رفيقًا أطوع، ولا معلمًا أخضع، ولا صاحبًا أظهر كفاية، وأقل جناية، ولا أقل إملالًا وإبرامًا، ولا أقل خلافًا وإجرامًا، ولا أقل غيبة، ولا أبعد من عضيهة،[1] ولا أكثر أعجوبة وتصرفًا، ولا أقل صلفًا وتكلفًا، ولا أبعد من مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتال من كتاب. ولا أعلم قرينًا أحسن

مواتاة، ولا أعجل مكافأة، ولا أحضر مَعُونة، ولا أقل مئونة، ولا شجرة أطول عمرًا، ولا أجمع أمرًا، ولا أطيب ثمرة، ولا أقرب مجتنى، ولا أسرع إدراكًا في كل أوانٍ، ولا أوجد في غير إبان من كتاب.

ولا أعلم نتاجًا في حداثة سنِّه، وقرب ميلاده، ورخص ثمنه، وإمكان جوده، يجمع من التدابير الحسنة، والعلوم الغريبة، ومن آثار العقول الصحيحة، ومحمود الأخبار اللطيفة، ومن الحكم الرقيقة، ومن المذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والإخبار عن القرون الماضية، والبلاد المتراخية، والأمثال السائرة، والأمم البائدة ما يجمع الكتاب».

بهذا الأسلوب الحسن في منحاه، الناصع البيان في مبناه، الداني القطوف، السديد في منهجه، العذب في مورده، يخاطبنا شيخ الكتاب غير مدافع، والمتفنن في الرسالات غير منازع أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بعبارات تستساغ في غير مئونة ولا كد ذهن، وتستوعب بلا إرهاق خاطر ولا إعنات روية.

والجاحظ، أيدك الله، ليس وراء كتاباته، كما تعلم، مذهب لمستفيد، ولا مراد لراغب فِقَرُها متناسبة متراصفة، وألفاظها متنخلة متخيرة، وعباراتها مطردة منسجمة، وجملها مما يوطَّأ له مهاد الطبع، ويرتفع له حجاب السمع، وهي - وأنت جد عليم - من ذلك النوع الذي يدخل الآذان بلا استئذان لمكانها من الألباب، وهو من أجل ذلك يتطلب منا درسًا تحليليًّا مطولاً، وليس هذا في مقدورنا لتعدد الموضوعات التي نعالجها، ولأنها تستلزم عناية ببحثها والإشارة إليها، بقدر ما يتطلبه الجاحظ من عناية ودرس، فلنكتف بإلماعة موجزة عن حياة النابغة الفذ الذي تسنَّم

ذروة الكمال، وبلغ غاية النضج في الأدب العربي وفنونه، وكان إلى جانب هذا صاحب مذهب في الاعتزال، هو المذهب الجاحظي، معتمدين فيها على ما كتبه ابن خلِّكان وصاحب معجم الأدباء ومؤلفات الجاحظ نفسه.

نشأته

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، ولم تكن أسرته برفيعة القدر ولا سامية المكانة، بل على النقيض كانت خدَمًا وخولًا لمولاهم أبي القلمس عمرو بن قلع الكناني ثم الفُقيمي النسَّاب، وقد قيل: إن فزارًا جد الجاحظ كان جمالًا، وإن الجاحظ نفسه كان يبيع الخبز والسمك بسيحان.

قال الجاحظ: أنا أسن من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة ١٥٠هـ ووُلِد في آخرها، وانكبَّ الجاحظ على العلم منذ طفولته انكبابًا عظيمًا، وشغف بالمطالعة والقراءة، وعكف على الدرس والحفظ، وقد قال عنه أبو هفان أحد معاصريه: لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكْتري دكاكين الوراقين ويبيت للنظر فيها، ثم ثنَّى أبو هفان بالفتح ابن خاقان، وذكر بعده إسماعيل بن إسحاق القاضي.

سمع الجاحظ من أبي عبيدة والأصمعي وأبي زيد الأنصاري، وأخذ النحو عن صديقه أبي الحسن الأخفش، وأخذ الحديث عن يزيد بن هارون والسري بن عبدويه وأبي يوسف القاضي والحجاج بن محمد بن حماد بن سلمة، والكلام عن أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي النابه الذكر، وبه تأثر وعليه تخرَّج في مذهبه في الكلام والاعتزال.

وإذ كانت ميوله إلى الاطلاع واستيعاب ما يقع تحت يديه من المؤلفات على ما وصفنا، وكان قصاري همه، في مَغْداته ومراحته وبُكوره وآصاله، أن يحفظ كتابًا أو يفهم بابًا، وكان العصر الذي فيه درَج ونما على ما علمت من غزارة المادة، وتعدُّد التآليف، وازدحام المعارف، ووفرة مختلف الثقافات، فلا غرو إذا أخبرنا الجاحظ عن نفسه بقوله: «لقد نسيت كنيتي، لقد تغيبت ثلاثة أيام حتى أتيت أهلي فقلت لهم: بم أكنى؟ فقالوا: بأبي عثمان.» ولا غرو إذا كان الجاحظ قد اتصل بكثير من علماء ونوابغ عصره وشهيري الكتاب والمترجمين من فُرس وسُريان، فتأثر بلا ريب ذكاؤه بهذا الاختلاط، وطالع جماع ما تُرجم في أزمان المنصور والرشيد والمأمون، فما كان يقع بيده كتاب إلا استوفى قراءته كائنًا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر، كما قلنا آنفًا، فكان لذلك من نوابغ العالم.

وغلب عليه أمران اثنان: الكلام على طريقة المعتزلة، والأدب ممزوجًا بالفلسفة والفكاهة.

ولقد قضى عامَّة عمره بالبصره موفور الكرامة، محبوًّا من خلائق الله سيما رؤساء الموالي وأعيان الهاشمية والعثمانية بالعطايا والمنح، لما كان يصنفه لهم من الرسائل التي كان يتعمد في كتابتها التشيع لمذهبهم، ومعاضدة مزاعمهم، ونقض أقوال مخالفيهم، وكانت له مهارة في التلاعب بعقولهم، وابتزاز أموالهم، واقتدار على التعبير في كل ما يعالجه، وفي كل موقف، وكان يحج كثيرًا إلى بغداد في أواخر عصر المأمون وغيره، فكان المأمون يرفده، ثم انقطع إلى الانتجاع إلى محمد بن الزيات طوال وزاراته الثلاث، ثم أقام بعد موت ابن الزيات بالبصرة حتى أصيب بالفالج، فبقى مفلوجًا حتى أسلم الروح.

ذكاؤه وخلقه

كان له حظ كبير وقسط وفير من الذكاء ورقة الشعور، ودقة العاطفة، وله في ذلك نوادر هي من خوارق الطبيعة، وكان غريب الأطوار، به شذوذ في أحواله وأطواره؛ ذلك لأنه كان يجمع بين الجد والفكاهة، حاضر النكتة، حاضر البديهة، سريع الخاطر، وكانت به دعابة وتظرف وتماجن، وكان لا يحتفل لما يأخذ الناس به أنفسهم وما يتواضعون عليه من العادات والرسوم وأنواع العصبية والمذهبية والجنسية، وكان كريم الأخلاق، كريم اليد، سخيًّا سمحًا، ولطيف المحضر، خفيف الروح، وكان على ما به من دمامة غاية في الظرف وحلاوة اللفظ، وهو من أجل ذلك كان يجمع بين الضدين.

اعتقاده ومذهبه

قلنا: إنه تخرج على أبي إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، زعيم الفرقة التي تنسب إليه من المعتزلة، وكان يلازم أستاذه هذا ويتوفر على دروسه، فمن أجل ذلك كان الجاحظ معتزليًّا، وزعيم الفرقة الجاحظية في الاعتزال، وقد انتفع بمواهبه وما حباه الله من فصاحة الكلام وطلاقة اللسان وحسن البيان في ترويج مذهبه والدعاوة له، فكان لسان المعتزلة الناطق، وسلاحهم القاطع، وبرَع في الكلام، وخلَطه بالفلسفة اليونانية، ويرميه كثيرون بالضلالة، وأنه ماجن مهذار، متناقض نقَّال، يتلاعب بالناس، وينقض اليوم ما بناه أمس، وقد دافع عنه أبو الحسن الخياط في كتابه «الانتصار» على انتقادات ابن الراوندي العنيفة المرَّة التي تناول فيها عقيدة الجاحظ بالتجريح الشديد.

ومما قاله أبو الحسن الخياط فيما يفند به هجمات ابن الراوندي: «وأما رميك للجاحظ ببغض الرسول ﷺ، فهو دليل على أنك لا تعرف المحب من المبغض، ولا الولي من العدو؛ لأنه لا يعرف المتكلمون أحدًا منهم نصر الرسالة واحتج للنبوة بلغ في ذلك ما بلغه الجاحظ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد ﷺ على نبوته غير كتاب الجاحظ، وهذه كتبه في إثبات الرسالة، وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة، وهل يُستدل على حب الرسول ﷺ والإيمان به وتصديقه فيما جاء به بشيء أوكد مما يستدل به على حب الجاحظ الرسول وتصديقه إياه!».

وقد تناول كبار المؤلفين من العرب؛ كابن قتيبة، والأزهري، والمسعودي، والبديع الهمذاني، وأبي العباس أحمد بن يحيى، وأبي العباس محمد بن يزيد المبرد، والفتح بن خاقان، والرئيس أبي الفضل بن العميد وغيرهم شخصية الجاحظ بما تستحقه من العناية والدرس، ومن النقد والتقريظ مما لا نثبته لك هنا مخافة الإطالة والملل، فلتراجع في مظانها ومواضعها.

علمه

يقول صاحب المعجم: «كان الجاحظ من الذكاء وسرعة الخاطر والحفظ بحيث شاع ذكره، وعلا قدره، واستغنى عن الوصف»، وقال غيره: إنه كان واسع العلم بفنون الكلام، كثير التبحر فيه، شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، ولا غرو فإن مؤلفاته العديدة تشهد بأنه كان واسع الاطلاع حقًّا، غزير المادة، خصب الذهن، كثير المحصول العقلي، وقد أكثر التصنيف في الأدب واللطائف والفكاهات، وأتيح له أن يكون من أئمة الدين وكبار السُّمار.

ويقول الفتح بن خاقان في كتاب له إلى الجاحظ: «إن أمير المؤمنين يَجِدُ بك، ويهشُّ عند ذكرك، ولولا عظمتُك في نفسه، لعلمك ومعرفتك، لحالَ بينك وبين بُعدك عن مجلسه، ولغصَبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفِّر عليه، ولقد كان ألقى إليَّ من هذا عنوانه، فزدتُك في نفسه زيادة كفَّ بها عن تجشيمك، فاعرف لي هذه الحال، واعتقد هذه المِنَّة على كتاب «الرد على النصارى»، وافرغ منه وعجِّل به إليَّ، وكن ممن جدَا به على نفسه، وتنال مُشاهرتك، وقد استطلقته لما مضى، واستسلفت لك لسنة كاملة مستقبلة، وهذا مما لم تحتكم به نفسك، وقد قرأت رسالتك في «بصيرة غنام»، ولولا أني أزيد في مخيلتك لعرفتك ما يعتريني عند قراءتها. والسلام».

رسائله

للجاحظ كثير من قصار الرسائل وطوالها، منها: أنه كتب إلى عبد الله ابن خاقان في يوم عيد: «أخرتني العلة عن الوزير، أعزه الله، فحضرت بالدعاء في كتابي لينوب عني، ويَعمُر ما أخلفت العوائق مني، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العيد أعظم الأعياد السالفة بركة على الوزير، ودون الأعياد المستقبلة فيما يُحبُّ ويُحبُّ له، ويقبَل منا ما نتوسل به إلى مرضاته، ويضاعف الإحسان إليه على الإحسان منه، ويمتعه بصحة النعمة ولباس العافية، ولا يريه في مسرة نقصًا، ولا يقطع عنه مزيدًا، ويجعلني من كل سوء فداءَه، فيصرف عيون الغِيَر عنه وعن حظِّي منه».

وكتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات يستعطفه: «أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجَّح في قلبك إيثار الأناة، فقد خفت، أيدك الله، أن أكون

عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء، ومجانبة الحكماء وبعدُ، فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن امرَأً أمسى وأصبح سالمًا   مــن الناس إلا ما جنى لسعيدُ

وقال الآخر:

ومــن دعــا الـنـاس إلى ذمه   ذمــوه بالــحــقِّ وبـالبـاطل

فإن كنت اجترأت عليك، أصلحك الله، فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤيس من المكافأة، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عمر كان خيرًا لي منك! أرهبني فاتقاني، وأعطاني فأغناني، فإن كنت لا تَهبُ عقابي، أيدك الله، لخدمة سلفت لي عندك، فهَبْه لأياديك عندي، فإن النعمة تشفع في النقمة، وإلا تفعل ذلك لذلك، فعد إلى حسن العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة، وإلا فائتِ ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من العقوبة، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد، وتتجافى عن عقاب المُصرِّ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر، وذنبه نسيان، ومن لا يعرف الشكر إلا لك، والإنعام إلا منك، هجمت عليه بالعقوبة.

واعلم، أيدك الله، أن شين غضبك عليَّ كزين صفحك عني، وأن موت ذكري مع انقطاع سببي منك كحياة ذكري مع اتصال سببي بك، واعلم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريم. والسلام».

وللجاحظ رسائل في الاستعطاف وشكوى الزمان آية في البلاغة أثبتناها في المجلد الثالث من هذا الكتاب.

وقد قال فيه بديع الزمان الهمذاني في المقامة الجاحظية: «إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف، والآخر يقف، والبليغ من لم يُقصِّر نظمه

عن نثره، ولم يُزْرِ كلامُه بشعره، فهل تروون للجاحظ شعرًا رائقًا؟ قلنا: لا، قال: فهلموا إلى كلامه، فهو بعيد الإشارات، قريب العبارات، قليل الاستعارات، مُنقادٌ لعريان الكلام يستعمله، نفورٌ من مُعتاصه يُهمِله؛ فهل سمعتم له لفظة مصنوعة أو كلمة غير مسموعة؟».

شعره

قيل: إن للجاحظ شعرًا، ولكننا نظرنا فيما ينسبه له يموت بن المُزرع وأبو العيناء وأبو الحسن البرمكي وغيرهم فوجدناه أقل طبقة من بلاغته، فمما ينسب إليه قوله:

يطيب العيش أن تلقى حكيماً غــذاه العلم والفهم المصيب
فيكشف عنك حيرة كل جهل وفــضل الـعلم يعرفه اللبيب
سَقَام الحرص ليس له شفاء وداء الجهل لــيس لــه طبيب

مصنفاته

صنف الجاحظ أكثر من مائتي كتاب.

قال المسعودي: وكتب الجاحظ مع انحرافه تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنه نظمها أحسن نظم، ورصفها أحسن رصف، وكساها من كلامه أحسن وأجزل لفظ، وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع خرج من جدٍّ إلى هزل، ومن كلمة بليغة إلى نادرة طريفة، وله كتب حسان؛ فمنها «البيان والتبيين»، وهو أشرفها لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى، و«كتاب الحيوان» و«كتاب الطفيليين»

و«كتاب البخلاء»، وسائر كتبه في نهاية الكمال ما لم يقصد منها إلى تصعيب ولا إلى دفع حق، ولا يعلم ممن سلف وخلف أفصح منه.

وقال ابن العميد: كتب الجاحظ تعلِّم العقل أولًا والأدب ثانيًا.

أخباره

حدثنا أبو معاذ عبد الله الخولي المتطبب قال: دخلنا يومًا بـ «سُرَّ من رأى» على عمرو بن بحر الجاحظ نعوده وقد فُلج، فلما أخذنا مجالسنا أتى رسول المتوكل فيه فقال: وما يصنع أمير المؤمنين بشقٍّ مائل، ولُعاب سائل، ثم أقبل علينا فقال: ما تقولون في رجل له شقان، أحدهما لو غرز بالمسالِّ ما أحس، والشق الآخر يمر به الذباب فيُغوِّث، وأكثر ما أشكوه الثمانون؟ ثم أنشدنا أبياتًا من قصيدة عوف بن محلم الخزاعي، قال أبو معاذ: وكان سبب هذه القصيدة أن عوفًا دخل على عبد الله بن طاهر فسلم عليه عبد الله فلم يسمع، فأُعلِم بذلك، فزعموا أنه ارتجل هذه القصيدة ارتجالًا:

يا ابن الذي دان له المشرقان ... طـرًّا وقـد دان له المغربان
إن الـثمـانيـن وبُلِّـغتـهـا ... قد أحوجت سمعي إلى ترجمان
وبدَّلتني بالشَّطاط انـحِـنًى ... وكنت كالصَّعدة تحت السِّنان
وبدَّلتـنـي مــن زَمـاع الفتى ... وهمِّتي هـَّم الجبان الهِـدان
وقاربتْ منِّي خُطًى لـم تـكن ... مُقاربـات وثـنَـت من عِنان
وأنشأت بيني وبين الـورى ... عنانة من غـيـر نسج العنان
ولـم تدع فيَّ لـمُستـمتع ... إلا لسانـي، وبحسبي لسان
أدعـو بـه الله وأثـنـي بهً ... على الأمـيـر المصعبي الهجان

فـقـربـاني، بـأبي أنـتـما، من وطني قبل اصفرار البنان
وقـبـل مـنـعـايَ إلى نـسـوة أوطانُـهـا حـرَّان والرَّقمتانِ

والجاحظ، أيدك الله، قد جمع إلى مواقفه الكبار في الجدل والتناظر، ومتانة الأسلوب وتدفقه، وسمو المنحى وبلاغته، وقوة اللفظ وفخامته، جنوحًا عظيمًا إلى الدعابة واللطائف والتندر والطرائف، والمُلَح والنُّخَب، والنكت مع الأدب، مع خفة ظلٍّ، وظرف روح حبباه إلى النفوس، ومع نباغة وعبقرية جعلتاه فوق الهام والرءوس، وعذوبة عبارة ومائية أسلوب كأنهما الراح في الكئوس.

ومن جملة أخباره أنه قال: ذُكرتُ للمتوكل لتأديب بعض ولده، فلما رآني استبشع منظري، فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني، فخرجت من عنده فلقيت محمد بن إبراهيم وهو يريد الانصراف إلى مدينة السلام، فعرض عليَّ الخروج معه والانحدار في حرَّاقته، وكنا بسُرَّ مَنْ رَأى، فركبنا في الحراقة، فلما انتهينا إلى فم نهر القاطول ضرب ستارًا وأمرنا بالغناء، فاندفعتْ عوَّادةٌ فغنت:

كـل يـوم قطيعة وعتاب ينقضي دهرنا ونحن غضاب
ليت شعري أنا خصصتُ بهذا دون ذا الخلق أم كذا الأحباب

وسكتتْ، فأمر الطُّنْبورية فغنَّتْ:

وارحـمـتـا للـعـاشـقـينا ما إن أرى لـهـم مُـعـيـنـا
كم يـهـجـرون ويُـصـرمـو ن ويُـقـطـعـون فـيـصـبـرونا

قال: فقالت لها العوَّادة، فيصنعون ماذا؟ قالت: هكذا يصنعون، وضربت بيدها إلى الستار فهتكته، وبرزت كأنها فلقة قمر فألقت نفسها في

الماء، وعلى رأس محمد غلام يضاهيها في الجمال وبيده مِذبَّة، فأتى الموضع ونظر إليها وهي بين الماء وأنشد:

أنت التي غرَّقتني بعد القضا لو تعلمينا

وألقى نفسه في أثرها، فأدار الملاح الحرَّاقة، فإذا بهما متعانقان، ثم غاصا فلم يُرَيا، فاستعظم محمد ذلك وهاله أمرهما، ثم قال: يا عمرو، لتُحدِّثني حديثًا يسليني عن فعل هذين وإلا ألحقتُك بهما، قال: فحضرني حديث يزيد بن عبد الملك وقد قعد للمظالم يومًا وعرضت عليه القصص، فمرت به قصة فيها: «إن رأى أمير المؤمنين أن يخرج إليَّ جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة أصوات فعل»، فاغتاظ يزيد من ذلك وأمر من يخرج إليه ويأتيه برأسه، ثم أتبع الرسول رسولًا آخر، يأمره أن يدخل إليه الرجل فأدخله، فلما وقف بين يديه قال له: ما الذي حملك على ما صنعت؟ قال: الثقة بحلمك، والاتكال على عفوك، فأمره بالجلوس حتى لم يبق أحد من بني أمية إلا خرج، ثم أمر فأُخرِجت الجارية ومعها عودُها، فقال لها الفتى غنِّي:

أفاطم مهلًا بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي

فغنته، فقال له يزيد: قل، فقال: غنِّي:

تألق البرق نجديًّا فقلت له يا أيها البرق إني عنك مشغول

فغنته، فقال له يزيد: قل، فقال: يا مولاي، تأمر لي برطل شراب، فأمر له به، فما استتم شربَه حتى وثب وصعد على أعلى قبة ليزيد فرمى نفسه على دماغه فمات، فقال يزيد: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ أتراه الأحمق الجاهل ظنَّ أنِّي أخرج إليه جاريتي وأردها إلى مِلْكي! يا غلمان، خذوها بيدها واحملوها إلى أهله إن كان له أهل، وإلا فبيعوها وتصدقوا بثمنها، فانطلقوا بها إلى

أهله، فلما توسطت الدار نظرت إلى حفيرة في وسط دار يزيد قد أعدت للمطر، فجذبت نفسها من أيديهم وأنشدت:

من مات عشقًا فليمُت هكذا لا خير في عشق بــلا مــوت

فألقت نفسها في الحفيرة على دماغها فماتت، فسُرِّي عن محمد وأجزل صلتي.

وبعد، فإن رسالتنا لا تسع التبسط في القول، ولا سيما شخصية بارزة كشخصية الجاحظ، التي تطلب كما قلنا رسالة مسهبة؛ لمكانة الرجل، ففيما قدمناه لك عنه الغُنية والكفاية، ونرى واجبًا علينا قبل أن نختم كلمتنا أن نحيلك هنا على رسالة خطية منسوبة إليه عثرنا عليها بدار الكتب المصرية، قيل إنه كتبها عن بني أمية، وسبق أن أشرنا إليها في كلمتنا عن العصر الأموي، وهي وحدها تنطق بوجهة نظر الرجل ومذهبه في الاعتزال، وتشهد بطول باعه في التبسط والإسهاب، مع فخامة اللفظ وحلاوته، وفراهة الأسلوب وطلاوته، وسمو البيان ومكانته. وقد أثبتناها لك في باب المنثور من الكتاب الثالث من المجلد الثالث، فراجعها ثمة.

(٤) أبان بن عبد الحميد اللاحقي

هو أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفر مولى بني رقاش، كان بالبصرة ثم رحل إلى البرامكة ببغداد، فاتصل بهم ومدحهم ونال جوائزهم، ثم قويت الصلة بينهم وبينه حتى اتخذوه لهم معلمًا ونصيحًا، يستشيرونه في مهام أمورهم وتدبير شئونهم، وبلغ من حفاوتهم به وإكرامهم له أن جعلوا إليه امتحان الشعراء، وتقدير ما يستحقون من الجوائز والصلات، لكن

هذا المنصب جعله غرضًا لهجو الشعراء وذمِّهم؛ لأنه ليس في مقدوره أن يرضيهم جميعًا من جهة، ولأنهم كانوا يرونه دون أن يكون لهم حكمًا من جهة أخرى.

وكان أبو نواس من أشد هؤلاء الشعراء نقمة على أبان، فإن أبا الفرج الأصبهاني يحدثنا أن أبا نواس لم يرض المرتبة التي جعله فيها أبان، فقال يهجوه بهذه الأبيات:

جالست يومًا أبانًا ... لا درَّ درُّ أبان
ونحن حضرُ رِواق الـ ... أمير بالنهروان
حتى إذا ما صلاة الـ ... أُولَى دنت لأوان
فقام منذر ربي ... بالبر والإحسان
فكلما قال قلنا ... إلى انقضاء الأذان
فقال كيف شهدتم ... بذا بغير عيان
لا أشهد الدهر حتى ... تعاين العينان
فقلت: سبحان ربي ... فقال: سبحان ماني(٢)

وبقية القصيدة في ديوان أبي نواس.

فقال أبان يجيبه:

أن يكن هذا النوا ... سِيُّ بلا ذنب هجانا
فلقد ... حينًا ... وصَفَعْناه زمانًا
هانئ الجَوْنُ أبوه ... زاده الله هوانا
سائلِ العباس واسمع ... فيه من أمِّك شانا
عجَنوا من جُلَّنار ... ليكيدوك عجانا

وجلَّنار هذه هي أم أبي نواس، كان قد تزوجها العباس بعد أبيه، وربما كان لباعث هذه المهاترة بين أبي نواس وأبان أثر كبير فيما كان بين أبي نواس والبرامكة من كراهية وبغضاء، فإن أبا نواس كان معروفًا بسمو المكانة في الشعر، فلا يستطيع مثل أبان أن يُنزِله عن منزلته التي هو جدير بها، إلا إذا كان في ذلك هوًى للبرامكة، وقد يكون بوحي منهم، لكن أبا نواس لم يجد مصدرًا للحكم غير أبان فهجاه، ولم يكن هَجْوُه أبانًا ليُشفي غليله، وإنما يشفي غليله لو استطاع أن ينال بالهجو من يراهم خليقين بهجوه، وهم البرامكة، ولكنه لا يستطيع أن ينالهم بالهجو وهم أصحاب الدولة والسلطان.

كان أبان شديد الإعجاب بنفسه، مدلًّا بعلمه وأدبه، والقصيدة التي قدَّمها للبرامكة حين حاول أن يتصل بهم، على زعم أن يكون له شفيع من ترغيبهم فيه، تعطينا صورة واضحة عنه. وهذه هي القصيدة:

أنا مــن بغية الأميــر وكــنــز ... مـن كـنـوز الأمـيـر ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ... ناصح زائـد عـلى النُّصاح
شاعر مُفلِق أخف من الرِّيْـ ... ـشة مـمـا يكون تحت الجناح
لي في النحو فطنة واتقاد ... أنـــا فـيـه قـــلادة بـوشـاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلْـ ... ـم بـقـول مُـنـوَّر الإفـصـاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعْـ ... ـر وقـول النسيب والأمـداح
وظريف الحديث في كل فن ... وبـصـيـر بـتـرَّهـات المـلاح
كم وكم قد خبأت عندي حديثًا ... هـو عند المـلـوك كالتفاح
فبمثلي تخلو الملوك وتلهو ... وتناجي في المشكل الفداح

أيمن الناس طائرًا يوم صيد   لـغـدو دعـيـت أو لـــرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيْـ   ـل وبالـخـرَّد الحسان الصِّباح
كل ذا قد جمعت والحمد لله   عـلى أنـنـي ظـريـف المـزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيْـ   ـه ولا الـمـاجن الخليع الوقاح
لو رمى بي الأمير أصلحه الله   رمـــاحًـــا ثـــلـمــتُ حدَّ الرماح
ما أنـا واهــن ولا مستكين   لسوى أمـــر سيدي ذي السماح
لست بالضخم يا أميري ولا القز   م ولا بالـمجحدر الـدحداح
لحية جعدة ووجــه صبيح   واتِّقـاد كشــعـلـة الـمصباح
إن دعـاني الأمـير عاين مني   شـــمريًّـــا كالبلبــل الصيَّاح

على أن أبانًا مع إعجابه بنفسه وإدلاله بعلمه وأدبه لم يكن في مقدوره أن يساير كبار معاصريه من الشعراء؛ كأبي نواس وأضرابه في قوة الشعر، واختلاف فنونه، وحسن لفظه، ورقة معانيه.

ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان ينقصه خصب النفس، وقوة الحس، والخيال المبدع للصور الشعرية، أي قوة الابتكار والاختراع، فإن هذه القوى جميعًا لا بد منها للشاعر لكي يُحسَّ وينتزع ويصوِّر، وهذا يفضي بنا إلى إحدى نتيجتين: إمَّا أن نشك فيما وصف به نفسه من جمال الظرف، وخفة الروح، واتِّقاد الذهن، نشك في اتصافه حقًّا بهذه الصفات، التي تملأ النفس شعورًا بما في الحياة من صور للشعر، وإما أنه كان قصير الباع في تصوير ما تحسه نفسه، وكلا الأمرين يبعد البون بينه وبين أبي نواس وأضراب أبي نواس، ولئن نقصته القوى التي تمده بالصور الشعرية، فقد وُفِّق إلى فن جديد نحسب أنه لم يسبق إليه، وهذا الفن لا يضطره إلى كد

القريحة وإعمال الفكر في تصيُّد المعاني الجميلة، وإبرازها في أثواب زاهية جذابة؛ بل لا يحتاج معه إلى أكثر من أن تكون لديه ملكة النظم ووزن الكلام؛ إذ المعاني بين يديه لا يتكلف في سبيلها سعيًا، أو كد قريحة، وهذا الفن الجديد هو النظم التعليمي، وهو أن يعمد الشاعر إلى كتاب معروف منثور فينظمه، أو إلى قواعد عامة في الشريعة أو في اللغة أو في فرع من فروعهما، فينظمها أيضًا، ليَسهُل حفظُها ويقرُب تناولها، وهذا ما فعله أبان وما جعلنا نؤثره بالكلام، فإن هذا النوع من النظم يمثل ناحية طريفة من نواحي الأدب الجديدة في عصرنا المأموني، فقد نكون مُقصِّرين كل التقصير، إذا أغفلنا ذكر مبدعه ومبتكره، نقول: «وهذا ما فعله أبان» فإن الصولي وأبا الفرج الأصفهاني يحدثاننا بأن أبانًا نظم للبرامكة كتاب كليلة ودمنة، ليَسهُل عليهم حفظه، فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل بن يحيى خمسة آلاف دينار، ولم يعطه جعفر شيئًا وقال له: يكفيك أن أحفظه فأكون راويتك، وقد نقل الأصفهاني من هذا الكتاب بيتين هما:

هذا كتاب أدب ومحنهْ وهو الذي يدعى كليله دمنهْ
فيه احتيالات وفيه رشدُ وهو كتاب وضعته الهندُ

وقد أبادت الأيام هذا الكتاب كما أبادت كثيرًا غيره من الكتب العربية القيمة، حتى يئس الأدباء والمؤرخون في العصر الحديث من العثور على شيء منه، وقد يكون من حسن الحظ أن نعلن سرورنا بأنَّا قد وُفِّقنا إلى جزء كبير من هذا الكتاب، في جزء أو أوراق من جزء من كتاب الأوراق المنسوب للصُّولي؛ إذ عثرنا عليه بدار الكتب المصرية منذ أمد طويل حينما

كنا نبحث فيها عمّا وضعه العرب من الموسوعات والمَعْلَمات، وسنذكر في المجلد الثاني ما وجدناه فيه.

ويُحدِّثنا أبو الفرج بأنه عمل أيضًا القصيدة التي ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئًا من المنطق، وسماها «ذات الحلل»، ومن الناس من ينسبها إلى أبي العتاهية، والصحيح أنها لأبان، وسياق أبي الفرج هذا لا يدع سبيلاً إلى الشك في وجود هذه القصيدة، ومع الأسف لم ينقل إلينا منها شيئًا.

ويحدثنا الصولي، بسنده، أن أبانًا لما عمل كتاب كليلة ودمنة شعرًا، في قصيدته المزدوجة، أعطاه البرامكة على ذلك مالاً عظيمًا، فقيل له بعد ذلك: ألا تعمل شعرًا في الزهد؟ فعمل قصيدة مزدوجة في الصيام والزكاة، وقد وجدت هذه القصيدة، وترجمتها «قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان من فم الرواة» ثم ذكر القصيدة، وقد نشرنا ذلك كله في موضعه من المجلد الثاني.

(٥) أحمد بن يوسف الكاتب

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صُبيح الكاتب من أهل الكوفة ومن موالي بني عجل، كان مذهبه الرسائل والإنشاء، وزّره المأمون بعد أحمد بن أبي خالد، فقد كان يتولى ديوان الرسائل له، وكان معروفًا بين أهل عصره بسمو المكانة في العلم والأدب والكتابة والشعر، حكى عن المأمون وعبد الحميد بن يحيى الكاتب، وحكى عنه ابنه محمد بن أحمد بن يوسف وعلي بن سليمان الأخفش وغيرهما.

كتابته

أما مكانته في الكتابة فرسائله وتوقيعاته التي تحلت بها صدور الأدب، وتزينت بها كتب التاريخ تجعله في مقدمة الكتاب ومن أئمتهم، وهي بما فيها من جودة وإحكام، وتخير للألفاظ، وسلاسة في المعاني، تدل على أنه كان خصيب النفس، سريع الخاطر، وعلى أنه مالك أعنة المعاني، ونواصي الكلام، ولقد شهد له بالسبق في الكتابة والرسائل كبار رجال عصره ومَن جاء بعده.

قال الصولي: لما مات أحمد بن أبي خالد الأحول شاور المأمون الحسن ابن سهل فيمن يكتب له ويقوم مقامه، فأشار عليه بأحمد بن يوسف، وبأبي عباد ثابت بن يحيى الرازي، وقال: هما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين وخدمته وما يرضيه، فقال له: اخترْ لي أحدهما، فقال الحسن: إن صبَرَ أحمد على الخدمة، وجفَا لذَّته قليلاً، فهو أحبُّهما إليَّ؛ لأنه أعرف في الكتابة، وأحسنهما بلاغة، وأكثر علمًا، فاستكتبه المأمون.

وروى الصولي، بسنده، أن الكُتَّاب اجتمعوا عند أحمد بن إسرائيل، فذكروا الماضين من الكُتَّاب، فأجمعوا أن أكتَبَ مَن كان في دولة بني العباس أحمد بن يوسف، وإبراهيم بن العباس، وأن أشعر كتاب دولتهم: إبراهيم ابن العباس، ومحمد بن عبد الملك الزيات، فإبراهيم أجودهما شعرًا، ومحمد أكثرهما شعرًا، ثم الحسن بن وهب وأحمد بن يوسف.

فأنت ترى، أعزك الله، أن هؤلاء الكُتَّاب لم يقدِّموا أحدًا من كتاب دولة بني العباس على أحمد بن يوسف في الكتابة، وإن قدَّموا عليه في الشعر. والحق أن نبوغه في الكتابة هو الذي كان سببًا إلى ظهوره ورفعته، فقد روى العلماء أنه لما قُتل الأمين أمر طاهر بن الحسين الكُتَّاب أن يكتبوا إلى المأمون

فأطالوا، فقال طاهر: أريد أقصر من هذا! فوُصِف له أحمد بن يوسف، فأحضره لذلك، فكتب:

أما بعد، فإن المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، فقد فرَّق حكم الكتاب بينه وبينه في الولاية والحُرمة، لمفارقته عصمة الدين، وخروجه عن إجماع المسلمين، قال الله عز وجل لنوح عليه السلام في ابنه: ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ ولا صلة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة ما كانت في ذات الله، وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله المخلوع، وأحصد لأمير المؤمنين أمره، وأنجز له وعده، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته، وأتبع شيء لمشيئته، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع، وبالآخرة وهي البُرْدة والقضيب، والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، والكائد له من خان عهده ونكث عقده، حتى ردَّ الألفة، وأقام به الشريعة. والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

قيل: فرضي طاهر ذلك وأنفذه، ووصل أحمد بن يوسف وقدمه.

وقيل: إن المأمون لما حُمل رأس المخلوع إليه وهو بمرو، أمر بإنشاء كتاب عن طاهر بن الحسين ليُقرأ على الناس، فكتبت عدة كتب لم يرضها المأمون ولا الفضل بن سهل، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب، فلما عرضت النسخة على ذي الرياستين رجَّع نظره فيها، ثم قال لأحمد بن يوسف: ما أنصفناك، ودعا بقهرمانه، وأخذ القلم والقرطاس، وأقبل يكتب بما يفرغ له من المنازل ويعد له فيها من الفرش والآلات والكسوة والكراع وغير ذلك، ثم طرح الرقعة إلى أحمد بن يوسف وقال له: إذا كان في غدٍ فاقعد في الديوان، وليقعد جميع الكتاب بين يديك واكتب إلى الآفاق.

قيل: ومما كتبه للمأمون حين كثر الطلاب للصلات ببابه: «داعي نداك يا أمير المؤمنين، ومنادي جَدْواك جَمَعا الوفود ببابك يرجون نائلك المعهود، فمنهم من يمت بحُرمة، ومنهم من يُدل بخدمة، وقد أجحف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه، ويحقِّق حسن ظنهم بطَولِه، فعل إن شاء الله تعالى»، فوقع المأمون: «الخير متبع، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبي الحاجات، ومواطن لهم؛ ولذلك قال الشاعر:

يسقط الطير حيث يلتقط الحـ ... ـب وتُغشَى منازل الكرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم، واحك مراتبهم، ليصل إلى كل رجل قدر استحقاقه، ولا تكدر معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير الثواب؛ فقد قال الشاعر:

فإنك لن ترى طردًا لحرٍّ ... كإلصاق به طرَف الهوان».

وقال إبراهيم بن العباس: سمعت أحمد بن يوسف يقول: أمرني المأمون أن أكتب إلى النواحي في الاستكثار من القناديل في المسجد، فبتُّ لا أدري كيف أفتتح الكلام، ولا كيف آخذ به، فأتى آتٍ في منامي فقال: قل: فإن في ذلك أنسًا للسابلة، وإضاءة للمتهجدة، ونفيًا لمكامن الريب، وتنزيهًا لبيوت الله عن وحشة الظلم. فانتبهت وقد انفتح لي ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه.

ومن رسائله أيضًا: «لقد أحلك الله في الشرف أعلى ذروته، وبلغك من الفضل أبعد غايته، فالآمال إليك مصروفة، والأعناق إليك معطوفة، عندك تنتهي الهمم السامية، وعليك تقف الظنون الحسنة، وبك تُثنى الخناصر، وتُستفتح أغلاق المطالب، ولا يُستريث النُّجح من رجالك، ولا تعروه

النوائب في دارك». وإنا نحيلك على ما أثبتناه لك في المجلد الثالث من آثاره الممتعة.

شعره

كان أحمد بن يوسف شاعرًا مُعرقًا في الشعر كما كان مُعرقًا في الكتابة، إلا أن حظه من الشعر كان دون حظه من الكتابة، فإن نُقَّاد عصره لم يقدموا عليه أحدًا في الكتابة من كتَّاب بني العباس ووزرائهم، وقد قدَّموا عليه كثيرًا في الشعر، وقد ذكرنا - فيما سبق من ترجمته - إجماع فريق من الكتاب على سبقه في الكتابة دون الشعر. وقد روى الصولي، بسنده، أن قَعنَب بن مُحرز الباهلي قال: كنا نقول لم يلِ الوزارة أشعر من أحمد بن يوسف، حتى ولي محمد بن عبد الملك فكان أشعر منه.

ولم يكن المدح كثيرًا في شعر أحمد بن يوسف؛ فإنه كان بحكم مركزه كوزير للمأمون ورئيس ديوان رسائله غير محتاج إلى أن يتكسب بشعره أو يمدح الناس، ولذلك لا نرى في شعره مدحًا لغير المأمون وليِّه وربِّ نعمته، وكذلك كان هجاؤه قليلًا؛ فإن مروءته وأدبه ومركزه واعتداده بنفسه كل ذلك كان يرفعه عن أن يكون هجَّاء مُقْذعًا، وإنما كان يضطر أحيانًا إلى ذم أعدائه ومنافسيه في غير إقذاع ولا فحش، فمن ذلك قوله في سعيد بن سالم الباهلي وولده وقد كانت بينهم وبينه عداوة، فذكرهم يومًا فقال: «لولا أن الله عز وجل ختم رسالته بمحمد ﷺ، وكتبه بالقرآن؛ لبعث فيكم نبي نقمة، وأنزل عليكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوئ السِّفَل، ومساوئهم فضائح الأمم»، وقال يهجوهم:

أبني سعيدٍ إنكم من معشر ... لا تُحسنون كرامة الأضياف

قوم لباهلة بن أعصُر إن هـمُو فخَـروا حسبتهمو لعبد مناف
مطلوا الغداء إلى العشاء وقرَّبوا زادًا لعمر أبيـك ليس بكاف
بينا أتـاك أتـاهـمُ كبراؤهم يَلحَون في التبذير والإسراف
وكأنني لما حططتُ إليهمو رحلي حططتُ بأبرق العزاف

أخلاقه وسيرته

كان أحمد بن يوسف فطنًا بصيرًا بأدوات الملك وآداب السلاطين، ذكيًا سريع الخاطر ذا مروءة وكرم، وكان مع ذلك يضرب في المجون واللهو بسهم، ومما يدل على عظيم مروءته ما قاله عبد الله بن طاهر حين خرج من بغداد إلى خراسان لابنه محمد، وما وقع بين محمد هذا وبينه بعد ذلك، قال عبد الله لابنه: إن عاشرت أحدًا بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب؛ فإن له مروءة. فما عرج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شيء حتى هجَم على أحمد بن يوسف في داره، فأطال عنده، ففطن له أحمد فقال: يا جارية، غدِّينا. فأحضرت طبقًا وأرغفة نقية، وقدمت ألوانًا يسيرة وحلاوة، وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة في زجاج فاخر وآنية حسنة وقال: يتناول الأمير من أيِّها شاء، ثم قال: إن رأى الأمير أن يُشرِّف عبده ويجيئه في غد فأنعِمْ بذلك. فنهض وهو متعجب من وصف أبيه له، وأراد فضيحته، فلم يترك قائدًا جليلًا ولا رجلًا مذكورًا من أصحابه إلا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف، وأمرهم بالغدو معه، فلما أصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبته وأظهر مروءته، فرأى محمد من النضائد والفرش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه، ونصب ثلاثمائة مائدة وقد حُفَّت بثلاثمائة وصيفة، ونقل إلى كل مائدة ثلاثمائة لون في صحاف

الذهب والفضة ومثارد الصين، فلما رفعت الموائد قال ابن طاهر: هل أكل مَن بالباب؟ فنظروا فإذا جميع من بالباب قد نصبت لهم الموائد فأكلوا، فقال: شتان بين يوميك يا أبا الحسن! «كذا في هذه الرواية كناه بأبي الحسن» فقال: أيها الأمير، ذاك قُوتي، وهذه مروءتي!

أما اللهو والمجون فقد كان حظه منهما غير قليل، وحسبنا أن نذكر ما قاله الحسن بن سهل حين شاوره المأمون فيمن يختاره بعد أحمد بن أبي خالد، فأشار عليه بأحمد بن يوسف وبأبي عباد ثابت بن يحيى الرازي، فقال له: اختر لي أحدهما، فقال الحسن: إن صبَرَ أحمد وجفَا لذاته قليلًا فهو أحبهما إليَّ.

ولقد كان به ما كان ببعض معاصريه من الكتبة والشعراء والأدباء من ميل إلى الغلمان ...! لذلك لم يكن غزله بريئًا، ولم يعالجه على أنه فن من فنون الشعر، وإنما كان غزله يترجم ترجمة صادقة عن شعوره ونوازع نفسه؛ فإنك لا تستطيع أن تسمع ما كان بينه وبين موسى بن عبد الملك ثم تحكم له بأنه اصطنع الغزل فنًّا من فنون الشعر، فقد كان موسى هذا في ناحيته، وهو الذي قدمه وخرجه، وكان يُرمَى بما كان يُرمَى به مما نُمسك عن ذكره.

حدَّث موسى نفسُه فقال: وهب لي أحمد بن يوسف ألف ألف درهم في مرات. وقد لامه محمد بن الجهم على تقديمه موسى بن عبد الملك على صباه، فكتب إليه أحمد بن يوسف شعرًا يلتمس إليه فيه أن يكف عن عذله، وقد أمسكنا عن ذِكْره أيضًا لما فيه من مجون.

ومن غزله ما قاله في محمد بن سعيد بن حماد الكاتب - وكان يميل إليه وقيل عنه: إنه كان صبيًّا مليحًا:

صدَّ عني محمد بن سعيد ... أحسنُ العالمين ثانيَ جِيد
صدَّ عني لغير جُرْم إليه ... ليس إلا لِحُسنه في الصدود

وكان محمد بن سعيد يكتب بين يديه، فنظر إلى عارضه قد اختط في خدِّه، فأخذ رقعة وكتب فيها:

لحاك الله من شَعْر وزادا كما ألبست عارضه الحدادا
أغرتَ على تَوَرُّد وجنتيه فصيرت احمرارهما سوادًا

ورمى بها إلى محمد بن سعيد فكتب مجيبًا: عظم الله أجرك فيَّ يا سيدي، وأحسن لك العوض مني!

وكان لظرفه وفطنته وبصره بالأمور موضعًا لرضا المأمون وعطفه عليه، ويظهر أن علاقته بالمأمون وثقته به وملء يديه منه جعلته لا يتحرز في كلامه كثيرًا، فكان يسقط السقطة بعد السقطة حتى أتلف نفسه في بعض سقطاته، فقد حُكي أن المأمون كان إذا تبخر طُرح له العود والعنبر، فإذا تبخَّر أمر بإخراج المِجْمرة ووضعها تحت الرَّجُل من جلسائه إكرامًا له، وحضر أحمد بن يوسف وتبخَّر المأمون على عادته، ثم أمر بوضع المِجْمرة تحت أحمد بن يوسف، فقال: هاتوا ذا المروءة! فقال المأمون: ألنا يقال هذا ونحن نصل رجلًا واحدًا من خدمنا بستة آلاف دينار؟ إنما قصدنا إكرامك وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخورًا واحدًا، يُحضَر عنبر! فأُحضر منه شيء في الغاية من الجودة، في كل قطعة ثلاثة مثاقيل، وأمر أن تُطَرح القطعة في المِجْمرة يتبخَّر بها أحمد بن يوسف، ويُدْخل رأسَه في زيقه حتى يَنفدَ بخورُها، وفُعل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة وهو يستغيث ويصيح، وانصرف إلى منزله وقد احترق دماغه، واعتل ومات سنة ٢١٣، وقيل: سنة ٢١٤هـ.

وكانت له جارية يقال لها: نسيم، لها من قلبه مكان خطير، فقالت ترثيه:

ولو أن ميتًا هابه الموت قبله لما جاءه المقدار وهو هيوب
ولو أن حيًّا قبله هابه الردَى إذن لم يكن للأرض فيه نصيب

وقالت أيضًا ترثيه:

نفسي فداؤك لو بالناس كلهم ما بي عليك تمنَّوا أنهم ماتوا
وللورَى موتةٌ في الدهر واحدة ولي من الهم والأحزان مَوْتات

(٦) يحيى بن أكثم القاضي

هو أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قَطَن ينتهي نسبه إلى أكثم بن صَيْفي التميمي حكيم العرب المعروف.

عرف التاريخ يحيى بن أكثم حدثًا في مجلس سفيان بن عُيينة، المعروف بعلمه وورعه ونفوذه؛ إذ يقول ابن خلِّكان في كتابه «وفيات الأعيان»: ورأيت في بعض المجاميع أن سفيان خرج يومًا إلى من جاءه يسمع منه وهو ضَجِر، فقال: أليس من الشقاء أن أكون جالست صخرة بن سعيد، وجالس هو أبا سعيد الخدري، وجالست عمرو بن دينار، وجالس هو عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وجالست الزهري وجالس هو أنس بن مالك، حتى عدَّ جماعة، ثم أنا أجالسكم، فقال له حدث في المجلس: انتصِف يا أبا محمد، قال: إن شاء الله تعالى، فقال: والله لشقاء أصحاب أصحابِ رسول الله بك أشد من شقائك بنا! فأطرق سفيان وأنشد قول أبي نواس:

خلِّ جنبيك لرام وامضِ عنه بسلام
مُتْ بداء الصمت خير لك من داء الكلام
إنما السالم من ألـ ـجَمَ فاهُ بلِجام

فتفرق الناس وهم يتحدثون برجاحة الحدَث، وكان ذلك الحدَث يحيى

ابن أكثم التميمي، فقال سفيان: هذا الغلام يصلُح لصحبة هؤلاء، يعني السلاطين. ا.هـ.

هذا كل ما نعلمه عن حداثة يحيى بن أكثم، وهي حداثة تبشر بما سيكون لهذا الناشئ من مكانة ونفوذ جديرين بها وهبه الله من ذكاء وسرعة خاطر، وقوة قلب وسلاطة لسان. تلك المخايل كانت واضحة فيه، وقد جعلته حديث حاضري مجلس سفيان، وحملت سفيان على أن يقول عنه: هذا الغلام يصلح لصحبة هؤلاء - مشيرًا إلى ولاة الأحكام.

لقد صدَّقت الأيام حدْس سفيان فيه، فقد انخرط يحيى في سلك القضاة صغيرًا لنجابته، ثم درج في مناصب القضاء حتى تبوَّأ أسمى مناصب الدولة؛ تبوأ منصب قاضي القضاة، ومنصب الوزارة للمأمون، منظورًا إليه في كل ما تولاه من المناصب بالتجلة والإكبار من الخاصة والعامة.

ونحن ذاكرون لك حياته وما تولَّاه من مناصب ومكانته العلمية والأدبية، وما كان مُتَّصفًا به من الحزم وحسن السياسة، وأقوال الناس فيه وفي أخلاقه، ووجهة نظر كل فريق من الناس فيه، معتمدين في ذلك على ما بين أيدينا من مصادر تاريخية وأدبية، مُنبِّهين على ما يمكن أن يقع بينهما من خلاف كثير أو قليل.

أول عمل تولاه

أما أول عمل تولاه فيحدثنا عنه ابن طيفور بقوله: «قال: حدثني أحمد ابن صالح الأضجم، قال: هل تدري ما كان سبب يحيى بن أكثم؟ قلت: لا، وإني أحب أن أعرفه، قال: يحيى بن خاقان هو وصَله بالحسن بن سهل وقرَّبه من قلبه وكثَّره في صدره حتى ولاه قضاء البصرة، ثم استوزره المأمون فغلب عليه، وحدثني عبد الله بن أبي مروان الفارسي قال: كان ثُمامة سبب

يحيى بن أكثم في قضاء البصرة مرتين، وسبب تخلصه من الخادم الذي أمر بتكشيفه بالبصرة، ويقال: إنه قطع خصيته في تعذيبه بالقصب» ا.هـ.

ويقول ابن خلِّكان في سبب اتصاله بالقضاء: أراد المأمون أن يولي رجلًا القضاء، فوُصف له يحيى بن أكثم فاستحضره، فلما حضر دخل عليه، وكان دميم الخَلْق فاستحقره المأمونُ لذلك، فعلم ذلك يحيى فقال: يا أمير المؤمنين، سَلْني إن كان القصد علمي لا خَلْقي، فسأله المأمون المسألة المعروفة في الميراث بالمسألة المأمونية، وهي أبوان وبنتان لم تقسم التركة حتى ماتت إحدى البنتين وخَلَّفت من في المسألة، فقال يحيى: يا أمير المؤمنين، الميت الأول رجل أم امرأة؟ فعرَف المأمون أنه قد عرف المسألة فقلده القضاء.

ثم يذكر لنا ابن خلِّكان بعد ذلك نقلًا عن تاريخ بغداد للخطيب، أن يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسنُّه عشرون سنة أو نحوها، فاستصغره أهل البصرة فقالوا: كم سن القاضي؟ فعلم أنه قد استُصغِر فقال: أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجَّه به النبي ﷺ قاضيًا على مكة يوم الفتح، وأنا أكبر من معاذ بن جبل الذي وجَّه به النبي ﷺ قاضيًا على اليمن، وأنا أكبر من كعب بن سَوْر الذي وجَّه به عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضيًا على أهل البصرة، فجعل جوابه احتجاجًا.

قد عرفت - مما ذكرناه عن ابن طيفور المُعاصر ليحيى وعن ابن خلكان - أن بين روايتَي المؤرخين في سبب اتصال يحيى بالقضاء خلافًا، فابن طيفور يروي لنا أنه اتصل أولًا بالحسن بن سهل، نائب الخليفة المأمون في بغداد، ثم ولَّاه قضاء البصرة.

وابن خلكان يروي لنا أنه اتصل بالمأمون، وبعد أن امتحنه وعرف فضله ولاه القضاء، فهل يمكن التوفيق بين روايتيهما؟

يخيل إلينا أن كلتا الروايتين صحيحة، خصوصًا إذا ذكرنا ما رواه ابن طيفور من أن ثمامة كان سبب يحيى بن أكثم في قضاء البصرة مرتين؛ إذ يمكن أن تكون توليته قضاء البصرة في المرة الأولى كانت عن طريق اتصاله بالحسن بن سهل، وأن توليته في المرة الثانية كانت عن طريق اتصاله بالخليفة المأمون، وأن ما ذكره ابن خلكان في تاريخه من استصغار أهل البصرة له ثم احتجاجه عليهم بما فعله النبي ﷺ وبما فعله عمر رضي الله عنه كان في المرة الأولى.

وبهذا التحليل نستطيع أن نفهم ما يذكره المؤرخون من أنه عُزل من قضاء البصرة لأمره بتعذيب خادم بالقصب بعد تكشيفه حتى قطعت خصيته، ثم ما يذكرونه من أنه عُزل لقوله أبياتًا من الشعر تغزُّلًا في ابني مسعدة، وكانا على نهاية الجمال.

ومهما يكن من شيء فنحن نرجح أنه تولى قضاء البصرة مرتين: الأولى عن طريق الحسن بن سهل، ثم عزل لأحد السببين المذكورين أو غيرهما مما لا نقطع به، والثانية عن طريق المأمون.

بقي شيء آخر فيما يرويه ابن خلكان نريد أن نلفت النظر إليه، فقد يكون فيه شيء من التناقض أو السهو؛ ذلك بأنه يروي لنا أن يحيى حين ولي قضاء البصرة كانت سنه نحو عشرين سنة، وأن أهل البصرة استصغروه فاحتج عليهم بما فعله النبي وعمر، وسواء أكانت توليته عن طريق الحسن بن سهل أم عن طريق المأمون فهي لا تعدو أوائل القرن الثالث الهجري، ثم يذكر بعد ذلك أنه توفي بالربذة سنة اثنتين وأربعين ومائتين وقبل غُرَّة

ثلاث وأربعين وعمرُه ثلاثٌ وثمانون سنة، إذ مهما بالَغْنَا في سنه مُتَمشِّين مع رواية ابن خلِّكان، نقلًا عن تاريخ بغداد، من أنه تولَّى قضاء البصرة وسنُّه نحو العشرين، فلن نعدو به الستين إلا قليلًا، فكيف يمكن التوفيق بين هذا وبين ما يقوله ابن خلكان من أنه توفِّي وعمرُه ثلاثٌ وثمانون سنة، ولو فرضنا صحة ما يقوله ابن خلكان في عمره حين الوفاة، وفرضنا أيضًا صحة ما نقله عن تاريخ بغداد من أنه تولَّى قضاء البصرة وسنُّه نحو العشرين؛ لكانت توليته قضاء البصرة في النصف الأول من عهد الرشيد لا في عهد المأمون، وهو خلاف المجمع عليه وخلاف ما ينقله هو أيضًا من أن توليته البصرة كانت سنة اثنتين ومائتين.

ثم نرى يحيى بعد أن عُزل من قضاء البصرة في بغداد ثاويًا في دار شادها له صديقه الحميم ثُمامة بن أشْرس بحضرته – وكان ثمامة بن أشرس هذا عالمًا مُتكلِّمًا سليط اللسان قوي الحجة ذا آراء في الاعتزال، وإليه تنسب الطائفة الثمامية من المعتزلة، وكان متصلًا بالمأمون محببًا إليه، موثوقًا به منه، فكان خير وسيلة لاتصال صديقه يحيى بالخليفة المأمون – ثم عرف المأمون ما في يحيى من علم وذكاء وحزم فأدناه إليه وقربه منه، وخصَّه برعايته وعطفه حتى غلب عليه دون الناس جميعًا.

ويحدثنا ابن طيفور أن يحيى بن أكثم قال للمأمون: أظهر لكل قاضٍ ما تريد أن توليه إياه وأْمُرْه بكتمانه، ثم انظر أيفعل أم لا، وضَعْ عليهم أصحاب أخبار، فقال له المأمون: أولِّيك قضاء القضاة، وقال لغيره ما يريد أن يوليه، فشاع ذلك كله إلا خبر يحيى، فإنه أتاه أن الناس ذكروا أنه يريد الخروج إلى البصرة على قضائها، فذمَّهم، وقال له: كيف شاع هذا وأمرت باكتراء السفن إلى البصرة؟ قال يحيى: يا أمير المؤمنين، ليس يستقيم كتمان شيء إلا بإذاعة غيره وإلا وقع الناس عليه، قال: صدقت وحمده.

من المجمع عليه أن يحيى بن أكثم كان قاضي القضاة للخليفة المأمون، ولكن هل توَزَّر له؟ لم يذكره الفخري في وزراء المأمون، لكن ابن طيفور ذكر فيما نقلناه عنه أن المأمون استوزره، فهل يمكن أن يكون المراد من استيزار المأمون له ما ذكره طلحة بن محمد بن جعفر؟ إذ يقول في آخر وصفه لفضل يحيى بن أكثم وعلمه وأخلاقه: «وكان المأمون ممن برع في العلوم فعرف من حال ابن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه حتى قلَّده قضاء القضاة، وتدبير أهل مملكته، فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئًا إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم.» ليس يبعد أن يكون هذا هو المراد، على أنا قد عددناه من وزراء المأمون في كلمتنا المجملة عن وزرائه.

ومهما يكن من شيء، فقد كان يحيى بن أكثم قاضي القضاة وصاحب الكلمة العليا والأمر النافذ في الدولة، وكانت مكانته من المأمون لا تدنو منها مكانة، ولكي تقدر حظوته لدى المأمون وأدب المأمون معه نورد لك ما يروى عن يحيى بن أكثم نفسه، قال:

بتُّ ليلة عند المأمون فانتبه في بعض الليل فظن أني نائم، فعطش ولم يدْعُ الغلام لئلا أنتبه، وقام متسللًا خائفًا هادئًا في خطاه حتى أتى البرادة، فشرب ثم رجع وهو يُخفي صوته كأنه لص حتى اضطجع، وأخذه سُعال فرأيته يجمع كمَّه في فمه كي لا أسمع سعاله، وطلع الفجر فأراد القيام وقد تناومتُ، فصبر إلى أن كادت تفوت الصلاة فتحرَّكت، فقال: الله أكبر، يا غلام، نبِّه أبا محمد، فقلت: يا أمير المؤمنين، رأيت بعيني جميع ما كان الليلة من صنيعك، وكذلك جعلنا الله لكم عبيدًا، وجعلكم لنا أربابًا.

وهاك حكاية أخرى تدل على أدب المأمون وحظوة يحيى لديه، وهي مروية عن ثمامة بن أشرس صديق يحيى وثقة المأمون، قال ثمامة: «كان يحيى بن أكثم يماشي المأمون يومًا في بستان موسى والشمس عن يسار يحيى والمأمون في الظل وقد وضع يده على عاتق يحيى وهما يتحادثان حتى بلغ حيث أراد، ثم كرَّ راجعًا في الطريق التي بدأ فيها، فقال ليحيى: كانت الشمس عليك لأنك كنتَ عن يساري، وقد نالت منك، فكن الآن حيث كنتُ وأتحول أنا إلى حيث كنتَ، فقال يحيى: والله يا أمير المؤمنين لو أمكنني أن أقيَك هولَ المطلع بنفسي لفعلت، فقال المأمون: لا والله ما بد من أن تأخذ الشمس مني مثلما أخذت منك، فتحول يحيى وأخذ من الظل مثل الذي أخذ منه المأمون». ا.هـ.

ولم يزل في هذه الرعاية من المأمون والحظوة لديه يفوض إليه المأمون جليل الأعمال، ويرسله في مهام الأمور، حتى كانت سنة ٢١٦هـ؛ إذ نرى المأمون بمصر يسخط على يحيى بن أكثم الذي كان في حاشيته، ويرسله مغضوبًا عليه إلى العراق، ثم يبلغ من حنقه عليه أن يكتب في وصيته إلى ولي عهده المعتصم محذرًا إياه من اصطناع الوزراء والركون إليهم، ضاربًا بيحيى بن أكثم مثلًا في سوء السيرة وقبيح الفعال، ونحن نلقي على مسامعك ما كتبه في وصيته متعلقًا بيحيى: «ولا تتخذن بعدي وزيرًا تلقي إليه شيئًا؛ فقد علمت ما نكبني به يحيى بن أكثم في معاملة الناس وخُبث سيرته، حتى أبان الله ذلك منه في صحة مني، فصرتُ إلى مُفارقته قاليًا له غير راضٍ بما صنع في أموال الله وصدقاته، لا جزاه الله عن الإسلام خيرًا».

ثم لم تزل تختلف الأحوال على يحيى بن أكثم بعد ذلك، وتتقلب به الأيام حتى أيام المتوكل على الله، فلما عُزل القاضي محمد بن القاضي أحمد بن أبي دُوَاد فوض ولاية القضاء إلى القاضي يحيى، وخلَع عليه خمس خلع، ثم غضب عليه المتوكل وعزله سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله، وألزم منزله. ثم حج بعد ذلك وأخذ معه أخته واعتزم أن يجاور، ثم بلغه رضا المتوكل عنه ورجوعه له، فبدا له في المجاورة ورجع يريد العراق، فلما كان بالربذة في طريقه إلى العراق وافته المنية يوم الجمعة منتصف ذي الحجة سنة أربعين ومائتين، وقيل: غُرة ثلاث وأربعين ومائتين، ودفن هناك. وقد قدمنا لك ما ذكره ابن خلكان في عمره حين الوفاة، وشفعناه بما يمكن أن يكون في كلامه من تناقض أو سهو أو تحريف.

كان يحيى بن أكثم فقيهًا عالمًا بالفقه، بصيرًا بالأحكام، وقد عدَّه الدارقطني في أصحاب الشافعي ﷺ، راويًا للحديث، آخذًا بحظ كبير من كل فن، سمع الحديث عن عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما، ويروي عنه الترمذي وغيره من رجال السنة وحفَظة الحديث، وكانت له منزلة سامية لدى رجال الدين وعلماء الجماعة.

ومما رفع منزلته لدى الناس جميعًا موقفه المشهور مع المأمون، مما يدل على سعة علمه، وقوة حجته، وعظيم جراءته؛ ذلك بأن المأمون رأى وهو في طريقه إلى الشام جواز نكاح المتعة، فوقف له يحيى موقفًا أكسبه حمْدَ أئمة الدين وثناءهم عليه. ونحن نزجى إليك هذا الحديث نقلًا عن ابن خلكان، قال: «حدث محمد بن منصور قال: كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر فنودي بتحليل المتعة، فقال يحيى بن أكثم لي ولأبي العيناء: بكِّرا غدًا إليه؛

فإن رأيتما للقول وجهًا فقولا، وإلَّا فأمسكا إلى أن أدخل، قال: فدخلنا عليه وهو يستاك ويقول وهو مغتاظ: مُتعتان كانتا على عهد رسول الله ﷺ وعلى عهد أبي بكر ﷺ وأنا أنهى عنها! ومَن أنت يا جعل حتى تنهى عما فعله رسول الله ﷺ وأبو بكر ﷺ! فأومأ أبو العيناء إلى محمد بن منصور وقال: رجل يقول في عمر بن الخطاب ما يقوله نكلمه نحن! فأمسكنا، فجاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا، فقال المأمون ليحيى: ما لي أراك متغيرًا؟ فقال: هو غمٌّ يا أمير المؤمنين لما حدَث في الإسلام، قال: وما حدث فيه؟ قال: النداء بتحليل الزنا! قال: الزنا؟ قال: نعم، المتعة زنًا، قال: ومن أين قلت هذا؟ قال: من كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ يا أمير المؤمنين، زوجة المتعة ملك يمين؟ قال: لا، قال: فهي الزوجة التي عند الله ترث وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها؟ قال: لا، قال: فقد صار متجاوز هذين من العادين، وهذا الزهري، يا أمير المؤمنين، روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية، عن أبيهما، عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان قد أمر بها، فالتفت إلينا المأمون فقال: أمحفوظ هذا من حديث الزهري؟ فقلنا: نعم، يا أمير المؤمنين، رواه جماعة منهم مالك ﷺ، فقال: أستغفر الله! نادوا بتحريم المتعة، فنادوا بها» ا.هـ.

أما آراء يحيى الكلامية فإن المؤرخ يقف أمامها موقف حيرة وإحجام، ويحتاج إذا أراد أن يبدي رأيًا فيها إلى شيء غير قليل من الأناة والروية؛

ذلك بأن يحيى كان يقف موقفًا قريبًا من الفتنة العنيفة التي كانت مضطرمة في وقته، فهو قاضي قضاة المأمون، ومنزلته منه منزلة يُغبط عليها، والمأمون زعيم القائلين بخلق القرآن، وهي بدعة اعتزالية، ثم هو في الوقت نفسه مرضيٌّ عنه من الجماعة وأهل السنة، ثم نراه حينًا يقف موقف المعارضة من صديقه وحميمه ثُمامة بن أشرس المعتزلي وزعيم الطائفة الثمامية، معارضة تشتدُّ في بعض الأحيان إلى المخاشنة والمهاترة، وأنت تعلم من هو ثُمامة وما علاقته بالمأمون وثقة المأمون به، ثم تعلم ما كانت علاقته بيحيى نفسه وكمْ له من يدٍ عليه، أضف إلى كل هذا ما يرويه ابن خلِّكان من أنه كان يقول: «القرآن كلام الله، فمن قال: إنه مخلوق يُستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عنقه» ولاحِظْ أن المأمون زعيم القائلين بذلك.

فهل يمكن مع ذلك إبداء رأي في عقيدة يحيى الكلامية؟ وهل يمكن أن تكون كل هذه الروايات صحيحة مع ما يبدو عليها من شبه تناقض؟

نظن أنه باستعمال شيء من التحليل يمكن إبداء الرأي، ويمكن التوفيق أيضًا؛ ذلك بأن يحيى بن أكثم كان كيِّسًا حازمًا، خفيف الروح، حلو اللسان، فاستطاع بذلك أن يداري الناس جميعًا، خاصَّتهم وعامَّتهم، وأن يكتسب رضاهم جميعًا، فإذا حُووِر وجُودِل فاشتد أحيانًا؛ فإنما يكون ذلك إلى الحد الذي لا يمس مكانته ونفوذه، فبقي في حظوة لدى المأمون وإخوان المأمون دونها كل حظوة، وكان في الوقت نفسه بموضع الكرامة والرضا من أهل السنة والجماعة.

إلى هنا لم نستطع أن نبدي شيئًا في رأيه، وكل ما يمكن أن يُستنبط مما تقدَّم أنه كان حسن التقية، بارعًا في المداراة والمصانعة والرياء، وكانت

هذه الخلة من أظهر مميزات العصر؛ فالخليفة يداري فيقابل قاتل أخيه بالترحاب، فإذا ما خرج القائد القاتل وسُئل المأمون عن عَبْرة استعبرها كانت إجابته: «قتلني الله إن لم أقتل طاهرًا» ثم هو بعدُ يوصي صاحب أخباره بالرياء، ويعدد لنا أهل الرياء في عصره. وهاك مثلًا قاضي قضاته كما ترى من سيرته.

ولكن هل من الممكن أن نستسيغ مشادَّته العنيفة أحيانًا في محاورة صديقه ومُصطنعه ثمامة بن أشرس، مع ما في هذه المشادة من نُكران للجميل، ومن تعريض نفوذه للضياع، دون أن يكون على خُلْف معه في الرأي، ودون أن نميل إلى صحة ما يرويه المؤرخون من أنه كان سليمًا من البدعة ينتحل مذهب أهل السنة؟

هذا ما يمكن أن تؤدي إليه المقدمات وإن كانت حياة يحيى والبيئة التي تحيط به تجعله إلى الجانب الآخر أقرب. نريد من كل هذا أن نستنبط رأي يحيى الكلامي وإن كان، وهو قاضي القضاة، حريصًا على أن يكون بنجوة عن منازعات الأحزاب الكلامية، إذ نظن أن الذي ينصح إلى المأمون حين أراد أن يلعن معاوية، وأن يكتب بذلك كتابًا يُقرأ في حفل من الناس بقوله: «يا أمير المؤمنين، إن العامة لا تحتمل هذا، ولا سيما أهل خراسان، ولا تأمن أن تكون لهم نفرة، وإن كانت لم تدر ما عاقبتها، والرأي أن تدع الناس على ما هم عليه، ولا تظهر[٣] لهم أنك تميل إلى فرقة من الفِرق، فإن ذلك أصلح في السياسة، وأحرى في التدبير». نظن أن الذي يفعل ذلك هو من أحرص الناس.

هذا كله كان في الفترة التي كان فيها مُتصلًا بمناصب الدولة أو على أمل الاتصال بها، أما بعد أن سخط عليه المأمون وأقصاه من مناصب الدولة،

وأوصى إلى المعتصم بأن يتدرَّع بالحذر منه ومن أمثاله، فقد ظهر يحيى بن أكثم معارضًا عنيفًا لبدعة خلْق القرآن، ومن هنا نميل إلى أن نفترض أن الجملة التي رواها ابن خلكان صحيحة النسبة إليه، وأنها من آثاره بعد غضب المأمون عليه.

أدبه

ذُكر أن يحيى بن أكثم كان فقيهًا بصيرًا بالأحكام، راويًا للحديث، آخذًا من كل فن بطرف، ويظهر أن حظه من الأدب الإنشائي لم يكن كحظه من غيره، فإنه لم يؤثر عنه في المصادر التي بين أيدينا من القطع الرائعة النثرية أو الشعرية إلا أبيات من الشعر نُسبت إليه في الغزل بالمذكَّر، من ذلك ما عُزي إليه حين دخل عليه ابنا مَسعدة، وكانا في نهاية الجمال، وكانا كلما يمشيان في الصحن أنشد قوله:

يا زائرينا من الخيام ... حياكم الله بالسلام
لم تأتياني وبي نهوض ... إلى حلال ولا حرام
يحزنني أن وقفتما بي ... وليس عندي سوى الكلام

ويقال: إن هذه الأبيات كانت سببًا لعزله كما قدمنا.

ومما ينسب إليه من الشعر قوله في غلام جميل كان يكتب بين يديه، فقرَص القاضي خدَّه، فخجل الغلام وطرح القلم من يده، فأملى عليه هذه الأبيات:

أيا قمرًا جمشته فتغضَّبا ... وأصبح لي من تيهه متجنِّبًا
إذا كنت للتجميش والعض كارهًا ... فكن أبدًا يا سيدي متنقبًا

ولا تظهر الأصداغ للناس فتنة   وتجعل منها فـوق خديك عقربَا
فـتقـتـل مسكيـنًا وتفتن ناسكًا   وتترك قـاضـي المسلمين معذبَا

وقيل: إن هذه الأبيات قالها في الحسن بن وهب وهو صبي، وقد لاعبه وجَمَّشه فغضب الحسن.

أخلاقه

حسبنا أن نذكر لك دلالة على ما لهذا الرجل من فطنة وحزم وتدبير وحسن سياسة أنه تملَّك قلب المأمون، الذي قدمنا لك عنه ما قدمنا، حتى غلب عليه دون الناس جميعًا، وكان مع ذلك مهيبًا، خفيف الروح، سليط اللسان، قويَّ القلب، سريع الخاطر، وحسبك دلالة على قوة قلبه وسرعة خاطره ما روي من أن المأمون قال له معرضًا به: من الذي يقول:

قاض يرى الحدَّ في الزناء ولا   يـرى على مـن يلُوط من باس؟

قال: أوَما يعرف أمير المؤمنين من القائل؟ قال: لا، قال: يقوله الفاجر أحمد بن أبي نعيم الذي يقول:

لا أحسب الجَور ينقضي وعلى الـ   أمَّـــة والٍ مـــن آل عـــبَّـــاس

فأفحم المأمون خجلًا وقال: ينبغي أن يُنفَى أحمد بن أبي نعيم إلى السّند. وهذان البيتان من قصيدته التي قد ذكرناها في الحياة الأدبية لعصر المأمون.

وقد جعل العلماء مقارنة بين أحمد بن أبي دُوَاد ويحيى بن أكثم في أخلاقهما وآرائهما ونفوذهما لدى الملوك، فيقال: إن كليهما غلب على سلطانه في عصره، ووصفهما بعض البلغاء وقد سئل عن أيهما أنبل فقال: كان أحمد يجِدُّ مع جاريته وابنته، ويحيى يهزل مع خصمه وعدوه.

سيرته

أما سيرته فلم نر رجلًا في مركزه الديني والاجتماعي حامت حوله الريب والإشاعات مثلما حامت حول هذا القاضي، ومع هذه الريب والإشاعات فقد كان مرعي الجانب، موفور الكرامة، ويظهر أن جل الناس حتى أخص أصدقائه به كانوا يجنحون إلى تصديق هذه الإشاعات، إلا أئمة الدين، فقد كانوا يكبرونه وينكرون أن يكون لهذه الإشاعات ظل من الحق، فقد سئل أحمد بن حنبل عن هذه الإشاعات فأنكرها إنكارًا.

ولعل الذي يفسر موقف رجال الدين منه هذا الموقف وإنكارهم ما ينسب إليه من إشاعات موقف يحيى من المأمون يوم «المتعة» وغير يوم المتعة، مما جعله في نظرهم بطلًا من أبطال الدين، وخليقًا بمثله أن يكون بنجوة من كل منكر.

أما يحيى نفسه، فيحدثنا ابن خلكان نقلًا عن ابن الأنباري، أنه قال لرجل كان يأنس له ويمازحه: ما تسمع الناس يقولون فيَّ؟ قال: ما أسمع إلا خيرًا، قال: ما أسألك لتزكيني، قال: أسمعهم يرمون القاضي ... قال: فضحك، وقال: اللهم غفرًا المشهور عنا غير هذا.

ويقال: إن المأمون لما تواترت هذه الإشاعات أراد أن يمتحنه فأخلى له مجلسًا واستدعاه، وكان قد أسرَّ إلى غلام خزري أن يكون في خدمتهما وحده حتى إذا خرج المأمون عابث القاضي، فلما استقر بهم المقام وخرج المأمون أخذ الغلام يعابث القاضي، فسمع المأمون - وكان يستمع حديثهما - القاضي يقول: «لولا أنتم لكنا مؤمنين»، فدخل عليهما منشدًا قول أبي حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب:

وكنا نُرجِّي أن نرى العدل ظاهرًا فأعــقبــنا بعد الرجــاء قنوط
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها وقاضي قـضاة المسلمين يلُوط

وقد قلنا: إن أخص أصدقائه به كان يجنح إلى تصديق هذه الإشاعات، فقد قيل: إن صديقه أبا عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد اشتهى بعد أن مات يحيى أن يراه في المنام ليعلم ما فعل الله به، فأوحت إليه الأحلام أن الله غفر له بعد أن وبَّخه على تخليطه، وأن يحيى حاجَّ ربه بالحديث المشهور: «إني لأستحي أن أعذب ذا شيبة بالنار». فهل يستوحي الأحلام ليعلم ما فعل الله بصديقه مَن يعتقد براءته؟

تآليفه

يحدثنا المؤرخون أن يحيى بن أكثم ألف كتبًا في الفقه، وأخرى في الأصول، وله كتاب أورده على العراقيين أصحاب أبي حنيفة سماه «كتاب التنبيه». وهذا يؤيد ما قاله الدارقطني من أنه كان من أصحاب الشافعي.

(٧) إسحاق بن إبراهيم الموصلي

قد يكون حظ المغنين وأهل الموسيقى المسلمين من عناية المؤرخين في العصور الإسلامية أكثر من حظ غيرهم، وقد عُنِي المؤرخون بتسجيل حوادثهم وألحانهم وإيقاعاتهم، وما كان يقع بينهم من خلاف منشؤه المنافسة والحسد، أو التقرُّب إلى ذوي السلطان، وما كان يتفق لهم من مفاكهات لطيفة، ونكات طريفة. وهذه العناية ظاهرة من الكتب الكثيرة التي أُرصدت لهذه الناحية من تاريخ الحضارة الإسلامية، وقد عبث الدهر بجل هذه الكتب ولم يبق منها إلا القليل، وعلى رأس هذا القليل

الباقي - وهو الحجة في هذا الموضوع - كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصفهاني.

وقبل أن نعرض للكلام على إسحاق وتفصيل حياته، نقرر أننا عاجزون كل العجز عن أن نجلو الناحية الفنية من شخصيته، فإن جلاء هذه الناحية وكشفها لا يتسق إلا لرجل أُوتي حظًّا كبيرًا من الموسيقى، يستطيع به أن يقدِّر مواهب أهل الفن وما وفِّقوا إليه من إجادة، ونرجو أن يتاح لإسحاق من يتوافر له هذا الحظ، فيجلو لنا شخصيته الفنية، ومبلغ المدى الذي قطعه في سبيل الكمال الموسيقي، كما أتيح «لبتهوفن» وغير «بتهوفن» من أصحاب المواهب الكبيرة في الموسيقى من أبرَزَ شخصياتهم الفنية للناس، وأبان ما لعبقرياتهم من آيات خالدات في الفن.

ولن يستطيع أحد مهما أُوتي من مواهب واتخذ من أسباب أن يجلو شخصية إسحاق الفنية ما بقيت مصطلحات الموسيقى العربية مغلقة لم تفتح، وما بقيت تعاليمها ألغازًا لم تُحلّ.

وإذ كان هذا هو موقفنا من الناحية الفنية إزاء شخصية إسحاق، فلنكن مؤرخين ليس غيرُ، نورد لك الحوادث كما رواها المؤرخون مع تحليل ما نوفَّق إلى تحليله من أخلاقه وأعماله فنقول: هو أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن ميمون بن بَهمَن بن نسك، ووالده إبراهيم وهو ماهان، وسبب نسبته إلى ميمون أنه كتب كتابًا إلى صديق له فعنونه: من إبراهيم بن ماهان ... فقال بعض إخوانه من فِتْيان الكوفة: أما تستحي من هذا الاسم؟ قال: هو اسم أبي، قال: فغيِّره، قال: فكيف أغيره؟ فأخذ الفتى الكوفي الكتاب فمحا ماهان وكتب ميمونًا، فصار من ذلك الحين إبراهيم بن ميمون.

وأصل أسرة إسحاق من فارس، من بيت شريف في العجم، كان هرب جده ماهان من جور بعض عمال بني أمية لخراج طُولب بأدائه، فنزل الكوفة، وأُمُّ إبراهيم والد إسحاق من بنات الدهاقين الذين هربوا كما هرب ماهان، وتزوجها ماهان بالكوفة، فولدت له إبراهيم ثم مات وسِنُّ إبراهيم سنتان أو ثلاث، فكفل إبراهيمَ آلُ خزيمةُ بن خازم، ومن هذا صار ولاؤه إلى تميم.

وقد سأل الرشيدُ إبراهيمَ عن السبب بينه وبين تميم، فقال له: ربونا يا أمير المؤمنين فأحسنوا تربيتنا، ونشأت فيهم، وكان بيننا وبينهم رضاع فتولونا بهذا السبب. وقال إسحاق يفتخر بأصله وبيته وكافلي أبيه:

إذا كانت الأشراف أصلي ومنصبي ... ودافع ضيمي حازمٌ وابن خازم
عطستُ بأنف شامخ وتناولتْ ... يداي الثُّريا قاعدًا غير قائم

وسبب قولهم: الموصلي أنه لما اشتد إبراهيم وأدرك صحِب الفِتيانَ واشتهى الغناء وطلبه، فاشتد أخواله عليه في ذلك وبلغوا منه، فهرب إلى الموصل وأقام بها سنة، فلما رجع إلى الكوفة قال له إخوانه من الفتيان: مرحبًا بالفتى الموصلي، فغلَبت عليه.

ثم ما زال إبراهيم يأخذ بأسباب الغناء حتى حذقه، واتصل بأحد عمَّال المهدي، ثم بلغ المهديَّ أمره فطلبه إليه، وبقي بعد ذلك مُتَّصلًا بالخلفاء ورجالات الدولة حتى توفي في عهد الرشيد سنة ١٨٨هـ.

أما ابنه إسحاق الذي عقدنا هذا الفصل لتحليل شخصيته وللكشف عن مواهبه وأخلاقه، فولد سنة ١٥٠هـ ولم يظهر شأنه وتتم منزلته إلا في أيام الرشيد، ثم أخذ نجمه يتألق في سماء الخلافة العباسية أيام الرشيد

والأمين والمأمون والمعتصم والواثق، ثم تُوفِّي سنة ٢٣٥هـ في صدر أيام المتوكل، وكان يُحَلُّ من هؤلاء الخلفاء جميعًا بموضع العطف والتجلة، وسنذكر شيئًا من صلته بكل خليفة، وما كان يغدقه عليه كل خليفة من عطف ومال.

نشأته

كان حظ إسحاق من وسائل التهذيب والتثقيف خيرًا من حظ والده إبراهيم، فإن والده نشأ يتيمًا فكفله غيرُ أبيه، حتى إذا شبَّ وترعرع وظهر ميله إلى نوع خاص من الفنون لم يجد من القائمين بأمره ومَن لهم سلطان عليه مَن يُقدِّر استعداده الفطري، ونزعاته النفسية، حتى اضطر - من إلحاح ضغط أخواله عليه، ومطالبتهم إياه أن يترك الغناء، وألا يأخذ في شيء من أسباب الموسيقى - أن يهيم على وجهه في الأرض، في سبيل تحقيق ما تميل إليه نفسه، ويهيئه له استعداده.

أما إسحاق فقد نشأ في بيت أبيه، وشبَّ وترعرع بعينه،[٤] وقد وجد من أبيه الذي فهم الحياة ولذعته آلامها مَن يهتم بتثقيفه، ويحترم نزعاته الفطرية وميوله النفسية. وإسحاق يعد ابن رجل أثير عند الخلفاء، مُقدَّم لدى رجالات الدولة، وفي وفرة من الثراء وحظ عظيم من الترف، مما يصله به الخلفاء وغير الخلفاء، فاستطاع إسحاق لجاه أبيه وماله أن يختلف إلى جلة العلماء وكبار رجال الفن، وأن يرتاد خير البيئات والأوساط التي لا يقل أثرها في تهذيب النفوس عن أثر التعليم، وقد كان من حظ الموسيقى والآداب أن تتهيأ الأسباب وتستوى الوسائل لرجلها الفذ ونابغتها العظيم.

ويحدثنا إسحاق عن شيء من تربيته وتثقيفه فيقول: «أقمت دهرًا أغلِّس كل يوم إلى هشيم، فأسمع منه ثم أصير إلى الكسائي أو إلى الفراء فأقرأ عليه جزءًا من القرآن، ثم آتي منصور زلزل، فيضاربني طريقتين أو ثلاثًا، ثم آتي عاتكة بنت شهدة فآخذ منها صوتًا أو صوتين، ثم آتي الأصمعي وأبا عبيدة فأناشدهما وأحادثهما وأستفيد منهما، ثم أصير إلى أبي فأُعلِمه بما صنعت وأخذت، وأتغدى معه وأروح معه عشاء إلى أمير المؤمنين».

فأنت ترى من حديث إسحاق عن فترة من فترات نشأته وتثقيفه أنه كان يختلف كل يوم إلى رجال الحديث، ثم رجال القرآن والنحو، ثم أهل الفن الضاربين على الآلات والملحنين، ثم يذهب بعد ذلك إلى أهل الأدب والرواية، فيناشدهم ويحادثهم، ويستفيد منهم، ثم يجتمع بأبيه بعد ذلك كله يخبره بما صنع وأخذ، حتى إذا جاء المساء ذهب مع أبيه إلى دار الخلافة، وهي - أيدك الله - خير منتدى لرجال العلم والأدب والسياسة في الدولة.

هذه التربية المنظمة والبيئات الراقية أخرجت من طفل إبراهيم الموصلي - ذلك الطفل الذكي النشيط - رجلًا يصفه صاحب الأغاني بقوله: «موضعه من العلم، ومكانه من الأدب، ومحله من الرواية، وتقدمه في الشعر، ومنزلتُه في سائر المحاسن أشهر من أن يُدلَّ عليها بوصف، وسترى في مطاوي ما نورده عليك من أحاديثه ونوادره أنه ما عالج علمًا من العلوم أو فنًّا من الفنون إلا برع فيه وبرز».

فأما الغناء، فحدثنا أبو الفرج صاحب الأغاني أنه كان أصغر علومه، وأدنى ما يوسم به، وإن كان الغالب عليه وعلى ما كان يحسنه، فإنه كان له في سائر أدواته نظراء وأكفاء، ولم يكن له في هذا نظير لحق بمن مضى فيه،

وسبق من قد بقي، وسهَّل طريق الغناء وأنارها، فهو إمام أهل صناعته جميعًا، وقدوتهم ورأسهم ومُعلِّمهم، يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد له الموافق والمفارق، على أنه كان أكره الناس للغناء وأشدهم بغضًا له، لئلا يُدَّعى عليه ويُسمَّى به.

وهذه الجملة الأخيرة، وهي أنه كان من أكره الناس للغناء ... إلخ، تدلنا بوضوح على نفسية إسحاق ومطامحه من جهة، وعلى ما كان للمغنين وأهل الموسيقى عامة من قيمة ومنزلة من جهة أخرى، كما تدلنا على أن المغنين وأهل الموسيقى كانت منزلتهم مهما نالوا من حظوة لدى الخلفاء وأرباب السلطان دون منزلة الرواة وأهل الأدب، من الفقهاء ورجال الحديث، وتدلنا أيضًا على أن إسحاق كان عالي النفس، بعيد الهمة، يكره أن يتصل بفنٍ يقعد به دون ما هو خليق به من منزلة ومكانة، وماذا يصنع إسحاق وقد أوتي موهبة لم يُؤتها أحد غيره، وهي موهبة تأبى إلا أن تُعلن نفسَها، كما يعلن الزهر نفسه بأَرَجِه، والقُمْري بهَديله؟ وماذا يجدي عليه كرهه للغناء وبغضه له وقد يطالبه به مَن لا يرى سبيلًا إلى مخالفته؟

ولقد كان إسحاق في كراهيته للغناء صادق الشعور، صادق الحس، فإنه لم يَحُل بين المأمون وبين أن يُولِّيَه أسمى المناصب إلا شهرته بالغناء؛ إذ يقول المأمون: «لولا ما سبق لإسحاق على ألسنة الناس وشهرته عندهم بالغناء لولَّيته القضاء بحضرتي، فإنه أولى به وأعف وأصدق، وأكثر دينًا وأمانة من هؤلاء القضاة». وقد يكون من حق إسحاق أن يكره الغناء ويألم لاتصاله به؛ إذ يرى المناصب السامية في الدولة يتبوَّؤُها قوم هم دونه فيما وصلوا إليها به، وهم وصلوا إليها بالعلم، وقد كان هو عالمًا بالفقه والحديث وعلم الكلام، وباللغة والشعر وأخبار الشعراء

وأيام الناس، وكان لا يدع فرصة دون أن يعلن سخطه وما ناله من ظلم، فقد حدثنا ابن خلكان أن محمد بن عطية العطوي الشاعر قال: كنت في مجلس القاضي يحيى بن أكثم، فوافى إسحاق بن إبراهيم الموصلي، وأخذ يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم في الفقه فأحسن، وقاس واحتج، وتكلم في الشعر واللغة ففاق من حضر، ثم أقبل على القاضي يحيى فقال: أعز الله القاضي، أفي شيءٍ مما ناظرت فيه وحكيته نقض أو مطعن، قال: لا، قال: فما بالي أقوم بسائر هذه العلوم قيام أهلها وأنتسب إلى فن واحد قد اقتصر الناس عليه، يعني الغناء؟ قال العطوي: فالتفت إليَّ القاضي يحيى وقال لي: الجواب في هذا عليك - وكان العطوي من أهل الجدل - فقال للقاضي يحيى: نعم، أعز الله القاضي، الجواب عليَّ. ثم أقبل على إسحاق فقال: يا أبا محمد، أنت كالفراء والأخفش في النحو؟ فقال: لا، فقال: أنت في اللغة ومعرفة الشعر كالأصمعي وأبي عبيدة؟ قال: لا، قال: فأنت في علم الكلام كأبي الهذيل العلاف والنظام البَلْخي؟ قال: لا، قال: فأنت في الفقه كالقاضي - وأشار إلى القاضي يحيى؟ فقال: لا، قال: فأنت في قول الشعر كأبي العتاهية وأبي نواس؟ قال: لا، قال: فمن ها هنا نُسبت إلى ما نُسبت إليه؛ لأنه لا نظير لك فيه، وأنت في غيره دون رؤساء أهله. فضحك وقام وانصرف، فقال القاضي يحيى للعطوي: لقد وفيت الحجة حقَّها، وفيها ظلمٌ قليل لإسحاق، وإنه ممن يقل في الزمان نظيره. ا.هـ.

ومهما يكن من شيء فقد اشتهر إسحاق بالغناء دون غيره مما كان يحسنه من سائر العلوم، وقد كان إسحاق مع ذكائه وعلمه، وعلو نفسه، وبُعدِ همَّتِه، مهيبًا كريمًا، جم الأدب، عفيف اللسان.

أما عن كرمه فيروي لنا صاحب الأغاني أنه كان يُجري على أبي عبد الله الأعرابي في كل سنة ثلاثمائة دينار، وأن ابن الأعرابي هذا وقف على المدائني يومًا فقال له المدائني: إلى أين يا أبا عبد الله؟ فقال: أمضي إلى رجل هو كما قال الشاعر:

نرمي بأشباحنا إلى ملك … نأخذ من ماله ومن أدبه

قال: ومن ذلك؟ قال: إسحاق بن إبراهيم!

وإنا نسوق إليك قصة أخرى، وهي مع دلالتها على شغف إسحاق بالعلم والحرص على استثباته تدل أيضًا على سخاء نفسه وكرمه.

قال إسحاق: جئت يومًا إلى أبي معاوية الضرير ومعي مائة حديث، فوجدت حاجبه يؤمئذ رجلًا ضريرًا، فقال لي: إن أبا معاوية قد ولّاني حجابته لينفعني، فقلت له: معي مائة حديث، وقد جعلتُ لك مائة درهم إذا قرأتها، فأستأذنْ لي. فدخلتُ على أبي معاوية، فلما عرفني دعاه فقال له: أخطأتَ؛ إنما جعلت لك ذلك على الضعفاء من أصحاب الحديث، فأما أبو محمد وأمثاله فلا، ثم أقبل عليّ يُرغّبني في الإحسان إليه، ويذكر ضعفه وعنايته به، فقلت له: احتكم في أمره، فقال: مائة دينار، فأمرت الغلام بإحضارها، وقرأت عليه ما أردت وانصرفت. وهذه القصة تدل على أريحيته إلى جانب دلالتها على علمه.

قال أحمد بن الهيثم: كنت يومًا جالسًا بـ «سر من رأى» عند إخوان لي، وكان طريق إسحاق في مُضيّه إلى دار الخليفة ورجوعه علينا، فجاءني الغلام يومًا وعندي أصدقائي فقال: إسحاق بن إبراهيم الموصلي بالباب، فقلت: يدخل، أوَفي الأرض من يُستأذن عليه لإسحاق؟! فذهب الغلام

يأذن له وبادرتُ إلى تلقيه، فدخل وجلس منبسطًا آنسًا، فعرضنا عليه ما عندنا، فأجاب إلى الشراب، فأحضرنا نبيذًا مُشمسًا، فشرب منه ثم قال: أتحبون أن أغنيَكم؟ فقلنا: إي والله، أطال الله بقاءك، إنا نحب ذلك، قال: فلم لا تسألونني؟ قلنا: هِبْناك، قال: فلا تفعلوا، ثم دعا بعُودٍ فأحضرناه، فاندفع يغني، فشربنا وطربنا، فلما فرغ قال: أحسنت أم لا؟ فقلنا: بلى والله، جعلنا فداك، لقد أحسنتَ، قال: فما منعكم أن تقولوا لي أحسنت؟ قلنا: الهيبة والإجلال لك، قال: فلا تفعلوا هذا فيما تستأنفون؛ فإن المغني يحب أن يُقال له: أحسنت، ثم غنَّى:

خليليَّ هُبَّا نَصْطبح بسواد ... ونَروِ قلوبًا هامُهن صوادي
وقولا لساقينا زياد يُرِقها ... فقد هدَّ بعض القوم سقيُ زياد

فقلت: يا أبا محمد، فمن هو زياد؟ قال: غلامي الواقف على الباب، ادعه يا غلام، فدخل فإذا هو غلام خِلَاسي،[٥] قيمته عشرون دينارًا أو نحوها، فقال: أتسألونني عنه، فأُعرِّفكم إياه، وأُدخِله إليكم، ويَخرُج كما دخل! وقد سمعتم شعري فيه وغنائي، أشهدكم أنه حر لوجه الله تعالى، وقد زوَّجته أختي فلانة، فأعينوه على أمره، قال: فلم يخرج حتى أوصلنا إليه عشرين ألف درهم. ولعل في هذه القصة المتقدمة أيضًا مقنعًا لك بما كان لإسحاق في نفوس الناس من هيبة وكرامة.

منزلة إسحاق في الغناء

قدَّمنا لك أننا نعترف بالعجز عن أن نجلو الناحية الفنية من حياة إسحاق، وأن ذلك لا يتسق إلا لرجل أوتي من المواهب الفنية حظًّا عظيمًا، وقدَّمنا

لك أن إسحاق كان يحسن كثيرًا من العلوم إحسانًا قل أنه يتسق لغيره، وأنه كان مع إجادته الغناء، وتبريزه فيه، وسبْقه أقرانه، يكره أن ينتسب إليه أو يُسمَّى به؛ لأنه كان عالي النفس، بعيدَ مرامي الهمة، ويرى أن انتسابه إلى الغناء يقصر به عن بلوغ مرامي همته. والآن نقول: إنه كان مع هذا شديد الغيرة على الغناء، كثير الذب عنه، وله العذر، فإن صاحب الفن، أيًّا كان الفن، لا يجد إلى الصبر سبيلًا إذا عبث بفنه العابثون أو تهجم المتهجمون.

وإذا كنا نعترف بالعجز عن أن نجلو الناحية الفنية لإسحاق، فإن ذلك لا يمنعنا من أن ننقل إليك شيئًا مما رواه المؤرخون؛ لتعلم ما كان يُحيط به من إكبار وإعجاب من الخلفاء، ورجالات الدولة، وأصحاب الفن؛ لنبوغه في فنه، وتبريزه فيه، ولتعلم - أيضًا مما كان يبديه من ملاحظات - مبلغ ما كان له من دقة حس، وقوة ذوق، وحدة شعور، وسلامة فطرة.

ويعدو بنا الكلام عن القصد لو أطلقنا لأنفسنا العنان في إيراد كل ما نراه حسنًا وظريفًا من أحاديث إسحاق ومجالسه، وما كان يتفق له من مفاكهات ونوادر؛ لذلك نكتفي بإيراد بعض حوادثه مما يتصل بالخلفاء الذين عاشرهم وما كانوا يحيطونه به من عطف ورعاية.

وقدمنا لك أن إسحاق ظهر في عهد الرشيد، وتوفي في صدر أيام المتوكل، فلنذكر لك شيئًا من تاريخه ونوادره مع كل خليفة من خلفاء هذه الفترة من العصر العباسي.

أما الرشيد فقد كان يُلقبه من إعجابه به بأبي صفوان، ولقَبُه «إسحاق أبو محمد» كما رأيت، وقد بلغ من إعجابه به أن استأثر به لنفسه، ونهاه عن أن يغني أحدًا غيره، ويحدثنا إسحاق عن هذا بقوله: نهاني الرشيد أن

أغني أحدًا غيره، ثم استوهبني جعفر بن يحيى، وسأله أن يأذن له في أن أغنيه ففعل، واتفقنا يومًا عند جعفر وعنده أخوه الفضل، والرشيد يومئذ عقيب علة قد عُوفي منها وليس يشرب، فقال لي الفضل: انصرف الليلة حتى أهب لك مائةَ ألف درهم، فقلت له: إن الرشيد نهاني أن أغني إلا له ولأخيك، وليس يخفى عنه خبري، وأنا مُتَّهم بالميل إليكم، ولست أتعرَّض له ولا أعرضك، فلما نكبهم الرشيد، وقال: إيه يا إسحاق، تركتني بالرقة وجلست ببغداد تغني الفضل بن يحيى! فحلفت بحياته أنني ما جالسته قط إلا على الحديث والمذاكرة، وأنه ما سمعني قط إلا عند أخيه، وحلَّفته بتربة المهدي أن يسأل عن هذا في دارهم من نسائهم، فسأل عنه فحُدِّث بمثل ما ذكرته وعرَف خبر المائة ألف الدرهم التي بذلها لي ورددتها، فلما دخلت عليه ضحك ثم قال: سألت عن أمرك فعرفته مثلما عرفتني، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم عوضًا عمَّا بذله لك الفضل.

ويقول الأصمعي: دخلت أنا وإسحاق بن إبراهيم الموصلي يومًا على الرشيد، فرأيناه لقس(٦) النفس، فأنشده إسحاق:

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري ... فذلك شيء ما إليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام ولا أرى ... بخيلًا له حتى الممات خليل
وإني رأيت البخل يزري بأهله ... فأكرمت نفسي أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته ... إذا نال خيرًا أن يكون يُنيل
فعالى فعال المُكثرين تجمُّلًا ... ومالي كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أُحرم الغنى ... ورأيُ أمير المؤمنين جميل

قال: فقال الرشيد: لا تخف إن شاء الله، ثم قال: لله در أبيات تأتينا بها،

ما أشد أصولها، وأحسن فصولها، وأقل فضولها، وأمر له بخمسين ألف درهم، فقال له إسحاق: وصفُك والله، يا أمير المؤمنين، أحسن منه، فعلامَ آخذ الجائزة؟ فضحك الرشيد، وقال: اجعلوها مائة ألف درهم، قال الأصمعي: فعلمتُ يومئذ أن إسحاق أحذقُ بصيد الدراهم مني.

وكان من أشد منافسي إسحاق في الغناء إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد الذي كان يعتز عليه بجاهه، وبما له من حظ في الفن كبير، ومن أشدِّ الملاحاة التي حدثت بينهما ما كانت في مجلس الرشيد؛ قال إسحاق: كنت عند الرشيد يومًا وعنده ندماؤه وخاصته، وفيهم إبراهيم بن المهدي، فقال الرشيد: غنِّ:

أعاذل قد نُهيتُ فما انتهيتُ وقد طال العتابُ فما ارعويت
أعاذل ما كبرتُ وفيَّ مَلهًى ولو أدركت غايتَك انثنيتُ
شربت مدامة وسُقيتُ أُخرَى وراح المُنتشُون وما انتَشَيتُ

فغنيته، فأقبل عليَّ إبراهيم بن المهدي فقال لي: ما أصبت يا إسحاق ولا أحسنت، فقلت له: ليس هذا مما تعرفه ولا تُحسنه، وإن شئت فغنِّه، فإن لم أجِدْك أنك مخطئ فيه منذ ابتدائك إلى انتهائك، فدمي حلال! ثم أقبلتُ على الرشيد فقلت: يا أمير المؤمنين، هذه صناعتي، وصناعة أبي، وهي التي قرَّبتنا منك، وأوطأتنا بساطك، فإذا نازعنا أحد بلا علم لم نجد بُدًّا من الإيضاح والذَّبِّ، فقال: لا لوم عليك، وقام الرشيد ليبول، فأقبل إبراهيم بن المهدي عليَّ وقال لي: ويلك يا إسحاق، أتجترئ عليَّ وتقول ما قلت يا ابن الزانية! فداخلني ما لم أملك نفسي معه، فقلت له: أنت تشتمني ولا أقدر على إجابتك وأنت ابن الخليفة وأخو الخليفة، ولولا ذلك لقلت

لك: يا ابن الزانية كما قلت لي يا ابن الزانية، أوَتراني لا أُحسِن أن أقول لك: يا ابن الزانية، ولكن قولي لك ذلك ينصرف إلى خالك، ولولا ذلك لذكرت صناعته ومذهبه - قال: وكان بيطارًا - ثم سكتُّ، وعلمتُ أن إبراهيم سيشكوني إلى الرشيد، وسوف يسأل من حضر عما جرى، فيخبرونه، فتلافيتُ ذلك بأن قلت: أنت تظن أن الخلافة لك، فلا تزال تُهددني بذلك، وتُعاديني كما تُعادي سائر أولياء وغلمان أخيك حسدًا له ولولده على الأمر، وأنت تضعف عنه وعنهم، وتستخفُّ بأوليائهم تشفِّيًا، وأرجو ألا يخرجها الله تعالى عن الرشيد ولا عن ولده، وأن يقتُلَك دونها، فإن صارت إليك - والعياذ بالله تعالى - فحرام عليَّ العيش حينئذٍ، والموت أطيب من الحياة معك، فاصنع حينئذٍ ما بدا لك.

فلما خرَج الرشيد وثَب إبراهيم فجلَس بين يديه فقال: يا أمير المؤمنين، شتمني وذكَر أمي واستخفَّ بي، فغضب الرشيد وقال لي: ويلك ما تقول؟ قلت: لا أعلم، فسَلْ مَن حضَر، فأقبل على مسرور وحسين فسألهما عن القصة، فجعلا يخبرانه ووجهه يتربَّد إلى أن انتهيا إلى ذِكْر الخلافة، فسرِّي عنه ورجع لونه، وقال: لا ذنب له، شتمتَه فعرَّفك أنه لا يقدر على جوابك، ارجع إلى موضعك، وأمسك عن هذا! فلما انقضى المجلس وانصرف الناس أمر بألَّا أبرح، وخرج كل من حضر حتى لم يبق غيري، فساء ظني وأوهمتني نفسي، فأقبل عليَّ وقال: يا إسحاق، أتراني لم أفهم قولك ومرادك وقد زيَّنته ثلاث مرات؟ أتراني لا أعرف وقائعك وإقدامك وأين ذهبت؟ ويلك لا تَعُدْ! حدِّثني عنك لو ضربك إبراهيمُ أكنتُ أضربه وهو أخي يا جاهل! أتراه لو أمر غلمانَه فقتلوك! أكنتُ أقتله بك؟! فقلت: والله يا

أمير المؤمنين، قتلتني بهذا الكلام، وإن بلَغه ليقتُلنِّي، فما أشك في أن بلغه الآن، فصاح بمسرور وقال: عليَّ بإبراهيم، فأُحضر، فقال لي: قم فانصرف.

فقلتُ لجماعة من الخدم - وكلهم كان له محَبًّا وإليَّ مائلًا ولي مطيعًا: أخبروني بما يجري، فأخبروني من غدٍ أنه لما دخل عليه وبَّخه وجهَّله وقال له: أتستخفُّ بخادمي وصنيعتي، وابن خادمي وصنيعتي وصنيعة أبي في مجلسي! وتقدم عليَّ وتستخفُّ بمجلسي وحضرتي! هاه هاه! وتُقدِم على هذا وأمثاله! وأنت ما لك وما للغناء؟ وما يدريك ما هو؟ ومن أَخَذَكَ به وطارَحك إياه حتى تتوهم أنك تبلغ فيه مبلغ إسحاق الذي غُذِّي به وعلمه، وهو من صناعته؟ ثم تظن أنك تُخطِّئه فيما لا تدريه، ويدعوك إلى إقامة الحجة عليه فلا تثبت لذلك وتعتصم بشتمه، هذا مما يدل على السقوط، وضعف العقل، وسوء الأدب، من دخولك فيما لا يشبهك، وغلبة لذتك على مروءتك وشرفك، ثم إظهارك إياه ولم تُحكمه، وادعائك ما لا تعلمه حتى ينسبك إلى إفراط الجهل، ألا تعلم أن هذا سوء أدب وقلة معرفة، وعدم مبالاة للخطأ والرد القبيح والتكذيب؟ ثم قال: والله العظيم، وحق رسوله، وإلَّا فأنا بريء من المهدي إن أصابه أحد بمكروه، أو سقط عليه حجر من السماء، أو وقع من دابته، أو سقطت عليه سقيفة، أو مات فجأةً، لأقتلنَّك به، والله والله وأنت أعلم، قم الآن فاخرج ولا تعرض له. فخرج وقد كاد أن يموت، فلما كان بعد ذلك دخلت عليه وإبراهيم عنده، فجعل ينظر إليه مرة وإليَّ مرة ويضحك، ثم قال له: إني لأعلم محبتك لإسحاق وميلك إليه وإلى الأخذ عنه، وإن هذا لا يجيئك من جهته كما تُريد إلا بعد أن يَرضَى، والرضا لا يكون بمكروه، ولكن أحسِن إليه وأكرمه، واعرف

حقه وصِلْه، فإذا فعلتَ ذلك، وخالف ما تهواه، عاقبته بيد مستطيلة، ولسان منطلق، ثم قال لي: قم الآن إلى مولاك وابن مولاك، فقبِّل رأسه. فقمت إليه وقام إليَّ واصطلحنا.

ولعل ما قدمناه لك يعطيك صورة واضحة عما كان لإسحاق من مكانة لدى الرشيد، وما كان للرشيد من حدب عليه وبرٍّ به.

أما مكانة إسحاق عند الأمين وبطانته، فإنها لا تقل - أيدك الله - عن مكانته عند الرشيد وبطانة الرشيد، ولا ترى خيرًا في الدلالة على هذه المكانة من كلام إسحاق نفسه؛ قال إسحاق: استدناني الأمين يومًا وهو مستلق على فراش حتى صارت ركبتي على الفراش، ثم قال: يا إسحاق، أشكو إليك أصحابي، فعلتُ بفلان كذا ففعل كذا، وفعلت بفلان كذا ففعل كذا، حتى عدد جماعة من خواصه، فقلت له: أنت يا سيدي تتفضل عليَّ وتُحسن رأيك فيَّ، ظننتَ أنِّي ممن يُشاور في مثل هذا الحديث، تجاوزتَ بي حدي ومقداري، وهذا رأي يَجِلُّ ولا يبلغه قدري، فقال: ولِمَ؟ أنت عندي عالم عاقل ناصح، قلت: هذه المنزلة عند سيدي علمتني ألا أقول إلَّا ما أعرف، ولا أطلب إلا ما أنال، فضحك وقال: بلغني أنك عملت في هذه الأيام لحنًا في شعر الراعي، فلم أسمعه منك، فقلت: يا سيدي، ما سمعه أحد إلا جواريَّ، ولا حضرتُ عندك منذ صنعته، فقال: غنِّه، فقلت: الهيبة والصَّحْو يمنعانني من أن أؤديَه كما أريد، فلو آنس أمير المؤمنين عبدَه بشيء يُطربه ويُقوي طبعه كان أجود، قال: صدقت، ثم أمر بالغداء فتغدينا، وأمر بالستائر فمُدَّت، وغنَّى مَن وراءها وشربنا أقداحًا، فقال: يا إسحاق، ما جاء أوان الصوت؟ فقلت: بلى يا سيدي، وغنيت في شعر الراعي:

ألم تــســأل بعــارمــة الديارا   عن الحي الـمفارق أين سـارا
بلى ســاءلتُهــا فأبــتْ جوابًا   وكــيـف تسائل الدِّمَن القِفارا

فاستحسنه وطرب عليه وقال: يا إسحاق، لا تطلب بعد البُغية ووجود المُنية، وما أشربُ بقية يومي إلا على هذا الصوت، ووصلني وخلَع عليَّ من ثيابه.

ومما حدث بين الأمين وإسحاق أن الأمين اصطبح ذات يوم، وأمر بالتوجيه إلى إسحاق، فوجَّه إليه عدة رُسُل كلهم لا يصادفه، حتى جاء أحدهم به، فجاء مُنتشِيًا ومحمدٌ مُغضب، فقال له: أين كنت؟ ويلك! قال: أصبحت يا أمير المؤمنين نشيطًا، فبكَّرت إلى بعض المتنزهات، فاستطبتُ الموضع فأقمتُ فيه، وسقاني زياد فذكرت أبياتًا للأخطل وهو يسقيني، فدارك فيها لحن حسن، فصنعته وقد جئتك به، فتبسم وقال: هاته، فما تزال تأتي بما يُرضي عنك عند السخط، فغناه:

إذا ما زيـاد علَّني ثم علَّني   ثلاث زجاجـات لـهن هدير
خرجت أجر الذيل حتى كأنني   عليـك أمـيـر الـمؤمنين أميـر

فقال: بل على أبيك، قبَّح الله فعلك! فما زال إحسانك في غنائك يمحو إساءتك في فعلك، وأمر له بألف دينار. وأصلُه قول الأخطل:

إذا ما نديمي علني

وزياد هذا غلام لإسحاق، وقد ذكرنا فيما سبق أنه أعتقه وزوجه من أخته بدافع من أريحيته وأثر الشراب فيه.

أما عبد الله المأمون، فيحدثنا إسحاق عن ناحية من شخصيته، وهي موقفه من الغناء وسماعه، وقد ألمعنا إليها حين عرضنا للكلام عن المنادمة

في عصره، ثم نسوق إليك بعد هذا الحديث ما كان لإسحاق من مكانة لدى المأمون أيضًا.

قال إسحاق: أقام المأمون بعد قدومه بغداد عشرين شهرًا لم يسمع حرفًا من الأغاني، ثم كان أول من تغني بحضرته أبو عيسى بن الرشيد، ثم واظب على السماع مُسترًا مُتشبهًا في أول أمره بالرشيد، فأقام على ذلك أربع حجج، ثم ظهر للندماء والمغنين، وكان حين أحب السماع سأل عني، فخرجت بحضرته وقال الطاعن عليَّ: ما يقول أمير المؤمنين في رجل يتيه على الخلافة، وما أبقى من التيه شيئًا حتى استعمله؟ فأمسك المأمون عن ذكري وجفاني من كان يَصِلني لسوء رأيه فيَّ، فأضرَّ ذلك بي، حتى جاءني علُّويه يومًا فقال لي: أتأذن لي في ذكرك عند المأمون؛ فإنا قد دعينا اليوم؟ فقلت: لا، ولكن غنِّه بهذا الشعر؛ فإنه سيبعثه على أن يسألك لَمن هذا الشعر، فإذا سألك فتح لك ما تُريد، وكان الجواب أسهل عليك من الابتداء، فقال: هات، فألقيتُ عليه لحني في شعري:

يا سرحة الماء قد سُدَّت موارده أما إليـك طريق غـير مسدود
لحائم حام حتَّى لا حـراك بـه مُحلَّأ عن طـريـق الماء مـطـرود

ومضى علُّويه، فلما استقر به المجلس غنَّاه، فما عدا المأمون أن يسمع الغناء حتى قال: ويحك يا علُّويه! لمن هذا الشعر؟ قلت: يا سيدي، لعبد من عبيدك جفوته واطَّرحته بغير جرم، فقال: إسحاقَ تعني؟ فقلت: نعم، فقال: يحضر الساعة، فجاءني رسوله، فحضرت، فلما دخلت قال: ادْنُ، فدنوت، ورفع يديه مادَّهما إليَّ، فأكببتُ عليه فاحتضنني بيديه، وأظهر من برِّي ما لو أظهره صديق مؤانس لصديقه لسرَّه.(٧)

ثم ما زالت تعظم مكانته عند المأمون حتى سأله يومًا أن يكون دخوله مع أهل العلم والأدب والرواة لا مع المغنين، فإذا أراد الغناء غنَّاه، فأجابه إلى ذلك، ثم سأله بعد مدة طويلة أن يأذن له بالدخول مع الفقهاء، فأذن له، فدخل يومًا مع يحيى بن أكثم مُتماسِكَين، وعلُّويه ومخارق في حجرة لهما جالسين ينتظران جلوس المأمون، فرأياهما وقد دخلا حتى جلسا بين يدي المأمون، فكاد علُّويه أن يُجنَّ وقال: يا قوم، سمعتم بأعجب من هذا! يدخل قاضي القضاة ويده في يد مغنٍّ حتى يجلسا بين يدي الخليفة! ثم مضت مدة فسأل إسحاق المأمون في لبس السواد يوم الجمعة والصلاة معه في المقصورة، فضحك المأمون وقال: ولا كل هذا يا إسحاق! وقد اشتريتُ منك هذه المسألة بمائة ألف درهم، وأمر له بها. وهذا الخبر يؤيد ما ذكرناه في أول كلامنا على إسحاق من أنه كان يطمح إلى أن يكون في مرتبة غير مرتبة المُغنين.

وانظر إلى دقة إحساس إسحاق وقوة ذوقه في تبينه الخطأ في وتر واحد بين ثمانين وترًا، وكان ذلك في مجلس المأمون؛ قال إسحاق: دعاني المأمون يومًا وعنده إبراهيم بن المهدي، وفي مجلسه عشرون جارية قد أجلس عشرًا عن اليمين وعشرًا عن يساره، فلما دخلتُ سمعتُ من الناحية اليسرى خطأ فأنكرتُه، فقال المأمون: أسمعتَ خطأ؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، فقال لإبراهيم بن المهدي: هل تسمع خطأ؟ قال: لا، فأعاد عليَّ السؤال، فقلت: بلى يا أمير المؤمنين، فإنه لفي الجانب الأيسر، فأعاد إبراهيم سمعه إلى الناحية اليسرى ثم قال: لا والله يا أمير المؤمنين ما في هذه الناحية خطأ! فقلت: يا أمير المؤمنين، مُرْ الجواري اللائي على اليمين يُمسكنَ، فأمرهن

فأمسكن، ثم قلتُ لإبراهيم: هل تسمع خطأ؟ فتسمَّع ثم قال: ما ها هنا خطأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، يُمسكن وتضرب الثامنة، فأمسكن وضربت الثامنة، فعرف إبراهيم الخطأ فقال: نعم يا أمير المؤمنين، ها هنا خطأ؛ فقال المأمون عند ذلك لإبراهيم بن المهدي: لا تُمارِ إسحاق بعدها؛ فإن رجلاً عرف الخطأ بين ثمانين وترًا وعشرين حلقًا لجديرٌ ألا تماريه، قال: صدقت يا أمير المؤمنين - وكان في الأوتار كلها مَثْنى فاسد التسوية - فطرب المأمون وقال: لله درُّك يا أبا محمد، فكنَّاني يومئذ.

وخبر آخر يدل على حذق إسحاق بفنه في مجلس آخر للمأمون، قال إسحاق: دخلت على المأمون يومًا وعقيد يغنيه مرتجلًا وغيره يضرب عليه، فقال: يا إسحاق، كيف تسمع مُغنينا هذا؟ فقلت: هل سأل أمير المؤمنين غيري عن هذا؟ فقال: نعم، سألت عمي إبراهيم فقرَّظه واستحسنه، فقلت: يا أمير المؤمنين - أدام الله سرورك وأطاب عيشك - إن الناس قد أكثروا في أمري حتى نسبتني فرقة إلى التزيد في علمي، قال: فلا يمنعك ذلك من قول الحق إذا لزمك، فقلتُ لعقيد: اُردد الصوت الذي غنيته، فردَّه وتحفَّظ فيه وضرب عليه ضاربه، فقلت لإبراهيم بن المهدي: كيف رأيته؟ فقال: ما رأيت شيئًا أنكره مما سمعته، فأقبلتُ على عقيد وقلت له لما استوفاه: في أي طريقة غنَّيتَ؟ فقال: في الرمل، فقلت للضارب: في أي طريقة ضربت؟ فقال: في الهزج الثقيل، فقلت: يا أمير المؤمنين، ما عسى أن أقول في صوت يغنيه مغنيه رملًا، ويضربه ضاربه هزجًا ثقيلًا، وليس هو صحيحًا في إيقاعه الذي ضرب عليه؟ قال: وتفهَّمه إبراهيم بن المهدي فقال: صدق يا أمير المؤمنين، والأمر فيه بيِّنٌ! فعجب المأمون من ذلك كيف خفي على كل مَن حضر.

أما منزلته عند الواثق، فيقول ابن حمدون: سمعت الواثق يقول: ما غناني إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد في ملكي، ولا سمعته قط يغني غناء ابن سريج إلا ظننت ابن سريح قد نُشر، وإني ليحضرني غيره إذا لم يكن حاضرًا فيتقدمه عندي بطيب الصوت، حتى إذا اجتمع عندي رأيت إسحاق يعلو، ورأيت من ظننت أنه يتقدمه ينقص، وإن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التي لم يَحظَ أحد بمثلها، ولو أن العمر والشباب والنشاط مما يُشترى لاشتريتهن له بشطر ملكي.

أما المتوكل الذي تُوفِّي إسحاق في أول عصره، فيحدثنا ابن حمدون أنه سأل عن إسحاق، فعرف أنه كُفَّ، وأنه بمنزله ببغداد، فكتب في إحضاره، فلما دخل عليه رفعه حتى أجلسه قُدَّام السرير، وأعطاه مخدة، وقال: بلغني أن المعتصم دفع إليك في أول يوم جلست بين يديه مخدة وقال: إنه لا يستجلب ما عند حُرٍّ مثل إكرامه، ثم سأله: هل أكل؟ فقال: نعم، فأمر أن يُسقى، فلما شرب أقداحًا قال: هاتوا لأبي محمد عودًا، فجيئ به، فاندفع يغني بشعره:

ما علة الشيخ عيناه بأربعة ... تغرورقان بدمع ثم تنسكب

قال ابن حمدون: فما بقي غلام من الغلمان الوقوف إلا وجدته يرقص طربًا وهو لا يعلم بما يفعل، فأمر له بمائة ألف درهم، ثم انحدر المتوكل إلى الرقة - وكان يستطيبها لكثرة تغريد الطير فيها - فغناه إسحاق:

أألن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غضِّ النبات من الرَّنْد

بكيتَ كما يَبْكي الوليد فلم تكن ... جليدًا وأبديتَ الذي لم تكن تُبدي

فضحك المتوكل ثم قال: يا إسحاق، هذه أختُ فِعْلتك بالواثق لما غنَّيته بالصالحية:

طربت إلى أُصيبيةٍ صغار   وذكرني الهوى قُرب المزار

فكم أعطاك لما أذن لك في الانصراف؟ قال: مائة ألف دينار. فأمر له بمائة ألف دينار وأذن له بالانصراف.

وإنا لو ذهبنا نذكر لك من أخبار إسحاق وما كان له من نوادر في مجالس الخلفاء وغير مجالس الخلفاء من رجالات الدولة لعدونا حد القصد، وإنما نحيل من يريد التزيد من أمر إسحاق على كتاب الأغاني، ونختم هذا الفصل من أخبار إسحاق بما قاله محمد بن عمران الجُرْجاني، حين ذُكر عنده، قال: كان - والله - إسحاق غرة في زمانه، وواحدًا في عصره، علمًا وفهمًا وأدبًا ووقارًا، وجودة رأي، وصحة مودة، وكان والله يُخْرِس الناطق إذا نطق، ويُحيِّر السامع إذا تحدَّث، لا يَمل جليسُه في مجلسه، ولا تَمُجُّ الآذان حديثه، ولا تَنْبو النفس عن مطاولته، إن حدَّثك ألهاك، وإن ناظرك أفادك، وإن غنَّاك أطربك، وما كانت خصلة من الأدب ولا جنس من العلم يتكلم فيه إسحاق فيقدم أحد على مُساجلته أو مُناوأته فيه.

قال إسحاق بن إبراهيم: رأيت في منامي جريرًا جالسًا ينشد وأنا أسمع، فلما فرغ أخذ كبَّة من شَعري فألقاها في فيَّ فابتلعتها، فأوَّل ذلك بعض من ذكرته له أنه ورَّثني الشعر، قال زيد بن محمد المهلبي: وكذلك كان، لقد مات إسحاق وهو أشعر أهل زمانه.

وقال أبو الفرج الأصفهاني: وكان إسحاق جيد الشعر، كان يقول وينسبه للعرب، فمن ذلك قوله:

لفظ الخدور عليك حورًا عِينا   أنسينَ ما جمع الكِناس قَطِينا

فإذا بَسَمنَ فعنْ كمثل غمامة   أو أُقحُوان الرمل بات معينا

وأصح ما رأت العيون محاجرًا ولـهنَّ أمـرضُ ما رأيـتَ عيونا
فكأنَّـمـا تلك الوجـوه أهـلَّـة أقمَرنَ بـيـن العـشـر والعشرينا
وكأنـهـن إذا نـهـضـن لحاجـة ينـهـض بالعقدات من يـبـرينا

وأشعاره في هذا النوع كثيرة، ولعل الذي كان يدفع أولئك الشعراء إلى أن ينسبوا خير ما تجود به قرائحهم إلى العرب الجاهلين أو أعراب الصحراء رُوحُ ذلك العصر، وأنها كانت رُوحًا تميل إلى القديم، ولا سيما إذا زُيِّن هذا القديم بإطار من خيال الرواة والقصاصين، ويظهر أن ما كانوا يظفرون به رُواةً للشَّعر العربي أكثر مما كانوا يَظفَرون به شعراء مجيدين، وإلا فهل يُتصور أن يَنْسب المرء نتاج قريحته إلى غيره ما لم يكن ثمن ذلك عظيماً؟

ومن شعر إسحاق ما اعتذر به إلى الواثق حين عتَب عليه في تأخُّره عنه، وهو قوله:

أشكو إلى الله بُعدي عن خليفته وما أعالج من سُقم ومن كبر
لا أستطيع رحيلًا إن هممت به إليه يومًا ولا أقوَى على السفر
أنـوي إليه رحيلًا ثم يمنعني ما أحدث الدهرُ والأيامُ في بصري

ومن شعره أيضًا عند علو سنه:

سلامٌ على سير القلاص من الركب ووصل الغواني والمدامة والشرب
سـلام امـرئ لم يبق منه بقية سوى نظر العينين أو شهوة القلب

ومن جيد شعر إسحاق ما كان يستحسنه ابن الأعرابي ويعجب به أيَّما إعجاب، وهو قوله:

هل إلى أن تنام عيني سبيل إن عهدي بالنوم عهد طويل
غاب عني مَن لا أُسمِّي فعيني كـل يـوم وجدًا عليه تسيل
إنَّ ما قلَّ منك يكثر عندي وكثير مـمـن تـحب القليل

وكان إسحاق إذا غنَّى هذه الأبيات تفيض عيناه، ولما سئل عن بكائه أجاب: تعشقت جارية فقلت لها هذه الأبيات، ثم ملكتها، فكنت مشغُوفًا بها، حتى كَبِرتُ واعتلَّتْ عيني، فإذا غنيت هذا الشعر ذكرت أيامي المتقدمة، وأنا أبكي على دهري الذي كنت فيه.

وقال إسحاق: أنشدت الأصمعي الأبيات الثلاثة فجعل يعجب بها ويرددها، فقلت له: إنها بنت ليلتها، فقال: لا جرم أن أثر التوليد فيها ظاهر، فقال إسحاق: ولا جرم أن أثر الحسد فيك ظاهر! ولعل هذا هو سبب الجفوة التي كانت بين إسحاق والأصمعي.

فإن ابن منظور يروي لنا في مختصره، أن إسحاق كان يأخذ عن الأصمعي ويذكر عنه الروايات، ثم فسد ما بينهما، فهجاه إسحاق وثلبه، وذكر عند الرشيد أنه قليل الشكر، بخيل، ساقط النفس، لا تزكو الصنيعة عنده، وذكر له أبا عبيدة معمر بن المثنى بالثقة والصدق والسماحة، واشتماله على جميع علوم العرب، وفعل مثل ذلك عند الفضل بن الربيع، ولم يزل بهما حتى وضع منزلة الأصمعي عندهما، ثم أنفذا إلى أبي عبيدة مالاً جليلاً واستقدماه، فكان إسحاق سبب ذلك.

وكان إسحاق قليل الهجو، فإذا هجا رأيت في هجوه عفة اللسان، وجمال التعريض، ونريد أن نذكر لك من هذا الباب قوله في أحمد بن هشام، وكان إسحاق يألف أحمد هذا وأخاه عليًّا وسائر أهله إلفًا شديدًا، فوقعت بينهم نَبْوة ووحشة فهجاهم، وهذا مما قاله في أحمد:

وصافية تُعشي العيون رقيقة ... رهينة عام في الدنان وعام
أدرنا بها الكأس الروية مَوهنًا ... من الليل حتى انْجابَ كلُّ ظَلام
فما ذر قرن الشمس حتى كأننا ... من العي نحكي أحمد بن هشام

ويقال إن أحمد سأله: ما ذنبي؟ فقال: لأنك قعدت على طريق القافية !...

وكان إسحاق يسأل الله ألا يبتليه بالقُولَنْج لما رأي من صعوبته على أبيه، فرأى في منامه كأنَّ قائلًا يقول: قد أجيبت دعوتُك، ولستَ تموت بالقُولَنْج، ولكنك تموت بضدِّه، ثم أصابه ذَرَبٌ في شهر رمضان سنة ٢٣٥هـ، فكان يتصدق في كل يوم يمكنه صومه بمائة درهم، ثم ضَعُفَ عن الصوم فلم يُطقه ومات في الشهر.

ولما نُعي إلى المتوكل غمَّه وحزن عليه وقال: ذهب صدر عظيم من جمال الملك وبهائه وزينته!

مؤلفاته

علمت مما أوردناه لك في الكلام على إسحاق أنه كان يحسن كل ما كان عالجه من العلوم إحسانًا قلَّ أن يستوي لغيره، ولكنه قصَر تأليفه على ما قصَرتْه عليه وظيفتُه وعمله، فألَّف في الأغاني والإيقاع والنغم، وآداب الشراب، والندماء والمنادمات، وأخبار الشعراء، وأهل الفن من المُغنين والمُغنيات، فمن مؤلفاته: كتاب الأغاني الكبير، وكتاب اللحظ والإشارات، وكتاب الرقص والزفن، وكتاب النغم والإيقاع، وكتاب الندماء والمنادمات، وله مؤلفات عمن سبقه من أهل الفن رجالًا ونساء، أمثال: معبد، وابن مِسْجَح، وعزَّة الميلاء وغيرهم، وله أيضًا كتاب الهُذَلِيِّين، وكتاب تفضيل الشعر، وكتاب أخبار ذي الرُّمة، وكتاب جواهر الكلام، وله كتاب منادمة الإخوان وتسامر الخلان، وكتاب القيان، وغير ذلك مما ينطق بعلو كعبه في شتى الفنون، ويشهد بأنه دائرة معارف عامة.

هوامش

(١) الكذب والنميمة.

(٢) اسم لصاحب طائفة من الملحدين.

(٣) هذه السياسة حازمة، وهي التي يجري عليها الملوك في الدول التي فيها أحزاب مختلفة، يكون الملك فوق الأحزاب منازعتها، ولا يُظهر ميله لحزب دون حزب.

(٤) أي تحت رعايته وعنايته.

(٥) الخِلَاسي: الولد بين أبوين أسود وأبيض.

(٦) لقست نفسه عن الشيء: خبثت وعثت.

(٧) انظر: كتاب بغداد «ج٦، ص٣٢٨»، وقد سبق أن ذكرنا هذه القصة في فصل المنادمة بصيغة أخرى، نقلًا عن كتاب التاج.

الفهرس

كلمة العماد الأصفهانى ٣
مقدمة ٥
الكتاب الأول: عصر بني أمية ١١
الفصل الأول: تحوُّل المدنية الإسلامية ١٣
الفصل الثاني: الجهاد بين الخلافة والملك ٢٥
الفصل الثالث: سياسة معاوية وخلفائه ٣٩
الفصل الرابع: ولاية العهد ٦١
الفصل الخامس: الحياة العلمية والأدبية للعصر الأموي ٦٩
الكتاب الثانى: العصر العباسي ٩٩
الفصل الأول: الوجهة السياسية ١٠١
الفصل الثاني: العصبية والموالي في الدولة العباسية ١٠٧
الفصل الثالث: الدعوة العباسية ١١٧
الفصل الرابع: أبو العباس السفاح ١٢٥
الفصل الخامس: أبو جعفر المنصور ١٣١
الفصل السادس: المهدي ١٤٣
الفصل السابع: الهـــادي ١٥١

الفصل الثامن: هارون الرشيد.. ١٦١
الفصل التاسع: الحياة العلمية في العصر العباسي.................... ٢١٩
الفصل العاشر: الحالة الأدبية في صدر عصر بني العباس............ ٢٢٧
الكتاب الثالث: الأمين والمأمون................................... ٢٥٥
الفصل الأول: محمد الأمين.. ٢٥٧
الفصل الثاني: المأمون.. ٢٨١
الفصل الثالث: النزاع بين الأمين والمأمون.......................... ٢٩٣
الفصل الرابع: الخليفة المأمون....................................... ٣٣٩
الفصل الخامس: الوزارة والأعمال الحكومية في عصر المأمون........ ٣٨٥
الفصل السادس: خلاصة الحياة السياسية والاجتماعية................ ٤٠٣
الفصل السابع: شخصية المأمون...................................... ٤٢٩
الفصل الثامن: الحياة العلمية في عصر المأمون...................... ٤٨٣
الفصل التاسع: الحياة الأدبية في عصر المأمون...................... ٥١٥
الفصل العاشر: نماذج لبعض الشخصيات البارزة في العصر المأموني.. ٥٣٧
الفهرس.. ٦٠٥

طبع بمطابع دار المعارف